هنري كيسنجر

الدبلوماسية

من القرن السابع عشر حتى بداية الحرب الباردة

ترجمة : مالك فاضل البديري



هنري كيسنجر

الدبلوماسية

من القرن السابع عشر
حتى بداية الحرب الباردة

هنري كيسنجر

الدبلوماسية

من القرن السابع عشر حتى بداية الحرب الباردة

ترجمة : مالك فاضل البديري

الأهلية
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٩٩٥م/ ١٤١٥هـ

الأهلية
للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٦٣٨٦٨٨
فاكس ٦٥٧٤٤٥ ◆ منشوراتنا في العام ١٩٩٥ م
◆ الغلاف : زهير أبو شايب .

مقدمـــة الترجمـــة

لو تأمل المرء بتبصر الى دورة التأريخ وشاء أن يفقـه منحاهـا مـذ صـيرورة الكون حتى قيام الساعة ، ستطفق الاجابة ، يقينـاً ، ان الأقـادر الـتي كتـب لها أن تبصـر النـور عظيمهـا وحقيرهـا ، معروفهـا ومنكرهـا ، أدهـا وطفيفهـا ، كـانت مخاضات لأفعال شاءها حفنة ممن يتربعون زمام الحكم ، برغبة أو غير رغبة ، لتنقـد سائر البشرية ثمن هذه المشتهيات .

ان التأريخ ليصنعه القادة والملوك والأنبياء والسياسـيون والرجـال العظـام ، فمثلما هـو يطـوي نـابليون وهتـلر وسـتالين ، يضـرب لنـا أروع المثـل في الأنبيـاء والرسل والكثير غيرهم الذين ملأوا البرية خيراً وبثوا السلام والبركة فيها .

والحديث عن التـأريخ ليدفعنـا للتطرق الى شؤون السياسـة والدبلوماسـية لأنها واجهة الأمم على العالم ، وميناؤها الـذي ترسـي فيـه . فـالذين ولجـوا هـذا الميدان قد اختطت بمسعاهم مصـائر الشـعوب وعلـى شـأن بعضهـا ، وحقـر شـأن آخرين ، ودرت نوق الظفر والنجاح على أمم ، وأدقعت سائرها .

واذا ما سبرنا أغوار الأمور الجلل التي صاحبت أحداث أوروبا وأميركـا في القرون الأخيرة ، لما لهذه الدهور من تفقه سياسـي وتبلـور مفـاهيم السياسـة كمـا تجلت بظهور " مصلحة الدولة " و " توازن القوى " و " عصبة الأمم " واختتمـت بهيئة " الأمم المتحدة " التي تنضوي تحت خيمتها كثير من الدول ، نرى ان السلام كان وسيلة للحرب والحرب تمهيد للسلام . فكل دولة لها " مصلحة " تراهـا مـن

عدستها الخاصة غير آبهة لما سيؤول الأمر ، فدارت رحى حروب لا هوادة فيها سبخت أوروبا ابانها بالدم عن بكرة أبيها .

والذين يرون في السلام مصلحتهم ، يرى سائرهم في الحروب والابادة والفتوحات أعظم المنفعة ، فالمصالح المشتركة والنوايا المتكافئة لن يقدر لها الاستتباب ، مثلما قدر لجمهورية أفلاطون ، الداعية لتساوي البشر وتكافئهم ، ان تظل مقبورة . ان الانسان مسير برغائبه الآمدة .

وهذا الكتاب الذي وضعه شخص له في السياسة طويل باع ومبوأ لا يخفى على القاصي والداني يتصفح الدبلوماسية من أفقها الواسع بدءاً من الشمولية فالتوازن .... فمصلحة الدولة .... فالنظام العالمي الجديد . لقد صور كاتبه ، أروع الصورة ، تاريخ أوروبا السياسي والدبلوماسي ، وتأريخ العالم بمثلى ما يرى في الموشور من تعدد الألوان فكان ناقداً طوراً ، ومحللاً طوراً ، ومستعرضا الأحداث بكل دواخلها وبواعثها وما يحاكى وراء كواليسها في الطور الثالث .

اننا لا ننفي الدور الذي تبوأته أميركا في الساحة الدولية مع استهلالة هذا القرن وتمتعها بالديمقراطية مذ وضعت الحرب الأهلية أوزارها . انها ، في حقيقة الأمر قد خالفت جيرانها ، منذ أن استوى على عرشها جورج واشنطن فشاء لها أن تكون منارة لسائر العالم في ديمقراطيتها وهيكلتها وعظيم شأوها .

لقد سعى الكاتب الى نعت الرؤساء الذين توارثوا هذه الأمة لكأنهم للحق جبلوا ، عن الرجس عصموا ، للسلام بعثوا ، فانبرى ، كدأب كثير من كتّاب

أميركا ناقداً غيره في الحروب التي أضرموها ، مبرراً ومعظماً هذه الحروب لو ولجتها أميركا .

لقد برر على أرض الواقع دور أميركا في الحربين الكونيتين أعظم التبرير ناسياً ومتغافلاً شرور هذه الحروب ، وصور أن أميركا قد كتب عليها هذا الأمر لا مضت اليه بأقدامها . ان توازن القوى وايقاف زحف قوة عظيمة ما لا يبرر ما فعلته أميركا في هيروشيما ونكازاكي ، وفي فيتنام وكوبا ، وفي سائر أرجاء المعمورة ، لأن الذي يفني أمة بأبشع سلاح وأهوله ليس له أن يقيم من التوازن ذرة .

ان الرشليوية الأميركية قد جسدت عظيم أعمالها ، بخلاف ما كان يدعيه الكاتب ، لأن في كل بقعة لها فيها منفعة ، لها قبس من روحها ، والمتبصر لحرب الخليج وما حاكته هذه الأمة العظيمة من مؤامرات وملابسات تمتد حتى هذا اليوم في حصار ظالم على شعب ضحية ، لن ينخدع أن بواعث هذه الأمة لمجرد بغض العدوان .

ان الثمن الذي طلبته أميركا لقاء نظام جديد تقيمه ، حسب مرآتها ، آلاف الضحايا ينبغي أن ينقده الفيتناميون والكوبيون والعراقيون .

ورب سائل يسأل ما هي الدبلوماسية الحقة ؟ وأنى تنحى ؟ ومن هو الدبلوماسي الحذق ؟ .... ؟ ان الاجابة لن تطفو الى السطح ظاهرة تماماً ، بمثلى سبيل الدبلوماسية المعتور رياءً ومكراً ونفاقاً . انه ليحق الحق أو يزهق الباطل بأعظم هيئة يشاءها الكل ، فالحق هنا لا يحصحص الاّ من معه القوة وتبريراً لما

يفعــل ...... انها شريعة غاب أوسع يستنطق فيها الأسـد فريسته قبـل أن يـأتي عليها .

اننا اذ نستشعر الأسى لمن يرزحون ضحايا لخطايا ما اقترفوها سيعترينا أشد الألم بمصائر الشعوب التي دفعت ثمن الحيل الماكرة . فالذي يدافع دون وطنه أعظم الدفاع وأبسله لنال حقاً عليا المنازل التي أجمعت عليها كافـة الشـرائع السـماوية . لقد خرج لنا القرن العشرون بشخص هتـلر مضـرم لأهـول حـرب شـهدتها هـذه البسيطة ، ولم تـني الأقـوال والأحـداث تقـال وتذكـر وتسـترد ..... لكأنهـا ابنـة البارحـــة . والجرم الذي حمله هتلـر ، وأعنـــاق الملايين الذين يحمل وزرهـم ، لمبعثه ، من ناحيـة ، أوروبـا . لقـد شـاء أن يتوسـع كـدأب جيرانـه الذيـن شـدوا الرحال غرباً وشرقاً ، شمالاً وجنوباً ، فحصل الذي حصل ، لأنه جهر بالقوة ، وبز جيرانه بالقوة وآتى على ما يملكون بالقوة .

ان الثمن التي دفعته فرنسا وبريطانيا وسائر أوروبا في الحربين العالميتين كان لقاءاً لملايين الأرواح التي أزهقتها في كافة أرجاء المعمورة تحت نير احتلالها . لقــد قدر لها أن تتذوق طعم الاحتلال وذلـه بـالصورة المختمـرة في ذاتهـا لمـا آنسته في عيون المحتلين وتذمرهم واذلالهم . لقد صاغت " مصلحة وطنها " بمثلى مـا شـاءته الدبلوماسية فكست الاحتلال بثياب منافقة ليغدو انتداباً أو محمية أو أي ضرب من دبلوماسيتهم المنافقة ، ودفعت الشعوب من دمائها عبير هذا الرياء .

ان دورة التـأريخ تكـاد تكـون واحـدة ، كــدأب ســاعة الزمــن ، كــأن الشـخوص والأحـداث تتكـرر في درامـا الكـون . لقـد طالعنـا التـأريخ في سـفره

أشخاصاً عظاماً بمبادئهم ، وقواد مكرة ليس لهم في الحق أدنى مبدأ يصيرون الحق باطلاً والباطل حقاً ، فأمسوا هم الدبلوماسيين الحقيقيين ، فالتصرم في الحق بنظرهم لا يتناغم مع ما لأمور السياسة من مناح ، وأخيراً أقول طوبى للذين يقول التأريخ أنهم عاشوا فعمروا ، ولدوا فأنجبوا ، علموا ففقهوا ، ظلموا فأعدلوا سألوا فلبوا ، عدموا فيسروا ،

ولأمانة الترجمة أقول أنني قد ترجمت مصطلح Persian Gulf بـ (الخليج العربي) لا (الخليج الفارسي) ،

أسأل الله أن أكون قد وفقت في عملي هذا ومن الله التوفيق ،

المترجم

مالك فاضل البديري

الفصـــل الأول

النظـــام العالمـــي الجديـــد

يبدو كأنه قانون الطبيعة الذي يشـاء لأمـة ما أن تطفق في كل قرن لتغدو الأمـة ذات القوة والارادة والزخـم العقلـي والأخلاقي القادرة بفضل جمع العوامـل هذه على تأخير النظام العالمي برمته وفقا للمعايير الخاصة بها . فقـد أخـرج القـرن السابع عشر تحت حكم الكاردينال (رشليو) الطراز الحديث من العلاقات الدولية القائم على مفهوم دولة الأمة والعامل وفقـا لمبـدأ أن المصلحـة الوطنيـة هـي الغايـة الأسمى - ثم حـــل القـــرن الثامن عشـــر فوسعت بريطانيا العظمى مفهـوم (توازن القوى) الذي هيمـن علـى الدبلوماسـية الأوروبيـة علـى مـدى السـنوات المائتين اللاحقة . وخلال القـرن التاسع عشر أعـادت النمسـا في عهـد (مـترنيخ) بناء الأسرة الأوروبية التي فككك أواصرها (بســمارك) في مسـعاه اعـادة تشـكيل الدبلوماسية بهيئة مباراة سياسة القوة تجري احداثها عن سابق اصرار .

لقد أسدل القرن التاسع عشر سداله وقدم القـرن العشـرون ومنـه ارتقـت الولايات المتحدة المسرح الدولي الذي لم يشهد لحجم تأثيرها الحاسم والمتأرجح في أحايين معينة على العلاقات الدولية نظيراً . فليس من شعب أكثر من شـعبها أصـر بحزم على رفض مفهوم التدخل في الشؤون الداخلية للـدول الأخـرى وليـس أكـثر منه تعطشاً لتطبيق قيمه عالمياً . وليس سـواها أشـد واقعيـة في تسـيير الدبلوماسـية

يوما بيوم أو أكثر أيديولوجية في السعي وراء قناعاتها الأخلاقية التاريخية ، وما من أمة أكثر منها بغضا لمبدأ التدخل الخارجي حتى وان وصلت اليوم في تحالفاتها والتزاماتها الخارجية حدودا وافقاً لم يشهدها التاريخ من قبل .

لقد تمخضت الخصوصيات التي انسبتها الولايات المتحدة لنفسها على مدى تاريخها عن موقفين متناقضين حيال الدبلوماسية الخارجية . أولهما أن أمريكا ستخدم قيمها على أحسن وجه عبر تطبيقها للديمقراطية في عقر دارها على أكمل وجه لتغدو عندئذ منارة لباقي البشرية . وثانيهما أن القيم الأميركية تفرض على البلاد التزاما على نشرها حول العالم . وأميركا اذ تتمزق بين الحنين الى الماضي القديم البدائي وبين الرثاء لمستقبل مكتمل ، شرع الفكر الأمريكي يتذبذب بين الانعزالية والالتزام برغم حقيقة ان واقعيات الاستقلالية كانت هي المهيمنة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية .

لقد رسمت كلا المدرستين الفكريتين - أميركا بصفتها منارة وبصفتها ناشرة لأفكارها - نظاما دوليا كونيا قائما على الديمقراطية والتجارة الحرة والقانون الدولي ، حتى بدا هذا النظام لبعض المجتمعات لأنها لم تر مثيلا له من قبل طوباوياً وساذجا في أحايين أخرى . ومع هذا لم تغتل تلك الشكوك الخارجية مثالية (وودرو ولسون) و (فرانكلين روزفلت) أو (رولاند ريغان) بل وجميع الرؤساء الأميركان خلال القرن العشرين . وأن كان لهذه الشكوكية أن تسفر عن شيء فهو أنها رسخت الولاء الأميركي لحقيقة أن التاريخ يمكن قهره وان العالم أن شاء السلام فعليه الأخذ بالمباديء الأخلاقية الأميركية .

تجسد كلا المدرستين الفكريتين ولادة التجربة الأمريكية . فليس من جمهورية – برغم كثرتها – قد خلقت مدركة أنها الحامي لفكرة الحرية . وما غير الشعب الأمريكي قد اختار السير حثيثا صوب قارة جديدة وترويض بريتها باسم الحرية والازدهار غايتين للجميع . ومن هنا نستشف أن المدرستين وان تضادا شديداً في قشرتهما الخارجية يعكسان ولاءً جوهرياً مشتركاً هو أن الولايات المتحدة قد ملكت نظاما عالمياً في الحكومة هو الأفضل وان بوسع باقي البشرية بلوغ السلام والازدهار لو تخلت عن الدبلوماسية التقليدية وثبتت نهج الاحترام الأمريكي للقانون الدولي والديمقراطية .

مثلت المرحلة الأميركية عبر السياسات الدولية انتصاراً للولاء على التجربة . فأميركا قد دخلت محفل السياسات الدولية عام ١٩١٧ وهي الأرجح في القوة والأشد قناعة بأحقية مبادئها وأن كبرى الاتفاقيات الدولية لهذا القرن قد أطرتها القيم الأميركية – ابتداءً من عصبة الأمم مروراً بميثاق الأمم المتحدة وصولاً الى اتفاقية هلنسكي الأخيرة . لقد جسد انهيار الشيوعية السوفيتية الدفاع الفكري عن المبدئية الأميركية وأفضى – ويا للسخرية – بأمريكا وجهاً لوجه أمام نوع من العالم سعت ولما تزل الى الهروب عنه عبر جميع فصول تاريخها . وفي هذا ، ومن النظام الدولي الناشيء ، نالت القومية حقنة منشطة جديدة ، فالأمم قد لهثت تكرارا وراء المصلحة الذاتية أكثر من سعيها وراء المبدأ الفكري الثاقب ، وهي قد نضحت دوما عرق المنافسة أكثر من المشاركة – وثمة كسر من دليل هش أن هذا السلوك العتيق الطراز قد تغير أو أن أفق تغييره تلوح ممكنة في العقود القادمة .

ان الجديد في النظام العالمي الناشيء أن أميركا – وللمرة الأولى – أمست عاجزة عن الانسحاب من العالم وأضعف من الهيمنة عليه ، فهي لا تستطيع تغيير الطريق الذي أدركت من خلاله دورها عبر تاريخها وليس لها أن تفعل ذلك . وهي يوم دخلت المحفل الدولي ، كانت عندئذ يافعة وقوية معا استطاعت بفعل قوتها أن تصنع عالما يتوافق ورؤيتها للعلاقات الدولية . وساعة وضعت الحرب الكونية الثانية أوزارها عام ١٩٤٥ ، نالت أميركا من القوة لاحت معها وكأن القدر شاء لها صياغة العالم وفقا لأولوياتها . (ففي الجانب الاقتصادي فقط ، شكل الانتاج الأمريكي ٣٣٪ من اجمالي الناتج العالمي انذاك) .

وفي عام ١٩٦١ ، أعلن الرئيس الراحل (جون كنيدي) أن أميركا قوية حتى بوسعها أن " تدفع أنيّ ثمن وتحمل أشد عبء " لتضمن نجاح الحرية . وبعد عقود ثلاثة طويت ، أضحت الولايات المتحدة في موقف أقل من تأهيلها لنيل كامل رغباتها أو الاصرار عليها ، فيما صعدت دول أخرى الى مصاف القوى العظمى ، وهي اليوم تواجه تحديات تحقيق أهدافها على مراحل تجسد الواحدة منها مزيجا من المباديء الأمريكية وضروريات السياسة الطبيعية وأحدها أن العالم المؤلف من عديد الدول ذات القوى المتناظرة يجب أن يرسي دعائم نظامه وفقا لمبدأ التوازن – وهو المفهوم الذي لم تشعر الولايات المتحدة معه قط بالراحة .

طفقت الفوارق في التجربة التاريخية جلية في مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩ يوم تواجه التفكير الأمريكي حيال السياسة الخارجية مع التقاليد الدبلوماسية الأوروبية . اذ لم يأل القادة الأوربيون جهداً في مسعاهم تجديد النظام الدبلوماسي القائم وفقا للمعايير المألوفة فيما أيقن صناع السلام الأميركان أن

الحرب العظمى قد نتجت ليس من صراعات الطبيعة السياسية المتداخلة فيما بينها ، بل من التدفق المتواز للممارسات الأوروبية ، وفي هذا أخبر (وودرو ولسـون) في حديثه الشهير الذي تضمن أربع عشرة نقطـة الأوروبيـين وجوبيـة أن يقـوم النظـام الدولي لا على توازن القوى بل على مبدأ حـق تقريـر المصـير العرقـي ، وأن الأمـن الأوروبي لا ينبغي أن يقوم على أسلوب التحالفات العسكرية وانما على مبدأ الأمن الجماعي وأن الدبلوماسية الأوروبية آن لها أن تسير على طريق ((الاتفاقيات المعلنة ذات الطريق المعلن للوصول اليها)) أكثر من ولوجها أسلوب السرية الذي يصنعـه لها نفر من الخبراء . ومن هذا نستشف أن ولسون لم يصب جل أمره على مناقشة شروط انهاء حرب ما أو تحديد النظام الدولي القـائم بـل كـان أقـرب الى اعـادة سبك كامل نظام العلاقات الدولية التي سلخت على أسلوب نهجهـا ثلاثـة قـرون متتالية .

لقد أنسـب الأميركـان لأنهـم أكـثر انعكاسـا للسياسـة الخارجيـة الكـدح الأوروبـي الى نظـام تـوازن القـوى . وعليـه تطلـع قـادة أوروبـا بعـد أن أقلقـت مضاجعهم السياسة الخارجية الأميركية شزراً الى المهمة الأميركية الذاتية بالاصلاح العالمي – فتصرف كل طرف وكأن الطرف الآخر قد اختار بمحض ارادتـه طريقـه في السلوك الدبلوماسي وأن بوسعه ، حيثما بدا الأمر صائبـا ، انتقـاء سـلوك آخـر أكثر قبولاً من سابقه .

بيـد أن الصـائب مـن الأمـر أن كـلا السـلوكين الأمـيركي والأوروبـي في السياسة الخارجية هما مـن بنـات الظـروف المتفـردة الخاصـة والمحيطـة بكليهمـا . فالأميركان قد استوطنوا قـارة شبه خاليـة يحصنهـا ضـد القـوى المفترسـة الكـبرى

محيطان ويحيطها كجيران دول ضعيفة الحال . وأميركا اذ لم تواجه قوة في مسعاها لبلوغ التوازن ، فهي لم تشغل حالها بتحديات التوازن حتى وان سكن قادتها المفهوم الغريب بطي الظروف الأوروبية أمام شعب أدار ظهره الى أوروبا .

ظلت أميركا بمأمن عن طامة معضلات الأمن التي طالت بكربها الأمم الأوروبية على مدى مائة وخمسين عاماً ، واذ بلغها الكرب ، دخلت أميركا حربين عالميتين أشعلت فتيليهما الدول الأوروبية نفسها ؛ وفي كل مرة وساعة تخوض أميركا غمار الحرب ، يكون توازن القوى قد فشل في العمل آتياً معه بالمفارقة التالية : ان توازن القوى الذي يبغضه معظم الأميركان دوما ما ضمن الأمن الأميركي طالما هو قد عمل كما شيء له وان انهياره دوماً ما جاء بأميركا الى محفل السياسات الدولية .

لم تشأ الأمم الأوروبية لتوازن القوى أن يكون وسيلة لتنظيم علاقاتها بعيداً عن نهجها السليقي في الخصام وعن حب العالم القديم للخداع . فان كان التأكيد على الدبلوماسية وعلى القانون الدولي ولادة الاحساس الأميركي المتفرد بالأمن ، فان الدبلوماسية الأوروبية قد خدعت بمدرسة القرقعة المدوية .

لقد قذفت أوروبا بنفسها الى سياسات توازن القوى ساعة انهار اختيارها الأول الذي استقته من أحلام القرون الوسطى بامبراطورية عالمية فصعدت كثر من الدول المتفاوتة في حجم قوتها من حطام ذلك الانهيار ومن بقايا ذلك الطموح القديم . وحين تضطر مجموعة من دول بمثل هذا الترابط الجسدي الى التعامل بعضها مع البعض الآخر ، فحتمية ذلك نتيجتين كلاهما محتمل . اما ان تستحيل

أحدها الى قوة كبرى ستهيمن على الأخريات وتخلق لنفسها امبراطورية واما ان تفتقر جميعها الى القوة الكامنة لبلوغ هذه الغاية ، وهنا سيكبح خيلاء أشد أعضاء المجتمع الدولي عدوانية تظافر بقية الأعضاء معاً أو بمعنى آخر أنه توازن القوى الذي سيكبح تلك الخيلاء .

ولم يرج من نظام توازن القوى ضمان تفادي الأزمات أو حتى الحروب. فهو أن عمل في أحسن حاله ، انما أراد تقويض قدرة الدول على الهيمنة وتحجيم أفق النزاعات . وما كان قط هدفه السلام أكثر من الاستقرار والاعتدال في السلوك ، وهو قول يعني تحديداً أن نظام توازن القوى أعجز عن ارضاء جميع أعضاء النظام الدولي تماماً ، وأن أعظم انجاز له سيكون نجاحه في ابقاء عدم الرضا في مستوى لا يرتأي فيه الطرف المسلوب حقه تخريب النظام الدولي .

غالباً ما ترك منظرو نظام توازن القوى الانطباع أن هذا النظام هو الشكل الطبيعي للعلاقات الدولية . وحقيقة الأمر ان نظاماً كهذا نادراً ما تواجد في التاريخ الانساني سواء أكان تاريخ نصف الكرة الغربي أم تاريخ الصين المعاصرة منذ أن انتهت حقبة الدول المحاربة قبل ألفي سنة . اذ جسدت الامبراطورية للانسانية في غالبيتها وللتاريخ في أطول حقبة النموذج المثالي للحكومة ، والامبراطورية بعينها لا تمتلك النزعة للعمل في اطار النظام الدولي ، بل هي تسعى لتكون النظام الدولي ، وهي ليست بحاجة لتوازن القوى ، وهكذا أفادت أميركا سياستها الخارجية في القارة الأمريكية والصين في آسيا في أغلب حقب تاريخها .

وفي الغرب ، تجسدت نماذج النظام العادل لتوازن القوى حصراً في الـدول المدينية لليونان القديمة وايطاليا في عصر النهضة الأوروبيـة ، وكذلـك نظـام الدولـة الأوروبية الذي ظهر على أثر (سلام وستفاليا) عام ١٦٤٨ . أما الامارة المميزة لهذه الأنظمة فهي أنها رفعت حقيقة الحياة - وجـود عـدد مـن الـدول ذات القـوة الكامنة المتكافئة - الى مبدأ هو دليل عمل النظام العالمي .

كما يعكـس مفهـوم تـوازن القـوى مـن الجـانب الفكـري قناعـات أكـبر مفكـري السياسـة أبـان عصـر التنويـر - فهـم يـرون أن الكـون ، بضمنـه الجـزء السياسي ، قد عمل وفقاً لمباديء عقلانية يـوازن أحدهـا الآخـر ، وهـو مـا يمكـن تفسيره أن الأعمال العشوائية لحصفاء الرجال سـتصب للصـالح العـام في مجموعهـا برغم أن برهنة هـذا الافتـراض قد بدا محيراً في قرن شهد صراعاً متواصلاً ألحـق (حرب الثلاثين عامـاً) .

يقـول (آدم سمـث) في كتابـه (ثـروات الأمـم) أن " يـداً خفيـة " ستستقطـر الثراء الاقتصادي العام بعيداً عن الأفعـال الاقتصاديـة الأنانيـة للافـراد ، فيمـا يجـادل (مادسـون) في كتابـه (الأوراق الفدراليـة) أن الجمهوريـة المترامية الأطراف و (الطوائف) السياسية المختلفة اللاهثة وراء مصالحها الذاتية لا سـواها ستصوغ بنوع من الآلية الذاتية تناسقاً محلياً مناسـباً ، وهنـا تعكـس مفـاهيم فصـل السلطات ومراقبة توازن القوى كما جسدها الدستور الأمريكـي نظـرة تـوأم . اذ كان غرض مفهوم فصل السلطات تجنب سلطة الفرد لا بلـوغ حكمـا متناسـقاً . فكل فرع في الحكومة في مسعاه تعقـب مصالحـه الذاتيـة سيجد نفسـه متعـثراً في بلوغ هذا وبالتالي سيخدم الصالح العام ، وذات المبدأ يمكـن تطبيقـه علـى الشـؤون

الدولية ، فيما كان متوقعاً من كل دولة وهي تسعى لتحقيق مصالحها الخاصة المساهمة في التقدم العام وكأن يداً غير مرئية كانت تضمن حرية الاختيار لكل دولة تبغي الرفاهية للجميع ٠

لقد بدا وعلى مدى أكثر من قرن أن هذا التوقع قد بان حقيقة ٠ فبعد حقب الاضطراب التي سببتها الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية ، استعاد قادة أوروبا توازن القوى في (مؤتمر فيينا) عام ١٨١٥ وخففوا من حدة الاعتماد على القوة عبر محاولتهم الوصول الى سلوك دولي معتدل من خلال الالتزامات القانونية والاخلاقية ، ومع هذا ، عاد نظام توازن القوى الأوروبي الى مباديء سياسات القوى مع نهاية القرن التاسع عشر ، فأمست مواجهة الخصم الأسلوب القياسي في الدبلوماسية ومفضية الى استعراضات متعاقبة في القوى ، حتى حل عام ١٩١٤ ومعه نشبت أزمة طالت معها جميع الأطراف ٠ واذ انتهت كارثة الحرب العالمية الأولى ، لم تستطع قط أمم أوروبا أن تستعيد عافيتها تماما فيما ظهرت الولايات المتحدة اللاعب المهيمن ٠ بيد أن الرئيس وودرو ولسون جعل الأمر جليا أن بلاده قد رفضت أن تلعب وفقاً للقواعد الأوروبية ٠

لم تساهم أميركا في أي وقت من تاريخها في نظام توازن القوى ، فهي قد انتفعت من عملية توازن القوى قبل الحربين العالميتين دون أن يكون لها ضلع في مناوراتهما ٠ وخلال الحرب الباردة ، انغمست أميركا في صراع أيديولوجي وسياسي واستراتيجي مع الاتحاد السوفيتي وفيه عملت القوتان العظيمتان وفقاً لمباديء مختلفة تماما عن مباديء نظام توازن القوى ٠ ففي عالم ذي قطبين ، ليس من قول أن صراعاً ما سيقود الى الصالح العام ، فمصائب قوم عند قوم فوائد ٠

غير أن ما حققته أميركا من الحـرب البـاردة أنهـا نـالت الانتصـار دون أن تخـوض غمار حرب ، وهو الانتصار بعينه الذي وضعها الآن أمام مواجهـة القيـاس الأقـرن الذي وصفه (برنادشو) في قوله ((ثمة مأساتين ، أولهما أن تخسر ما يريد قلبك ، وثانيهما ان تنال تلك الرغبة)) .

ظن قادة أميركا في مبادئهم أمراً مقضياً حتى لم يخالهم يومـاً أن عـين تلـك المباديء ربما رآها الآخرون ثورية ومتقلبة . فليس من مجتمع آخـر قـد شـدد علـى تطبيق السلوك الأخلاقي على السلوك الدولي بمثل ما أرادوهـا للسـلوك الفـردي - وهو المفهـوم الـذي يقف تماماً على طرفي نقيض أمام مبدأ (مصلحة الدولـة) لـ (رشليو) . لقد حافظت أميركا على مفهوم أن منـع الحـرب هـو أمـر قـانوني كالتحدي الدبلوماسي وأن ماهية الشيء الذي تسعى مقاومته سيما استخدام القوة ليس تغييراً بقدر ما هو سبيلا للتغيير وأن شخصاً مثل (بسمارك) كان سيستهجن الرأي أن السياسة الخارجية انما هي حول الأسلوب أكثر منه حـول الجوهـر ، هـذا ان كان سـيفهم هكـذا رأيـاً . وليـس مـن أمـة قـد فرضـت علـى ذاتهـا المطـالب الأخلاقية بحجم ما فعلت أميركا . وليس من بلد سواها قد مزق حاله حول الهـوة بين القيم الأخلاقية وهي قيم مطلقة وبـين العيـب المتـأصل في المواقـف الثابتـة الـتي سيتحتم تطبيق تلك القيم عليها .

كان النهج الأمـيركي الفريـد في السياسـة الخارجيـة أبـان الحـرب البـاردة الوسيلة الأمثل لطبيعة التحدي آنذاك الذي تميز بكونه صراعاً عقائدياً عميق الجذور ملكت أميركا لا سواها الوسائل الوقائية السياسية والاقتصاديـة والعسـكرية لصـده وتنظيم الدفاع عن العالم غير الشيوعي . وأمة كهذه لقادرة على التمسك بآرائهـا

ودوماً ما استطاعت ان تنأى بنفسها عن المعضلة التي ما بـرح يواجههـا قـادة دول أخرى والمتمثلة بحقيقة أن وسائلهم قـد حتمـت عليهـم السـعي وراء أهـداف أقـل طموحاً من آمالهم وأن ظروفهم دوماً ما فرضت عليهـم تحقيـق تلـك الأهـداف في خطوات متعاقبة .

وفي الحرب الباردة قد تداعـت تمامـا المفـاهيم التقليديـة للقـوة ، فكـل مـا تكشف عن التاريخ تركيبة مـن القـوة الاقتصاديـة والعسـكرية السياسـية أثبتـت في اطارها العام أنها متجانسة . فيما تجلت العناصر المختلفـة للقـوة في حقبـة الحـرب الباردة أنها في تمام الاختلاف . اذ طفق الاتحاد السوفيتي السابق عملاقـاً عسـكرياً وقزماً اقتصادياً في الوقت ذاته ، وكان الحيز رحبـاً أمـام بلـد مـا ان يغـدو عملاقـاً اقتصادياً ليس له والعسكرة ناقة ولا جمل كما هو حال اليابان .

وسيشهد عالم ما بعـد الحـرب البـاردة تناسـقاً متزايداً مـا بـين عناصـره المختلفة . اذ ستأخذ القوة العسكرية النسبية للولايات المتحدة بالتداعي ، وسيعمل غياب الخصم الكبير على أحداث ضغط داخلي سينقل بدوره المصادر من الأغراض الدفاعية الى أولويات أخرى – وهي العملية التي بدأت خطواتهـا العمليـة . واذ لم يعد هناك أي تهديد حقيقي ، ويوم بدأت البلـدان تنظـر الى أركانهـا مـن أبعادهـا الوطنية ، شعرت شعوبها التي استفاءت يوما بظل الحماية الأمريكية أن الساعة قـد أزفت لتضطلع هي بمسؤوليات جسام حيال أمنها . وعليـه ستتجه معادلـة النظـام الدولي الجديد الى التوازن حتى في الميدان العسـكري برغـم أنهـا عمليـة قـد تسـلخ عقوداً من الزمن لتصل هذا الأمر . وستصح هذه النزعات في المجالات الاقتصاديـة

أيضاً حيث شرعت حقاً الهيمنة الاقتصادية الأمريكية بالانحلال وحيث سيكون الأآمن للآخرين تحدي الولايات المتحدة .

ستلوح امارة التناقض جلية على وجه النظام الدولي للقرن الحادي والعشرين . فبينما نراه متشظياً من جانب ، سينمو في الكوننة من الجانب الآخر . اذ سيكون النظام الجديد على مستوى العلاقات بين الدول أقرب الى النظام الأوروبي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر منه الى النمط الصارم للحرب الباردة – ضاماً في أقل تقدير ست قوى عظمى هي الولايات المتحدة وأوروبا والصين واليابان وروسيا وربما الهند بالاضافة الى جمع من الدول متوسطة الحجم والصغيرة . وفي عين الوقت ، أضحت العلاقات الدولية كونية حقا وللمرة الأولى في مسيرتها . فالاتصالات آنية والاقتصاد العالمي يعمل في جميع القارات مرة واحدة ، كما تم التعامل مع العديد من القضايا التي ظهرت على الساحة وفقاً لقواعد دولية مثل التسلح النووي والبيئة والانفجار السكاني والاستقلال الاقتصادي المتداخل .

لأميركا سيغدو أمر التسوية بين القيم المختلفة وبين التجارب التاريخية المختلفة بين الشعوب ذات الأهمية المتقاربة تجربة جديدة وابتعاداً كبيراً عن عزلة القرن الماضي أو عن هيمنة الأمر الواقع للحرب الباردة وعبر طرائق سيعمل هذا الكتاب على ابرازها . وكالحال الأمريكي ، سيواجه كبار اللاعبين الآخرين مصاعب في التكيف مع النظام العالمي الجديد .

لقد اخترعت أوروبا وهي الجزء الوحيد من العالم الحديث الذي عمل وفقا لنظام تعدد الدول مفاهيم دولة الأمة والسيادة وتوازن القوى ، وتلك أفكار قد هيمنت على الشؤون الدولية لثلاثة قرون - بيد أن أياً من دول (مصلحة الدولة) الأوروبية القديمة ليست من القوة ما يكفيها لتغدو مباديء في النظام الدولي الجديد-وهي تعمل تعويضاً لهذا الضعف النسبي على خلق أوروبا موحدة ، لكنها قد تستنزف ما في جعبتها من طاقة في هكذا محاولة ، وان افترضنا لها النجاح في المحاولة ، فليس من خطوط هادية لقيادة أوروبا الموحدة على المسرح العالمي موجودة بين أيديها طالما أن مثل هذا الكيان السياسي لم يكن موجوداً من قبل قط .

كانت روسيا دوما وعلى مدى سفر تاريخها قضية خاصة . فهي دخلت المسرح الأوروبي متأخرة - بعدما قوي عود فرنسا وبريطانيا العظمى كثيراً - و لم يبد منطبقا عليها أي من مباديء الدبلوماسية الأوروبية . وهي قد ضمنت لأنها وقعت على حدود ثلاث حضارات مختلفة في أوروبا وآسيا والعالم الاسلامي سكاناً من هذه الأطياف المختلفة وعليه لم تكن دولة قومية في اطار الشعور الأوروبي . وآنذاك ما فتئت تغير من شكلها كلما ضمّ اليها حكامها أقاليم جديدة حتى غدت امبراطورية ذات معيار خاص اختلفت فيه مع كل الدول الأوروبية . وفوق هذا ، تغيرت ملامح البلاد كلما احتضنت بعد كل غزوة مجموعة عرقية جديدة تماما وذا السبب من بين أسباب وراء الحتمية الروسية على الاحتفاظ بجيش جرار يفوق في حجمه حجم التهديد الخارجي الذي قد تتعرض له البلاد . لقد لعبت روسيا دوراً في التوازن الأوروبي ، لكنها لم تكن قط جزءاً

عاطفياً منه لأسباب يمكن حصرها في حالة التشظي التي عاشتها البلاد بين هاجس اللااستقرار وبين الحماس الى الهداية الدينية من جانب وبين المتطلبات الأوروبية وبين الاغراءات الآسيوية من جانب آخر ، فمتطلبات عمليات الاحتلال والأمن قد اختلطت في عقول قادتها الذين ربضت قوات لهم منذ مؤتمر فيينا على أراضي أجنبية أكثر من أية قوة عظمى أخرى ، وفي هذا يعزي المحللون التوسعية الروسية الى شعورهم باللاأمن ، فيما يرى الكتاب الروس في الاندفاع الروسي الخارجي (مهمة خلاص) . وروسيا ان زحفت في قواتها ، تجلى عليها شعور باللاتوقف ، وان تكبلت في سيرها ، آثرت الانسحاب الى حالة من الامتعاض المتجهم ، فهي دولة سيشهد عليهاسفر تاريخها انها قضية تبحث عن الفرصة .

تجد روسيا ما بعد الشيوعية نفسها داخل حدود لا تعكس من سوابق التاريخ شيئاً . وكشأن أوروبا ، عليها أن تكرس جل طاقاتها لاعادة تعريف هويتها . اينبغي عليها العودة الى ايقاعها التاريخي وتستعيد الامبراطورية المفقودة ؟ أم ستغير مركز الجذب شرقاً لتغدو مشاركا أكثر فاعلية في الدبلوماسية الآسيوية ؟ وبأي مباديء وغايات ستتفاعل مع التغيرات الجارية حول حدودها سيما في الشرق الأوسط المتقلب ؟ ستظل روسيا أساسية في النظام العالمي ، وفي خضم حالة الاضطراب المقترنة حتماً بالاجابة على هذه التساؤلات ، ثمة تهديد كامن للقضية الروسية .

كما تواجه الصين نظاماً عالمياً جديداً عليها ، فالامبراطورية الصينية قد وحدت لحوالي (٢٠٠٠) سنة العالم تحت حكم امبراطوري واحد وهو حكم قد تعثر في أحايين معينة من التاريخ . اذ شهدت الصين حروباً لا تقل عدداً عن

نظيراتها الأوروبيات برغم حقيقة أنها كانت أقرب في طبيعتها الى الحرب الأهلية منه الى الحرب الدولية طالما هي قد وقعت بين متخاصمين حول السلطة الامبراطورية نفسها وهي أفضت ، عاجلاً أم آجلاً ، الى بروز قوة مركزية جديدة .

لم تر الصين ، لفترة ما قبل القرن التاسع عشر بين جيرانها دولة قادرة على منافسة التفوق الصيني و لم تتخيل قط أن تصعد هكذا دولة الى حيز المنافسة . والمحتلون الخارجيون الذين أطاحوا بالسلالات الصينية قد وجدوا أنفسهم يتشربون بالحضارة الصينية حتى باتوا استمراراً لتقاليد المملكة الوسطى . والصين لم تعرف مفهوم تكافؤ السيادة بين الدول ، بل هي قد رأت في غير شعبها برابرة ونزلت بهم الى علاقة دولة الجزية - وهكذا استقبلت بكين أول سفير بريطاني اليها في القرن الثامن عشر - ومع ذلك ، كانت تلك استيراتيجية طوارىء وليس نظام عمل يومي كحال نظام توازن القوى الأوروبي ، وهي استيراتيجية قد فشلت في خلق نوع من سمات المؤسسة الدبلوماسية الأوروبية الدائمة . واذ حل القرن التاسع عشر وأضحت الصين ركناً مهملاً في عملية الاستعمار الأوروبي ، عادت وظهرت مؤخراً ، بعد الحرب العالمية الثانية ، في نظام عالم متعدد الأقطاب الذي لم يشهد له تاريخها نظيراً من قبل .

وقطعت اليابان نفسها عن أي اتصال مع العالم الخارجي و لم تتنازل على مدى خمسمائة عام قبل فتحها على يد (كومودور بيري) عام ١٨٥٤ لأي توازن بين البرابرة الخارجيين أحدهم ضد الآخر أو أن تقيم معهم علاقات جزية كما فعلت الصين . وظلت تباهي نفسها بعد أن أوصدت عليها أبواب العالم الخارجي

بعاداتها المتفردة وأرضت تقاليدها العسكرية بالحرب الأهلية وأقامت بنيتها المحلية على الاعتقاد أن حضارتها المتميزة كانت حصينة ضد التأثير الخارجي وهي ستطيح بهذا التأثير بدلا من أن تهضمه .

وفي خضم الحرب الباردة ، يوم كان الاتحاد السوفيتي التهديد الأمني الدائم ، نجحت اليابان في التسوية بين سياستها الخارجية وبين السياسة الأميركية التي تفصلها واياها الاف الأميال . أما النظام العالمي الجديد بما ينطوي عليه من كثر تحديات سيجبر حتماً دولة تمجد ماضيها أن تعيد النظر بصيغة الاعتماد على حليف واحد . وهي أقرب اليوم للصيرورة أكثر حساسية لتوازن القوى الآسيوي من التوازن الأميركي الواقع في نصف كرة مختلف تماما تواجه واياه ثلاثة اتجاهات - عبر الأطلسي ، والهادي وباتجاه أميركا الجنوبية . وستطالب الصين وكوريا وجنوب شرق آسيا من اليابان مدلولا مختلفاً تماماً عن سابقه وأكثر من مطالبتهم بمدلول أميركي جديد وسيفتحوا سياسة يابانية خارجية أكثر استقلالية واعتماداً على الذات .

تتجلى سياسة الهند الخارجية الآن وقد أخذت بلادها تنشأ قوة كبرى في جنوب آسيا في نواحي عديدة كأنها المرحلة الأخيرة من الاستعمار الأوروبي في عنفوانه تخمرها تقاليد الحضارة القديمة . فلم تشهد شبه القارة هذه وقبل وصول بريطانيا اليها حكما أخذ بها كوحدة سياسية مستقلة . وهكذا تم انجاز الاستعمار البريطاني بقوات عسكرية صغيرة بعد أن رأى فيه السكان المحليون بادىء الأمر بديلا عن مجموعة سابقة من المحتلين . لكن الامبراطورية البريطانية وبعد أن أرست دعائم الحكم الموحد في الهند قد هزل شأنها على يد عين قيم الحكومة الشعبية

والقومية الثقافية التي استوردتها للهند . ومع هذا ، تمثل الهند بصفتها دولة – أمة القادم الجديد الذي يفترض به أن يلعب دوراً في المسرح السياسي الدولي يتوافق وحجمها بعد أن الهت الهند نفسها أبان الحرب الباردة في حركة عدم الانحياز لأسباب أهمها صراعها الدائم مع مشكلة اطعام الأعداد المهولة للسكان .

وعليه ، لا يلوح من الناحية الفعلية أن دولة ذات شأن في عملية بناء نظام دولي جديد تخبر تجربة مع نظام تعدد الدول الناشيء الآن – فلم يشهد التاريخ الماضي نظاماً عالمياً استجمع العديد من الادراكات المختلفة أو أنه بلغ هذا الحجم من المعيار العالمي – ولم يتوجب على أي نظام سابق أن ينطوي على خصائص أنظمة توازن القوى عبر التاريخ مع الرأي الديمقراطي العالمي وكذلك التكنولوجيا المتفجرة للمرحلة المتزامنة .

من هنا يبدو أن جميع الأنظمة الدولية تملك تناظراً حتمياً . فما أن يقام نظام دولي حتى غدا الأمر عسيراً أن يتخيل المرء كيف سيرتقي التاريخ من خلاله وكيف سيصنع الخيارات الأخرى أو حتى ان كانت تلك الخيارات أو غيرها ممكنة . وما أن يظهر الى الوجود نظام دولي جديد ، تفتحت أمامه العديد من الخيارات . بيد أن كل خيار سيغلق أمام العالم الخيارات الأخرى . ومع هذا تأخذ الخيارات الأولى تحديداً طابع القساوة لسبب بسيط هو ان التعقيد يردع المرونة . وسواء كان النظام الدولي مستقراً نسبياً كالذي نشأ من مؤتمر فيينا أم كان شديد التقلب كالأنظمة التي ظهرت على أثر سلام وستفاليا ومن معاهدة فرساي فهذا أمر انما يعتمد على الدرجة التي سيفلح فيها في التسوية بين ما يجعل شعباً يشعر بالأمن وبين ما يجعله يدرك العدالة .

تحلى النظامان الدوليان الأكثر استقراراً – وهما النظام الناشيء عن مؤتمر فيينا والنظام الـذي فرضته الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الأولى – بميزة الادراك الموحد . فقد كان زعماء مؤتمر فيينا ارستقراطيين جميعهم نظر الى المجردات من الزاوية نفسها وجميعهم أقروا الأساسيات . فيما صعد زعماء أميركا الذي صبوا قالب عالم ما بعد الحرب من تقليد فكري ذي حيوية وتجانس استثنائيين .

ان النظام العالمي الناشيء الآن ينبغي أن يضع حجر أساسه قادة دول يمثلون حضارات مختلفة . انهم يديرون بيروقراطيات تبلغ من التعقيد قد يستنزف من طاقات أولئك القادة جلها خدمة لماكنة الادارية لا وصولاً لهوية غاياتهم . انهم قد بزغوا بفضل خصال فيهم ليست ضرورية لآلية الحكم وربما كانت أقل ملاءمة لبناء نظام دولي . والنموذج الوحيد المتوفر لنظام تعدد الدول هو الذي أنشأته المجتمعات الغربية والذي قد يرفضه العديد من المشاركين .

ومع ذلك ، تبقى الأنظمة العالمية السابقة المقامة على عديد من الدول – بدءاً من اتفاقية سلام ويستفاليا وصولاً الى عصرنا الحالي – التجربة الوحيدة التي يمكن لنا الاستقاء منها شيئاً في محاولتنا فهم التحديات التي تواجه اليوم رجالات الدول . فدراسة التاريخ لا تقدم دليلاً يدوياً لتعاليم يمكن تطبيقها ذاتياً ، بل هي توعظ عبر المقارنة وتلقي الضوء على العواقب المحتملة للمواقف المقارنة . بيد أن لكل جيل أن يحدد لنفسه أي الظروف المناظرة لسابقاتها .

تنطوي مهمة المنظرين على تحليل عمليات الأنظمة الدولية فيما يتولى القادة بناءها . وثمة فجوة دوما ما فغرت فاها بين نظرتي المحلل ورجل الدولة . اذ ينتقي المحلل المعضلة التي يشاء دراستها فيما تفرض المشكلة نفسها على رجل الدولة ويستطيع المحلل تخصيص الوقت الذي يرتأي كي يبلغ استنتاجاً واضحاً ، بينما يجسد ضغط الوقت التحدي الأكبر لرجل الدولة ، والمحلل لا يركب مطية المخاطرة ، فان جانب الصواب في استنتاجه كتب غيره ، فيما يلوح أمام رجل الدولة ظن واحد وأخطاؤه لا رجعة فيها - كما تنصب أمام المحلل جميع الحقائق وعليه الحكم وفقاً لفطنته وملكته الذهنية بينما ينبغي على رجل الدولة العمل وفقاً لتقييمات لا يمكن برهنتها ساعة تبنيها ، بل هو سيحكم عبر التاريخ على أساس أفق حكمته في ادارة أي تغيير حتمي وفوق هذا في كيفية محافظته على السلام ، وذا هو السبب الذي لا تمثل فيه دراسة الكيفية التي تعامل فيها قادة الدول مع مشكلة النظام العالمي - ما الذي نجح وما فشل ولماذا - نهاية ادراك الدبلوماسية المعاصرة ، برغم انها قد تجسد بدايته .

الفصـــل الثانـــي

الحسم : ثيودور روزفلت أم وودروولسون

خيمت النزعة الانعزالية على سياسة أميركا الخارجية حتى مطلع هذا القرن وخطت ، بعدها ، الى شؤون العالم بفعل عاملين : قوتها المتعاظمة بشكل مطرد والانهيار الرويدي للنظام العالمي المتبؤر في أوروبا . وأرخ رئيسان الحد الفاصل لهذا التقدم : ثيودور روزفلت وودروولسون . تقلد هذان الرئيسان زمام الحكم ولما يجرجر العالم أمة معارضة صوب دوامة شؤونه . كان يقينهما أن لهذه الدولة مضطلع حاسم في قضايا العالم مع أنهما تباينا في فلسفتيهما لتبرير الخروج من الانعزالية .

كان رروزفلت محللاً متطوراً لتوازن القوى وأصر على تبوأ أميركا دوراً عالمياً اقتضاءً لمصالحها وتعذراً لحصول توازن القوى العالمي دون مساهمتها . كان التبرير الذي قدمه ولسون حول مساهمة أميركا ... : ليس في رقبة أميركا التزام ، الى توازن القوى ولكن ينبغي لها نشر مبادئها في كل بقاع العالم . وأبان رئاسة ولسون بانت أميركا ممارساً رئيساً لشؤون العالم وداعية للسلام دون أن تؤرخ انتقالا ثورياً لدبلوماسيات العالم العاهد حتى عندما صورت مباديء الفكر الأميركي . أوعزت هذه المباديء بارتكان السلام الى انتشار الديمقراطية واحتكام الدول ، والأفراد سواسية ، الى المعيار الديني ذاته واذعان المصلحة الوطنية الى منظومة قانون عالمي .

بانت رؤى ولسون عن المباديء الأخلاقية للسياسة الخارجية كأنها ضرب في الشذوذ والهرطقة حيال العرائق الجلدة لدبلوماسية أوروبا المستندة لتوازن القوى . ومع ذلك ما برحت الولسنيه تنبض بالحياة بينما عفا التاريخ على تحفضات محايليه . كان مأصل رؤية المنظمة الدولية العالمية ، عصبة الأمم ، التي تقيم السلام ككتلة جامعة وليس بصيغة الأحلاف . ومكثت فكرته تنبض بالحياه برغم خيبته في اقناع أميركا بحسناتها . ان السياسة الخارجية الأميركية ، فوق كل اعتبار ، معزوفة لمثالية ولسن وظلت تستنير بفكره منذ رئاسته الفاصلة وحتى يومنا هذا .

لم يتطور المفهوم الأميركي الواحد لشؤون العالم دفعة واحدة أو كمحاض للالهام المتفرد . كانت السياسة الخارجية الأميركية ، في السنوات البواكر للجمهورية ، انعكاساً متطوراً للمصلحة الوطنية ، التي تدعو حقيقه الى تحصين استقلال هذه الأمة الحديثة . وطالما عجزت الدول الأوروبية عن أحداق خطر حقيقي لانغماسها بتناحرات مع خصومها . أظهر الأباء المؤسسون لهذه الأمة تأهبهم الكامل لتسخير توازن القوى المزدرى مثلما لبى مصالحهم ، أو في الحقيقة ، أنهم قد حذقوا ، منتهى الحذقة ، في المناورة بين بريطانيا وفرنسا لتعضيد استقلال أميركا وتوسيع حدودها . لقد تبؤوا جانب الحياد لأنهم ما شاؤوا لأحد الطرفين أن يظفر بنصر حاسم في معارك الثورة الفرنسية . وعرف جوفرسن الحروب النابليونية كتناحر بين الطغيان على الأرض (فرنسا) والطغيان على البحر (انكلترا) - وبعبارة أخرى تكافئت أخلاق الأطراف الأوروبية

المتناحرة . وجنت هذه الأمة ، من تبوأ جانب الحياد البكر ، منفعة كـأداة عظيمـة للتفاوض .

لم تسع الولايات المتحدة ، في الوقت ذاته ، الى رفض سبل العالم البـالي في مسألة هجر التوسع الاقليمي . فهي انتهجت ، في أولى أيامهـا ، توسـعاً في الأميركيتين بمرمى غريب الانفرادية . لقد عقدت غـداة عـام ١٧٩٤ سلسـلة مـن المعاهدات وحسمت الحدود مع كندا وفلوريدا لصالحهـا وأطلقـت مصراعـي نهـر ميسسبي للتجارة الأميركية وطفقت تقيم نفوذاً تجارياً أميركياً في جزر الهند الغربيـة البريطانية . تأوج هذا الأمر بصفقة لويزيانا عام ١٨٠٣ حيث أصابت هـذه الأمـة الفتية أراضي شاسعة غير محدودة غربي نهر ميسسبي في فرنسا علاوة على مطالبتها بالمقاطعة الاسبانية في فلوريدا وتكساس – التأسيس الذي يستحيل قوة عظمى .

وعـرض الامـبراطور الفرنسـي نـابليون بونـابرت ، بـائع الصفقـة ، التـبرير الواسم " للعالم البالي " :

" هذا الامتياز سيصلب ، قوة الولايات المتحدة أبـد الدهـر ، لقـد خلقـت خصماً بحرياً لبريطانيا التي ستنحر كبريائها " عاجلاً أم آجـلاً " . تغـاضى الساسـة لأميركان عن تبرير فرنسا لبيع ممتلكاتها فادانه سياسة القوة الخاصة بالعالم البالي قد تناغمت مع التوسع الأميركي الاقليمي عبر شمالي أميركـا . لقـد تطلعـوا الى الثقـل الأميركي غرباً كقضية داخلية وليس شأناً للسياسة الخارجية .

وفي هذا المضمار أدان جيمس مادسون الحرب ونعتها بجرثومة كل الشـرور – نذيرة " بالضرائب والجيوش وكل ضروب " السبل التي تـرزح الكـثرة في هيمنـة

القلـة " . ويناقضـه في هـذا الـرأي خليفتـه ، جيمـس مونـرو ، الـذي يدافـع دون التوسع الأميركي غرباً بدعوى تصيير أميركا قوة عظمى :

" ليتفقه الجميع أن التوسع كلمـــا عظم نطاقه ، خارج المدى ، ستغدق حرية العمل للحكومتين [الفدرالية وحكومة الدولة] ويستتب الأمن فيهم بشـكل أحزم ويبلغ التأثير ، منتهـاه لكافـة الشعب الأمـيركي في كـل المضامـير . سيهب التوسع الاقليمي للأمة ، عظيماً كان أم صغيراً ، كثيراً من خصاله . وسـيزيد هـذا الأمر في الأمة مواردا وسكاناً وقـوة بدنيـة ، وسيجلي ، أيضـاً ، التبـاين بـين قـوة عظيمة وحقيرة " .

التزم قادة هذه الأمة الحديثة بالمباديء التي مـيزت بلدهـم علـى الرغـم مـن احتـذاء سياسـة القـوة الأوروبيـة ، في بعـض الأحـايين . لقـد تطـاحنت القـوى الأوروبية في معارك لا حصر لها لتعصم الـدول المهيمنـة مـن شـبح الظهـور . وفي أميركا الهم التئام القوة والبعد ثقة على دحر أي تحدي بجد ما يرى ذاته . شـكلت الدول الأوروبية ، ذوات احتياطيات البقاء الأنزر ، ائتلافات حيال امكانية التغيير ، أما أميركا فكانت جد قاصية كي تشرع بسياستها لمجابهة حقيقه التغيير .

كـان هـذا أساسـاً جيوسياسـياً لانـذار جـورج واشـنطن حيـال " عقـد " التحالفات لأيمـا باعث . ولن يكون من التعقل أن :

" نورط أنفسنا بوشائج مصطنعـة ضمـن التقلبـات لسياسـة [أوروبـا] أو الائتلافـات والتنـاظرات الرتيبـه لأصدقائهـا وأعدائهـا . يناجينـا موقعنـا القـاصي المستقل ويقدرنا على طرق شأو مخالف " .

لم تحمل هذه الأمة الحديثه موعظه واشنطن محمل الرأي العملي الجيوسياسي فخالتها مبدأ أخلاقياً . لقد ألفت أميركا ، المنار لمبدأ الحرية ، ان من الطبيعي لها أن تفسر الأمن الذي تدره المحيطات العظمى عليها كآية من الهبة الالهية وأن تعزو أفعالها أنى تبصر أخلاقي ثاقب وليس الى هامش أمن لا تشاطرها في ذلك أيما أمة .

وكان منهل السياسة الخارجية البكر لهذه الأمة التفقة أن الحروب الأوروبية الدائرة ما هي الا مخاض طرائق السياسة المتشائمة . وتطلع القادة الأميركان الى العالم وأبصروا أن عليه التساير كنظراء متعاونين ، لا خصوم مرتابين ولماّ هيكل نظرائهم الأوروبيون نظامهم العالمي على ادراكهم أن التآخي يتعرى من التنافس حول المصالح الفردية . أبى القادة الأميركان ما رآه الأوروبيون أن مباديء الأمة الأخلاقية تقررها معايير شتى وليس أخلاق الأفراد . وحسب ما يقول جفرسون يوجد :

" نظام ديني واحد للشعب والأمة - مستحب ، مخلص في كل العهود وفي شتى الظروف ، جلي سخي اليد معظّم ، في نهاية الأمر مصالح الطرفين " .

وصور نداء الحق الأميركي - في أوقات أثار خنق الأجانب - أن هذه الدولة قد تمردت فعلاً لا على الروابط القانونية التي وأدتها كامة بالية حسب ، بل بوجه النظام الأوروبي وقيمه . لقد عللت أميركا دوائر الحروب الأوروبية الى هيمنة القوانين الحكومية التي أنكرت قيم الحرية والعز الانساني . وكتب توماس بين :

" الحرب نظام الحكومة في العهد البالي والضغينة ، مشدة الأمم ، ليست الا اثارات لسياسة الحكومة ، كي تمد أجل هذا النظام ... والانسان ليس بعدو لاخيه الانسان الا بعدسة النظام الفاسد للحكومة " .

وما برحت الفكرة القائلة بارتكان السلام على تعزيز القوانين الديمقراطيه منهلاً يغترف منه الفكر الأميركي حتى يومنا هذا . وأكدت الحكمة الأميركية المألوفة ان الديمقراطيات لا تتناحر فيما بينها . وتحدى الكسندر هاملتون ، ذات مرة ، البديهية القائلة أن الجمهوريات لأأمن من سائر ضروب الحكومة :

" كانت أسبارطا ، أثينا ، روما ، قرطاجنة جمهوريات واثنتان منهما ، أثينا وقرطاجنة تجاريتان . وكانت هذه الجمهوريات خائضة للحروب الدائمة ، كراً وفراً ، كدأب المماليك المجاوره لها في ذلك الوقت .... وفي حكومة بريطانيا يؤلف ممثلو الشعب شطراً من التشريع الوطني وكانت التجارة سعي البلد المهيمن سنوات عدة . مع ذلك قلة قليلة من الأمم رزحت تحت الحروب المتكررة . "

لقد أفصح هاملتون عن قطره في بحر . فيقين الأغلبية الساحقة لرؤساء أميركا ، سابقاً وآناً ، أن لأمتهم مسؤولية خاصة لنشر مبادئها بمثلى مساهمتها في سلام العالم وكان الاختلاف ، في كل الأوقات ، دالياً دلوه في مسألة الكيفية ، أينبغي على أميركا أن تعزز ، بشكل فاعل ، ذيوع القوانين التحررية كمرمى أساس لسياستها الخارجية ؟ أو ينبغي عليها الارتكان الى مخاض المثل الذي تضربه ؟

وخيمت على الجمهورية ، أوائل أيامها ، رؤية تعلي شأن الديمقراطية اذا ما مورست فضائلها داخل الوطن ، بالنسبة لأمة وليدة ، وبعبارة توماس جفرسن فان

" الحكومة الجمهورية المتينة الأركان و العادلة " في أميركا ستسمو " مثالاً وصرحاً جباراً " لكل شعوب العالم . وتطرق جفرسن ، بعد عام ، الى القضية " جهاد أميركا الساعي لكل البشرية " :

" ان الوقائع التي تجلت الينا ، واستترت على الغير ، لتجشم علينا مهمة تحضر درجة الحرية والحكومة الذاتية التي قد يغامر المجتمع فيها على هجر أعضائها الواحدين " .

وكان التأكيد الذي أقعده الأميركان على الأساسيات الأخلاقية لحدو بلدهم وأهميتها كشعار للحرية قد أفضى بهم الى رفض بديهيات الدبلوماسية الأوروبية : أن توازن القوى قد أقصى الوفاق ، غاية قصوى ، نتيجة للصراع على المصالح الذاتية ، وان اعتبارات الأمان قد أتت على مباديء القانون المدني أي أن الأمر ، بعبارة أخرى ، غايات الدولة تبرر وسائلها .

وهذه الأفكار الفريدة عرضتها أمة انتعشت أبان القرن الثامن عشر بقوانينها الرائعة التنظيم وقيمها الشرعية . وما كانت أميركا شاعرة بايما صراع بين المبدأ السامي ومقتضيات البقاء . وأنجبت التعزيمة الأخلاقية ، كوسائل لتسوية الصراعات الدولية ، طرازاً فريداً من الازدواجية بسيرة الكرب الأميركي ذاته . واذا ما أقحم الأميركان على استغلال السياسة الخارجية بمثلى الدرجة المستقيمة مع حياتهم الشخصية ، فأنى يفسر الأمن ، وحقيقة اذا ما توخينا جانباً متطرفاً ، أيعني الأمر أن البقاء خاضع للأخلاق ؟ وهل وهب الورع الأميركي للقوانين المتحررة عبيراً آلياً من الأخلاق ليشذو على أكثر الأفعال الذاتيه الواضحة ؟ واذا كان الأمر

ضرباً من الحقيقة فأنى تتباين مع مفهوم " مصلحة الدولة " الأوروبي الـتي شـددت على حكم أفعال الدولة بنجاحها حسب ؟

حلل البروفسوران ، روبرت نوكر ، وديفيد هاندركسون ، أروع التحليـل الازدواجية في الفكر الأميركي :

" يكمـن الشـرك الأعظـم لصنعـة جفرسـون السياسـية في نكرانـــه الجلـي للوسائل التي ترتكن الدول ، أقصى الارتكان ، لضمان أمنهـا وارضـاء طموحاتهـا وأن معارضتـــه تتازمن مـع تـبرأه عـن التطلعـات الـتي أفضـت الى اسـتخدام هـذه الوسائل . وبعبارة أخرى ، شاء لأميركا المسلكين كليهمـا - أي أن تقطـف ثمـار القوة دون الزروح ضحية للمخاضات الطبيعية لممارستها ".

وما برح دفع وجذب هاتين المفهومين أحـد المغـازي الأساسـية في سياسـة أميركا الخارجية ، حتى يومنـا هـذا . وفي عـام ١٨٢٠ أنسـت الولايـات المتحـدة ملتقى لهذين المفهومين قدرها على اسـتيعاب السـبيلين حتـى غـداة الحـرب العالميـة الثانية . وظلت تنتقد بشدة ما كان يجري في الجانب الآخر للمحيطات كمخـاض يستحق التوبيخ لسياسة توازن القـوى في حـين تعـامل توسـعها الخـاص في جـانب أميركا الشماليه كـ " مصير جلي " .

كانـــت سياسـة أميركـا الخارجيـة ، حتـى ولادة القـرن العشـرين ، جـد ساذجة : تحقيق مصير البلد الجلي والبقاء دونما التزامـات خارجيـة . واسـتملحت أميركا الحكومات الديمقراطية ما وسـعها ذلـك ولكنهـا تفـادت أي عمـل لتـبريء مستحباتهـا . وأوجـز جـون كونســي آدم ، وزيــر الخارجيـة ، هـذا الـرأي

عام ١٨٢١ : في كل بقعة تنتصب فيها راية الحرية والاستقلال ، ستلهما أميركا مهجتها وبركاتها وصلواتها . ولكنها لن تبرح خارجاً ، سعياً لتدمر الألداد لأنها تستطيب كثيراً حرية الجميع واستقلالهم . انها نصير قضيتها وميرأها " .

كان الشفا النقيض لسياسة أميركا المتقيده ما أقدمت عليه القوى الأوروبية على فصل سياستها عن النصف الأرضي الغربي باللجوء ، قدر الضرورة ، الى بعض أساليب الدبلوماسية الأوروبية . انبعثت عقيدة مونرو ، الداعية لهذه السياسة ، من محاولة الحلف المقدس – الذي يؤلف بروسيا وروسيا والنمسا – لقمع الثورة في اسبانيا عشرينيات القرن التاسع عشر . عارضت بريطانيا العظمى التدخل في الشؤون الخارجية مبدئياً وكانت راغبة تماماً عن الاقرار بالحلف المقدس في النصف الغربي .

اقترح وزير الخارجية البريطاني ، جورج كاننغ عملاً مشتركاً مع الولايات المتحدة ليستبقي المستعمرات الاسبانية في بدن الأميركيتين دون أن تتلقفهما قبضه الحلف المقدس . لقد شاء الاطمئنان الاّ تذهب أميركا اللاتينيه الى هيمنه قوه أوروبية ، مهما يحل في أسبانيا . وأبصر كاننغ أن اسبانيا لوعريت من مستعمراتها ستغدو باخسة الثمن بحيث لا يشجع الأمر على التدخل أو يكون تافهاً .

تفقه جون كونسي آدمز النظرية البريطانية وخشي بواعث هذه الامبراطورية . فهذا الأمر بكّر كثيراً على تجانب أميركا مع بريطانيا ، التي كانت تحتل واشنطن حتى عام ١٨١٢ . لذلك حث آدمز الرئيس مونرو على عزل الاستعمار الأوروبي من الأميركيتين كقرار أميركي فردي .

وجدت عقيدة مونرو ، التي حملها عام ١٨٢٣ ، خندق المحيط الذي عزل الولايات المتحدة عن أوروبا . كان الدور الرئيس لسياسة أميركا الخارجية الرغبة عن التورط في صراعات القوة الأوروبية . وطرقت هذه العقيدة خطوة أخرى فأعلنت أن على أوروبا ألا تتدخل بشؤون أميركا . فكانت فكره مونرو عما ألف الشؤون الأميركية - النصف الغربي الكامل - رحبة تماماً .

لم تنكمش عقيدة مونرو ، أيضاً ، على نفسها لمجرد اعلانات المباديء . لقد حذرت ، بشكل حازم ، القوى الأوروبية أن الأمة الحديثة ستمضي للحرب لتقديس حرمة النصف الغربي ، وأعلنت أن الولايات المتحدة ستعد كل توسع أوروبي " في أية بقعة من هذا النصف خطراً يحدق بسلامها وأمنها " .

وعارض الرئيس مونرو أي تدخل في الخلافات الأوروبية في حديثه الذي تباين مع ما ذكره وزير الخارجية ، بقلة بلاغته وسلاسة أسلوبه :

" ليس لنا شأن ، أو لسياستنا ، في الحروب الدائرة بين القوى الأوروبية لبواعث تخصهم وحدهم " .

أولت أميركا ، ذلك الوقت ، دبرها لأوروبا وأطلقت لنفسها العنان لتتوسع في النصف الغربي . وفي مطلة عقيدة مونرو ، انتهجت أميركا سياسات لا يختلف تمامها عن أحلام أي ملك أوروبي - ازدهار تجارتها ونفوذها وضم الأقاليم اليها - وباختصار فقد صيرت نفسها قوة عظمى دونما ممارسة لسياسة القوة . ولم تتعارض قط الرغبة الأميركية على التوسع أو ايمانها بأنها الأنقى الأعظم مبدأً من سائر دول أوروبا . ولم تأخذ في حساباتها التوسع كسياسة خارجية فتجبرت

بالقوه لتهيمن - على الجزر الهندية والمكسيك وتكساس - وبيقين طيب ٠ وبايجاز كلي كانت السياسة الخارجية الأميركية مجرد نعتاً واهياً ٠

تفاخر كاننغ ، كما فعل نابليون في صفقه لويزيانا ، بأنه نقل العالم الى جو كينونته كي يقوم التوازن البالي ، لا سيما وأن بريطانيا العظمى أشارت أن البحرية الملكية ستساند عقيدة مونرو ٠ ومع ذلك سعت أميركا الى اصلاح توازن القوى الأوروبي الى الحد الذي ينآى بالحلف المقدس عن النصف الغربي ٠ وستضطلع القوى الأوروبي ، لسائر أوروبا ، باقامة التوازن دونما مساهمة أميركية ٠

كان الفحوى المبدأي لسياسة أميركا الخارجية ، بقية القرن ، التوسع في تطبيق عقيدة مونرو ، وأوعدت هذه العقيدة الدول الأوروبية ، في عام ١٨٢٣ ، بالابتعاد عن النصف الغربي ٠ فبعد تصرم مائة عام على عقيدة مونرو ، ظل فحواها يتسع رويداً رويداً لتعليل الهيمنة الأميركية على النصف الغربي ٠ وفي عام ١٨٤٥ أوضح الرئيس بوك ضم تكساس " الى الولايات المتحدة كضرورة لاعصام هذه الدولة المستقلة من الوقوع " حليفة " أو متكأة على دولة أجنبية أشد بأساً منها " وتغدو بذلك تهديداً يحدق بأمن أميركا ٠ وبعبارة أخرى بررت عقيدة مونرو التدخل الأميركي ليس بازاء التهديد الصائر حسب ، بل بازاء احتمالية التحدي الصريح - كما فعل توازن القوى الأوروبي تماماً ٠

عرقلت الحرب الأهلية بعضاً من انهماكات أميركا في التوسع الاقليمي وكان مرمى سياسة واشنطن الخارجية أن تغشي هذا الاتحاد عن مراصد الأمم

الأوروبية كي لا يولد على تربة أميركا الشمالية نظام متعدد الدول ينتهج سياسة توازن القوى الأوروبية ذاتها.

واستذكر الرئيس اندرو جونسون ، في عام ١٨٦٨ ، الموقف القديم لتبرير التوسع بعقيدة مونرو ، وكانت مناسبة الحديث صفقة السكا :

" ان حظوة هذه المجتمعات والهيمنة عليها قد أعاق نمو الولايات المتحدة وأوهن نفوذها . لقد أضرت بها الثورات المزمنة والفوضية ".

وكان ثمة أمر يحصل ، أعظم في جوهره من التوسع خارج القارة الأميركية ، بالرغم من أن ذلك قد مر عملياً دون أن تأنسه القوى العظمى - أن العضو الجديد الذي انضم الى رفقتهم ، الولايات المتحدة ، قد غدت أقوى أمة على هذه البسيطة . ففي عام ١٨٥٥ فاقت الولايات المتحدة بريطانيا العظمى وعدت بعدها أعظم قوة عالمية صناعية في الانتاج . كانت تستهلك في الطاقة ، في بداية القرن ، أكثر من المانيا وفرنسا والنمسا - الهنغارية وروسيا واليابان وايطاليا مجتمعين . وارتفع منتوج الفحم ، في الفترة الكائنة بين الحرب الأهلية واستهلالة القرن ، الى ٨٠٠٪ وقضبان الحديد بنحو ٥٢٣٪ ومسافات خطوط السكك الحديدة بنحو ٥٦٧٪ وانتاج القمح بنحو ٢٥٦٪ . واستمرت الهجرة مطردة في الشعب الأميركي وتسارعت عملية النمو بنحو عظيم .

وما من أمة خبرت مثل هذا التعاظم في قدرتها دونما سعي الى ترجمة هذه المقدرة الى تأثير عالمي . كان القادة الأميركان مغامرين وراودت سيوارد وزير جارجيه اندريه جونسون ، الأحلام الامبراطورية التي تسع كندا وشطراً عظيماً من

المكسيك وتمخر عميقاً الى الباسفيك · ورامت دائرة الضمان ضم جمهورية الدومنيكان وناورت في مسألة كوبا · وهذه هي ضروب المناورات التي تفقهها القادة الأوروبيون المجايلون ، بسمارك ودزرائيلي ، وصادقوا عليها ·

لقد مكث مجلس الشيوخ الأميركي ساخاً جل اهتمامه للأولويات الداخلية ومعارضاً لخطط التوسع · أبقى الجيش فئة صغيرة (٢٥ ألف رجل) ، والبحرية في حال هزيل ، وكان الجيش الأميركي ، حتى عام ١٨٩٠ ، يتبوأ المرتبة الرابعة عشرة بين جيوش العالم ، رادفاً الجيش البلغاري ، وكانت البحرية الأميركية أصغر من بحرية ايطاليا بالرغم من أن قوة أميركا تعدل ثلاث عشرة مره ما لايطاليا · لم تشارك أميركا في المؤتمرات الدولية وكان ينظر لها قوة من المصاف الثاني · وعندما خفضت تركيا مؤسساتها الدبلوماسية ، في عام ١٨٨٠ ، أغلقت سفارتها في السويد وبلجيكا وهولندا والولايات المتحدة · وفي الوقت ذاته استحب دبلوماسي الماني في مدريد قطع راتبه على تعيينه في واشنطن ·

ولن يعزف هذا البلد ، الذي بلغ وصلة لما بعد الحرب الأهلية ، من محاولة الانتقال لتبوأ دور هام في الساحة الدولية · وبدأت أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر بتشييد صرح بحريتها ، التي كانت ، حتى عام ١٨٨٠ ، أصغر مما لتشيلي والبرازيل والأرجنتين ·

وبالرغم من أن البحرية الملكية البريطانية قد درّعت أميركا حيال نهب القوى الأوروبية ، لا يفقه القادة الأميركان أن بريطانيا العظمى حاميتهم · كان ينظر لها ، ابان القرن التاسع عشر ، المنافس الأخطر للمصالح الأميركية وأن

البحرية الملكية لأفتك تهديداً استراتيجياً . فلا عجب أن تسعى أميركا ، ولما تتنفس الصعداء ، الى قذف بريطانيا العظمى خارج نصف الأرض الغربي مستشهدة بعقيدة مونرو التي كانت بريطانيا العظمى وسيلة الحث عليها .

ما كانت الولايات المتحدة دقيقة في تهديدها وأستشهد وزير خارجيتها ، ريتشارد أونلي في عام ١٨٩٥ ، بعقيدة مونرو لتحذير بريطانيا العظمى باشارة مقصودة الى تباينات القوى ، وكتب يقول :

" تتربع الولايات المتحدة ، في يومنا هذا ، على عرش هذه القارة وشأوها هو دستور كل الأمور التي تبقي على موقعها . وتتسيد أميركا ، بفضل مواردها التي لا تنضب وموقعها المنعزل ، على الموقف دون أن تتعرض ، واقعياً ، لبعض القوى أو جميعها " .

ولا يتسع الشجب الأميركي لسياسة القوة الى النصف الغربي ، فبريطانيا ، مثلاً ، قد تنازلت عن دعواها بالدور الرئيسي من وسط أميركا .

شرعت الولايات المتحدة ، بفضل جبروتها في النصف الغربي ، بالولوج الى أوسع صعيد للشؤون الدولية . فقد أمست قوة عالمية بالرغم من تداخلاتها الذاتية . لقد توسعت خارج القارة وأقامت لها صرحاً من الهيمنه حوالي شواطئها في حين كانت تصر على تباين نهجها وما أقدمت عليه السياسة الخارجية بريطانيا العظمى . وفي نهاية المطاف ألفت نفسها تقود دفة طراز من القوه رفعها الى أعلى مقام عالمي ، بصرف النظر عن خياراتها . دأب القادة الأميركان على اصرارهم أن المرمى الأساس لسياستهم الخارجية أن تغدو " المنار " الذي تسترشد به البشرية

جمعاء . ويقيناً ليس بمقدورنا الانكار عن ادراك بعض هؤلاء القادة أن أميركا قد أهلتها القوة لتتناهى الى المسامع بفضل انغماسها في الشؤون اليومية وأن هذه الدولة لن تنتظر ريثما تدب الديمقراطية بين سائر البشر لأنها ، حينئذ ، تصير نفسها شطراً من هذا النظام العالمي .

وما من أحد قد خلص الى هذا الاستنتاج ، على نحو أشرق بهاءً وأعظم تجلياً من ثيودور روزفلت ، الرئيس الأول الذي أصر على دور أميركا كمشعرة لنفوذها العالمي ومزاوجة بينها والعالم بصيغ المصلحة الوطنية . كان روزفلت على بينه ، كأسلافه ، من دور أميركا الطيب في العالم وخالفهم الرأي عندما أيقن أن لدولته مصالح سياسية خارجية حقيقية تخطت مكسبها في البقاء متقوقعة . لقد انطلق من البديهية القائلة أن الولايات المتحدة لقوة ، شأنها شأن سائرها ، وليست بتجسيد منفرد للفضيله وعليها أن تشدد ازرها لتتسيد اذا ما تعارضت مصالحها مع ما لسواها من الدول .

وهب روزفلت عقيدة مونرو ، كخطوة بكر ، تفسيرها الأكثر تدخلاً وماثلها بالعقائد الامبريالية السائده وقتئذ . ودعا في الخامس من كانون الأول عام ١٩٠٤ ، في معرض نعته عقيدة مونرو بـ " اللازمة " ، الى حق التدخل العام " لأمة متحضرة " في النصف الغربي ، فالولايات المتحدة وحدها تمتع بالحق ، كل الحق ، في ممارسة ذلك . وقال :

" ان مشايعة الولايات المتحدة لعقيدة مونرو ، في النصف الغربي ، قد يقحمها على ممارسة قوة لحماية الدولية ، حيال الأفعال الغاشمة والجبانة " .

سبقت ممارسة روزفلت موعظته فأميركا قد أقحمت هاييتي ، في عام ١٩٠٢ ، على تصفية ديونها مع المصارف الأوروبية وصيّرت ، في عام ١٩٠٣ ، حالة الفوضى التي دبت في بنما الى عصيان مسلح عظيم النطاق . لقد تمكن مواطنو بنما ، بفضل المؤازرة الأميركية ، من انتزاع الاستقلال من كولومبيا ، غداة ما أنشأت واشنطن قناة زون ، التي سميت بعدها قناة بنما ، تحت سيادة الولايات المتحدة على الجانبين . وأقامت الولايات المتحدة ، في عام ١٩٠٥ ، محمية مالية في جمهورية الدومينيكان واحتلت القطعات الأميركية كوبا عام ١٩٠٦ .

كانت دبلوماسية العضلات ، بالنسبة لروزفلت ، شطراً من الدور العالمي الجديد لأميركا في النصف الغربي . فالمحيطان ما عدا بقادرين على عزل أميركا من سائر العالم في وقت أمست فيه الولايات المتحدة ممثلاً في المسرح الدولي . لقد أفصح روزفلت عن الكثير في رسالته التي وجهها الى الكونغرس عام ١٩٠٢ :

" يتعين على القوى المتحضرة والمتسمة بالنظام أن تصر على توجيه سليم لهذا العالم حيال تعقد العلائق الاقتصادية والسياسية الدولية ،وتواقفهما المتعاظمين ، أكثر فأكثر " .

يتبوأ روزفلت موقعاً تاريخياً فريداً في مضاهاة أميركا للعلاقات الدولية اذ ليس ثمة رئيس آخر عرّف (بمفردات المصلحة الوطنية) دور أميركا العالمي على نحو متكامل تماماً أو أبرز الأهمية الوطنية ، بنحو واسع جداً ، ضمن توازن القوى . لقد تشاطر الرأي مع أبناء جلدته في تسامي أميركا أملاً مرجواً للعالم

ولكنه لم يؤمن ، بخلاف الكثيرين منهم ، ان دولته ستقيم السلام أو تحقق قدرها بممارسة فضائلها الداخلية . ففي تفقهه لطبيعه النظام العالمي ، دنا كثيراً صوب بالمرستون ودزرايلي ونأى عن توماس جفرسن .

وعلى الرئيس العظيم أن يسمو معلماً ، رائباً للصدع بين مستقبل شعبه ومعرفته . لقد فقّه روزفلت عقيدة صارمة جلية لشعب ترعرع في كنف الاعتقاد أن السلام حالة طبيعية بين الأمم ، وليس ثمة تباين بين أخلاق الفرد والشعب وأن دولتهم قد باتت آمنه من الجياشانات التي تدرك سائر العالم . رد روزفلت بالبينه على كل هذه الافتراضات وعنت الحياة الدولية له نضالاً فالتاريخ يسترشد بنظرية دارون في البقاء للأصلح ، بنحو أفضل من مماشاة هذه النظريـــة للأخلاق الشخصية . ويرى روزفلت أن الحلماء الأقوياء يرثون الأرض وأن أميركا ما كانت علة بل قوة عظمى - أقوى الأمم . ترجى أن يكون هو المقدر لارشاد أمته الى المسرح الدولي كي تهيكل القرن العشرين بمثلى السبيل الذي هيمنت فيه بريطانيا العظمى على القرن التاسع - كبلد لجب القوى خولته ، بفضل تمدنه وبصيرة حكمته ، لتحقيق الاستقرار والسلام والتقدم .

عيل صبر روزفلت حيال معظم الأفكار التي عشعشت على الفكر الأميركي للسياسة الخارجية وأنكر دور القانون الدولي فالذي تعجز الأمة عن حمايته بخاصة قوتها لن يستطيع المجتمع الدولي أن يدرعه لقد دحض عملية نزع السلاح الآخذه بالظهور كموضوع دولي :

" ليس ثمة احتمال قائم ، حتى الآن ، على صيرورة أيما ضرب من القوة الدوليه .... التي ستكبح ، بحزم ، أي فعل آثم ٠ وفي هذه الظروف يستحيل الأمر طيشاً ومنكراً لو عرّت أمة عظيمة قوية نفسها من القوه التي تدرع بها حقوقها ، وتناصر ما لغيرها ، في حالات طارئة أخر ٠ فما من أمر يصيب الجور كثيراً ، أعظم من تجرد الشعوب الحرة المستنيرة لسلاحهم مخلفين الطغاة والبرابرة يتدججون السلاح " ٠

انتقد روزفلت بقسوة شديدة ، أيضاً ، الحكومة العالمية :

" انني لأشمئز من موقف ولسون - بريان الذي يصب ثقته في معاهدات السلام الواهمة والافتراضات المستحيلة وكل ضروب قصاصات الورق التي لا تؤازرها قوة وافية ٠ ومن اليسير ، غاية اليسر ، للأمة والعالم أن تحذو حذو فردريك الكبير وبسمارك في السياسة الخارجية لا أن يتبنوا موقف بريان أو بريان - ولسون ليغدو وطنياً مستديماً ... فالحق الواهن المجرد من القوة لأشد شراً وأذى للجميع من القوة المعراة من الحق " ٠

آمن روزفلت أن العالم الذي تنظمه القوة ، تتجسد نظام الأمور طبيعيا في مفهوم " مناطق النفوذ " التي رجحت النفوذ العظيم لقوى معينه على مناطق شاسعة ، فمثلاً تسيدت الولايات المتحدة على النصف الغربي وبريطانيا العظمى في شبه القارة الهندية ٠ وأيد روزفلت ، في عام ١٩٠٨ ، الغزو الياباني لكوريا لا سيما أنه يرى العلاقات بين اليابان وكوريا تهيكلا لقوة متناسبة من كل دوله ، لا أن تؤطرها بنود معاهده أو قانون دولي ٠

" وليس لنا أن ندهش لما بلغه روزفلت ، المعتمل أفكار النمط الأوروبي ، من صقل لتوازن القوى العالمي لا يضاهيه في أمره أي رئيس أميركي آخر ما خلا ريتشارد نيكسون . لم يأنس روزفلت ، أول الأمر ، أية فاقة أميركية للانغماس في خاصات توازن القوى الأوروبي الذي خاله منتظماً ، على وجه تقريبي . ولكنه طرح نزراً من الشك أن هذا الحكم لو برهن متناقضاً ، سيحث أميركا على الانغماس في اقامة التوازن كرة أخرى . لقد ألفى المانيا تهديداً لتوازن أوروبا وطفق يرسم ملامح المصلحة الوطنية الأميركية ومصالح بريطانيا العظمى وفرنسا .

وتجلى هذا الأمر في عام ١٩٠٦ ، أبان مؤتمر الجسيرا الذي هدف الى حسم مستقبل المغرب . لقد حثت المانيا ، المناديه الى " الباب المفتوح " لتتنبأ بمستقبل الهيمنة على فرنسا ، الى أشمال الممثل الأميركي لأن لأميركا مصالح تجاريه مهمة في تلك المنطقة ، وحضر المستشار الأميركي الى المغرب لكنه تبوأ دوراً خيب آمال الألمان . لقد أخضع روزفلت المصالح التجارية الأميركية - المحدودة نسبياً في كال المواقع الى تطلعه الجيوسياسي . وأفصح هنري كابوت لوج عن هذا الأمر في رسالة بعثها الى روزفلت ، في ذروة الأزمة المغربية :

" على فرنسا أن تجانبنا وأن تنضم بريطانيا حليفة لنا في أراضينا . وهذا التدبير لسليم اقتصادياً وسياسياً " .

وعلى صعيد أوروبا خال روزفلت المانيا التهديد الأعظم وتوجس حشيه من المطامح الروسيه في آسيا فاستحب عليها اليابان ، خصمها الألد . ويقول روزفلت :

" ليس ثمة أمة على وجه البسيطة ، ما خلا روسيا ، ينبسط في كفيها اقدار السنين الآتية " . وفي عام ١٩٠٤ ، شنت اليابان ، المحمية بحلف مع بريطانيا العظمى ، هجوماً على روسيا فأعلن روزفلت الحياد الأميركي بالرغم من مشايعته لليابان : وقال أن الانتصار الروسي " ضربة قاصمة للحضارة " وابتهج عندما دمرت اليابان الأسطول الروسي بقوله :

" لقد ابتهجت ، ملء أساريري من بهجة ، لهذا الظفر الياباني ، فهذه الدوله تسير لعبتنا " .

شاء روزفلت لروسيا أن تهزل لا أن تمحى من توازن القوى - فالمباديء الدبلوماسية لهكذا توازن ترى اليابان بديلاً للتهديد الروسي اذا ما دب الهزل الفارط فيها . وتيقن أن المخاض الذي ينفع أميركا أكثر هو ما يبعث روسيا " بقبالة اليابان بحيث يسعى كل بلد بعمله على الآخر .

سعى روزفلت ، بباعث في الواقعية الجيوسياسية وليس الايثار النبيل ، الى دعوة المتحاربين لبعث ممثيلهم الى منزلة الكائن في خليج أويستر ليبرموا معاهدة سلام تقيد الانتصار الياباني ويقيم التوازن في الشرقى الأقصى . أفضى هذا الأمر الى منح روزفلت جائزه نوبل للسلام ، وهو أول رئيس يوهب هذه الجائزة ،

للحل الذي أبرمه على أساس مبادىء تماثل توازن القوى ومناطق النفوذ التي ستلوح غير أميركيه تماماً غداه رئاسة خلفه ، ولسون .

وفي عام ١٩١٤ تبنى روزفلت ، أول الأمر ، موقفاً هادءاً نسبياً حيال الغزو الألماني لبلجيكا ولوكسمبرغ مع أن الأمر يتبطن انتهاكاً سافراً للمعاهدات التي تقر بحيادية هاتين الدولتين :

" أنا لا أناصر أحد الفريقين على الآخر لما يهم الاعتداء أو يتجاهل هذه المعاهدات " .

وغداة أشهر قلائل من اصطدام الحرب في أوروبا ، قلب روزفلت حكمه الأول عن انتهاك حيادية بلجيكا وما أوجس فيه خوفاً التهديد الذي أحدقته المانيا على توازن القوى وليس فعلها اللاشرعي : " ألا تؤمنون أن المانيا لو ظفرت بهذه الحرب وسحقت الأسطول الانكليزي وأتت على الامبراطورية البريطانية ستصر ، في خضم عام أو عامين ، على تبوأ المكانة المهيمنة على جنوبي أميركا ووسطها " ؟ .

لقد حث على اعادة التسلح الشامل كي تلقي الولايات المتحدة بثقلها الى خلف الحلف الثلاثي وعد الظفر الألماني قائماً وخطيراً للولايات المتحدة ، فكان نصر قوى المحور ، له ، ضياعاً لدفاع البحرية الملكية البريطانية فيأذن الأمر ، وقتئذ ، لألمانيا على توكيد استعمارها في النصف الغربي .

وضع روزفلت في حساباته أن سيطرة البحرية البريطانية على الأطلسي لأأمن من هيمنة المانيا عليه ، ومرد ذلك الى عوامل دقيقه لا صلة لها بالقوة كالألفة الحضارية والمعرفة التاريخية ، وفي الحقيقة ثمة وشائج حضاريه جد قوية بين هاتين الأمتين لا نظير لها - بين الولايات المتحدة والمانيا . وعلاوة لذلك تطبعت أميركا على حكم بريطانيا للبحار وراقت لها الفكرة وباتت مطمئنة من تخلي بريطانيا عن نواياها التوسعية في الأمريكيتين ، بينما كانت تتوجس خوفاً من المانيا . وفي الثالث من تشرين الأول عام ١٩١٤ ، بعث روزفلت برسالة الى السفير البريطاني في واشنطن (متجاهلاً حكمه الأول عن استخفاف المانيا بحيادية بلجيكا) :

" لو كنت رئيساً ، لأقدمت على عمل [ضد المانيا] في الثالث عشر أو الواحد والثلاثين من تموز " .

وأفصح روزفلت ، في رسالة بعثها الى رديارد كبلنغ بعد شهر ، عن الصعوبة التي يراها هو في تجشيم القوة الأميركية عناء الحرب الأوروبية ، فالأميركان راغبون عن طرق منحى صارم ملتو لسياسة القوة :

" لو كان في عنقي أن أناصر كل ما أؤمن به أنا سيكون الأمر منكراً بين الناس ، فهم لن يشيعونني . أن أناسنا قصيرو النظر لا يفقهون شؤون العالم ، وشعبك قصير النظر أيضاً ، ولكن متبصر هكذا أمور ... وبفضل امتداد المحيط اطمئن شعبنا ، فلا خوف عليه من الصراع الحالي وليس ثمة مسؤولية تهمه " .

ولو تتوج الفكر الأميركي عن السياسة الخارجية قمته في ثيودور روزفلت ، لكان الأمر نعتاً بالولادة المكيفة لمباديء السياسة الأوروبية التقليدية مع

الظرف الأميركي . وسيشار الى روزفلت بالرئيس المتبوأ منصبه عندما شرعت الولايات المتحدة بالتعريف عن ثقلها كقوه عالميه ولما تتربع على سيادة الأميركيتين بيد أن فكر السياسة الخارجية الأميركية لم يختتم مع روزفلت ، وما كان له أن يفعل ذلك . والرئيس الذي يحبس دوره على خبرة الشعب ليكتب على نفسه الركود ، والرئيس الذي يسمو على معرفة الشعب ليجازف بكونه مبهماً . لم تتأهل أميركا ، بفضل خيرتها وقيمها ، الى تبوأ المنصب الذي رامه لها روزفلت .

ويطالعنا التاريخ ، في احدى سخريات القدر ، أن تحقق الولايات المتحدة الدور القيادي الذي آنسه روزفلت لها ، وأبان حياته أيضاً ، ولكن بمباديء يسخر منها روزفلت ، وقيادة رئيس يحتقره . كان وودرو ولسون تجسيداً لعرف الانعزالية الأميركية وأرسى جذور المدرسة الفكرية التي خيمت على سياسة أميركا الخارجية ، المدرسة التي عد روزفلت مبادئها ، في أعظم سيرة ، غير ملائمة " أما أسوأها فرآه معادياً للمصالح الأميركية البعيدة الآمدة .

واذا ما عقدنا مقارنة بين روزفلت وولسون ، أعظم رئيسين لأميركا ، واستخدمنا مفردات مباديء السياسة المعرفة ، لنرى أن روزفلت أفضل بكثير في جداله . ومع ذلك كان ولسون هو المهيمن ومأطر الفكر الأميركي . غدا روزفلت ، بعد قرن ، يشار له بانجازاته وتفقه منحى السياسة الدولية بين الأمم ليقود دفة شؤون العالم - ولس ثمة رئيس أميركي آخر له مثل هذا التبصر الأثقب في منحى الأنظمة العالمية . وتيسير لولسون أحكام بواعث الحافز الأميركي وربما يكون هذا بالعلة الرئيسه لما طالعته أميركا من تباينها مع أية أمة .

يمضي الأميركان الى أعظم المآثر من خلال رؤية تنسجم وفقههم بلادهم انها استثنائيه . لقد خاب مسعى روزفلت على حمل ابناء جلدته لولوج الحرب العالمية الأولى بالرغم من تناغم دبلوماسيته فكرياً وتماثلها عملياً مع ما لبريطانيا العظمى . أما ولسون فقد أو قد مشاعر الشعب ببراهين جياشة أخلاقية على نفس القدر الذي جهله القادة الأجانب .

كان ولسون ثمرة مدهشة وداحضاً لسياسة القوة وفقيها بالسبيل الذي يحرك مشاعر الأميركان وتخلف هذا الأكاديمي ، الى حد ما ، عن السياسة ثم انتخب بسبب الانشقاق الذي حل بالحزب الجمهوري بين تافت وروزفلت وتفقه أن انعزالية أميركا الفطرية لا تغلبها الا معاودة لايمانها بالطبيعة الانعزالية لمثالياتها . ومضى ولسون ، رويداً رويداً ، بهذا البلد المنعزل الى رحى الحرب غداة ما أفصح عن تفان ادارته للسلام بدفاعها المخلص عن الحيادية . لقد شرع في هذا الأمر ولما يهجر كل المصالح الوطنية الخاصة ويؤكد أن أميركا ما سعت لمنفعة سوى ترسيخ مبادئها .

أفصح ولسون ، في خطابه في الثاني من كانون الأول عام ١٩١٣ ، عن الخطوط العريضه لما غدا يعرف بالولسنية ويرى أن النظام الدولي يتجذر في قانون عالمي وليس في التوازن ، وفي المعتمدية الوطنية لا في توكيد الذات الوطنية . وأوضح ولسون ، ولما يوصي بتعديل عدة معاهدات تحكيم ، بأن التحكيم الملزم ، لا القوة ، ينبغي له أن يصبح السبيل لفض النزاعات الدولية :

" ثمة معيار واحد نزن به الخلافات بين الولايات المتحدة وسائر الأمم ، ويتألف من عاملين : عزتنا والتزاماتنا بسلام العالم ، ويجب الاضطلاع باختبار جد شامل للهيمنة على تأسيس التزامات للمعاهدة الحديثه وتفسير الأمور السالفة الذكر " .

وما من أمر أثار حنق روزفلت أكثر من المبادىء الطنانة التي لا تعضدها قوة أو رغبة لممارستها . وكتب لصديق له :

" علي أن أنتقي بين سياسة الدم والحديد والسياسة التافهة ... فعلام استميل السياسة الأولى ؟ أنها لأخير للأمة وللعالم ، في نهاية المطاف " .

وللسبب ذاته لم يبد ولسون أيما اهتمام لمقترح روزفلت المطالب بتصعيد نفقات الدفاع استجابة للحرب الدائرة في أوروبا . ففي الثامن من كانون الثاني عام ١٩١٤ ، ولما الحرب في شهرها الرابع ، رفض ولسون لتصعيد التسلح الأميركي - فهذا الأمر آية " اننا فقدنا رباطه جأشنا " بسبب الحرب " التي لا ناقة لنا ولا جمل في مسبباتها ، وييسر علينا وجودها بالذات فرص الصداقة " .

يرى ولسون أن نفوذ أميركا يتوكأ على ايثارها : وعليها أن تقي ذاتها لكي تستطيع أن تخطو كحكم أهل بالثقة بين الأطراف المتناحرة . وأكد روزفلت أن الحرب الدائرة في أوروبا ، اذا ما ظفرت بها المانيا ، سيحدق التهديد بأمن أميركا ، فأميركا متنزهة ، وعليها أن تتصرف كوسيطه . وبسبب الايمان الأميركي بالقيم التي تسمو على توازن القوى ، وهبت الحرب في أوروبا فرصة استثنائية للاهتداء الى مفهوم أفضل وأحدث للشؤون الدولية .

استسخف روزفلت بمثل هذه الأفكار واتهم ولسون باثارة العواطف الانعزالية كي تعينه على اعادة انتخابه في عام ١٩١٦ . وفي الحقيقة فان زخم سياسة ولسون كان على شفا نقيض للانعزالية فالذي ينادي اليه هو التطبيق العالمي لمباديء أميركا وذيوعها وليس التقهقر الأميركي من الساحة العالمية . وبين ولسون ، كرة أخرى ، الحكمة الأميركية التقليدية منذ عهد جفرسون :

* ان رسالة أميركا الخاصة لتسمو فوق الدبلوماسية اليومية وتلزمها أن تكون منارة الحرية التي تهتدي بها سائر البشرية .

* ان السياسات الخارجية للديمقراطيات لعظيمة الأخلاق لا سيما أن حب السلام عادة تأصلت في شعوبها .

* على السياسة الخارجية أن تعكس المعايير الأخلاقية ذاتها كديانات شخصية .

* ليس للدولة الحق في المطالبة بأخلاق منفصلة لنفسها .

لقد وهب ولسون بعداً عالمياً لهذه التأكيدات الخاصة بانعزالية أميركا الأخلاقية :

" ليس بميسور أي أمة قوية أن تزرع فينا الهلع ولا تشتعل فينا الغيرة من أيما منافسة في أصعدة التجارة أو شتى المكاسب الأخر . نحن نود أن نحيا حياتنا ، وندع الآخرين يعيشون . اننا ، في جوهرنا ، أصدقاء حقيقيون لكل الأمم على

هذه البسيطة لأننا لا نهدد أحداً ولا نشتهي ممتلكات أحد ، ونرغب عن الاطاحة بايما أحد " .

وتبطنت الدعوى المنادية بتمثيل الأهداف الأميركيه للتدبير الالهي ، دوراً عالمياً لأميركا سيبرهن لروزفلت شموليته الآمدة التي ما تخيلها قط . ولم يشأ الا تحييد توازن القوى واستثمار الدور الأميركي فيه على قدم المساواة من الأهمية مع قوتها المتعاظمة . ويرى روزفلت أن أميركا لأمة بين سائر الأمم - أقوى من الغالبية وشطر من صفوة القوى العظمى - وتخضع لقوانين التوازن الأساسية والتاريخية .

لقد سار ولسون بأميركا الى سطح قاص تماماً عن هذه الاعتبارات وأصر أن دور أميركا أن " لا تبرهن ايثارنا ....بل عظمتنا " - واذا كان الأمر ضرب من الحقيقة ، فليس لأميركا الحق أن تدخر لنفسها المباديء . وتقدم ولسون ، مع استهلاله عام ١٩١٤ ، بعقيدة فريدة تقول أن الأمن الأميركي لا يتجرد عن أمن جميع البشرية فغدا واجب أميركا ، حسبما تبطنه الأمر ، مجابهة الاعتداء حيثما يحصل :

" لنا أن نجابه أيما اعتداء في أية بقعه على هذه المعمورة ، لأننا نطالب ما حيينا بحكومة دائمة على أساس احقاق مباديء العدل والحرية . اننا لنطالب بالأمن لما نصطفيه من خطوط تطورنا الوطني ، ونسعى من أجل الآخرين أيضاً . ولن نلزم نصرنا لحرية فردية وتطور وطني حر بازاء حوادث تؤثر فينا حسب . آن

لنشعر هذا الأمر في كل دروب الحق والاستقلال الشاقة والتي تحاول شعوب ما طرقها " .

وتطوورت سياسة أميركا ، غداه الحرب العالمية الثانية ، لتغدو شرطية عالمية مهمة ، كما رآها روزفلت .

لم يحلم روزفلت قط ، حتى في أوج نشاطه ، بمثل هذا الرأي الشامل المبشر بتدخل عالمي . لقد أمسى غداتها ، رجل الدولة المحارب في حين ، وقس النبي . ورجال الدولة والمحاربون يركزون جل اهتمامهم في العالم الذي يحيون فيه ، بينما العالم " الحقيقي " للأنبياء ذلك الضرب الذي يودون له صيرورة " .

ان الذي استهل كتأكيد آخر لحيادية أميركا قد صيره ولسون سلسلة من المقترحات التي ترسي جذور الدفاع العالمي ، ولا يرى فيه ثمة تباين ضروري بين حرية أميركا وحرية العالم . لقد برهن أن الوقت المسلوخ من اجتماعات ذوي الشأن ، لتفسير الأمور الدقيقه ، لم يضع سدى فقدره ذلك على تفقه متطور استثنائي لما قد عناه جورج واشنطن حقاً عندما حذر من الأفخاخ الخارجيه . لقد عرف ولسون " الخارجي " كرة أخرى بنمط ليدهش يقيناً الرئيس البكر . عنى واشنطن ، بلغه ولسون ، أن على أميركا تفادي التفخخ في مرامي الآخرين في حين أفصح ولسون أن كل الذي لا يهم الانسانية " لغريب علينا ولا نكترث له " . لذا لأميركا ميثاق لا حد له يلقي على كاهلها التزامات في الخارج .

وما أروع الخيال ، الذي يستنبط ميثاق تدخل عالمي ، حيال الافخاخ الخارجية ، في موعظه الأباء المؤسسين ويفصل تفصيلاً فلسفة الحياد التي تحتم

الولوج الى الحرب ! وعندما دنا ولسون ببلده الى شفا الحرب ، ولما يعظم رؤاه للعالم الأفضل ، استحضر الحيوية والمثالية التي لاحت تبرر السبات الأميركي نحواً من قرن ، مثلما تلج الآن الى الساحة الدولية ببراءة ودينامية يجهلها أكثر نظرائها نضجاً . لقد قست الدبلوماسية الأوروبية ومسها الذل ، في بوتقة التاريخ وآنس الساسة الأحداث بموشور الأحلام الكثيرة الذي ذهبت جفاءً ، فخابت الآمال العظيمه وتبددت الغايات بسبب وهن التبصر الانساني . ولم تر أميركا مثل هذه التقييدات ، فقد نادت بجسارة لتشييع القيم التي عدت فريدة على أمريكا ، لتأطرها بمباديء عالمية تماشي الجميع . تيسر لولسون ، مرة واحدة ، على سيطرة التوتر الذي أصاب التفكير الأميركي للفصل بين أميركا الآمنة وأميركا الطاهرة ، وما استطاعت أميركا الولوج الى الحرب العالمية الأولى من مدخل الالتزام لمصلحة الشعوب في كل بقعه ، أو لمصلحتها هي ، أو لدور المبشر بالحريات العالمية .

هيأ اعلان المانيا على الحرب البحرية الشامله واغراق لوزيتانيا ، السبب المباشر لأميركا لتعلن الحرب . ولم يبرر ولسون ولوج أميركا الحرب ببواعث الجور أو المصلحة الوطنية أو انتهاك حرمة بلجيكا أو اختلال توازن القوى . فللحرب تأصل أخلاقي مراماه الرئيس نظام عالمي عادل ومستحدث ، وصوره ولسون في معرض حديثه عن اعلان الحرب :

" لمن المخيف حقاً أن تقود شعباً عظيماً مسالماً الى جادة الحرب ، الأحمى وطيساً والأشد فتكاً من سائر الحروب ، فالحضارة بعينها تلوح على أكف التوازن . ولكننا سنجاهد دون القيم التي رفعناها ما حيينا في أقرب مبوأ الى أفئدتنا ، من أجل الديمقراطية وحق الذين يرزحون تحت جور التسلط ليكون هم

صوت في خاصة حكوماتهم ، ومن أجل حقوق الأمم الصغيرة وحرياتها ، ومن أجل امتلاك شامل للحق بأيادي الشعوب الحرة ليعم السلام والطمأنينة في سائر الدول وتعتق حرية العالم هذا ، نهاية المطاف ."

والحرب الساعية لمثل هذه المباديء لامساواة لها فالنصر الكامل مراماها المشروع . لقد أفصح روزفلت بكل يقينه تقريباً عن أهداف أميركا الحربية بمصطلحات سياسية واستراتيجية ، أما ولسون ، المزدهي بتجاهل مصلحة شعبه ، فعبر عن هذه الأهداف بعبارات أخلاقية صرفة لأنه لا يرى الحرب من عدسة مخاض اصطدام المصالح الوطنية غير المتقيده ، بل من بؤرة الهجوم الألماني الوقح على النظام الدولي . وبعبارة أبلغ فصاحة أننا لا نحمل الأمة الألمانية وزر الحرب ، بل الامبراطور الألماني بعينه . وأوضح ولسون عن مباعث اعلان الحرب : " ليس لنا مع الشعب الألماني خلاف ولا تختلج مشاعرنا عنهم بايما أمر ما خلا الود والصداقة فهم مغلوبون على أمرهم عندما انصرفت حكومتهم الى هذه الحرب وما كان لهم في شأنها سابق معرفة أو تأييد . وكان قدر هذه الحرب ، كسالف أخواتها ، في الأوقات البئيسة التي تحرم على الناس مشاورة حكامهم المضرمين فتيل الحروب لتدر حليبها على السلالات الحاكمة " .

وبالرغم من أن وليم الثاني ، قد اعتبر الشخص المتقلقل على مسرح أوروبا ردحاً من الزمن طويلاً ، لم يسع أيما سياسي أوروبي لخلعه أو تطلع الى الاطاحة بالامبراطور أو سلالته كفاتحة للسلام . فاذا ما قدر للهيكل الألماني الداخلي أن يتقدم ، ما كان للحرب أن تضع أوزارها بذلك الضرب من التسوية الموازن للمصالح المتضاربة ، الذي حققه روزفلت بين اليابان وروسيا قبل عشر سنوات .

أعلن ولسون في الثاني والعشرين من كانون الأول عام ١٩١٧ ، قبيل دخول أميركا الحرب ، أن مرمى أميركا في هذا النزاع " سلام لا انتصار له " ولكنه أفصح ، عند دخول أميركا الحرب ، أن مسعى الحرب سلام لا ينتهي اليه الا الانتصار الكامل .

أمست آراء ولسون حكمة رسمية وشرع هربرت هوفر ، العلم الخبير ، بوصف الطبقة الحاكمة بأنها شريرة أصلاً تمتص " دماء حيوات الآخرين " . وعبر جاكوب سكيرمن ، رئيس جامعة كورنيل ، عن روح العصر ، بشكل رائع ، فألفى أن الحرب صراع بين " مملكه السماء " و " مملكة الهوني* " ، حيث يخيم شبح القوة والخوف " .

من العسير أن يتحقق لولسون ما تبطنته خطاباته ، بمجرد الاطاحة بسلالة حاكمة واحدة ، فقد أوسع منتهاه الأخلاقي ، ولما يفصح عن اعلان الحرب ، ليشمل العالم كله وعلى سائر الأمم ، لا المانيا حصراً ، أن تأمن وتتمتع بالديمقراطيه لأن السلام يقتضي " تآخيا للأمم الديمقراطية " . ومضى ولسون ، في خطاب آخر بعيداً ليقول أن قوة أميركا ستضمر ما لم تنشر الولايات المتحدة الحرية في أنحاء العالم :

" لقد شيدنا صرح هذه الأمة لتعتق للبشر حريتهم وما حبسنا تفقهنا ومرامانا لخاصة أميركا ، فنحن ماضون لتحرير كل البشر . واذا ما عزفنا عن هذا الأمر سيغدو عز أمريكا هباءً منثوراً . وتذهب عنها قوتها " .

---

* الهوني (Hun) : شعب المغول .

وما دنا ولسون قط في الافصاح بتفصيل عن مرامي الحرب الا في النقاط الأربع عشرة . ويكمن الانجاز التاريخي لولسون باقراره أن أمريكا لن تستطيع صبراً لمواثيق عالمية عظيمة لا يبررها الاخلاص الاخلاقي . لقد هوى نجمه عندما استطب مآسي التاريخ كأنها زيوغ أو بباعث في عيوب القادة المنفردين وشرورهم ، وبأباءه أيما أساس موضوعي للسلام ما حاشا قوة الرأي العام وذيوع القوانين الديمقراطية عالمياً . وفي هذا المضمار كان يساءل أمم أوروبا لتبني أمر ما تأهبوا له فلسفياً وتاريخياً وكان رادفاً لحرب سلبتهم كل ما يكتنزون .

وجذرت الأمم الأوروبية ، نحواً من ثلاثمائة عام ، النظام العالمي في توازن المصالح الوطنية فكانت سياستهم الخارجية تتناحر سعياً للأمن وتألف كل منفعة أخرى مغنماً مضافاً . سأل ولسون أمم أوروبا أن تجذر سياستها الخارجية في مفاهيم أخلاقية مشيعة عنها الأمن ليكون مآل الأحداث الطارئة . ولكن أوروبا انعدمت من المهيئات الفكرية لمثل هذه السياسة النازهة ومكثت تتبصر في أميركا ، الظاهرة من قرن عزلة ، أن تتجشم عناء الانهماك الآبد في الشؤون العالمية تماماً كما تبطنته نظريات ولسون .

كان بزوغ ولسون على مسرح الأحداث منهلاً لأمريكا ، فهو من طراز نادر لرئيس يقلب جوهرياً منحى تاريخ بلاده . فلو تسيد روزفلت الموقف في عام ١٩١٢ ، أو شاعت أفكاره حينذاك ، لكانت قضية أهداف الحرب استقصاءً عن طبيعة المصلحة الوطنية . كان روزفلت سيستبقي على أمريكا دون ولوج الحرب لاعتقاده أن أمريكا اذا لم تلج الحلف الثلاثي ، ستظفر القوى المركزيه بالحرب وتغدو تهديداً لأمن أمريكا ، عاجلاً أو آجلاً .

لقد أفضت المصلحة الوطنية الأمريكية ، بمرور الزمن ، الى تبني أميركا سياسة عالمية تظاهي ما فعلته بريطانيا حيال قارة أوروبا . فعلى مدى قرون ثلاثة ، انطلق القادة الأميركان في افتراضهم أن موارد أوروبا ، اذا ما سبخت في مستنقع لدولة واحدة ، سيهدد هذا البلد سيادة بريطانيا العظمى على البحار ويقلقل استقلالها . اننا لو تفحصنا أميركا في العدسة الجيوسياسية ، نراها أيضاً جزيرة تشرف على شواطيء أورازيا ، فهل في عنقها ، للعلة ذاتها ، أن تقاوم هيمنه قوة واحدة على أوروبا أو آسيا ، أو بالأخرى ، سيطرة القارتين بيد القوه ذاتها ! وفي هذا المضمار كان سبب الحرب المؤكد هو التوسع الألماني وليس خطاياها الأخلاقية .

ومع ذلك سار العالم على شفا نقيض لما تشتهيه العواطف الأمريكية التي نفخ ولسون الروح فيها ، وبقي أمر أوروبا هكذا حتى يومنا هذا . فحتى روزفلت لم يتدبر أمر سياسة القوة التي ناصرها مع أنه قد فارق الحياة مقتنعاً بتحقيقه ذلك . وعلى أية حال أوضح ولسون ، قبيل دخول أميركا الحرب ، بأنه يناويء أية محاولة لترسيخ نظام ما بعد الحرب على أساس المباديء المشرعة للسياسة الدولية .

وما بعث الحرب ، في رؤية ولسون ، ليس شرور القيادة الألمانية حسب ، بل نظام توازن القوى الأوروبي - فهاجم ، في ٢٢ شباط عام ١٩١٧ ، النظام العالمي الذي سبق الحرب ونعته بـ " المناحرات المنظمة " :

" ان المسألة التي يتوقف عليها مستقبل أوروبا كامله وسياسة العالم هي ما يلي : هل الحرب الدائرة من أجل العدالة وتحقيق السلام ، أم من أجل توازن أقوى محدث ؟ .... ويقينا لن يكون ثمة توازن قوى ، بل مجتمع قوة ، ولا تناحرات منظمة ، بل سلام مشترك منظم " .

وعنى ولسون بـ " مجتمع القوة " مفهوما محدثا تماماً غدا يعرف بـ " الأمن الجماعي " واقترح تدريع النظام الدولي بالاجماع الأخلاقي للدول المحبة للسلام ، لا سيما وأن لأمم العالم هذه مصالح متكافئة في السلام وستسعى معاً لردع كل من تسول له نفسه قلقلة التوازن . وذكر قائلاً :

" لقد أمسينا على عصر يأبى كل معايير الاستئثار الوطنية ، التي استبدت على سلوك الأمم ، ويدعونا أن نعبد طريقاً محدثاً لنظام الأمور لا يكون فيها أيما مساءلة ما خلا : " هل هذا الأمر حق " ؟ أعادل ؟ " " أتنتفع البشرية منه ؟ " .

رشح ولسون عصبة الأمم ، القانون الأميركي جوهراً ، لتأسس هذا الاجماع ، فاستحالت القوة ، في كنف هذه المنظمة الدولية ، الى أخلاق وقوة السلاح الى أمر للرأي العام . وأدام التأكيد أن الحرب ما كان لرحاها أن تدور لو أطلع العامة على حقيقه أمرها - متجاهلاً ما حصل في بداية الحرب حيث استقبلتها كل العواصم بالبهجة والسرور العارمين ، حتى في بريطانيا العظمى وفرنسا الديمقراطيتين . ويرى ولسون أن النظرية المحدثة لو قدر لها أن تعمل ، لأقتضت اطراء تغييرين ، في الأقل ، للحكم العالمي : انتشار الحكومات الديمقراطيه

في العالم وتوسيع " دبلوماسية حديثة وآمنة " تستند الى " مبدأ الشرف الأسمى ذاته ، الذي نطالب به للأفراد " .

وفي عام ١٩١٨ أفصح ولسون عن مقتضى للسلام ذي مرمى مثير في الطموح وحديث المسمع فهو يدعو الى " سحق أيما قوة مستبدة تسعى ، لوحدها وبسريه ومن خاصة مشيئتها ، الى قلقلة سلام العالم ، أوان نشلها عن ذلك ، لو تعسر علينا سحقها " .

وذكر في مؤتمر السلام ، في ١٤ شباط عام ١٩١٤ ، ان عصبة الأمم النابضة بمثل هذه المواقف ومهيكلة منها ، ستفضى الأزمات دونما حرب ، وقال :

" اننا نتوكأ [بفعل ميثاق العصبة] أساساً وأولاً على قوة عظيمة واحدة هي القوة المعنوية للراي العام العالمي . بحيث أن الأمور التي يجهز عليها الضياء سيأتي عليها أيضاً الضياء الساطع المعبر عن الشجب العالمي " .

ولم يعد حساب القوى البالي باعثاً لاستتباب السلام ، فمرد الأمر الى الاجماع العالمي الذي تعينه مكننة الحماية . والألتئام العالمي للأمم الديمقراطيه الكثيره ستؤلف " وصاية السلام " الذي يعوض توازن القوى البالي وأنظمة الأحلاف .

وهب أننا نحينا جانباً مسألة التطبيق ، سنرى أننا بازاء أراء سامية ما طرحتها قط أمة على وجه هذه البسيطه . ومع ذلك غدت هذه الآراء ، في مضامير المثالية الأميركية تداولاً مشتركاً للتفكير الوطني المتعلق بالسياسة الخارجية ،

وكل رئيس خلف ولسون قد تقدم بتحويرات لفكرة ولسون ودرست المناظرات الداخلية ، عادة ، خيبة تحقيق مناهيمه دون التقصي عن ارشادها الوافي لحل التهديدات الوحشية التي تحيق ، أحيانا ، بالعالم المضطرب . لقد هاجم النقاد ، عهداً من ثلاثة أجيال ، تحليل ولسون وخلاصاته ، لكن مبادئه مكثت في كل الدهور الصخر الأديم لفكر سياسة أميركا الخارجية .

ومع ذلك أطلقت مزاوجة ولسون بين القوة والمبدأ العنان لعقود من الازدواجية ولما يسع الوعي الأميركي للتوفيق بين مبادئها وضرورياتها . فالبديهية الأساس للأمن الجماعي أن تأنس الأمم كلها أيما تهديد للأمن بالعين ذاتها وتتاهب لردع الخطر بذات الدرجة من القوة . ولم يحصل مثل هذا حقاً حسب ، بل لم يكتب الحدوث لأمر كهذا في التاريخ الكامل لعصبة الأمم والأمم المتحدة . فاذا كان الخطر ساحقاً ومؤثراً ، أبلغ الأثر ، في جميع المجتمعات ، أو أكثرها ، سيصار حينها الى الاجماع - كما حصل أبان الحربين العالميتين وفي الحرب البارده ، وعلى اساس اقليمي .

وتجنح أمم العالم في أغلب الأحداث - كل المستعصية تقريبا- الى عدم الموافقة حول طبيعة التهديد أو حول نمط التضحية التي ينحرونها قرباناً لذلك ومكث الأمر على حاله منذ اعتداء ايطاليا على الحبشة عام ١٩٣٥ حتى أزمة البوسنة عام ١٩٩٢ . وبرهن هذا الاجماع التعسر الشديد لتحقيقه حتى مع أمور تتعلق بتحقيق مرامي ايجابية أو رفع الجور الواضح . وما يثير السخرية أن هذه الصعوبات تجلت غداة الحرب الباردة ، التي تتملق كثيراً الى الديمقراطيه ولا تشكل تهديداً عسكرياً أو فكرياً شديداً .

وأبرزت الولسنية أيضاً صدعاً كامناً في التفكير الأميركي عن الشؤون العالمية . هل تنعم أميركا بمصالح أمنية تعوزها للدفاع ، بصرف النظر عن السبيل الذي أحاق التهديد بالمصالح ؟ أوينبغي لأمريكا مجابهة التغييرات حسب ، التي تنعت ، عدلاً ، بلا شرعية ؟ أيما يعني أميركا ، الحقيقة أم التحول الدولي ؟

هل تأبى أميركا المباديء الجيوسياسية جملة ؟ أتحتاج هذه المباديء أن ترشح ، كرة أخرى ، بمصفاة القيم الأمريكية ؟ واذا ما تلاطمت هذه الأمور ، فلمن الظفر ؟ .

وتنم الولسنية عن مقاومة أميركية ، فوق كل اعتبار ، لوسيلة التغيير اذ ليس لها ثمة مصالح حيويه أهلاً للدفاع عنها لو أخطرتها عمليات قانونية جلية . ففي أواخر حرب الخليج ، أعلن الرئيس بوش أنه كان يقاوم مبدأ الاعتداء أكثر من خشيته على موارد النفط الحيوية . واهتمت المناظرات الأمريكية الداخلية ، أبان الحرب الباردة ، بالسؤال المتعلق ، بحق أميركا المعنوي في تجييش المقاومة للحرب الباردة .

ويقينا أن ثيودور روزفلت كان سيجيب عن هذه الأسئلة ، فالافتراض المنادي للأمم ان تدرك الأخطار تماثلاً وتستعد وتتهيأ للاستجابة اليها بشكل متسق قد مثل أباء لكل أمر أطلع عليه . وما استطاع أن يأنس أيما نظام عالمي ينتمي اليه المعتدي ، والضحية في الوقت عينه . وكتب رسالة في تشرين الثاني عام ١٩١٨ : " أنا نذر لهذه العصبة شريطه أن لا نتوقع منها الدر الغزير أنا راغب عن تبوأ الدور الذي سخر منه حتى يعسوب عندما كتب عن اتفاق الذئاب والغنم على نزع

السلاح ، فأبعدت الغنم كلاب الحراسة ضماناً لصدق النيه ، فأفترسها الذئاب حالاً " .

وكتب رسالة ، في الشهر التالي ، الى السناتور كنوكس من بنسلفانيا :

" لا تصنع الأمم المتحدة من المعروف الا نزراً يسيراً ، فكلما عظمت أبهتها ودعواها بالعمل ، بلغت منه القليل . ان الحديث عنها ينم ايحاءً هازلاً كالكلام عن الحلف المقدس قبل مائه عام ، الذي هدف أساساً لاستتباب السلام أبد الدهر . فالقيصر الأكسندر هو الرئيس ولسون لهذه الحركة الخاصة قبل قرن " .

ويقدر روزفلت أن المتصوفين والحالمين والمفكرين هم من يرى السلام حالة طبيعية للانسان ويشدد أزرها بالاجماع النازه . ويرى أن السلام واه أصلاً ولا ينتهي اليه الا اليقظة الآبدة ، وسواعد البسلاء وأحلاف المتوافقين فكراً .

لقد عاش روزفلت في قرن تأخر كثيراً أو بكر كثيراً وأقبرت فيه فكرته عن الشؤون الدولية عام ١٩١٩ : وما استحضرته أيما مدرسة للفكر الأميركي عن السياسة الخارجية غداتها ويقينا أن انتصار ولسون الفكري هو الذي حدا بريتشارد نيكسون ، المبطنة سياسته كثيراً من مفاهيم روزفلت ، أن يعد نفسه ، فوق كل اعتبار ، شطراً من دولية ولسون وصورة مزينة لرئيس حرب في غرفة الوزارة .

لقد فشلت عصبة الأمم في حظوة موطيء لها في أميركا لأن هذا البلد غير مستعد لتبوأ دور عالمي . ومع ذلك برهن ظفر ولسون الفكري تطوره حيال أي

نصر سياسي آخر : فكلما شمرت أميركا على ساعديها مهمة بناء نظام عالمي جديد ، عادت سيره مفاهيم ودرو ولسون ، بطريقة أو بأخرى وساهمت ، عند اختتام الحرب العالمية الثانية ، بصيرورة الأمم المتحدة وفقاً لمباديء العصبة ذاتها ، رجاءة ايجاد سلام يجمع عليه الظافرون . وعندما تبدد هذا الأمل ، شنت أميركا الحرب الباردة كصراع معنوي من أجل الديمقراطية وليس نزاعاً بين القوى العظمى . وعندما انهارت الشيوعية تبنت ادارات الحزبين الأميركيين السياسيين أفكار ولسون المنادية بالأمن الجماعي كدرب للسلام .

وتحبس الولسنية الدراما الأميركية المركزية على المسرح العالمي : فعقيدة أميركا ، الى درجة ما ، ثورية بينما خال الأميركيون أنفسهم ، في الداخل ، راضين بالواقع الراهن. وشعر عموم الأميركان ، الجانحين لتصيير قضايا السياسة الخارجية صراعاً بين الخير والشر ، بالامتعاض من التسوية كدأبهم للنتائج المشطورة والناقصة . وتزامنت حقيقة ابتعاد أميركا عن تحقيق تحويلات جيوسياسية واسعة مع جهادها دون الحالة الراهنة الاقليمية ، وأحياناً السياسية ، وتعسر عليها ، بباعث ثقتها بحكم القانون ، ان توفق ايمانها بالتغيير المسالم والحقيقة التاريخية في حصول أكثر التغييرات المهمة في التاريخ بصورة عنف وجيشان .

ألفت أميركا أن عليها وضع أفكارها موضع التنفيذ في كون لا ينعم بسعادة شعبها وبتوافق مع دول يشق عليها بقاءها ، وذات أهداف محدوده ، وأقل ثقة بالنفس . ومع ذلك تحقق لأميركا ما صبت اليه وأمسى عالم ما بعد الحرب

خلقاً أميركيا لكي تقدر في نهاية المطاف ، أن تتبوأ الدور الذي أنسه ولسون لها هادياً يهتدى وأملاً يرتجى .

الفصـــل الثالـــث

من الشمولية الى التوازن

راشليو ، وليم أورانج ويت

بانت التباشير الأولى لنظام توازن القوى الأوروبي ، كما يقول له مؤرخو عصرنا هذا ، في القرن السابع عشر عندما لفظت العصور الوسطى آخر أنفاسها لتضيء النور للشمولية العالمية – مفهوم النظام العالمي ، المزاوج بين تقاليد الامبراطورية الرومانية والكنيسة الكاثوليكية . كان هذا العالم يستشعر كصورة عاكسة لله ولأن الله واحد ، لا اله غيره ، مستو على عرش السماء ، كان للكون الدنيوي امبراطور واحد يسير الحكم فيه ، وللكنيسة الكاثوليكية بابا واحد بيده شؤونها .

وكانت الدول الاقطاعية ، المانيا وشمالي ايطاليا ، قد خضعت معاً لحكم الامبراطورية الرومانية التي هيمنت ، حتى القرن السابع عشر ، بجبروتها على أوروبا ، أما فرنسا ، التي تطرفت حدودها الغربية في نهر الراين كثيراً ، وبريطانيا العظمى فكانتا خارج نطاق هذه الامبراطورية . فلو أفلح الامبراطور الروماني في أحكام سيطرة مركزية فوق كل القطاعات المسلطنة له ، لكانت أواصرها مع دول أوروبا الغربية تماثل ما بين جيران الصين والمملكة القلب : فرنسا مقابل كوريا أو فيتنام وبريطانيا العظمى بازاء اليابان .

لم تبلغ الامبراطورية الرومانية المقدسة ، في الهزيع الأعظم من العصور الوسطى ، هذه الدرجة من السيطرة المركزية وأحد علل ذلك أنها معدمه من أنظمة الاتصال والنقل المناسبة ، فشق عليها توحيد مثل هذه الأقاليم . والعلة الأهم أنها انحدرت بهيمنة الكنيسة عن سيطرة الحكومة وما كان بيد الامبراطور الروماني المقدس ايه معزيات الهية ، بنقيض ما لكل فرعون وقيصر . وفي كل بقعة خارج أوروبا الغربية ، حتماً في المناطق التي تحكمها الكنيسة الشرقية ، تآخت الحكومة والدين لاسيما وأن كل منصب رئيس فيهما ، معروض للحكومة ، فما كان للسلطات الدينية الوسائل أو زمام الأمور لترسيخ الموقع المستقل ، الذي تطالب به مسيحية الغرب كامر من أمور الحق .

وفي غربي أوروبا هيأ الصراع الفعلي والحيني ، بين البابا والامبراطور ، الظروف لتشريع قوانين نهائية وفصل القوى ، بؤرة الديمقراطية الحديثة . قدر هذا الأمر الحكام الاقطاعيين شتى على تعزيز استقلالهم باستقطاع الثمن من الطرفين المتناحرين كليهما . وافضى ذلك الى تبغض أوروبا - شتات من الدوقيات والمونتيات والمدن والأسقفيات . وبالرغم من أن هذه الأقاليم الاقطاعية توالي ، نظرياً ، الامبراطور ، فانها ، واقعياً ، فعلت ما طاب لها . لقد تداعت مختلف السلالات على التاج الملكي وتوارث السلطة المركزية . وما فتى الاباطره في رؤياهم العهيدة للحكم الشامل دونما تبوأه . لم تذعن فرنسا وبريطانيا العظمى وأسبانيا ، الكوائن في أطراف أوروبا ، بسلطة الامبراطورية الرومانية المقدسة برغم من أنهن شطر من الكنيسة العالمية .

وأحيا الامبراطور تشارلز الخامس ، في الشطر الأول من القرن السادس عشر ، السلطة الملكية لأمر بشر بافق الامبراطورية الأوروبية المركزية ، التي تؤلف اليوم المانيا ، والنمسا ، وشمالي ايطاليا ، وجمهورية التشيك وهولندا - الوحدة العظيمة هيمنة وبأساً للكي تجهض على ولادة أي مناويء لتوازن القوى الأوروبي .

وفي هذه اللحظة ذاتها أحدث ضعفاً البابا ، أثر الاصلاح ، انهياراً الامبراطورية الأوروبية المهيمنة . كان البابا ، في أشده ، شوكة تعثور امبراطور رومانيا المقدسة وخصماً شديد البأس وعندما بلغ القرن السادس عشر عتيه ، برهن البابا المبلغ الفاسد لفكرة الامبراطورية ، رام الأباطرة أن يبصروا أنفسهم ، ويأنسهم الآخرون ، كوسائل من عند الله ، ولكن الآخرين في الأقاليم البروتستانية قد استشعروا ، أبان القرن السادس عشر ، أن هؤلاء الأباطرة أدنى من وسطاء الله وحكام مصفودون بالبابا الفاسد . لقد عتق عصر الاصلاح حرية عمل أخرى للأمراء الثائرين في المسارح السياسية والدينية . فأي خروج عن روما ، خروج عن الدين كامله وأي مجابهة مع امبراطور هابسبرج ، آية للأمراء باضمحلال الولاء للامبراطور كفريضة دينية .

وعندما أجهض مفهوم الوحدة ، عازت الدول الأوروبيه المتنامية الى بعض العلل لتبرير بدعتهم وتنظيم علائقهم . عثروا على هذه العلل في مفهومي " مصلحة الدولة " وتوازن القوى ، الصنوين المتلازمين . أكد مبدأ " مصلحة الدولة " أن الوجود يبرر وسائل توسيعه ؛ المصلحة الوطنية استأصلت انطباع الأخلاق الشاملة للعصور الوسطى . لقد أعاض توازن القوى ، عن مسألة الحنين

لمملكة العصور الوسطى بسلوى أن كل دولة ستتشاطر ، الى حد ما ، استتباب الآخرين وتطورهم ولماً ترعى خاصة مصالحها .

وهذه الفكرة المحدثة ، بابكر صيغة لها وأوسعها ، قد أنجبتها فرنسا ، الدولة القومية في أوروبا . وما قامت فرنسا الا لتضحي بالكثير كي تنعش الامبراطورية الرومانية المقدسة سيما أن فرنسا ، على الأرجح قد " تفنلدت " - اذا ما استخدمنا المصطلح الحديث - بيد هذه الامبراطورية .

وشرعت فرنسا ، ولماً شاخت القيود الدينية ، باستغلال ما انجبه عصر الاصلاح في تناحرات بين جيرانها وتيقن قادتها أن الهزل المستفحل في الامبراطورية الرومانية المقدسة (وانشقاقها أيضاً) من شأنه تقوية الأمن الفرنسي وتقديرها على التوسع شرقاً ، في أحسن فرصة .

ويكمن جوهر قوة السياسة الفرنسية هذه في الشخصية الفذه الكاردينال آرمان جان دبليسيس رشليو ، أمير الكنيسة وأول وزير فرنسي من عام ١٦٢٤ حتى عام ١٦٤٢ . ويزعم أن البابا أوربان الثامن ذكر قولاً في رشليو عندما علم بوفاته : " لو كان ثمة وجود لله ، فعلى رشليو أن يجيبه طويلاً ... وان انعدم ذلك فقد ظفر رشليو حقاً بحياته " .

ويقينا أن هذا الرثاء المتناقص قد أسعد السياسي الذي حقق عظمى النجاحات عندما أنكر فرائض عصره الدينية وأعرض عنها . وقلة قليله من الساسة تدعي أنها أثرت ، أبلغ الأثر ، في التاريخ . كان رشيلو والد نظام الدولة الحديث وناشر مفهوم " مصلحة الدولة " وممارسها ، دون اكتراث ، لمنفعة بلده - لقد تبرأ

" مصلحة الدولة " في ظلـه ، مفهـوم العصـور الوسـطى للقيـم الأخلاقيـة الشـاملة وأمسى المبدأ الموظب لسياسة فرنسا . سعى أول المطاف الى حد سيطرة هابسبرج على أوروبا وخلف ، أخيراً ، وصية أغرت حلفائه في القرنين الرادفين على سيطرة أوروبا . لقد تمخض عن هذه الاخفاقات توازن القـوى كحقيقـة حيـاة أولاً ، ثـم نظام لتنظيم العلاقات الدوليه . تبوأ رشيلو منصبه عام ١٦٢٤ ولما كـان فردينـاند الثاني ، امبراطور رومانيا الهابسبرجية المقدسة ، يسعى الى احياء الكاثوليكية العالمية وقطع دابر البروتستانية والتسلطن ، كملك ، على امراء قلب أوروبا . أفضى هـذا الاجراء ، الاصلاح المقابل ، الى ما يسـمى بحـرب الثلاثـين عامـاً الـتي أضرمـت في أوروبا المركزيـة عـام ١٦١٨ واسـتحالت الى أطحـن المعـارك وأحماهـا وطيسـاً في تاريخ البشرية .

كان عام ١٦١٨ ايذاناً للمقاطعة الناطقة بالألمانية في مركـز أوروبـا ، الـتي هي شطر من الامبراطورية الرومانية المقدسة ، بالتنـاحر في معسـكرين مسـلحين - البروتستانت والكاثوليك . كانت شرارة الحرب الأولى قد أضرمت في السنه ذاتها في براغ ، قبل أن تنساق المانيا ، بكاملها ، الى هذا القتال بوقت عظيـم . وعندمـا تفادحت خسائر المانيـا ، بنحـو عظيـم ، أمسـت اماراتهـا طعمـاً سـهلاً للغـزاة في الخارج . كانت الجيوش السويدية والدانماركية تقطع طريقها عبر أوروبـا المركزيـة وانضم الجيش الفرنسي الى هذا القتال في نهاية المطاف . وعندما وضعـت الحـرب أوزارها عام ١٦٤٨ ، عـاث الخراب أوروبا المركزية وهلـك قرابه ثلـث سـكان المانيا . وفي بوتقه هذا النزاع القم كاردينال رشليو سياسـة فرنسـا الخارجيـة بمبـدأ مصلحة الدولة ، الذي تبنته سائر الدول الأوروبية في القرن التالي .

كان على رشليو ، بصفته أمير الكنيسه ، ان يحيي خطوة الفرديناد في اعادة الأرثوذكسية الكاثوليكية لكنه أعلى المصلحـــة الوطنية الفرنسـية فـوق أيـة مرامـي دينية . كان يتطلع ، حتى في مهمته ككاردينـال ، الى محاولـة هابسـبرج في اعـادة الديانة الكاثوليكية ، سيرتها الأولى ، كتهديد يحـدق بـامن فرنسـا فمـا كـان هـذا الأمر عملاً دينياً حسب ، بل منـاورة سياسـية نمساوية للتسـلطن بسيطرتها علـى أوروبا المركزية ونقل فرنسا الى مصاف الدول الثانوية .

لم تكن مخاوف رشليو واهية فاذا ما ألمحنا خارطة أوروبا نـرى فرنسـا وقـد أحاطتها أراضي هانسبرج من كل حدب وصوب : أسـبانيا في الجنـوب ، ومـدن شمالي ايطاليا ، التي تحكـم اسبانيا أغلبهـا ، الى الجنـوب الشـرقي وفي الشـرق مـن فرنسا تقع فرانش-كومتي (المنطقة حوالي الليون والسافوي في هذا الوقت) وهـي خاضعة ايضاً لهيمنة أسبانيا ، وفي الشمال تقع مناطق هولندا الاسبانية . وخضعت الأطـراف القليلـة ، الـتي لا يحكمهـا الهابسـبرج الأسـبانيون ، الى نسـب العائلـة النمساوي . منحت دوقية لورين ولائها الى امبراطور رومانيا المقدسة النمسـاوية ، كما فعلت كثير من المناطق الهامة ستراتيجيا على امتداد الراين الذي (يعرف اليـوم بالالساس) . فلو قدر لالمانيا الشمالية أن تخضع لحكم هابسبرج ، لأمست فرنسـا هزيلة ، بشكل يخشى عليه ، ازاء الامبراطورية الرومانية المقدسة .

أسبغ رشليو نزراً من ارتياحه في حقيقة تشاطر النمسا واسبانيا لايمان فرنسا الكاثوليكي وعقد العـزم ، بكـل تصميـم ، أن يحـول دون ظفـر حركـة الاصـلاح المقابل . وسعياً من أجل ما يسمى اليوم بمصلحة الأمن القوي (التي وصفـت أول

وهله بمصلحة الدولة) تجانب رشليو مع الأمـراء البروتستانيين واستغل الانشقاق الحاصل في الكنيسة العالمية .

ولو التصق حكام هابسبرج طبقاً للأحكام ذاتها أو تفقهوا عـالم " مصلحة الدولـــة " المولود ، لكانوا قد رأوا روعة تحقيقهم لما يخشاه رشليو ، أعظم الخشيه - تفوق النمسا وتسيد الامبراطورية الرومانية المقدسة قوة القارة . ومع ذلك اغتنم خصومها ، على مر العصور ، تصرم هذه السلالة في التكيف مع الضرورات التكتيكية أو تفقه تيارات المستقبل . كان لهابسبرج رجال مبادىء لم يساوموا قط بها الا عندما تذهب ريحهم . لذلـــك ما كانوا محصنين بازاء مكائد رشليو القاسية ، مع استهلالة هذه الاودية السياسية .

ويقينـــاً لم تتناه الى مسامع الامبراطـــور فرديناند الثاني ، خصم رشليو ، " مصلحة الدولة " ولو حصل ذلك ، لدحضها كضرب من التأله . كان يرى في رحلته الدنيوية تحقيقاً لمشيئة الله فشدد دائماً على " المقدس " في لقبه امبراطور رومانيا المقدس . لقد أقر ان الغايات الدينية لا يحققها الا الوسائل الأخلاقية فما فكر قط بعقد المعاهدات مع البروتستانت السويديين أو المسلمين الأترك ، الأفعال التي أقدم عليها رشليو كأمر من شؤونه . أوجز اليسوعي لاموميني ، مستشار فرديناند ، تطلع الامبراطور :

" كان من حكمته أن يعلن ، السياسات الفاسدة الموروبة ، المبثوثة في ذلك الوقت ، عن بكرة أبيها . تزمت أن لا يتعامل مع ناهجي هذه السياسات لأنهم

يعتدون على أمر الله والدين ويكفرون بهما . ان لمن التفاهة فرطاً أن يسعى المرء لتقوية مملكة ، خلع الله عليها هذه القوة ، بوسائل يمقتها الله " .

والحاكم الملتزم بقيم مطلقه كهذه تعجز عليه المساومه - وأعلن في عام ١٥٩٦ ، ولما يزل ارشيدوقا ، " خير لي الموت على أن أهب أية امتيازات للطوائف ، عندما تمس القضيه أمر الدين " .

ويقيناً أن صنائعه التي عاش من أجلها ، قد مست الضر في امبراطوريته لأنه قد أبلى ، أحسن البلاء في تمجيد مشيئة الله لا انعاش امبراطوريته ، والزم نفسه ، بحكم الواجب ، على استأصال البروتستانية حتى وأن كانت التسوية معها تدر منفعة جليلة له . انه في المصطلح الحديث ، متعصب وألقى أحد المستشارين الملكيين ، كاسبرسيفيوس ، الضوء على معتقدات الملك :

" بئس الملك الذي يعرض عن نداء الله كي يهجر بدعه ، اياك والحرب من أجلك ، الا لله " .

عامل رشليو ايمان فردينانه كتهديد ستراتيجي وأدرك واجبه كوزير في المفردات الدنيوية المحضة على الرغم من وظيفته الدينية - كان رشليو يرى في الخلاص غرضاً شخصياً للفرديناند ، ماله صلة بالدولة وذكر ذات مرة :

" الانسان خالد وخلاصه في الآخره . والدولة ليست بآبدة وخلاصها أما الآن وأما لا خلاص لها " . وبعبارة أخرى لن يدر صنيع المعروف على الدولة أي شرف وكل ما يجزيها هي القوة العظيمة لتفعل ما تراه ضرورة " .

ما اذن رشليو قط لذاته في هدر الفرصة التي غرضت نفسها على فرديناند عام ١٦٢٩، السنة الحادية عشرة للقتال كان الأمراء البروتستانيون على أهبة للرضوخ لسيطرة هابسبرج السياسية شريطة أن يظلوا أحراراً في ممارسة ما يشاؤون من طقوس دينية وأن يبقوا على أراضي الكنيسة التي اغتنموها، أبان عصر الاصلاح ٠

ما كان للفرديناند أن يستبق المقتضيات السياسية على ندائه الديني فأبى هذا الظفر العظيم أو تأكيد امبراطوريته ٠ لقد آثر أن يستأصل البدع البروتستانية وطالب أسياد هذه الطائفة ، في مرسوم اعادة الملكية الذي أصدره ، ارجاع كل الأقاليم التي اغتنموها من الكنيسة عقب عام ١٥٥٥ ٠ كان هذا ظفر الحماسة على المنفعة ومسألة اعتيادية يتجاوز الايمان فيها كثيراً حساب المصلحة الذاتية السياسية ٠ فأكد معركة حتى الرمق الأخير ٠

وبازاء ذلك وطد رشليو العزم على اطالة الحرب ريثما تصطبغ أوروبا بالدماء عن بكره أبيها ٠ لقد أشاح بوساوسه الدينية عن السياسة الداخلية أيضاً فمنح ، بعفو الأليس عام ١٦٢٩ ، الفرنسيين البروتستانت حرية العبادة ، الحرية ذاتها التي استعبدها الامبراطور عن امراء المانيا ٠ لقد وظب رشليو حماسة فرديناند لمنفعة غايات فرنسا الوطنية ودرعها من الثورات الداخلية التي عصفت بأوروبا ٠

وفي الحقيقة فان عجز امبراطور هابسبرج عن تفقه مصالحه الوطنية - أو بالأحرى اباءه شرعية أي منها - قد هيأت الفرصة للوزير الفرنسي الأول لمعاضدة أمراء المانيا البروتستانيين ومآزرتهم للوقوف بوجه امبراطور رومانيا المقدسة ٠

وعلى الأرجح كان الدفاع عن حريات الأمراء البروتستانيين قبالة نوايا الامبراطور الروماني المقدس احدى المرامي التي شاء أن يصيبها هذا الأسقف الفرنسي والملك الفرنسي الكاثوليكي ، لويس الثالث عشر . كان للجوء أمير الكنيسة الى غوستاف أدولفس ، ملك السويد البروتستاني ، لاضرام حرب مع امبراطور رومانيا المقدسة تبطن ثوري غائر بقدر ما لجياشاتات الثورة الفرنسية ، بعد مئة وخمسين عاماً ، من عمق .

وفي كل عصر تحكمه الحماسة الدينية والتعصب العقيدي ، تبصر النور سياسة خارجية نزيهة معدمة من الفرائض الأخلاقية ، كأنها الألب المثلوج يشمخ عالياً في الصحراء . هدف رشيلو الى وضع حد لما عده تمحيط فرنسا ، وأهلاك الهابسبرجيين والحيلولة دون ولادة قوة عظمى على حدود فرنسا - وخاصة في الطرف الألماني . كانت معاييره في عقد الأحلاف أنها تعود بمنفعة فرنسا ، فأقدم أولاً مع الدول البروتستانية ، وحالف ، في نهاية المطاف ، حتى المسلمين الأتراك ، وسعياً الى استنزاف المتناحرين ، واطالة أمد الحرب ، لجأ رشليو الى الأعداء على أعدائهم بالرشوة واخماد الثورات واثارة جمة " هائلة " من الخلافات . لقد حذق في الأمر ، غاية الحذقة ، بحيث أن الحرب التي أضرمت في عام ١٦١٨ قد أتت على العقد تلو العقد ريثما عجز التاريخ ، في نهاية الأمر عن ، خلفها بأيما اسم ، ما خلا أمدها - حرب الثلاثين عاماً .

كانت فرنسا حتى عام ١٦٣٥ ، في الجانب الآخر بينما تدهورت المانيا . وفي هذا العام ذاته لاح الاستنزاف الكامل ، كرة أخرى ، بشارة للانهاء التناحرات واقامة السلم . ما كان لرشليو ثمة منفعة لهذا السلام ، ريثما غدا الملك

الفرنسي شديد البأس كامبراطور هابسبرج أو أقـوى منـه . وسـعياً لهـذا المرمـى ، أقنع رشليو ملكه ، في السنة السابعة عشرة للحرب ، على ضـرورة دخـول القتـال بجانب الأمراء البروتستانيين - دونما تـبرير أفضـل مـن فرصـة توظيـب قـوة فرنسـا المتنامية :

" لفى آيات الحصافة الفرديـــة أن تـروض القـوى المقابلـة لدولتـك سنيناً عشراً ، بقوتك حلفائك : فتتجيب يدك لا أن تشرها الى سيفك . واذا ما ولجـت حرباً مفتوحة يفنى وجـود حلفـائك بعدمـك ، سيكون امـــارة للبسـالة وعظمـة الحكمة ، لأنك عندما تسخر سلاماً لمملكتك ، ستحذو حـذو الاقتصـاديين الذيـن يفقهون أنى ينفقون أموالهم ، بمثلى ما اكتنزونها " .

يعتمد نجاح سياسة " مصلحة الدولة " ، فوق كل اعتبار ، على قدرة تقييم علاقات القوة ، وتتجلى معالم القيم الشاملة بمفاهيمها وليس ثمة حاجة لتفسير ثـان ثابت ، لأنها في الحقيقه تتضارب معه . ويتطلب ارساء مديات القوة مزاوجة بـين الخبرة والمشاهدة وتكيفاً دائماً مـع الظـرف . ويقينـاً أن تـوازن القـوى ، نظريـاً ، ينبغي احصاء دقيقاً ولكن مثل هذا الأمر ، في الواقـع ، انقلـب شـديد الصعوبـة . وما عسّـر الأمر ، علاوة لذلـك ، تنـاغم حسـابات احـدى الـدول مـع سـائرها ، الشرط المسبق لعمل توازن قوى ان ما يقيم الاجماع على طبيعة التوازن ، عادة هـو الصراع الدائر بين أوان وآخر .

كان رشيلو ذا ثقة عظيمة بابراز التحدي ليقينه ، دائماً بامكانية تبرير الغايات بالوسائل على وجه تقريبي من الدقة الرياضياتية . وكتب وصيته السياسية :

" يقتضي المنطق أن الأمر المساند والقوة المساندة يجب أن يتجانبا نسبهما الهندسية " . لقد صيره القدر أميراً للمحكمة و حمله ايمانه الراسخ الى مصاف العقلانيين الراشدين كديكارت وسبينوزا الذين فكروا بالتخطيط العلمي لعمل الانسان ، وقدرته الفرصة على تسخير النظام الدولي ليدر بالمنفعة الجليلة لبلاده . كان تبصره ثاقباً للأهداف ولكن ما كان له - ولأفكاره - أن تذيع لوما فوقته في توظيب الوسائل لستراتيجيته .

وليس من الممكن أن تمرق عقيدة جد غريبة دونما تحدي . فتوازن القوى ، برغم هيمنتها كعقيدة في ما تلى من أعوام ، كانت تهجماً غائراً ضد القيم الشامله التي وجدت على أساس اعتلاء القانون الأخلاقي . وأحد الانتقادات الشديدة وجهها العالم المشهور يانسينيس ، في معرض تهجمه عن انفصال السياسة من الوسائل الأخلاقيه :

" أيؤمنون أن على الدولة الواحدة الفانية التسيد على الدين والكنيسه ..... ؟ أو لاينبغي على الملك المتسيح كثيراً الايمان أنه عندما يسير واقعه ويسخره ، فليس ثمة ما يرغمه على التوسع وحماية المسيح عيسى ، الهه ؟ أو يجرؤ على القول الى الله لينزاح عنك قوتك ومجدك والدين الذي يعلم البشر عبادتك ، وأحفظ لنا دولتنا وقنا شر الأخطار ؟ " :

ويقينا أن هذا ما كان يأسر رشليو أصدقائه به والى الله ، كما رأينا جميعاً . كان اجراء الثورة التي أحدثها قد حمل النقاد على التفكير بأنه قياس الحلف* ، الذي هو في الحقيقة ذو ايجاز عالي الدقة لفكر رشليو . لقد أعزى ، بصفته الوزير الأول للملك ، الدين والأخلاق الى مصلحة الدولة ، ضياءه الموجه .

أحال مدافعو رشليو ، يقدرهم فهمهم العميق للطرائق العيابة لسيدهم ذاته ، حجج ناقديه عاليها سافلها ، وقالوا أن المنفعة الذاتية الوطنية لأسمى صور القانون الأخلاقي ، فأمسى هؤلاء ، نقدة رشليو ، مدنسي المبدأ الديني ، وليس هو .

ومن قبيل الصدف أن ينتهي أمر الدفاع الرسمي عن رشليو الى دانييل دي بريزال ، العالم المقرب من الادارة الملكية ، بأمر من رشليو نفسه ، فأطر بزي ميكافيلي تقليدي الدعوى بارتكاب رشليو ذنب أخلاقي عندما تبنى السياسات الجانحة لاذاعة الهرطقة . لقد وضع ناقدي رشليو على كف عفريت لأن رشليو قد أصاب خيراً للدين الكاثوليكي عند سعى لمصلحة فرنسا سيما أنها من أنقى قوى أوروبا الكاثوليكية وأكثرها التزاما بالدين .

لم يفصح بريزال أنى خلص الى حظوة فرنسا بمثل هذه الموهبة الدينية الفريدة ومع ذلك ، تجذرت في بديهيته أن فرنسا كلماً قويت ، أتى الأمر بمنفعة

---

* قياس الحلف (Indirect Proof) : قياس أساسه البرهنة على المطلوب بابطال نقيضه أو على فساد المطلوب باثبات نقيضه .

وجود الكنيسه الكاثوليكية فكانت سياسة رشليو ، من هذا المنطلق ، نبيلة الأخلاق . وفي الحقيقة فان تمحيط هابسبرج على فرنسا قد أحدق بأمنها خطراً لا يدرك شأوه فتحتم ولوجه ، كما شاء ملك فرنسا ، بأية وسائل يصطفيها عسى أن تحقق المرمى الأخلاقي نهاية المطاف .

" أن يسعى للسلام بوسائل الحرب ، وعندما يشعل فتيلها ، يطرأ أمر نقيض رغائبه - هذا الأمر ليس بآثم الرغبة ولكن لقوانين الضرورة النازحة قسوة ووحشية ... الحرب عادلة عندما يحق الحق في غرضها ، المضرمة بسببه ... وهكذا فالرغبة عنصر يجب أخذه بالاعتبار ، لا كوسائل .... أن من يقتل المجرم لجرمه قد يزهق ، أحياناً ، دم البريء " . ان الغاية تبرر الوسيلة .

لقد كان حقاً رشليو بالمزيغ المذكور وسخر الدين بمثل ما ذكر عنه . ويقيناً كان رده أنه حلل العالم كما هو عليه ، مثلما فعل ميكافيلي . لقد استطاب لهما عالم جد مرهف الأحاسيس الأخلاقية ، لكن رشليو تيقن أن التاريخ سيزن سياسته بالطريقة المثلى التي استعان بالظروف والعوامل التي هيأت له . وفي الواقع أننا لو قيمنا أي سياسي ، باختبار تحقيقه الأهداف التي نذر نفسه لها ، سيغدو رشليو أحد الشخصيات الرشيمية * في العصر الحديث . لقد خلف وراءه عالماً يتباين جذرياً وما قد ألفاه وأرسى ، بقوة ، دعائم سياسة انتهجتها فرنسا ثلاثة قرون لاحقة .

* الرشيميه (Seminal) : مشتمل على بذور التطور .

أمست فرنسا ، في هذا المضمار ، سيدة أوروبا وعظمت مقاطعتهـا . وفي القرن الذي تلى سلام فستفاليا عام ١٦٤٨ ، مسك الختام الحرب الثلاثـين عامـا ، استحالت عقيده " مصلحة الدوله " ، مبدأ مسـيراً للدبلوماسـية الأوروبيـة . ومـا كان للمقام الذي نصب ساسة القرون التالية رشليوفيه ، أو سلوى مصير خصمه ، فرديناند الثاني ، لتدب الدهشة في الكاردينال ، الكمال ، دون أيـة أوهـام ، حتى مع ذاته ، وكتب في وصية السياسه :

" من له القوة ، له الحق ، ومن كان ضعيفاً ، عليه أن يجاهد بشده كـي لا يقصى ، لأئمه ، عن غالبية العالم " .

كان تأثير رشليو في تاريخ أوروبا المركزية نقيـض الانجـازات الـتي حققهـا للصالح الفرنسي . اعتراه الخوف من توحد أوروبا المركزيه فأحال دون بلوغ هـذا الأمر وأرجأ ، في أي ترجيح ، توحد المانيا نحواً من قرنـين . يمكـن اعتبـار الشـطر الأبكر من حرب الثلاثين عاما محاولة الهابسبرج للعمـل كعائلـة موحـدة لألمانيـا - تماماً كما غدت بريطانيا دولة قومية تحت تأثير عائلة النورمان ، أو بمثل مـا حـذت فرنسـا حـذوه ، بعـد عـدة قـرون ، تحـت تأثـير الكـابيين . لقـد أطـاح رشـليو بالهبسبرجيين وتشظت الامبراطورية الرومانية المقدسة الى نحو من ثلاثمائـه مميلكـه ، تمتعت كل واحدة بسياسة خارجيـة مسـتقلة . وفشـلت المانيـا في التوحـد كدولـة قوميه ، فقد أدقعتها النزاعات التافهة بين السلالات ، وأحالها الى الداخل . لذلـك لم تطور ثقافة سياسية وطنية وتكلست في ريفها و لم تلج منـه الا مـع آخـر أنفـاس القرن التاسع عشر حيث وحدها بسمارك . غدت المانيا حلبـة لأكـثر الصراعـات الأوروبية ، أضرمت فرنسا أغلبها ، وفاتتها الموجة الأوروبيـة الأولى لاستعمار مـا

وراء البحار ، وعندما توحدت في نهاية المطاف ، كان لها خبرة نزرة عن منفعة بلدها مما جلب كثيراً من أفجع مآسي القرن .

وعادة ما تعاقب الآلهة الانسان بتحقيق رغائبه على أكمل صورة ، كان الكاردينال مصيباً جداً في تحليله أن نجاح حركة الاصلاح المقابل سيزيل فرنسا في قوة الامبراطورية الرومانية المقدسة المركزية خصوصاً اذاً ما افترض المرء أن عصر القومية قد أزف . ولما كانت العقبة اللدود لمثالية ولسون هي الهوة بين مبادئها والواقع ، كان الخصم اللدود لمصلحة الدولة هي الافراط الكبير - الا في يد صاحبها . ما كان لمفهوم " مصلحة الدولة " الرشيليه منتهيات مبيتة ، ولكن الآن يسير المرء بمصالح بلده ، حتى يرتضيها ؟ وكم من الحروب يضرم كي يستتب الأمن ؟ ان الخطر الدائم ليحيق بالمثالية الولسنية لعزوفها عن مصالح الدولة ، بينما تنذر " مصلحة الدولة " الرشيلية بافناء ذاتي لصنائع القوة . وهذا ما طرأ على فرنسا عند تقلد لويس الرابع عشر زمام الحكم ، حيث أورث رشيليو لملوك فرنسا دولة شديده البأس تحيطها المانيا المفككة واسبانيا المتدهورة . ولكن لم يستكن بال للويس الرابع عشر اذ أنس الأمر فرصة للغزو ، وتأهب أوروبا ، بدأبه على " مصلحة الدولة " فاجتمعت هذه الدول الى ائتلاف ناوىء فرنسا وأجهز على نيته في نهاية المطاف .

ومع ذلك مكثت فرنسا ، بعد مئتي سنه على رشليو ، أكثر دول أوروبا نفوذاً وعضواً فعالاً في السياسة الدولية حتى عهدنا هذا . ونفر قليل من الساسة يدعون انجازات مناظرة فالنجاحات الباهرة ما حدثت الا عندما فسخ رشيليو بين القيود الدينية والأخلاقية السائدة في العصور الوسطى . ومن البديهي أن يتوارث

خلفاءه صنعة ادارة النظام ، وتستنبط أغلب الدول عملها من بديهياته . وهكذا أفلتت فرنسا فرصة الانتفاع من تقيد أعدائها بالاعتبارات الأخلاقية ، كما طرأ لفرديناند في عهد رشيليو . واذا ما تبوأت جميع الدول الدور ذاته سيشق عليها كثيراً در المنافع . وكان كل المجد الذي أرفعته " مصلحة الدولة " انها أعظمت من حركتها ، وما حدت جهودها في تحرير حدودها الخارجية ، وسيرتها حكماً لصراعات الدول الألمانية وسيدتها على أوروبا المركزية ريثما استأصلت بالقوة وعجزت قوتها ، باصطراد ، عن هيكلة أوروبا بالطراز الفرنسي .

وتبسط " مصلحة الدولة " الأساس لسلوك الدول المفردة دونما الاجابة على تحدي النظام العالمي . وبميسورها أن تفضي الى نزاع لهيمنة أو ارساء للتوازن ، الذي نادراً ما يتمخض عن تصميم مدروس . وعادة ما ينبع التوازن من الاجهاض على محاولة خاصة باحدى الدول للهيمنة ، تماماً كما بان توازن القوى الأوروبي من محاولة احتواء فرنسا .

وفي عالم رشليو ، ما عادت الدول ملزمة بحكم الشريعة الأخلاقية . فاذا كان المعروف أسمى قيم للدوله ، كانت فريضة الملك تعزيز مجده وتوسيعه . وسيسعى القوي الى التسيد والضعيف الى التحالف ، كي تتآخى القوى مع بعضها . واذا ما كان هذا الائتلاف قوياً لدحض المعتدي ، انبثق توازن القوى ، وبخلاف ذلك ، ستسعى احدى الدول لاحتلال جارتها . ومثل هذه النتيجة غير مقدره لأنها تختبر بحروب دائمه . ويكون من هذا المآل ، امبراطورية - المانيا أو فرنسا - على قدم المساواة مع بساطة التوازن . وهنا علة انسلاخ مئات السنين

لتأسيس النظام الأوروبي المتهيكل ، ببساطة ، على توازن القوى ٠ كان مثل هذا التوازن ، باديء ذي بدء ، حقيقة حياتية عارضة ، وليس بمرمى سياسي عالمي ٠

وما يثير العجب أن فلاسفة ذلك العصر لم يتفقهوا الأمر بصورته وعكس هؤلاء ، عصارات عهد التنوير ، إيمان القرن الثامن عشر ان العدالة والوفاق تولد من رحم صراع المصالح المتنافسة ٠ كان مفهوم توازن القوى ، ببساطة ، تمديداً للحكمة المألوفة ٠ ومرماه الأول منع سيطرة أية دولة ، واستتباب النظام ، لا أن تحول دون الصراعات ، بل تعويقاً ٠ كان استأصال الصراعات لكثير من ساسة القرن الثامن عشر المتعددين ، واهي التحقيق : كان الحل توازن المنابع الموروثة للطبيعة البشرية أو تسخيرها لتحقيق أفضل النتائج الآبدة الممكنة ٠

الفى فلاسفه عنصر التنوير النظام العالمي كشطر من كون يعمل كآلية ساعة عظيمة تتقدم دائبة دائمة صوب عالم أفضل ٠ ووصف فولتير ، في عام ١٧٥١ ، " أوروبا المسيحيين " كطراز لامبراطورية عظمى منشطرة الى دول عدة ، بعضها ممالك ، وبعضها هجين ... ولكن جميعها مترابطة ... لهم ذات المباديء المتعلقة بالشعب والقانون السياسي ، التي تجهلها سائر أجزاء العالم " ٠

كتب منتسيكو في الموضوع ذاته وكان توازن القوى ، له ، يستقطر الوحدة من الفرقة :

" تسير الأمور في أوروبا باعتماد الدول بعضها على بعض ... فأوروبا دولة واحدة تتألف من عدة مقاطعات " وفي الوقت الذي كتبت في هذه المقولة ،

شهد القرن الثامن عشر لتوه حربين على خلافة اسبانيا ، وحرب على خلافة بولندا ، وسلسلة في الحروب على خلافة النمسا .

وفي هذا المضمار كتب فيلسوف التاريخ ، ايميريخ دي فاتيل ، في عام ١٧٥٨ ، السنة الثانية لحرب السنوات السبع ، يقول :

" تسير المفاوضات المستمرة في أوروبا الحديثة كطراز جمهورية يتمتع كل أعضائها باستقلالية وتربطهم المصلحة المشتركة ويتوحدون لاستتباب النظام وصيانة الحرية . هذا الأمر انجب مبدأ توازن القوى المشهور ، المعني به بترتيب الأمور بحيث لا تمتع أية دولة بسيادة مطلقة أو تهيمن على ما سواها من دول " .

كان الفلاسفة يخلطون النتيجة بالنية فقد اضرم أمراء أوروبا ، على امتداد القرن الثامن عشر ، حروباً لا حصر لها دون أن يكون ثمة قبس من الحقيقة أن المرمى المقصود توظيب أيما مفهوم عام للنظام الدولي . ففي اللحظة الدقيقة عندما طفقت العلائق الدولية تستند للقوة ، استحدثت عوامل جد كثيرة بحيث ما عاد بالامكان تنظيم الاحصاءات .

ومن ذلك الأوان انبرت السلالات المختلفة توطد نفوذها بالتوسع الاقليمي وهكذا تبادلت مواقع القوة الخاصة بهم عن بكرة اليها . كانت اسبانيا والسويد تنحدران صوب موقع ثانوي بينما شفت بولندا من الانحدار . أما روسيا (الغائبة تماماً عن سلام فستلفانيا) وبروسيا (التي لعبت دوراً هامشياً) قد انبريتا قوتين عظيمتين . ان توازن القوى على درجة شاقة تعجز تحليله بثبات أطرافه نسبيا ،

وتغدو مهمة تقييمه واصلاح تخمينات القوى المختلفة أمراً مستعصياً دون ثمار عندما ينوس حال قوة أعضاءه بنحو دائم .

فتنت الهوة ، التي أخوتها في اوروبا حرب الثلاثين عاما ، الدول المحيطة للدبيب صوب مركز القادة ، لقد عزفت فرنسا عن الضغط في القرب وزحفت روسيا من الشرق وتوسعت بروسيا في قلب القارة و لم تشعر أية دولة رئيسة بايما التزام لتوازن القوى ، الذي أطراه الفلاسفة . تفهمت روسيا نأيها القاصي وكانت بروسيا ، الأصغر بين الدول العظمى ، جد هزيلة على قلب التوازن العام. لقد ملأ كل ملك جوفه بفكرة أن تقوية حكمه الخاص لهو أعظم الميسرات للسلام العام ، واستخلف الأمر بين يدي كلية الوجود اللامرئية كي تبرر جهوده دونما تحديد لتطلعاته .

ومن طبيعة مصلحة الدولة أن تنتفع من مبدأ " مصيبة الغير فائدة " كما صورها فردريك الكبير عندما اغتصب سيلسيا من روسيا ، برغم العلاقات الحميمه بينهما والتزام فردريك بمعاهدة احترام وحدة النمسا الاقليميه :

" ان تفوق حشودنا ، والحماسة المتقده التي نذكيها فيهم ، أو بعبارة أخرى ، المنفعة الصارخة في جيراننا ، كل ذلك يأتينا ، في الطوارىء العارضة ، تفوقاً على سائر قوى أوروبا .... فانكلترا وفرنسا خصومنا وستحرم بريطانيا على فرنسا التدخل في شؤون الامبراطورية ، لذا بميسوري التحالف معهما . لن تشتعل غيرة بريطانيا من هذا الأمر ، لأنها بمنأى عن شره ، وثمة حاجة بها الى التحالفات . ولا تبالي هولندا لهذا الأمر لأننا سنضمن كل ديون عمل امستردام

العالمي في سيلسيا . فاذا ما تدبرنا أمـر بريطانيـا وهولنـدا سنستطـب الأمـر مـع فرنسا ، التي لن تحبـط مسـاعينا وستبتهج لارسـاء لبنـة البيـت الملكـي . وروسـيا وحدها ، من تثير المتاعب وبوسعنا ، لـو كـانت الأمـيره علـى قيـد الحيـاه .... ان نرتشي كبار المستشارين . واذا ما أدركها الموت ، سيكون الروس جد منهمكـين بحيث لن يتسع وقتهم للشؤون الخارجية " .

لقد تطلع فردريك الكبـير الى الشـؤون الدوليـة كأنهـا لعبـة شـطرنج ورام اغتصاب سيلسيا كي يقوم نفوذ بروسيا . كانت العقبة الوحيدة التي تعثـور نوايـاه مقاومة الدول الكبرى وليست المعوقات الأخلاقية كان تحليله للفائدة على حساب الخطر : اذا ما أحتل سيلسيا ، هلـى تثـار الـدول الأخـرى أو تطلـب تعويضـات ؟ رجح فردريك الكبير كفـة الحسبان لصالحـه فأرسـى غـزو سيلسـيا النمسـا دولـة عظمى ، لا تشوب هذا الأمر شائبة ، وأضـرم أيضـاً سلسـلة مـن الحـروب عندمـا حـاولت سـائر الـدول مجاراة هـذا المقـامر الجديـد . كـانت أول حـرب حـول استخلاف النمسا بـين الأعـوام ١٧٤٠-١٧٤٨ ووقـف في صـف بروسيا فرنسـا واسبانيا وبوفارينا وسكسونيا (التي انسحقت عام ١٧٤٣) بازاء بريطانيا العظمى والنمسا . أما الحرب الثانية - " حرب السنوات السبع " - فقد دامـت بـين عـام ١٧٥٦ حتى عام ١٧٦٣ ، انقلبت فيها صفوف المحاربين ، فقد وقفـت النمسـا في صف روسيا وفرنسا وسكسونيا والسويد بينما تحالفت بريطانيا العظمى مع هانوفر وبروسيا . كان انقلاب ركـب المقـاتلين مخـاض الحسـابات المجـردة للنفـع المباشـر والتعويضات الخاصة وليس بذي صلة مع مبدأ النظام الدولي .

ومع ذلك تنجب حالة الفوضى والسلب هذه ، على نحو رويـدي ، طـرازاً من التوازن تسعى كل دولـة فيه ، بكل ما أوتيـت مـن عـزم ، الى تعزيـز خاصـة قوتها ، ولا يعلل التقييد الذاتي هذا الأمر ، فمرده أن كافـة الـدول ، دون استثناء فرنسا ، ليسـت بـذي بـأس شـديد لفـرض مشيئتها علـى سـائر الـدول أو انشـاء امبراطورية . فكلما هددت احـدى الـدول بالهيمنـة شـكل جيرانهـا ائتـلاف - لا سعياً لنظرية العلاقات الدولية ، بل محاض المصلحة الذاتية المجـردة لتشـليل تطلعـات اقوى الدول .

ولم تفض هذه الحروب المتواصلة الى عقم الحـروب الدينيـة - ومـرد ذلـك أمران : كان لحكام القرن الثامن عشر المطلقون ، واقعاً في مبوأ أسوأ لتعبئة المـوارد للحرب ، مما لو كان باعث هذا الأمر الدين أو العقيده أو حكومة الشـعب . لقـد حرمت العاده ، أو ربما الضعـف ، علـى هـؤلاء الحكـام مـن فـرض ضرائـب علـى العائدات أو أية ضروب أخرى من الخراجات ، فأحال بذلك دون تسخير كثير من الموارد الوطنيه الى الحرب .

ومن الأمور الأسمى أن توازن القـارة قـد عضـده وتدبـر أمـره ظهـور دولـة نذرت سياستها الخارجية الى بلـوغ هـذا التـوازن . كـانت بريطانيـا ، اذا اقتضـى الأمر ، تلقي بكل ثقلها لكفة الجانب الأضعف المحدق بالخطر حتى تقوّم التـوازن ، وان المهندس الحقيقي لهذه السياسة هو الملك وليم الثالث ، القوي الخبير المولـود في هولندا . لقد طمحت في ذاته ، وهو في وطنـه هولنـدا ، تطلعـات ملـك الشـمس الفرنسي وانبرى ، عندما استوى على عرش بريطانيا ، يصوغ الائتلاف كي يطيـح بلويس الرابع عشر في أية سانحة .

كانـــت بريطانيـا العظمـى تقـوم في دول أوروبـا و لم تقتضـي " مصلحـة دولتها " التوسع على حساب جيرانها ، لقـد استبينت منفعتهـا الوطنيـة في اقامـة التوازن الأوروبي وسعت الى الاجهاض على هيمنة أية قوة واحـدة علـى أوروبـا ، أكثر من مسعاها الشخصي لتحقيق منافع خاصة في أوروبـا وتـأهبت للانخـراط في مصاف الدول المواجهة لمثل هذه المغامرات .

ظهر توازن القوى تدريجيا ، بتحوير الائتلافات التي تقودها بريطانيـا بوجـه محاولات فرنسا في التسيد على أوروبا . وبتجوهر هذا الأمر كل حـرب خاضتهـا بريطانيا في القرن الثامن عشر او الائتلافات التي قادتها ، بوجه السيطرة الفرنسية ، وباسم الحريات الأوروبية ذاتها التي أثار رشليو فتنتهـا في المانيـا ضـد الهابسـبرج . لقد أقيم توازن القوى لأن الدول المحاربة فرنسا كانت جـد قويـة بحيـث لا تصرع وأن قرناً ونصف قرنٍ من القتال قد أفلس فرنسا من ثرواتها .

وصـور دور بريطانيـا المـوازن حقيقـة الحيـاة الجيوسياسـية ، فبقـاء جزيـرة محدودة نسبياً على شاطيء أوروبا سيكون عرضة للخطر لو استنفرت كل موارد ــ اوروبا بيد حـاكم واحـد لأن بريطانيـا ، حتـى قبـل توحـدها مـع اسـكتلندا عـام ١٧٠٧ ، كانت تمتع بأقل الموارد ونسبة من السكان الأمر الـذي يجعلهـا ، عـاجلاً أو آجـلاً ، تحت رحمة امبراطورية أوروبا .

وأقحمت بريطانيا ، بفعل ثورة عـام ١٦٨٨ المجيـدة الـتي أطـاحت بجيمـس الثاني (الملك الكاثوليكي) ، الى المواجهة سريعاً مع ملـك فرنسـا ، لويـس الرابـع عشر ، واصطفت بريطانيا ، سعياً لاحلال الكاثوليكية في القـارة ، وليـم أورنـج ،

ملك هولندا ، الذي كانت له بعض المطالب اليسيرة بـالعرش البريطـاني لأنـه زوج ماري ، شقيقه الملك المخلوع . لقد أضرمت بريطانيا ، بقيادة وليم حرباً لا هوادة فيها مع لويس الرابع عشر حول ما غدا يعرف ببلجيكا ، الأراضي العاجة بالموانيء والقلاع المهمة والقريبـة مـن الساحـل البريطـاني (وهـذا الاهتمـام تطـور مـع الزمن) .

تفقه وليم أن لويس الرابع عشـر لـو ظفـر بهـذه القـلاع ، ستفقد هولنـدا استقلالها ويتعالى أفق الهيمنة الفرنسية على أوروبا وتمسـي بريطانيـا بوجـه التهديـد الفرنسي مباشرة . وكان لجوءه الى زج الجنـود الانكليز للدفـاع دون مـا يسـمى اليوم ببلجيكا بشـيراً لقـرار بريطانيـا في عـام ١٩١٤ للقتـال أيضـاً ، دون بلجيكـا عندما احتلتها المانيا .

ومن ذلك الحين تقدم وليم صف المقاتلين لمجابهة لويس الرابع عشـر . أننـا لو القينا نظره على هذا الملك الفرنسي القصير الأحـدب المربـو* لـنرى ، في أول وهلة ، أنه ليس بالرجل المناسب لاذلال ملك الشمس . ولكن أمير أورانج يتمتع بارادة كالحديد وذكاء عقلي فائق . وأسرى في نفسه - وهو على يقـين تقريبـاً - أن لويس الرابع عشـر ، أقـوى ملـوك أوروبـا ، لـو اقتـدر علـى احتـلال هولنـدا الاسبانية (بلجيكا اليوم) سيحدق الخطر ببريطانيا . وينبغي للائتلاف القادر على كبح الملك الفرنسي تحقيق استقلال هولنـدا وانكلـترا وليـس نظريـه بجـرده لتـوازن القوى . وأدرك وليم أن نوايـا لويـس الرابـع عشـر في اسبانيا وموجوداتهـا لـو تحققت ، ستمسي فرنسا دولة عظمى لن يستطيع أي ائتلاف ضدها تحدياً فسعى

* المربو (Asthmatic) : المصاب بالربـو .

الى مـأتلفين جـدد ، لاحبـاط الخطـر ، وعـثر عليهـم . شـكلت أسـبانيا والسـويد وسافوي والامبراطور النمساوي وسكسونيا وجمهورية هولندا وانكلترا -الائتـلاف العظيم للقوى العظمى بوجه دوله واحدة . لم تشهد أوروبا الحديثة قط مثـل هـذا التآلف . لقد اضرم لويس حروباً لا هوادة فيها ضد هذا الائتـلاف نحـواً مـن ربـع قـرن (١٧٨٨-١٧١٣) فأجهـز فـي نهاية المطـاف علـى مسيرة " مصلحة الدولة " . الفرنسية بيد المنافع الذاتية لسـائر دول أوروبـا ومكثـت فرنسـا أقـوى دول أوروبا ، دون أن تهمين عليها .

و لم يكن عداء وليم الى لويس الرابع عشر شخصياً أو منطوياً علـى عاطفـه تضد فرنسا ، فقد صور الأمر تقييمه الشبم لقـوة ملـك الشـمس وتطلعـه الآمـد . وأسرى وليم ذات مرة الى أحد أعوانه بأنه لو كان عاش في نواصف القرن السادس عشر ، عندما هدد الهابسبرج بالسيطرة ، لكان قد غـدا " فرنسيا " بقـدر مـا هـو اسباني الآن " - يماثل رد ونستون تشرشل في فترة الثلاثينات من هذا القرن عندمـا اتهم بمناؤه الألمان : " اذا مـا انقلبـت الظـروف ، سـأغدو منـاصراً لألمانيـا ، ضـداً لفرنسا " .

كان وليم يرغب تماماً بالتفاوض مع لويس الرابع عشـر ، لا سـيما أن هـذا الأمر سيعود بأعظم المنفعة على توازن القوة ، كما ترآى لـه . واستبان ، بيسـر ، أن بريطانيا ستأمن توازناً قاسياً بين الهابسبرج والبوربون بحيث يغدو توازن أوروبـا لكفه الضعيف أياً ، وبفضل بريطانيـا ومنـذ عهـد رشـليو ، غـدت النمسـا الدولـة الأضعف في جانب التوازن فالزمت بريطانيا العظمى نفسها بمؤازرة الهابسبرج على التوسع الفرنسي .

ولم تتناه الى مسامع العامة فكرة العمل كموازن عندما بانت أولى تباشيراتها . كان الرأي العام البريطاني ، في أرذل القرن السابع عشر ، في عزلة تماثل تماما ما أمسى عليه الأميركان بعد قرنين . وكان الجدال السائد أن ثمة متسع في الوقت لمجابهة الخطر ، لو بان ذلك ، ولم يكن ثمة فاقة لمجابهة الأخطار الحدسية على أساس يحتمل أقدام بعض الدول عليه .

لعب وليام دوراً يماثل دور ثيودور روزفلت في أميركا بعدها . وأنذر اناسه المنعزلين أن سلامهم يعتمد على المساهمة في توازن القوى الخارجية . رحب الشعب بهذه الفكرة سريعاً ، بينما أحرج الأميركان روزفلت . وغداة وفاة وليم بعشرين عاماً ، ذكرت صحيفة كرافتسمان ، الممثلة النموذجية للمعارضه ، أن توازن القوى أحد " مباديء السياسة البريطانية الآبدة " وأن سلام القارة " أمر جد ملح لازدهار جزيرة تجارية .... ويجب أن تضطلع الوزارة البريطانية ذاتها بالمهمة الدائمة في اقامة هذا التوازن واستعادته اذا ما أخلته الآخرون أو خرقوه " .

ولم تعد الموافقة على أهمية توازن القوى مسألة خلاف للبريطانيين بما يخص أفضل الستراتيجيات لتحقيقها . وثمة مدرستا فكر تسيران في خطين ، يحملان بعض اللاتوافق ، شيدتا في الولايات المتحدة غداة الحربين العالميتين يحاجج الهوغيون أن بريطانيا ليست مرغمة على التدخل الا عندما يهدد كيان التوازن خطرٌ حقيقيٌ ، عميقٌ يصعب الاجهاز عليه . ويبوأ التوريون ، بخلاف ذلك ، بريطانيا واجب هيكلة توازن القوى لا حمايته . ويرى الهوغيون أن ثمة متسع في الوقت لمقاومة هجوم على الدول الضعيفة عندما يحصل فعلاً ، بينما يحاجج الثوريون أن سياسة انتظر لترى ربما تجيز المعتدي على اضعاف التوازن الى نحو

يتعذر اصلاحه . فلو راق لبريطانيا تفـادي القتـال في دوفـر ، كـان عليهـا مجابهـة التعرض على امتداد الراين أو في أية بقعة من أوروبا يتهـدد تـوازن القـوى فيهـا . يعد الهوغيون التحالفات ذرائع زائلة ، يجب الاجهاض عليهـا عندمـا يظفـر النصـر بالهدف المشترك بينما جادل الثوريون على المشاركه البريطانية في الترتيبات التعاونية الدائمة لتأطرة الأحداث واستتباب السلام .

كان التباين بين ستراتيجيات السياسة الخارجية للهوغيـين والتوريـين عمليـاً لا فلسفياً وتنظيميـاً لاسـتراتيجيا ، وعكـس الأمـر تقييـم الحزبـين لفدائيـة بريطانيـا العظمى ، وصورت سياسة انتظر وترى ايمـان الهوغيـين أن هـامش سـلام بريطانيـا كان كبيراً حقاً بينما ألفـى التوريـون موقـع بريطانيـا جـد متقلقـل . ومثـــل هـذا التمييز ، بدرجة مقاربة ، سيفصل بين الأميركان المنعزلين والأميركان العالميين أبـان القرن العشرين . لم تظفر بريطانيا العظمى في القرنين الثـامن عشـر والتاسـع عشـر ولا أميركا في القرن العشرين باقناع المواطنين أن أمانهم يقتضي اقراراً دائماً وليـس انعزالاً .

وبين أوان وآخر في كلا البلدين ، يخرج قائد جديد ويظهر لشـعبه الحاجـه الى التزام دائم . لقد أنجب ولسون عصبة الأمم وتبنى كاسيلراي ، وزير الخارجيـة من عام ١٨١٢ الى عام ١٨٢١ ، نظام المؤتمرات الأوروبيـة وأقـترح غلادسـتون ، رئيس الوزراء ما أواخر القرن التاسع عشر في الصيغه البكر للأمن الجماعي . لقـد خابت مساعيهم ، في نهاية المطاف ، لأن البريطان والأميركـان لم يقتنعـوا ، حتـى نهاية الحرب العالمية الثانية ، بوجود تهديد أخلاقي ريثما يحيق بهم تماماً .

غدت بريطانيا ، في هذا المضمار ، المحافظة على توازن أوروبا باللامبالاة اولاً ، وبالستراتيجيه المدركه ، بعدها . وبدون مثل هذا الالتزام الشديد ، قدرت فرنسا ، دونما شك ، على الهيمنة على أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ولاستطاعت المانيا الاتيان بالأمر ذاته في القرن العشرين . ولونستون تشرشل الحق ، كل الحق ، عندما يدعي بعد قرنين من الزمان ، أن بريطانيا قد " صانت حريات أوروبا " .

وأحالت بريطانيا ، مع بواكير القرن التاسع عشر ، دفاعها الخاص عن توازن القوى الى اطار محسوس ومضت بسياستها الواقعية حتى ذلك الحين ، مستقيمة مع نزعة البريطان ، مقاومة أية بلد يهدد التوازن - التي كانت فرنسا في القرن الثامن عشر فرنسا . لقد فُضَت الحروب بالتسوية ، التي بالكاد تقوي فرنسا ، لأنها تأتي على الهيمنة ، هدفها الحقيقي .

ومما لابد منه أن تهيأ فرنسا اللبنة الأساس لأول بيان مفصل لتفقه بريطانيا العظمى عن توازن القوى . لقد عادت فرنسا ، في أعقاب الثورة ، سيرة مفاهيمها الأول عن الشمولية بعد سعي للسيطرة قرناً ونصف قرن باسم " مصلحة الدوله " . وأضرمت ، غداة الثورة ، عدة حروب لاذاعة أفكارها الجمهورية في أوروبا واستتباب الثورة فهددت بذلك سيطرة على أوروبا . لقد دفعتها جيوشها وحماسها الأيدلوجي على اجتياح لتحقيق مباديء التحرر العالمية والعدالة والأخوة . كانت فرنسا ، في عهد نابليون ، قد قابت قوسين أو أدنى من تشييد صرح جمهورية أوروبية عاصمتها فرنسا . وفي عام ١٨٠٧ ضمت الجيوش الفرنسية كثيراً من المملكات على امتداد الراين في ايطاليا واسبانيا ، ونقلت بروسيا

الى مصاف الدول الثانية وأضعفت النمسا ، أشد الضعف ٠ وروسيا هي الدولة الوحيدة التي أحالت بين نابليون وسيطرة فرنسا على أوروبا ٠

وفي هذا الوقت أثارت روسيا رد الفعل المزدوج - شطره أمل وشطره خوف - بأن الأمر سيغدو في نصيبها وحتى يومنا هذا ٠ فمع بواكير القرن الثامن عشر كانت حدود روسيا على الدانيبر وبلغت ، بعد قرن ، فستوليا ، نحواً من ٥٠٠ ميل الى أقصى الغرب ٠ كانت تقاتل لتحقيق وجودها ، مع اطلالة القرن الثامن عشر ، ضد السويد في بولتافا ، (عميقاً في أوكرانيا اليوم) ٠ وغدت عند انتصاف القرن طرفاً في حرب " السنوات السبع " اذ وطأ جنودها مشارف برلين ، في حين وأمست ، عند تصرم القرن ، عضواً أساسيا في تبعيض النمسا ٠

وما أهم في روسيا هذه القوة الجسدية الخام ، المشؤوم أغلبها ، هي الأتوقراطية القاسية لقوانينها الداخلية ٠ ومرد هذه الحالة المطلقة لا الى العادة أو للحكم الأوستوقراطي المستقل الحازم ، كما هو شأن ملوك أوروبا الذين يحكمون بحق الهي فالأمر ، في روسيا ، متروك كله لمشيئة القيصر ٠ كان بميسور السياسة الخارجية الروسية تماماً أن تنتقل من التحرر الى مبدأ المحافظة لو راق هذا الأمر للقيصر الحاكم - كما حصل حقاً أبان الأكسندر الأول ٠ ومع ذلك ما عتقت حرية قط داخل هذه البلاد ٠

وفي عام ١٨٠٤ تقدم الأكسندر الأول الماكر ، قيصر قياصرة روسيا ، باقتراح الى رئيس الوزراء البريطاني بت الأبن ، الخصم اللدود لنابليون ٠ لقد تخيل الأكسندر نفسه ، بالتأثير المفرط لفلاسفة عصر التنوير ، صورة الضمير الأخلاقي

لأوروبا وعندما اختمر هذا الأمر في فكره ، اقترح على بت خطة السلام ، يدعو فيها كل الأمم الى اصلاح أعرافها بهدف الاتيان على الاقطاعية وتبني حكم قانوني . وهذه الدول المصلحه ستعزف عن القوة وتسوي خلافاتها مع ما سواها بالاحتكام الى طرف ثالث . لقد غدت الأتوقراطية الروسية المنهل البغيض الذي اغترقت منه الأفكار الولسنية الداعية الى قوانين ثورية كشرط مسبق للسلام بالرغم من أنه ولسون ما مضى بعيداً الى ترجمة هذه المبديء عملياً بين خاصة شعبه .

وألفى بت نفسه قبالة الأكسندر في موقف يماثل تماماً ما حدث لتشرشل ازاء ستالين ، بعد ١٥٠ عاماً . كان في أمس الحاجة الى المساعدة الروسية لمجابهة نابليون فمن المتعذر التصور أنى يندحر نابليون بطريقة أخرى . ولم ينتفع بت كثيراً من استبدال دولة مهيمنة بأخرى ، او بتأكيد دور روسيا كحكم ، بخلاف تشرشل . والأمر الأعلى من ذلك كله أن المحرمات البريطانية الداخلية لا تأذن لأي رئيس وزراء أن يحيل بلاده قاعدة للسلام على أساس الاصلاح السياسي والاجتماعي لأوروبا . ولم تضرم أية حرب بريطانية لهذا الباعث قط ، لأن البريطان ما شعروا بتهديد الثورات السياسية والاجتماعية في القارة ، بل هددهم التغيير في توازن القوى .

استوعب رد بت الى الاكسندر الأول كل هذه الأمور وأرسى له معالم التوازن وحاجة تأسيسه اذا ما قدر للسلام أن يقام ، دون أن يذكر الدعوة الروسية لاصلاح أوروبا السياسي . وهكذا تلوح في الأفق ، ولأول وهله ، حل أوروبي عام منذ معاهدة فستفاليا قبل قرن ونصف قرن . وهذه التسوية ، لأول وهلة أيضاً ، تستند بجلاء الى مباديء توازن القوى .

لقد الفى بت الباعث الحقيقي للهزل الدائم في أوروبا المركزية ، الذي فتن فرنسا مراراً على التوسع . (كان جد متلهف وجد لطيف بحيث لم يفصح أن قوة أوروبا المركزية القادرة على كبح الضغوط الفرنسية ستكون ملهمة بالقوة ذاتها للاطاحة بنوايا روسيا التوسعية) . وتقتضي التسوية الاوروبية ، باديء ذي بدء ، تعرية فرنسا من كل ما اغتنمته بعد الثورة ، واستعادة استقلال الدول الضعيفة وهكذا أمسى الاهتمام البريطاني الأول مبدءاً للتسوية .

ومع ذلك لا يجدي نفعاً تخفيض التفوق الفرنسي اذا ما دأبت الدول الألمانية الثلاثمائة الصغيرة والشاذة على اغراء فرنسا بالضغط والتوسع . فكر بت ، هدفاً بالاجهاض على هكذا تطلعات ، بضرورة خلق " كتل عظمى " في مركز أوروبا بتوحيد الأقاليم الألمانية في مجموعات أكبر - ستنضم بعض الدول ، التي التحقت بفرنسا أو انهارت ، الى روسيا أو النمسا وبينما تتوحد سائرها ضمن تشكيلات أعظم .

تفادى بت الاشارة الى اية حكومة أوروبية وأقترح ، عوضاً لذلك ، أن تضمن بريطانيا العظمى وبروسيا والنمسا وروسيا الترتيب الاقليمي الجديد في أوروبا بوسيلة الحلف الدائم الموجه ضد أي اعتداء فرنسي - تماماً كما فعل فرانكلين د. روزفلت في هيكلة النظام العالمي لما بعد الحرب العالمية الثانية على أساس التحالف ضد المانيا واليابان . وما كان بميسور بريطانيا في العهد النابليوني ولا أميركا في الحرب العالمية الثانية التخيل أن مهدد السلام الأعنف قد يبرهنه المستقبل أنه الحليف الحالي وليس بالعدو المهزوم . كانت الخشية من نابليون هي التي بعثت برئيس الوزراء البريطاني على تأييد الأمر الذي ابته بلاده ، غاية الاباء الا

وهو المساهمة الدائمة في أوروبا - والتزام بريطانيا العظمى بتقويم ثباتها التكتيكي بهيكلة سياستها على فرضية العدو الدائم .

ان ولادة توازن القوى الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يضارع معه آفاق معينة لعالم ما بعد الحرب الباردة . بعث انهيار النظام العالمي ، كما هو الآن عليه ، جمة دول ترعى مصالحها الوطنية دونما أن تحرمها المبادىء السائدة . كانت الدول ، حتى في يومنا هذا ، تصوغ النظام الدولي وتجتمع لرسم معالم دورها العالمي . وقررت تنصيب كامل ثقتها في تقوية المنفعة الوطنية ، من خلال الائتمان الى ما يسمى باليد اللامرئية . فكان السؤال الدائر أنى سيلقى عالم ما بعد الحرب قوانين لكبح تأكيد القوة والمنفعة الذاتية . ويقينا أن توازن القوى ، في نهاية المطاف ، سيحدث الواقعية عندما تتفاعل عدة دول . وبقي السؤال معلقاً حول صيرورة النظام العالمي المنخفض الى هيكل محسوس أو أنه تبرعمه من مسلسلات اختبار القوة .

استعدت أوروبا ، ولما تلفظ الحرب النابليونية آخر أنفاسها ، لهيكلة النظام العالمي على أساس توازن القوى ، ولأول وهلة في تاريخها . لقد خبرت ، من خلال دوائر الحرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ان لا يودع توازن القوى مخاضاً لصدامات دول أوروبا . وشخصت خطه بت الحل الاقليمي كي تطبب مواطن الضعف لنظام عالم القرن الثامن عشر . ولكن حلفاء بت الأوروبيين قد تفقهوا درساً آخراً .

ومن الشاق جداً تقييم الأمور على أساس القـوة ، وان الرغبـة لتبرئـه ذلـك جد متنوعة ، فيترك الأمر لعلاجها كدليـل أوثـق صـوب النظـام العـالمي . ويقـوم التوازن ، على أكمل وجه ، لو توكأ علـى اتفـاق لقيـم مشـتركة ، ويثبـط تـوازن القوى قدرة قلب النظام الدولي ، فان اتفاقيه على القيم المشتركة تجهز علـى الرغبـة بالاطاحة بالنظام الدولي . والقـوه دون الشـرعية تسـتقطب اختبـارات العضـلات والشرعية دونما قوة تفضي الى حال خاو .

وهذا العنصران كانا تحدي مؤتمر فيينا ونجاحه ، حيث استتب النظام الدولي قرناً من الزمان لم تؤرقه حرب شاملة .

الفصـــل الرابـــع

اتفاق أوروبا : بريطانيا العظمى ، النمسا ، وروسيا

وطأ منتصرو الحـروب النابليونيـة ، في أيلـول عـام ١٨١٤ ، أرض النمسـا ليرسموا ملامح عالم ما بعد الحرب أبان وقت كان يرزح فيه نابليون وطـأة أقصـاءه البكر الى الألبا . وتعاقدت لقاءات مجلس فيينا المتكررة حتى في فترة فـرار نـابليون من الألبا واندحاره الأخير في واترلو وقد غدت الحاجة الى استتباب الأمـن الـدولي أكثر الحاحاً من منصرم عهد .

بعث امبراطور النمسا ، المطلع بخفايا الأمور ، الأمير فون مـترنيخ مفاوضـاً الى مجلس فيينا وأرسل ملك بروسيا الأمير فون هاردنبرغ بينما نصب لويس الثـامن عشر ، المتبوأ السلطة حديثاً ، ثقته في تاليران الـذي أثبـت ولائـه في خدمـة حكـام فرنسا أجمعين حتى قبل الثورة . وقدم قيصر روسيا الأول ليتحـدث بالأصالـة عـن نفسه فقد رغب عن منـح أي مخلـوق شـرف المقعـد الروسـي . وتفـاوض اللـورد كاسيلراي ، وزير خارجيه بريطانيا ، عن بلاده .

لقد أنجز هؤلاء المفاوضون الخمسة المهام المناطـة اليهـم وعاشـت أوروبـا ، غداة مؤتمر فيينا ، ردحاً طويلاً من اسـتتباب السـلام لم تألفـه قـط . لم تضـرم أي حرب بين القوى العظمى نحواً من أربعين سنة أو في الستين سنة الـتي تلـت حـرب الكرمين عام ١٨٥٤ . لقد تطابقت اتفاقية فيينا بكل حذافيرها مع خطه (بـت) الى الدرجة التي أظهـر فيهـا كاسيلراي مـدى صلتهـا الوشيجة بالمسـودة الأصلية

البريطانية عندما عرضها أمام البرلمان . وما يثير العجب أن هذا النظام الدولي الذي أقرّ صراحة باسم توازن القوى ، أكثر مما تقدم من وقت أو تأخر ، كان يستند الى درجة هزيلة على القوة للمدافعة عن أناه . ومرد هذه الحالة الفريدة ، بدرجة ما ، الى التوازن الرائع الذي لن ينقلب الا بجهـــد جبار لن تقدر له القوى العظمى صبراً . والسبب المرجح لذلك هو ما تشاطرته الدول الأوروبية من قيم مشتركة ، فثمة معيار مادي وآخر معنوي وعوز لا يستغنى عنه للقوة والعدالة . أن الحاجة الى توازن القوى والرغبة بالعدالة من شأنهما اضعاف فرص اللجوء الى القوة . والنظام الدولي الذي لا يكيل على أساس العدل سوف يلقى التحدي عاجلاً أو آجلاً . ولكن أنى يفقه الناس بأن عداله نظام دولي ما تسببه الأعراف الداخليه على قدم المساواة مع تقييماتها لقضايا السياسة الخارجية الحذقة ؟ لذلك فان التوافق في الأعراف المحلية تعضيد للسلام .

لقد برهن توازن القوى العام سذاجته النسبية وانتهج الساسة خطة بت وكأنها تصميم معماري . ولم تأبه هذه الدول قط لفكره فصل المقاطعات ذات الديانه الواحدة من الأقاليم التي حررت ، كرة أخرى ، من قبضه نابليون لا سيما وأن فكرة تقرير المصير الدولي لم تتجل وقتئذ . لقد كانت النمسا مستفحلة في ايطاليا وبروسيا في المانيا وطالبت جمهورية هولندا بأقاليمها النمساوية (التي تعرف اليوم بلغاريا) . كان على فرنسا أن تقتلع كل ما أغتصبته وتعود سيرة " الحدود القديمة " التي تمتعت بها قبيل الثورة بينما حظيت روسيا بحصة الأسد في بولندا .

كان توازن القوى ، بالنسبة لتفقه بريطانيا العظمى عن النظام الدولي ، يتجلى بمعرفة مدى حذقة الدول المختلفة للدور المناط لها في هذا النظام الشامل -

بالقدر ذاته الذي وضعته الولايات المتحدة نصب اعتبارها عن حلفائها في أعقاب الحرب العالمية الثانية . لقد جابهت بريطانيا العظمى بعض الاختلافات بما يخص آفاق دول أوروبا ، الأمر الذي تكرر مع الولايات المتحدة أبان الحرب الباردة . فهذه الأمم ، ببساطه ، لا تشخص مرماها كوشائج في النظام الأمني ، ان الأمن ييسر كيانهم وليس هو بمسعاهم الوحيد أو الأساس .

لم تتخط النمسا وبروسيا عتبة الاعتقاد أنهما " كتل عظمى " بينما أنست فرنسا ، بعدئذ ، صورة مثلى في مسعى الناتو لتقسيم العمل . فبالكاد عنى توازن القوى أمراً لهما لو لم يحكم بالعدل لخاصة علاقاتهما المعقدة أو لو لم يأخذ بالاعتبار أدوار بلديهما التاريخية .

لقد عزفت النمسا ، بعيد فشل هابسبرج في الهيمنة على أوروبا الوسطى في حرب الثلاثين عاما ، عن محاولتها في احكام القبضة على المانيا ، وطفقت تتطلع الى ذاتها ، حتى عام ١٨٠٦ الذي شهد انهيار الامبراطورية الرومانية المقدسة ، بأنها الأعلى بين أقرانها وعليها اجهاض أي جمهورية المانية ، وخاصة بروسيا ، في تبوأ دور النمسا القيادي التاريخي .

ان للنمسا الحق ، كل الحق ، في تبوأ دور المراقب ، فلقد اغتصب فريدريك الكبير ، بعدئذ ، سيلسيا وتحدت بروسيا ادعاء النمسا في قيادة المانيا . ومع تصرم القرن استحالت بروسيا ، بفضل الدبلوماسية الرعناء والانصراف للفنون العسكرية والرغبة الجامحة المتعاظمة في الهيمنة ، من امارة ثانوية على حوض المانيا الشمالية الى مملكة ذات نفوذ عسكري هائل ، برغم صغرها بين سائر

الامارات . واستشعرت دولة روسيا بالسيادة الوطنية العظيمة بفضل حدودها الشاذة التأليف على امتداد الشمال الألماني من بعض الشرق البولندي صوب جزء من أراضي الراين اللاتينية (التي اقتطعها مملكه هانوفر من اقليم بروسيا الحقيقي). ولم يكن المرمى من كل ذلك غير حماية أقاليمها المتبعضه . واعتمدت علاقة هاتين الدولتين الألمانيتين العظيمتين بينهما من ناحية ، ومع سائر دول المانيا ، على استقرار أوروبا . وفي حقيقه الأمر فان اجراءات المانيا في الداخل ، بعيد حرب الثلاثين عاماً ، قد نصبت أوروبا في الفخ ذاته : كلما تبعضت المانيا وهزل عودها ، فتنت جيرانها ، وخاصة فرنسا ، على التوسع . وفي الوقت عينه دبّ أفق الوحدة الألمانية الرعب في جيرانها ومكث الأمر على هيئته حتى في يومنا هذا . أن شبح الخوف الذي يعتري رشليو من المانيا الواحدة على أوروبا وسحق فرنسا قد تنبأ به مراقب بريطاني حيث كتب يقول في عام ١٦٠٩ :

" ستمسي المانيا ، لو خضعت لمملكه واحدة ، الشبح المرعب لسائر الدول جمعاء " .

فلو تصفحنا التاريخ نرى المانيا قد أفرطت في هزلها أو قوتها بالنسبة لسلام أوروبا . أقر مؤتمرو فيينا أن من الأجدر لأوروبا الصبر على أفعال رشليو أبان القرن السابع عشر لو أنها كانت قد رغبت في استتباب الأمن والسلام . لقد أحال رشليو أوروبا المركزية هزيلة مفككة وبسط الأمور لفرنسا على غزو الأقاليم وتصييرها ميداناً واقعاً يعبث به جنودها ، لذا دعا بيان فيينا الى تقوية المانيا دون توحيدها . كانت النمسا وبروسيا دولتي المانيا الريادتين يردفهما نيف من الدول المتوسطة المساحة - كبوفاريا وورتمبرع وسكونيا - التي توسعت وغدت قوية .

ان ما سبق الغزو النابليوني من ثلاثمئة دولة شاذه قد توحدت في نحو من ثلاثين دوله اقترنت ببعض في كيان محدث يقال له الاتحاد الألماني . لقد برهن هذا النظام كياناً دفاعياً مشتركاً بازاء أي اعتداء خارجي وحصن حصين ضد التعرض الفرنسي لكنه بئيس ومفكك على تهديد جيرانه . ورجح هذا الاتحاد كفة القوة العسكرية البروسية على حساب شرعية النمسا وامتيازها المتوفق . كان المرمى من صيرورته الاجهاض على الوحدة الألمانية بأساس قومي وحماية عروش المانيا وأمرائه واحباط الاعتداء الفرنسي وقد ظفر في كافة المهام .

تفادى منتصرو مؤتمر فيينا ، تكرار هذا الخطأ ، كما فعل تماماً أبطال الحرب العالمية الثانية . وما كان ميسوراً اغداق فرنسا بالكرم ولمّا تسعى للهيمنة على أوروبا قرناً ونصف قرن وخيمت جيوشها على الجيران نحواً من ربع قرن . ومع ذلك خلص بيان فيينا أن أوروبا ستأمن أكثر لو ارتضت فرنسا بحقها دونما امتعاض أو تذمر . أنها عريت من مستعمراتها فوهبت " حدودها القديمة " أي ما قبل الثورة ، الأراضي التي شكلت مقاطعه أعظم بكثير من تلك التي تسيد فيها رشليو . وأوضح هذه المسألة وزير الخارجية كاسيلراي ، العدو اللدود لنابليون ، بقوله :

" كلي يقين أن التجاوزات المتكرره لفرنسا ستقذف بأوروبا الى حالة الانقسام ... فليغتنم الحلفاء الفرصه المواتيه ليحققوا عازة قوى أوروبا الملحة . لتيقنوا أن هذا المسعى ، لو قدر له الفشل ، سيحملهم على شهر السلاح لا في مواقعهم القيادية حسب ، بل في القوة الأخلاقية التي في ميسورها مآصرة هذا الاتحاد " .

اذن لفرنسا ، في عـام ١٨١٨ ، بالانضمـام الى نظـام المؤتمـر في اجتماعاتـه الأوروبية الدورية فغدت ، بعد نصف قرن ، من مؤسسي حكومة أوروبا .

اقتنعت بريطانيا العظمى ، بنحو راجح ، على هجر الأمـور محلهـا يحذوهـا الاعتقاد أن الدول المختلفة قد تفقهت خاصة مصالحها لتصونها كما يقتضي الأمـر لو جابهت أي تحدي . آمن البريطان بانعدام الفاقة لتوكيـد رسمـي فهـذا الأمـر لا يضفي الكثير لتحليهم الحصيف بينما أصرت دول أوروبا ، ضحايا الحـروب لقـرن ونصف قرن ، على ابداء ضمانات ملموسة .

جابهت النمسا ، بشكل خاص ، اخطاراً لم تستشعرها بريطانيا العظمـى ، فهذه الامبراطورية المتعددة اللغات ، ذات السـفر الاقطـاعي ، تجتنـح أممـا شـتى في حوض الدانوب حوالي مواقعها التاريخية في المانيـا وشمـالي ايطاليـا . لقـد نسـجت مكائد المحرمات الأخلاقية لسحق كافة المحاولات المسـلحة غـداه مـا أطلعـت علـى التيارات النافرة المتعاظمة للحرية والوطنية ، المهددة لكيانها . لقـد عجلـت حذقـة ماترنيخ الماهرة الدول الرئيسة في ابداء اختلافها بما يخص المبادىء المشتركة . وعـبر تاليران عن الأهمية البعضية لمبدأ التقييد بقوله :

" لو تناظر أدنى ما تحوزه القوى المدافعة ، باسمى ما للقوة الهاجمة ، سيكون حقاً توازناً فعلياً . لكن الأمر ، بحقيقته ، لا يأذن الا لتوازن زائف متقلقل لا يحييـه سوى ما يلفع الدول الكبرى من روح العدالـة والعصـر " وغـداة مؤتمـر فيينـا ، تم التعبير عن العلاقة بين توازن القـوى ومسـألة الشـرعية المشـتركة بميثـاقين : الحلـف الرباعي الذي يؤلف بريطانيا العظمى وبروسيا والنمسـا وروسـيا والحلـف المقـدس

الذي يؤلف ما يسمى بالأسر الشرقية الثلاث – بروسيا والنمسا وروسيا . كان يحب لفرنسا ، مع استهلال القرن التاسع عشر ، بشيء من الخشية كما حصل مع المانيا في القرن العشرين – لأن التاريخ أظهر فرنسا غاشمة متقلقة . لذلك شدد بيان الحلف الرباعي على القمع بقوه رادعة أي جنوح فرنسية عدوانية وهي في مهدها . فلو تحقق هذا التحالف للظافرين في معاهدة فرساي ، لكان العالم قد نأى عن خطر الحرب العالمية الثانية .

كان الحلف المقدس على تباين كامل : فأوروبا لم تألف ميثاقاً كهذا منذ تنحي فردينارد الثاني عن عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة قبل ما يقارب القرنين . لقد أعد هذه الوثيقة القيصر الروسي الذي ما كان له أن يتخلى عن بعثه بوأها لنفسه بقصد اصلاح النظام الدولي وتنوير المساهمين فيه . وفي عام ١٨٠٤ تخلى (بت) عن حملته المزمعة لاعتبارات تحررية فاصطبغت في القيصر ، في عام ١٨٠٥ ، رغبة جامحة من الاحساس بالتحرر لم يستطع لها نكراً – مع أن حملته التالية على شفا نقيض تماماً لما هيأه لنفسه قبل احدى عشرة سنة . أمسى القيصر الآن عبداً للدين ، صائناً قيمه ولن يقبل اقتراحاً سوى الاصلاح الشامل للنظام الدولي على أساس أن " النظام **السابق** " الذي تبنته الدول حسب علاقاتها المتبادلة يجب تغييره **عن بكرة أبيه** وأن من **الضروري جداً** ابداله بنظام الأمور الذي تقومه حقائق رفيعة لدين السيد المسيح الخالد .

سخر امبراطور النمسا من عجزه في مناقشة هذه الأفكار في مجلس الوزراء أو في الكنيسة بيد أنه تيقن باضاعة الفرصه من اللحاق بالقيصر أو التذرع بتحقيق الأمر بمفرده ، فترك النمسا بازاء تيارات العصر التحررية والوطنية دون مؤازرة .

وهنا تكمن العلة في تحوير ميترنيـــخ مسـودة القيصر الى مـا غـدا يعرف بـالحلف المقدس ، الذي ترجم الأوامر الدينيـة كفرائـض يعتنقهـا المفـاوضون حتـى يستتبوا الواقع الداخلي في أوروبا فتشاطرت قواها ، لأول وهلة في التاريخ الحديـث ، هـذا الاتفاق المشترك .

ما كان يسيراً لأي سياسي بريطاني الانضمام الى عمل يؤسس الحـق العـام أو في الحقيقة الالتزام - بالتدخل في الشؤون الداخليـة لسـائر الـدول . لقـد أسمـى كاسيلراي الحلف المقدس " هراء عديم الجـدوى " - ومـع ذلـك رأى مـترنيخ فيـه فرصة تلزم القيصر بتصبر حكمه الشرعي دون ممارسة لدوافعه التبشيرية ، لوحده ، بحرية . لقد جلب الحلف الملوك والمحـافظين سـوية الى صـف مجابهـة الثـورة لكنـه أرغمهم على العمل بموجب اتفاقية . وفي الحق منح الأمر النمسـا تصديقـاً نظريـاً بازاء مغامرات حليفتها السابقة روسيا . لقد الـزم مـا سمـي باتفـاق أوروبـا كافـة الدول التي تتنافس على صعيد واحد بحـل الأمـور الـتي تهـدد السـلام الشـامل مـن خلال الاجماع .

كان الحلف المقـدس الصيغـة الأصـل في تسـوية فيينـا فهـذا الاسـم المـاجد استقطب الانتباه لضرورته العلمية التي اقتضت اضفـاء عنصـر التقييـد الأخلاقـي في العلاقة بين كبرى الـدول سـيما وان الأهميـة المعهـودة الـتي تطـورت علـى أسـاس وجود قوانينها الداخلية أحالت دون صراعات الدول الأوروبية ، بخلاف ما كانت تؤلفه في القرن المنصرم .

ولكن ليس بميسورنا القول أن أعراف داخلية سليمة تضمن ، بحد ذاتها ، توازناً عادلاً للقوى . لقد تمتع حكام الدول الأوروبية ، في القرن الثامن عشر ، بحق الهي – وكانت الأعراف الداخلية متوافقة تماماً . بيد أن هؤلاء الحكام بالذات قد اعتراهم الشعور بالهينمة فاضرموا فيما بينهم فتيل حروب لا حصر لها لأنهم ، على وجه الدقة ، عدوا أعرافهم الداخلية حصناً حصيناً لأي هجوم .

لم يكن وودرو ولسون باول المؤمنين بطبيعه الأعراف الداخليه في تقرير سلوك البلاد دولياً فقد آمن ميترنيخ بذلك أيضاً ولكن على أساس متباين تماماً من البديهيات في حين ابصر ولسون الديمقراطيات ذاتها رشيده آلفة للسلام . وشخص ميترنيخ السلام على أساس حكم مشروع لا سيما أنه شهد المعاناة التي تكبدتها أوروبا بسبب فرنسا الجمهورية وتنبأ أيضاً ، للهامات المتوجه من سالف السلالات أن تصون الهيئة الأساس للعلاقات الدولية ، في أقل تقدير ، لو لم يشاؤوا المحافظة على السلام . ومن هذا المنطلق غدت الشرعية الآصرة التي تربط النظام الدولي .

وثمة أمر جوهري لمعرفة التناقض في الآراء بين أميركا وأوروبا بالاطلاع على وجهات نظر ولسون وميترنيخ المتباينة فيما يخص العدالة الداخلية والنظام الدولي . لقد نادى ولسون الى مباديء أدرك غاية حداثتها وثوريتها بينما سعى ميترنيخ لتنشئة قيم عدها هو بالية . أصر ولسون ، الرئيس لدولة تكونت بسليقتها لعتق البشر ، على تشريع المباديء الديمقراطية وتجسيدها بعدئذ في أعراف عالمية محدثة تماماً . ودنما ادراك أنكر ميترنيخ ، الممثل لدولة بالية تطور نظامها تدريجيا ، أن الحقوق يخلقها التشريع ويقول أن " الحقوق " تنشأ ، ببساطة ، في

طبيعه الأمور . لقد كانت مسألة ذات منفعة فنية ليس لها صله باضرام الحرية سواء أن قويت هذه الحقوق بالقوانين أو بالأعراف . اعتبر مترنيخ تأكيد الحقوق مسألة متضاربة ويقول : " الأمور المقتضى تأكيدها تخسر قوتها عندما تطفو بصيغة بيانات استبدادية ، فليس ذلك من الصواب لأن الأمور التي تتعرض للتشريع لن تلد الا التقييد " . ويكمن بعض من مباديء ميترنيخ في السياسات التعسفية الذاتية لممارسات امبراطورية النمسا التي عجزت عن التكيف مع عالم حديث ناشيء . وصور ميترنيخ ، من ناحية ، الاقتناع الراشد أن الأعراف والحقوق تولد طبيعيا لا اعتباطياً وقد خبرته في ذلك الثورة الفرنسية التي استهلت بالدعوة الى حقوق الانسان واختتمت بهيمنة شبح الرعب . لقد نشأ ولسون من فكرة وطنية رائعة حقاً و لم يتخيل صورة الزيوغ عن ارادة الشعب ، في وقت سبق ولادة الدكتاتورية الحديثة بخمسة عشر عاماً .

تبوأ ميترنيخ ، عقب مؤتمر فيينا ، دوراً حاسماً في قيادة النظام الدولي وتجسيد مقتضيات الحلف المقدس ، وما أرغمه على ذلك أن النمسا كانت على قبالة مباشرة بوجه أي اعصار وقد أخذت أعرافها الداخلية تهزل رويداً رويداً مقابل تيارات القرن الوطنية والتحررية . كانت بروسيا تلوح بموقع النمسا في المانيا ، وطالبت روسيا بما يتعلق بمقاطعات مواطنيها السلاف في البلقان ، وثمة وجود دائم لفرنسا التي تناوي بشرعية راشليو في مركز أوروبا . تيقن مترنيخ أن هذه الخلافات ستزتنزف النمسا ، مهما كانت عاقبة أي صراع ، لو اذن لها باستعراض القوة . وهكذا تفادت سياسته الأزمات بعقد الاجتماعات الأخلاقية وتحاشي الشدائد باللجوء لمؤازرة أية دولة تتحمل امتصاص وطأة المواجهة -

بريطانيا العظمى بوجه فرنسا في الأقاليم الواطئة ، بريطانيا العظمى وفرنسا بوجه روسيا في البلقان ، الدول الصغيرة بوجه بروسيا في المانيا ٠

قدر ميترنيخ ، بفضل حذقته الدبلوماسية غير الاعتيادية ، على ترجمة الحقائق الدبلوماسية المألوفة الى مباديء عملية للسياسة الخارجية ٠ وأقنع أقرب حليفي النمسا ، الذين يشكلان خطراً جيوسياسياً لها ، أن التهديد الايديولوجي الذي طرحته الثورة قد رجح كفه الفرص الستراتيجية ، فلو سعت بروسيا الى استغلال مذهب الوطنية الألمانية لكان بميسورها مجابهة قبضه النمسا لألمانيا قبل بسمارك بقرن ٠ ولو أخذ القيصران ، الاكسندر الأول ونيقولا الأول ، في حساباتهم مجرد تيسيرات روسيا الجيوسياسية لاغتنموا قضية تفكك الامبراطورية العثمانية بنحو أحزم من خطر النمسا - كما أقدم خلفائهم على عمله غداة قرن من الزمان ٠ لقد نفخ نظام ميترنيخ الروح كرة أخرى في النمسا ، اللافظة أنفاسها بسبب الهجوم النابليوني ، فقدر لها أن تنبض بالحياة مائة عام أخرى ٠

ومن قبيل الصدف أن الرجل الذي أنقذ هذه الامبراطورية الغربية ووجه سياستها نحواً من خمسين عاماً ، لم يقدر له زيارتها ريثما تسن الثالثة عشره وسكنها وهو ابن السابعة عشرة ٠ كان والد الأمير كلمنس فون ميترنيخ حاكما عاما للراين ومالك هابسبرغ ٠ وتنشرح أسارير هذه الشخصية المتحررة عند التحدث بالفرنسية أكثر من الألمانية وكتب الى ويلنكتون ، في عام ١٨٢٤ ، يقول : " لقد أمست أوروبا الآن كأنها وطني " ٠ سخر مجايليه الخصوم في استقامة تصرفاته وروعة حكمه بينما تفقه كانت وفولتير أراءه ٠ فهذا المخاص

المتبصر لعصر التنوير قد الفى نفسه في معمعة الصراع الثوري الذي ما ألفه طبعه وتبوأ منصب الوزير القيادي لدولة محاصرة في رقبته أن يطور هيكلها .

توسم أسلوبه باتزان الشخصية والموضوعية واحدى أقواله : " علينا أن نهب الأفكار المجردة نزراً يسيراً من الاهتمام ونرتضي الأمور كما هي عليه . لنبذل كل ما أوتينا من سعة كي ندرع أنفسنا ضد خرافات الواقع . فليس ثمة أمر ملموس يتيسر تجليته على حلبة الواقع لأننا اذا ما تفحصنا عبارات معنية ، نراها تستحيل طبقة من الهواء السميك " .

وبازاء مثل هذه المواقف تحاشى ميترنيخ ، مجاهداً ، الانسياق بالعاطفة اللحظية فأبرز جبروت التهديد الروسي الآمد حال اندحار نابليون في روسيا وقبيل أن تبلغ الجيوش الروسية مركز أوروبا . رهن ميترنيخ ، في وقت شدد مجاورو النمسا على ضرورة التحرر من الحكم الفرنسي ، مشاركة النمسا في الائتلاف المناوىء لنابليون على أساس توسع أهداف الحرب ، التي تماشي ديمومة الامبراطورية الواهنة . كان ما يراه ، على شفا نقيض تماماً ، لموقف الديمقراطيات أبان الحرب العالمية الثانية عندما أنسوا أنهم بازاء ظروف مماثلة أثارتها روسيا . ويقينه ، مثل ما لبث وكاسيلراي ، أن قوة أوروبا المركزية لفي فاقة مسبقه الى الاستقرار الأوروبي فتراه أواناً يتفادى ، ما وسعه ذلك ، اختبارات القوة ويبالي على قدم المساواه بالأسلوب المتحضر والقوة المحضه المتسامية .

اعترى القلق النمسا من حليفتها روسيا ، خاصه استملاح القيصر للتوسع ، بالرغم من حاجتها لمثل هذا الحليف كدرع قبالة فرنسا . وصف

ميترنيخ الاكسندر بقوله : " تزاوج شاذ بين الاء الرجولة ونقـائض الأنوثـة أدركـه ضعف فرط فاقعده عن أي طموح ، شديد الجنوح صوب التفاهة المحضة " .

كان أعظم المعضلة التي فرضتها روسيا ، بالنسبة لميـترنيخ ، لا تتعلـق كثـيراً باحتواء هجوم روسيا - الأمر الذي يستنزف النمسـا - ولكـن السـبيل الى تهدئـة مراميها . وذكر أحد الدبلوماسيين النمساويين :

" يود القيصر بسلام هذا العالم ، ليس من أجل السلام وبركاته ، بل لأنـاه هو ، اذ أن عليه أن يمكث حكماً لهذا السلام بيده يسعد العالم ويبث الأمان ، وأن على أوروبا أجمعها أن تقـر بعرفانـه في هذا المضمار ، أي أن الأمر رهن ارادته ، بميسوره ابطاله ، أنى شاء .

اختلف كاسيلراي وميترنيخ في قضية احتواء روسـيا المتراسـة والفضوليـة . فقد أعد العدة كاسيلراي ، وزير خارجية جزيرة نائية عن صف المواجهة ، لمجابهـة الاعتداءات المباشرة حسب ، والتي من أمرها ، بعدئذ ، أن تهـدد التـوازن . ومـن ناحية أخرى تقوم بلاد ميترنيخ في قلـب أوروبـا قاصيـة عـن مثـل هـذه الفـرص . ومكـث ميـترنيخ ، بدافـع مـن عـدم الثقـة ، ملاصقـاً للقيصـر ومنأيـاً عـن نفسـه التهديدات وهي في مهدها . وذكر يقول :

" اذا ما صوبت نيران أحد المافع ، سـيرفعنا القيصـر علـى هامـة حاشيته ، وساعتئذ تتوارى ما يخالها بالقوانين المقدرة الهياً " .

تنبىء ميترنيخ ستراتيجية ذات حدين ، هدفاً لتشبيم حماسة القيصر ، فتريدت النمسا في عهده طليعة محاربي الوطنية بالرغم من حزمه على تفادي دولته المخاطر أو انهماكها بأعمال فردية . كان لا يبالي لتشجيع الآخرين في تبوأ دورهم ومرد هذا الأمر ، بدرجة ما ، الى الحماسة التنشيرية الروسية التي تنقلب توسعاً . كان التعديل ، له ، نعمة فلسفية وضرورة عملية فشرع يذكر ، في خضم تعليماته الى السفير النمساوي : " من الأهمية لنا أن نعظم ضرورة الغير على حساب مطالبنا .... وأن نسبغ بالكثير على قدر سؤالنا القليل " .

لقد حاول ، بمستطاعه ، ترييث نوايا القيصر التوسعية وبعثه في المؤتمرات المستغرقة واقصاره على ما يجيزه الاجماع الأوروبي .

جسدت الوحدة الحذرة ، الحد الثاني لاستراتيجية ميترنيخ فكان يكيد لأي عمل لم يستطيع له دفعا وعبر عن هذا الأمر ذات مرة :

" تتطلع النمسا لأي أمر على أساس الجوهر ، لكن روسيا تتوج الشكل دون أي اعتبار في حين تستملح بريطانيا الجوهر لا الشكل . علينا أن نزاوج بين معاجز بريطانيا وأساليب روسيا " .

وبفضل حذقة ميترنيخ تمكنت النمسا من الهيمنة على سير الأحداث جيلاً في الزمان فصيرت روسيا ، البلد المخيف ، شريكا لها على أساس وحدة المصالح المعتدلة في حين غدت بريطانيا ، الثقة ، آخر ملجأ لها لمقاومة تحديات توازن القوى فأرجئت بذلك النتيجة الحتمية . ومع ذلك ليس من التفاهة الدفاع دون دولة

شائخة تسكنها القيم المتضاربه مع التيارات السائده التي المت بها مـن كـل حـدب قرناً كاملاً من الزمان .

لقد تفخخ ميترنيخ بين المطرقة والسندان ، فكلما دنا من القيصر ، عظمت خشيته على الرابطة مع بريطانيا التي لو اضطرها بقدر ، لكتـب عليـه أن يتـودد الى روسيا بالقدر ذاته تفاديـاً للعزلـة . كـان الاتحـاد القـدوة ، بالنسـبة لـه ، يتجسـد بالمؤازرة البريطانيـة لحمايـة التـوازن الاقليمـي والمسـاعدة الروسـية لقمـع الجيشـان الداخلـي - الحلـف الربـاعي لضمـان سياسـي والحلـف المقـدس بقصـد الاسـتقرار الداخلي . وبتصرم الوقت ، واندثار ذكـرى نـابليون ، عيـل صـبر هـذا الائتـلاف كثيراً - فبقدر ما تبلغه التحالفات من نظام أمن جماعي وحكومة أوروبيـة ، بقـدر ما كتب على بريطانيا التقهقر منه فتدرك النمسا ، بازاء التقهقر البريطـاني ، الفاقـة الى الارتكان الى روسيا لذلك جاهدت بحزم دون المبادىء المحافظـة . كـانت هـذه الحلقة السيئة التي لا يمكن وثبها وعجز كاسـيلراي ، رغـم تعاطفـه مـع معضـلات النمسـا ، عـن استمالـة بريطانيا لتوجيه أخطار حاميـة الوطيـس . وذكـر في أحد أقواله :

" اذا ما اختل توازن أوروبا الاقليمي ، ستتدخل بريطانيا بحزم ، فما هي الا أقصى دوله أوروبية يتنبأ لها ذلك ، أو أن تقامر بنفسها في في شأن عري السمة ... سنتطلع من موقعنا ، عندما يحف بأوروبا خطر حقيقي ، فنرى أن هذا البلد لم ولن يحرك ساكناً بأزاء مباديء الحماية المجردة والتحررية " .

ويكمن لب معضلة ميترنيخ في الضرورة التي تكتب عليه المعالجة العملية لما تعده بريطانيا مجرداً وتحررياً . لقد يسر للنمسا أن تبصر في الثورة الداخلية خطراً طالح التخطيط .

اقترح كاسيلراي اجتماعات أو مؤتمرات دورية لوزراء الخارجية بقصد استعراض الشؤون الأوروبية وتسوية الخلافات في الرأي . وسعى ما يعرف بنظام المؤتمر نحو تعضيد الاجماع على الشؤون الماسه بأوروبا وتمهيد الطريق لدراستها على أصعدة شتى . لم تستكن بريطانيا العظمى من نظام الحكومة الأوروبية لأنه أفرط في دنوه نحو توحيد أوروبا ، وهذا ما أبته بريطانيا على الدوام . كانت سياستها المنعزلة والتقليدية تكتب على حكومتها اللاالتزام الآبد في استعراض الأحداث الحاصلة ، لأن الأمر محفوف بتهديدات خاصة . لذلك لم تستقطب المساهمة في الحكومة الأوروبية الرأي العام البريطاني ، تماماً مثلما فعلت عصبة الأمم في الأميركان ، بعد مائة عام ، للعلل ذاتها .

أبدت الوزارة البريطانية تحفظها الصريح تماماً مع استهلاك مؤتمر أكس - لا - شابيل في عام ١٨١٨ وأفصح كاسيلراي عن بعض تعليماته الغريبة القاسية :

" [في اعلان عام] أننا نطمن في هذه المناسبة ، وبمرارة أيضا ، [القوى الثانوية] أن ...المؤتمرات الدورية ... يجب أن تتكرس لموضوع واحد ... أو بالمقدور لدولة واحدة ، فرنسا ، دون أي تدخل بشكل يتبرأ منه دستور الأمم ....

فسياستنا الحقة لم تنـــي تحول دون تدخلنا الا في الطواريء القصوى ، بقوه تتولى دفة القيادة فيها " .

لقد شاءت بريطانيا لفرنسا أن تمكث في موقع المرصود في وقت خيم على لندن هلع مزدوج من أوروبا الموحدة " و مصايد أقطارها " .

وذات مره ، لا غير مرة ، استملحت بريطانيا العظمى سياسة المؤتمر وتماشيه مع تطلعاتها فابان ثورة اليونان عام ١٨٢١ ، ترجمت مقاصد القيصر في حماية المسيحيين من نير الامبراطورية العثمانية الآفلة كاستهلاك لفتح مصر . واذ رأت خطراً حادقاً بمصالحها الستراتيجية ، تقدم كاسيلراي ، برباطه جأش ، الى القيصر وناشده ، باسم الحلفاء ذاتهم ، أنه قد أشاح عن مسألة احتواء فرنسا ، لقد فصل ، على أرض الواقع ، بين الأمور النظرية والعملية :

" مسألة تركيا ذات سمة متباينه تماماً ونحن نخالها في بريطانيا أمراً نظرياً وواقعياً على حد سواء " .

وأعظم ما في التماس كاسيلراي الى الحلفاء أنه أفصح عن الهشاشة المتوارثة ، فالتحالف الذي يرى أحد أعضاءه مصالحه الستراتيجية المحضة هي المرفيء الواقعي الوحيد ، لن يقدر على تسيير الأمن كرة أخرى بين سائر أعضاءه لأنه لا يأتي بأي التزام لما تفرضه اعتبارات المصلحة القومية لكل أمر . ويقيناً أن ميترنيخ قد انشرح في تعاطف كاسيلراي الشخصي السابق لما يخص مصالحه أو مع نظام الكونغرس ذاته . وذكر أحد الدبلوماسيين قولاً في كاسيلراي :

" انه الهائم الولهان بالموسيقى ويود ، وهو في الكنيسة ، أن يصفق ، فتخونه الجرأة " ولو ود أغلب الساسة البريطان ، ذوي العقول الأوروبية ، أن يأسروا تعاطفهم مع ما آمن به ، لقدر لدور بريطانيا من مؤتمر أوروبا أن يكون عابراً بئيساً .

وثمة نزر يسير من التماثل بين كاسيلراي (وعصبه الأمم ولسون) بعد قرن من الزمان . فجهود كاسيلراي في حمل بريطانيا العظمى على المساهمة في نظام المؤتمرات الأوروبية قد تخطى كثيراً الفاصل الذي تصير عليه قوانين بريطانيا المتحفظة لعلل فلسفيه أو استراتيجيه . تيقن كاسيلراي ، كما حصل مع ولسون ، أن بميسوره تحاشي خطر الاعتداء الجديد اذا ما التحقت بلاده بركب بعض الاجتماعات الأوروبية الدائمة التي تسوي التهديدات قبيل أن تستفحل أزمات . لقد تفقه أوروبا أكثر من مجابليه البريطان وأيقن أن التوازن الحديث يتطلب تسييراً حذقاً . ساوره الاعتقاد أن بيده حلاً تقدر بريطانيا العظمى مساندته لأنه لا يتعد عن طائفة من اجتماعات وزراء خارجية المنتصرين الأربعة دونما التزامات لمثل هذه المناقشات .

ومثل هذه الاجتماعات صفعت ، أشد الصفع ، الحكومة الأوروبية بيد الوزارة البريطانية . وحقيقه الأمر أن نظام الكونغرس لم يتطهر من أولى عقباته . فعندما حضر كاسليراي الى المؤتمر الأول في أكس - لا - شابيل عام ١٨١٨ ، أذن لفرنسا بالحضور فأخرجتها بريطانيا العظمى . لقد رفضت الوزارة الاذن لكاسليراي بحضور أي مؤتمر أوروبي لاحق ، في تروبو عام ١٨٢٠ وفي ليباخ عام ١٨٢١ وفي فيرونا عام ١٨٢٢ . نأت بريطانيا عن نظام المؤتمرات الذي خلقه

وزير خارجيتها ، تماماً كما حصل للولايات المتحدة ، بعد قرن ، عندما تنحت عن عصبة الأمم ، مقترح الرئيس الأميركي . وعلى أية حال أصابت الخيبة محاوله قائد أشد الدول بأساً لخلق نظام أمني جماعي بعلة المحرمات الداخلية والطبائع التاريخية .

آمن ولسون وكاسليراي أن النظام الدولي ، المولود غداة حرب حامية الوطيس ، لن يغيثه الا المساهمة الفاعلة لجميع الأطراف الرئيسة في المجتمع الدولي ، وبنحو بارز خاصة أقطاره . كان الأمن ، بالنسبة لهما ، جماعياً : اذا ما رزحت احدى الدول ضحية ، ستمسي سائر الدول ضحايا في نهاية المطاف . واذا ما شدد الأمن قبضته ستبالي الدول أجمعها بمجابهة العدوان ويتعاظم نفعها في الحيلولة دونه . لقد ألفى كاسليراي في بريطانيا العظمى اهتماماً متأصلاً بحماية السلام العام واقامة توازن القوى ، لكل ما تراه في قضايا خاصة . كان الاعتقاد ، لدى ولسون وكاسليراي ، أن أيسر السبل لحماية المصالح تقتضي المشاركه في هيكلة القرارات المؤثره في النظام الدولي والدحر بشده لأي خروق للسلام .

ما يعيب الأمن الجماعي تشتت المصالح وخرق الأمن ، لقد استحب أطراف نظام الأمن العام المشترك الاتفاق قولاً لا فعلاً جماعياً ولم تآخيهم الا الأغلبيات الساحقة أو أن يصروا تقهقر أقوى الأعضاء ، الشاعر بقاصية الأمان وأدنى عازة للنظام . لقد عجز ولسون وكاسليراي عن السير ببلدهم في خطى الأمن الجماعي ليقينهم أن المجتمعات الموقرة لن تحدق بتهديد أيما أخطار ملموسة وأن بميسورهم ، وحدهم ، معالجة الأمر أو أن يستغيثوا حلفاءً لهم آخر المطاف ، لو اقتضى الأمر ذلك . كانت المساهمة في عصبة الأمم أو نظام الكونغرس الأوروبي ، بالنسبة لهم ، تصعيداً للأخطار لا تعزيزاً للسلم .

ومع ذلك ثمة فاصل عظيم بين دولتي الأنغلو - ساكسون . أطبع كاسليراي بمزاجه الفض لا مع مجايليه حسب ، بل حتى في المنحى الكامل للسياسة الخارجية البريطانية الحديثة . وما خلف تراثاً ، ولم يقتديه أي سياسي بريطاني . استجاب ولسون لمطالب الأميركان الدافقة وأحدثها وأعلى من شأنها . لقد كان خلفاءه " ولسنيين " الى حد ما وتهيكلت سياسة أميركا الخارجية ، عقبه ، ببعض في مبادئه .

اذن للورد ستيوارت ، " المراقب " البريطاني وأخي كاسليراي ، بحضور المؤتمرات الأوروبية المختلفة فسلخ عظيماً من طاقاته في تجليه آماد المشاركه البريطانية بنحو أبعد من مساهمتها في الاقتراع الأوروبي . وتقدم بمذكره ، في مؤتمر بروباو ، توكد حق الدفاع الذاتي وأصر أن بريطانيا " كعضو في التحالف غير ملزمة بالمسؤولية الأخلاقية في قيادة دفة الدفاع الأوروبي العام " .

وأوضح كاسليراي ذاته دور بريطانيا في بيان له في الخامس عشر من أيار عام ١٨٢٠ وأكد أن الحلف الرباعي يرتأي " تحرر الأغلبيات الأوروبية من سيطرة فرنسا العسكرية .... لم يبتغ قط توحيد حكومات العالم أو رصد الشؤون الداخلية لسائر الدول " .

لقد ألفى كاسليراي نفسه ، نهاية المطاف متنفخاً بين معتقداته والضرورات الباطنية فما عاد يرى ، من موقعه المتقهقر ، ثمة كينونه فاسرى الى الملك ، في آخر لقاء في حضرته :

" ثمة أمر ينقر بي ، يا سيدي المعظم ، لاودع أوروبا ، فاياك واياي من يفقه هذه القارة وقد انجيناها ، وليس ثمة خليفة من بعدي ، يفقه شؤونها " . وبعدها بأربعة أيام ، انتحر كاسيلراي .

أمست النمسا تتوكأ أكثر على روسيا وتحير ميترنيخ ، أعظم الحيرة ، في المدى الذي تكبح مناشداته لمباديء القيصر المحافظة ، دولة روسيا من اقتناص الفرص في البلقان أو محيط أوروبا . لقد طفحت الاجابة ، بعدئذ ، بأن الأمر يناهز الثلاثة عقود فعالج ميترنيخ ، أبانها ، الثورات في نابلس وأسبانيا واليونان وصان الاجماع الأوروبي دونما تدخل روسيا في البلقان .

بيد أن القضية الشرقية لم يكتب لها السير قدماً فهي ، في جوهرها ، مخاض الصراعات الاستقلالية في البلقان طالما سعت شتى الدول الى الاجهاز على تركيا . وكان المأزق الذي نصبته هذه القضية ، لنظام ميترنيخ ، يتعارض ونظام الالتزام بحماية الوضع الراهن وأن حركات الاستقلال التي تأتي على تركيا اليوم ستفتك غداً بالنمسا . وعلاوة لذلك كان القيصر ، الأكثر تزمتاً بالشرعية ، ولها جداً بالتدخل ولكن ما من أحد - يقينا لا في لندن أو فيينا - قد راوده الاعتقاد أن القيصر يصون الحالة الراهنة بعد أن أعطى الضوء الأخضر لجيوشه بالانطلاق .

ولردح من الزمان ، كان الاهتمام المتبادل لامتصاص صدمة الامبراطورية العثمانية الآفلة قد أصاب فتوراً في العلاقة بين بريطانيا العظمى والنمسا . فبالقدر اليسير الذي يبالي الانكليز لقضايا البلقان الخاصة ، عدوا الزحف الروسي صوب الستريت تهديداً لمصالح بريطانيا في البحر المتوسط وتصعيداً متعاظماً للمقاومة . لم

يساهم ميترنيخ قـط ، بنحـو مباشـر ، في هـذه المسـاعي البريطانيـة لمجابهـة التوسـع الروسي ، بخلاف ترحيبه الكبير بها . لقد قدرته دبلوماسيته الحذقـة ، والمبهمـة - توكيد وحدة أوروبا ، التملق للروس والبريطان - في ابقاء النمسا على حق الخيـار الروسي ولما قامت قيامة الدول الأخرى بسبب التوسع الروسي الموروب .

ويؤرخ عام ١٨٤٨ اعتزال ميترنيخ عن مشهد الأحداث وايذاناً باسـتهلال النهاية لأعظم عمل يسر للنمسا الاستعانة بوحدة المصالح المحافظة لصون تسويتها . ويقينا ما كان للشرعية أن تتبوأ ، خبط عشواء ، موضع الهزل الشديد بسبب موقع النمسا السياسـي والتنافـــر المتنـامي بـين قوانينهـا الداخليـة والاتجاهـات الوطنيـة المهيمنة . فهذا الفاصل اليسير ضـرورة لسياسـة الدولـة . لقـد حـذق ميـترنيخ في القضية الشرقية بينما جـاهد خلفائـه ، يحدوهـم العجـز في تكييـف قوانـين النمسـا الداخلية مع مقتضيات العصـر ، الى نقـل النمسـا تماشياً مـع الاتجاهـات السياسـية الناشئـة والقويـة ، دون أن تردعهـم فكـــرة الشـرعية . كـان الأمـر رزيـة النظام العالمي .

لقد شاء القدر لمؤتمر فيينا ، نهاية المطاف ، أن يدركه التشتت حول القضية الشرقية البسيطة فتطاحنت القوى العظمى ، عام ١٨٥٤ ، في الحـرب لأول وهلـة غداه العصر النابليوني . وما يثير السخرية أن حرب الكريميا هذه ، التي اسـتهجنها المؤرخون لتفاهتهـا ومقـدره تفاديهـا ، قـد قذفـت الى لظاهـا لا روسـيا وبريطانيـا العظمى والنمسا - الدول التي لها مصالح عظيمـة في القضيـة الشـرقية - بـل حتـى فرنسا .

وفي عام ١٨٥٢ سعى الامبراطور الفرنسي نابليون الثالث ، الذي تبوأ السلطه حديثاً بالانقلاب ، الى حمل السلطان التركي على خلعه لقب حامي المسيحيين في الامبراطورية العثمانية ، الشرف الذي كان يتمتع به قيصر روسيا ردحاً من الزمان . استشاط نيقولا الأول غضباً من نابليون الذي بعده مغروراً لقيطاً * ويجب أن يرتمي الى أقدام الروس لأنهم حماة سلاف البلقان وطالب بحق مساو لفرنسا . وازاء طرد السلطان لمبعوث روسيا ، قطعت الأخيرة علاقتها الدبلوماسية مع تركيا فساورت الخشية اللورد بالمرستون ، صائغ سياسة بريطانيا الخارجية أبان نواصف القرن التاسع عشر ، ونادى الى ارسال البحرية الملكية الى خليج البسيكا ، خارج نطاق الدردنيل . لقد عشعش في القيصر ، شبح نظام ميترنيخ فكتب مشيراً الى القوى العظمى :

" ان هؤلاء الأربعة بيدي أمرهم ولكن ذلك لن يحصل قط .... بمقدرتي أن أضم برلين والنمسا الى جعبتي " .

لقد أمر نيقولا ، ليفصح عن استهتاره ، بغزو امارات مولدافيا والشيا (التي تعرف الآن برومانيا) . واقترحت النمسا ، الخاسرة لحصة الأسد في هذه الحرب ، الحل السابق - أن تتشاطر فرنسا وروسيا حماية المسيحيين العثمانيين . لم يكترث بالمرستون لأية نتيجة ، فزج البحرية الملكية الى مدخل البحر الأسود ليقامر ، دون مبالاة ، على دور بريطانيا ، فشجع هذا الأمر تركيا لتعلن الحرب على روسيا يؤازرها في ذلك بريطانيا وفرنسا .

* أي غير أهل للسلطه من الناحية الشرعيـــة .

كانت دوافع الحرب الحقيقية أعمق من هذه الذرائع فالمطالبات الدينية كانت ، في الحقيقة ، حججاً لمقاصد سياسية وستراتيجية . راودت نيقولا أحلام روسيا البالية في ضم القسطنطينية والستريت بينما رأى نابليون الفرصة مواتيه للاجهاز على عزلة فرنسا وحل آصرة الحلف المقدس مرة والى الأبد . ومع انطلاقة شراره الحرب ، ولجت بريطانيا البحر الأسود بأسطولها الحربي وشرعت بتدمير الأسطول الروسي في هذا البحر . لقد وطئت الكريميا قوة فرنسية - انكليزية لاغتنام القاعدة البحرية الروسية في سافستابول .

لم تلقن هذه الأحداث في قادة النمسا سوى التعقيد فألصقوا الأهمية بصديقتهم القديمة روسيا وهم في خشية في اصطدام الفوضى لسلاف النمسا أثر الزحف الروسي في البلقان . ساورتهم الخشيه من مباغتة فرنسية للأقاليم الايطالية في النمسا بذريعة أن الأخيرة قد شاحت عن حليفتها القديمة روسيا .

اتخذت النمسا ، أول الأمر ، جانب الحياد لكن وزير خارجيتها الجديد ، كونت باول ، الفى الأمر مأرقاً للآعصاب وأن التهديد الفرنسي لممتلكات النمسا في ايطاليا كان جياشاً . واخطرت النمسا القيصر بانذار ، ولما أحاطت الجيوش الفرنسية والبريطانية بفاستابول ، مطالبة اياه بالتقهقر من ملدوفيا ووالاشيا . كان هذا العامل حاسماً في وضع أوزار الحرب الكريميا - وفي أقل تقدير هذا ما عزف القادة الروس عن التفكير به تارة أخرى والى الأبد .

لقد طلقت النمسا نيقولا الأول وصداقتها الوشيج بروسيا ، التي تعود الى عهود الحروب النابليونية . وساق الطيش ، الذي خلقه الرعب ، حلفاء ميترنيخ

على خلع الشرعية المحافظة للوحدة التي صورها الحذق البارع لأكثر من جيل في الأوقات المريرة . ففي هذه المرة ظفرت النمسا بجلدها من قيود القيم المشتركة وعتقت حرية روسيا على توجيه سياستها بحزم وبأساس في الفضيلة السياسية . وحيال هذا الصنيع ، الفت روسيا نفسها مرغمة على الاشتباك مع النمسا حول مستقبل البلقان تارة ، وسعيا الى تقويض كيان الامبراطورية النمساوية تارة أخرى .

كان الباعث على امادة تسوية فيينا خمسين عاماً رؤية القوى الشرقية الثلاث - بروسيا وروسيا والنمسا - في توحدها حائلاً ضرورياً دون الاضطرابات الثورية أو تسيد فرنسا على أوروبا . ففي حرب الكريميا خاطرت النمسا بنفسها في حلف مشوب بالحذر مع نيقولا الثالث ، الشيق لنخر النمسا في ايطاليا ، ومع بريطانيا العظمى العازفة عن التدخل في شؤون القارة .

وهكذا عتقت النمسا روسيا وبروسيا شريكيها القديمين ليسيرا مصالحهما الوطنية المحضة . لقد حددت بروسيا ثمنها تماماً عندما أقحمت النمسا على الانسحاب من المانيا ، بينما استحال مقت الروس المتعاظم في البلقان الى احدى شرارات الحرب العالمية الأولى التي أفضت الى انهيار النمسا والى الأبد .

وبازاء وقائع سياسة القوة ، تذوقت النمسا مرارة الخيبة من التفقه أن نجاتها تكمن في الالتزام الأوروبي بالشرعية . لقد سمت فكرة توحد المصالح المحافظة فوق المديات الوطنية وجنحت لتسكين مواجهات القوة . أن للوطنية أثرها في استقطاع

المصلحة الوطنيــة وتجييـش الخصومـات ، واحـداق الجميـع بـالخطر . لقـد قذفـت النمسا نفسها في صراع لن تستطيع له ظفراً .

في خضم السنوات الخمس التي تصرمـــت علـى انتهـاء حـرب الكريميـا ، شرع القائد الوطني الايطالي " كاميلو كـافور "- بطـرد النمسـا مـن ايطاليـا بشـنه الحرب معها يعـاضده في ذلـك التحـالف الفرنسـي والاذعـان الروسـي ، اللتـين لم يتصورا مثل هذا الأمر في سابق وقت . وبعد سنوات خمس لاحقة يدمر بســمارك النمسا بحرب للسيطره على المانيـا . وتقـف روسـيا وفرنسـا كـرة أخـرى موقـف المتفرج دون تحريك ساكن . ففي عهد ميترنيخ كان مجلس أوروبا يشاور في هــذه الأمور ويخمد الجيشانات ، وهكذا تستند الدبلوماسية الى القـوة المجـردة لا القيـم المشتركة . لقد كتب للسلام خمسون عامـاً أخـر تـأزمت التوتـرات في كـل عقـد وتعاظمت سباقات التسلح .

أشاحت بريطانيا العظمى ، بشكل كبير ، عن النظام الدولي الـذي تسـوقه سياسة القوة ومرد ذلك أنها لن تسـتكن قـط الى نظـام الكونغـرس ضمانـاً لأمنهـا الذي يرى مخطط العلاقات الدولية عملاً روتينياً . لقد أمست بريطانيـا العظمـى ، مع مرور القرن التاسع عشر ، الدولة المهيمنة في أوروبا يمكنها بأسها مـن الوقـوف لوحدها . كان لها ثمة منافع من العزلة الجيوسياسية وحرمـة للثـورات الداخليـة في أوروبا ، وثمـــة فضيلـة القـادة العظـام الذيـن يلـتزمون ، علـى نحـو رشـيد ، بـأي مصلحة قومية .

لم يتفهم خلفاء كاسيلراي أوروبا بالقدر الـذي تمنع هـو بـه ، ومـع ذلـك فانهم قد أمنوا قبضتهم على ما شكل المصلحة البريطانية الأساسية واستحثوا خطى هذا الأمر بحذلقـة واصرار فـائقين ٠ لم يسلخ جـورج كـانن ، خليفـة كاسـيلراي المباشـر ، اي وقـت في اسـتئصال الروابـط القليلـة الباليـة الـتي أحكـم مـن خلالهـا كاسـيلراي ، ولفـترة عظيمـة ، تأثـيره في نظـام الكونغـرس الأوروبـي ٠ وفي عـام ١٨٢١ ، السنـــة التي سبقت استخلاف كاننغ لكاسليراي ، نادى الأول بسياسـة " الحياد قولاً وفعلاً " وقال : " أطردوا عنا روح العاطفة الرعناء وشبح الاعتقـاد ، ان بميسورنا ، وحدنا ، أن نخلق أوروبا كرة أخرى " ٠ لقد قطع دابر أدنى شك ، لدى تبوأه وزارة الخارجية ، فمبدأه القيـادي تجسـده المصلحـة الوطنيـة الـتي يراهـا تتناقص مع الارتباط الدائم بأوروبا ٠

كانت بريطانيا تصون الحق في توجيـه سـلوكها بحسـب منفعـة كـل قضيـة فكانت لا تحرك ساكناً الا لمصلحتها الوطنية ، وهذه السياسة تضع حلفائها بموضع الاعضاء المساعدين أو غير الآهلين ٠

أوضـح بالمرسـتون ، عـام ١٨٥٦ ، التعريـف البريطـاني للمصـالح الوطنيـة كالتالي : " عندما يسألني الشعب ، عما تكنه كلمة السياسة ، يكون ردي الوحيـد أننا ننوي عمل ما نراه الأيسر لنا ، فكل أمر يحصـل ، سـائرين أولاً بخطى مصـالح بلدنا " ٠ وبعد نصـف قـرن لم يحـظ الوصـف الرسمـي لسياسـة بريطانيـا الخارجيـة بأسلوب يتسم بدقـة بالغـة ، كما رسم هذا الوصـف السـير ادوارد كـري ، وزيـر الخارجية : " كان وزراء خارجية بريطانيا متضادين بما لاح لهم أنه المنفعـة المباشـرة لهذا البلد ، دونما حسابات تفصيلية للمستقبل " ٠

وفي أغلب سائر الدول ، كانت ثمة بيانات تثير السخرية - أننا نقدم على ما هو أفضل لأننا نخاله هكذا . وفي بريطانيا عدت مثل هذه الأمور نيرة فبالكاد كان ثمة دعوى لايضاح العبارة الشائعة " المصلحة الوطنية " ويقول بالمرستون : " ليس لنا حلفاء خالدون أو خصوم آبدون " . ولم تفتقر بريطانيا العظمى لستراتيجية رسمية لأن قادتها تفهموا المصلحة الوطنية على نحو جد غائر ومحكم لدرجة يتصرفون تلقائياً بازاء أي موقف يثار - لثقتهم أن الشعب سيتبع خطاهم وبعبارة بالمرستون " أن مصالحنا عائشة أبد الدهر ، وفي عهدنا أن نقتفي هذه المصالح " . وعلى الأرجح اطلع القادة البريطان على ما يحجمون المدافعة دونه بشكل أكبر من معرفتهم بسبب الحرب سلفاً وكانوا جد مكرثين لفصل الأهداف الايجابية لأنهم قد عشقوا الوضع الراهن كثيراً . لم تدفع الحاجة هؤلاء القاده لتوضيح مصلحة بريطانيا الوطنية سلفاً لأنهم ذوو معرفة بها حالما يأنسوها . لقد استحبوا انتظار القضايا الحقيقية - فهذا الموضع يعجر دول أوروبا من تبني اي موقف .

وما كان للتطلع البريطاني المتعلق بالأمن ليتباين مع رأي منظري أميركا لا سيما وأن الأولى استشعرت جانب الصمت بكل الأمور ما خلا الثورات الحامية الوطيس . وتجلى هذا التباين عندما وردت القضية بالعلاقة بين السلام والهيكل الداخلي اذ لم يخال البريطان ، بأية سيماء ، ان انتشار القوانين التمثيلية لفاتحة للسلام ، كما رأى نظرائهم الأميركان في ذلك ، ولم يساورهم القلق من القوانين المتباينة وخاصتهم .

وهكذا أطلع بالمرستون ، عام ١٨٤١ ، السفير البريطاني في شارع بيترسبرغ عما تقاومه دولته بقوه السلاح وعما تجابهه من التغييرات الداخلية المحضة :

" ترى حكومة صاحبة السيادة ، كأحد مبائها العامة وآية لقيادة علاقتها مع سائر الدول ، ان التغييرات التي تدخلها الدول الأجنبية في دستورها الداخلي أو هيئة حكومتها ، لأمر لاناقة لبريطانيا في التدخل فيه بقوه السلاح .....

ولكن أية محاولة تقدم عليها دولة ما لاغتصاب مقاطعة تعود لغيرها ، واستقطاعها لنفسها ، لذي شأن آخر فهذا الأمر يفضي الى خلخلة كيان توازن القوى ويجنح الى أخطار قوى ما اذا ما تحورت سائر القوى ، بنسبه معينه ، لذا تعتق حكومة بريطانيا ، لنفسها ، الحرية الكاملة لمقاومة هذا الأمر " . كان وزراء بريطانيا ، دون استثناء ، مهتمين جداً بسيادة حرية عمل بلادهم وكرر بالمرستون ، عام ١٨٤١ ، نفور بريطانيا العظمى من القضايا المجردة : " ليس من دأب بريطانيا أن تضع أنفها بأمور لم يكتب لها الولادة فعلاً ، أو لتلك لاحت في الأفق تواً " .

وبعد قرابه الثلاثين عما ، تبنى كلادستون المبدأ ذاته في رساله كتبها للملكه فكتوريا :

" على بريطانيا ، في خاصة أراضيها ، أن تستخلص لنفسها طرائق تثمن التزامها بشتى الوقائع عندما تضطرم ، فما عليها أن تستعوق حرية اختيارها ، وتقلصها ، لشعارات تنادي بها الدول الأخرى ، لمصالحها الحقة والمزعومة ،

ويختلقون لأنفسهم التبرير المشترك ، في أقل تقدير " . لقد رفض ساسة بريطانيا ، بحكم الاصرار على حرية العمل ، كافة ازدواجيات مسرح الأمن الجماعي . ان ما يعرف بـ " العزلة المدهشة " عكس اقرار بريطانيا بأنها جثت لتضيع أعظم مما تناله من حلفائها . وبقدر الموقف المنعزل ، الذي أبهج دولة بميسورها الوقوف بحزم لوحدها ، فانها لم تأنس أية أخطار تستغيث ازائها لعون الحلفاء ، فكان يقينها أن التهديد ، بتطرفه ، ليصيب حلفائها أيضاً . ومهد دور بريطانيا العظمى في استتباب توازن أوروبا الخيارات التي يحتاجها قادتها أو يودوها . والهمت صبراً على هذه السياسة لأنها لم تكافح سعياً للغنائم الاقليمية في أوروبا . كانت بريطانيا تنتقي الخلافات الأوروبية وتتدخل لأن لها في هذه البقعة نفعاً يتجلى في التوازن (برغم شهية البريطان النهمة للغنائم الاستعمارية في ما وراء البحار) .

مع ذلك ماكانت " عزلة بريطانيا المدهشة " لتعصمها من الدخول في تدبيرات تفرضها في سائر الدول ظروف خاصة طارئة . لقد اضطرت هذه الدولة البحرية ، المفتقرة لجيش جرار مستقر ، للتعاون مع خلفاء أوروبيين أحياناً ، تصطفيهم بمقتضى الحاجة . ويرى قادتها ، بازاء هذه الأمور ، ذواتهم لائذة بالكتمان لسالف الاحقاد . فعندما أعلنت بلجيكا انفصالها من هولندا عام ١٨٣٠ ، هدد بالمرستون فرنسا ، لأول مرة ، باشعال فتيل الحرب اذا ما سعت للسيطره على الدولة الجنينة لكنه عرض ، غداة الأمر بسنين قلائل ، الحلف مع فرنسا لضمان استقلال بلجيكا :

" ليس بميسور بريطانيا وحدها أن تضع النقاط على حروف أوروبا فينبغي لها حلفاء لتحقيق الأمر " .

ويقينا أن لحلفاء بريطانيا المختلفين ، الذين خلقتهم الظروف الخاصة ، نوايا ما تنطوي عادة على اتساع تأثيرها أو أقاليمها في أوروبا . وعندما أفرطوا في ما اعتبرته بريطانيا أهلاً ، استحدثت ائتلافاتها بوجه حلفائها السابقين لتدافع عن التوازن .

لقد نعتت بريطانيا ، بفضل طريقتها الراشدة وتقريرها للمستقبل لقب " انكلترا الخؤون " و لم يصور مثل هذا الطراز من الدبلوماسية ، على الأرجح ، موقفاً رفيعاً خاصاً ، لكنه صان سلام أوروبا ، وبوجه خاص ، غداه ما شرع نظام ميترنيخ يتهرأ على أعقابه .

أرخ القرن التاسع عشر أوج النفوذ البريطاني ، فقد كانت بريطانيا ثاقة بذاتها ولها الحق ، كل الحق ، في ذلك بفضل ريادتها الصناعية ، كأمة ، وقيادة أسطولها البحري زمام البحار . كانت سياسات بريطانيا في الداخل ، في عهود الثورات الداخلية ، يرسمها السكون اذا ما صادفت القضايا الكبيرة للقرن التاسع عشر - التدخل وعدم التدخل ، حماية الوضع الراهن ، التعاون مع متغير الأمور - رفض القادة البريطان الالتزام بأيما مبدأ . وفي عشرينات القرن التاسع عشر تعاطفت بريطانيا مع اليونان ، في حرب استقلال الأخيرة من الامبراطورية العثمانية الأمر الذي لا يهدد موقع بريطانيا الستراتيجي في شرقي البحر المتوسط - بتعاظم النفوذ الروسي . ولكنها تدخلت ، عام ١٨٤٠ ، لاحتواء روسيا وبذلك عضدت الحالة الراهنة في الامبراطورية العثمانية . وفي الثورة الهنغارية عام ١٨٤٨ رحبت بريطانيا ، التي لم تتدخل في سابق عهد ، باستتباب روسيا للوضع الراهن ، لكنها تعاطفت ، من دون تدخل ، عندما أعلنت ايطاليا الثورة على حكم هابسبرغ في

خمسينيات القرن التاسع عشر . وصيانة لتوازن القوى لم تكن بريطانيا العظمى بسورة التدخل أو (غير التدخل) ولا بالمتحصن بنظام فيينا أو بالقوة المعدلة ، كان سلوكها نشطاً لا يلين لذا زها البريطان بقدرتهم الراعنة .

ومع ذلك ينبغي لاية سياسة ذرائعية أن تتهيكل بمبدأ راسخ لتعصم حذقها اللبق من الانغماس في النيوس العشوائي . كان المبدأ الراسخ لسياسة بريطانيا الخارجية ، بعلم أو دون علم ، يتجسد بدورها ، كحامية لميزان القوى ، الأمر الذي عني ، عامة ، اعانة الضعيف على القوي . لقد غدا توازن القوى ، في عهد بالمرستون ، مبدأ راسخاً لسياسة بريطانيا بحيث لم يفتقر لدفاع نظري فنعتت ، أي سياسة تنتهج في أيما وقت ، بأنها حماية توازن القوى . كانت حالة الاستقرار الذي لا يتحرك قيد أنمله ، بجتنحاً الأهداف الثابتة والعملية . فلم يتحور على عتق الدول الصغيرة من قبضة الدول الكبرى في الفترة الكائنة بين وليم الثالث واندلاع الحرب العالمية الأولى . أكد دسويل هذا المبدأ عام ١٨٧٠ :

" دائماً ما ترى حكومة هذه البلاد ، ولمنفعتها ، أن دول الساحل الأوروبي الممتد من دنكرك وأوستند صوب جزر بحر الشمال يجب أن تتملكه مجتمعات متحررة زاهرة تمارس أعمال السلم وتمتع بحقوق الحرية وترعى ممرات التجارة من تلقاء ذواتها وتهدف الى تحضير الانسان ، لا أن تكون مثل هذه الدول بحوزه قوة عسكرية عظمى " .

لقد كان اجراء باغت في مفاجئته الكبيرة قادة المانيا المعزولين عندما تصرفت بريطانيا ، عام ١٩١٤ ، باعلان الحرب ضد المانيا عندما غزت بلجيكا .

كانت سيادة النمسا ، حتى مطلع القرن التاسع عشر مسألة بريطانية هامة وقد خاض مارلبرو وكارترت وبت عدة حروب لكبح فرنسا من تقويض النمسا . فما برحت بريطانيا تأنس النمسا ، الخاشعة ، الى حد ما من الغزو الفرنسي في القرن التاسع عشر ، الثقل المقابل العملي بازاء التوسع الروسي صوب الستريين . وعندما هددت ثورة ١٨٤٨ بتشتيت النمسا أعلن بالمرستون :

" أن النمسا تتكبد مركز أوروبا عارضاً دون أي اعتداء من جهة وعاصماً من الغزو في الجهة المقابلة . فأرى شخصياً أن الاستقلال السياسي لأوروبا وحرياتهم ليعتمد على وحدة النمسا وأمنها كقوه عظمى في أوروبا . وهكذا يجب أن نحال كل ما يجنح ليكون اعتداءً مباشراً ، أو بعيداً ، لاضعاف النمسا وتقويض كيانها ، حتى لو من شأنه تحقير مركزها كقوة عظيمة الى دولة ثانوية ، بانه كارثة جليلة لأوروبا على الانكليز جمعاء أن يحولوا دونه " .

وغداة ثورة عام ١٨٤٨ دب الضعف المطرد بالنمسا وشذت سياستها رويداً رويداً فأضمحل نفعها كعامل رئيس لسياسة بريطانيا في شرقي البحر المتوسط . لقد شددت سياسة بريطانيا للحيلولة دون احتلال روسيا للدردنيل وتبطنت الخصومات الروسية النمساوية نوايا روسية لاغتصاب مقاطعات السلاف في النمسا . ما كان لهذا الأمر أن بقلق بريطانيا ، كثير القلق ، في حين ألفت النمسا ، السيطره على الدردنيل ، غير ذي نفع حيوي . وهكذا رأت بريطانيا العظمى في النمسا غير آهلة كثقل يوازن روسيا فآثرت لنفسها موقف المتفرج عندما دحرت النمسا بيد بيدمونت في ايطاليا وعلى يد بروسيا في النزاع حول السيطرة على المانيا - الاكتراث الذي ما قدر له أن يبصر النور في أيما جيل . ومع

انصرام القرن يجثو على سياسة بريطانيا شبح الخوف من المانيا فتطفو النمسا ، حليف المانيا ، في احصاءات الانكليز ، خصماً لبريطانيا ، ولأول وهلة .

وما من أحد ساوره الاعتقاد ، وفي القرن التاسع عشر بالتحالف بين بريطانيا العظمى وروسيا في أيما يوم . كان بالمرستون يرى روسيا " تقود نظاماً من العداء الشامل دونما استثناء ومرد ذلك الى شخصية الامبراطور [نيقولا] شطراً ومن نظام الحكومة الراسخ في الشطر الآخر . لقد أصدى اللورد كلارندون هذا الرأي ، بعد أربع وعشرين سنة ، عندما جادل أن حرب الكريميا صراع الحضارة مع البربريه " لقد سلخت بريطانيا العظمى أفضل وقت القرن برصد التوسع الروسي صرب " فارس " ومعرفة ممراتها على القسطنطينية والهند . وسلخت مسألة حب المانيا للحرب وبلادتها ، عقوداً من الزمان لتشيح أعظم القلق الأمني البريطاني صوب هذه الدوله ، و لم يحصل الأمر في نهاية المطاف ريثما اذن القرن بالرحيل .

كانت حكومات بريطانيا دؤوبة التغير أكثر من حكومات ما يسمى بالقوى الشرقية و لم يتبوأ أحد الشخصيات السياسية الرئيسة - بالمرستون ، كلادستون ، دزرائيلي - مناصب آبدة كما أقدم ميترنيخ ونيقولا الأول وبسمارك على عمله . ومع ذلك أظهرت بريطانيا اصراراً رائعاً لمسعاها ، فاذا ما طرقت أسلوباً معنياً ستواصله بثقة راسخة ورباطة جأش صمود فقدرها ذلك على ممارسة تأثير حاسم لمصلحه سلام أوروبا .

كانت السمة النيابية للقوانين السياسية احدى علل اخلاص بريطانيا العظمى أبان الكروب . لقد اضطلع الرأي العام ، منذ عام ١٧٠٠ ، بدور هام في سياسة بريطانيا الخارجية فما من ثمة بلد أوروبي ، في القرن الثامن عشر ، يتمتع بوجهة نظر " معارضة " لما يخص السياسة الخارجية ما خلا بريطانيا العظمى ، المستورثة هذا الأمر في نظامها . لقد مثل التوريون سياسة الملك الخارجية وجنحوا الى التدخل في صراعات القارة بينما استحب الهوغيون ، كما فضل السير روبرت والبول ، موقف السكون من صراعات القارة وسعوا الى توجيه أعظم الى التوسع الخارجي . وابان القرن التاسع عشر استحالت أدوارهم عاليها سافلها فالهوغيون مثلوا ، كما فعل بالمرستون ، سياسة نشطة بينما خشي التوريون ، كما هو شأن دربي وسالزيري ، من العمليات الخارجية . لقد تحالف الريديكاليون ، مثل ريتشارد كوبدن ، مع المحافظين في تبني موقف بريطاني غير متدخل . أظهر البريطان توحداً عظيماً أبان الحروب بسبب تمخض سياسة الدولة الخارجية من مناقشات مفتوحة .

عاملت بريطانيا العظمى ، في كل الدهور ، قوانينها البرلمانية أنها فريدة بحد ذاتها وبررت سياساتها في أوروبا على أساس المنفعة الوطنية البريطانية لا العقيده . وكلما أبدت تعاطفاً مع ثورة ، كما فعلت مع ثورة ايطاليا عام ١٨٤٨ ، أبرزت أسبابها العملية . وهكذا يقتبس بالمرستون مثل كاننغ :

" ان أولئك الذين أوقفوا التطور لأن ضرب من الخلق سيرغمون ، في يوم أو آخر ، على قبول الخلق لأنه انقلب تطوراً " . ولكن هذه الموعظة صقلتها التجربة وليست المناداة الى نشر القيم البريطانية وقوانينها . وابان القرن التاسع

عشر أوزنت بريطانيا سائر الدول بمعيار سياسات هـذه الـدول الخارجيـة فـاتخذت جانب الاكتراث لهياكلها الباطنية - ما خلا فترة كلادستون القصيرة .

وبالرغم من تشاطر بريطانيا العظمـى وأميركـا حيـاداً واضحـاً لمساهماتها اليومية في شؤون العالم - تبرر الأولى عزلتهـا بعلـل بينـة مثـيرة . لقـد استشـعرت أميركا قوانينها الديمقراطية كـانموذج تقتديـه سـائر الـدول في العـالم بينمـا عـاملت بريطانيـا العظمـى قوانينهـا البرلمانية دونما انسجام وأخرى المجتمعات وآمنـت أميركا أن نشر الديمقراطية سيعضد السلام وفي الحقيقة أن السلام المستتب لا تبلغـه طريقه أخرى ، أما بريطانيا فتستملح هيكلاً داخلياً خاصاً دونما مجازفة من أجله .

وفي عام ١٨٤٨ هدأ بالمرستون شكوك بريطانيا العظمى التاريخية في قضيـة الاطاحة بملكية فرنسـا وظهـور بونـابرت جديـد عندمـا استشـهد بـالدور العملـي لسياسة بريطانيا :

" ان المبدأ الراسخ الذي تتصرف بريطانيا بموجبه ، كهيئة لكـل الأمـم ، أن تعلم على اصطفاء نظامها بترو " .

كان بالمرستون المعمار الأول في هيكلة سياسة بريطانيـا العظمـى الخارجيـة نحواً يناهز الثلاثين عامـاً . ومـع بدايـة ١٨٤١ حلـل ميـترنيخ أسـلوبه الافـتراضي باعجاب متشائم :

" ما الذي يتغيه اللورد بالمرستون بعدئذ ؟ انـه يـروم لفرنسـا تـذوق القـوة البريطانية ولما يبرهن لها أن بميسوره الافضاء عن قضية مصر انى شاء ذلـك ، دونمـا

أي حق فرنسي في هذا الأمر ، ويود أن يبرهن للقوتين الألمانيتين أنه في غنى عنهما فقد اكتفى بمساعدة روسيا ، ويروم أن يترصد روسيا ويقتادها بقطاره ولما تتطلع ، خائفة على الدوام ، من دنو بريطانيا من فرنسا كرة أخرى " ،

لم يكن هذا الوصف بغير ذي دقة لما تفقهته بريطانيا العظمى عن ميزان القوى ، لقد قدرت بريطانيا ، في نهاية المطاف ، على سلخ هذا القرن بحرب واحدة قصيره على نحو ما مع القوة الرئيسه الأخرى - حرب الكريميا ، وبالرغم من أن الجميع قد رغبوا عن اضطرام هذه الحرب ، فانها هي بالذات التي أجهزت عن نظام ميترنيخ االذي صقله مؤتمر فيينا أحسن تصقيل ، أن تشتت وحدة الممالك الشرقية الثلاث أبعد عامل التمدن الأخلاقي لدبلوماسية أوروبا وانسلخت خمس عشرة سنة من التحول قبيل استحداث الاستقرار الدقيق ،

الفصـــل الخامـــس

الثوريان : نابليون الثالث وبسمارك

تمخض نظام مترنيخ ولما بدأ بالتداعي في أعقاب حرب الكريميا عما يقارب عقدين من الصراعات مستعرة الأوار : كحرب (بيدمونت) وفرنسا ضد النمسا عام ١٨٥٩ ، والحرب من أجل شلزوغ - هولشتاين عام ١٨٦٤ ، والحرب النمساوية البروسية عام ١٨٦٦ ، ثم الحرب الفرنسية البروسية سنة ١٨٧٠ . وعليه برزت ملامح ميزان جديد للقوى من بين سورات هذه الاضطرابات والاهتزازات العنيفة . فها ذي فرنسا التي خاضت غمار ثلاثة حروب وارادت اضرام غيرها قد فقدت زمام الهيمنة على المانيا . ولعل ما هو أهم من ذلك انهيار القيود الأخلاقية للنظام المترنيخي . وتلبس هذا الاضطراب بطيلسان مصطلح جديد ينم عن سياسة توازن قوى غير مكبوحة ، فحلت الكلمة الألمانية **realpolitik** ومعناها (السياسة الواقعية) محل المصطلح الفرنسي (**raison d'etat**) وفحواه (مصلحة الدولة) دوون أي تغيير في المعنى .

لم يكن النظام الأوروبي الجديد الا صنيعة شخصين تعاضدا على بنائه ريثما أمسى كلاهما خصماً لدوداً للآخر ، انهما الامبراطور (نابليون الثالث) و (آتوفون بسمارك) . لقد ازدرى الرجلان تقوى مترنيخ العتيقة : وجوب الحفاظ على مصلحة الاستقرار والتكتل المشروع لدول أوروبا ، قمع الحركات القومية والتحررية وأكثر من هذا ضرورة احالة العلاقات ما بين الدول الى ما يرتأيه اجماع الحكام الذين يحملون أفكاراً متشابهةً فأقاما سياستهما على مبدأ

السياسة الواقعية أي مبدأ أسلاس القياد للقوة المجردة في أمر تحديد العلاقات بين الدول وسيادة الأقوى .

كان نابليون الثالث وهو ابن أخت نابليون العظيم الذي مزق أوروبا شذر مذر ، في شبابه عضواً في الجماعات الايطالية السرية التي انخرطت في مقارعة الهيمنة النمساوية على ايطاليا وأعلن بعيد انتخابه رئيساً عام ١٨٤٨ ، أثر انقلاب ، نفسه امبراطوراً عام ١٨٥٢ . فيما كان (أوتوفون بسمارك) سليلاً من أسرة بروسية مرموقة وكان معارضاً قوي الشكيمة للثورة الليبرالية في بروسيا عام ١٨٤٨ ، وغدا رئيساً للوزراء لما لم يجد الملك المستاء ملاذاً آخر للتغلب على مأزق هز البرلمان حول المخصصات العسكرية .

وفيما بين ذلك نجح نابليون الثالث وبسمارك في قلب تسوية فيينا رأساً على عقب ، سيما القيود الذاتية المنبثقة عن الايمان المشترك بالقيم المحافظة . ما يظن امرء أنه واحد شخصيتين أكثر تبايناً فيما بينهما من بسمارك ونابليون الثالث . فقد اشترك المستشار الحديدي مع العملاق الفرنسي في قلب ظهر المجن لنظام فيينا . وشعر كلاهما أن النظام الذي أرساه مترنيخ في فيينا عام ١٨١٥ ما هو الا قطرس أراد احتواء فرنسا فمقته لذلك نابليون الثالث الذي وان لم تستبد به أطماع جنون العظمة كشأن خاله استشعر أحقية فرنسا بنيل مكتسبات اقليمية ورغب عن وجود أوروبا موحدة لتقف بوجهه وفوق هذا ، ظن أن القومية والليبرالية قيم تعلمها العالم من فرنسا وأن نظام فيينا لما وضع القيد عليها فأنما وضع قيداً على طموحاته . وبغض بسمارك صنيعة مترنيخ عن لأنه أغلق على بروسيا منفذ الصيرورة شريكة صغيرة للنمسا في الاتحاد الألماني الكونفدرالي ،

وكان على يقين أيضاً أن الاتحاد قد حافظ على وجود كثير من التوابع الألمانية الصغيرة التي أصفدت أيدي بروسيا . واذن ينبغي تحطيم نظام فيينا اذا ما أرادت لبروسيا ادراك قدرها وتوحد المانيا .

وفيما تشاطر الثوريان ازدراءهما للنظام القائم آلت بهما الاقدار الى نهاية مختلفة تماماً عن انجازاتهما . فقد أحدث نابليون نقيض ما اراده صنيعاً له بعد أن تخيل نفسه حامل فأس تحطيم تسوية فيينا وآمال انبعاث القومية الأوروبية ، واذا به يقذف بالدبلوماسية الأوروبية في نوبة اهتياج واضطراب لم تقطف منها فرنسا قليل نزر على المدى البعيد ومنها انتفعت الدول الأخرى . وهو قد جعل من توحيد ايطاليا ممكناً وحرض غير قاصد على توحيد المانيا ، فكان كلاهما حدثاً أضعف فرنسا من الناحية الجيوسياسية وقوض الأساس التاريخي للنفوذ الفرنسي المهيمن في وسط أوروبا . كان اعتراض أي من هذين الحادثين خارج القدرة الفرنسية ، ومع هذا عجلت سياسة نابليون الشاذة من العملية وفي الوقت عينه فوضت مقدرة فرنسا على تشكيل النظام الدولي الجديد بما يتفق مع مصالحها بعيدة المدى . لقد حاول نابليون تحطيم نظام فيينا لاعتقاده أنه ينطوي على عزلة فرنسية – وهو أمر صائب لحد ما – لكن فرنسا عاشت مع انتهاء أيام حكمه عام ١٨٧٠ أكثر عزلة مما كانت عليه أيام مترنيخ .

كانت تركة بسمارك على النقيض من ذلك تماماً . ومن الرجال قلة غيرت مسار التاريخ . لقد كان متوقعاً أن تقع الوحدة الآلمانية وقبل ارتقاء نابليون سدة المستشارية بفعل نوع الحكومة البرلمانية الدستورية هي ولادة ثورة ١٨٤٨ . وما كادت تنطوي خمس سنوات بعدئذ حتى شق بسمارك غبار طريقه لحل مشكلة

توحيد المانيا التي اربكت ثلاثة أجيال ، لكن أساس سبيله في هذا الانبعاث المسبق للقوة البروسية لا عملية التمسك بنظام حكم دستوري . لم يلق حل بسمارك تأييداً من أي جهة ذات شأن . لقد تهيأت المانيا لتصبح عملاقاً حزم أمره على توجيه القوى التي أطلقها من عقالها سواء الخارجية أم الداخلية الى حيث يشاء بعد أن ضارب بسمارك عداءات الحافظين الذين ظنوا بالمانيا الجديدة جد ديمقراطية عليهم بالليبراليين الذين خالوها جد مستبدة وبمناصري الشرعية الذين وجدوا توجهها مفرط القوة – هلي المهمة التي أبدع فيها بسمارك وكانت خارج نطاق قدرة خلفائه .

قيل في نابليون الثالث أنه وواضع خطط بارع تعذر على الجميع فهمها الا بعد اماطة اللثام عن حيثياتها تدريجياً . وهو ذكي لفلاحه في انهاء عزلة فرنسا الدبلوماسية بسبب نظام فيينا ، ونجاحه في تفكيك عرى الحلف المقدس في حرب الكريميا . ولم يدرك غاياته أحد من قادة أوروبا ما خلا واحد يدعى أتوفون بسمارك ، وهذا ما نستشفه من وصفه الساخر لنابليون في خمسينات القرن التاسع عشر : " لقد تفوق في ذكائه على حساب عاطفته " .

عاش نابليون الثالث كخاله شعوراً بافتقاره لصفة الشرعية . لقد تاق برغم ظنه نفسه ثورياً ليقبل في جوقة ملوك أوروبا الشرعيين . ولو كان للحلف المقدس نفس مبادئه الأصلية ، لسعى الى الاطاحة بالمؤسسات الجمهورية التي حلت محل الملكية الفرنسية عام ١٨٤٨ . واذا كانت الذاكرة الحية لما تزل تعش المذابح الدموية للثورة الفرنسية ، فكذا صحيحة أيضا حقيقة التدخل الأجنبي في فرنسا الذي أطلق العنان للجيوش الثورية الفرنسية في أمم أوروبا عام ١٧٩٢ . وفي عين

الوقت اعترى فرنسا الجمهورية خوف من التدخل الأجنبي جعلها راغبة عن تصدير ثورتها . لقد أقر المحافظون وبفعل هذا المربع الضيق بجمهورية فرنسا التي أسلست قيادها باديء ذي بديء للشاعر ورجل الدولة (الفونس دي لا مارتين) ثم الى نابليون باعتباره رئيساً منتخباً ، وأخيراً آلت الى أيدي نابليون الثالث باعتباره امبراطوراً عام ١٨٥٢ عقب انقلابه في كانون الأول لالغاء المنع الدستوري على اعادة انتخابه .

ما كاد نابليون الثالث يعلن الامبراطورية الثانية حتى أثيرت مسألة الاعتراف تارة ثانية . وانطوت هذه المرة على شرعية الاعتراف بنابليون امبراطوراً على أساس أن تسوية فيينا قد حرمت على أسرة بونابرت تحديداً وراثة العرش الفرنسي . كانت النمسا أول من قبل ما لا يمكن تغييره . اذ نقل السفير النمساوي في باريس (البارون هوبنر) تعليقاً ساخراً صدر عن رئيسه الأمير (شوارزنبرغ) مؤرخاً في ٣١ كانون الأول عام ١٨٥١ أشر نهاية العهد المترنيخي : " ولت أيام المباديء الى غير رجعة " .

تجسد القلق الثاني الذي ساور نابليون في الصيغة التي سيخاطبه بها الملوك الآخرون أسيادونه بلقب التوقير " الأخ " الذي لهجت به السنتهم واحداً تجاه الآخر ، أم بلقب أقل احتراماً ؟ ثم حلت خاتمة المطاف وناداه ملكا النمسا وبروسيا بما أحب سماعه ، فيما لم يحرك القيصر نيقولا الأول في هذا الأمر ساكناً واكتفى له بلقب " صديق " . ومع هذا ، قد كافأ القيصر نابليون بأكثر مما استحق اذا ما أخذنا بالاعتبار نظرته الى الزعماء الثوريين : " يساور المرء شعور

بالاحتقار على يد بلاطات القارة العتيقة . فهـا ذي هـي النملـة الـتي تـأكل قلـب الامبراطور نابليون " . هكذا كتب هوبنر واصفاً شعور نابليون الجريح .

وسواء كان هـذا الاحتقـار حقيقـاً أم خياليـاً ، فقـد كشـف عـن الفجـوة القائمة بين نابليون وملوك أوروبا الآخرين ، وذلك هو أحد الجذور النفسية لهجوم نابليون الضاري على الدوبلوماسية الأوروبية .

ان المفارقة التي تميزت بها حياة نابليون هـي أهليتـه للسياسـة الداخليـة الـتي أضجرته ، أكثر من جدارته بالمغامرات الخارجية التي انغمس فيها مفتقراً الى الجـرأة ونفاذ البصيرة . فهو كلما استرد أنفاسه من أعباء رسالته الثورية الـتي كتبهـا علـى نفسه ، انما كان يضيق اسهامات كـبرى في دفـع عجلـة التنميـة في فرنسـا ، فجـاء بالثورة الصناعية الى فرنسا ، ولعب تشجيعه لمؤسسات الاقراض الكبيرة دوراً رائعاً في تطـــور الاقتصاد الفرنسي . كمـا أعـاد اعمـار بـاريس فـارتدت حلـة حديثـة مدهشة ، بعـد ان كـانت في مطلـع القـرن التاسـع عشـر مجـرد مدينـة ضيقـة ذات شوارع ضيقة ملتوية . لقـد زود نـابليون مستشـاره المقـرب (البـارون هوسمـان) بالصلاحية والميزانية اللازمتـين لانشـاء مدينـة عصريـة ذات جـادات فارهـة تزينهـا المباني العامة الشامخة . واذا كان أحد الأغراض وراء الجادات الفسيحة هـو تهيئـة ميدان واضح للرمي لقبر الثـورات ، فـان ذلـك لم يقلـل مـن أهميـة وروعـة هـذا الانجاز .

بيد أن في السياسة الخارجية مطمع نابليون الذي وجـد نفسـه تتنـازع فيهـا الأهواء المتضاربة . فهو أدرك من ناحية عجزه عن تحقيق مطلبه بنيـل الشـرعية مـا

دامت شرعية الملوكية حق لا يمنح بل يكتسب منذ الولادة . ومن ناحية أخرى ، لم يكن نابليون راغباً حقاً بتدوين اسمه في صحائف التاريخ كرجل تبوأ السلطة عن طريق التحدر الوراثي . فهو مقاتل ايطالي مستقل اعتبر نفسه مدافعاً عن حق تقرير المصير القومي وكان يمقت بعين الوقت اقتحام المخاطر الكبيرة . فكان جل اهتمامه أبطال البنود الاقليمية لتسوية فيينا وتغيير نظام الدولة الذي قامت عليه ، لكنه لم يفهم أن تحقيق هذا الهدف سيصنع المانيا موحدة وذلك ما من شأنه اجهاض الطموحات الفرنسية بالهيمنة على أوروبا الوسطى مرة والى الأبد .

واذن ما كانت طبيعة سياسته الغريبة سوى انعكاس لازدواجية شخصيته . وهكذا اندفع متأثراً بانعدام ثقته بـ " اخوانه " الملوك الى الاعتماد على الرأي العام ، فتذبذبت سياسته طبقاً لتقييمه لما هو بحاجة اليه لتعزيز شعبيته . وعن ذلك كتب البارون هوبنر الى امبراطور النمسا سنة ١٨٥٧ :

[مالسياسة الخارجية في ناظري نابليون غير أداة يستخدمها لضمان حكمه فرنسا واسباغ صفة الشرعية على تسلمه العرش ولارساء أساس لسلالته في توليها الحكم . وهو لا يتورع عن اتباع أية وسيلة لتحقيق ما يريد ، ولا يصدف عن الانخراط في أي ائتلاف ينفعه ليجعله محبوباً في أوساط الشعب في الداخل] .

وفي غضون ذلك أوقع نابليون نفسه في شرك الأزمات التي خططها بنفسه ، ومر هذا عدم احساسه باتجاه التيارات الداخلية كي يواصل مسيره . فكان دأبه أن يثير أزمة – واحدة في ايطاليا ، وثانية في بولندا ، وثالثة في المانيا –

لينسحب منها قبيل انفجار عواقبها النهائية . لقد استلهم طموح خاله لا أعصابه أو عبقريته أو - وهذا هو الأهم - قوته . فقد ساند الحركة القومية الايطالية ما دام نطاقها مقصوراً على شمالي ايطاليا ، وناصر استقلال بولندا ما دام ذلك لن يثير خطر حرب . واذ بلغ الحديث المانيا ، فما عرف الجانب الذي عليه الرهان به وجعل من نفسه موضع سخرية حالما توقع نشوب حرب طويلة الأمد بين النمسا وبروسيا وطلب من بروسيا المنتصرة أن تعويضه عن عجزه عن حدس هوية المنتصر !

كان أكثر ما يلائم أسلوب نابليون هو مؤتمر أوروبي يعيد رسم خريطة أوروبا حيث يبزغ نجمه باقل تنكب للمخاطر . دون أن يملك أنىّ تصور عن كيفية تعديل الحدود . وعلى أية حال ، لم تكن ثمة قوة كبرى راغبة بالتحضير لهكذا محضر ليلائم حاجاته الداخلية . وليس من دولة توافق على اعادة رسم حدودها - سيما ان تعارض ذلك ومصالحها - ما لم تكن هناك ضرورة طاغية لها . ثم تجلى بعدئذ أن المؤتمر الوحيد الذي ترأسه نابليون - وهو مؤتمر باريس الذي وضع حداً لحرب الكريميا - لم يفلح في اعادة ترسيم خريطة أوروبا ، وكل ما انتهى اليه هو المصادقة على ما تم تحقيقه بالحرب . لقد تجردت روسيا من امتلاك بحرية في البحر الأسود وبالتالي تجردت من قدراتها الدفاعية ضد أي هجوم بريطاني مقبل . وأجبرت على اعادة (بسارابيا) واقليم (كارس) في الساحل الشرقي للبحر الأسود الى تركيا . وغير هذا ، تخلى القيصر مضطراً عن ادعائه أنه (حامي المسيحيين) من رعايا الدولة العثمانية الذين كانوا السبب المباشر

للحرب . لقد رمز مؤتمر باريس الى تشتت شمل الحلف المقدس دون أن يبدي أي مشارك فيه تعهداً باعادة النظر بخريطة أوروبا .

فشلت جميع مصير محاولات الأخرى نابليون بعقد مؤتمر آخر لاعادة رسم خريطة أوروبا لسبب رئيسي واحد أفضاه له السفير البريطاني (اللورد كلارندون) : فلح بلد سعى الى احداث تغييرات عظيمة وافتقر الى الرغبة بامتطاء جسام المخاطر :

[انني أرى فكرة المؤتمر الأوروبي تتنامى في عقل الامبراطور ، تلك الفكرة التي تنطوي على مسألة المقاطعات الفرنسية المتاخمة للدول الأجنبية ، مع الغاء المعاهدات المماتة ومسائل أخرى اذا دعت الضرورة اليها . وقد ارتجلت قائمة طويلة نسبيا بالاخطار والمصاعب التي ستكتنف هكذا مؤتمر الذي اذا ما فشل في بلوغ قراراته بالاجماع وهو المتوقع ، ستمتشق أقوى دولة أو دولتان الحسام ابتغاء ما تريده] .

لقد أوجز (بالمرستون) سياسة الدولة التي اتبعها نابليون بقوله : " انتشرت الأفكار في رأسه كأرانب في قفص " . والمعضلة أن هذه الأفكار لم تكن بذات صلة بأية هموم كبيرة . فقد أضحى أمام فرنسا خياران استراتيجيان على أثر فوضى انهيار نظام مترنيخ . كان أمامها أن تواصل سياسة (رشليو) والسعي للابقاء على انقسام أوروبا الوسطى . وهو ما كان يتطلب من نابليون أن يلحق أفكاره الثورية في المانيا ، في أقل تقدير ، لصالح الحكام الشرعيين المتلهفين لاستمرار حالة أوروبا الوسطى المشتتة . أو أن يضع نابليون نفسه على رأس حملة

صليبية أوروبية على غرار خاله ساعياً الى اكتساب أكاليل الفخار من القوميين وربما القيادة السياسية الأوروبية .

هو سوء طالع فرنسا أن اتبع نابليون كلتا الستراتيجيتين بنفس الوقت . فهو اذ كان داعية لتقرير المصير القومي ، نسي الخطر الجيوسياسي الذي سلطه هذا المنصب على فرنسا في وسط أوروبا . لقد دعم الثورة البولندية ثم تقهقر لما التقى عواقبها . وعارض غير مدرك تسوية فيينا باعتبارها اهانة لفرنسا حتى سبق السيف العذل وعلم أن النظام العالمي القائم على تسوية فيينا هو أمثل ضمانة أمنية ممكنة لفرنسا هي الأخرى .

أما الاتحاد الألماني ، فقد وضع ليجسد وحدة ضد أي خطر خارجي لا غير . ولم يلحق لأعضائه الانضمام سوية لأغراض هجومية أو الاتفاق على استراتيجية هجومية - كما يتضح من حقيقة اغلاق هذا الموضوع طيلة النصف قرن من وجود الاتحاد . كما لم تبرهن حدود الراين الفرنسية التي بقيت حصينة ما دامت تسوية فيينا قائمة ، بقاءها آمنة لقرن بعد انهيار الاتحاد ، وهو ما جعلته سياسة نابليون أمراً ممكناً .

علاوة على ذلك ، لم يمسك نابليون مطلقاً بهذا المفتاح الرئيسي لأمن فرنسا . فقد كتب الى امبراطور النمسا في وقت متأخر من اندلاع الحرب النمساوية - البروسية عام ١٨٦٦ - وهو الصراع الذي كتب نهاية الاتحاد :

[يجب أن أعترف أنني شهدت ذوبان الاتحاد الألماني موقناً أنه كان موجه ضد فرنسا بصورة أساسية] .

أجابت (هابسبرغ) : " لم يحصل قط خلال النصف قرن من وجود الاتحاد الألماني المقام لأغراض دفاعية بحتة ، أن أخذ الحيطة منه أياً من جيرانه " .
لم يكن البديل للاتحاد الألماني وسط أوروبا المتفتت الذي وضعه رشليو بل المانيا الموحدة بسكانها الأكثر عدداً من سكان فرنسا ، وقدرة صناعية ستبز نظيرتها الفرنسية عاجلاً . وبهذا كان فعل نابليون بمهاجمته تسوية فيينا تحويل الحاجز الدفاعي الى تهديد هجومي محتمل ضد أمن فرنسا .

كيف لنا أن نختبر رجل الدولة ؟ ينطوي هذا الأمر على حجم ادراكه ومن خلال سير القرارات التكتيكية المصالح الحقيقية طويلة الأمد لبلاده مع رسم استيراتيجية مناسبة لتحقيقها . كان أمام نابليون أن ينعم بالفخار الذي أسبغ على تكتيكاته الذكية في حرب الكريميا وبالخيارات الدبلوماسية الثمينة التي تفتحت أمامه ، وكان أمام مصلحة فرنسا أن تتقرب الى النمسا وبريطانيا العظمى الأرجح دعماً للتسوية الاقليمية لوسط أوروبا .

طفقت سياسة الامبراطور خصيصة سالسة قيادها لمزاجه الرجراج . فهو ما أغمض جفناً ولما تعاون مع النمسا أنى أعلى عليه واجب المصلحة العليا . بل أفضى لا حد دبلوماسي بيدمونت عام ١٨٥٨ : " ما النمسا الا صومعة أحسست وما زلت بقرف متعاظم منها " . وما سيره الى أتون حرب مع النمسا حول ايطاليا سنة ١٨٥٩ الا لولعه بالمشاريع الثورية . وعمل على عزل بريطانيا العظمى عن طريق ضم (السافوا) و (نيس) في أعقاب الحرب اضافة الى مقترحاته المتكررة بعقد مؤتمر أوروبي لاعادة رسم حدود أوروبا . وحتى يكمل هذه العزلة ، قدم خيار تحالف فرنسا مع روسيا قرباناً لها فساند الثورة البولندية

لعام ١٨٦٣ . وهكذا ، وبعد أن أدار محرك الدبلوماسية الأوروبية تحت راية تقرير المصير القومي ، وجد نفسه الآن وحيداً لما تحققت أمة المانية تلفظ الأنفاس الأخيره للقرصنة الفرنسية في أوروبا .

في ايطاليا كانت أولى تحركات الامبراطور بعد حرب الكريميا في عام ١٨٥٩ ، أي بعد مرور ثلاث سنوات على انعقاد مؤتمر باريس . وهنا لم يتوقع أحد أن تعاود نابليون نزوات الشباب ويصبو الى عتق شمالي ايطاليا من قبضة النمسا . وما كان أمام فرنسا ما تجنيه من هذه المغامرة ما يستحق عناءه . فهي ان نجحت لأنشأت دولة في أقوى وضع يكفي لاغلاق مسار التوسع الفرنسي التقليدي ، وان فشلت لتفاقم الاذلال بغموض الغاية . وسواء كان النجاح حليفها أم الفشل ، كانت جيوش فرنسا في ايطاليا ستقض مضاجع أوروبا .

من هنا ، ولهذه الأسباب مجتمعه ، بات السفير البريطاني (اللورد هنري كولي) على قناعة تامة أن حرب فرنسا في ايطاليا كانت بعيدة عن كل الاحتمالات . فقال : " ليس في المصلحة الفرنسية أن تقاتل في حرب فالتحالف مع انكلترا وأن اهتز مؤقتاً - ولا يزال معلقاً - يبقى أساساً لسياسة نابليون الثالث " . وانطوت قرابة ثلاثة عقود ليعرض هونبر الانعكاسات الآتية :

[كان جد عسير علينا أن استيعاب أن هذا الرجل الذي بلغ ذروة الشرف يمكن أن ينغمس في مغامرة أخرى ما لم يكن ممسوسا أو مبتلى بجنون المقامرين فيقدم على مقامرة أخرى دونما يملك دافعاً مفهوماً] .

ومع ذلك أذهل نابليون جميع الدبلوماسيين باستثناء المنتقم الرئيسي بسمارك الذي تكهن باستعار حرب بين فرنسا والنمسا بل وتطلع اليها حقاً كوسيلة لاضعاف موقف النمسا في المانيا .

توصل نابليون في تموز ١٨٥٨ الى ترتيب وضع سري مع (كاميلو بنسو دي كافور) رئيس وزراء بيدمونت (سردينيا) وهي أقوى الولايات الايطالية انطوى على تعاون مشترك في حرب ضد النمسا . انها مناورة ماكيافيلية بحتة يوحد بها كافور شمالي ايطاليا ويتلقى نابليون مكافأته من بيدمونت وهي نيس والسافوا .ثم تهيأت حجة طيبة بحلول آيار عام ١٥٨٩ . اذ سمحت النمسا ذات الأعصاب الثائرة دوماً لنفسها أن تستجيب لاستفزاز بيدمونت فأعلنت الحرب عليها . وعند هذا أوضح نابليون للجميع أن ذلك أفضى الى اعلان حرب ضد فرنسا ، فلفع بجيوشه صوب ايطاليا .

ان وجه الغرابة أن وضع الفرنسيون في عهد نابليون يوم تحدثوا عن تضامن دول الأمم باعتباره الاتجاه المستقبلي جل اهتمامهم على ايطاليا وليس على المانيا الأكثر قوة بكثير . فالفرنسيون ميالون عاطفياً وحضارياً الى ايطاليا وهو ما يفتقدونه مع جارتهم الشرقية المشؤومة ، وفوق هذا ، لم يكن الازدهار الاقتصادي الجبار الذي أوصل المانيا الى قمة القوى الأوروبية الكبرى الا في نقطة البداية ، وبذا لم يكن واضحاً بعد أن ايطاليا ستغدو أقل قوة من المانيا . فيما عزز الحذر البروسي في حرب الكريميا هاجس نابليون أن مرده أنها أضعف القوى الكبرى وأعجز عن التصرف بمنأى عن الاسناد الروسي . واذن ظن نابليون أن حرباً

ايطاليه تضعف النمسا ستقوض قوة أخطر خصوم فرنسا (المانيا) وتعزز مكانة الوجود الفرنسي في ايطاليا - انه لحكم خاطيء فاضح من كلا الجانبين .

لقد أبقى نابليون على احتمالين متناقضين . في أفضلهما سيلعب نابليون دور رجل الدولة الأوروبي : سينزع شمالي ايطاليا عن نفسه الأصفاد النمساوية ، وستتنادى قوى أوروبا لتنضوي في مؤتمر تحت لواء نابليون وتتفق على اجراء تعديلات اقليمية واسعة النطاق فشل في بلوغها في مؤتمر باريس . وفي أسوأهما ستنتهي الحرب في مأزق وسيلجأ نابليون الى العتبة الماكيافيلية (سبب يتصل بمصلحة الدولة) حاصلاً على بعض الامتيازات من النمسا على حساب بيدمونت مقابل انهاء الحرب .

بيد أن نابليون لهث وراء الهدفين في عين الوقت . فأنتصرت الجيوش الفرنسية في (ماجنتا) و (سولفرينو) فأطلقت لذلك العنان للعواطف المناوئة لفرنسا في المانيا حتى بدا لوهلة معينة أن الولايات الألمانية الصغيرة يحدوها خوفها من مذابح نابليونية جديدة سترغم بروسيا على التدخل لصالح النمسا . ثم آل به الأمر وقد تزعزع بصدمة الموجة الأولى من انبعاث القومية الألمانية ، وجفل بعد زيارة ميدان القتال في سولفرينو الى توقيع هدنة مع النمسا في (فيلافرانكا) في ١١ تموز ١٨٥٩ دونما ابلاغ حلفائه في بيدمونت .

لم يفشل نابليون في تحقيق أي من هدفيه فحسب ، بل وأضعف موقف بلاده في الساحة الدولية لحد بعيد . فمذ حينها بات على القوميين الايطاليين حمل المباديء التي اعتنقها الى حدود لم يدرك مداها . كما أزعج بيدمونت التي ما

كانت لتنزع عنها رسالتها القومية هدف نابليون اقامة تابع لـه متوسط الحجم في ايطاليا مقسـمة الى خمس ولايـات . فيما بقيت النمسا على موقفها المتصلب بالاحتفاظ بالبندقية تماماً كما تشـدد نـابليون في اعادتهـا الى ايطاليـا خالقـاً بذلـك نزاعاً مستعصياً لا ينطوي على أية مصلحة فرنسية معروفة . من جانبها ، ترجمـت بريطانيـا ضـم (السـافوا) و (نيـس) بأنـه بدايـة حقبـة أخـرى مـن الفتوحـات النابليونية وبذا رفضت جميع المبادرات الفرنسية الداعية الى تحقيـق هـاجس نـابليون بعقد مؤتمر أوروبي . وفي خضم ذلك ، تطلـع القوميـون الألمـان الى الاضطرابـات الأوروبية فوجدوها نافذة للاندفاع من خلالها نحو تحقيق آمال الوحدة القومية .

عجـل تصرف نابليون أثنـاء الثـورة البولنديـة عـام ١٨٦٣ خطـأه صـوب العزلة . اذ حاول منعشاً التقليد البونابرتي القائم على الصداقـة مـع بولنـدا اقنـاع روسيا تقديم بعض التنازلات للمتمردين ، بيد أن القيصر مـا كـان ليناقش كهـذه المقترحات في أقل تقدير . فسعى بعدئذ الى العمل المشترك مع بريطانيـا العظمـى ، فخاب ظنه تارة أخرى لما خامر القلق بالمرستون من الامبراطور الفرنسي المتقلب . فاستدار نابليون أخيراً الى النمسا عارضاً عليها تخليها عن أقاليمها البولندية الى دولة بولندية لم تؤسس بعد وعن البندقية لصالح ايطاليا ، بينمـا يتباحثـان في التعويضـات في (سليزيا) والبلقان . لم ترق الفكرة للنمسا الـتي أريـد منهـا المخـاطرة بخـوض غمار حرب مع بروسيا وروسيا من أجل رؤية تابع لفرنسا يظهر على حدودها .

ان الاستهتار لترف مكلف ينغمس فيه رجل الدولة ، ويدفع ثمنـه في خاتمـة المطاف . فلن يعش أبد الدهـر اجـراء هـو وليـد لحظتـه ولا يمـت بصلـة لمعطيـات ستراتيجية شـاملة . لقـد فقـدت فرنسـا في ظـل حكـم نـابليون سيطرتها علـى

الترتيبات الداخلية في المانيا التي ظلت الدعامة الأساسية لسياسة فرنسا منذ أيام رشليو الذي أدرك أن أضعاف وسط أوروبا هو مفتاح آمن فرنسا بينما كهفت سياسة نابليون المتأثرة بهاجس التأليه لديه بحدود أطراف أوروبا ، وهو الموقع الوحيد الذي يمكن فيه الحصول على مكتسبات بأقل مخاطر ممكنة ، وبذلك وجدت فرنسا نفسها وحيدة في الميدان على أثر انتقال مركز ثقل السياسة الأوروبية الى المانيا .

ووقع عام ١٨٦٤ حادث مشؤوم . اذ أقلقت للمرة الأولى منذ مؤتمر فيينا النمسا وبروسيا مضاجع وسط أوروبا شارعتين بحرب من أجل قضية المانية ضد قوة غير المانية . جسدت هذه القضية مستقبل دوقيات الألب شلزوغ وهولشتاين المرتبطتين سلالياً بالتاج الدنماركي لكنهما أعضاء في الاتحاد الألماني . ثم حل موت الحاكم الدنماركي فصنع مشاكل عويصة سياسياً وسلالياً ، وقومياً قال فيها بالمرستون ساخراً أنها مشاكل لا يفهمها غير ثلاثة أشخاص : الأول قد قضى نحبه ، وأما الثاني فهو نزيل مستشفى المجاذيب ، وثالثهم ويقصد نفسه فقد نساها .

لم يكن لب النزاع بذات أهمية ائتلاف الولايتين الألمانيتين الرئيسيتين اللتين أشعلتا حرباً على الدنمارك الصغيرة لاجبارها على التخلي عن اقليمين المانيين قديمين مرتبطتين بالتاج الدنماركي . لقد أثبتت الحرب قدرة المانيا على الفعل الهجومي وان الاتحاد الالماني اذا ما أمسى في آليته مقرفاً ثقيل الظل فان الأمر يسيراً أن تتجاهله القوتين الألمانيتين العظميين .

يتحتم على القوى العظمى ، وفقاً لأعراف تسوية فيينا ، لاجتماع في مؤتمر من أجل لاستعادة بعض الوضع السابق . ومع ذلك ضربت الفوضى أطنابها في أوروبا لسبب رئيسي هو أفاعيل امبراطور فرنسا . ولم تكن روسيا مستعدة لمعاداة البلدين اللذين وقفا جانباً وهي منهمكة في قمع الثورة البولندية . فيما أربك الهجوم على الدنمارك وبريطانيا العظمى التي لو أزمعت التدخل لاحتاجت الى حليف قااري لم يجسده حتى فرنسا شريكها الوحيد المحتمل .

كان على نابليون أن يستقي تحذيراً من سفر التاريخ ومن الأيديولوجيا ، ومن سياسة (مصالح الدولة) أن الأحداث ستخلق لذاتها زخماً سراعاً . ومع ذلك تراه تأرجح بين تبني مباديء السياسة الفرنسية الخارجية التقليدية التي صيغت للابقاء على انقسام المانيا ، وبين الأخذ بالمباديء القومية التي سلبت لبه أيام صباه : وفي هذا كتب وزير الخارجية الفرنسي آنذاك (دراين دولويس) :

[ليس أمامنا ونحن نقف بين حقوق البلاد التي تعاطفنا معها طويلاً ، وبين تطلعات الشعب الألماني التي علينا الأخذ بها بنفس المستوى من الأهمية سوى الاحتراس في فعلنا أكثر من احتراس انكلترا لذات الأمر] .

تنطوي مسؤولية رجل الدولة على حل المعضلة لا تأملها فمن يعجز من . القادرة عن الاختيار بين الذي أمامه من خيارات ، غدا الحذر حجته لعدم الفعل . هنا اقنع نابليون نفسه بحكمة عدم الفعل فأتاح المجال لبروسيا والنمسا برسم مستقبل دوقيات الألب ، ففصلتا (شلزوغ - هولشتاين) عن الدنمارك

واحتلتاهما سوية فيما تفرجت باقي أوووربا - وهو حل ما كان لأمرء تصوره في أيام نظام مترنيخ . وبذا اقترب كابوس الوحدة الألماني الذي ظل نابليون يراوغ ليتفاداه طيلة عقد من الزمان .

لم يكن بسمارك على وشك اقتسام زعامة المانيا . بل هو عمل على تحويل الحرب من أجل شلزوغ - هولشتاين الى سلسلة أخرى من غنائم النمسا التي يبدو أنها لا تنتهي ، وهو ما أشر طوال عقد التآكل الذي أصاب موقفها كقوة عظمى ، السبب وراء ارتكاب هذه الأخطاء جميعها واحد - أنه تهدئة النمسا للخصم الذي أعلن نفسه كذلك بعرضها التعاون معه . ولم تأت استراتيجية التهدئة بشيء حسن مع بروسيا كالذي قطفته قبل عقد مضى أثناء حرب الكريميا ضد فرنسا . لقد هيأ الانتصار المشترك على الدنمارك ، ناهيك عن فرصة تخلص النمسا من الضغوط البروسية فرصة جديدة مشؤومة للمضايقة . اذ بقيت النمسا وحدها تدير دوقيات الألب مع بروسيا الحليفة التي يحكمها رئيس الوزراء (بسمارك) الذي صمم على استغلال الفرصة لحسم قضية طال أمدها في اقليم يبعد مئات الأميال عن الأرض النمساوية وتحاذي الممتلكات البروسية .

وهكذا احتد تناقض نابليون مع تصاعد التوتر هناك . فقد ازدرى توحيد المانيا غير أنه تعاطف مع الروح القومية الالمانية وارتعش في حل تلك المعضله المستعصية . اذ اعتبر بروسيا أنقى ولاية قومية المانية فكتب فيها عام ١٨٦٠ :

[ان بروسيا هي شخص القومية الألمانية والاصلاح الديني والازدهار التجاري ، وكذلك الدستورية الليبرالية . وهي أكبر الممالك الألمانية الحقيقية ،

كما تتمتع بحرية وعي أكبر ، وتنوير أسطع ، وتمنح حقوقاً سياسية أكثر مما تمنحه معظم الولايات الالمانية] .

أدرك بسمارك أن يتعهد بكل ذلك . تأكيد نابليون على موقع بروسيا الفريد ، وان شاطره في كل الذي جاء فيه ، هو مفتاح نصر بروسيا النهائي . وأخيراً استحال اعجاب نابليون ببروسيا الى ذريعة أخرى لفعل لا شيء . ان تعليل التلدد مناورة بالغة الذكاء ، شجع فيها نابليون النمسا وبروسيا على خوض حرب لقناعته جزئياً أن بروسيا لخاسرة اياها ، وهو ما يتضح من خلال قوله في كانون الأول ١٨٦٥ لـ (الكسندر والسكي) وزير الخارجية السابق : " تشكل الحرب بين النمسا وبروسيا يا صديقي أحد الفرص الثمينة غير المتوقعة التي من شأنها أن تأتي بأكثر من فائدة " . وغرابة الأمر هنا أن نابليون وفي خضم تشجيعه لخوض حرب لم يسأل نفسه قط لماذا صمم بسمارك بقوة على خوض الحرب اذا كان متوقعاً لبروسيا خسارتها .

قبل أربعة اشهر من اندلاع الحرب النمساوية – البروسية تحول نابليون من السر الى العلن ، وهذا ما يدل عليه قوله في غضون مساعيه لاشعال فتيل تلك الحرب ، للسفير البروسي لدى باريس (الكونت فون دير غولتز) في شباط ١٨٦٦ :

[أطالبك اخبار الملك (ملك بروسيا) ان له أنىّ شاء التعويل على صداقتي . فان نشب نزاع بروسيا والنمسا فاني على الحياد لباق بأجلى مظاهره . ويسرني أن أبدي رغبتي باعادة توحيد دوقتي (شلزوغ –

هولشتاين) مع بروسيا لو اتخذ الصراع ابعاداً لا يستطيع المرء التكهن بها . وانني لشديد الاقتناع بقدرتي دوماً على التوصل الى تفاهم مع بروسيا التي تتطابق مصالحها بعدد كبير من المسائل مع مصالح فرنسا ، بينما لا أرى قاعدة يمكنني الوقوف عليها للاتفاق مع النمسا] .

فأي شيء أراده نابليون حقاً ؟ أكان على يقين بوقوع مأزل في الميدان بحيث يعز ز موقفه التساومي ؟ انه ابتغى بعض التنازلات البروسية لقاء التزامه الحياد . هي لعبة أدركها بسمارك ، فان بقي نابليون على الحياد لعرض موقف الحسن لفرنسا لتحتل بلجيكا وهو سينطوي على فائدة اضافية هي توريط فرنسا مع بريطانيا العظمى . ولعل نابليون لم يحمل هذا العرض محمل الجد ما دام قد توقع انكسار بروسيا ، فاتجهت خططه الى الابقاء على بروسيا منغمسة في الحرب بدلا من المساومة على الامتيازات . وبعد سنوات مرت اعترف (الكونت ارماند) مساعد وزير الخارجية الفرنسي :

[القلق الوحيد الذي انتاب وزارة الخارجية هو امحاق قوة بروسيا واذلالها الى حد رهيب ، فعزمنا على الحيلولة دون ذلك من خلال التدخل حسن التوقيت . لقد تطلع الامبراطور أولاً الى دحر بروسيا ليتسنى له بعدئذ التدخل وبناء المانيا حسب ما تمليه عليه أهواؤه] .

ان ما جال في رأس نابليون هو تجديد سياسات رشليو . اذ كان من المتوقع أن تعرض بروسيا على فرنسا تعويضات في الغرب لانقاذها من هزيمتها وستنال ايطاليا االبندقية ، وسيؤدي الترتيب الألماني الجديد الى ولادة اتحاد الماني

شمالي تحت الاشراف البروسي ، مع حصول تكتل الماني جنوبي تدعمه فرنسا والنمسا . والخطأ الوحيد لهذه الخطة هو أنه بينما عرف الكاردينال كيفية الحكم على الصلة بين القوى والرغبة تحدوه لامتشاق الحسام من أجل ما يريد ، لم يكن نابليون مستعداً لمباشرة أي من الاجرائين .

لجأ نابليون الى المماطلة آملاً حصول تغير في مسير الأحداث قد يتيح له تحقيق أقصى مراده دون تنكب مخاطر ، أما الوسيلة التي اتبعها فهي الخدعة التقليدية بالدعوة الى عقد مؤتمر أوروبي لتجنب خطر الحرب . غير أن رد الفعل هذه المرة كان موازياً لحيلته حيث رفضت القوى الأخرى حضور المؤتمر بسبب ارتيابها وخوفها من مخططات نابليون . فبات نابليون أمام قياس أقرن اينما أدار وجهه : وما عساه أن يحافظ على الحالة الراهنة الا بالعدول عن مناصرته لمبدأ القومية ، أو ان ينزع الى تشجيع الحركة التعديلية من حوادث التاريخ . فأراد نابليون ملاذاً في ثنايا تلميحه لروسيا بـ " تعويضات " دونما تحديدها ، الأمر الذي أقنع بسمارك أن حياد فرنسا مجرد شيء تبغي من ورائه مكافأة ، ولا مبدأ للدولة . فأفضى غولتز لبسمارك :

[العائق الوحيد الذي أمام الامبراطور في بلوغ موقف موحد بين بروسيا وفرنسا وايطاليا في مؤتمر عام هو ضآلة التعويض الذي سيعرض على فرنسا . فثمة امرء يعرف ما نريد نحن ، وآخر يعرف ما تبغيه ايطاليا ، الا الامبراطور الذي لا يستطيع القول بما تريد فرنسا ، ولسنا بقادرين الاقتراح عليه أي شيء بهذا الخصوص] .

ربطت بريطانيا العظمى حضورها المؤتمر بموافقة فرنسية مسبقة على الابقاء على ((الوضع الراهن)) . فبدلاً من اقتناص فرصة تبيد الترتيبات الألمانية التي تدين كثيراً للزعامة الفرنسية والتي يدين اليها كثيراً أمن فرنسا ، تراجع نابليون وقال مصراً " علينا للحفاظ على السلام أن نأخذ بالاعتبار العواطف والضرورات القومية " . وقصارى القول أن نابليون كان تائقا لاشعال حرب بين النمسا وبروسيا ووجود المانيا موحدة كي ينهش الاسلاب من ايطاليا وهو ما لن يأتي بمصلحة قومية حقيقية لفرنسا ، وكذلك للحصول على مكتسبات في أوروبا الغربية كا ينفر من تحديدها . أما وقد بلغ الحديث بسمارك فقد كان معارضاً لسيد أصر على قوة الوقائع واستغل لبلوغ غاياته المناورات ((التجميلية)) التي تفوق بها نابليون .

أدركت حفنة من القادة الفرنسيين المخاطر التي تنكبها نابليون ، وعلموا أن ما يسمى بالتعويضات التي رنا اليها لا تأتي بأية مصلحة أساسية لفرنسا . فصدق تكهن (أدولف ثيرس) وهو معارض جمهوري قاس لنابليون وأعتلى فيما بعد منصب الرئاسة لفرنسا في خطبة رائعة له في ٣ مارس ١٨٦٦ ارتقاء بروسيا القوة المهيمنة في المانيا :

[سيشهد المرء عودة امبراطورية تشارلس الخامس سيرتها الأولى ، الامبراطورية التي كانت فيينا مقرها ، وستستوطن الآن برلين ، فستكون قريبة من حدودنا وستسلط عليها ضغطاً ... لكم مقاومة هذه السياسة باسم مصلحة فرنسا التي تعلم أهمية الا تهددها ثورة كهذه .... وهي اذ ناضلت طوال

قرنين ليتحطـــم هذا العملاق ، أتقف الآن ساكنة ترقبه يعيد تثبيت نفســه أمـام أنظارها ؟] .

جادل ثيرس أن على فرنسا بدلاً من الخضوع لعبث نابليون اللامجـدي ، أن تتبنى سياسة واضحة لمعارضة بروسيا وأن تخلق حجة الدفاع عن استقلال الولايات الألمانية - وهي طريقة رشليو القديمة . وزعم أن لفرنسا الحق بمقاومة توحيد المانيا " أولا باسم استقلال الولايات الألمانية ، وثانيا باسم اسـتقلالها هـي وأخـيراً باسـم التوازن الأوروبي الذي هو الشغل الشاغل للجميـع ومـن مصلحـة المجتمـع الـدولي .... واليوم نرى من يحاول السخرية من مصطلح " التوازن الأوروبي ...لكـن مـا هو التوازن الأوروبي ؟ أنه استقلال أوروبا " .

لقد أضحى الأمر عسيراً تفادي حرب بين بروسيا والنمسا كان لها أن تغـير التوازن الأوروبي . لقد كان ثيرس مصيباً في أقوالـه مـن الناحيـة التحليليـة ، لكـن سياسة كهذه كان لزاماً بناءها قبل عقد من الزمـان . بـل كـان بسـمارك سـيقف الآن قاصراً لو أصدرت فرنسا تحذيراً صارماً أنها لن تسمح بهزيمة النمسا أو انهيـار الامارات التقليدية مثل مملكة هانوفر . بيد أن نابليون لم يشأ السير في هـذا المجـرى لظنه فوز النمسا ، ولأنه وضع ابطال تسوية فيينا وتنفيذ التقليد البونابرتي فـوق أي تحليل لمصالح فرنسا القومية التاريخية . فقال يجيب ثيرس بعـد ثلاثـة أيـام : " لكـم أمقت معاهدات ١٨١٥ التي ينوي الشعب اليوم جعلها أساساً لسياستنا " .

ما كاد ينسلخ شهر واحد على خطبة ثيرس حتى دخلت بروسـيا والنمسـا حومة الحرب . وهنا وخلافاً لكل توقعات نابليون أحرزت بروسـيا نصرهـا المبـين

الخاطف وكان على نابليون استناداً لقواعد الدبلوماسية الرشليوية أن يمد يد العون للطرف الخاسر ويحول دون انتصار بروسيا الساحق . لكنه تلدد وتردد وان أرسل فيلق " المراقبة " صوب الراين . عندها استرضى بسمارك نابليون لما جعله وسيطاً في عقد السلام ، برغم أن هذه الايماءة التافهة تخفي انعدام علاقة فرنسا بالشؤون الألمانية ، وبعدها اضطرت النمسا طبقاً لمعاهدة براغ (آب ١٨٦٦) الى الانسحاب من المانيا . كما الحقت ولايتا (هيس - كاسل) اللتان وقفتا الى جانب النمسا أثناء الحرب ، ببروسيا اضافة الى (هولشتاين - شلزوغ) ومدينة فرانكفورت الحرة ، وبذا أوضح بسمارك وقد خلع حكام تلك الولايات أن بروسيا التي كانت يوماً محور الحلف المقدس ، قد عدلت عن (الشرعية) كمبدأ في النظام الدولي الذي تسير على ضوئه .

كما انضمت الولايات الألمانية الشمالية الى مخلوق بسمارك الجديد ، وخضع الاتحاد الألماني الشمالي الى القيادة البروسية في كل شيء من التشريعات التجارية حتى السياسة الخارجية . بينما نالت الولايات الجنوبية وهي (بافاريا) و (بادن) و (فوتنبرغ) استقلالها المشروط بمعاهدات مع بروسيا تنص على هيمنة القيادة العسكرية البروسية على جيوش تلك الولايات في حالة نشوب حرب مع طرف خارجي . فغدا الذي أمام توحيد المانيا مجرد أزمة واحدة .

واذن قاد نابليون الى عنق زجاجة استحال الخروج منه . ثم سعى وقد سبق السيف العذل لعقد حلف مع النمسا التي فصلها عن ايطاليا باجراء عسكري وعن المانيا بالتزامه الحياد والتي لم يعد لها مصلحة تجنيها من عودتها لكلتا الحالتين ، فآثرت التوجه صوب اعادة اعمار الامبراطورية كمملكة ثنائية في فيينا

وبودابست ، والاهتمام بعد ذلك بممتلكاتها في البلقان . كما ابعدت المخططات الفرنسية في لوكسمبورغ وبلجيكا وبريطاانيا العظمى عن الميدان فيما لم تغفر روسيا لنابليون قط أفعاله في بولندا .

ما كان على فرنسا الآن الا أن تتجه بنفسها لمعاينة انهيار شموخها التاريخي السالف . فسعى نابليون كلما انحدر موقف أمته أكثر الى رده سيرته الأولى من خطوة أجرأ ، كحال المقامر الذي يضاعف مبلغ المراهنة كلما أثقلته خسارة . وعليه شجع بسمارك نابليون على التزام الحياد في الحرب النمساوية - البروسية أن لوح له بآفاق الكسب الاقليمي - في بلجيكا أولا ، وفي لوكسمبورغ ثانياً . غير أن هذه الآفاق تلاشت كلما تطلع اليها نابليون لسبب بسيط أنه أراد أن يتسلم " التعويض " بيده فيما لم ير بسمارك سبباً لتجشم المخاطر بعد أن جنى ثمار تردد نابليون .

هنا وقد تلمس نابليون مهانة براهين قصوره سيما بعد رجحان كفة التوازن الأوروبي ضد فرنسا وحاول التعويض عن حساباته الخاطئة لما تكهن بانتصار النمسا في الحرب النمساوية - الروسية باثارته قضية وراثة العرش الأسباني الذي أصبح شاغراً . فطلب ضماناً من ملك بروسيا أن لا يسعى أمير من الهوفنزلرن (السلالة البروسية) الى الحصول على العرش . انها لأيماءة فارغة أخرى يمكن أن تحقق في أحسن حالاتها نجاحاً في الهيبة دونما أية صلة بعلاقات القوى في أوروبا الوسطى .

لم يبزغ شخص فاق بسمارك يسراً بالمناورات الدبلوماسية ٠ ففـي احـدى أكثر خطواته براعة أفلح في استدراج نابليون واغرائه باعلان الحـرب علـى بروسـيا سنة ١٨٧٠ ٠ فهو من الأعمال الاستفزازية حقاً أن يطالب الفرنسيون بانكار حق أي من أعضاء الأسرة الملكية البروسية بوراثة العـرش الأسباني ٠ بيـد أن وليـام - الملك العجوز الوقور لم يفقد أعصابه ورفـض بكـل تـؤدة طلـب السـفير الفرنسـي بالوفاء بالتعهد ٠ وأرسل تفاصيل الحادث الى بسمارك الذي حور البرقيـة -حاذفـاً منها جميع العبارات الموحية بالتؤدة وضبط النفس اللتين عـامل بهمـا الملـك السـفير الفرنسي ، ليس هذا فحسب ، بل لجأ بسمارك الذي سبق الأحداث ، الى أسلوب اعتبره رجال الدولة اللاحقون عملاً فنياً رائعاً : اذ قام بترسيب تفاصيل برقية الملك الى الصحافة ٠ فبدت النسخة المحورة لبرقية الملك غاصـة بعبـارات تنـم عـن ازدراء الملك لفرنسا ٠ فطالب االرأي العام الفرنسي ، وقد غلبه غضبـه ، بحـرب ووهبهـا اياهم نابليون ٠

ودارت رحى الوغى حتى دانت قطوف النصر طـوع بنـان بروسـيا بفضـل عون جميع الولايات الألمانية الباقية ٠ فسلك الطريق الآن لاتمام توحيد المانيا جـاهراً بشيء من عجرفـة القيـادة البروسـية في ١٨ كـانون الثـاني ١٨٧١ في قاعـة المرايـا بفرساي ٠

وهكذا أشعل نابليون الثـورة الـتي أرادهـا وسـعى لهـا وان كـانت نتائجهـا معاكسة تماماً لما تمناها ٠ فهـا هـي خريطـة أوروبـا قـد أعيـد رسمهـا فعـلاً غـير أن الترتيب الجديد قد نال من نفـوذ فرنسـا دون رجعـة دونمـا حصـول نـابليون علـى الشهرة التي طالما تحرقت نفسه شوقاً اليها ٠

لقد شجع نابليون على الثورة غير واع لنتائجها المتوقعة وذريع هو فشله في هذا الاختبار لعجزه عن تقييم العلاقة بين القوى وادراجها ضمن مخططه لبلوغ أهدافه . لقد انهارت سياسته الخارجية ليس لافتقاره للأفكار بل لعدم قدرته على رسم نظام لسلم مطامحه ، أو صنع علاقة بينها وبين الواقع المحيط بها ، ولما كان مغرما بالشهرة الشعبية والمظاهر الخلابة فقد افتقر الى الخط الواحد ليسير عليه في سياسته . وقاده بدلا من ذلك في مسيره جملة من الأهداف كان بعضها متناقضاً للبعض الآخر . فما أن جابه الأزمة الحاسمة حتى تصادمت الدوافع المختلفة فيما بينها .

كما رأى نابليون في نظام مترنيخ مذلة لفرنسا وعائقاً أمام طموحاته فهو قد نجح في تمزيق عرى الحلف المقدس لما دق أسفينا بين النمسا وروسيا في حرب الكريميا ، لكنه تخبط بما هو فاعل بانتصاره . لقد تجلت بعض مظاهر الفوضى في ساحة النظام الأوروبي بين عامي ١٨٥٧-١٨٧١ حين أعيد ترتيب مفاصله وبرزت المانيا عند انتهاء هذه الفترة كأعظم قوة في القارة . وأضحت الشرعية شعاراً فارغاً ، تلك الشرعية التي تمثل مبدأ وحدة الحكام المحافظين التي خففت حدة نظام توازن القوى في سني نظام مترنيخ . وأمسى نابليون ودأبه الافراط في تقييم قوة بلده محرضاً على أية اضطرابات وشقاقات ايمانا منه بقدرته على تحويلها الى انتصارات لصالح فرنسا .

وآخر المطاف ، سلمت السياسة الدولية أمورها لحكم القوة المجردة . وفي عالم كهذا ، فغرت فجوة فاها كانت متأصلة بين صورة فرنسا عن نفسها انها الأمة المهيمنة في أوروبا وبين قدرتها على الارتقاء لمهمة كهذه - ولكنها الفجوة

التي أصابت السياسة الفرنسية حتى يومنا هذا ! أما الذي جسدها أيام نابليون فهو عجز الامبراطور عن تنفيذ مقترحاته اللامنتهية بعقد مؤتمر أوروبي لتعديل خريطة أوروبا . فقد دعا الى مؤتمر بعد حرب الكريميا سنة ١٨٥٦ قبل اندلاع الحرب الايطالية سنة ١٨٥٩ وأثناء الثورة البولندية عام ١٨٦٣ في غضون الحرب الدنماركية عام ١٨٦٤ ، وكذلك ابان الحرب النمساوية - البروسية سنة ١٨٦٦ - ساعياً دوماً الى الحصول - من طاولة المؤتمرات - على تعديل للحدود . وما مشكلته آنذاك سوى أنه أضعف من الاصرار على مبتغاه ، وان مخططاته كانت مبالغاً فيها لم تستأثر بموافقة الجميع .

كان شغف فرنسا للتنسيق مع بلدان أخرى تقبل بزعامة فرنسا عليها سمة دائمية للسياسة الخارجية الفرنسية منذ حرب الكريميا . فسعت وغايتها القيادة الى عقد أحلاف مع دول صغيرة مع سردينيا ورومانيا وولايات المانيا الوسطى في القرن التاسع عشر ، وكذلك مع تشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا ورومانيا في فترة ما بين الحربين بعد أن عجزت عن الهيمنة على ائتلاف لها مع بريطانيا العظمى أو المانيا أو روسيا أو الولايات المتحدة ولظنها أن وضعاً صغيراً لا يتناسب ومعاييرها في الكبرياء القومي ودورها التبشيري في العالم .

نفس السمات أعلاه في السياسة الخارجية الفرنسية في عهد ما بعد ديغول . فبعد مرور قرن على انطفاء لهيب الحرب الفرنسية - البروسية ، ظل المارد الألماني كابوس فرنسا ، فلجأت الى الخيار الأشجع بعقد صداقة مع جارتها المرموقة والمرهوبة في آن واحد . ومع ذلك ، يشير المنطق الجيوسياسي الى ضرورة عقد فرنسا علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة ، اذا ما أرادت فقط زيادة خياراتها

وتوسيع مساحة نشاطها . غير أن الكبرياء الفرنسي بفرنسا صد ذلك وأفضى الى البحث (وبصورة خرقاء أحياناً) عن أي تكتل - مهما كان نوعه دائماً تقريباً - بهدف موازنة الولايات المتحدة مع اتحاد أوروبي ما ، وان كانت عاقبته بروز الماني أبدي . فتقمصت فرنسا في الحقبة الأخيرة أحياناً دور " المعارض البرلماني " للزعامة الأمريكية ساعية الى بناء أركان أسرة أوروبية بغية تحويلها الى زعيم بديل للعالم اضافة الى تعزيز العلاقات مع البلدان التي بمقدور فرنسا السيطرة عليها أو اعتقدت أن بوسعها ذلك .

علاوة على ذلك ، افتقدت فرنسا منذ انقضاء عهد نابليون الثالث للقوة اللازمة لفرض الأحلام العالمية التي غرستها في الأذهان منذ الثورة الفرنسية ، و لم تجد الساحة التي تمثل لها منفذا مناسباً لتصدير رسالتها الساخنة . بل هي وجدت طوال ما يربو على قرن الأمر صعباً عليها قبول حقيقة أن الظروف الموضوعية التي أتى بها بروز رشليو قد اختفت حالما تحقق التعاضد القومي في أوروبا . ويعزى حل أسلوب فرنسا المشوك في الدبلوماسية الى محاولات قادتها تخليد دورها كمركز للسياسة الأوروبية في بيئة غير مناسبة لهذه الطموحات على نحو متزايد . وموطن السخرية أن البلد الذي أخرج مصطلح " سبب يتصل بمصلحة الدولة " توجب عليه اشغال نفسه لما تبقى من القرن للمواءمة بين طموحاته وبين قدراته .

أكمل بسمارك هدم نظام فيينا الذي قوض أركانه نابليون . لقد بزغ نجم بسمارك السياسي باعتباره المعارض الرئيسي للثورة الليبرالية عام ١٨٤٨ . وهو أول قائد أدخل حق التصويت العالمي للذكور في أوروبا ، جنباً الى جنب مع نظام للرعاية الاجتماعية هو الأشمل في العالم على مدى الستين سنة المقبلة . وفي عام

١٨٤٨ ، عارض بسمارك بشدة عرض البرلمان المنتخب تقديم التاج الامبراطوري الألماني الى ملك بروسيا . وما كاد يمر عقدان حتى سلم بسمارك نفسه ذلك التاج الامبراطوري الى ملك بروسي في ختام عملية توحيد الأمة الألمانية على أساس التعارض مع المباديء الليبرالية ، وكذلك قدرة بروسيا على فرض ارادتها بالقوة . فالجأ هذا الانجاز المذهل النظام الدولي الى الارتداد الى الصراعات غير المكبوحة للقرن الثامن عشر ، التي بلغت أعلى مراحل خطورتها بسبب التكنولوجيا والقدرة على تعبئة مصادر قومية هائلة . ولم يعد مسموعاً أي حديث عن وحدة الرؤوس المتوجة أو عن الانسجام بين ولايات أوروبا العريقة . ففي ظل " سياسة بسمارك الواقعية " أضحت السياسة صراع قوى ليس الا .

كانت انجازات بسمارك غير متوقعة مثلما هي طبيعة شخصيته . اذ وضع " رجل الحديد والدم " كتابات طافحة بالبساطة المطلقة والجمال الأخاذ ، وعشق الشعر وضمن مذكراته صفحات كاملة من مؤلفات بايرون ، كما امتلك رجل الدولة الذي يمجد " السياسة الواقعية " شعوراً استثنائياً بمعايير الانسجام التي حولت القوة الى أداة لضبط النفس .

ما هو الثوري ؟ اذا تفادينا الغموض في الاجابة على هذا السؤال فسينجح قليل من الثوريين فقط . فالثوريون دائماً يبدأون مشوارهم من موقع قوة هامشي . وهم يهيمنون لأن النظام القائم أعجز المحافظة على نفسه من الضربات . ويصح هذا بشكل خاص حين لا يظهر التحدي الثوري على شكل مسيرة الى سجن الباستيل بل حين يتخذ سمة المحافظين . وقليلة هي المؤسسات التي تمتلك دفاعات ضد من يثير تكهنات أنهم اليها محافظون .

هكذا كان الأمر مع أوتوفون بسمارك . لقد بدأت حياتـه في أوج النظـام المترنيخي ، وسط عالم يتألف من ثلاثة عناصر رئيسية : ميزان القـوى الأوروبـي ، وتوازن داخلي الماني بين النمسا وبروسيا ، ونظام الأحـلاف القـائم على وحـدة القيم المحافظة . وقد ظلت التوتـرات الدوليـة مـدة جيـل بعـد تسـوية فيينـا خفيفـة الوطأة لأن جميع الـدول الكـبرى أدركـت خطـراً في بقائهـا المشـترك ، ولأن مـا يسـمى بالبلاطـات الشـرقية في بروسيا ، والنمســـا ، وروسـيا التـزمت بقيمهـا المتبادلـــة .

انبرى بسمارك الى تحدي كل هذه الفذلكات ، فهو موقن بصيرورة بروسيا أقوى ولاية المانية وانتفاء حاجتها للحلف المقـدس للارتبـاط مـع روسـيا ورأى أن مـــن شـأن المصـالح القوميـة المشـتركة أن تهيئـــة رباطـــاً طيبـــاً ، وأن " السياسة الواقعية " البروسية لها أن تستبدل الوحدة المحافظة واعتبر النمسا عائقاً أمام الرسالة الألمانية لبروسيا ، وليست شريكاً فيها ، بل أنه خـالف آراء كـل معاصريـه تقريباً ، باستثناء رئيس وزراء بيدمونت (كافور) ، حين عامل دبلوماسية نـابليون القلقة كفرصة استراتيجية وليست تهديداً .

يوم ألقى بسمارك خطابه عام ١٨٥٠ الـذي هـاجم فيـه الحكمـة التقليديـة بحاجة الوحدة الألمانية الى ارساء المؤسسات البرلمانية ، لم يـدرك مؤيـدوه المحـافظون للوهلة الأولى ان ما يسمعونه . كـان قبـل شـيء تحديـاً للمبـاديء المحافظـة لنظـام مترنيخ :

[لا يتوقف شرف بروسيا على أدائنا لـدور (دون كيشـوت) في جميـع أنحاء المانيا من أجل شـخصيات برلمانيـة مهتاجـة تـرى الخطـر يتهـدد دسـتورها المحلي . انـني أسعى الى شـرف بروسـيا بابعادهـا عـن أي ارتبـاط مهــين مــع الديمقراطية ولن أسمح بحدوث أي شيء في المانيا دونما اذن بروسيا] .

يبدو ظاهرياً أن هجوم بسمارك على الليبرالية كان تطبيقـاً لفلسـفة مـترنيخ مع فرق جووهري في التأكيد . لقد قام نظام مـترنيخ علـى مبـدأ اشـتراك بروسـيا والنمسـا بـالالتزام بالمؤسسـات المحافظـة واحتـاجت كـل منهمـا الأخـرى لدحـر الاتجاهات الديمقراطية الليبرالية . فيما قال بسمارك يقول ضمناً باستطاعة بروسيا فرض ما تريده لوحدها ، وقدرتها على أن تكـون محافظـة في الداخـل بـدون ربـط نفسها بالنمسا أو أية ولاية محافظة على صعيد السياسـة الخارجيـة ، وأنهـا ليسـت بحاجـة لأيـة أحـلاف لتعـالج اضطرابهـا الداخلي . ومـن ناحيـة أخـرى وجـد آل هابسبرغ في بسمارك نفس التهديـد الـذي شـكله رشـليو عليهـم – وهـي سياسـة مجردة من أي منظومة قيم أو أخلاق سوى تمجيد الدولة . وهـم لم يعرفـوا ، كمـا كان أمرهم مع رشليو ، كيفية التعامل معه ، أو حتى ادراك كنه طبيعته .

لكن أنى لبروسيا دعم " السياسة الواقعية " وحيدة في وسـط القـارة ؟ لقـد كانت استجابة بروسيا منذ عام ١٨١٥ هي السـير وراء الحلـف المقـدس بـأي ثمـن تقريباً ، فيما كانت استجابة بسمارك معاكسة تماماً – عقد الأحـلاف والعلاقـات بجميع الاتجاهات ، كي تغدو بروسيا دوماً أقرب الى جميـع الأطـراف المتباريـة مـن قرب بعضها للبعض الآخر . وبـذا ستتيح العزلـة الظاهريـة هـذه لبروسيا معالجـة التزامات القوى الأخرى وبيع دعمها لأعلى مراهن .

يقول بسمارك أن بروسيا ستغدو في موقف قـوي لتطبيـق هكـذا سياسـة ، لأنها تملك مصالح قليلة في السياسة الخارجية غير دعم موقفها داخل المانيـا . فيمـا تقاسي جميع القوى الأخرى من كثير من الارتباطات المعقدة : فمـا يقلـق بريطانيـا العظمى ليست امبراطوريتها فحسب ، بل وكذلك التوازن الشامل للقـوى ، فيمـا كانت روسيا متحرقة لأوروبا الشرقية وآسيا والامبراطورية العثمانية ، وأما فرنسـا والنمسا مشغولة بأمر ايطاليا والبلقان ، وبدورهـا القيـادي في الاتحـاد الألمـاني واذ انصبت سياسة بروسيا منصبة على المانيا ، أتاح لها ذلك تفادي أية مصادمـات مع أي قوة أخرى عدا النمسا ، وبهذا الصدد كان التصادم موجوداً في ذهن بسـمارك فقط بصورة رئيسية ، واذن كان عدم الانحيـاز - حسـب المصطلحـات الحديثـة - هو المكافيء الوظيفي لسياسة بسمارك القائمة على بيع تعاون بروسـيا فيمـا اعتـبره سوق البائع :

[نحن ملزمون في خضم الوضـــع القـائم ألا نضـع أنفسـنا أمـام القـوى الأخرى ، فلسنا بقادرين على أن صياغة علاقـات القـوى العظمـى بعضهـا مـع البعض الآخر كما تهوى أنفسنا ، بيـد أننـا بقـادرين علـى المحافظـة علـى حريـة التصرف لنغتنم ما يتأتى من العلاقات الناجمة عن ذلك حتمـاً .... ولـن تشـكل علاقاتنا مع النمسا وبريطانيا وروسيا أي عائق أمام التقـارب مـع أي مـن هـذه القوى . ووحدها علاقتنا مع فرنسا تقتضـي الحـذر في أقصـاه كـي نبقـي علـى سهولة خيار السير مع فرنسا بنفس سهولة السير مع قوى أخرى] .

وهكذا يتضح من ايماءة التقارب هذه مع فرنسا بونابرت الاستعداد لضرب الأيديولوجية عرضاً - بهـدف اطـلاق يـد بروسـيا لتتحـالف مـع أي بلـد (مهمـا

كانت طبيعة مؤسساته المحلية) يمكن أن يسدي فـائدة لمصالحها . واذن جسدت سياسة بسمارك عودة الى مباديء رشليو الذي عارض برغم كونه كاردينالاً كنسياً امبراطور رومانيا الكاثوليكي المقدس حين تطلبت ذلك مصالح فرنسا . وبهكذا صيغة خرج بسمارك ، برغم ظنه نفسه محافظاً ، حسب قناعته الشخصية عن رفقة مخلصيه المحافظين ساعة بدت له مبادئهم الشرعية قيداً لحرية تصرف بروسيا .

ثم بلغ الشقاق ذروته عام ١٨٥٦ حين أجل بسمارك رأيه ولما كان السفير البروسي في الاتحاد الألماني أن تقرب بروسيا لنابليون الثالث الذي اعتبره المحافظون البروسيون غاصباً لامتيازات الملك الشرعية .

ان اعتبار نابليون حواري بروسي محتمل قد تجاوز ما يمكن أن تتحمله دائرة بسمارك الانتخابية المحافظة التي أنشأت ورعت سيرته الدبلوماسية . فقد استقبلت فلسفة بسمارك الناشئة بنفس درجة الجحود الغاضب الذي واجهه من مؤيديه السابقين رشليو قبل قرنين حين تقدم آنذاك بأطروحته الثورية القائلة باعطاء الأفضلية " لمصلحة الدولة " على حساب الدين ، وهو نفس الأمر الذي سيحصل في عصرنا بازاء رد الفعل تجاه سياسة نيكسون بالانفتاح مع الاتحاد السوفيتي . لقد تجسد للمحافظين أن نابليون الثالث قد شكل تهديداً بموجة جديدة من التوسع الفرنسي .

لم يجادل بسمارك في تحليل المحافظين عن نابليون أكثر مما تحدى نيكسون تفسير المحافظين لنزعات الشيوعيين . اذ رأى بسمارك في حاكم فرنسا الذي لا يقر له قرار ، فرصة ثمينة وكذلك خطراً رهيباً ، وهو عين ما رآه نيكسون في

القيادة السوفيتية الشائخة . واعتبر بروسيا أقل تعرضاً من النمسا لخطر التوسع الفرنسي أو الثورة . كما لم يقبل بسمارك بالرأي السائد عن نابليون المحتال مشيراً بسخرية أن قابلية الاعجاب بالآخرين ليست من شيمه وآل أمر النمسا أن قدمت مزيد من التنازلات لبروسيا كلما خشيت بأس نابليون ، ووفق ذلك أخذت تتعاظم مرونة بروسيا الدبلوماسية .

تشابهت أسباب قطيعة بسمارك للمحافظين مع أسباب خلاف رشليو مع منتقديه الكنسيين ، أما الاختلاف الرئيسي فكان اصرار المحافظين البروسيين على المبادىء السياسية الكونية بدلاً من المبادىء الدينية الكونية لقد أكد بسمارك أن القوة قد أرست شرعيتها ، فيما جادل المحافظون أن الشرعية مثلت قيمة خارج حسابات القوة . وآمن بسمارك أن التقييم الصائب للقوة ينطوي على مبدأ التقييد الذاتي ، بينما لم يتزحزح المحافظون عن قول أن المبادىء الأخلاقية وحدها القادرة على تحجيم أطماع القوة .

أثار النزاع موجة هائجة من تبادل الرسائل في أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر بين بسمارك وبين محاوره القديم (ليوبولد فون جرلاش) وهو المرافق العسكري للملك بروسيا الذي يدين له بسمارك بكل ما أوتي - تبوأه أول مناصبه الدبلوماسية ، وقدومه الى البلاط وسيرته برمتها .

بدأ تبادل الرسائل بين الاثنين يوم بعث بسمارك الى جرلاش بتوصية أن تتبنى بروسيا الخيار الدبلوماسي تجاه فرنسا ، مع رسالة أخرى وضع فيها المصلحة فوق الأيديولوجيا :

[لا أستطيع التغاضي عن المنطق الرياضي لحقيقة ان النمسا ليست في هذا العصر صديقه لنا . فطالما هي لا توافق على تقليص مناطق نفوذها في المانيا ، علينا التحضير مسبقاً للتنافس معها ، عبر الدبلوماسية والكذب زمن السلم ، وكذلك الانتفاع من كل فرصة لتسديد الضربة القاضية] .

لم يرضخ جرلاش لقبول فكرة أن المصلحة الاستراتيجية تبرر التنكر للمباديء ، سيما اذا ما تعلق الأمر ببونابرت . وعليه جادل في العلاج المترنيخي - أن تتولى بروسيا عملية تقارب بين النمسا وروسيا واحياء الحلف المقدس لتعزيز عزلة فرنسا .

وما كان اشد عصياً على ادراك جرلاش هو مقترح آخر لبسمارك بدعوة نابليون الى حضور مناورات لفيالق الجيش البروسي لظنه أن " هذا البرهان على العلاقات الوثيقة بفرنسا سيعزز نفوذنا على جميع العلاقات الدبلوماسية " .

تفجر جرلاش غضباً من اقتراح مشاركة بونابرت في المناورات البروسية قائلاً : " أنىّ لرجل بمثل ذكائك أن يقدم مبادئه قرباناً لفرد مثل نابليون ، فما نابليون سوى عدونا الطبيعي " . فان سمع جرلاش رد بسمارك التهكمي - " وماذا في هذا " - لأدخر لنفسه الرسالة التالية ، التي كرر فيها مبادئه المناوئة للثورية وأحيا وهو عين الأمر الذي دعاه الى تأييد الحلف المقدس ودعم نشاطات بسمارك الأولى :

[ان مبدئي السياسي هو الحرب ضد الثورية . كان كذلك وسيظل هكذا . فما خالني أنت بقادر اقناع بونابرت أنه لا يقف على الجانب الثوري

ولن يقف في أي جانب آخر لأنه يقطف ثمار هذا ... ولذا ان كان مبدئي المعارض للثورية صائباً ، سيتحتم علي الانتماء اليه في التطبيق] .

لقد وقف بسمارك على طرفي نقيض مع جرلاش ليس لعدم فهمه اياه وهو ما خاله جرلاش ، بل لأنه خبر فيه ما قد خفي وما قد بان . فـ " السياسة الواقعية " لبسمارك اعتمدت على المرونة وعلى القدرة على استغلال كل خيار متاح بعيداً عن القيود الأيديولوجية . ومثلما صنع المدافعون عن رشليو ، حول بسمارك الجدل الى ساحة المبدأ الذي اشترك فيه مع جرلاش ، والى مبدأ يمكن أن يضع جرلاش في موضع لا يحسد عليه - الأهمية الطاغية للروح الوطنية البروسية وغير هذا رأى بسمارك في اصرار جرلاش على وحدة مصالح المحافظين لا يتناسب والولاء للبلاد :

[اكترث لفرنسا اذا ما غدا لها موقف مؤثر على موقف بلدي ، وليس بمقدورنا تعاطي السياسة الا مع فرنسا الموجودة على أرض الواقع .... فبصفتي رومانسياً فاني بقادر أن أذرف دمعة حزن على مصير هنري الخامس (وبصفتي دبلوماسياً كنت ساغدو خادمه لو أنني كنت فرنسياً . بيد أني أرى فرنسا ، في خضم راهن الأشياء وغير ابه لماهية من يقودها ، بيدقاً لا مفر منه على رقعة الدبلوماسية ، حيث لا أعرف غير واجبا خدمة ((ملكي)) و ((بلدي)) - يؤكد بسمارك . انني أشعر العجز عن مواءمة شعور التعاطف مع القوى الأجنبية أو مقتها مع واجبي في الشؤون الخارجية ، بل انني لو أجد فيها بذرة انعدام الولاء لمفهوم السيادة والبلد الذي أسدي له خدمتي] .

كيف استجاب بروسي تقليدي لفكرة أن الروح الوطنية البروسية قد صنعت مبدأ الشرعيه وكيف - لو اقتضت الظروف - يمكن أن يجاور ايمان جيل بوحدة القيم الخيانية ؟ لقد قطع بسمارك بلا هوادة جميع مسارب التهرب الفكري ، رافضاً مسبقاً جدل جرلاش أن الشرعية ((كانت)) مصلحة قومية لبروسيا ، وان نابليون كان لذلك عدو بروسيا الأبدي :

[أستطيع انكار هذا - بيد أني لن أعتبر الأمر حكيماً من الناحية السياسية أن ندع دولاً أخرى تعلم بمخاوفنا في زمن السلم وان كنت مصيباً . وسيكون من الأجدى تشجيع معتقد أن التوتر مع فرنسا ليس بخطأ عضوي من طبيعتنا] .

واذن اقتضت " السياسة الواقعية " مرونة تكتيكية أكثر ، ولزم المصلحة القومية البروسية الابقاء على خيار عقد صفقة مع فرنسا مفتوحاً . فالموقف التفاوضي للبلاد انما يعتمد على الخيارات الممكن الحصول عليها . والغاؤها سيجعل حسابات الطرف المقابل يسيرة ، وسيضيق على جماعة " السياسة الواقعية " .

تجذرت القطيعة بين جرلاش وبسمارك عام ١٨٦٠ حول قضية موقف بروسيا من حرب فرنسا مع النمسا حيال ايطاليا . فالحرب كما رآها جرلاش قطعت الشك باليقين أن هدف نابليون الحقيقي كان ارساء مسرح للعدوان على نمط بونابرت الأول . ولذلك حث جرلاش بروسيا على دعم النمسا . بينما تطلع بسمارك في ذلك الى فرصة - أي أن اذا ما أجبرت النمسا على التقهقر من ايطاليا

لأمكـن أن يجسـد ذلـك فاتحـة رحيـل نهـائي مـن المانيـا أيضـاً . ولاح في نـاظري بسمارك أن معتقدات جيل متزنيخ قد غدت سلسلة خطرة من أحجار العثرة :

[انني لأبقى أو أسقط مع عاهلـي ، حتى لـو ظننـت بـه سـاحقاً نفسـه بغباء ، غير أن فرنسا ستبقى فرنسا ، سواء حكمها نابليون أم (سانت لويـس) وتبقى النمسا بلداً أجنبياً بالنسبة الي ... أعلم أنكم ستجيبون أن الواقـع والحـق لا يفترقا ، وأن السياسة البروسية المناسبة تقتضي التعفف في الشـؤون الخارجيـة حتى من منظار المصلحة . ها أنا على استعداد لأناقش معكم مسألة المصلحـة ، فـان طرحتـم المتناقضـات بـين الحـق والثـورة ، والمسيحيـة والكفـر ، وا لله والشيطان ، لاستوقفتكم قائلاً : " لست علـى مذهبكـم وقـد انصبتـم أنفسـكم حكماً عليّ في أمور لا تربطكم واياها ناقة ولا جمل "] .

لقد كان هذا الافضاء المرير عن الايمان المكافيء الوظيفي لتوكيد رشـليو أن على الانسان التسليم لحكم الله طالما أن الروح خالدة . أما الدول ، لأنهـا فانيـة ، لا تخضع لغير حكم صنائعها . لم يعارض بسمارك ، كشأن رشليو ، آراء جرلاش المعنوية باعتبارها نواح شخصية من الايمان - ولعله قاسمه معظمها ، بيـد أنـه أنكـر صلتها بالواجبات المنوطة برجال الدولة عن طريـق تهويـل الاختـلاف بـين الايمـان الشخصي و " السياسة الواقعية " :

[لست بسـاع الى خدمـة الملـك ... ولعـل الـرب الـذي وضعـني ذلـك الموضع سيهديني الطريق لا يترك روحي تتلاشى . قد أبالغ في تقدير قيمـة هـذه الحياة لحد غريب ، لو لم اقتنع أن ثلاثين عاماً ستمر وساكون خارج أية نجاحات

سياسية أحرزتها أو حققها بلدي في أوروبا . ولعلي بقادر أن استنبط فكـرة أن يأتي يوم يحكم فيه " اليسوعيون الكافرون " (مارك براندنبرغ) – وهي قلـب بروسيا – اضافـة الـى خضوعهـا للاستبداد البونـابرتي .. انـي ابـن أزمنـة مختلفة] .

لم يتلق هذا الحدس الغريب بمصير بروسيا بعد قـرن أي استجابة مـن لـدن الرجل الذي يدين له بسمارك بمجرى حياته .

كان بسمارك حقاً ابن عهد مختلف عن عهد بجادله السـابق . فهـو ينتمـي الى عهد " السياسة الواقعيـة " ، بينمـا تقولـب جـرلاش حسـب مقتضيـات حقبـة مترنيخ . وكان نظام مترنيخ قد عكس مفهوم القرن الثامن عشر عن الكون بمثابـة أجزاء متناهية الانسجام تعمل بانتظام شديد بحيث يخل عطل أي جزء منهـا بسـائر عمـل الأجـزاء الباقيـة . كمـا مثـل بسـمارك العهـد الجديـد مـن نـاحيتي العلـم والسياسة . وفهم الكون ليس على أساس أنه توازن ميكانيكي – بـل فهمـه وفـق صيغته الحديثة – باعتباره متآلفاً من جزيئات مترابطـة يخلـق تأثـير كـل منهـا علـى الأخرى ما يسمى بـ ((الواقع)) .

أما فلسفته الاحيائية التي يعتنقها فهي نظرية داروين التطورية القائمـة علـى بقاء الأصلح . وراح بسمارك وهـذه الأفكـار جائلـة برأسـه ، يعلـن ((نسـبية)) جميع المعتقدات بما في ذلك الاعتقاد بخلود بلـده . وفي عـالم " السياسـة الواقعيـة " يكون من واجب رجل الدولة أن تقدير الأفكار والقوى بالعلاقـة الى جميـع القـوى الأخرى المتعلقة بعملية صنع القرار ، اضافة الى العنـاصر المختلفـة المطلـوب الحكـم

عليها من خلال حجم ايجابية تأثيرهـا لحساب المصالح القوميـة ، وليس لحساب الأيديولوجيات المعدة سلفاً .

لقد ارتكزت فلسفة بسمارك ، ناهيك عن الغلواء الذي ظهرت بـه ، على أساس ايمان غير مبرهن كشأن طروحات جرلاش - أي أن التحليل الدقيق لمجموعة من الظروف سيحدو بجميع رجال الدولـة بـالضرورة الى استقراء نفس النتـائج . وكما وجد جرلاش الامر لا يصدق أن يحتمل مبدأ الشرعية أكـثر مـن تفسير ، لم يستوعب بسمارك فكرة اختلاف رجال الدولة في الطريقة التي قيموا بهـا المصلحة القومية . واستطاع بسمارك لأنه أمسك بمقاليد السلطة وتشـعباتها ، ماحيـا على استبدال القيود الفلسفية لنظام مترنيخ بسياسة تتسـم بضبـط النفـس . ولمـا كـانت هذه التصرفات الدقيقة الحاذقة غير جلية في نواظر أخلاف بسمارك ومقلديه ، فقد أفضـى التطبيـق الحـرفي لـ " السياسـة الواقعيـة " الى فـرط اعتمـادهم علـى القـوة العسكرية ، ومنها انزلقوا الى سباق التسلح وبالتالي اشتعلت الحربان الكونيتان .

دوماً ما يكون النجاح لواذا لدرجة أن نجد أغلب الساسة في تعقبهـم ايـاه ما ضجروا من عناء تفكير أنه قـد يفـرض عليهـم قصاصـاً . وعليـه أمسـى شـغل بسمارك الشاغل مذ ولج عتبة المنصب تطبيق " السياسة الواقعية " لهدم العالم الذي وجد نفسه فيه والذي لما يزل شديد التأثر بهيمنة مباديء مترنيخ . فـأقتضى ذلـك فطم روسيا عن فكرة أن القيادة النمساوية في المانيا بـذات أهميـة للأمـن البروسـي ولحفظ القيم المحافظة . ومهما كانت درجة صحة هذا الافتراض أيام مؤتمر فيينـا ، فأن بروسيا لم تعد في منتصف القرن التاسع عشر بحاجـة الى التحـالف مـع النمسـا للحفاظ على الاستقرار الداخلي أو الأمـن الأوروبـي . بـل ان وهـم الحاجـة الى

التحالف مع النمسا قد عمل ، كما يـراه بسـمارك ، قبـل كـل شـيء علـى اعاقـة بروسيا عن بلوغ هدفها الرئيسي بتوحيد المانيا .

لقد تطرز تاريخ بروسيا - كما نوه بسمارك - بالدليل الذي دعـم ادعـاءه بأفضلية بروسيا في المانيا وقدرتها على الوقوف وحيدة . فهي ليسـت مجـرد ولايـة المانية أخرى . لقد عجزت سياساتها الداخلية ، أنىّ كـانت سمـة محافظتهـا ، عـن حجب التلهف القومي الذي أثارتـه بتضحياتهـا الهائلـــة في حـروب التحـرر مـن نابليون . وبدا الأمر كما لو أن سمات بروسـيا الخاصـة بهـا - وهـي سلسـلة مـن الأراضي غريبة الشكل والمحاطة بأقاليم أجنبية ممتدة عبر السهل الشمالي الألماني مـن نهر الفستولا الى غرب الراين - هي التي كتبت عليها تحقيق الوحدة الألمانية ، حتى في عيون الليبراليين .

بل ذهب بسمارك أبعد من ذلـك فتحـدى الحكمـة التقليديـة الـتي عرفـت القومية بالليبرالية ، أو في الأقل بفكرة عدم تحقيـق الوحـدة الألمانيـة الا مـن خـلال المؤسسات الليبرالية :

[تبوأت بروسيا منازل العظمة ليس بفضل الليبرالية وحرية التفكـير بـل بواسطة سلســلة مـن الـولاة كـانوا أقـوى مـن أن يلامـوا وأعـز مـن أن يظـاموا وأحصن من أن يراموا استثمروا الموارد العسكرية والمالية للولاية وجعلوها تحت أيديهم بهـدف القـذف بها الى مـيزان القـوى الأوروبـي حالمـا تتسـنى الفرصـة الذهبية ...] .

لم يعتمد بسمارك على مباديء المحافظين بل على السمات الفريدة للمؤسسات البروسية ، وأقام مطلب بروسيا يتولى قيادة المانيا على حقيقة قوتها لا على ادعاءات القيم الكونية . وهو قد رأى أن المؤسسات البروسية حصينة ضد التأثر بالنفوذ الخارجي حتى ليغدوا بوسعها استوظاف التيارات الديمقراطية لتلك اللحظة كأدوات سياسة خارجية عن طريق التهديد بتشجيعها حرية التعبير في الداخل - غير آبه ان ملكا بروسيا لم يمارس تلك السياسة طيلة أربعة عقود خلت ، ان وجدت أصلاً :

[لم تشارك بروسيا شعورها بالأمان أن يظل الملك سيد بلاده حتى وان غادر الجيش برمته البلاد الى خارجها أية دولة أخرى في القارة الأوروبية ولم تضارعها في الأمر هذا أية قوة المانية أخرى . وبذا سيخلق هذا الشعور الفرصة لتحقيق التنمية في المرافق العامة بمستوى أعلى بكثير مما يحصل في ظل الأوضاع الحاضرة .... وتتوكأ السلطة الملكية في بروسيا على أساس مقدرة الحكومة على رعاية نشاط برلماني فاعل دونما تنكب أية مخاطر تتكبدها ، وبذا تسلط ضغوطاً على الأوضاع في المانيا] .

رفض بسمارك الرأي المترنيخي أن شعوراً مشتركاً بعدم الحصانة الداخلية تطلب تقارباً وثيقاً بين البلاطات الشرقية الثلاث . وما كانت الحالة الا النقيض لذلك تماماً . فاذا نأت بروسيا عن تهديد الاضطرابات الداخلية ، جسد تماسكها الداخلي المتين سلاحاً جاهزاً لزعزعة تسوية فيينا عن طريق تهديد القوى الأخرى لا سيما النمسا ، باتباع سياسات تنفخ في كير الاضطرابات الداخلية . واعتقد

بسمارك أن قوة مؤسسات بروسيا الحكومية والعسكرية والمالية قد مهدت السبيل لسيادة بروسيا في المانيا .

وتسلق بسمارك بعد اعتماده سفيراً في (جمعية الاتحاد) عام ١٨٥٢ ، ومن ثم سفيراً في سانت بطرسبرغ عام ١٨٥٨ المناصب التي أهلته الدفاع عن سياساته . وتضمنت تقاريره المعدة بعناية ، تحفيزاً على اتباع سياسة خارجية لا تقوم على العواطف ولا الشرعية بل على التقدير السليم للقوة . وبذلك يكون بسمارك قد عاد الى تقليد قادة القرن الثامن عشر كلويس الرابع عشر وفريدريك الكبير . وغدا تعزيز نفوذ الدولة هو الهدف الرئيس ان لم يكن الوحيد ، لا تحده غير القوى المحتشدة ضده :

[...... ليس لسياسة العواطف من مبادل ، هي سمة بروسية لا غير . ... لا أريدكم بحق السماء بلوغ أحلاف قائمة على العواطف فيها يهيء مفهوم أننا حققنا الصنيع العظيم المكافأة الرئيسية لتضحيتنا . ..... هي السياسة فن الممكن ، وهي علم النسبية . .....لا يحق حتى للملك أن يخضع مصالح الدولة الى ما يشتهيه أو يكرهه شخصياً].

يرى بسمارك أن السياسة الخارجية تملك أساساً علمياً يجعل ممكناً تحليل المصالح القومية في ضوء المعيار الموضوعي . وبذا ، برزت النمسا وفق هذا التصور بلداً أجنبياً وليس شقيقاً ، بل وكعائق أمام نيل بروسيا مكانتها اللائقة بها في المانيا : " ليس لسياستنا مسرح عمل آخر غير المانيا وذاك تحديداً ما تعتقد النمسا انها

بحاجة ماسة اليه .. نحن نحرم بعضنا البعض الآخر من الهواء الذي يستنشق .. وذي حقيقة لن نقوى حالاً على تجاوزها مهما كانت مقرفة " .

وقف فريدريك ووليام الرابع ، الملك البروسي الأول الذي عمل بسمارك سفيراً له ، متحيراً بين محافظة جرلاش الشرعية والفرص الثمينة المتاصلة في سياسة بسمارك الواقعية . اذ أصر بسمارك أن نظرة الملك الشخصية الى عظمة الدولة الألمانية لا ينبغي لها تحجيم سياسة بروسيا . فاذا رفضت النمسا الهيمنة البروسية في المانيا ، انطوت استراتيجية بسمارك على اضعاف النمسا في كل منعطف تمر به . ففي خضم حرب الكريميا عام ١٨٥٤ اراد بسمارك أن تستغل بروسيا قطيعة النمسا مع روسيا وتهاجم من لا يزال شريك بروسيا في الحلف المقدس دونما طرح تبرير سوى روعة الفرصة المتاحة :

[لو نجحنا في ادراج فيينا الى نقطة لا تعتبر فيها هجوماً من بروسيا على النمسا باعتباره شيئاً خارج الاحتمالية لطرقت ما معنا ، عاجلاً أخباراً من هناك أجدى ......] .

ثم كرر بسمارك النغمة ذاتها عام ١٨٥٩ أثناء حرب النمسا مع فرنسا وبيدمونت :

[يلوح الوضع الحالي لنا تارة ثانية بالجائزة العظيمة لو تركنا الحرب بين النمسا وفرنسا تستعر أكثر ومن ثم ننطلق جنوباً ليستولي جيشنا على المراكز الحدودية حتى نصل بحيرة (بودنس) أو في أقل تقدير المناطق التي يتوقف فيها الاعتراف البروتستانتي هو السائد] .

كان مترنيخ سيقول في هذا هرطقة ، غير أن فريدريك الكبير قد استحسن تبني الحواري الذكي لأساسه المنطقي وراء فتحه سلزيا .

اخضع بسمارك ميزان القوى الأوروبي الى عين التحليل النسبي المبيت مثلما تداول مع الوضع الداخلي في المانيا ، وراح وحرب الكريميا مستعر أوارها يرسم خيارات بروسيا الرئيسية :

[ثلاثة تهديدات تلوح أمامنا : (١) حلف مع روسيا ، ومن الهراء أن تقسم في ذات اللحظة أننا لن نشد رحالنا اني توجهت روسيا . وحتى لو صح ذلك ، علينا الاحتفاظ بخيار استخدامه كتهديد مضاد . (٢) سياسة نلقي فيها بأنفسنا في أحضان النمسا ونعوض أنفسنا على حساب الاتحاديين الألمان الغادرين . (٣) تعديل مجلس الوزراء ليصبح يسارياً " غربيين " الى درجة نستطيع فيها بز النمسا بشكل ساحق] .

ومقابل ذلك طرحت خيارات بروسية لها نفس القدر من المعقولية : تحالف مع روسيا بوجه فرنسا (ربما على أساس تجمع للمصالح المحافظة) ، اجراء ترتيب مع النمسا ضد الولايات الألمانية الثانوية (وربما ضد روسيا) ، انتقال صوب الليبرالية الموجهة داخليا ضد النمسا وروسيا (وربما بالاشتراك مع فرنسا) وكشأن رشليو . وجد بسمارك نفسه مطلق العنان في اختياره بين الشركاء ، وهو اذ كان مستعداً للتحالف روسيا أو النمسا أو فرنسا ، فسيتوقف الاختيار الصائب على البلد الذي سيخدم المصالح القومية البروسية على أكمل وجه . وهو قد استعد برغم شديد اختصامه مع النمسا لعمل ترتيب مع فيينا مقابل الحصول على تعويض

مناسب في المانيا . كما لم يجد بسمارك برغم كونه محافظاً متزمتاً في الشؤون الداخلية ، مانعاً من توجيه سياسة بروسيا الداخلية نحو اليسار ما دام ذلك يخدم السياسة الخارجية . واذن حتى السياسة الداخلية أداة لتطبيق " السياسة الواقعية " .

وقعت محاولات امالة ميزان القوى حتى في أوج نظام مترنيخ . بيد أن أحداً لم يأل جهداً آنذاك لاسباغ صفة الشرعية على أي تغيير عن طريق نيل الاجماع الأوروبي . والواقع أن نظام مترنيخ قد سعى لاحداث تعديلات من خلال المؤتمرات الأوروبية من خلال السياسة الخارجية القائمة على التهديد والتهديد المقابل . وكان بسمارك سيغدو آخر شخص ينكر جدوى الاجماع الأدبي . لكنه سيرى في ذلك مجرد عنصر قوة واحد بين عناصر عديدة . فاستقرار النظام الدولي ارتكز كلياً على هذا المبدأ . والضغط باتجاه التغيير دونما ولاء كلامي لتلطيف العلاقات التعاهدية القائمة أو القيم المشتركة أو روح الجماعة الأوروبية ، أشر ثورة الدبلوماسية . ثم حان وقت خص فيه خضوع القوة الى معيار وحيد ، جميع الدول على ولوج حلبة سباق التسلح وتبني سياسات المواجهة الخارجية .

شيء لأراء بسمارك أن تظل أسيرة طوقها الأكاديمي ما دام العنصر الرئيسي لتسوية فيينا - وهو وحدة البلاطات المحافظة في بروسيا ، والنمسا ، وروسيا - محافظاً على وضعه ، وما دامت بروسيا نفسها أضعف من تمزيق هذه الوحدة ، لقد تفرق جمع الحلف المقدس على نحو غير متوقع ما ان وضعت حرب الكريميا أوزارها ، يوم تخلت النمسا عن السرية المجهولية المنمقة التي أبعد بها مترنيخ الأزمات عن امبراطوريته المترنحة ، حتى وقف بعد سلسلة

تأرجحات ، بجانب أعداء روسيا . وعلى الفور ادرك بسمارك أن حرب الكريميا قد فجرت ثورة على الصعيد الدبلوماسي وقال : " يوم الحساب سيأتي وان عليه بضع سنوات " .

لعل أهم وثيقة تعلقت بحرب الكريميا كانت رسالة من بسمارك حلل فيها الموقف الذي آلت اليه الأوضاع بعيد انتهاء الحرب سنة ١٨٥٦ . اذ تمثلت فيها المرونة التامة للدبلوماسية مع انعدام مطلق لأي تردد في اغتنام الفرصة . وبلغ من علو شأنها أن أطلق عليها المؤرخون الألمان " الرسالة الكبرى " بجدارة . فهي تضمنت سرداً لأساس " السياسة الواقعية " .

استهل بسمارك رسالته بعرض لمكانة نابليون الاستثنائية عند نهاية حرب الكريميا . وأشار أن جميع دول أوروبا سترنو مذ حينها الى كسب صداقة فرنسا ، وليس غير روسيا أرحب أفقاً في هذا الشأن :

[ان حلفاً بين فرنسا وروسيا لأمر جد طبيعي لا يجب أن يحدث ... أن متانة عرى الحلف المقدس قد أبقت على فرقة الدولتين لحد الآن ، أما وقد رحل القيصر نيقولا وتمزق شمل الحلف المقدس على يد النمسا ، لم يبق ما يحيل دون تقاربهما] .

لقد تكهن بسمارك أن النمسا قذفت بنفسها في فخ لن تقدر الخروج منه بالتسابق مع القيصر الى باريس . اذ سيحتاج نابليون لينال تأييد جيشه ، الى قضيـــة تقدم له في اللحظة اشعاراً بـ " حجة عادلة وغير عشوائية للتدخل . فكانت ايطاليا خير ما ينفعه لذلك ، بعد أن لاحت أمامه أطماع سردينيا ،

وجالت بمخيلته ذكريات بونابرت وموروات ، فهيأت له أعذاراً طيبة ، ناهيك عن أن الحقد على النمسا سيعبد طريقه نحو هدفه " . وهذا تماماً ما حصل بعد مرور ثلاث سنوات .

ترى أني ستتصرف بروسيا في ضوء حتمية تعاون سري بين فرنسا وروسيا ، وحيال احتمال نشوب صراع فرنسي - نمساوي . لقد فرض نظام مترنيخ على بروسيا تعزيز تحالفها مع النمسا المحافظة ، توثيق عرى الاتحاد الألماني ، ارساء علاقات متينة مع بريطانيا العظمى اضافة الى العمل على عزل روسيا عن نابليون .

غير أن بسمارك ، انطلاقا من نظرته المتميزة ، وضع كل هذه الخيارات وراء ظهره ، بعد أن رأى أن قوات بريطانيا البرية لا تستحق أخذها بالاعتبار بوجه تحالف فرنسي - روسي ، ثم ان النمسا وبروسيا سوف تنزعان قفاز الصراع بينهما . أما الاتحاد الألماني فلن يضفي فائدة تذكر :

[سيقوى الاتحاد الألماني اذا ما تلقى معونة روسيا وبروسيا والنمسا أكثر ، لأنه سيؤمن بالنصر ، لكن حرباً اذا ما نشبت على جبهتين - من الشرق والغرب - سعى الأمراء خارج سيطرتنا الى انقاذ أنفسهم باعلانهم حيادهم ، ان لم يبرزوا من صفوف أعدائنا ...] .

تلوح النمسا الآن في عين بسمارك شريكاً غير لائق برغم أنها كانت حليف بروسيا الرئيسي طيلة جيل كامل . ثم غدت العقبة الرئيسية أمام امتداد بروسيا : " لا تتسع المانيا لكلينا .... ، ومادمنا نغترف من نفس الأخدود فأن

النمسا هي الدولة الوحيدة التي بوسعنا أن الحصول منها على كسب أبدي ، وهي الوحيدة التي يمكن أن نقاسي من خسارة دائمة لها " .

لقد تعامل بسمارك مع العلاقات الدولية وحل أنى جانب فيها بقوله أن بروسيا قد اعتورتها حاجة كسر طوقها الاتحادي مع النمسا وقلب سياسات العهد المترنيخي بغية اضعاف حليفتها السابقة في أية فرصة تسنح : " حين تعتلي النمسا صهوة جوادها في المقدمة ، سنعتلي جوادنا وراءها " .

تكمن لعبة الأنظمة الدولية المستقرة في عجزها المطلق تقريباً عن تسليط تحد مؤقت . والوصمة العمياء على جبين الثوريين هي ايمانهم بقدرتهم على الجمع بين كل فوائد أهدافهم من خلال ما يطيحون به - بيد أن للقوى التي يطلقونها من عقالها زخمها المحدود ، وليس من المستطاع شق الطريق الذي تسير فيه على ضوء ادعاءات المنادين بها .

وذا ما حصل لبسمارك . فما هي الا سنوات خمس على تسلمه منصبه عام ١٨٦٢ حتى أزاح العائق النمساوي أمام الوحدة الألمانية ، بفضل تطبيقه نصيحته العائدة الى العقد السابق . فأفلح في الحروب الثلاثة آنفة الذكر بهذا الفصل ، في طرد النمسا من المانيا وتبديد الأوهام الرشليوية المعشعشة في فرنسا .

بيد أن المانيا الموحدة الحديثة أخفقت في بلوغ مثاليات الجيلين الألمانيين اللذين تطلعا الى بناء دولة دستورية ديمقراطية . وحقيقة الأمر أنها ما عكست أي مظهر للتفكير الألماني الرصين بل أمست ميثاقاً دبلوماسياً بين الولايات الألمانية وليست تعبيراً عن الارادة الشعبية . كما أنها استمدت شرعيتها من السطوة

البروسية ولأفق مبدأ تقرير المصير القومي . أما بسمارك الذي حقق ما وطد نفسه عليه ، قد راهن بنطاق انتصاره هذا على مستقبل المانيا ، وعلى النظام الأوروبي العالمي . وأكيد الأمر أنه كان معتدلاً في انهاء حروبه مثلما كان شرساً في التحضير لها . فما كادت المانيا تبلغ الحدود التي رآها ضرورية لأمنها ، انطلق بسمارك يتبع سياسة خارجية حكيمة وهادئة . ووفى طيلة عقدين بالتزامات أوروبا ومصالحها بأسلوب حاذق اعتمد على " السياسة الواقعية " وتطلع الى استتباب السلام في أوروبا .

غير أن دواعي القوة رفضت اخلاء الطريق للتصرفات الطائشة ، مهما كانت مرغوبة أو محدودة . وان كانت المانيا قد توحدت بفعل الدبلوماسية التي افترضت مسبقاً مطاوعة غير محدودة ، فان النجاح الذي حققته هذه السياسة قد الغى أية مرونة في النظام الدولي . وها هم الآن مشاركون أقل في اللعبة ، وكلما قل عدد اللاعبين تقلصت امكانية اجراء التغييرات . وهذا النظام الدولي الجديد احتوى على أعضاء أقل وأثقل وزناً ، فأحال التفاوض عسيراً حيال توازن مقبول عموماً ، أو اسناده دونما اختبارات قوة متواصلة .

تضخمت هذه المشاكل البنيوية بفعل مدى النصر البروسي في الحرب مع فرنسا ، وبفعل طبيعة السلام الذي نجم عنها ، ناهيك عن حقيقة أن ضم المانيا لـ (الألزاس - اللورين) قد الهب عداءً فرنسياً دحض كل خيار الماني دبلوماسي تجاه فرنسا .

اعتبر بسمارك في خمسينات القرن التاسع عشر الخيار الفرنسي أساسياً فقدم صداقته مع جرلاش قرباناً من أجل تعزيزه . وبعد ضم الألزاس - اللورين استحالت الخصومة الفرنسية الى " خطأ عضوي نابع من طبيعتنا " لم يدخر بسمارك وسعاً في التحذير منه . أعاق هذا الأمر سياسته في " الرسالة الكبرى " بالبقاء الى أن تتحشد القوى الأخرى ، ومن ثم بيع مساندة بروسيا لمن يعرض الأفضل .

ولم يفلح الاتحاد الألماني في التصرف كوحدة واحدة الا بوجه التهديدات الغامرة التي ألغت كل مظاهر الخصام بين الدول المختلفة واستحال معها الفعل الهجومي المشترك . وأمسى ضعف هذه الترتيبات أحد الأسباب التي جعلت بسمارك يصر على هندسة الاتحاد الألماني تحت الزعامة البروسية . الا أنه دفع الثمن مقابل الترتيب الجديد . فما أن تحولت المانيا من غداتها ضحية محتملة للعدوان الى تهديد للتوازن الأوروبي ، حتى استحال الاحتمال البعيد لتوحد دول أوروبا الباقية ضد المانيا الى احتمال وشيك . وذلك الكابوس هو ما حدا بالمانيا الى اتباع سياسة كادت أن تقسم أوروبا الى معسكرين متناحرين .

كان أسرع رجل دولة أوروبي استوعب تأثيرات الوحدة الألمانية هو (بنجامين دزرائيلي) ، الذي كان على وشك أن يغدو رئيس وزراء بريطانيا . فقد قال عام ١٨٧١ معلقاً على الحرب الفرنسية - البروسية :

[ان هذه الحرب لتمثل الثورة الألمانية ، وهي حدث سياسي أجل شأناً من الثورة الفرنسية في القرن ... فليس هناك من تقليد دبلوماسي لم تقوض

أركانه . ولذا برز عالم جديد في الأفق ... وها هو ميزان القوى السالف قد تهشم شذر مذر] .

نجح بسمارك ولما يزل يمسك بمقاليد الأمور في اخفاء هذه المعضلات بفضل دبلوماسيته الحاذقة البارعة . ومع ذلك وعلى المدى البعيد عمل تعقيد ترتيباته على افشالها . فأصاب دزرائيلي بأقواله . لقد أعاد بسمارك رسم خريطة أوروبا وكذلك نمط العلاقات الدولية ، لكنه لم يضع في النهاية نموذجاً يستطيع خلفاؤه السير بموجبه . فحالما تمزقت تكتيكات بسمارك في جدتها ، نشد من جاء من بعده ومن نازعه السلامة في مضاعفة استعدادهم التسليحي كسبيل لتقليل اتكالهم على الوسائل الدبلوماسية غير المادية المربكة ، وأجبر عجز المستشار الحديدي عن ممارسة سياساته المانيا على الخوض في مطاحنة دبلوماسية مضجرة لا تفلت منها الا بالانخراط في سباق التسلح أولاً ، وبالحرب ثانياً .

كما فشل بسمارك أيضاً في سياسته الداخلية في رسم سبيل يستطيع من تبعه السير فيه . وبسمارك في هذا الشخص الفارد طيلة حياته ، لم يفهم الآخرون كامل شخصه ، بعد أن غادر المسرح وحقق انجازات أسطورية لقد تذكر زملاؤه الحروب الثلاثة التي عبدت طريق الوحدة الألمانية ، لكنهم نسوا الاستعدادات الأليمة التي صنعت تلك الثمرة ، والاعتدال مدفوع الثمن من أجل قطفها . وشاهدوا استعراضات القوة غير أنهم لم يفقهوا التحليل الدقيق الذي ارتكزت عليه .

لقد زاوجت البنية التي شيدها بسمارك لألمانيا هذه الاتجاهات . لقد فقد البرلمان (الرايشستاغ) ، برغم أنه أول برلمان في أوروبا ينشأ على حق التصويت للذكور ، السيطرة على الحكومة التي سماها الامبراطور و لم يستطع أحد غيره عزلها . كما كان المستشار أقرب الى الامبراطور والرايشستاغ أقرب من قرب بعضهما للبعض الآخر . وهكذا استطاع بسمارك ضمن حدود معنية أن يغري المؤسسات المحلية الألمانية بعضها ضد البعض الاخر مثلما فعل ذلك مع الدول الأخرى في سياسته الخارجية هما المهارة والجرأة اللتان افتقدهما غيره من بعده . فتكشفت النتيجة عن قومية فجة بفعل الديمقراطية المتحولة سراعاً الى الشوفينية ، بينما غدت الديمقراطية المفتقرة للشعور بالمسؤولية عضيمة ولعل خير ما يوضح جوهر حياة بسمارك هو الرسالة التي خطها المستشار الحديدي بقلمه الى زوجته المستقبلية :

[هذا الذي نرتجيه في الأرض له من بعض خصال الملاك الهابط المتسربل بالجمال لكنه من غير قرار ، وعظيم بأفكاره وانجازاته بيد أن النجاح عنه بعيد ، والفخر يملأه والوحدة سمته] .

هذان الثوريان اللذان وقفا على عتبة نظام الدولة الأوروبية المعاصر . قد تجسم فيها كثير من معضلات العصر الحديث . فنابليون ، ذلك الثوري المتعض جسد اتجاه توجيه السياسة نحو العلاقات العامة وبسمارك ، الثوري المحافظ ، قد عكس اتجاه تعريف السياسة من منظور تحليل القوى .

وساورت نابليون أفكار ثورية غير أنه ارتد أمام مضامينها . وهو اذ أهدى زهرة شبابه بما يدعى في القرن العشرين الاحتجاج ، لم يفلح يوماً في تجسير الهوة بين صياغة فكرة ما وتطبيقها ، فولج الرأي العام لرأب ذلك الصدع طالما هو غير مطمئن لغاياته بل ولشرعيته . لقد قاد نابليون سياسته الخارجية وفق أسلوب الزعماء السياسيين الذين يقيسون نجاحهم برد فعل التلفاز وأنباء المساء . فعلى نفس هذا النمط جعل نابليون من نفسه أسيراً للمبادىء التكتيكية المحضة ، صاباً جل اهتمامه على الأهداف قصيرة المدى والنتائج الفورية ، ساعياً الى شد انتباه العامة بمضاعفة الضغوط التي وطد نفسه على صنعها . وبذلك أربك سياسته الخارجية بتحركات ساحر مشعوذ . غير أن الواقع لا الالتفاف الشعبي هو الذي يحدد ما الذي صنعه الزعيم في خاتمة المطاف .

ليس من دأب العامة في المدى البعيد أن تحترم القادة الذين يعكسون أمامها تبلبلها ، أو الذين يرون فقط أعراض الأزمات لا الاتجاهات بعيدة المدى . وعليه ينطوي دور القائد على تولي عبء التصرف على أساس الثقة بتقييمه لاتجاه الأحداث وكيفية التأثير عليها . أما أن فشل القائد في ذلك ، تفاقمت الأزمات ، وهي طريقة أخرى للقول أن القائد قد فقد السيطرة على الأحداث ، وهنا آل الأمر بنابليون الى صيرورته بشيراً بظاهرة حديثة غربية - الشخصية السياسية الساعية بيأس الى تقرير ما يريده العامة ، ومع ذلك ينتهي الأمر بها الى الرفض وربما حتى الاحتقار .

أما بسمارك فما افتقر يوماً للثقة للشروع بما ارتآه . ينم عن ذكاء فرصة بروسيا وواقعها الحقيقي . وسار ببناء مشاريعه لدرجة أن تحملت المانيا التي صنعها

هزيمة حربين عالميتين ، واحتلالين أجنبيين ، وحتى جيلين في بلد انقسم قسمين . أما موطن فشل بسمارك فيكمن في بناء مجتمعه على سياسة لن ينجح في تنفيذها غير رجل عظيم يبرز من بين صفوف كل جيل . وتلك حالة قلما تكررت ، فعملت مؤسسات المانيا الامبراطورية ضدها . وبذا بذر بسمارك ليس بذور نجاحات بلده وحسب ، وبذور مآسيها في القرن العشرين ، وهنا قال (فون رون) صديق بسمارك : " ليس هناك من أحد يأكل من شجرة الخلد وهو آمن " .

لقد تجسدت مأساة نابليون في تعدي طموحاته نطاق قدراته ، بينما انطوت مأساة بسمارك على تخطي طاقاته قدرة البلاد على هضمها . فكانت تركة نابليون لفرنسا شللاً استراتيجيا ، وتركة بسمارك لألمانيا عظمة عصية على الاستيعاب .

الفصـــل الســادس

السياسة الواقعية تنقلب على نفسها

أفضت السياسة الواقعية وهـي السياسـة الخارجيـة القائمـة علـى حسـابات القوة والمصالح القومية – الى تحقيق الوحدة الألمانية . وتوحيد المانيا بحد ذاته هـو الذي حدا بالسياسة الواقعية الى الانقـلاب علـى نفسـها ، فـانتهت الى عكـس مـا سعت الى تحقيقه . فاتباع السياسة الواقعية يفرض تلافي سباقات التسـلح والحـرب فقـط اذا كـان اللاعبـون الرئيسـيون في النظـام الـدولي طليقـي الأيـدي في تعديـل علاقاتهم وفق الظروف المتبدلة ، أو اذا كانوا مـلزمين بمنظومـة قيـم مشـتركة ، أو كليهما .

غدت المانيا بعد توحيدها أقوى بلدان قارة أوروبا وما برحت قوتها تتنامى كل عقد ، وبهـذا فجرت ثـورة في الدبلوماسـية الأوروبيـة . منـذ ظهـور النظـام الدولي في عهد راشليو ، وأبت كـانت قـوى أطـراف أوروبـا – بريطانيـا العظمـى وفرنسا وروسيا – على تسليط ضغوطها على المركـز . فيمـا أضحـى الآن مركـز أوروبا وللمرة الأولى قوياً لدرجة تسليطه ضغطا على الأطراف . فأنى لأوروبا أن تتداول مع هذا العملاق الجديد المنتصب في وسطها ؟

لقد صنعت الجغرافيا معضلـة عصـيٌ حلهـا . اذ كـان محتمـلاً للائتلافـات الأوروبية بمقتضا مبادىء السياسة الواقعية أن تتشكل بغية احتواء قوة المانيا المتناميـة القادرة على الهيمنة . أما المانيا فقد حاق بها وبسبب موقعها في وسط القارة خطر

مستديم هو ما أطلق عليه بسمارك كابوس الأحلاف المطوقة المعادية . بيد أن محاولة المانيا حماية نفسها ضد حلف مؤلف من جميع جيرانها - في الشرق والغرب - في وقت واحد ستسلط تهديداً لأولئك الجيران كل على حدة ، وبذلك ستزيد من سرعة تشكيل الأحلاف . وهكذا غدت فلسفة تحقيق الذات جزءاً من النظام الدولي ، وأن ما يزال يطلق عليه الأسرة الأوروبية قد تمزق بفعل شعورين عدائيين : العداء بين فرنسا والمانيا ، والعداء المستشري بين الامبراطوريتين النمساوية - المجرية والروسية .

فان بلغنا من الحديث عداء المانيا وفرنسا ، ولد حجم انتصار بروسيا في حرب عام ١٨٧٠ رغبة فرنسية دائمة للثأر ، فيما أفضى ضم المانيا للالزاس - اللورين الى صب الزيت على النار . وسرعان ما اختلط الحنق الفرنسي بالخوف يوم بدأ قادة فرنسا يتلمسون حقيقة أن حرب ١٨٧٠-١٨٧١ قد أشرت نهاية عهد السيطرة الفرنسية ، وتغيرا لارجعة فيه في تراصف القوى . و لم يعد بذي جدوى تطبيقية نظام راشليو القائم على ضرب الولايات الألمانية بعضها بالبعض الآخر في أوروبا الوسطى المتشرذمة . وسعت فرنسا وهي مشتتة الذهن بين ذكرياتها الماضيه وطموحاتها المستقبلية الى توجيه احباطاتها على مدى قرابة خمسين عاما الى هدف احادي النظرة تمثل باستعادة الالزاس - اللورين ، متغافلة حقيقة عدم ايلولة هذا المجهود لغير انقاذ الكبرياء الفرنسي مع بقاء الواقع الستراتيجي الجوهري كما هو . فهي لم تعد بحد ذاتها قوية لاحتواء المانيا ، وعليه أمست بحاجة دائمة الى الارتباط بحلفاء للدفاع عن نفسها . وجعلت في الوقت

عينه من نفسها حليفا مهيئاً لأي عدو لألمانيا فقلصت بذلك مرونة الدبلوماسية الالمانية وسخنت وطيس أي أزمة تتعلق بألمانيا .

أما الشقاق الأوروبي الثاني بين امبراطورية النمسا - المجر والامبراطورية الروسية فقد نجم أيضاً عن الوحدة الألمانية . اذ طلب بسمارك لما تبوأ منصب رئيس الوزراء سنة ١٨٦٢ من السفير النمساوي ابلاغ امبراطوره باقتراح كان غريباً هو أن تنقل النمسا ، وهي عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة ، مركزها من فيينا الى بودابست . لقد ظن السفير في هذه الفكرة استحالة عزاها ولما أعد تقريره الى فيينا الى ارهاق عصبي أصاب بسمارك . ومع ذلك لم يكن أمام النمسا التي اندحرت في صراع التفوق في المانيا غير العمل وفق اقتراح بسمارك . فغدت بودابست شريكاً مساوياً وأحيانا مسيطراً في المملكة الثنائية الجديدة .

لم يبق أمام الامبراطورية النمساوية - المجرية الجديدة بعد انفصالها عن المانيا من مكان تتوسع فيه غير البلقان . فهي اذ لم تشارك في حملات الاستعمار فيما وراء البحار ، تطلع قادتها الى البلقان بما يضمه من سلافيين بمثابة الساحة الطبيعية للطموحات الجيوسياسية - اذا ما أرادوا السير خطى بخطى مع القوى العظمى . فكان مخاض اضطلاعها بهذه السياسة الخلاف مع روسيا .

كان مفروضاً أن يحذر الشعور العام قادة النمسا ضد اثارة الروح القومية للبلقان وضد اعتبار روسيا عدواً دائماً ، غير أن ذلك الشعور لم يكن واسعاً ادراكه في فيينا ، وأقل وجوداً في بودابست . وما حصل هو استفحال الروح القومية ، فواصل مجلس الوزراء في النمسا نهجه الكسول في الداخل وتصارعه

نوبات الهستيريا في سياسته الخارجية ، سائرة به الى سبيل العزلة المتزايدة منذ عهد مترنيخ .

لم يكن لألمانيا أية مصالح قومية في البلقان ، غير أنها وجدت مصلحة كبرى في الحفاظ على امبراطورية النمسا - المجر . فانهيار المملكة الثنائية له أن يخاطر بافساد كامل سياسة بسمارك ، اذ كان سيسعى الكاثوليكيون الناطقون بالألمانية الى الانضمام الى المانيا معرضين بذلك للخطر هيمنة الجماعة البروتستانتية البروسية التي جاهد بسمارك من أجلها بعناد شديد . ثم ان تفكك الامبراطورية النمساوية سيحرم المانيا من اي حليف يمكن الاعتماد عليه . ومن الناحية الأخرى لم تساور بسمارك رغبة بتحدي روسيا برغم نزعته الى المحافظة على النمسا . لقد كان أحجية ربما استطاع احتجابه لعدة عقود ، بيد أنه ما استطاع حله قط .

ومما زاد الطين بلة أن الامبراطورية العثمانية كانت في طور تفكك بطيء مثيرة صدامات متواصلة بين القوى الكبرى حول اقتسام الأسلاب . لقد قال بسمارك مرة أن جماعة اذا وجدت من خمسة لاعبين ، فالخير أن تقف في جانب الثلاثة . بيد أن المانيا احتاجت من بين القوى الكبرى الخمس التي ضمت معها انكلترا وفرنسا وروسيا والنمسا تحالفاً من روسيا والنمسا لتكون المجموعة الثلاثية بعد أن تميزت فرنسا بعدائيها وعاشت بريطانيا " عزلتها الرائعة " وسلكت روسيا سياسة متضاربة جراء صراعها مع النمسا . انه السياسي الذي امتلك قوة ارادة بسمارك ومهارته ولا أحد سواه بقادر أن يتصور هكذا قانون توازن ضعيف الرسوخ . وهكذا أضحت العلاقة الألمانية - الروسية بوابة السلام في أوروبا . ما كادت روسيا تلج الحلبة الدولية حتى حجزت لها موقعاً دائماً بسرعة مذهلة .

ما كادت روسيا تثب من أطراف موسكو نحو وسط أوروبا ، وشواطيء المحيط الهادي ، و الى أواسط آسيا ، حتى استحال بحثها عن الأمن الى توسع لأجل التوسع . وهنا وصف قلم المؤرخ الروسي (فاسيلي كليوشفسكي) الحال : " .... لقد باتت تلك الحروب التي أشعلت فتيلها أصلاً أسباب دفاعية ، حروباً عدوانية استحوذت على قلوب ساسة موسكو بلاهوادة - أنها نهج متواصل لسياسة التوحيد التي انتهجتها السلالة الحاكمة القديمة (قبل أسرة رومانوف) ، أنه الصراع لضم الأقاليم الروسية التي لم تمت بأدنى صلة للدولة الموسكوفية " .

لقد غدت روسيا تهديداً متنامياً لميزان القوى في أوروبا بذات مقدار تهديدها لسيادة جيرانها المتاخمين لحدودها مترامية الأطراف . فقد دفعت حدودها لمسافات أبعد من عينيها غير آبهة بالمساحات الشاسعة التي مدت سلطانها اليها ، وهو فعل بدأ أساساً باعتباره تدبيراً دفاعياً شرع فيه الأمير (بوتمكين) - المشهور بانشاء قرى وهمية على طول ممرات " زارينا " - الى الاستيلاء على الكريميا من أيدي السلطة التركية عام ١٧٧٦ على أساس معقول هو تحسين قدرة روسيا على الدفاع عن مملكتها . ومهما يكن من امر ، بات الأمن مع بداية عام ١٨٦٤ مرادفاً للتوسع المتواصل . وفي هذا عرف المستشار (الكسندر غورشاكوف) توسع روسيا في أواسط آسيا في اطار الالتزام الدائم لاسباغ الأمان على حدودها التي اندفعت الى الخارج بفعل زخم مطلق :

[لعل حالة روسيا في أواسط آسيا تضارع حالة جميع الدول المتحضرة التي اختلطت بالقبائل البدوية شبه المتوحشة المفتقرة الى أي تنظيم اجتماعي وطيد الأركان . وازاء ذلك ، تقتضي مصالح أمن الحدود والعلاقات التجارية

أن تتمتع الدولة الأكثر تحضراً بسلطة معينة على جيرانها ... وعليه يتحتم على الدولة أن تختار خيارها : فاما أن تتخلى عن مجهودها الدائب وتترك حدودها درئية للقلاقل المتواصلة ... أو أن تتقدم أكثر صوب قلب تلك الأراضي .. حيث تكمن الصعوبة القصوى في القدرة على التوقف عن التقدم] .

ما أكثر ما جالت هذه المقولة في أذهان المؤرخين يوم غزا الاتحاد السوفيتي أفغانستان عام ١٩٧٩ . ومن عجب أن يدعونا الحق الى الاشارة الى مساهمة الجهود والبطولة الروسية العظيمة في حفظ توازن القوى الأوروبي في المائتي عام المنصرمة . فلولا روسيا لكان أقرب الى اليقين أن ينجح نابليون وهتلر في بناء امبراطوريات كونية . ولعلها ماثلت (يانس)* حين أصبحت تهديداً لميزان القوى وفي عين الوقت أحد أركانه الأساسية ، لكنها ليست جزءاً كاملاً فيه . فروسيا في جل تاريخها لم تتقبل الا الحدود التي فرضها عليها العالم الخارجي وبمضض . ومع هذا شهدت فترات سيما في الأربعين عاما التالية للحروب النابليونية ، لم تستفد فيها من قوتها الفتاكة ، بل نذرتها لحماية القيم المحافظة في أوروبا الوسطى والغربية .

لقد اتسمت مواقف روسيا حتى حين استجابت للشرعية بالسمة المرسالاتية ، ولذا فهي استعمارية – أكثر من مواقف البلاطات المحافظة الأخرى . فيوم عرف المحافظون الأوروبيون الغربيون أنفسهم في ضوء فلسفات ضبط النفس ، عد القادة الروس أنفسهم ضمن لائحة جنود الحملات الصليبية . ولم

---

* يانس Janus : أحد الهة روما الأقدمين . كان حارس الأبواب ومشرف على مداخلها ومخارجها . وعليه تمثل بوجهين كما كان هيكله في روما مفتوحاً زمن الحرب مغلقاً زمن السلم .

يفهم قياصرتها بالنظر لتحررهم من أي تحد لشرعيتهم الا القليل عن الحركات الثورية سوى انها غير أخلاقية . وتسنى لهم أيضا أن يتسربلوا بلباس الشرعية لمد نفوذهم أكثر بعد أن نذروا أنفسهم لوحدة القيم المحافظة - حتى عهد حرب الكريميا في أقل تقدير - وهيأوا أنفسهم أيضاً لمد نفوذهم واهبين (نيقولا الأول) لقب " جندرمة أوروبا " . فكتب (فريدريك فون جنتز) عن الكسندر الأول ولما كان الحلف المقدس في أقوى حالاته :

[ان الامبراطور الكسندر ، برغم كل الحماس والتعصب اللذين أبداهما دوماً للحلف الأكبر ، السيد الذي بوسعه شق طريقه بيسر بمنأى عن ذلك الحلف ... فالحلف له مجرد وسيلة في الشؤون العامة يمارس بها نفوذه الذي هو أحد سمات طموحاته ... أما مصلحته في الحفاظ على النظام فهي ليست مثلما يصح القول على النمسا ، وبروسيا وانكلترا ، مصلحة قائمة على الضرورة أو الخوف ، بل هي مصلحة حرة ومحسوبة ، لا يتردد لو غدا قادراً أن يتنكر لكل شيء فيها فور ظهور نظام آخر يعرض عليه مغانم أدسم] .

اعتقد الروس كشأن الأمريكان باستثنائية مجتمعهم . ففي خضم مواجهة مجتمعات بدوية أو اقطاعية فقط ، خلع التوسع الروسي نحو أواسط آسيا على نفسه سمات التوسع الأمريكي غرباً ، كما ماثل التبرير الروسي لو اقتبسنا عبارة غورشاكوف - الطريقة التي أفصح فيها الأمريكان عن " قدرهم الجلي " . غير أن روسيا كلما اقتربت من الهند ، تعاظمت شكوك بريطانيا حيالها ريثما قدم منتصف القرن التاسع عشر ليغدو التوسع الروسي في أواسط آسيا مشكلة من مشاكل السياسة الخارجية .

وتتمثل احدى السمات القليلة المشتركة بين التفرد الأمريكي والروسي في انفتاح حدودهما . اذ قام شعور أمريكا بالاستثنائية على مفهوم الحرية ، فيما نبع المفهوم الروسي من تجربة المعاناة الجماعية . وفي أمريكا حق لأي كان أن يقاسمها الايمان بقيمها ، فيما عاشت القيم الروسية الأمة الروسية لا سواها وكان جميع غير العناصر الروسية استثناءً . واذ أودى التفرد الأمريكي الى العزلة المشوبة ببعض الحملات الأخلاقية ، فقد أثار تفرد روسيا ايمانا بتقمصها ((مهمة)) قادتها على الغالب الى خوض مغامرات عسكرية .

هنا يقول القومي الروسي (ميخائيل كاتكوف) في وصفه الفرق بين القيم الغربية والروسية :

[العلاقات التعاقدية قطب الرحى لكل شيء هناك ، أما هنا فيقوم كل شيء على الايمان ، وما خلق هذا التناقض أصلا هو الموقع الذي تبوأته الكنيسة في الغرب وفي الشرق ، فتواجدت هناك السلطة الأساسية الثنائية ، وبرزت هنا السلطة الانفرادية] .

ومن زاوية ثانية عزا الكتاب والمفكرون القوميون الروس والسلافيون تمييز هذه الغيرية المزعومة للأمة الروسية الى ايمانها الأرثوذكسي . وشرحها الروائي القومي الكبير (فيودور دوستويفسكي) في اطار التزام يفرض تحرير الشعوب السلافية من نير الحكم الأجنبي ، حتى ان دعت الضرورة الى تحدي مقاومة أوروبا الغربية بأسرها ، فكتب أثناء الحملة الروسية في البلقان عام ١٨٧٧ :

[سلو الشعب سلوا الجند ، لم انتفضوا ؟ لم هم للحرب سائرون وماذا من سوح وغاها ينشدون ؟ بصوت واحد سيجيبون – هم لخدمة المسيح ذاهبون وللمضطهدين من اخوتهم محررون .. وسنرقب تكاتفهم ونصون حريتهم واستقلالهم ، حتى لو وقفنا بوجه أوروبا قاطبة] .

لم تر روسيا في نفسها ، بخلاف دول أوروبا الغربية التي تراوحت نظرة روسيا اليها بين الاعجاب والاحتقار والحسد ، أمة ، بل هي قضية أبعد من المعايير الجيوسياسية ، خلقها الايمان ، ووحدها السلاح . ولم يقصر دوستويفسكي دور روسيا على تحرير السلافيين ، بل مراقبة انصهارهم في بودقة واحدة – وهو مفهوم اجتماعي سرعان ما تحول الى الهيمنة . فكانت روسيا (روما الثالثة) بنظر كاتكوف :

[لئن القيصر الروسي أكبر من كونه حفيد اسلافه ، فهو وريث قياصرة روما الشرقية ، ووريث الكنيسة ومجالسها التي أرست عقيدة الايمان المسيحي نفسها] .

وبعد الثورة ، تحول الشعور العاطفي بتقمص دور الرسالة الى ((الشيوعية العالمية)) . من هنا نجد أن التناقض الذي ارتسم على سفر تاريخ روسيا تمثل في التضارب المستمر بين الاندفاع ((الرسالي)) والشعور المرير بانعدام الأمان . فقد أثار هذا التضارب في ذروته خوفاً من انفجار الامبراطورية داخلياً ما لم تتوسع خارجياً . وعليه لما جعلت روسيا من نفسها المهماز الرئيسي في عملية تقسيم بولندا ، فانما فعلت ذلك جزئيا لأسباب ارتبطت بأمنها وجزئياً لتتماشى مع

أسلوب الاحتواء في القرن الثامن عشر . وبعد انسلاخ قـرن اكتسـب ذلـك الغـزو أهمية بحد ذاته . ففي عام ١٨٦٩ كتب (روتسيلاف اندريفيش فـاديـيف) وهـو ضابط مؤيد للسلافيين ، في مقال مؤثر موسوم بـ " رأي في المسألة الشرقية " ، أن على روسيا أن مواصلة السير نحو الغرب لحماية فتوحاتها وأضاف

[كان التحـرك التـاريخي الروسـي مـن الدنيبـر الى الفسـتولا (تقسـيم بولندا) اعلان حرب على أوروبا ، تلك الحرب التي قطعـت مـن أوروبـا جزءاً ليس لها صلة به . فوقفت روسيا الآن في وسـط خطـوط العـدو – وليـس هـذا الحال بدائـم : فعليهـــا أن تدفـــع العـــدو بعيـــداً عنهـا ، أو أن تتخلـى عـن موقعهـا ... أو ان تمـد نفوذهـا السـابق الى الادرياتيكـي أو تتقهقـر ثانيـة وراء الدنيبر] .

اني لا أرى كبير فرق بين تحليل فادييف وتحليـل (جـورج كينـان) الـذي أجراه في الجانب الآخر من خط التقسيم ، عندما أعـد مقالـه الفصلـي عـن جـذور التصرفات السـوفيتية . والـذي تكهـن فيـه أن الاتحـاد السـوفيتي سينفجر وينهـار داخلياً بمجرد أن يفشل في نشاطاته التوسعية .

لم تلق نظرة روسيا في التباهي بنفسها هوى مماثلا في قلب العـالم الخـارجي الا قليلا . فهي لم تطفق برغم انجازاتها الرائعة في الأدب والموسـيقى بـؤرة جـذب ثقافي لشعوب المناطق المفتوحة ، مقارنة مع البلـدان الأم لعـدد مـن الامبراطوريـات الاستعماريـــة . ولم تـرق الامبراطوريـة الروسـية الى مستوى (نمـوذج) يحتـذى سواء في عيون مجتمعات أخرى أم في عيون أعراقها الداخلية . وهي لم يرها العالم

الخارجي قوة جبارة - يكتنفها الغموض ، وتجسد حضوراً توسعياً يتوجب الخوف منه واحتواؤه ، أما بالتعاون أو المواجهة .

لقد حاول مترنيخ السير في طريق التعاون وقد نجح في ذلك لفترة جيل واحد . بيد أن القضايا الأيديولوجية الكبرى للنصف الأول من القرن التاسع عشر فقدت قوتها التوحيدية بعد توحيد المانيا وايطاليا . فلم تعد (القومية) و (الجمهورية الثورية) تشكل تهديدا للنظام الأوروبي بعد ان غدت القومية هي المبدأ التنظيمي المهيمن ومعها تضاءلت حاجة أبجية روسيا وبروسيا والنمسا مجتمعة الى التعاضد سوية في اطار دفاع مشترك عن الشرعية .

آنس مترنيخ في نفسه المقدرة على ارساء أسس ما يشبه (حكومة أوروبية) سيما وقد ظن حكام أوروبا في وحدتهم الأيديولوجية متراسا منيعا بوجه الثورة . غير أن سبعينيات القرن التاسع عشر شهدت تعاظم الخوف من الثورة أو أن الحكومات المختلفة آمنت بقدرتها على هزيمة الثورة دونما معونة خارجية . واذ مرت فترة جيلين لحد الآن على اعدام لويس السادس عشر ، هيمنت الثورات الليبرالية لعام ١٨٤٨ ، فاذا بفرنسا برغم جمهوريتها قد فتر فيها حماس الهداية . وليس هناك اليوم من قيد أيديولوجي يكبل الصراع حامي الوطيس دوماً بين روسيا والنمسا حول البلقان ، أو بين المانيا وفرنسا حول الألزاس - اللورين . واذا ما تطلعت القوى العظمى الواحدة للأخرى ، أضحت ى تجد في من ترى شريكة لها في قضية مشتركة ، بل خصماً خطراً وحتى أبدياً . وبذا علت المواجهة لتغدو الأسلوب الدبلوماسي القياسي .

أتى حين من الدهر عملت فيه بريطانيا العظمى على كبح جماح القوى الأخرى لما تولت دور (أداة) التوازن الأوروبي . وحتى الآن ما برحت بريطانيا العظمى الوحيدة من بين جميع البلدان الأوروبية الكبرى في وضع يتيح لها القيام بدبلوماسية تزمع تحقيق توازن في القوى من غير ان تتأثر بالعداءات أو الأحقاد تجاه أية قوة أخرى . غير أن الحيرة انتابتها عند تقييمها وجسها خطورة التهديد المركزي ، واذن لن تستعيد قدرتها على ذلك لعقود عدد .

لقد تبدل جذرياً ميزان قوى مؤتمر فيينا الذي اعتادت عليه بريطانيا العظمى . اذ انطلقت المانيا الموحدة تستجمع قواها للسيطرة بمفردها على أسر أوروبا -وهو الأمر الذي دوما ما قاومته بريطانيا العظمى في السابق . ومع هذا لم ير جل زعماء بريطانيا - ما خلا دزرائيلي - سبباً لمقاومة تعاضد قومي في أوروبا الوسطى صفق له ساسة بريطانيا عقوداً عدة ، لا سيما حين جاء أوج هذا التعاضد نتيجة لحرب كانت فرنسا فيها هي المعتدي من الناحية الفنية .

ساعدت سياسة بريطانيا العظمى في العزلة الرائعة منذ أن فصل (كاننغ) بريطانيا عن نظام مترنيخ قبل أربعين عاماً ، في لعب دور حامي التوازن بعد أن خلت الساحة من بلد بوسعه الامساك بزمام القارة بمفرده . فان تمتعت المانيا بعد توحيدها بتلك القابلية فهي انما بلغت ذلك بفضل تنمية اقليمها القومي لا عبر الفتوحات ، لكنها الطريقة البريطانية التي تنطوي على التدخل فقط حين يتعرض ميزان القوى لهجوم فعلي ، وليس التدخل استناداً الى احتمالية حصول ذلك الهجوم . اقتضى الأمر عقوداً من الزمن لتظهر معالم التهديد الألماني الأوروبي ، فقد تركز اهتمام بريطانيا العظمى فيما تبقى من القرن على فرنسا التي اصطدمت

أطماعها الاستعمارية بأطماع بريطانيا العظمى وخاصة في مصر ، بالاندفاع الروسي نحو المضائق ، وفارس والهند ومن ثم نحو الصين . وما كل تلك الا قضايا تعلقت بالمستعمرات . وفيما يتعلق بالدبلوماسية الأوروبية التي صنعت أزمات القرن العشرين وحروبه ، واصلت بريطانيا العظمى ممارسة سياستها القائمة على العزلة الرائعة .

لقد تربع بسمارك ، لذلك ، على عرش الدبلوماسية الأوروبية حتى أقصي من منصبه سنة ١٨٩٠ ، هو قد نشد السلام للامبراطورية الألمانية حديثة النشأة ، وسعى لتحاشي مواجهة أية دولة أخرى . لكنه التقى مهمة عسيرة التحقيق وعرة المسالك . في غياب الالتزام الأخلاقي بين دول أوروبا ، الأمر الذي اضطره الى الابقاء على روسيا والنمسا خارج معسكر عدوته فرنسا أن رد التحديات النمساوية لأهداف روسيا المشروعة ومحاولته الحيلولة دون اضعاف روسيا لشأن الامبراطورية النمساوية - المجرية . وهو قد احتاج الى علاقات قوية مع روسيا دونما اثارة حفيظة بريطانيا التي كانت ترقب بعين فاحصة مخططات روسيا في القسطنطينية والهند . لكن فذا عبقرياً مثل بسمارك كان سيعجز عن موازنة هكذا ميزان شديد القلق أبد الدهر ، فالضغوطات المتنامية على النظام الدولي أضحت أصعب من توجيهها يوماً بعد آخر . ومع ذلك نهج بسمارك في العشرين سنة تقريبا من حكمه المانيا السياسة الواقعية التي وعظ بها باعتدال وأناة لم يختل معها ميزان القوى بتاتا .

كانت غاية بسمارك ألا يعطي أية قوة أخرى - عدا فرنسا اللدودة - مبرراً للانخراط في حلف ضد المانيا . وسعى بعد أن تنبأ " اكتفاء " المانيا الموحدة

وانتفاء حاجتها لمزيد من أطماعها الاقليمية الى طمأنة روسيا بغياب المصالح الألمانية في البلقان لقوله في البلقان لا تستحق التضحية بعظم مقاتل (بومراني) . وتحاشى واضعاً بريطانيا العظمى في حساباته القيام بأي تحد في القارة من شأنه اثارة مخاوف بريطانيا حيال التوازن الأوروبي ومبقياً بذلك على المانيا خارج حلبة السباق الاستعماري . لقد أجاب على مسألة انغماس المانيا في حلقة الاستعمار : " هنا روسيا وهناك فرنسا ، ونحن هنا بينهما ، فتلك خريطتي لأفريقيا " – وتلك كانت نصيحة اضطرته ضرورات السياسة الداخلية بعدئذ الى تعديلها .

ما كانت طمأنة القوى الخارجية بأمر كاف على أية حال . فالشيء الذي اعتورت المانيا حاجة اليه هو عقد حلف مع كل من روسيا والنمسا وان بدا غير ممكن للوهلة الأولى . ومع ذلك صنع بسمارك ذلك الحلف عام ١٨٧٣ وهو ما أطلق عليه (عصبة الأباطرة الثلاثة) ، حتى لاح الحلف بعد اعلان وحدة البلاطات المحافظة الثلاثة صفقة ضخمة من طراز حلف مترنيخ المقدس . فهل اعترى بسمارك ولع مفاجيء بنظام مترنيخ الذي بذل الغالي والنفيس لتقويضه ؟ لقد تغيرت الأزمان بشدة نتيجة لانتصارات بسمارك . فعلى الرغم من تعاهد المانيا وروسيا والنمسا وفق أسلوب مترنيخي صادق على التعاون في قمع النزعات التخريبية داخل هذه الدول ، لم يعد المقت المشترك للراديكاليين السياسيين يشد البلاطات الأوروبية الشرقية واحداً للآخر – والسبب الرئيسي يعود الى وثوقها بامكانيتها على سحق الاضطرابات الداخلية – دونما حاجة الى مساعدة خارجية .

وفوق هذا ، خسر بسمارك أوراقه القوية المناصرة للسلطة الشرعية . فقد علم القاصي والداني بمواقفه الخفية برغم عدم نشر مراسلاته مع جرلاش . وهو اذ

كان مؤيداً للسياسة الواقعية طيلة حياته العامة ، قد أخفق في أن يجعل من نفسه مكرسة للشرعية أمراً معقولاً بين عشية وضحاها . فقد سممت الخصومة الجيوسياسية المتزايدة المرارة بين روسيا والنمسا على وحدة الممالك المحافظة ، وكلاهما تطلعت متلهفة الى الاسلاب البلقانية المتبقية من الامبراطورية التركية المنهارة . كما حضت النزعة التوسعية السلافية عتيقة الطراز على سياسة روسية مغامرة في البلقان ، وتمخض الخوف المجرد عن مواقف مماثلة في صفوف الامبراطورية النمساوية - المجرية . فان كان الامبراطور الألماني مرتبطاً بحلف على الورق مع المملكتين المحافظتين في روسيا والنمسا ، ظهرت هاتان الامبراطويتان شديدتا الخصومة ومريرتا العداء احداهما للأخرى . وهنا شيء أن يظل بسمارك وبسبب عبء التعامل مع شريكين رآى كل منهما الآخر تهديداً أبدياً قائض المضجع ولنظامه التحالفي أن يتمزق لما تبقى من أيام حكمه .

لقد استقى بسمارك درسا من (عصبة الأباطرة الثلاثة) الأولى أنه لم يعد بقادر على السيطرة على القوى التي نزع فتيلها بالرضوخ الى مباديء روسيا والنمسا الداخلية . ولذا كان عليه الاحتيال لأمرها عن طريق التأكيد على القوة والمصلحة الشخصية .

بزغ حادثان أشار كلاهما الى صيرورة السياسة الواقعية الاتجاه البارز لهذه الحقبة . جاء الأول عام ١٨٧٥ متلبسا مظهر (شبه أزمة) وكان ترويعاً بالحرب ناجحاً أثاره مقال افتتاحي في صحيفة المانية رائدة حمل عنوان " هل الحرب وشيكة ؟ " وقد أعد رداً على زيادة الانفاق العسكري الفرنسي وشراء أعداد كبيرة من الخيول للمدفعية الفرنسية . والاحتمال شديد أن بسمارك وراء هذا

الترويع بالحرب مجرد من الرغبة بالذهاب أبعد من ذلك ، لأسباب منها غياب التعبئة الجزئية في المانيا أو تحركات قوات تحمل تهديداً .

يبدو أن الجسارة في التصدي لتهديد غير موجود أسلوب سهل لتعزيز مكانة البلد ، اذ خلقت الدبلوماسية الفرنسية الذكية انطباعاً عن تخطيط المانيا لهجوم استباقي حين حبكت وزارة الخارجية الفرنسية قصة تفيد أن القيصر الروسي أشار في محادثه له مع السفير الفرنسي أنه سيدعم فرنسا لو نشب اشتباك فرنسي - الماني . هنا دبت الشكوك في قلب بريطانيا الحساسة أصلاً من أي تهديد ينجم عن ارتقاء بلد واحد يفرض هيمنته على القارة . وعليه املى رئيس الوزراء دزرائيلي على وزير خارجيته (اللورد ديربي) ابلاغ المستشار الروسي غورشاكوف فكرة اضافة برلين :

[يفرض الانطباع لدي أن نقوم بتحركات منسقة للحفاظ على سلم أوروبا مثلما فعل بالمرستون يوم قارع فرنسا وطرد المصريين من روسيا . ولربما عقدنا ائتلافاً مع روسيا ، وقد تستدعى قوى أخرى كالنمسا أو حتى ايطاليا للانضمام اليه .....] .

ينم هذا القول عن ايماءة دزرائيلي الشديد التخوف من أطماع الامبراطورية الروسية بعقد ائتلاف انكلو-روسي ، وهو ما ينطوي على جديته في التعامل مع أفق بروز هيمنة المانية على أوروبا الغربية . غير أن الترويع بالحرب تلاشى مثلما انتشر بسرعة ، وعندئذ انضم مشروع درزائيلي . أما بسمارك فقد كان حاذقاً في عدم اثارة ريبة بريطانيا الهاجعة بالرغم من جهله بتفاصيل مناورة دزرائيلي .

تجلى أن هذه الأزمة كما صرح جورج كينان أقل بكثير من الضجة التي أثيرت حولها . فلم تعتبر بسمارك الرغبة بشن الحرب عاجلاً بعد اذلال فرنسا ، برغم أنه ترك فرنسا غير معترض تتوقع قيامه بذلك لو اضطره الحال لذلك . ولم يكن القيصر الكسندر الثاني في أمر لضمان أمن فرنسا الجمهورية ، حتى وان أومأ لبسمارك وجود هكذا خيار . واذن خضع درزائيلي آنذاك لايحاءات شيء وهمي . ومن هنا أدرك بسمارك في ضوء ما رآه من القلق البريطاني والمناورات الفرنسية والغموض الروسي ، ان السياسة الفعالة وحدها القادرة على احباط عملية تشكيل حلف سيفضي بعد جيل واحد الى (الحلف الثلاثي) الموجه ضد المانيا .

فيما كانت الواقعية سمة الأزمة الثانية ، واتخذت لبوس أزمة بلقانية أخرى كشفت أيضاً عجز الضوابط الفلسفية والأيديولوجية عن لم شمل عصبة الأباطرة الثلاثة بوجه التضارب الداخلي للمصالح القومية . وستتناول السطور التالية هذه الأزمة بشيء من التفصيل لأنها عرت الصراع الذي أفضى في الخاتمة الى تقويض أركان نظام بسمارك الأوروبي وأغرق أوروبا في جحيم الحرب العالمية الأولى .

اذ تصدرت المسألة الشرقية الهاجعة منذ حرب الكريميا ، جدول الأعمال الدولي مرة أخرى في سلسلة من الملابسات بالغة التعقيد . أمسى ممكناً فيها أن يثير مجرد حادث عرضي أزمة ، فتلك روسيا تسلط تهديداً والى حيث تبعث بريطانيا العظمى بالبحرية الملكية . وآنذاك ستحتل روسيا جزءاً من البلقان العثماني بمثابة رهينة ، وعندئذ تهدد بريطانيا بشن حرب ، وستبدأ المفاوضات وستخفف فيها روسيا مطالبها ، وفي أية نقطة حساسة يمكن أن ينفجر الموقف برمته .

ففي عام ١٨٧٦ ، انتفض البلغاريون الرازحون تحت سطوة الحكم التركي عدة قرون ، ثم انضمت اليهم شعوب بلقانية أخرى . وهنا عالجت تركيا المشكلة بقسوة وحشية ، فيما هددت روسيا التي هيمنت عليها العواطف السلافية بالتدخل .

جسدت هذه الاستجابة الروسية أمام انظار لندن مشهد السيطرة الروسية المعتاد الى المضائق . لقد استلهم ساسة بريطانيا منذ عهد (كاننغ) مبدأ أن نجاح روسيا في السيطرة على السيطرة على المضائق يعني هيمنتها على حوض البحر المتوسط الشرقي والشرق الأدنى ، وبذلك ستهدد موقع بريطانيا في مصر . واستناداً للحكمة البريطانية التقليدية ، ينبغي المحافظة على الامبراطورية العثمانية برغم ضعفها لا انسانيتها حتى وأن تطلب ، الأمر المخاطرة بحرب مع روسيا .

لقد اكتمل طوق الورطة التي وجد بسمارك نفسه فيها ، فقد أمسى ممكناً أن يحدو أي توغل روسي له أن يثير رد الفعل العسكري البريطاني ، بالنمسا الى ولوج ساحة الاشتباك . وان وجدت المانيا نفسها أمام بد للاختيار بين النمسا وروسيا فلسوف تتحطم سياسة بسمارك الخارجية مع عصبة الأباطرة الثلاثة . وأنّى كان الذي حدث ، واجه بسمارك خطر معاداة النمسا أو روسيا ، ومعها الاحتمالية القائمة أن يجلب على نفسه حنق جميع الأطراف لو اتخذ موقفا محايداً ، فأدلى أمام الرايشستاغ عام ١٨٧٨ بقوله : " كان دأبنا ازاء الانشقاق في الآراء بين النمسا وروسيا أن نتحاشى تشكيل غالبية من طرفين ضد طرف واحد بالوقوف بجانب أحد الطرفين ..... " .

وما هذا الاعتدال الا أسلوب بسمارك التقليدي برغم أنـه كشـف النقـاب عن تفاقم معضلة بعد أن انحلت الأزمة . كان على بسمارك أولاً أن يسعى لتقويـة روابط عصبة الأباطرة الثلاثة عن طريق تطوير موقع مشترك . لقد صادف الأباطرة الثلاثة عام ١٨٧٦ على ما سمي (مذكرة برلين) التي حذرت تركيا من الاستمرار باضطهاد البلقانيين . وكان جلياً أنها أوحت بواسطة نصوص فيها احتمال تدخـل روسيا في البلقان نيابة عن أوروبا ، وهو مـا يشبه لحـد كبـير مـا قررتـه مؤتمـرات مترنيخ في فيرونا ، ولايباخ ، وتروبو التي خصصت قوة أوروبية لتنفيذ قراراتها .

بيد أن هناك فرقاً شاسعاً بين تبني تصرف معـين آنـذاك ، وتنفيـذه اليـوم . ففي عهد مترنيخ كان (كاستلريغ) ، وزير خارجية بريطانيا ، ميال للتدخل باسم الحلف المقدس حتى ان رفضت بريطانيا العظمى المشاركة فيه . أمـا الآن فـأضحى دزرائيلي رئيسـاً للـوزراء ، وفسـر مذكـرة برلـين بأنهـا الخطـوة الأولى نحـو تعريـة الامبراطوريـة العثمانيـة لابعـاد بريطانيـا العظمـى . وهـذا مـا يشـبه كثـيراً الهيمنـة الأوروبية التي قاومتها بريطانيا العظمى قروناً عدداً . فجأر دزرائيلي بالشكوى الى (شوفالوف) - السفير الروسي في لندن : " عوملت انكلترا كأنهـا (مونتنغـرو) أو البوسنة " ، كما كتب يقول لمراسلته الليدي برادفورد :

[ليس ثمة توازن وان لم ننطلق في طريقنـا للعمـل مـع القـوى الشـمالية الثلاث ، فستعمل من غيرنا وذلك ما لا يتلاءم ودولة مثل انكلترا] .

واذا ما أخذنا الوحدة الـتي ستجسـدها سـانت بطرسـبرغ وبرلـين وفيينـا ، سيكون الأمر جد عصي على بريطانيا العظمـى أن تقـاوم مـا تتوصـل اليـــه تلـك

القوى . فبدا أن دزرائيلي لم ير مناصاً سوى الانضمـام للبلاطـات الشـمالية بينمـا اجتاحت روسيا تركيا .

وعلى أية حال ، ارتأى دزرائيلي وفقا للتقليـد (البالمرسـتوني) استعراض العضلة البريطانية . فحرك البحرية الملكية الى شرقي المتوسط واجاش عواطفـه مـع الأتـراك - ضامنـاً برهنـة الأتـراك عنـاديتهم وسـاعياً أنـىّ كـان سـبيله الى اخـراج الخلافات الكامنة لدى عصبة الأباطرة الثلاثة الى الملأ . بل أعلن للملكـة فكتوريـا بأسلوب لا سابق له في التواضع الجم انه قوض أركان عصبة الأبـاطرة الثلاثـة فقـد ظن أن " العصبة ميتة اخر المطاف كما مات الثالوث الروماني " .

كان دزرائيلي احد أقوى وأكثر الشخصيات تفرداً وغرابة من الـتي تبـوأت السلطـــة البريطانية . فقد هلـل مبتهجـاً سـاعة خبرتسـميته رئيسـاً للـوزراء عـام ١٨٦٨ " مرحى ! مرحى ! ها قد تربعت على قمة القطـب المنزلق ! " . وعلـى عكس قوله هـذا ، كتـب دزرائيلـي حـين دعـي خصمـه اللـدود (وليـام ايـوارت غلادستون) الى خلافتـه السـنة نفسـها ، وصفـاً مسـهباً لانعكاسـات مسـؤوليات السلطة وواجباته المقدسة تجاه الله التي تضمنت التضـرع لينعـم عليـه القـادر بـروح الجلد والتحمل للقيام بالمسؤوليات الجسام لمنصب رئيس الوزراء .

يتبين من سجايا الرجلين العظيمين اللذين أمسكا بمقادير السياسة البريطانيـة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، طبيعتاهما المتناقضتان : فكـان دزرائيلـي مخادعاً ، فطناً ومتقلب الأحوال ، فيما اتصـف غلادسـتون بكونـه متعلمـاً وورعـاً وقوراً وجلداً . وما هو بتناقض ضئيل الشأن أن ينجب الحزب المحـافظ الفكتـوري

الذي ضم كبار ملاكي الأراضي والأسر الأرستقراطية الانغليكانية هذا المغامر اليهودي اللامع ، وان يلد حزب المنضمين الأصليين الى واجهة المسرح العالمي هذا المنشق اللبابي . فقبله لم يرتق أي يهودي هذا الشأن في السياسة البريطانية ، وما كاد ينقضي قرن واحد حتى أتى المحافظون مرة أخرى وليس حزب العمل التقدمي الخجول بـ (بمارغريت تاتشر) الى سدة الحكم - تلك ابنة بائع الخضروات التي أثبتت أنها قائد مرموق آخر وهي أول أنثى بريطانية تصبح رئيسة للوزراء .

أما دزرائيلي فلم يكن بالسيرة الفذة . واذ غذت الرواية شبابه ، غدا عضواً في (جماعة الأدب) منه صانع سياسة ، وكان الأرجح لها انهاء حياته كاتباً مرموقاً لامعاً ومحاوراً محافظاً أكثر من صيرورته احدى الشخصيات السياسية الرشيمية البريطانية في القرن التاسع عشر . وآمن مثل بسمارك بتوسيع مدى التصويت الى الرجل العادي ، لظنه أن الطبقات المتوسطة في انكلترا ستصوت لصالح (المحافظين) .

لقد نادى دزرائيلي بصفته زعيماً محافظاً بنمط جديد من الاستعمار يختلف عن التوسع التجاري الأساسي الذي مارسته بريطانيا العظمى منذ القرن السابع عشر - والذي قيل فيه أنه شيد امبراطورية في نوبة جنون . فالامبراطورية كما يراها دزرائيلي ليست ضرورة اقتصادية بل هي ضرورة روحية وركناً أساسياً لعظمة بلاده ، حتى قال في هذا كلمته الشهيرة في (كريستال بالاس) عام ١٨٧٢ : " ليس الأمر هيناً ، انهما أمران . اما الاكتفاء بانكلترا سعيدة منصهرة يوماً بعد آخر في بودقة المبادىء القارية ومتهيئة لمصيرها المحتوم ، أو أن ترون أنفسكم في بلاد عظيمة - امبراطورية - بلاد يتشامخ أبناؤكم فيها يوم يكبرون ،

يوم يتسلقون المناصب العلى ، ويوم ينعمون لا باحترام أهليهم فحسب ، بل ومن يقطن المعمورة بأسرها ، بل ويحظون باحترام " .

كان أقرب الى اليقين أن يعارض دزرائيلي وقد سكنت عقله كهذه القناعات التهديد الروسي للامبراطورية العثمانية ، وما كان ليقبل باسم التوازن الأوروبي توصيات عصبة الأباطرة الثلاثة ، واذ بلغ الحديث الامبراطورية البريطانية ، فبأسرها سيقف العقبة الكأداء أمام روسيا بصفتها فارضة الأجماع الأوروبي على الطرق المؤدية الى القسطنطينية . لقد شاعت أبان القرن التاسع عشر فكرة صيرورة روسيا التهديد الرئيسي لموقع بريطانيا العظمى في العالم . اذ رأت بريطانيا أن مصالحها الخارجية وقعت تحت تهديد حركة كماشة روسية موجه أحد طرفيها الى القسطنطينية والآخر الى الهند عبر وسط آسيا ، ناهيك عن تطوير روسيا أساليب غزو باتت نمطية أثناء مسيرها التوسعي بوسط آسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وهنا دوماً ما كان كبش الفداء بعيداً عن مركز الشؤون العالمية لا يدرك الذي يجري في دهاليزه على نحو دقيق الاحفنة من رجالات الغرب . فآبوا الى الذي عليه جبلوا أن القيصر رجل الاحسان وهم أتباعه المولعون بالقتال فأحالوا البعد والارتباك الى أدوات بيد الدبلوماسية الروسية .

انها بريطانيا لا سواها من بين القوى الأوروبية التي أشغلت نفسها بوسط آسيا . لقد تولى المستشار الأمير (الكسندر غورشاكوف) بعد توغل التوسع الروسي أكثر الى الجنوب باتجاه الهند ، الرد على احتجاجات لندن غير عالم كعادته بالذي تفعله الجيوش الروسية . ورأى اللورد (أوغسطس لوفتوس)

سفيربريطانيا في سانت بطرسبرغ أن الضغط الروسي على الهند " لم يكن من بنات قرارات القيصر برغم حقيقته ملكاً مستبداً ، بل هو عاقبة الدور الطاغي الذي لعبته الادارة العسكرية . فالجيش الجرار اذا ما أريد له الحفاظ ، تطلب له واجباً .... وان طفق نظام الغزو ، كما في وسط آسيا ، لأفضى غزو اقليم ما الى جادة غزوآخر ، وعندئذ أضحت صعوبة الأمر محطة التوقف " .من جانب آخر ، لم يأبه مجلس الوزراء البريطاني كثيراً لأمر ان كان مرد التهديد الروسي للهند زخمها الاندفاعي أم نية الاستعمار المبيتة .

ومرة بعد أخرى يعاود ذات النموذج ظهوراً . فواترت القوات الروسية تتوغلها أعمق نحو قلب وسط آسيا عاماً بعد آخر . وما برحت بريطانيا العظمى تطلب الايضاح لتسمع شتى أنواع التأكيدات أن القيصر لا يرغب بضم متر مربع واحد من الأرض . كان لهذه الكلمات البلسم بادىء الأمر مفعولها التهديئي ، بيد أن تقدماً روسياً آخر سيميط اللثام عن حقيقة سابقة . فبعد أن احتل الجيش الروسي ، على سبيل الذكر ، سمرقند (المسماة اليوم أوزبكستان) في آيار ١٨٦٨ ، أخبر غورشاكوف السفير البريطاني السير (أندرو بوشانان) : " ان الحكومة الروسية ليست براغبة وحسب عن احتلال تلك المدينة ، بل هي شديدة الأسف لما حدث وأنه لعلى يقين أنها ستعاد لأهلها في خاتمة المطاف " . ومن نافلة القول ان ظلت سمرقند خاضعة للسيادة الروسية حتى انهيار الاتحاد السوفيتي بعد أكثر من قرن .

أعيدت ذات الكرة عام ١٨٧٢ على بعد بضعة مئات الأميال نحو الجنوب الشرقي حيال امارة (خيفا) على حدود أفغانستان اليوم ، وفيها أرسل القيصر

معاونه (الكونت شوفالوف) الى لندن وطمأنتها بغياب النية الروسية ضم اقليم اضافي في وسط آسيا : [ما الأمر مقتصر على استبعاد الامبراطور غاية الاستحواذ على خيفا ، بل أن الأوامر الصارمة صدرت لمنع ذلك ، ومعها التوجيهات بالا تؤدي الشروط المفروضة هناك بأية حال الى احتلال مطول لخيفا] .

ثم ندر القول بهذه التوكيدات حين بلغ الأسماع أن الجنرال الروسي (كوفمان) قد سحق خيفا وفرض عليها معاهدة كانت النقيض الدرامي لتأكيدات شوفالوف .

وفي عام ١٨٧٥ وجدت روسيا ذات الطريق في ابتلاع امارة (كوكاند) المتاخمة لحدود أفغانستان . وفي هذه المرة شعر المستشار غورشاكوف بحاجة الى تبرير الفجوة بين تأكيدات روسيا وأفعالها . فأبتدع تمييزاً لا سابق له بين التأكيدات أحادية الجانب (والتي لا تملك ، حسب رأيه ، قوة الزام) ، وبين التعهدات الثنائية الرسمية . وكتب : " يبدو أن مجلس الوزراء في لندن قد تأكد له من خلال آرائنا التي أخبرناهم بها ودياً وفورياً والمتعلقة بوسط آسيا ، سيما تصميمنا الجاد على عدم مواصلة سياسة الفتح أو الضم ، أننا قد ربطنا أنفسنا بتعهدات جلية تجاهه بخصوص هذه المسألة " : وبمعنى آخر أن روسيا قد أصرت على اطلاق يدها في وسط آسيا ورسم حدودها بنفسها ، وأنها لن تكبل ذاتها حتى بالتأكيدات التي تطلقها هي .

كان دزرائيلي أبعد من السماح لمثل هذه الأساليب أن يعاد ممارستها في محاولات الاقتراب الى القسطنطينية . وعليه منح الأتراك العثمانيين زخماً لرفض

مذكرة برلين ومواصلة النهب في البلقان . بيد أن دزرائيلي وقع تحت مطرقة الضغوط الداخلية القاسية برغم هذا الحزم البريطاني . فأسفرت وحشية الأتراك عن قلب الرأي العام البريطاني ضدهم ، وما فتأ غلادستون ضد لا أخلاقية سياسة دزرائيلي الخارجية . هنا أدرك دزرائيلي الى حتمية (بروتوكول لندن) عام ١٨٧٧ الذي انضم فيه الى البلاطات الشمالية الثلاثة في مناشدتها تركيا الكف عن مذابحها في البلقان واصلاح سياستها في المنطقة . فيما آمن السلطان من ناحيته أن دزرائيلي واقف في صفه مهما كان نوع المطالب الرسمية ، وهكذا رفض هذه الوثيقة . فكان رد روسيا اعلان الحرب .

بدت روسيا للوهلة الأولى كأنها ربحت اللعبة الدبلوماسية . ليس لمجرد أنها نالت تأييد البلاطين الشماليين ، بل وتأييد فرنسا أيضا ، ناهيك عن كسبها الرأي العام البريطاني . وهنا وجد دزرائيلي يديه مغلولتين ، فشن الحرب نيابة عن تركيا ربما قوض أركان حكومته .

غير أن القادة الروس تجاوزوا في خطاهم وحدهم كما هو ديدنهم في كثير من الأزمات السابقة . فقد وصلت القوات الروسية الى بوابات القسطنطينية يقودها الدبلوماسي اللامع والجنرال المتهور (نيقولا أغناتييف) . وحيال ذلك شرعت النمسا تعيد النظر بدعمها للحملة الروسية . وحرك دزرائيلي سفنه الحربية نحو الدردنيل . والى هنا هال اغناتييف أوروبا بأسرها ساعة أعلن بنود معاهدة (سان ستيفانو) التي ستذهب عن تركيا قوتها وتشكل " بلغاريا الكبيرة " . فسرى الاعتقاد القوي أن روسيا من سيهيمن على هذه الدولة الموسعة الممتدة حتى البحر المتوسط .

ان عودة الى صفحات التاريخ وتحديداً الى ما بعد عـام ١٨١٥ وسـنجد أن الحكمة التقليدية الأوروبيـة قـد رأت أن مصـير الامبراطوريـة العثمانيـة لا تقـره الا الأسرة الأوروبية لا قوة واحدة وآخر تلك القوى هي روسيا . هنا أثارت معاهدة سان ستيفانو جميع احتمالات سيطرة روسيا على المضائق ، وهو ما لا تطيق حيالـه بريطانيا العظمى صبراً ومعه سيطرة روسيا على السلاف البلقانيين وهو ما لا تقوى عليه النمسا حالاً . وعليه أعلنت بريطانيا العظمى وامبراطورية النمسـا - المجر أن المعاهدة لا يمكن القبول بها .

وعلى حين غرة ، لم يعد دزرائيلي أسير نفسه . اذ رأى في الميدان . القادة الروس تحركاته نذير شؤم لعـودة ائتـلاف حـرب الكريمـا . وسـاعة أصـدر وزيـر الخارجية البريطاني سالزبري مذكرته الشهيرة في نيسان ١٨٧٨ الـتي أوضـح فيهـا أسباب وجوب تعديل معاهدة سان ستيفانو ، وافقـه الصيغـة حتـى (شـوفالوف) السفير الروسي في لنـدن وخصـم أغنـاتييف لـردح طويـل مـن الزمـن . وهـددت بريطانيا بشن حرب اذا تحركت روسيا نحـو القسـطنطينية ، فيمـا توعـدت النمسـا بالحرب حول طريقة اقتسام الغنائم في البلقان .

وهكـــذا أيضا باتت عصبة الأبـاطرة الثلاثـة الـتي أنشـأها بسـمارك قـاب قوسين أو أدنى من الانهيار . فما برح الحذر الشـديد حتـى هـذه اللحظـة سـبيل بسمارك . فقد اقترح غورشاكوف على بسمارك عـام ١٨٧٦ أي قبـل سنة مـن تحرك الجيوش الروسية الى تركيا " من أجـل القضيـة الأرثوذكسـية والسـلافية " أن يستضيف الألمان مؤتمراً لتسوية أزمة البلقان . هي فرصة لو سنحت أمام مترنيخ أو نابليون الثالث لصفق كلاهما اليها ليغدو الوسيط الرئيس للأسرة الأوروبية ، فيمـا

تقاعس بسمارك عن ذلك معتقداً أن المؤتمر لن يقيد لغير اخراج خلافات عصبة الأباطرة الثلاثة من مكمنها . فقد أفضى سراً أن المشاركين في المؤتمر ومعهم بريطانيا العظمى سيخرجون من مثل هذا المؤتمر " غضبى لأن أحداً لن ينال ما توقع من الدعم " وقال أنها اللاحكمة الجمع بين رأسي دزرائيلي وغورشاكوف وهما ، كما وصفهما ، " وزيران تكافأ في خطورة غرورهما . "

مع ذلك ، وبعد أن لاحت في الأفق امارات تومىء أن ستغدو مكان شرارة حرب أوروبية عارمة ، قبل بسمارك على مضض عقد مؤتمر في برلين بصفتها العاصمة الوحيدة التي رغب القادة الروس المجيء اليها . وبرغم ذلك آثر البقاء على بعد من دبلوماسية الحدث للحدث على دبلوماسيته ، فأوعز الى وزير الخارجية النمساوي - المجري (أندراسي) بارسال وثائق الدعوة .

كان مقرراً أن يعقد المؤتمر في ١٣ حزيران من عام ١٨٧٨ . قبل انعقاد المؤتمر حسمت بريطانيا العظمى وروسيا القضايا الرئيسية وفق اتفاقية وقعها اللورد سالزبري ووزير الخارجية الروسي الجديد (شوفالوف) في ٣٠ آيار . تم بموجبها استبدال " بلغاريا الكبيرة " التي أنشأتها معاهدة سان ستيفانو بثلاثة كيانات جديدة : دولة بلغاريا المستقلة الأصغر بكثير من سابقتها ودولة (رومليا الشرقية) وهي كيان متمتع بالحكم الذاتي وخاضع قانوناً لسلطة الحاكم التركي واداريا الى اشراف " لجنة أوروبية " (وهي سابقة تذكر بمشاريع الأمم المتحدة لحفظ السلام في القرن العشرين) . فيما أعيد ما تبقى من بلغاريا الى هيمنة الحكم التركي . وفيها أيضاً تقلصت مكتسبات روسيا في أرمينيا . من جهتها ، تعهدت بريطانيا العظمى وفق اتفاقيات سرية منفصلة بتقديم دعمها للاحتلال النمساوي

لـ (البوسنة - الهرسنك) ، وطمأنت السلطان بضمان أمن تركيا الأسيوية . فأعطى السلطان انكلترا مقابل ذلك حق استخدام قبرص قاعدة بحرية .

وهكذا تلاشى خطر الحرب الذي لأجله قرر بسمارك اتضافة المؤتمر مع عقد مؤتمر برلين . فكانت المهمة الرئيسية للمؤتمر مباركة أوروبا على ما قد تمت المفاوضة عليه . ولعل المرء يتساءل عما اذا كان بسمارك سيخاطر بتقمص الدور العسير للوسيط لو حدس هذه النتيجة . من المؤكد أن قرب موعد انعقاد المؤتمر قد حدا بروسيا وانكلترا الى بلوغ التسوية السريعة والمستقلة عن باقي أوروبا سيما وأن كليهما قد نفر المتعرض لتقلبات مكتسبات مؤتمر أوروبي أيسر عليهما نيلها عبر المفاوضات المباشرة .

ليس عملاً بطولياً أن تصاغ تفاصيل اتفاقية منجزة أصلاً . فقد مثل جميع البلدان الكبرى وزراء خارجيتها عدا بريطانيا . التي يحضر وللمرة الأولى في تاريخها يحضر كل من رئيس الوزراء ووزير خارجيته مؤتمراً خارج الجزر البريطانية لسبب هو اشمئزاز دزرائيلي من أن يعهد الى سالزبري بانجاز دبلوماسي عظيم معروف النتائج مسبقاً . وشاء غورشاكوف العجوز المغرور الذي فاوض مترينخ في مؤتمري (ليبلاش) و (فيرونا) قبل أكثر من نصف قرن ، أن يكون مؤتمر برلين آخر ظهور له في المسرح الدولي قائلاً عند وصوله برلين : " لا أرغب بالتلاشي مثل مصباح يذوي حتى ينطفيء ، بل أزمعت الرحيل كما لو كنت نجمة في السماء " .

أفضى بسمارك لدزرائيلي لما سأله الأخير اضفاء ثقله على المؤتمر : " اليهودي العجوز هو رجلنا " . لقد تبادل الرجلان اعجابهما بالآخر وهما من خلفيتين بلغتا حدود الاختلاف الأبعد . فكلاهما تبنى السياسة الواقعية ومقت ما اعتبراه نفاقاً أخلاقياً . ولاحت لهما النغمات الدينية لبيانات غلادستون (الرجل الذي مقته كلاهما) مجرد هراء لا طائل وراءه . وما زرع قلباهما من العطف الى السلافيين البلقان بذرة لظنهم اياهم بؤرة مشاكل وصناع فوضى لا يقر لهم قرار .

وفوق هذا تعرض كلاهما لسخريات مريرة وتعميمات خطيرة وانتقادات شريرة ، فضاق صدراهما من ذلك وارتأيا ولوج سياسة دراميه صفيقة .

يمكن القول أن دزرائيلي هو الوحيد الذي سمى على بسمارك . اذ وصل في وضع حصين الى مؤتمر تم بلوغ أهدافه سلفاً - هو ذات الوضع الذي بلغه (كاستلريغ) في فيينا وستالين بعيد الحرب الكونية الثانية . ولم يتبق من القضايا أمامه سوى المتعلقة بتفاصيل تنفيذ الاتفاقية السابقة بين بريطانيا العظمى وروسيا ، والمسألة العسكرية القانونية لحد بعيد الخاصة بتسمية تركيا أو بلغاريا لفرض سيطرتها على البلقان . المشكلة الستراتيجية التي واجهته في المؤتمر فأنطوت على اذ محاب بريطانيا بمقدار فشل روسيا في استعادة فتوحاتها .

لقد نجح لدزرائيلي بسبب تعقيد وضع بسمارك - الذي لم ير أية مصلحة لألمانيا في البلقان وما آثر قضية على الأخرى سوى أمر وجوبية تحاشي نشوب حرب بين النمسا وروسيا بأي ثمن تقريباً . فوصف دوره في المؤتمر بـ " الوسيط

النزيه " ومبتدئاً ما قال من كلام في المؤتمـــــر بـ : " ان المانيا التي ليس لها مصلحـة مباشرة في أي من المسائل الشرقية ... " .

ان بسمارك ، برغم ادراكه اللعبة جيداً ، قد شعر كأنه أسير كـابوس يـرى الخطر يدب اليه وعاجز عن الافلات منـه . فكـان رده على البرلمـان يـوم ناشـده اتخاذ موقف أشد صرامة أنه أراد التحاشـي مشـيراً الى أخطـار التوسـط الى حـادث عام ١٨٥١ حين تدخل القيصر نيقولا الأول بين النمسا بروسيا ، والـذي كـان في فعله تدخلاً لصالح النمسا : [لعب القيصر نيقولا آنـذاك الـدور الـذي يفـترض – خصمي الآن – اعطائه لألمانيا ، فتقدم – نيقولا – وقال : " سأطلق النار على مـن يطلق أولاً ، وبالنتيجة اسـتتب السـلام ، لكنـه التـاريخ الـذي سيحكم مـن جنـى الفائـــــدة ومن قاسى الضرر ولست راغباً بخوض هذا هنا . أسأل التالي البسـيط [لقد لعب نيقولا دوراً ساند فيه أحد الطرفي فهل من عرفـان رد صنيعـه ؟ نحـن لم نرده في بروسيا ! ... أو هل حظي نيقولا بجميل النمسا اليه ؟ فما كـادت تنقضـي ثلاثة أعوام حتى اشتعلت حرب الكريميا ولا أراني بحاجة لمزيد من التعليق] .

ولعله أراد الاضافة في قوله أن تدخل القيصر لم يمنع مساندة بروسيا الفاعلة لألمانيا الشمالية – وهي القضية الحقيقية لعام ١٨٥١ .

لقد عرف بسمارك من أين تؤكل الكتف فانطوى منهجه على دعم روسيا في الشؤون المتعلقة بالقسم الشرقي من البلقان (كضم بسارابيا) ودعم النمسا بمـا يتعلـق بالقسـم الغربـي منهـا (مثـل احتـلال البوسـنة – الهرسـنك) . ولم يحـاول معارضة روسيا سوى بقضية واحدة . لقد هدد دزرائيلي بمغادرة المؤتمر ما لم يترك

لتركيا امتلاك الممرات الجبلية المواجهة لبلغاريا ، توسط بسمارك مع القيصر الروسي للتغلب على المفاوض الروسي شوفالوف .

هكذا تحاشى بسمارك العزلة مع روسيا التي طالت النمسا بعد حرب الكريميا ، بيد أنه لم يخرج من ذلك غير مصاب . اذ أدرك عديد من الزعماء الروس خدعة النصر عليهم . لقد كان ممكناً لهم ارجاء المكتسبات الاقليمية من أجل الشرعية (مثلما فعل الكسندر الأول أثناء التمرد اليوناني في عشرينيات القرن التاسع عشر ، وما قام به نيقولا الأول في غضون ثورات عام ١٨٤٨) ، غير أن روسيا لم تنل هدفها النهائي قط ولا قبلت بالتسوية كحل عادل . وعليه تفتقت القيود على التوسع الروسي عن موجات امتعاض هائجة .

وعليه وضعت روسيا ، بعد انتهاء المؤتمر اللوم ، لفشلها تحقيق أهدافها على الأسرة الأوروبية لا على المفرطة . وليس على دزرائيلي الذي حبك الائتلاف ضد روسيا وهدد باشعال حرب ، بل على بسمارك الذي نظم المؤتمر بغية تحاشي حرب تستعر لظاها في أوروبا . فقد تأقلمت روسيا مع المعارضة البريطانية ، بيد أن دور الوسيط النزيه الذي تقمصه حليف تقليدي مثل المانيا هو ما اعتبره السلافيون تحدياً لهم . وعليه وصمت الصحافة القومية الروسية المؤتمر بأنه " ائتلاف أوروبي ضد روسيا بزعامة الأمير بسمارك " الذي أمسى كبش فداء الفشل الروسي في تحقيق أهدافها الشرهة .

اوجز شوفالوف ، كبير المفاوضين الروس في برلين الذي كان في موقع أتاح له الاطلاع على جلية الأمر ، مواقف روسيا الشوفينية بعيد انتهاء المؤتمر :

[يؤثر المرء ترك الوهم المجنون يتربع عقول الناس موحياً لهم أن مصالح روسيا تناثرت اشلاء بقسوة بفعل تصرف قوى أجنبية معينة ، وبذا سيؤيد المرء أكثر أقوال الاثارة ضرراً . ان الجميع ينشد السلام ، والبلاد في ظرفها تستدعيه آجلاً ، الا أن المرء يسعى في عين الوقت الى احالة العواقب الناجمة في واقع الأمر عن أخطاء سياسات المرء نفسها الى العالم الخارجي] .

ما كان شوفالوف مرآة الرأي العام الروسي . كما لم يكن القيصر براض تمام الرضى عن نتائج المؤتمر وهو الذي نفسه لم يغامر بالدرجة التي بلغتها صحافته السوفيتية أو المؤيدين للسلاف . فصارت الخيانة الألمانية في برلين وعلى مدى عقود قادمة عنواناً لكثير من السياسات الروسية ، بضمنها العديد من السياسات التي تبنتها قبيل اشتعال فتيل الحرب العالمية الأولى . وهكذا لم يعد ممكناً المحافظة على عرى عصبة الأباطرة الثلاثة القائمة على وحدة الممالك المحافظة . ومذ حينها لن تكون غير السياسية الواقعية قوة فاعلة في الشؤون الدولية .

نهج بسمارك في خمسينيات القرن التاسع عشر سياسة كانت المكافىء القاري لسياسة انكلترا في " العزلة الرائعة " . اذ أزمع الصفح عن الارتباطات قبل القاء الثقل البروسي وراء أي طرف بدا الذي نفع للمصلحة القومية البروسية في أي أمر كان . تحاشى هذا النهج طريق الوقوع في الأحلاف ، فقلص حرية التصرف ، ووهب بروسيا فوق كل شيء خيارات أكثر مما لأي خصم محتمل . وبحلول سبعينيات القرن التاسع عشر سعى بسمارك الى تقوية أواصر الوحدة الألمانية بالعودة الى الحلف التقليدي مع النمسا وروسيا . بيد أن وضعاً لا سابق له طفق في ثمانينيات القرن نفسه . فقد أضحت المانيا أقوى من الوقوف بعيدة وهذا حال له

أن يوحد راية أوروبا ضدها . وهي لم تعد بحاجة الى الاسناد الروسي التاريخي المتراخي تقريباً . هي الآن عملاقاً حاجته أصدقاء له .

خرج بسمارك من المعضلة أن قلب نهجه السابق في السياسة الخارجية تماماً . فان بات عاجزاً عن تسيير توازن القوى بعقد أقل ارتباطات مقارنة مع أي خصم محتمل ، تراه أقام مزيد من العلاقات مع عدد من البلدان أكثر مما لدى أي خصم محتمل وبذلك سيغدو قادراً على الاختيار من بين جمع الحلفاء وكما تقتضيه الظروف . واذ تخلى بسمارك عن حرية المناورات التي رسمت ملامح دبلوماسيته على مدى العشرين عاماً المنصرمة ، شرع ببناء نظام تحالفات كان مبغاه من ناحية الحيلولة دون تكاتف خصوم المانيا المحتملين ، وتكبيل من ناحية ثانية معاصم شركاء المانيا . فظهرت المانيا في جميع تحالفات بسمارك المتناقضة في أحايين معينة الأقرب الى الشركاء مجتمعين من قرب بعضهم لبعضهم الآخر . وبهذا ملك بسمارك حق الصوت على العمل الجماعي ناهيك عن خياره بالتصرف المستقل . فأفلح طيلة عقد من الزمن في المحافظة على مواثيق مع خصوم حلفائه كي يتمكن من أحكام الشد على جميع الأطراف .

استهل بسمارك سياسته الجديدة عام ١٨٧٩ بعقد حلف سري مع النمسا ، ترجى منه اقامة حاجز ضد مزيد من التوسع الروسي بعد استشعاره استياء روسيا من مؤتمر برلين . وهو أيضاً قد ضمن صوتاً بأزاء السياسة النمساوية في البلقان بعد أن عزف عن السماح للنمسا استغلال الدعم الألماني لتصعر خدها بوجه روسيا ، لقد أوحى له الحبور الذي استقبل به سالزبري الحلف الألماني - النمساوي . أنه ليس الأوحد الواقف ضد التوسع الروسي . اذ أمل سالزبري

دون شك أن النمسا تدعمها المانيا - ستحمل من كاهل بريطانيا حملها في مقاومة التوسع الروسي تجاه المضائق . غير أن خوض غمار الوغى لمصلحة بلدان أخرى لم يكن من شيم بسمارك . فكان أشد ما كره في هذا الأمر أن يتولى هذا الدور في البلقان لشعوره بالأنفة من نزاعات تلك المنطقة . حتى علق متذمراً من البلقان مرة : " علينا افهام سارقي الأغنام هؤلاء بجلاء أن الحكومات الأوروبية غنية عن ازعاج نفسها من أجل شهواتهم وشجاراتهم " . لقد كان من سوء حظ السلام الأوروبي أن تناسى خلفاء بسمارك هذه الكلمات التحذيرية .

اقترح بسمارك تكبيل روسيا في البلقان عبر التحالفات ولا المواجهات . اذ رأى القيصر أن شفا عزلة تضيق على خناقه ، فراح ينفخ بعد أن وجد في بريطانيا العظمى خصمه الرئيسي وأدرك عجز الجمهورية الفرنسية الضعيفة عن اعانته في كير عصبة الأباطرة الثلاثة ، على أساس السياسة الواقعية هذه المرة .

لم يتضح أمام امبراطور النمسا باديء الأمر جدوى من تحالف مع خصمه الرئيسي . انه آثر الأخذ بيد بريطانيا العظمى التي يشاركها مصلحة إغلاق التوغل الروسي الى المضائق . بيد أن الأمل هذا تبدد بعد هزيمة دزرائيلي عام ١٨٨٠ وتبوء غلادستون مقاليد الحكم حيث وبذا أسدل الستار على مساهمة بريطانيا العظمى حتى غير المباشرة في حلف مؤيد للأتراك ومعاد للروس .

لم تحقق عصبة الأباطرة الثلاثة (الثانية) مظهراً يتعلق بالمعايير الأخلاقية فقد خضعت لقوالب السياسة الواقعية ، وبذا التزم أطرافها الحياد الايجابي لو اشتبك أي منها في حرب مع طرف رابع - فلو احتربت انكلترا مع روسيا ، أو

فرنسا مع المانيا ، ستكون المانيا عندئذ في مأمن من حرب على جبهتين ، ونأت روسيا بنفسها عن عودة تحالف الكريميا (المكون من بريطانيا العظمى وفرنسا والنمسا) ، فيما بقي سليماً الالتزام الألماني بالدفاع عن النمسا ضد أي عدوان . هنا ايضاً تحملت بريطانيا مسؤولية ايقاف التوسع الروسي في البلقان عن طريق منع النمسا من الانضمام لحلف موجه ضد روسيا - على الورق في أقل تقدير . وهكذا امتلك بسمارك بفضل موازنة الأحلاف جزئية التخلخل ، نفس حرية التصرف تقريبا التي تمتع بها في حقبته السابقة من عدم التورط الدبلوماسي . وأهم من كل هذا أنه اجتث البذور التي من شأنها أن الحيلولة دون اشعال فتيل حرب شاملة من أزمة محلية .

في عام ١٨٨٢ الذي تلا عصبة الأباطرة الثلاثة الثانية ، القى بسمارك بشبكته أوسع باقناعه ايطاليا تحويل الحلف الثنائي بين النمسا والمانيا الى حلف ثلاثي يضم ايطاليا أيضاً . لقد أشاحت ايطاليا من جانبها وجهها عن دبلوماسية أوروبا الوسطى ، بيد أن الأسى أكل قلبها لرؤية فرنسا تحتل تونس فسبقت خططها المعدة لشمال أفريقيا . وبالطريقة ذاتها ، ظنت المملكة الايطالية المنحلة أن استعراضا لدبلوماسية قوة كبرى له في مساعدتها على مقاومة التيار الجمهوري المتعاظم . فيما أرادت النمسا ضماناً اضافياً لو فشلت عصبة الأباطرة الثلاثة في صد المد الروسي . تعاهدت المانيا وايطاليا في ضوء بنود الحلف الثلاثي على تبادل المساعدة ضد أي هجوم فرنسي ، بينما تعهدت ايطاليا بالوقوف على الحياد تجاه النمسا - المجر لو ذهبت الى حرب مع روسيا ، فتلاشت الشكوك النمساوية من حرب على جبهتين . وأخيراً ، وتحديداً عام ١٨٨٧ ، شجع بسمارك حليفيه

(النمسا وايطاليا) على توقيع ما أطلق عليه اتفاقيات البحر المتوسط مع بريطانيا التي الزمت أطرافها بالمحافظة سوية على (الوضع القائم) في البحر المتوسط .

أسفرت دبلوماسية بسمارك عن سلسلة من التحالفات المتشابكة المتداخلة جزئياً والتنافسية في جزئها الآخر ، ضمنت فيها النمسا منآها عن هجوم روسي ، وروسيا ضد المغامرات النمساوية ، والمانيا ضد التطويق ، ومنها انجرت انكلترا الى مقاومة التوسع الروسي باتجاه المتوسط . وفي محاولة منه لتخفيف التحديات ضد نظامه المعقد بذل بسمارك قصارى جهده لاشباع المطامع الفرنسية في كل مكان الا في الالزاس - اللورين ، فشجع التوسع الفرنسي الاستعماري في مسعى منه صرف الطاقات الفرنسية عن أوروبا الوسطى ، والأهم من ذلك توريط فرنسا مع خصومها الاستعماريين لا سيما بريطانيا العظمى .

أثبت هذا الحساب صحته لأكثر من عشر سنوات ، اذ كادت فرنسا وبريطانيا العظمى أن تشتبكا حول مصر ، واختلفت فرنسا مع ايطاليا بشأن تونس ، فيما واصلت بريطانيا العظمى مقاومة روسيا في آسيا الوسطى وممرات القسطنطينية . ولما رغب بسمارك تحاشي الصدام مع بريطانيا العظمى ، ابتعد عن التوسع الاستعماري حتى منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر ، مقصراً سياسة المانيا الخارجية على أوروبا وحدها ، فيما كانت أهدافه المحافظة على الوضع القائم .

أما وقاربت على النهاية ، أمست متطلبات السياسة الواقعية شديدة التعقيد بحيث استحال صمودها . فالصراع بين النمسا وروسيا في البلقان قد استعصى

المسك بزمامه مع مرور الزمن ، ولكانت البلقان قد انشطرت بين دائرتي النفوذ الروسي والنمساوي لو عمل ميزان القوى بشكل المرسوم . بيد أن الرأي العام كان مستعراً تجاه هكذا سياسة حتى في أشد الدول استبداداً . فما كان ممكناً أن توافق روسيا على مناطق نفوذ تخضع بموجبها الشعوب السلافية ليد النمسا ، وما كان للنمسا أن تقبل من جانبها تقوية ما اعتبرته توابع السلافيين الروس في البلقان .

أضحت دبلوماسية مجلس وزراء بسمارك ذات أسلوب القرن الثامن عشر لا تنسجم مع عصر الرأي الجماهيري العام . فقد استجابت حكومتا بريطانيا العظمى وفرنسا للرأي العام لديهما واعتبرتاه في حكم طبيعة الأشياء . فهو قد عنى في فرنسا تشديد الضغط باتجاه استعادة الألزاس - اللورين . لكن الأسطع من الأمثلة يكمن في بريطانيا وفي الدور الحيوي الجديد للرأي العام ، يوم دحر غلادستون دزرائيلي عام ١٨٨٠ في الانتخاب البريطاني الوحيد الذي أجري بشأن قضايا السياسة الخارجية ، ومن ثم قلبت سياسة دزرائيلي بخصوص البلقان .

نظر غلادستون ولعله المع شخصية في السياسة البريطانية في القرن التاسع عشر ، الى السياسة الخارجية بمنظار هو أقرب الى المنظار الأمريكي ما بعد (ولسون) . فهو قد جادل لنظرته الى السياسة الخارجية وفق المعيار الأخلاقي بدلاً من الجيوسياسي أن التطلعات القومية للبلغار مشروعة حقاً ، وأن بريطانيا باعتبارها أمة مسيحية شقيقة لهم ، مدينة بالدعم لبلغاريا ضد الأتراك المسلمين ، وعلى الأتراك التصرف من خلال ائتلاف قوي ينبغي آنذاك أن يتنكب مسؤولية ادارة بلغاريا . واذن فقد أرسى غلادستون مسبقاً نفس المفهوم الذي عرفه الرئيس

ولسون بـ " الأمن الجماعي " : على أوروبا أن تتصرف سوية ، والا فلن تحرك بريطانيا العظمى ساكناً :

[ليس أمامنا الا أن يعمل هذا المفهوم ، يمكن عمله بأسلوب وقائي ، بالعمل الموحد لقوى أوروبا . ان قوتكم لعظيمة ، غير أن ما هو أجل من كل شيء أن يكون عقل وقلب أوروبا واحداً في هذا الأمر . وما أنا الآن بحاجة للحديث الا عن ست ندعوها بالقوى العظمى الا وهي : روسيا ، المانيا ، النمسا ، فرنسا ، انكلترا ، ايطاليا ، فليست وحدتها مهمة وحسب ، بل هي أمر لا غنى عنه لبلوغ النجاح والقناعة التامين] .

في عام ١٨٨٠ شن غلادستون حملته (المدلوثية) الشهيرة بعد أن اشمأز من تأكيد دزرائيلي على الأمور الجيوسياسية ، فكانت تلك أول حملة مواجهة في التاريخ ، وأول حملة تطرق فيها قضايا السياسة الخارجية مسامع الشعب مباشرة . ومنها عاد غلادستون في شيخوخته متحدثاً جماهيرياً ومؤكداً في قوله أن الأخلاق هي الأساس الوحيد لسياسة خارجية سليمة ، على أمر أن الطهارة المسيحية واحترام حقوق الانسان هما السراج الهادي لسياسة بريطانيا الخارجية ، لا ميزان القوى والمصالح القومية . فأعلن وقد توقف :

[مالنا ونسيان أن حرمة الحياة في قرى أفغانستان الجهنمية حرام انتهاكها كحرمة حياتكم أمام الله القادر القدير . واذكروا أن الذي جمعكم بالخلق بشراً وكسا أجسادكم لحماً وانسغ فيكم دماً قد جبلكم بقانون الحب المتبادل ... وليس في اطار الحضارة المسيحية ....] .

بذا قدح غلادستون ومضة اهتدى بنورها ولسون يوم ألغى الفرق بين أخلاق الفرد وبين أخلاق الدولة . وآمن كما آمن ولسون بعد جيل ، انه رصد اتجاهاً كونياً نحو التغيير السلمي يقوده الرأي العالمي :

[مؤكد أنه قانون أمم جديد أخذ يجول في الخلد ليتحكم بسير العالم ، انه القانون الذي يعترف بالاستقلال وينفر من العدوان ، ويؤثر الحسم الهادىء للنزاعات على السبيل الدامي ، رانياً الى بلوغ تسويات سرمدية غير مؤقتة ، وفوق هذا وذاك انه القانون الذي يقر باعتباره ممثلا للسلطة العلوية ، بالحكم الشامل للبشر المتحضرين] .

ليس من ريب أن كلمات هذه الفقرة كان سيقولها ولسون ، وسيكون مضمونها جد شبيه بفكرة عصبة الأمم التي أنشأها ولسون . لقد أكد مميزاً بين سياسته وسياسة دزرائيلي لعام ١٨٧٩ سيسعى بدلاً من عمل توازن قوى الى " الابقاء على وحدة قوى أوروبا . ولماذا ؟ لأن الابقاء على وحدة الجميع يعني تحييد ولجم الغايات الأنانية لكل القوى ... فالعمل الجماعي عدو الأهداف الأنانية .... " وما العجز عن الابقاء على وحدة أوروبا الا السبب الحقيقي لتصاعد حدة التوترات . وليس من قضية استبق ادراكها - وكانت بقادرة على رأب الصدع بين فرنسا والمانيا ، أو محو الجفاء بين النمسا وروسيا .

لم يشهد التاريخ البريطاني آنذاك ما خلا غلادستون رئيس وزراء مثل قابليته في فن الخطابة البلاغية . فقد أدرك كاستلريغ في الأسرة الأوروبية أداة لفرض تسوية فيينا ، ووجدها بالمرستون وسيلة لحفظ التوازن الأوروبي ، فيما

أناط بها غلادستون وقد قرف اعتبارها مطية لفرض (الوضع القائم) ، دوراً ثورياً لتشكيل نظام عالمي جديد قلباً وقالباً . وظلت هذه الأفكار هاجعة ريثما جاء ولسون ليبعثها من مرقدها بعد فترة جيل ... محض هراء بغيض كانت هذه الآراء بنظر بسمارك . فليس من عجب أن استولى المقت الشديد على قلبي هاتين الشخصيتين العملاقيتين لبعضهما البعض الآخر . كما ناظر موقف بسمارك تجاه غلادستون ، موقف (تيودور روزفلت) تجاه ولسون : اذ علا الزعيم الفكتوري العظيم قطعة من الدجل وشيئاً مزعجاً ، وفي هذا كتب المستشار الحديدي الى امبراطور المانيا عام ١٨٨٣ :

[كان لمهمتنا أن تغدو أسهل لو بقي في انكلترا سلالة الساسة العظام أبناء العهود السابقة الضليعين بالسياسة الأوروبية ، بيد أن الذي أمامنا ، سياسي قاصر (غلادستون) وهو ليس غير خطيب مفوه ذرب اللسان لا نستطيع واياه السير بسياسة نتوكأ بها في موقف انكلترا] .

فيما كانت نظرة غلادستون لخصمه أكثر مباشرة وخير من لنا من أقواله استشهاداً به وصفه بسمارك بـ " الشيطان الذي احترق رأسه شراً " .

تقاسمت أفكار غلادستون عن السياسة الخارجية مصير أفكار ولسون عندما حركت سواكن رفاقه على رفع أيديهم عن الشؤون الدولية بدلاً من مزيد من الاسهام في تغييرها . فلم يأت مجيء غلادستون الى السلطة عام ١٨٨٠ غير قليل فرق لسياسة بريطانيا العظمى في مصر وشرق السويس سيما أن تعلق الأمر

بسيااستها الانية ، لكنه أبعد بريطانيا من الصيرورة عنصراً في البلقــان وفي التـوازن الأوروبي بوجه عام .

انطوت ولاية غلادستون الثانية (١٨٨٠-١٨٨٥) على نتيجة متناقضة في رفعها بساط الأمان من تحت بسمارك ، أكثر ساسة أوروبــا تواضعـاً ، تمامـاً كما قذف انسحاب كانتغ من أوروبا بمترنيخ الى أحضــان روسـيا . فـان كـانت نظـرة بالمرستون / دزرائيلي هي المهيمنة على ساحة السياسة الخارجية البريطانية ، أمست بريطانيا الملاذ الأخير أينما أفرطت روسـيا توغـلاً في البلقـان أو نفـذت الى ممـرات القسطنطينية . وان كان سيد الساحة غلادستون ، تلاشا ذلك الضمان ومعه تزايد اعتماد بسمارك ، مما حدا ببسمارك الى مزيد من علـى الثالوث المتنـامي التنـاقضي الذي طرفاه الآخران النمسا وروسيا .

أثبتت البلاطات الشرقية - التي ما برحت معقل المحافظة انها أكثر حساسية من الحكومات التمثيلية للرأي العام القومي . لقد أقام بسمارك بنية المانيــا الداخليـة على أساس يتيح له تطبيق مباديء دبلوماسيته القائمة على توازن القوى ، ومع هذا تقبلت نزعات الدهماء أيضاً . فالرايشستاغ وان انتخبه العــدد الأكـبر مـن نـاحيي أوروبا ، ما كان يرجع للحكومة الألمانية ولا من يسميها ، بـل هـو الامـبراطور في كليهما .

وجد أعضاء الرايشستاغ أنفسـهم وقـد تجـردوا مـن المسـؤولية ملاذهـم في طلاوة اللســان والفصاحـة في أبلغهـا . ان حقيقـة اجـراء التصويـت علـى الميزانيـة العسكرية لخمس سنوات في وقت ما قد أغوت الحكومات لنســج خيـوط أزمـات

أثناء السنة الحاسمة التي يصوت فيها على برنامج الدفاع . فان نال هذا الترتيب الوقت الكافي لربما نشأ الى ملكية دستورية ذات حكومة مسؤولة أمام البرلمان . بيد أن الحكومات وأثناء سنوات التشكيل الحاسمة من حياة المانيا الجديدة كانت شديدة التأثير بالدعاية القومية وجد ميالة لدعوة المخاطر الخارجية لحشد جمهور الناخبين .

كما عانت السياسة الخارجية الروسية هي الأخرى من الدعاية السلافية التطرفية التي انصبت مبادئها الأساسية على الترويج لسياسة عدوانية في البلقان اضافة الى ضرورة حسم قضية المانيا . وهنا شرح مسؤول روسي للسفير النمساوي مع نهاية فترة حكم الكسندر الثاني عام ١٨٧٩ :

[الخوف من الصحافة القومية هو سمة الشعب هنا .... انها راية القومية التي حملوها لتمنحهم خيمة الحماية وتضمن لهم الدعم القوي . فمنذ تقدم التيار القومي الى الامام وتحديداً بعد نجاحه في الهيمنة ضد خيرة النصائح بخصوص امتشاق حسام الحرب (ضد تركيا) ، حتى أصبح ما يسمى بالحزب " القومي " ، قوة حقيقية سيما وهو يضم الجيش بأسره] .

كانت النمسا - الامبراطورية الأخرى متعددة اللغات - في وضع مماثل لسابقه . فأمسى في ظل هذه الظروف من شديد الصعوبة على بسمارك تطبيق قانون توازنه كثير التقلقل . وفي عام ١٨٨١ تربع قيصر روسي جديد على عرش سانت بطرسبرغ هو الكسندر الثالث ، كان حراً من قيود الأيديولوجيا المحافظة التي كبلت جده نيقولا الأول ، ومن قيود العاطفة الشخصية لامبراطور المانيا

العجوز وهي ما سار عليها والده الكسندر الثاني . فهـذا الكسـول المستبد نـزع الثقة عن بسمارك لسبب جزئي هو عجزه عن ادراك سياسة ذلـك الرجـل المعقـدة حتى قال فيه ذات مرة أنه حيثما رأى اسمه في رسالة وضع عليه اشارة شطب . لقد تعززت شكوك القيصر بتأثير من زوجته الدنماركية التي ما غفرت لبسمارك اقتطاعه شلزوغ - هولشين من وطنها الأم .

ثم جاءت الأزمة البلغارية لتزيد حدة جميع هذه الدوافع . فها هي ثورة أخرى أسفرت عن (بلغاريا أكبر) رنت اليها روسيا بلهفة قبل عقد ، وأوجست منها بريطانيا العظمى والنمسا خيفة . أرسخ التوقعات ، توحدت بلغاريا الجديدة تحت زعامة أمير الماني ، وافلتت من هيمنه روسيا وهكذا هو التأريخ يزعزع أرسخ التوقعات ! هنا أنحى بلاط سانت بطرسبرغ باللائمة على بسمارك على ماسعى المستشار الألماني حقاً الى تجنبه . فاستشاط البلاط الروسي غضباً ، وانطلق مؤيدو السلافية الذين رأوا مؤامرة في كل حدب وصوب غرب الفستولا ، مشيعين أن بسمارك وراء مؤامرة شيطانية معادية للروس . وفي خضم هذه الأجواء رفض الكسندر الثالث تجديد عصبة الأباطرة الثلاثة عام ۱۸۸۷ .

لم يكن بسمارك مستعداً للتخلي عن خياره الروسي . وقد علم بعد أن عجم عيدانه أن روسيا ستقذف بنفسها في حلف مع فرنسا عاجلاً أم آجلاً . بيد أن مجرى كهذا وفي ظروف ثمانينات القرن التاسع عشر التي اقتربت فيها روسيا وبريطانيا العظمى دوماً من شفير الحرب قد عزز خطر مواجهة روسية لألمانيا دونما تخفيف العداء البريطاني . وأكثر من هذا ان المانيا لما تزل تمتلك الخيار البريطاني سيما بعد أن غادر غلادستون موقع المسؤولية الآن . لكن سبباً وجيهاً شكك

الكسندر من مخاطرة فرنسا بالتقاط قفاز الحرب حيال البلقـان . أو بعبـارة أخـرى أن الروابط الروسـية – الألمانيـة مـا فتـأت تعكـس التقـاءً ولـو متخافتـاً في المصـالح القومية لا مجرد أهواء انتابت بسمارك – برغم حقيقـة أن هـذه المصـالح القوميـة لم تكن لتجد لها الاطار الرسمي لولا براعته الدبلوماسية .

وحيال ذلك أطلق بسمارك الحاذق بطبعه ، مبادرته الكبرى الأخيرة ، انهـا ما أطلـــق عليهـا (معـاهدة اعـادة الضمـان) . فتعـاهدت المانيـا وروسـيا علـى الوقوف على الحياد في حالة اشعال حـرب مـع دولـة ثالثـة ، مـا لم تهـاجم المانيـا فرنسا ، أو تغزو روسيا النمسا . فأضحت نظرياً الآن سلامة روسـيا والمانيـا ضـد أي حرب على جبهتين ، على أساس اتخاذهمـا موقفـاً دفاعيـاً . وعلـى أيـة حـال يعتمد حل هذا على طريقة تعريف المعتدي سـيما وأن التعبئـة غـدت بمـرور الزمـن مكافئاً لاعلان الحرب (الفصل الثامن) . واذ لم يتـم عـرض هـذه المسـألة بعـد ، تجلت حدود معاهدة اعادة الضمان التي تحجم نفعها نتيجة اصـرار القيصـر ابقائهـا سراً .

ان سرية المعاهدة لأسطع برهان على الصراع المحتدم بين مطالب دبلوماسية الوزراء وبين ضرورات سياسة خارجية سائرة بسرعة في طريق الديمقراطيـة . لقـد آلت الأمور الى التعقيد الى درجـة أوجـدت مسـتويين مـن السـرية معـاهدة اعـادة الضمان السرية جسد فيها المستوى الثاني ملحقاً سرياً خاصاً وعد بموجبه بسمارك الابتعاد عن المسامعي الروسية للاستيلاء على القسطنطينية ، وكذلك المساعدة على تعزيز النفوذ الروسي في بلغاريا . غير أن كلا الضمانين ما كانا ليزرعـا البهجـة في

قلب النمسا حليفة حليفة المانيا ، ناهيك عن بريطانيا العظمى - برغم أن بسمارك ما كان ليأسى لو اشتبكت بريطانيا العظمى مع روسيا ازاء مستقبل المضائق ٠

أبقت معاهدة اعادة الضمان برغم تعقيداتها على وشائج الصلة بين سانت بطرسبرغ وبرلين ناهيك عن طمأنتها سانت بطرسبرغ أن المانيا وان دافعت عن سلامة امبراطورية النمسا - المجر ، لن تساعد الأخيرة في توسعها على حساب روسيا ٠ وهكذا حققت المانيا في الأقل ارجاءً لحصول تحالف روسي - فرنسي ٠

يقدم رد فعل بسمارك تجاه ضغوط قادته العسكريين لشن حرب استباقية ضد روسيا بعد نهاية مفعول عصبة الأباطرة الثلاثة عام ١٨٨٧ دليلاً على تسخير بسمارك سياسته الخارجية المعقدة لخدمة توجهات ضبط النفس والحفاظ على السلام ٠ فهو قد دحض في كلمة له أما الرايشستاغ جميع تلك الحسابات محاولاً خلع سمعة حسنة على سانت بطرسبرغ كي يثبط امكانية تشكيل حلف فرنسي - روسي :

[لن ننقض السلام مع روسيا من جانبنا ، فلست بمؤمن أن روسيا ستبادرنا الهجوم ٠ ولست بقائل أيضاً أن الروس يبحثون من حولنا عن حلفاء يشاركونهم غزونا أن أنهم توقى للانتفاع منم مصاعبنا ٠ في جهة أخرى] ٠

سرعان ما لاحت امارات نهاية قانون توازن بسمارك ٠ برغم كل العبقرية والهدوء اللذين اتسم بهما ٠ فالمناورات ما برحت تتعقد حتى استعصت على سيطرة صاحبها ٠ وزرعت الأحلاف المتشابكة الشكوك و لم تنزع الفتيل فيما قلصت الأهمية المتنامية للرأي العام مرونة تحرك الجميع ٠

طفقت الحاجة الى درجة عالية من المراوغة دليلاً على القيود التي وضعتها المانيا الموحدة القوية على توازن القوى الأوروبي انى كانت البراعة التي تحلت بها سياسة بسمارك . فهي قد أثارت ولما يزل في سدة الحكم شيئاً من القلاقل . وحقيقة القول أن آلية عمل بسمارك التي أرادت بعث الاطمئنان أحدثت مع مرور الزمن تأثيراً غير مستقر ، لسبب مرد بعضه الصعوبة التي واجهها معاصروه في استيعاب طبيعتها المعقدة المختلطة . وهم يجرهم خوفهم من خسارتهم سباق المناورات ، قد نهجوا طريق المراوغة في الرهان . غير أن هذا السياق من العمل الغى المرونة التي هي المنهل الأساسي للسياسة الواقعية باعتبارها بديلا عن الصراع .

وحقيقة أن نهج بسمارك في الدبلوماسية كان سيسدل الستار عليه رحيله عن السلطة ، فما كان الأمر يقيناً أن يستعاض عنه ، بسباق التسلح المجنون والأحلاف الملزمة الأكثر شبهاً بالحرب الباردة فيما بعد منها الى التوازن التقليدي للقوى . فعلى مدى عشرين عاما حافظ بسمارك على السلام وخفف التوتر الدولي بفضل هدوئه ومرونته . لكنه دفع ثمن العظمة التي أسيء فهمها ، فما كان لخلفائه ومن سعى لتقليده استقاء درس أفضل من مضاعفة التسلح والتلويح بالحروب التي كان ممكنا لها اغراق الحضارة الأوروبية في بحيرة الانتحار .

في عام ١٨٩٠ زحف مفهوم توازن القوى الى نهايته . فهو قد ظهر في المقام الأول بسبب حشد الدول التي ظهرت من بين أطر تطلعات القرون الوسطى لتتحول الى امبراطورية كونية . وبذا أفضى (سبب مصلحة الدولة) في القرن الثامن عشر الى ايقاد نيران حروب متواترة غايتها الأولى الحيلولة دون صعود قوة

مهيمنة أو عودة الامبراطورية الأوروبية ، وعليه عمل توازن القوى على حفظ حريات الدول أكثر من حفاظه على سلام أوروبا .

لقد بلغ توازن القوى أروع حالاته في الأربعين عاما التالية للحروب النابليونية . وسارت عجلته بسلاسة أثناء هذه الحقبة بعد أن كانت غاية التخطيط له معادلة كفتي الميزان ، وأهم من ذلك أنه تلقى تأييد منظومة من القيم المشتركة قدمتها البلاطات المحافظة في أقل تقدير . ومع انطفاء لظى حرب الكريميا تضاءلت تلك القيم المشتركة تدريجياً وعادت الأمور سيرتها الأولى أيام القرن الثامن عشر ، حتى باتت اليوم أشد خطورة بفعل التكنولوجيا والدور المتسع الذي يلعبه الرأي العام وأمست حتى الدول الاستبدادية تحتكم الى رأي شعبها بنهج صيغة اثارة خطر خارجي . وجاءت المؤازرة القومية لدول أوروبا فقلصت عدد اللاعبين ، ومن هنا تضاءلت القدرة على الاستعاضة عن التجمعات الديمقراطية بنشر القوات ، بينما أفضى انهيار التقدير المشترك والشرعية الى غياب الرادع الأخلاقي .

ان هذه الدروس لذات صلة بسياسة أمريكا الخارجية لما بعد الحرب الباردة ، برغم مقت أمريكا التاريخي لمبدأ توازن القوى . فأمريكا تمثل اليوم وللمرة الأولى في تاريخها جزءاً من النظام الدولي التي هي أقوى بلد فيه . ولم يعد بوسعها (وهي قوة عسكرية عظمى) أن فرض ارادتها يعارضها في السعي وراء أطماع امبراطورية قوتها وايديولوجيتها . وما الأسلحة النووية درع أميركا العسكري الا مكافئاً لقوة قابلة للاستخدام . فانطلاقاً مما سبق ، تجد الولايات المتحدة نفسها في عالم يمت بشبه شديد لأوروبا القرن التاسع عشر وان كان

نطاقه كونياً والأمل يساور المرء بنشوء نظام مجانس لنظام مترنيخ فيه يتلقى ميزان القوى اسناداً من شعور بالقيم المشتركة . ولتكن هذه القيم في العصر الحديث ديمقراطية .

كما لم يتوجب على مترنيخ أن يرسم نظامه الشرعي ، فهو موجود في جوهره مسبقاً . وفي العالم المعاصر ليست الديمقراطية بقريبة من الصفة الكونية ، وأينما زعم ذلك فهي ليست معرفة بمصطلحات وافية بالضرورة . أن من المعقول لأمريكا أن تحاول تعزيز التوازن بالاجماع الأخلاقي وعليها لتكون صادقة أمام نفسها أن تسعى لتحقيق أشمل اجماع أخلاقي ممكن بخصوص التوجه الكوني نحو الديمقراطية . بيد أنها لا تجرؤ على تجاهل معطيات تحليل توازن القوى . لأن السعي نحو الاجماع الأخلاقي يغدو سلاحاً موجهاً للصدر حين يقوض التوازن .

وان استحال تشكيل نظام قائم على الشرعية على غرار نظام مترنيخ فعلى أمريكا أن تتصرف ضمن نظام توازن قوى مهما كان غير ملائم لها . ففي القرن التاسع عشر كان ثمة نموذجان لتوازن القوى : البريطاني ممثلاً بالمرستون ودزرائيلي ، والنموذج البسماركي . انطوى البريطاني على ترقب حصول تهديد مباشر لميزان القوى قبل القاء بريطانيا بنفسها في الميدان ، وفي الكثير الغالب بجانب الطرف الأضعف . فيما سعى النموذج البسماركي الى اجهاض التهديدات عن طريق عمل علاقات وثيقة مع أكثر ما يمكن من الأطراف ، كذلك بتشكيل تحالفات متشابكة ، اضافة الى الاستفادة من النفوذ الناتج لتخفيف حدة مطالب المدعين .

فاذا لاح أسلوب بسمارك القائم على توازن القوى غريباً على ضوء التجارب الأمريكية مع المانيا في حربين كونيتين ، لعله كان أكثر انسجاماً مع المبدأ الأمريكي التقليدي في العلاقات الدولية . لقد تطلب أسلوب بالمرستون ودزرائيلي سمواً منضبطاً على النزاعات والتزاماً قاسياً بالتوازن في وجه التهديدات . أي وجوب تقييم النزاعات والتهديدات في ضوء مفاهيم توازن القوى . اما أمريكا فترى الأمر عسيراً حشد التجافي على النزاعات والقساوة ، ناهيك عن الرغبة بالتدخل في الشؤون الدولية على نحو صارم في اطار حسابات القوة .

سعت سياسة بسمارك اللاحقة الى لجم القوة سلفاً عبر تحقيق اجماع على أهداف مشتركة مع مجموعات مختلفة من الأمم . وفي عالم يتسم بالتداخلية الكبرى ، ستواجه أمريكا صعوبة في ممارسة عزلة بريطانيا العظمى الرائعة ، لكنها أعجز عن ارساء نظام أمني شامل قابل للتطبيق على جميع أرجاء المعمورة بشكل متساو . ولعل أرجح الحلول البناءة ينطوي على تشكيل أنظمة تحالفات جزئية التشابك ، يروم بعضها الى الأمن ، والآخر الى العلاقات الاقتصادية . وهنا سيتمثل التحدي أمام أمريكا في صياغة الأهداف المستنبطة من القيم الأمريكية والقادرة على لم شمل هذه المجاميع (أنظر الفصل ٣١) .

ومهما يكن من أمر ، تلاشى نموذجاً السياسة الخارجية بحلول نهاية القرن التاسع عشر . فلم تعد بريطانيا العظمى تشعر بروح الهيمنة الكافية لديها للمخاطرة بالعزلة . وأزيح بسمارك عن السلطة على يد امبراطور جديد نافد الصبر كتب على نفسه المهمة غير الهينة الرامية الى تحسين سياسة معلمه . وفي

غضون ذلك تصلب ميزان القوى ، فشقت أوروبا طريقها الى أتون كارثة هي الأشد تدميراً وتخريباً ، لأن أحداً لم يؤمن بامكان نشوبها .

الفصـــل السابــع

ماكنة القيامــة السياسيـــة :

الدبلوماسيـة الأوروبيـة قبيل الحرب العالمية الأولـــى

أسدل العقد الأول من القرن العشرين ولما زحف مـن نهايتـه الستار على وجود الأسرة الأوروبية التي سبق أن حافظت على السلم طيلة القـرن الماضي فها هي القوى العظمى قد رمت بنفسها يدفعها الطيش الأعمى الى ساحة وغـى ثنائيـة القطب أفضت بها الى التشرذم نحو كتلتيّ قـوى ، فتجسـد بذلـك سابق لنمـوذج الحرب الباردة الذي ظهر بعد خمسين عاماً . فـرق واحـد كـان هنـاك على أيـة حال ففي عصر الأسلحة النووية يكون تجنب الحرب الغاية الأوليـة وربما الرئيسـية للسياسة الخارجية فيما كان ممكناً حتى مطلع القرن العشرين اسـتعار فتيـل الحـرب بسـبب نوبـة استهتار تعتري هـذا الطـرف أو ذاك ، والحق أن بعـض المفكريـن الأوروبيين اعتنقوا فكرة أن (سفح الدماء الدوري ضرورة تنفسية) .. ومـا هـي الا فرضية سخيفة سفهتها الحرب العالمية الأولى بجـلاء .

خاض المؤرخون عقوداً عدداً في مساجلاتهم حول من يتنكب المسؤولية في اندلاع الحرب العالمية الأولى . ومع ذلك لا يصح تبرئة سـاحة أي بلـد مـن ذلـك الانجرار المحموم الى الهاوية . فقد ساهمت كل القوى الكـبرى بنصيبهـا مـن قصـر النظر وانعدام المسؤولية ، وكذلك الأمر بأزاء روح اللامبالاة التي انعـدم مثيلهـا مـا دامت الكارثة التي تمخضت عنها قد نحتت في صفحات الذاكرة الأوروبيـة . لقـد

نسيت تلك القوى التحذير الذي أطلقه (باسكال) - ان كانت قد سمعته : " اننا سائرون غير آبهين نحو الجحيم بعد أن وضعنا شيئاً يحجب عنا رؤيته ."

ولا مندوحة عن أنحاء اللائمة على تيارات أخرى . حيث حولت أمم أوروبا ميزان القوى الى حلبة سباق تسلح غير مدركة أن التكنولوجيا الحديثة والتجنيد الالزامي العرمرم قد جعلا من الحرب العامة أفدح تهديد لأمنها وللحضارة الأوروبية قاطبة . وبرغم أن جميع أمم أوروبا قد كان لها وبسبب سياستها اضلاع في صنع الكارثة ، فان المانيا وروسيا اللتين تغافلتا عن أي شعور قد يكبح الجماح لا لشيء الا لأنهما قد خلقتا هكذا .

وما كان غير اهتمام ضئيل أعطي لتأثير الوحدة الالمانية على ميزان القوى طيلة عملية التوحيد . لقد كانت المانيا لفترة (٢٠٠) سنة الضحية لا المسبب في حروب أوروبا . ولذلك تكبد الألمان في (حرب الثلاثين عاما) ضحايا بلغت نسبتهم أكثر من ٣٠ ٪ من عدد السكان الكلي ، أضف الى ذلك أن المانيا كانت مسرحاً لجميع المعارك الحاسمة لحروب السلالات الحاكمة في القرن الثامن عشر والحروب النابليونية .

وعليه كان الأمر مقضيا تقريبا أن تتطلع المانيا موحدة الى منع وقوع هذه المآسي . بيد ان الامر ليس كذلك أن تعتبر المانيا الجديدة هذا التحدي مشكلة عسكرية عويصة ، او ان ينهج خلفاء بسمارك سياسة خارجية متسمة بهذا الاعتداد التنمري . فيوم كانت بروسيا في عهد فريدريك الكبير أضعف القوى العظمى ، أصبحت المانيا بعيد التوحيد الأقوى والمكدرة لصفاء بال جيرانها . وبذا

كان المطلوب التحلي بضبط النفس في السياسة الخارجية لو ابتغت المانيا المشاركة يداً بيد مع الأسرة الأوروبية . ويا لسوء الحظ ساعة أمسى الاعتزال الصفة التي افتقدتها المانيا بعد رحيل بسمارك .

ان السبب وراء هاجس ساسة المانيا بالقوة المجردة هو افتقار المانيا لأي اطار فلسفي متكامل كشأن (دول الأمم) الأخرى . فلم يعتنقوا أياً من المثل التي قولبت دولة الأمة في باقي أنحاء أوروبا في البناء البسماركي - لا تأكيد بريطانيا العظمى على الحريات التقليدية ، ولا احترام الثورة الفرنسية للحرية العالمية ، ولا حتى الاستعمار الكوني النمساوي . وقليل القول ان المانيا بسمارك لم تجسد أيا من تطلعات دولة الأمة قط لسبب بسيط هو طرد بسمارك للالمان النمساويين عن عمد . كما كان رايخ بسمارك حيلة ماكرة طالما هو في حقيقته (بروسيا أعظم) ابتغى تعزيز قوتها .

ثم جاء غياب الجذور الفكرية بمثابة السبب الرئيس لطيش السياسة الخارجية الألمانية . فقد أفضت ذكريات الخدمة الطويلة كمسرح حرب أوروبا الرئيسي الى خلق شعور عميق بانعدام الأمان في نفوس الشعب الألماني . وبرغم أن المانيا بسمارك الآن هي الأقوى عوداً في سائر أوروبا ، لطالما أدرك القادة الألمان على غير هدى التهديد يطاردهم كما ثبت من وقوع أذهانهم فريسة كوابيس الاستعداد العسكري التي فاقمتها الخطب النارية المحرضة على الحرب . وكم جال رأس المخططين العسكريين الألمان على الدوام بهواجس القتال على (جميع) الجبهات بوقت واحد وهم اذ أطلقوا عنان خيالاتهم لذلك السيناريو الأسوأ ، عملوا على صياغته الى حقيقة لأن المانيا القوية لحد تدحر فيه ائتلاف من

جميع جيرانها أمر كان أكثر وضوحا من مقدرتها على صرع أي منهم على انفراد . وازاء منظر العملاق العسكري الألماني الرابض على حدود الجيران ، سلك أولئك الجيران درب التقارب والتكاتف أكثر ابتغاء الحماية المتبادلة ، وبذا أحالوا مرام المانيا في الأمن عاملا لانعدام أمنها .

رب سياسة حكيمة متزنة كان لها أن تؤجل أو ربما تتحاشى ذلك الخطر الا أن خلفاء بسمارك الذين تناسوا اتزانه عولوا أكثر وأكثر على القوة المجردة مثلما عبروا عنها في احدى بياناتهم " المحبوبة " - بأن المانيا عليها أن تكون مطرقة وليس سندانا للدبلوماسية الأوروبية . وبدا الأمر كما لو أن المانيا انفقت كثيراً من طاقاتها على تحقيق " دولة الأمة " حتى لم يتسن لها وقت التفكير في الغرض الذي تسعى اليه الدولة الجديدة هذه . فما حصل سابقا أن سعت الامبراطورية الألمانية الى تطوير مفهوم مصالحها القومية . وهكذا ، ولأنهم تأرجحوا بين عواطف الآنية وانعدام القدرة على تحسس نفسيات العالم الخارجي ، جمع من أتى بعد بسمارك من قادة المانيا بين الوحشية والتردد ، فقذفوا ببلدهم أولاً نحو العزلة وثانياً الى مجزرة الحرب الفتاكة .

لقد أجهد بسمارك نفسه في تخفيف امارات قوة المانيا مستعينا بمنظومة تحالفاته الدقيقة في تقييد شركائه الكثيرين وكظم تناقضاتهم الكامنة من الانفجار بصورة حرب . فيما افتقر خلفاؤه لمثل هذه الأناة والبراعة اللازمين لهذه المهام المعقدة . ولما حلت منية الامبراطور وليام الأول عام ١٨٨٨ ، ارتقى العرش نجله فريدريك (الذي اقضت ليبراليته مضجع بسمارك) لمدة ثمانية وتسعين يوماً أصيب بعدها بسرطان الحنجرة . فخلفه نجله وليام الثاني الذي أوحت سيرته التاريخية

للمراقبين بشيء غير مستحب يقول أن حاكم أقوى أمة أوروبية غير ناضج وغريب الأطوار . وهنا عزى علماء النفس تنمره غير المتزن الى محاولته التعويض عن ولادته بذراع مشوهة - انها لضربة عنيفة لأحد أعضاء الأسرة الملكية البروسية ذات التقاليد العسكرية المجيدة . حتى حل عام ١٨٩٠ ليشهد طرد الامبراطور المتهور بسمارك رافضاً الحكم تحت ظل شخصية محنكة قديرة . ومذ حينها غدت دبلوماسية القيصر قطب الرحى في السلم الأوروبي . وهنا وصف (ونستون تشرشل) جوهر وليام بأسلوب تهكمي لاذع : [لا يفعل غير أن يتخطتر متمايلاً ذات اليمين وذات الشمال ثم يستوي ليقعقع حسامه غير الممتشق . كان ينشد أن يغدو نابليون دون خوض معاركه . وأكيد أن أقل من هذا لن يفي بالمرام . فان كنت على قمة بركان فأقل ما تفعله هو أن تدخن . ولذلك فقد دخن فتشكلت أمام من يحدق فيه من بعيد كتلة من السحاب نهاراً ولهيب نار في الليل ، وهكذا وعلى نحو بطيء شوش هذا المنظر على أذهان المحدقين فجمعوا شملهم واتحدوا من أجل الحماية المتبادلة .

ولكن تحت كل هذه المظاهر وتضليلاتها تجد رجلاً عادياً جداً يملأه الغرور غير أنه حاصل تحصيل حسن النية ، أمله القفز بنفسه لأعلى ليغدو " فريدريك الكبير " الثاني] .

ان أقصى مارنا اليه القيصر الألماني هو الاعتراف الدولي بأهمية المانيا سيما قوتها . وسعى الى اتباع ما أسماه هو وحاشيته " السياسة الكونية " دونما تعريف للمصطلح أو علاقته بالمصالح الألمانية الدولية . فقبع وراء الشعارات خواء فكري : لغة قاسية حجبت فراغا باطنياً ، وشعارات رنانة طنانة طوت الجبن

والافتقار الى أي ادراك للسبيل السائرة فيه . لقد عكس الخيلاء الممزوج بانعدام القرار الفعلي تركة قرنين من الاقليمية الألمانية . وحتى لو كانت السياسة الألمانية حكيمة ومسؤولة ، فانها لمهمة كأداء تلك التي تزمع صهر العملاق الألماني في البودقة الدولية القائمة . بيد ان المزج الانفجاري بين الشخصيات وبين المؤسسات المحلية حال دون سير الأمور بهذا الاتجاه ، اخذاً اياها بدلاً من ذلك صوب سياسة خارجية لا عقلانية جاءت لألمانيا بكل شيء أوجست خيفة منه .

اذ نجحت المانيا في السنين العشرين بعد طرد بسمارك في دعم قلب تحالفات لدرجة مخيفة . اذ دنت فرنسا وبريطانيا عام ١٨٩٨ من شفا حرب حول مصر . وغدت العداءات بين بريطانيا العظمى وروسيا السمة البارزة للعلاقات الدولية جل القرن التاسع عشر . وبحثت بريطانيا العظمى في أوقات مختلفة عن حلفاء لها ضد روسيا فجربت المانيا قبل أن تتجه الى اليابان . وليس ثمة امرء قد يتصور احتمالية تكتل بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا تحت راية واحدة . بيد أن هذا الذي حصل تحديداً بعد مرور عشر سنوات وتلك هي عواقب الدبلوماسية الألمانية اللحوحة المولعة بالتهديد .

لم يحاول بسمارك بالرغم من تعقيد مناوراته تجاوز مباديء توازن القوى . ومع هذا لم ينم من جاء من بعده قرير العين من توازن القوى ، و لم يبد قط أنهم استوعبوا حقيقة أنهم كلما ضاعفوا قوتهم ، فانما يشجعون أكثر على عقد أحلاف جديدة ، ويحفزون أكثر على زيادة التسلح وهو الأمر المتأصل في طبيعة نظام التوازن الأوروبي .

استياء القادة الألمان من نفور بلدان أخرى من الانضواء تحت راية أمة هي الأقوى في أوروبا ، فلاح أمام القادة الألمان أن التكتيكات المتنمرة خير سبيل لاعادة جيرانها الى حدود قوتهم الحقيقية وربما اعادة فوائد صداقة المانيا . فجاء هذا المسلك المهيمن بنتيجة عكسية .فقادة المانيا بعد بسمارك اذ حاولوا تحقيق الأمن الشامل لبلدهم ، انما هددوا جميع البلدان الأخرى بنسف شامل لأمنها ، فأثاروا بذلك ائتلافات مضادة بصورة تلقائية تقريباً . وما كانت ثمة طرق دبلوماسية قصيرة نحو الهيمنة ، والطريق الوحيد لها هو الحرب ، ذلك هو الدرس الذي لم يتعلمه القادة القرويون بعد بسمارك الا بعد أن سبق السيف العذل على تجنب كارثة كونية .

هي السخرية التي رأت في روسيا وليس في المانيا - لأطول جزء في تاريخ المانيا الامبراطوري - تهديداً للسلام . فالقناعة سكنت رأسي (بالمرستون) ومن ثم (دزرائيلي) بنوايا روسيا الى التوغل في مصر والهند ، ريثما حل عام ١٩١٣ وفيه سكن عين الخوف القادة الألمان أن الحشود الروسية باتت أوشك على غلبتهم وكان لهذا الأمر شديد الوقع على صنع قرارهم القدري بأرجاء حسم القضية الى سنة القادمة .

لقد غاب في حقيقة الأمر الاكسر من دليل ضعيف قد يبرر الخوف من الطمع الروسي للصيرورة امبراطورية أوروبية . فادعاءات الاستخبارات العسكرية الألمانية عن حيازتها على بينة عن أعداد روسيا عدتها لمثل هذه الحرب كانت صحيحة تماما كما كانت ليست بذات علاقة . ذلك أن جميع بلدان كلا الحلفين كانت مسعورة بحمى التكنولوجيا الحديثة لمشاريع السكك الحديد والتعبئة ،

وجميعها انهمكت في استعدادات عسكرية تفوق ما تستحقه أي قضية متنازع عليها . لكن هذه التحضيرات كانت ، كما وجدوها ، نذر أطماع شرهة وان كانت غامضة ، طالما هي لم تنتم الى أي غرض محدد . وبهذا اعتنق الأمير (فون بولوف) مستشار المانيا للفترة بين (١٩٠٠ - ١٩٠٩) رأى فريدريك أن " الامبراطورية الروسية من بين جميع جيران بروسيا هي الأخطر بقوتها وبموقعها " .

وفي الأماكن الأخرى ، أحست أوروبا بشيء مخيف حقاً ينم عن اتساع وقوة عزيمة روسيا . فهرعت جميع دول أوروبا تتكتل عبر التهديدات والتهديدات المضادة . غير أن روسيا بدت مجبرة على التوسع وفق نمط من صنعها ، ولا يستطاع احتواؤه الا بنشر قوة أقوى ، وبالحرب عادة . كما لاحت قدرة روسيا في جميع الازمات الكثيرة بلوغ تسويات معقولة هي في حقيقتها أفضل بكثير مما يحصل في خاتمة المطاف . ومع ذلك آثرت روسيا على الدوام أن المخاطرة بخسارة الحرب على التسوية . وهذا قول يصدق على حرب الكريميا (١٨٥٤) ، وحروب البلقان (١٨٧٥-١٨٧٨) ، وقبل الحرب الروسية - اليابانية عام ١٩٠٤ .

يكمن أحد أسباب هذه التوجهات في انتماء روسيا جزئياً الى أوروبا وجزئياً الى آسيا . ففي الغرب كانت روسيا جزءاً من الأسرة الأوروبية وشاركت في وضع القواعد العريضة لميزان القوى . ومع هذا كان نفاذ الصبر صفة القادة الروس عموماً تجاه نداءات حفظ التوازن وكان صوبهم الحرب لو لم تجاب مطالبهم ، ولنا في هذا الأمر مثال في الذي حصل في مطلع حرب الكريميا عام

١٨٥٤ ، وحروب البلقان ، ومرة أخرى عام ١٨٨٥ حين كادت روسيا أن تخوض غمار حرب مع بلغاريا . وفي آسيا الوسطى تعاملت روسيا مع امارات ضعيفة لا ينطبق عليها مبدأ توازن القوى ، وفي سيبيريا - حتى اصطدمت باليابان- استطاعت التوسع بمثل ما توسعت أمريكا في قارة ضئيلة السكان .

كان على روسيا في المحاضر الأوروبية الاصغاء للمناظرين من أجل توازن القوى ، لكنها ما التزمت بمبادئها دوما . فاذ أكدت الأمم الأوروبية دوماً حتمية وجوب حسم مصير تركيا والبلقان بين الأسرة الأوروبية ، انطلقت روسيا تعالج المسألة لوحدها وعن طريق القوة - في معاهدة (ادريانو بول) عام ١٨٢٩ ، معاهدة (انكاير سكليسي) عام ١٨٣٣ ، والاشتباك مع تركيا عام ١٨٥٣ ، وكذلك حربي البلقان (١٨٧٥ - ١٨٧٨)و ١٨٨٥ . فقد أملت أن تلتفت الأسرة الأوروبية الى السبيل الآخر وحنقت لعدم فعلها ذلك . وعين المشكلة تكررت بعيد الحرب العالمية الثانية حين قال الحلفاء الغربيون بتعلق مصير أوروبا الشرقية بأوروبا بأسرها ، فيما أصر ستالين على دخول أوروبا الشرقية وبخاصة بولندا في الخيمة الروسية وبذا يجب حسم مستقبلها من دون تدخل الديمقراطيات الغربية . وعليه تصرف ستالين بصورة انفرادية مثل اسلافه القياصرة ، وعلى أية حال كان من المحتم ان يتشكل ائتلاف قوى غربية لمقاومة الاملاءات الروسية على جيرانها واذن استغرق الأمر فترة جيل بعد الحرب العالمية الثانية كي يتخذ القالب التاريخي شكله .

وندر أن أبدت روسيا في سيرها قدراً من الالتزام بمديات محدودة لها . اذ اختزنت ، وقد أحبطت ، غيظها وعينت أوقات ثأرها - ضد بريطانيا العظمى في

جل القرن التاسع عشر ، وضد النمسا بعد حرب الكريميا ، ضد المانيا بعد مؤتمر برلين ، وحتى ضد الولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة . وسيبقى مما يجب مراقبته هو رد فعل روسيا السوفيتية حيال انهيار امبراطوريتها التاريخية وتلاشي التوابع الدائرة في فلكها ، حالما تفيق تماما من هول صدمة تمزقها .

واذا ما أجلنا بصرنا صوب آسيا لرأينا أن الشعور الروسي برسالتها أقل تأثراً بالقيود الجغرافية ، فعلى مدى القرن الثامن عشر ومعظم التاسع عشر وجدت روسيا نفسها طليقة وحيدة في الشرق الأقصى . فكانت أول قوة أوروبية تعاملت مع اليابان وأول من عقد اتفاقية مع الصين . وما أفضى هذا التوسع المنجز على يد حفنة من دعاة التسوية والمغامرين الى حرب مع القوى الأوروبية . أما الصدامات المتفرقة مع الصين فليس لها أهمية تذكر بينما عمدت الصين حيال الدعم الروسي للقبائل المحاربة الى التخلي عن مناطق واسعة لصالح الادارة الروسية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فصنعت " معاهدات غير متكافئة " شجبتها جميع الحكومات الصينية بعد ذلك العهد وخاصة الشيوعية منها .

وظهر أن الشهية الروسية للأراضي الآسيوية تنمو بشراهة مع كل كسب جديد . اذ كتب (سيرج ويت) وزير المالية الروسي واحد المقربين للقيصر نيقولا الثاني : " بالنظر الى طول حدودنا الشاسعة مع الصين وموقعنا الاستثنائي الممتاز ، فان ابتلاع روسيا لجزء فسيح من الامبراطورية الصينية ليس سوى مسألة وقت " . وفيما يخص الامبراطورية العثمانية رأى قادة روسيا أن الشرق الأقصى شأناً روسياً وليس لبقية دول العالم حق التدخل . وقد جاءت التوسعات الروسية على جميع

الجبهات بوقت واحد أحياناً ، والأغلب أنها تراوحت بين تقدم وتراجع حسب وجود مناطق التوسع الأقل خطراً .

لقد عكست أدوات صنع سياسة الامبراطورية الروسية الطبيعة المزدوجة للامبراطورية . فوزارة الخارجية كانت قسم أرشيف مليء بالمسؤولين المستقلين زائغي الأبصار نحو الغرب أساساً . ولما كانوا المانا بلطيقيين غالباً فقد اعتبروا روسيا دولة أوروبية ينبغي تنفيذ سياساتها داخل الأسرة الأوروبية . ومهما يكن من أمر ، اصطدم قسم الأرشيف هذا بالدائرة الآسيوية التي كانت مثل نظيرها مستقلة ومسؤولة عن السياسة الروسية تجاه الامبراطورية العثمانية ، والبلقان ، والشرق الأقصى - أي عن أية جبهة كانت روسيا تتوغل فيها . لم تر الدائرة الآسيوية نفسها جزءاً من الأسرة الأوروبية ، وهي قد عاملت الأمم الأوروبية لأنها وجدتها احجار عثرة أمام مشاريعها ، باهمال وسعت متى سنحت الفرصة الى تحقيق الغايات الروسية بواسطة معاهدات انفرادية أو عن طريق حروب تشعل فتيلها بدون اعارة قلامة ظفر من الاهتمام لأوروبا . واذا أصرت أوروبا على وجوب تسوية قضايا البلقان والامبراطورية العثمانية على يد الأسرة الأوروبية ، كان لا مناص من نشوب الصراعات المتواصلة ، فيما تفاقم غيظ روسيا من اعتراضها بهذه الطريقة على يد قوى اعتبرتها روسيا متطفلة .

توسم التوسع الروسي الدفاعي في بعضه والهجومي في بعضه الآخر على الدوام بصفة الغموض ، وهو ما سخن وطيس مجادلات الغرب حول نوايا روسيا الحقيقية التي بقيت طيلة العهد السوفيتي . يكمن أحد أسباب عسر استكناه أغراض روسيا في مضارعة الحكومة الروسية حتى في العهد الشيوعي للبلاط

الاستبدادي (الأوثوقراطي) للقرن الثامن عشر أكثر من شبهها لقوة عظمى في القرن العشرين . فقد فشلت روسيا الامبراطورية وحتى الشيوعية في انجاب وزير خارجية عظيم الشأن . واذا كان جميع وزراء خارجيتها مثل (نسلرود ، وغورشاتوف ، وغيرز ، ولامسدورف ، وحتى غروميكو) مقتدرين ولا شيء ينقصهم ، فقد افتقروا الى صلاحية تطبيق سياسة خارجية طويلة الأمد . فما كانوا غير أشخاص أعلى بقليل من كونهم خدماً لحاكم استبدادي مهووس ذي مزاج رجراج ، لأجله كان عليهم أن يشقوا طريقهم وسط مشاكل داخلية طاغية . لقد خلت الامبراطورية الروسية من بسمارك ، أوسالزبري أو روزفلت - أي لم يحظ أي وزير بالصلاحيات التنفيذية في الشؤون الخارجية .

وحتى يوم كانت لشخصية القيصر الحاكم اليد الطولى ، حال النظام الاستبدادي (الأوتوقراطي) لصنع السياسة الروسية ، دون تطوير سياسة خارجية متناسقة . فما أن يجد القياصرة وزير خارجية يشعرون بالارتياح منه ، سعوا للاحتفاظ به حتى يهن العظم منه ويبلغ سن الخرف ، كما حصل مع نسلرود وغورشاكوف ، وغيرز ، وجميعهم شغل منصبه جل القرن التاسع عشر . واذ بلغوا من الكبر عتياً ، ما برح الساسة الأجانب يراهم الشخصيات الوحيدة التي تستحق المقابلة في سانت بطرسبرغ لأنهم الأوحد بين المسؤولين الأقرب للقيصر والأقدر على رؤيته. بينما حظرت البروتوكولات من الناحية الفعلية على أي شخص آخر طلب مقابلة القيصر .

بيد أن الذي فاقم عملية صنع القرار تعقيداً هو اصطدام صلاحية القيصر التنفيذية على الدوام بنوازعه الارستقراطية ذات الطابع الامرائي . فمثلا ، ما كاد

يجف مداد توقيع معاهدة اعادة الضمان وهي منعطف رئيسي في الشؤون الخارجية الروسية ، حتى غادر الكسندر الثالث سانت بطرسبرغ أربعة أشهر متوالية من تموز الى تشرين الأول ١٨٨٧ ليسري عن بنفسه بركوب اليخوت والتفرج على المناورات ، وزيارة أنسابه في الدنمارك . وهكذا ، وازاء ابتعاد صانع القرار الوحيد دبت الفوضى في صفوف السياسة الخارجية الروسية . فلم يقتصر الأمر صيرورة انفعالات اللحظة الموجه لسياسات القيصر ، هي قد خضعت بشدة لتأثير الأهواء القومية التي يؤججها الجيش و لم يعر المغامرون العسكريون مثل الجنرال كوفمان في آسيا الوسطى اهتماما يذكر لوزراء الخارجية . ولعل غورشاكوف قد باح بالحقيقة حول ضآلة معرفته بآسيا الوسطى أثناء محادثاته مع السفراء البريطانيين التي عرجنا عليها في الفصل السابق .

ولما آلت مقاليد الحكم الى نيقولا الثاني من ١٨٩٤ الى ١٩١٧ ، سيء لروسيا أن تدفع ثمن عشوائية مؤسساتها . فقد أودى نيقولا بروسيا الى هاوية حرب مأساوية مع اليابان ثم جعل من بلده أسيرة مجموعة أحلاف حتمت الاصطراع مع المانيا من الناحية الفعلية . و لم ترتق البنية السياسية و الاجتماعية الروسية الا قليلا بينما حشدت طاقاتها للنشاطات التوسعية والصراعات الخارجية التي لا مفر منها آنذاك . فكان لزاماً أن تومىء الهزيمة مع اليابان عام ١٩٠٥ الى قصر الوقت المخصص للبناء الداخلي - تلك الايماءة التي تبناها المصلح العظيم (بطرس ستوليبن) . ذلك أن الراحة هي ما احتاجتها روسيا ؛ بيد أنها لم تفعل غير القيام بمغامرة خارجية أخرى . وبعد أن اندحرت في آسيا ، عادت لحلمها السلافي واندفعت نحو القسطنطينية التي باتت هذه المرة خارج سيطرتها .

ان موضع السخرية هنا هو أن التوسع بعد نقطة معينة لم يعد يعزز قوة روسيا بل أخذت تزحف اليها بسببه عوامل الانحطاط . فبعد سبعين سنة على عام ١٨٤٩ الذي غدت فيه أقوى أمة في أوروبا ، انتهى حكم سلالتها الحاكمة ، وأختفت أحيانا من مراتب القوى العظمى . وبين عامي ١٨٤٨ و ١٩١٤ تورطت روسيا بما يزيد عن ست حروب (عدا الحروب الاستعمارية) وهو عدد أكبر بكثير من حروب أية دولة كبرى أخرى . وباستثناء التدخل في بلغاريا ، فاقت الخسائر المالية والسياسية لكل من هذه الحروب الأرباح المأمولة منها . وبرغم ناقوس الخطر الذي قرعته كل هذه الحروب ، استمرت روسيا في الاعتراف بمنزلة القوة الكبرى من خلال التوسع الاقليمي ، فظلت متعطشة لابتلاع مزيد من الأراضي لم تكن بحاجة اليها ولا بقادرة على هضمها . وفي هذا وعد مستشار نيقولا الثاني المدعو (سيرج ويت) : " لسوف تمد روسيا سلطانها من شواطيء المحيط الهادي وقمم الهملايا ليس على شؤون آسيا وحسب بل وعلى شؤون أوروبا أيضا " . ان التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتطور السياسي لهو أكثر فائدة بكثير للدولة العظمى في العصر الصناعي من اكتساب تابع في بلغاريا أو محمية في كوريا .

ولم يؤت الحكمة غير ثلة من القادة الروس مثل غورشاكوف في ظنهم أن " مد الاقليم بالنسبة لروسيا يعني مد رقعة الضعف " ، غير أن آراءهم لم تنجح مطلقاً في تهدئة الهوس الروسي بفتوحات جديدة . حتى حلت النهاية بانهيار الامبراطورية الشيوعية لنفس العلل تقريبا التي أصيب بها القيصر . فقد كان من

الأفضل بكثير للاتحاد السوفيتي لو بقي ضمن حدوده بعيد الحرب الكونية الثانية وشكل علاقات مع ما سمي بالفلك التابع نظيرة للعلاقات التي أقامها مع فنلندا .

ان احتمال نشوب صراع بوسط القارة لينشأ حين يتوتر الموقف ويسخن الجو بين عملاقين - المانيا القوية الطائشة ، وروسيا الكبيرة القاسية ، وليس للأمر علاقة بوجود أو عدم وجود شيء يمكن لألمانيا جنيه من حرب مع روسيا ، أو بامتلاك روسيا لكل ما يمكن أن تخسره في حرب مع المانيا . ولذلك توقف سلم أوروبا على البلد الواحد الذي هندس التوازن ببراعة عظيمة وبهدوء بارع طيلة القرن التاسع عشر .

ما برحت سياسة بريطانيا الخارجية قابعة في " عزلتها الرائعة " لعام ١٨٩٠ . لقد أشار البريطانيون بفخر الى بلدهم بأنه " محور التوازن " في أوروبا ، وهي البلد الذي منع ثقله أيا من الائتلافات المختلفة بين القوى الأوروبية من الهيمنة المطلقة أما الدخول بهذه الأحلاف فكان تقليداً بغيضا لساسة بريطانيا مثلما هو لدعاة العزلة الأمريكان . ومع ذلك ما هي الا خمس وعشرون سنة حتى سفح الانكليز دماء مئات الألوف من أبنائهم في الميادين الموحلة للفلاندرز حين قاتلوا الى جانب الحليف الفرنسي ضد الخصم الألماني .

تحقق تغير مشهود في سياسة بريطانيا الخارجية بين عامي ١٨٩٠ و ١٩١٤ . فما هي بمفارقة بسيطة ان الرجل الذي قاد بريطانيا العظمى في النصف الأول من شوط التغير هذا قد جسد كل ما هو تقليدي لبريطانيا العظمى وسياستها الخارجية . اذ كان المركيز سالزبري المنتمي المطلق ، فهو سليل عائلة

(سيسل) العريقة التي كـان أسـلافه فيهـا قـد تبـوءوا المنـاصب الوزاريـة السـامية للممالك البريطانية منذ عهـد اليزابيث الأولى . كمـا عـرف عـن الملـك (ادوارد السابع) الذي تربع على العرش من ١٩٠١ الى ١٩١٠ وانحـدر مـن عائلـة حديثـة النعمة قياساً الى عائلة (سيسل) أنه قد اشتكى أحيانا من اللهجة المهينة التي دومـاً ما تحدث سالزبري بها اليه .

كان ارتقاء سالزبري سدة لسياسة أمراً مكتوباً مثلمـا نالـه بـلا عنـاء . اذ جاب الشاب سالزبري تعليمـه في كنيسـة يسـوع في أكسـفورد ، ربـوع أوروبـا فأتقن الفرنسية ، والتقى رؤساء الدول . فلما بلـغ الثامنـة والأربعـين وبعـد تبوئـه منصب نائب الملك في الهند ، أصبح وزيراً لخارجية دزرائيلي ولعـب دوراً بـارزاً في مؤتمر برلين حيث أجرى معظم المفاوضات اليومية ، وعلـى أثـر مـوت غلادستون تولى زعامة حزب المحافظين حتى غدا ، ما خلا آخر حكومة لغلادستون (١٨٩٢ - ١٨٩٤) ، الشخصية الأبرز في السياسة البريطانية في آخر خمسة عشر عاما مـن القرن التاسع عشر .

وبنظرة الى بعض النقاط يتضـح أن منصـب سـالزبري لم يكـن مختلفـا عـن منصب الرئيس جورج بوش برغـــم خدمـة الأول فـترة أطـول في أعلـى منـاصب دولته ، اذ تخطى كلاهما عالما كان يتراجع في يوم تبوأ السلطة ، وتلـك حقيقـه لم تتضح لكليهما . كما ترك كلاهمـا أثراً ينم عن معرفة بكيفية التصرف بما ورثاه . فقد تبلورت نظرة بوش الى العالم عـبر الحـرب البـاردة الـتي بـزغ فيهـا نجمـه ومـع نهايتها نال الزعامة في أوج سيرته ، فيما تمت التجارب الـتي عجنـت سـالزبري في عهد بالمرستون الشامخ في ظل القوة البريطانية عديمـة المنـافس فيمـا وراء البحـار ،

واتسمت بخصومة انكلو - روسية لدودة ، وكان جليا أن كليهما تسعى الى قبر زعامتهما .

انبغى على حكومة سالزبري أن الاصطراع مع الانحطاط لمكانة بريطانيا العظمى النسبية . فها هي المانيا توازيها في القوة الاقتصادية ، فيما عززت روسيا وفرنسا مساعيهما الامبراطورية وأضحتا تتحديان الامبراطورية البريطانية في كل مكان تقريبا . فقد تآكلت الهيمنة التي تمتعت بها بريطانيا في متصف القرن التاسع عشر برغم حقيقة أنها لما تزل صاحبة اليد الطولى . فتلمس القادة البريطانيون في تسعينات القرن التاسع عشر حاجة الى تكييف السياسة التقليدية للحقائق غير المتوقعة ، وهو تماماً ما قام به بوش من التهيؤ بمهارة لما لم يحدسه .

راح سالزبري ذو الوزن الثقيل والبشرة المجعدة ، يجسد ارتياح بريطانيا العظمى (بالوضع القائم) أكثر مما فعله بهدف التغيير . ووعد واضع عبارة " العزلة الرائعة " بمواصلة السياسات البريطانية التقليدية باتخاذ تدابير حازمة بوجه أي قوة امبراطورية ، وكذلك ادخال بريطانيا العظمى في أحلاف قاريه فقط اذا ما أمسى ذلك الحلف آخر ملاذ لمنع الطرف المعتدي من قلب الميزان ، وعنى موقع بريطانيا العظمى الحصين لسالزبري أن السياسة المثالية تدعو الى العمل بنشاط في عرض البحار والابتعاد عن التورط بأي أحلاف تقليدية بداخل قارة أوروبا قائلاً ببرود " انما نحن أسماك " !

ما كان في نهاية المطاف من بد غير ان يعترف سالزبري مضطراً أن تمدد بريطانيا العظمى الامبراطوري المفرط قد خلقته ضغوط روسيا في الشرق الأقصى

والأدنى ، وفرنسا في أفريقيا ، وحتى المانيا التي لبست القفاز ودخلت السباق الاستعماري . اذ اصطدمت فرنسا والمانيا وروسيا وهي التي دوماً ما تطاحنت بداخل القارة الأوروبية على الدوام ببريطانيا العظمى التي لم تشأ الاستحواذ على الهند وكندا وجزء كبير من أفريقيا فحسب ، بل واصرت على هيمنتها على أقاليم شاسعة أخرى أملتها أسباباً احتاجتها لأسباب استيراتيجية تنطوي على حمايتها من السقوط بيد قوة أخرى حتى ان لم تنو السيطرة عليها مباشرة . وأطلق سالزبري على هذا المطلب " نوع من نصب العلامات على مناطق ، لم تشأ بريطانيا العظمى ان تملكها أي قوة أخرى " . وقد اشتملت هذه المناطق على الخليج العربي ، والصين ، وتركيا ، والمغرب ، واذن انغمست بريطانيا العظمى في تسعينيات القرن التاسع عشر باشتباكات لانهاية لها مع روسيا في أفغانستان ، وحول المضائق ، وفي شمالي الصين ، وكذلك مع فرنسا في مصر والمغرب .

وعلى أثر اتفقيات البحر المتوسط لعام ١٨٨٧ ارتبطت بريطانيا العظمى بصورة غير مباشرة بالحلف الثلاثي المؤلف من المانيا والنمسا المجر ، وايطاليا على أمل أن تعزز ايطاليا والنمسا موقف بريطانيا في نزاعها مع فرنسا في شمال أفريقيا ، ومع روسيا في البلقان . بيد أن اتفاقيات المتوسط لم تمثل سوى بديل مؤقت .

تخبطت الامبراطورية الألمانية الجديدة وقد تجردت من شيخ استراتيجيتها ، بما يجب أن تفعله حيال فرصتها . فالحقائق الجيوسياسية ما برحت تخرج بريطانيا من عزلتها الرائعة شيئا فشيئا برغم معارضة التقليديين . ريثما جاء أول تحرك صوب ارتباط أقوى مع القارة لمصلحة علاقات أوثق مع الامبراطورية الألمانية . واذ أدرك صناع السياسة الألمان حاجة روسيا وبريطانيا العظمى اليائسة لبلادهم ،

خالهم أمر بلوغ أن بوسعهم صفقة مـع كلتيهمـا بوقـت واحـد دون تحديـد معـالم الصفقة التي يبغون أو دون أن يتصوروا أنهم انما قد يقاربون بـين روسـيا وبريطانيـا العظمى أكثر . وحيال لقيانهم الصدود بوجه هذه العروض المنطوية علـى " كـل شيء أو لا شيء اطلاقاً " ، كان الوجوم يسيطر عليهم ليستحيل سراعاً الى سـلوك وحشي ضار . ما أشد التناقض بين هذا الأسلوب وأسلوب فرنسـا الـتي وطـدت نفسها على تحقيق تقـدم بطـيء خطـوة فخطـوة ، تـتربص روسـيا لعشـرين عامـا وبريطانيا لخمسـة عشـر عامـا ريثمـا تصـل اتفاقيـة معهمـا . فـبرغم كـل التطبيـل والعربدة التي مارستها المانيا ما بعد بسـمارك ، كـانت سياسـتها الخارجيـة فجـة ، قصيرة النظر وحتى هيابة وجلة ازاء المواجهات التي بذرت بذورها بنفسـها وحـان وقت قطافها .

هو زمن قصير بعيد طرد بسمارك حتى أنجز وليام الثاني أولى تحركاتـه عـام ١٨٩٠ ضمن ما غدا سياقاً قدرياً ليس قصير الأمد تمثـل في رفضـه عـرض القيصـر الروسـي تجديـد معـاهدة اعـادة الضمـان لثلاثـة أعـوام أخـرى . أن قيصـر المانيـا ومستشاريه حين رفضوا هذه المفاتحة في مطلع حكمهم انمـا سـحبوا أهـم خيـط في نسيج نظام تحالفات بسمارك المتشابكة . وما دفعهم لذلك ثلاثة اعتبـارات : أولاً رغبتهم بجعل سياستهم " بسيطة وشفافة " ما استطاعوا لذلك سبيلا (انطلاقا مـن اعتراف المستشار الجديد (كابريفي) مرة بأنه لا يمتلك قـدرة بسـمارك في الابقـاء على ثماني كرات معلقة في الهواء بوقت واحد) ؛ وثانيهما نزعتهم الى اعادة طمأنة النمسا أن تحالفها واياهم يقع في قمـة أولويـاتهم ؛ وأخـيراً لأنهـم اعتـبروا معـاهدة اعادة الضمان عائقاً أمام منهجهم المفضل بالتحالف مـع بريطانيـا العظمـى . لقـد

عكست جميع هذه المفاهيم انعدام الفهم الجيوسياسي الذي حدا بالمانيا في عهد وليام الثاني الى عزل نفسها . وما هذا الا أن التعقيد شيء متأصل وملازم لموقع المانيا وللتاريخ ، فليست هناك سياسة " بسيطة " يمكن أن تأخذ بالحسبان جميع الجوانب الكثيرة . وتحديداً كان غموض تزامن عقد المعاهدة الروسية مع تشكيل حلف مع النمسا الذي أتاح لبسمارك أن يتصرف كموازن بين المخاوف النمساوية والأطماع الروسية مدة عشرين عاماً بمنأى عن الاختصام مع كليهما منفصلين ، أو حتى تصعيد أزمات البلقان المزمنة . وعليه تمخض انهاء معاهدة اعادة الضمان عن عكس ذلك الحال تماما : فقد انعش تقلص خيارات المانيا روح المغامرة النمساوية ؛ وذلك ما أدركه وزير الخارجية الروسي (نيكولاي دي غيرز) فوراً قائلاً : " مع الغاء المعاهدة -معاهدة اعادة الضمان - تخلت فينا عن حكمتها وتحللت من نواياها الطيبة ، بل وحتى أفلتت من قبضة الأمير بسمارك القوية " .

ولم يقتصر تأثير انهاء المعاهدة على فقدان المانيا نفوذها بوجه النمسا وحسب ، بل وقوف كل شيء قد أجج القلق الروسي . فقد فسرت سانت بطرسبرغ هذه التطورات بأنها تحضير لدعم النمسا في البلقان . وعندما جعلت المانيا من نفسها حاجزاً أمام الأهداف الروسية في منطقة لم تمثل يوماً مصلحة حيوية لألمانيا ، استقر في ذهن الروس أن يبحثوا عن ثقل مقابل ليتكلوا عليه ، وهو ما تاقت فرنسا لتمثيله .

وما عزز اندفاع روسيا نحو الجانب الفرنسي أيضاً هو معاهدة استعمارية عقدتها المانيا مع بريطانيا العظمى أعقبت بسرعة رفض قيصر المانيا تجديد معاهدة

اعادة الضمان والتي حصلت بموجبها بريطانيا العظمى من المانيا على مصادر (النيل) وعلى أقاليم شرقي أفريقيا بضمنها جزيرة (زنزبار) . فيما نالت المانيا مقابل ذلك شريطا برياً غير مهم نسبيا يربط جنوب غربي أفريقيا بنهر (زامبزي) وهو ما يطلق عليه (شريط كابريفي) ، مع جزيرة (هلغولاند) في بحر الشمال لها أهمية استيراتيجية في حماية الساحل الألماني من هجوم بحري .

انها ليست بصفقة خاسرة لكلا الطرفين برغم أنها أضحت الأولى في سلسلة من حالات سوء الفهم المشترك . فقد ظنت بها لندن وسيلة لتسوية المسائل الاستعمارية في أفريقيا ، بينما رأتها المانيا فاتحة لتحالف انكليزي - الماني ، فيما ذهبت روسيا ابعد من ذلك بوصفها اياها خطوة انكلترا الأولى نحو (الحلف الثلاثي) . وهكذا كتب السفير الروسي في برلين (بارون ستال) تقريره العاجل عن هذا الميثاق بين صديق بلده التاريخي (المانيا) وعدوه التقليدي (بريطانيا العظمى) قائلا :

[عندا يتوحد طرف بفضل مصالح متعددة وارتباطات ايجابية في جانب واحد من الكوكب ، لبات المرء موقناً بضرورة العمل ضمن جوقة كاملة وفي وفاق حيال جميع المسائل الكبيرة التي تطفو على سطح الميدان الدولي ...... وهكذا قد تحقق الانفتاح مع المانيا واكتمل من الناحية الفعلية . ولن يفضي الاّ تنشيط علاقات انكلترا مع قوى أخرى في الحلف الثلاثي] .

واذن دخل كابوس بسمارك التحالفي طور التشكل ، ذلك أن نهاية معاهدة اعادة الضمان هي التي مهدت السبيل لحلف فرنسي - روسي .

لقد حسبت المانيا ان فرنسا وروسيا لن تعقدا حلفا لعدم وجود مصلحة روسية في الاصطراع من أجل الالزاس – اللورين ، لفرنسا ليست دوافع للقتال من أجل السلافيين في البلقان . وذا ما ثبت أنه أحد أفدح أخطاء الحسابات الخاطئة لزعامة المانيا بعد بسمارك . فمتى ما كرست المانيا نفسها بشكل لا عودة عنه للجانب النمساوي ، لغدت روسيا وفرنسا في فاقة للأخرى لا تكبحهما درجة اختلاف اهدافهما . فكلاهما أعجز عن تحقيق أهدافه الاستراتيجية من دون دحر أو في الأقل أضعاف المانيا . اذ ادركت فرنسا تلك الحاجة لعلمها اليقين باستحالة اعادة المانيا للالزاس – اللورين من غير سبيل الحرب ، فيما فقهت روسيا عجزها عن وراثة الاجزاء السلافية من الامبراطورية النمساوية بعيداً عن الحاق الهزيمة بالنمسا – وهو ما أوضحت المانيا مقاومتها له من خلال رفضها تجديد معاهدة اعادة الضمان . وبعد هذا وذاك لم تكن لروسيا فرصة تحرك ضد المانيا بمنأى عن معونة فرنسا .

وقعت فرنسا وروسيا قبل انقضاء عام على رفض المانيا توقيع معاهدة اعادة الضمان ، (الحلف الودي) الذي نص على تبادل المساعدة الدبلوماسية بينهما . وفي هذا حذر وزير الخارجية الروسي الأريب (غيرز) بان الاتفاقية لن تنهي المشكلة الأساسية ذات الجوهر أن بريطانيا العظمى لا المانيا خصم روسيا الأول . فتطلعت فرنسا يائسة الى عجزها عن الافلات من العزلة التي فرضها بسمارك عليها ، ومالت الى اضافة نص لتلك الاتفاقية يلزم فرنسا بتقديم دعمها الدبلوماسي لروسيا في أية حرب استعمارية مع بريطانيا العظمى .

بدا هذا النص المناويء لبريطانيا في عيون قادة فرنسا رسم دخول زهيد الى ما سيغدو يقيناً ائتلافاً ضد المانيا . ومن حينها ان بت الجهـود الفرنسية على مـد اتفاقيتها مع روسيا للصيرورة حلفاً عسكرياً وازاء ذلك امتعض المحافظون الـروس ، فيما انبسطت اسارير القوميين لهذا الميثاق العسكري الـذي مـن شـأنه الاسـراع في عملية تقطيع أوصال الامبراطوريـة النمساوية . فكتـب خليفـة غـيرز آخـر وزيـر خارجية روسي (الكونت فلاديمير لامسدورف) في يومياته مطلع شباط ١٨٩٢ :

[انهم (الفرنسيون) يستعدون أيضا لتطويقنـا بمقترحـات عقـد اتفاقيـة بخصــوص العمليــات العسكرية المشتركة في حالة حصول هجوم يشنه طـرف ثالث ....و لكن لم الاسـراف في عمـل كـذا أشياء ؟ اننا بحاجـة الى السـلم والهدوء نظـراً الى مآســي المجاعـة ، والحالـة المزريـة لوضعنـا المـادي ، ولنقـص برنامجنا التسليحي ، وللحالة التعيسـة لمنظومـة مواصلاتنـا ، وأخـيراً الى النشـاط المتجدد في معسكر العدميين] * .

ومع نهاية الجولة ، تغلب القادة الفرنسيون على شكوك لامســدورف ، أو لعله انهزم أمام القيصر . حتى تم توقيع اتفاقية عسكرية عـام ١٨٩٤ وافقـت فيهـا فرنسا على مساعدة روسـيا لـو هاجمتهـا المانيـا منفـردة أو معهـا النمسـا . وعلـى روسيا ان تدعم فرنسا ان تعرضت لهجـــوم الماني ، أو هجوم المـاني - ايطـالي . واذ كانت الاتفاقية الفرنسية - الروسية لعام ١٨٩١ أداة دبلوماسـية يصـح القـول فيها انها ابتغت مواجهة بريطانيا العظمـى اضافـة الى المانيـا ، فـان الخصـم الوحيـد

* العدمية Nihilism : مبدأ ينكر وجود أساس موضوعي للمباديء الأخلاقية ويقول أيضاً أن أحوال المجتمع هي سيئة درجة جعلت فيها من عمليات الهدم مرغوبة فيها وبمعزل عن أي مسعراً بنائي .

الـــذي يلـوح في هذه الاتفاقية العسكرية هو المانيا . فما دعاه (جورج كينان) " الحلـف القـدري " - بـين فرنسـا وروسـيا عـام ١٨٩١ الـذي تبعتـه الاتفاقيـة العسكرية لعام ١٨٩٤ - كـان الحـد الفاصـــل الـذي أوصـل أوروبـا الى جحيـم الحرب .

انها بداية نهاية توازن القوى . فأفضل مـا يعمـل فيـه ميزان القـوى حـين تتحقق أحد هـذه الشـروط في الأقـل : أولا ، أن تتلمـس جميـع الأمـم حريتهـا في الانضمام الى أية دولة أخرى ، اعتماداً على ظروف تلـك اللحظـة . فقـد اسـتتب التوازن خلال أغلب القرن الثامن عشر بفضل التحالفات المتبدلة باستمرار ، وذات الأمر قـد انطبـق علـى فـترة حكـم بسـمارك حتـى عـام ١٨٩٠ . ثانيـا ، وجـود تحالفات ثابتة لا يبـدو فيهـا التـوازن قائمـاً علـى هيمنـة حلـف واحـــد مـن جمـع الأحلاف - وهو الحال الذي حصل بعد المعاهدة الفرنسية - الروسـية يـوم ظلـت بريطانيا العظمى تلعـــب دور الموازن الذي سـعى كـلا الطرفـين الى كسـب وده. ثالثا : لـو تواجـدت تحالفـات راسـخة وغـاب الطـرف المـوازن يشـرط أن يكـون التماسك بين التحالفات ضعيفاً نسبيا ليفسح المجال - عنـد حصـول أي حـادث - لعقد التسويات أو تبديل التحالفات .

فـان غـابت الشـروط هـذه جميعهـا أو أحدهـا ، لتصلبـت الدبلوماسـية وتحجرت ، وستبرز للعيـان لعبـة جمـع الأصفـار الـتي يكـون فيهـا ربـح أي طـرف خسارة للطرف الآخر . وهكذا لا مناص مـن دخـول سباقات التسـلح وتصعيـد التوازن . هكـذا كـان الحـال أثنـاء الحـرب البـاردة ، وفي أوروبـا بالخفـاء بعـد أن انضمام بريطانيا الى الحلف الفرنسي - الروسي ، وبذا تشكل الحلف الثلاثي الـذي

بدأ عام ١٩٠٨ . وبخلاف ما حصل في الحرب الباردة ، لم يتصلب النظام الدولي بعد عام ١٨٩١ عقب تحد واحد . اذ احتاج الأمر خمسة عشر عاما لتحطيم مرونة كل من تلك العناصر الثلاثة على التوالي حيث توقف ميزان القوى عن العمل بعد تشكيل ذلك الحلف الثلاثي . وأضحت اختبارات القوة هي القاعدة وليست الاستثناء . وتلاشت الدبلوماسية باعتبارها فن التسوية . فما عاد الأمر سوى مسألة وقت ريثما تنشب أزمة ما لتجعل الأمر خارج نطاق السيطرة .

بيد أنه عام ١٨٩١ يوم اصطفت فرنسا وروسيا ضد المانيا التي ما برحت فيه الأخيرة تأمل بقدرتها على تكوين حلف مقابل مع بريطانيا العظمى والذي حال دونه تهور (ويليام الثاني) برغم توقه اليه . فالاتفاقية الاستعمارية لعام ١٨٩٠ لم تؤد الى الحلف الذي ارتعدت فرائص السفير الروسي منه ، ويرجع جزء من فشله الى مشاكل بريطانيا الداخلية . فقد شرع (غلادستون) العجوز لما عاد الى السلطة عام ١٨٩٢ للمرة الأخيرة ، بخدش أنانية قيصر المانيا برفضه أي ارتباط مع المانيا المستبدة أو النمسا .

ان السبب الرئيسي لفشل المحاولات المتعددة الرامية لترتيب حلف انكلو- الماني ليعود الى اخفاق المانيا المستديم فقه سياسة بريطانيا الخارجية التقليدية ناهيك عن المتطلبات الحقيقية للأمن الألماني . فعلى مدى قرن ونصف القرن ، سارت بريطانيا على رفض الزام نفسها بأي حلف عسكري لا نهاية له . وما كانت ترتبط بغير نوعين من الالتزامات : الاتفاقيات العسكرية المحدودة الهادفة الى التعامل فقط مع الأخطار الواضحة الجلية ؛ أو الترتيبات على شكل أحلاف ذات التعاون الدبلوماسي حيال المسائل التي تسير فيها مصالحها متساوية مع البلد الآخر .

وبمعنى آخر كان التعريف البريطاني للأحلاف حشواً لا طائل وراءه : فهي تتعاون مع طرف ما حين ترتأي التعاون معه . غير أن للحلف أيضا تأثيراً ينسج روابط أخلاقية ومعنوية وتصوراً - ان لم يكن الزاما - بالتصرف المشترك أثناء الأزمات . وكان سيبقي بريطانيا العظمى بعيدة عن روسيا وفرنسا ، أو انه كان سيجعل عملية تقاربهما أكثر عسراً .

لقد رفضت المانيا هذه الاجراءات غير الرسمية بعد أن أصر وليام الثاني على ما أسماه " حلف قاري " بقوله عام ١٨٩٥ : " ان أرادت بريطانيا حلفاء أو عوناً فعليها التخلي أولاً عن سياستها التي لا تشمل القارة بأسرها وتقدم ضمانات أو تعقد معاهدات قارية " . لكن ، ما الذي عناه بالمعاهدات القارية ؟ لقد تجلى أن بريطانيا العظمى بعد انسلاخ ما يقارب قرن كامل من العزلة الرائعة لم تكن لتربط نفسها بالتزام قاري دائم دأبت على مقومته طيلة ١٥٠ عاما ، سيما ان كان ذلك نيابة عن المانيا التي أخذت تحث الخطى لتغدو أقوى بلد في داني القارة وقاصيها .

ان انتفاء الحاجة الألمانية الحق الى ضمانة رسمية هي التي جعلت الضغط الألماني يدحض نفسه بنفسه فهي كانت من القوة ما أغنتها عن غيرها وسيأتها لالحاق الهزيمة بأي خصم أوروبي محتمل أو حتى أي تكتل ضدها ، شريطة ألا تقف بريطانيا خصماً لها بل ضمان التزامها الحياد الايجابي في حرب قارية - وعند ذلك سيكفي اجراء ترتيب يشبه التحالف . والمانيا حين طلبت ما لا تحتاجه ، وعرضت على بريطانيا ما لا ترغبه (التزامات طويلة عريضة للدفاع عن

الامبراطورية البريطانية) ، فانما زعزعت اليقين البريطاني وغذت شكوكها ان المانيا تسعى الى لا غير السيطرة على العالم .

لقد عمل التهور الألماني على مفاقمة التحفظ البريطاني الذي شرع يداعب الشكوك الخطيرة حول حسابات المانيا . وهنا كتب سالزبري : " لست براغب أن أتجاهل الرغبات البسيطة لأصدقائي الألمان ، غير أنها اللاحكمة الانسياق وراء نصائحهم الآن . فهم الآن أطرى عوداً للتعامل معهم ، بيد أن المرء تلمس حاجة الاختراق الاستثنائي للرجل العجوز - بسمارك "

واذ واصلت القيادة الألمانية سياستها التحالفية الطائشة كانت عامة الشعب الألماني أيضا تطالب بسياسة خارجية أشد حزماً . وهم الديمقراطيون الاشتراكيون وحدهم الذين صمدوا ، لكنهم ما لبثوا أن رضخوا للرأي العام وساندوا اعلان المانيا الحرب عام ١٩١٤ . أما الطبقات الألمانية القائدة فلم تكن تستقي من الدبلوماسية الأوروبية خبرة ، وكانت في هذا أقل بكثير فقه من معرفتها بـ " السياسة العالمية " التي طبلوا لها وأصروا عليها . وعلى عاتق (اليونكر)* الذين قادوا بروسيا الى تزعم المانيا ، يقع التثريب بعد الحربين العالميتين ، ولا سيما في الولايات المتحدة . لكن الواقع أنهم كانوا الطبقة الاجتماعية الأقل لوماً على خوضهم في الشؤون الخارجية ، طالما هم في الأساس مهيئون للسياسة القارية لا يملكون غير المام ضئيل بالأحداث الجارية خارج أوروبا . انها تلك الطبقات الادارية الصناعية الجديدة والطبقات المهنية المتنامية التي بذرت بذور الهياج القومي دون أن تواجه في النظام السياسي نوع الرادع البرلماني الذي ارتقى في بريطانيا

* يونكر **Junker** : عضو من أعضاء الطبقة الأرستقراطية في بروسيا .

العظمى وفرنسا عبر قرون طويلة . ففي الديمقراطيات الغربية ، تمر التيارات القومية القوية عبر قناة المؤسسات البرلمانية ، أما في المانيا ، يكون التعبير عنها من جماعات الضغط خارج البرلمان .

وعليه بات قادة المانيا نظراً لطبيعها الاستبدادية جد حساسين للرأي العام ، وشديدي التأثر بجماعات الضغط القومية والتي تطلعت الى الدبلوماسية والعلاقات الدولية كما لو أنها أحداث لهو وتزجية الفراغ ، فدفعت الحكومة الى اتخاذ خط التعصبة الأشد ، والتوسع الأقليمي الأكبر ، واكتساب من المستعمرات المزيد ، وبناء جيش أقوى ، أو بحرية أعظم . وهم قد تعاملوا مع دبلوماسية " الأخذ والعطاء " أو أي تلميح بتقديم تنازل الماني دبلوماسي ، كأنه اذلال مقيت ، وعن هذا كتب (كيرت ريتزلر) السكرتير السياسي للمستشار الألماني (ثيوبالدفون بتمان – هوليفج) الذي كان في منصبه يوم اعلان الحرب : " ان التهديد بالحرب لهو كامن في زمننا .... وفي ثنايا السياسات الداخلية للبلدان التي تواجه الحكومة الضعيفة فيها بحركة قومية طاغية " .

وتمخض هذا الجو السياسي والعاطفي عن زلة المانية باهظة – وهي ما أطلق عليها (برقية كروجر) التي تجاهل فيها الامبراطور خياره بالتحالف مع بريطانيا الى ما تبقى من القرن في الأقل . ففي عام ١٨٩٥ ، قاد العقيد (جيمسون) مؤيدا من أصحاب المصالح البريطانية الاستعمارية وبالأحرى من (سيسل رودز) ، غارة على دول (البوير) المستقلة في جنوب أفريقيا . كانت الغارة فشلا ذريعاً وسببت احراجا خانقاً لحكومة سالزبري التي زعمت بأن الأمر

لا يعنيها مباشرة . أما الصحافة الألمانية فقد تطلعت للموقف بحبور ، حاثة على اذلال أقسى للبريطانيين .

أما (فريدريك فون هولستين) وهو شخصية بارزة في وزارة الخارجية ، فقد رأى أن الغارة العنيفة هي فرصة لتلقين البريطانيين فوائد الصداقة مع المانيا عن طريق التلويح لهم بقساوة التخاصم معها . ومن جانب القيصر الألماني فقد وجدها فرصة لا تقاوم للتبختر والاختيال . و لم يمض طويل وقت على على حلول أعياد الميلاد لعام ١٨٩٦ حتى أرسل رسالة الى الرئيس (بول كروجر) قائد العمليات في أفريقيا يهنؤه فيها بصد " الهجمات من لا شيء " . انها لصفعة مباشرة ضد بريطانيا أثارت في بالها طيف محمية المانية في قلب ما اعتبرته بريطانيا منطقة مصالحها الحيوية . وفي الواقع لم تمثل برقية كروجر أطماعاً استعمارية المانية ولا حتى سياسة خارجية المانية ، بل هي مجرد خدعة من العلاقات العامة وحققت هدفها الذي وصفته احدى الصحف في الخامس من كانون الثاني : " لم يحظ أي شيء قامت به الحكومة من سنين طويلة بمثل هذا الرضا والقناعة التامة ....انه لمكتوب بمداد روح الشعب الألماني " ..

وجاء قصر النظر والبلادة الألمانية ليحثا السير في هذا الاتجاه . من هنا أقنع القيصر الألماني وأتباعه أنفسهم بأنه بعد فشل مغازلة بريطانيا العظمى في عقد حلف معها ، فلعل ما يقنعها أكثر هو شيء من استعراض عاقبة الامتعاض الألماني منها ، فكان من سوء حظ المانيا أن قد ناقض ذلك المفهوم صحائف التاريخ التي لم تكتب قط قبول بريطانيا أن يتنمر عليها أحد .

وهكذا استحال ما بدأ مناكدات وغارات استعراض قيمة الصداقة الألمانية ، تدريجيا الى تحد استيراتيجي حقيقي . فليس من أمر يحيل بريطانيا العظمى الى خصم لدود غير تهديد زعمائها اليها على البحار . بيد أن ذلك تحديداً ما تبنته المانيا ، غير مدركة أنها انما تثير تحديا لا سبيل لتسكينه . وعليه وبدءاً من منتصف تسعينات القرن التاسع عشر ، بدأت الضغوط المحلية تنطلق باتجاه بناء بحرية المانية كبيرة ، تلك الضغوط التي سلطها " البحريون " وهم جهة تمثل أعداداً متزايدة من جماعات الضغط التي تألفت من مزيج من رجال الصناعة وضباط البحرية . وهم اذ نالوا مصالح دسمة من التوترات مع بريطانيا العظمى لتبرير رصد المخصصات للبحرية ، فقد عاملوا برقية كروجر كأنها نعمة هبطت عليهم من السماء ، مثلما تعاملوا مع أية قضية أخرى يشمون منها رائحة امكانية الاشتباك مع بريطانيا العظمى في الأصقاع البعيدة من الكون ، ابتداءً من وضع (الساموا) وحتى حدود السودان ومستقبل المستعمرات البرتغالية .

وهكذا بدأت حلقة مفرغة بالانغلاق حتى وصل الكيل الى المواجهة وسعت المانيا الى ادراج بريطانيا العظمى في قائمة أعدائها المتطاولة من أجل نيل امتياز بناء بحرية لم تخض (في الحرب العالمية اللاحقة) الا نزالا غير حاسم مع الأسطول البريطاني في معركة جوتلاند . وسبب هذ هو تلاشي بذور الشك أن تتبنى انكلترا سبيل المقاومة متى ما بدأ أن بلداً أوروبياً يمتلك أصلاً أقوى جيش في أوروبا – يهدف الى مساواة بريطانيا العظمى في عرض البحار .

وبرغم كل ذلك بدا القيصر الألماني غافلا عن عواقب سياساته ، فالانزعاج البريطاني من الغطرسة الألمانية وتعزيز بناء البحرية لم يغيرا في مستهل

الأمر حقيقة ضغط فرنسا على بريطانيا في مصر ورفع روسيا لـواء التحـدي بوجـه بريطانيا في آسيا الوسطى . ترى ما الذي سيحصل لـو قـررت روسيا وفرنسـا أن تتعاونـا مسـلطتين ضغطـا متزامنـا عليهـا في أفريقيـا وأفغانسـتان والصـين ؟ ومـاذا سيحصل لو انضم الألمان اليهما في هجوم علـى الامبراطوريـة في جنـوب أفريقيـا ؟ لقد بدأ الشك يساور قادة بريطانيا إن كانت عزلتهم الرائعـة مـا فتئـت مناسـبة في السياسة الخارجية أم لا .

كان أبرز متحدث عن هذه الجماعة وزير المستعمرات (جوزيف تشمبرلين) . لقد تجلى أن هذه الشخصية المندفعة التي تصغر سالزبري بجيـــل كـامل ، قـد صورت مثال القرن العشرين في دعوتها لحلف مـا - والأفضـل مـع المانيـا - بينمـا التزم الشريف العجوز بشدة بالدافع الانعزالي للقرن المنصرم . اذ دعا تشـمبرلين في خطبة طويلـة بتشـرين الثـاني عـام ١٨٩٩ الى حلـف " تيوتونـي " قوامـه بريطانيـا العظمى والمانيا والولايات المتحدة . وتحمس لذلك الى درجة أنه أرسـل مشـروعه الى المانيـا مـن دون موافقـة سـالزبري . غـير أن قـادة المانيـا مـا برحـوا يطـالبون بضمانات رسمية وبقوا غافلين حقيقة أن الشروط بذات علاقة قدر الحياد البريطـاني في حرب قارية .

تدهـورت صحـة سـالزبري في تشـرين الأول ١٩٠٠ حتـى اضطرتـه الى التخلـي عـن وزارة الخارجيـة برغـم احتفاظـه بمنصـب رئيـس الـوزراء . فخلفـه في الخارجية اللورد (لانسداون) الذي وافق تشمبرلين رأيه أن بريطانيا العظمى لم يعد بوسعها ضمان أمنها من خلال عزلتها الرائعة . لكنه كـان عـاجزاً عن نيل تأييد الجميع لحلف رسمي شامل مع المانيـا ، طالمـا أن مجلـس الـوزراء كـان

راغباً عن الذهاب لا بعد من ترتيبات تتخذ شكل الحلف ، أنه : " تفاهم ازاء السياسة التي ينبغي أن تتبعها (الحكومتان البريطانية والألمانية) بما يتعلق بقضايا محددة أو بأجزاء معينة من العالم تعنيهما سوية " ، انها لحد بعيد ذات الصيغة التي ستقود الى (الحلف الودي) مع فرنسا بعد سنين قليلة والتي برهنت كفايتها لجر بريطانيا الى حلبة الحرب العالمية بجانب فرنسا .

ومهما يكن من أمر ، رفضت المانيا ما هو طوع بنانها لصالح ما كان غير متيسر مرة أخرى . جاء ذلك حين رفض المستشار الألماني بولدف ترتيباً على نمط الحلف مع بريطانيا العظمى لقلقه على الرأي العام أكثر من اهتمامه بالأفاق الجيوسياسية - سيما هروعه أولا لاقناع البرلمان بالتصويت لصالح زيادة كبيرة في بناء البحرية الألمانية . فهو لن يقلص البرنامج البحري مقابل أقل من موافقة بريطانيا على الانخراط في الحلف الثلاثي المؤلف من المانيا والنمسا وايطاليا . وعند ذاك رفض سالزبري هذه المناورة المنطوية على كل شيء أو لا شيء ، وهكذا وللمرة الثالثة في غضون عقد واحد ، أجهض اتفاق بريطاني - الماني .

ان عدم الانسجام الجذري بين القناعات البريطانية والألمانية بازاء السياسة الخارجية ليفصح عن ذاته من خلال الطريقة التي فسر بها الزعيمان عدم الاتفاق . فقد كان بولوف قاسيا في اتهامه بريطانيا العظمى باللانضوج متجاهلا حقيقة اتباع بريطاتنيا العظمى سياسة خارجية كونية لما يزيد على قرن حتى قبل ان تتوحد المانيا :

[لا يحيط ساسة بريطانيا علما بأوروبا الا نزراً . فهم لا يفقهون من وجهة نظر أوروبا الا بقدر ما نعرف نحن عن بيرو أو سيام . وهم سذج ملتحفون بأنانيتهم ومتسربلون بثقتهم العمياء بأنفسهم . صعب عليهم تصديق النوايا السيئة لدى الآخرين . والهدوء التام سمتهم ، مثلما هم لا أباليون ومفرطون في التفاؤل .....] .

فاتخذ جواب سالزبري صيغة درس في التحليل الاستراتيجي المعقد لقنه لمحاوره المتقلقل وبالأحرى الأهوج . اذ كتب راداً على تعليق غير لائق من السفير الألماني في لندن الذي أشار بحاجة بريطانيا العظمى الى حلف مع المانيا بهدف التخلص من عزلتها الرهيبة :

[ان الالتزام الذي يفرض الدفاع عن الحدود الألمانية والنمساوية ضد روسيا لأثقل وطأة من ((واجب الدفاع عن الجزر البريطانية)) ضد فرنسا .. وهذا الكاونت (هاتزفلدت) - السفير الألماني - يتحدث عن ((عزلتنا باعتبارها تشكل خطراً شديداً علينا ((أوهل أحسسنا بذلك الخطر فعليا ؟)) فان استسلمنا في الحرب الثورية فما تبرير ذلك عائد الى عزلتنا . لقد التف حولنا حلفاء كثيرون ، غير أنهم لم يكونوا لينقذونا لو كان امبراطور فرنسا قادراً على فرض سيطرته على القنال . ولم يكن أي خطر ماثلاً أمامنا باستثناء فترة حكمه (نابليون) ؛ وعليه يستحيل لنا أن نحكم ان كانت " العزلة " التي زعم أننا نعاني منها تشتمل أو لا تشتمل على أي من عناصر الخطر . فمن

نوادر الصواب أن يجلب المرء على نفسه التزامات غريبة وثقيلة بغية الوقوف ضد ((خطر ليس لدينا تبرير تاريخي لوجوده))] .

لم يكن لدى بريطانيا العظمى والمانيا مصالح متوازنة كافية لتبرير الحلف الكوني الرسمي الذي تضرعت اليه الامبراطورية الألمانية . فقد خشي البريطانيون أن تعمل الزيادات الاضافية في قوة المانيا على تحويل حليفهم المزمع الى قوة مسيطرة وهو الأمر الذي قاوموه على مدى التاريخ . من جانبها لم تطب المانيا الاضطلاع بدور مساعدة بريطانيا في قضايا اعتبرت تقليدياً هامشية للمصالح الألمانية مثل التهديد للهند . وغير هذا ، كانت المانيا كثيرة العجرفة لم تفهم معها فوائد الحياد البريطاني .

كشفت خطوة وزير الخارجية لا نسدوان التالية ان قناعة قادة المانيا باستحالة استغناء بريطانيا عن بلدهم هي مجرد اطراء للذات . فقد أذهل لانسداون أوروبا عام ١٩٠٢ بعقد حلف مع اليابان وهي أول مرة (منذ تعامل ريشليو مع الأتراك العثمانيين) يطلب فيها بلد أوروبي عونا من خارج الأسرة الأوروبية فيه اتفقت بريطانيا العظمى واليابان على أنه في حالة اشتباك أي منهما في حرب مع طرف آخر ((واحد)) حول الصين أو كوريا فأن القوة الأخرى تلتزم الحياد . ولو تعرض أي منهما الى هجوم من ((خصمين اثنين) فعلى الطرف الثاني أن يهب لاعانة شريكه . وبموجب دخول الحلف حيز التنفيذ فقط اذا اشتبكت اليابان مع ((خصمين اثنين)) أتيح لبريطانيا أخيراً أن تكسب حليفاً راغباً بل ومتحرقاً لاحتواء روسيا من دون توريط بريطانيا في ترتيبات ثانوية هامشية - اضافة الى أنه حليف أضفى موقعه في الشرق الأقصى فائدة ستراتيجيته لبريطانيا العظمى أكثر من

فائدة الجبهة الروسية - الألمانية . فيما نالت اليابـان حماية ضـد فرنسـا الـتي لـولا الحلف لسعت الى استخدام الحرب لتعزيز مطالبها بالدعم الروسـي . ومـذ حينهـا ستفقد بريطانيا العظمى المانيا بصفتها شريكاً اسـتراتيجياً بـل وغـدت اليهـا بمـرور الزمن تهديداً جيوسياسياً .

وقـد أوشـك عـام ١٩١٢ على الانقضـاء مـا بـرح هنـاك مجـال لتسـوية الخلافات الانكليزيـة الألمانيـة . اذ قـام (اللـورد هـالدين) وهـو اللـورد الأول في الأدميرالية البريطانية ، بزيارة برلين لمناقشة سبل تخفيف التوتر بينهما . حاملاً معـه صلاحية عقد تسوية مع المانيا على أساس المساواة في القوة البحرية مع تعهده بحيـاد بريطانيا : " اذا تورط أي من الطرفين المتعاقدين (بريطانيا والمانيـا) في حـرب لا يكون فيها معتديا ، فعلى الطرف الآخر أن يتخذ الحيـاد الايجـابي أقـل تقدير تجـاه شريكه " وهنا أصر القيصر على أية حال على التزام انكلترا بالحياد " اذا ما فرضت الحرب على المانيا " وهو ما أدركته لندن طلباً اليها بوقوفها جانباً لو قـررت المانيـا شن حرب وقائية ضد روسيا أو فرنسـا . واذ رفـض الطـرف البريطـاني صيغـة القيصر ، لجأ القيصر من طرفه الى رفض ما تقدم بـه الطـرف البريطـاني . وهكـذا انطلق برنامج البحرية الألمانيـة قدمـاً الى الأمـام ، وعـاد هالديـن الى لنـدن صفـر اليدين .

ما فتأ القيصر الألماني غير مدرك أن بريطانيـا لـن تذهـب أبعـد مـن صفقـة خفية ، وهي كل ما احتاجته المانيا حقاً . فقد كتب يقـول : " لـو أرادت انكلـترا مجرد مد يدها الينا بشرط تحديد حجم أسطولنا فتلـك وقاحـة تنطـوي علـى اهانـة مذلـة للشعـب الألماني وامـبراطوره . وعليـه ينبغـي رفـض هـذا العـرض مـن

مستهله ... " وانطلق يتبجح لقناعته بقدرته على اكراه انكلترا بدخول حلف رسمي : " لقد أريت الانكليز انهم متى ما اقتربوا من سلاحنا فانما سيعضون الجديد . ولعلي قد فاقمت بهذا حقدهم غير أنني كسبت احترامهم ، وهو ما سيدفعهم في الوقت المحدد الى استئناف المفاوضات ، وعند ذاك كون نبرة حديثهم أكثر تواضعاً وستأتي بنتيجة أكثر دسامة " .

ان بحث القيصر بهذه الطريقة الملحة المتهورة عن حلف مع بريطانيا لم يفض لغير مضاعفة شكوك بريطانيا . اذ حدا البرنامج البحري الألماني الذي مثل رأس الازعاج الألماني لبريطانيا العظمى أثناء حرب البوير (١٨٩٩-١٩٠٢) ببريطانيا الى اعادة تقييم سياستها الخارجية . فعلى مدى قرن ونصف من الزمن كانت بريطانيا قد عدت فرنسا مصدر أخطر تهديد للتوازن الأوروبي ، وتوجب مقاومته بمعونة ولاية المانية ما - النمسا عادة ، وبروسيا أحياناً . كما اعتبرت روسيا أكبر خطر ضد امبراطوريتها . غير أنها شرعت ما ان عقدت حلفا مع اليابان تعيد النظر في أولوياتها التاريخية . وهكذا استهلت مع حلول عام ١٩٠٣جهودها المنتظمة لحسم القضايا الاستعمارية المعلقة مع فرنسا ، ريثما توجت مساعيها بعقد (الحلف الودي) عام ١٩٠٤ - وهو بعينه نوع التعاون غير الرسمي الذي دوماً ما رفضته المانيا . وما ان انتهت بريطانيا من ذلك حتى نزعت الى اجراء ترتيب مماثل مع روسيا .

لم يمثل هذا الحلف نقضاً فنياً لسياسة بريطانيا التقليدية القائمة على " العزلة الرائعة " ما دام مجرد ترتيب استعماري بصفة رسمية . ومع هذا ، كشف تأثيره العملي عن تخلي بريطانيا العظمى عن دور (الموازن) والقاء نفسها في صف أحد

الأحلاف المتضاربة . ففي خضم المفاوضات حول الحلف ، وتحديداً في تموز عام ١٩٠٣ أبلغ ممثل فرنسا في لندن لانسداون ان فرنسا ستبذل ما بوسعها لتخليص بريطانيا من ضغوط روسيا في أي مكان آخر ، وأن : [أخطر تهديد للسلم في أوروبا ينبع من المانيا ، وأن التفاهم الطيب بين فرنسا وانكلترا هو الوسيلة الوحيدة لكبح الاطماع الألمانية ، فان كان ممكنا التوصل الى هكذا تفاهم ، ستجد انكلترا أن فرنسا قادرة على صنع تأثير عظيم على روسيا وبذلك ، ستتخلص من كثير من متاعبنا مع ذلك البلد] وهكذا ، وخلال عقد واحد لا غير باتت روسيا التي ارتبطت مع المانيا سابقا بمعاهدة اعادة الضمان ، حليفا عسكرياً لفرنسا ، بينما انضمت بريطانيا المتقلبة في خطب ود المانيا الى المعسكر الدبلوماسي الفرنسي . وبذا حققت المانيا نتيجة مدهشة بعزل نفسها وحشد ثلاثة من أعدائها السابقين في خندق حلف عدائي موجه صوب صدرها .

ان على رجل الدولة المدرك دنو الخطر منه ، أن يتخذ قراراً حاسماً . فان ظن تفاقم التهديد سوف يتعاظم مع مرور الزمن ، فما له من بد غير قبره وهو في مهده . وان بلغ في ظنه أن الخطر الذي هو بأزائه يعكس تجمعاً تصادفياً عابراً لظروف معينه فله ان يدع الأمور تجري في أعنتها حتى يعتبرها الزمن . فقبل مائتي سنة ، تطلع راشليو فأدرك الخطر في التطويق العدائي لفرنسا – حتى أمسى تحاشي ذلك الخطر جوهر سياسته . بيد أنه فقه أيضاً العناصر المختلفة لذلك الخطر الكامن . وعليه ارتأى أن الفعل الاستباقي سيحرك ساكن الدول المحيطة بفرنسا ، فأتخذ من الزمن حليفاً له وانتظر ذر الخلافات قرونها بين خصوم فرنسا . واذن لم يسمح لفرنسا أن تدخل المعترك الا بعد أن كبح كل خصومها .

أما القيصر ومستشاروه فقد نفذ منهم صبرهم وغابت عنهم فطنتهم لهكذا سياسة برغم أن البلدان التي شعرت المانيا بتهديدها ما كانت حليفة طبيعية . فكان رد الفعل الألماني للتطويق المتجلى أمامها ، أن تحث خطاها في نفس طريق الدبلوماسية الذي تمخض عنه الخطر في المقام الأول . اذ سعت الى الانفصال عن الحلف الودي عن طريق ايجاد حجة لمواجهة فرنسا بجسارة ، وبذلك ستعلن أن الدعم البريطاني وهمي أو لا فائدة ترجى منه .

سنحت الفرصة الألمانية لاختبار قوة الحلف في المغرب حيث المخططات الفرنسية شكلت خرقاً لمعاهدة تؤكد (استقلال المغرب) وحيث لألمانيا مصالح تجارية مغربية . فاختار القيصر الألماني قراره أثناء جولة له في آذار ١٩٠٥ فبعد أن ترجل في (تانجير) أعلن تصميم المانيا على المحافظة على استقلال المغرب . انها مقامرة القادة الألمان : أولاً ، أن الولايات المتحدة والنمسا وايطاليا ستدعم سياستهم المفتوحة ، ثانياً : وفي أعقاب الحرب الروسية - اليابانية لن تعد روسيا بقادرة على توريط نفسها في هذه المعمعة ، وثالثاً : ان بريطانيا العظمى لن تشعر بغير الفرح من تخليصها من التزامها لفرنسا في مؤتمر دولي .

لقد جانبت كل هذه الافتراضات الصواب لأن الخوف من المانيا غلب أي اعتبار آخر . ففي أول تحد للحلف الودي هرعت بريطانيا العظمى الى اسناد فرنسا بكل ما ملكت غير آبهة لدعوة المانيا عقد مؤتمر الا بموافقة فرنسا فيما صدفت النمسا وايطاليا عن المغامرة بأي شيء قريب من شفا الحرب . وبرغم ذلك استغل القادة الألمان هيبتهم المعنوية في هذا النزاع المحتدم ، على أساس أن

النتائج الكارثية ستكون مآل أي شيء أقل من النصر الدبلوماسي الـذي يستعرض عدم جدوى الحلف .

برهن القيصر طيلة حكمه أنه يجيد اشعال فتيـل الأزمـات أكـثر مـن اطفـاء جمرتها . لقد وجد البهجة في المواجهـات الدراميـة لكنـه افتقـر الى صفـة المطاولـة اللازمة لمواجهة مطولة . واذ أصاب وليـام الثـاني ومستشـاروه في تقييمهـم عـدم استعداد فرنسا لخــوض حرب ؛ اتضح ان الألمان أنفسهم كحال فرنسا في هـذا الشأن . فكان الذي حققوه هو طرد وزير الخارجيـة الفرنسـي (ديلكاسـه) ومـا ذلك غير نصر صوري طالما أن ديلكاسه سرعان مـا عـاد الى منصـب آخـر متبـوءاً رائداً في السياسة الفرنسية . وفي ضوء جوهر النزاع ، سمح القادة الألمـان تنقصهـم الشجاعة الموازية لطنطنتهم المغرورة بالمماطلة عليهـم بعقـد مؤتمـر في غضـون ستة أشهر في مدينة (الجسيرا) الأسبانية . فالبلد ترفع راية الحـرب وتنكصهـا لصـالح مؤتمر قد يعقد في تاريخ بعيد نسبياً ، انـمــا يقلل تلقائيا من مصداقية تهديـده . (وذي أيضا الطريقة التي هدأت بها الديمقراطيات الغربية سخونة انذار برلين الذي تقدم به (خروشوف) بعد نصف قرن) .

بانت معالم اللرجة التي عزلت بها المانيا نفسها في افتتاح مؤتمر الجسـيرا في كانون الثاني ١٩٠٦ . ففيه انطلق تحذير (ادوارد غري) وزير خارجيـة بريطانيـا العظمى في الحكومة الليبرالية الجديـدة الى السـفير الألمـاني لـدى لنـدن أن بريطانيـا ستقف لو استعرت حرب الى جانب فرنسا :

[... وان حصل هجوم الماني ضد فرنسا بسبب اتفاقية المغرب ، فسيلتهب الشعور العام في بريطانيا حتى لا تقوى بسببه أية حكومة بريطانية أن تبقى على الحياد] .

ان السورات العاطفية التي تعاورت مع عجز القادة الألمان عن تحديد معالم أهدافهم بعيدة المدى قد حولت الجسيرا الى عائق دبلوماسي بوجه بلدهم . فقد رفضت روسيا ، وبريطانيا ، وايطاليا جميعها الوقوف بجانب المانيا . وعليه كانت نتائج الأزمة المغربية الأولى هي عكس ما رنا الى تحقيقه القادة الألمان . فبدلاً من تفكيك أواصر الحلف الودي ، أفضى المؤتمر الى تحقيق تعاون عسكري بين فرنسا وبريطانيا ، كما أعطى دافعا لعقد حلف انكليزي - روسي عام ١٩٠٧ .

وهكذا وبعد انفضاض مؤتمر الجسيرا ، وافقت بريطانيا على التعاون العسكري مع قوة أوروبية طالما تحاشتها سابقاً . وبدأت الاستشارات تتوالى بين زعماء البحريتين البريطانية والفرنسية . أما مجلس الوزراء فلم يكن مرتاحا لهذا التحول الجديد . وعليه كتب غري الى السفير الفرنسي في لندن (بول كامبو) في مسعى منه لوضع حد لرهانه :

[لقد اتفقنا على أن التشاور بين خبرائنا لن ولا يجل ان يكون التزاما يفرض على أي من الحكومتين أن اتخاذ اجراء في أي حادث لم يحصل وربما لن يحصل مطلقاً .....] .

انها عبارة بريطانيا التقليدية في التملص من الزام نفسها قانونيا بشروط معينة تكون بمقتضاها مجبرية على القيام بفعل عسكري . أما فرنسا فقد أولت

الأمر بيد البرلمان لقناعتها أن محادثات الكادر العسكري ستهيمن على واقعهم هم ، مهما كان الالتزام القانوني . وعلى مدى قرن ونصف رفض القادة الألمان منح بريطانيا العظمى هذا النوع من المماطلة فيما تمتعت فرنسا بالفطنة السياسية للتعايش مع الغموض البريطاني وللاتكال على قناعة أن الالتزام المعنوي في طور التطور يمكن له مع مرور الزمن أن يغدو حقيقة .

لم يتبق مع ظهور الكتلة الانجليزية - الفرنسية - الروسية لعام ١٩٠٧ ، غير قوتين في المسرح الدبلوماسي الأوروبي : الحلف الثلاثي والحلف بين المانيا والنمسا . وهكذا تمت حلقة الطوق على المانيا . لقد بدأت الاتفاقية البريطانية مع روسيا باتفاق مستعمراتي ، مثلما بدأ الحلف الانكليزي - الفرنسي ، فلعدة أعوام دأبت بريطانيا العظمى وروسيا ببطء على تسوية خلافاتهما المستعمراتية . حتى جاء الانتصار الياباني على روسيا عام ١٩٠٥ ليقير المطامع الروسية في الشرق الأقصى . فما حل صيف ١٩٠٧ حتى بات الجو آمناً لبريطانيا لتهب روسيا عروضاً سخية في أفغانستان وبلاد فارس ، مقسمة الأخيرة الى ثلاث مناطق نفوذ منح بموجبها الروس المنطقة الشرقية ، و أعلن حياد الوسطى فيما طالبت بريطانيا بالسيطرة على الجنوب ، كما أخضعت لنفوذها أفغانستان وأخيراً راقت العلاقات الانكليزية الروسية بعد أن ساءت قبل عشر سنوات جراء النزاعات التي شملت ثلث الكرة الأرضية من القسطنطينية حتى كوريا . وتجلى قلق بريطانيا من المانيا في استعدادها (من أجل التعاون مع روسيا) للتخلي عن تصميمها بأبعاد روسيا عن الدردنيل . وهو ما عبر عنه وزير الخارجية غراي : " تعني العلاقات

الجيدة مع روسيا وجوب التخلي عن سياستنا القديمة القائمة على اغلاق الممرات بوجهها ورمي ثقلنا ضدها في أي مؤتمر تلتقي فيه القوى الكبرى " .

ادعى عدد من المؤرخين بأن الحلف الثلاثي لم يكن غير اتفاقيتين فاشلتين بشأن المستعمرات ، وأن بريطانيا العظمى قد رغبت بتوفير الحماية لامبراطوريتها ، وليس لتطويق المانيا . وعلى أية حال ثمة وثيقة كلاسيكية يطلق عليها (مذكرة كرو) لا تترك أي شك بأن بريطانيا العظمى قد انضمت للحلف الثلاثي بهدف اعتراض ما خشيته وهو انطلاقة المانية نحو الزعامة العالمية . فأنبرى السير (ايركرو) وهو محلل مكتب السياسة الخارجية البريطاني يوضح في كانون الثاني ١٩٠٧ من وجهة نظره أسباب استحالة الانسجام مع المانيا ، وأن الحلف مع فرنسا هو الخيار الوحيد . لقد كانت مذكرته على مستوى من التحليل لم تبلغه أية وثيقة المانية بعد عهد بسمارك . فقد أضحى الصراع بين الاستراتيجية وبين القوة العمياء - وما لم يكن هناك تفاوت كبير بالقوة ، وليس هذا هو الأمر ، فأن للاستراتيجي اليد العليا لاستطاعته التخطيط لتصرفاته بهدوء بينما سيضطر خصمه الى الارتجال . وبعد أن اقر بالفروقات الكبيرة بين بريطانيا العظمى وين كل من فرنسا وروسيا ، اعلن مع ذلك تقييمه لها بأنها فروقات قابلة للتسوية لكونها تعكس أهدافاً معروفة وبالتالي محدودة . ان الذي جعل السياسة الألمانية جد مرعبة هو الافتقار لأي أساس عقلاني مميز وراء تحدياتها التي لا تنقطع في طول الأرض وعرضها ، حتى طاءت مناطق نائية مثل جنوب أفريقيا ، والمغرب ، والشرق الأدنى . ناهيك عن أن الانطلاق الألماني في بناء القوة البحرية كان " لا يتواءم مع بقاء الامبراطورية البريطانية " .

كان أمراً مقتضيـاً ، حسـب وجهـة نظـر كـرو ، ان يفضـي السـلوك غـير المنضبط لألمانيا الى تنكبها سبيل المواجهة : " ان من شـأن اتحـاد أقـوى جيـش مـع أقوى بحرية بدولة واحدة أن يجبر العالم على التراصف من أجـل الانعتـاق مـن هـذا الكابوس المخيف " .

لقد جادل كرو ، وهذا أمر يتطابق مع معايير السياسـة الواقعيـة ، أن البنيـة لا الدافع هو ما يتحكم بالاستقرار : فقد كانت نوايا المانيا لا مترابطة أساساً ، وما عنى شيئاً هو قدراتها . فوضع الآتي من الفرضيتين :

[اما أن تكون المانيا عازمة على سيطرة سياسـية شـاملة وهيمنـة بحريـة مهددة بذلك استقلال جيرانها وبالتالي وجود انكلـترا ، أو أنهـا وهـي نقيـة مـن هكـذا ليـس لديهـا أي أطمـاع واضحـة محـددة ، ومفكـرة باللحظـة الحـاضرة للاستفادة لا غير من مكانتها ونفوذها المشروعين باعتبارها احدى القوى الرائدة في مجلـس الأمـم ، تصبـو الى تطويـر علاقاتهـا التجاريـة الخارجيـة ، ونشـر ثمـار الحضارة الالمانية ومعهمـا مـد نطـاق قدراتهـا القوميـة ، وتكويـن مصـالح المانيـة جديدة في جميع أرجاء المعمـورة متـى وأينمـا تـتراءى الفرصـة السـليمة لذلك ... "] .

هنـا أكـد كـرو علـى اللاصلـة بـين هذيـن الاختلافـين لسـبب بسـيط هـو تراجعهما نهاية المطاف وراء سيل الاغراءات المتأصلة في طبيعة قوة المانيا المتنامية :

[... من الواضح أن المخطط الثاني ذي التطور شبه المسـتقل والمنطـوي على شيء من فن الحكـم) يمكـن ان يندمـج في أي مرحلـة مـع الأول ، أو مـع

مخطط التصميم الواعي . علاوة على هذا ، اذا ما نال مخطط التطوير فرصة ادراكه حقاً ، فان المكانة المكتسبة لألمانيا ستشكل حتماً رادعاً لبقية أقطار العالم مثلما يمثله الاكتساب المقصود لمكانة مماثلة على يد " تدبير متعمد خبيث "] .

لقد كان اتجاه مذكرة كرو واضحاً برغم عدم ذهابها أبعد من معارضة التفاهم مع المانيا : ان لم تهجر المانيا مسعاها لنيل السيادة البحرية ، وتحد من غلوائها في السياسة العالمية ، لغدا الأمر مؤكداً أن تنضم بريطانيا العظمى الى روسيا وفرنسا في معارضتها . وبريطانيا ان فعلت ذلك ، فسيكون العناد طبيعة الفعل - ذلك العناد الذي أحبط الادعاءات الفرنسية والأسبانية في قرون خلت .

أوضحت بريطانيا العظمى بصيغة نفضت عنها غبار الشك أنها لا تحتمل تعاظماً في قوة المانيا كما تجلى ذلك على لسان (غري) عام ١٩٠٩ في رده على عرض الماني ((بابطاء)) لا انهاء بناء البحرية الألمانية ان وافقت بريطانيا العظمى على التزام الحياد في حرب المانية ضد فرنسا وروسيا . فقال عنها أنها :

[تعمل على ترسيخ السيطرة الألمانية على أوروبا ولن يقتضي الأمر وقتاً طويلاً حتى يتحقق هذا الهدف . انها في الحقيقة دعوة الى مساعدة المانيا في رصف حشد من دول أوروبا تستطيع توجيهه ضدنا حين يتسنى لها ذلك ... فان أهدرنا بقية القوى من اجل المانيا لتعرضنا للهجوم أخيراً] .

بعد أن نشأ الحلف الثلاثي ، أضحت لعبة القط والفأر بين المانيا وبريطانيا العظمى التي مارساها في تسعينات القرن التاسع عشر ، جادة وجد خطيرة استحالت الى صراع بين قوة ذات (الوضع القائم) وقوة تطلب تغييراً في الميزان .

فلما زالت المرونة الدبلوماسية ، بات السبيل الأوحد لتغيير الميزان تكديس مزيد من الأسلحة أو احراز نصر حربي ٠

لقد التقى الحلفان عبر واد من انعدام الثقة المتبادل ٠ بيد ان الجمعين لم يخشيا الحرب ، بخلاف ما حصل في فترة الحرب الباردة ٠ بل اكترث كلاهما أكثر الى المحافظة على تماسكهما أكثر من تحاشي المجالاة ٠ وهكذا أمست المواجهة الوجه المعتاد للدبلوماسية ٠

بالرغم من كل ذلك ، لا تزال ثمة فرصة لتحاشي الكارثة ؛ فالقضايا التي نعلل انقسام الأحلاف واشعال حرب بينها لقليلة جداً ٠ فليس من عضو في الحلف الثلاثي كان سيذهب لمساعدة فرنسا في استعادة الالزاس – اللورين ، و لم تبد المانيا مستعدة ، حتى وقد تأخر عقلها بغرورها ، بدعم النمسا في حرب عدوانية في البلقان ٠ وربما عملت سياسة ضبط النفس على تأجيل الحرب ، وافقت بالحلفين غير الطبيعين الى تفككهما – سيما وأن الحلف الثلاثي قد تشكل بفضل الخوف من المانيا في المقام الأول ٠

استحال ميزان القوى مع انتهاء العقد الأول من القرن العشرين الى أحلاف عدوانية تناظرت فيه صلابتها مع التجاهل الطائش للهدف الذي تشكلت من أجله ٠ فقد التزمت روسيا بـ (صربيا) المحتشدة بالشراذم القومية والاقليمية التي لا تخاف من المخاطرة باشعال حرب شاملة لعدم امتلاكها ما تفقده ٠ بينما أعطت فرنسا صكا أبيض لروسيا التائقة لاستعادة هيبتها بعد مهانة الحرب مع اليابان ٠ فيما فعلت المانيا ذات الشيء تجاه النمسا اليائسة لحماية أقاليمها السلافية

من قلاقل الصرب الذين تدعمهم روسيا . وسمحت أمم أوروبا لنفسها أن تكون أسيرة عملائها البلقانيين الطائشين . وبدلا من كبح جماح تلك الدول ذات العواطف الجياشة وقليلة الاحساس بالمسؤولية الدولية ، ارتضت لنفسها الانجرار وراء جنون الارتياب من احتمال قيام شركائهم الطائشين بتغيير التحالفات اذا ما ضيق عليهم سبيلهم وقد استمرت الأزمات لسنوات قليلة بالتصاعد برغم أن كل أزمة جديدة قد وجدت من يحسمها حتماً . وأزاح رد فعل المانيا تجاه الحلف الثلاثي النقاب عن تصميم عنيد لارتكاب الخطأ نفسه مرة بعد أخرى ، ولذا تحولت كل مشكلة الى اختبار للرجولة يثبت حزم وقوة المانيا في أمرها وافتقار خصومها اليهما . ومع هذا قوي مع كل تحد الماني جديد الالتزام بالحلف الثلاثي أكثر فأكثر .

وفي عام ١٩٠٨ نشبت أزمة دولية حول البوسنة - الهرسنك تستحق الان منا اعادة السرد طالما هي تبين أن التاريخ يعيد نفسه . كانت البوسنة - الهرسنك مكاناً خلفياً منعزلاً في أوروبا قد تركت مبهمة المصير في مؤتمر برلين لأن لا أحد عرف كيفية التعامل معها حقاً . فهذه الأرض الحرام بين الامبراطورية العثمانية والهابسبرغية التي ضمت الرومان الكاثوليك والأرثوذكس والمسلمين ، وكذلك الشعوب الكرواتية والصربية والمسلمة ، لم تكن دولة مطلقاً ولا كانت تحكم نفسها بنفسها ، ولم يبد ممكناً حكمها الا اذا لم يطلب من أي من هذه الجماعات الخضوع للأخريات . وهي كانت خاضعة للسلطة العثمانية ، والادارة النمساوية ، والحكم الذاتي المحلي دون أن تسلط تهديداً خطيراً على هذه التركيبة متعددة الجنسيات التي تركت قضية السيادة النهائية من دون حسم . وكانت

النمسا قد انتظرت ثلاثين عاما لتستهل الحاق هذه المنطقة كليا اليهـا لأن عواطـف هذا الخليط متعـدد اللغـات كـانت معقـدة جـداً لا يسـتطيع حتـى النمساويـــون مداراتها بالرغم من طـول تجربتهـم في الادارة في بـؤرة الفوضـى . وحـين أقدمـوا أخيراً على ضم البوسنة - الهرسنك ، فأنمـــا فعلوا ذلك لتحصيل نقطة ضد صربيـا (وضد روسيا بطريقة غير مباشـرة) أكـثر مـن دوافـع تحقيـق أي هـدف سياسـي مترابط وبالنتيجة ، خلخلت النمسا الميزان الحساس للأحقاد المتكافئة .

وبعـد مـرور فـترة ثلاثـة أجيـال وتحديـداً عـام ١٩٩٢ ، انفجـرت نفـس العواطف العنصرية حول قضايا مشابهة لسابقاتها مزلزلـة كـل شـيء عـدا الرجـال الهمام ذوي الارتباط المباشر ومعهم من خبر بتاريخ المنطقة المتقلب ، ومـرة أخـرى أحال تغير جاد في الحكومة البوســنة - الهرسنك الى مرجـل دأبـه الغليـان ، ففـور اعلان البوسنة دولة مستقلة ، تكالبت كل القوميات هناك لتمسـك بخنـاق بعضهـا البعض في صراع مـن أجـل الهيمنـة ، فحقـق الصـرب انتصـارات قديمـة بأسـلوب وحشي بشع .

وعودة لذلـك العصـر نجـد أن النمسـا شـرعت مستغلة ضعـف روسـيا في أعقاب الحرب الروسية - اليابانية بتطبيق ملحق سري عمره ثلاثين عاما تم التوصل اليه في مؤتمر برلين واتفقت فيه القوى على اتاحـة المجـال للنمسـا لضـم البوسـنة - الهرسنك - ومذ حينها رضيت النمسا بسيطرة الأمر الواقـع ، لأنهـا لم تـرد مزيـداً من العناصر السلافية . غير أن النمسا قلبت ذلك القرار عام ١٩٠٨ لخشـيتها مـن قرب ذوبانهـا تحـت تأثـير القلاقـل الصربيـة ، ولاعتقادهـا بحاجتهـا الى شـيء مـن النجاح لتستعرض أمام الآخرين وجودها البـارز في البلقـان . وفي غضـون العقـود

الثلاثة المتداخلة بين تلك الأحداث فقدت روسيا موقعها المسيطر في بلغاريا وانهارت عصبة الأباطرة الثلاثة ۰ واذن لا جرم أن يستشيط غضب روسيا من اعادة نبش الاتفاقية المنسية من أجل تمكين النمسا من ضم اقليم لم تحرره غير حرب روسية ۰

بيد أن الغضب لا يضمن النجاح ، سيما ان كان الهدف يكمن أصلا في الحيازة على الجائزة ۰ وللمرة الأولى وضعت المانيا نفسها وراء النمسا تماما مشيرة الى استعدادها للمخاطرة بحرب أوروبية لو رفعت روسيا راية التحدي ضد الضم النمساوي ۰ ثم طلبت المانيا في محاولتها ازادة النار حطباً من روسيا وصربيا اعترافا رسميا بالتحرك النمساوي ، فما كان أمام روسيا غير أن تكظم غيضها وتتجرع الذل طالما أن بريطانيا العظمى وفرنسا لم تتهيأ بعد لخوض حرب من أجل قضية البلقان ولأن روسيا نفسها لم تكن بوضع يتيح لها دخول حرب وحدها وما كادت تنهض من هزيمتها مع اليابان ۰

وهكذا وضعت المانيا نفسها عائقا في الطريق الروسي وفي منطقة لم تزرع لها فيها من قبل اية مصلحة حيوية ۰ حيث لما تزل روسيا لحد الآن قادرة على الاعتماد على المانيا لتخفيف حدة الأطماع النمساوية ۰ وهنا لم تعرض المانيا طيشها وحسب بل وكذلك تلاشي ذاكرتها التاريخية المريع ۰ فقبل نصف قرن لا غير تكهن بسمارك بشكل دقيق بأن روسيا لن تغفر للنمسا اذلالها في حرب الكريميا ۰ وها هي المانيا الآن ترتكب ذات الخطأ الذي بدأ منذ مؤتمر برلين ألا وهو مفاقمة الانعزال الروسي ۰

انها لعبة خطرة على الدوام أن يهان بلد عظيم ولما يزل قوياً . لقد شاءت روسيا الا يلقاها أحد خالية الوفاق برغم الظن الألماني أنهم انما يلقنون روسيا درساً في اهمية القيمة الألمانية . وهكذا استهلت القوتان القاريتان الكبيرتان ممارسة لعبة يطلق عليها ((دجاج)) باللهجة السوقية الأمريكية ، التي يسرع فيها سائقان بمركبتيهما واحدة مقابل الأخرى ، وكل منهما يأمل بانحراف صاحبه عنه في اللحظة الأخيرة بينما يتكل هو على أعصابه الأكثر قوة . انها اللعبة التي مارستها لسوء الحظ أوروبا في مناسبات عديدة قبل الحرب العالمية الأولى . وفي كل مرة يتم تحاشي الاصطدام فيها تتعزز الثقة الجماعية (بالسلامة) النهائية ، ومعها ينزع الجميع الى نسيان حقيقة أن فشلا واحداً سينتهي بكارثة عصي كبحها .

نزعت المانيا بعدئذ الى تحدي فرنسا وكأنها آثرت القول أنها لن تعدل عن التنمر على أي خصم محتمل ، أو تهيئة سبب وجيه لجميع الخصوم لتقوية ارتباطاتهم تحت خيمة الدفاع عن النفس ، ففي عام ١٩١١ استجابت فرنسا ، التي تمثل الآن الادارة المدنية للمغرب ، للهيجان الداخلي فأرسلت قواتها الى مدينة (فاس) خارقة على نحو فاضح اتفاق الجسيرا . وهنا رضخ القيصر لتشجيع وتهليل الصحافة الألمانية المجنون فأرسل السفينة الحربية (باندر) الى ميناء (أغادير) المغربي . " مرمى ! ياله من صنيع ! " كتبت صحيفة (رينش وستفاليش زيتنغ) في ٢ تموز ١٩١١ . وأضافت : " الفعل أخيراً ، انه الصنيع التحرري الذي سيبدد سحب التشاؤم في كل مكان " .

وكان لعنوان طنان هو " وثبة النمر " نفس الغاية - الجهود الألمانية السابقة لكسر عزلتها التي فرضتها على نفسها . ولذلك بدا مرة أخرى أن المانيا وفرنسا

قد بلغتنا شفير حرب ، مع صيرورة أهداف المانيا سيئة التحديد مثلما هي دوما . ترى ما نوع التعويض الذي تطلبه هذه المرة ؟ ميناء مغربي ؟ جزء من الساحل الأطلسي المغربي ؟ أم مكتسبات استعمارية في أماكن أخرى ؟ لقد ابتغت ارعاب فرنسا بيد أنها لم تجد تعبيراً عملياتيا لتحقيق هذا الغرض .

من جانبها دعمت بريطانيا فرنسا (استمرارا منها في تطوير علاقتهما) بقوة أكبر من دعمها لها في الجسيرا عام ١٩٠٦ . لقد تجلى التبدل في الرأي العام البريطاني من خلال موقف مستشار المالية البريطاني آنذاك (ديفيد لويد جورج) الذي استحق سمعة طيبة لنزعته الهادئة ، ولكونه نصيرا للعلاقات الطيبة بألمانيا . ومع هذا القى خطبة عظيمة في هذه المناسبة حذر فيها من [اذا ما وقعنا في حال لا يستتب السلام الا بالتنازل عن المكانة العظيمة التي اكتسبناها عبر قرون من البطولة والانجاز ... فأنني أقولها مؤكداً ومن موقع لن أتزحزح فيه قيد أنملة ان السلام بهذا الثمن انما هو اذلال لا يطيقه بلد عظيم مثل بلدنا] .

وحتى النمسا أدارت ظهرها لحليفها القوي بعد أن أدركت لا منطقاً في ركب مطية المخاطرة في مغامرة في شمال أفريقيا . فتنازلت المانيا عن مطلبها قانعة بقطعة أرض واسعة ليست بذات جدوى في جنوب أفريقيا ، وهي الصفقة التي أثارت عويل الصحافة القومية الألمانية . " لقد خاطرنا بحرب عالمية من أجل مستنقعات (كونغولية) قليلة " ، هذا ما كتبته صحيفة " برليز تاغبلات " في ٣ تشرين الثاني ١٩١١ . بيد أن الذي استوجب النقد اليه ليس قيمة المكتسبات الجديدة بل الحكمة من وراء تهديد المانيا هذا البلد أو ذاك بحرب بين الفينة

والأخرى وهي أعجز عن تحديد هدف لها ذي معنى ، وفي كل مرة يتضاعف الخوف الذي أخرج الأحلاف المعادية الى حيز الوجود أول الأمر .

واذا كانت التكتيكات الألمانية الآن قد تلبست بالقولبية * ، فكذلك صار أمر الفعل البريطاني – الفرنسي ، فقد باشرت بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا سنة ١٩١٢ محادثات بين هيئات أركانها لم يفسد أهميتها رسميا سوى اعلان بريطانيا أن تلك المحادثات لا تشكل التزاما قانونيا . وحتى هذا القيد لم يجر الالتزام به دوما نظرا لعقد المعاهدة البحرية الانكلو – فرنسية لعام ١٩١٢ التي تحرك في ظلها الأسطول الفرنسي نحو البحر المتوسط وتولت بريطانيا العظمى مسؤولية الدفاع عن الساحل الأطلسي الفرنسي . وذلك هو الاتفاق الذي استحال بعد سنتين فقط الى التزام اخلاقي على بريطانيا أدخلها معمعة الحرب العالمية الأولى لأن فرنسا – كما كان الادعاء – قد تركت ساحلها القنالي بدون دفاعات اتكالا منها على الاسناد البريطاني . (وبعد ٢٨ عاما وتحديداً في سنة ١٩٤٠ ، أتاحت اتفاقية مماثلة بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى للأخيرة أن تحرك أسطولها الهادي الى المحيط الأطلسي وفاء بالتزام أخلاقي من جانب أمريكا لحماية الممتلكات الآسيوية البريطانية عديمة الدفاعات تقريبا ضد هجوم ياباني) .

في عام ١٩١٣ نزع القادة الألمان الى مفاقمة انعزال روسيا عبر مناورة أخرى من مناوراتهم المتقطعة العبثية . اذ وافقت المانيا هذه المرة على اعادة تنظيم الجيش التركي وارسال جنرال الماني ليتولى قيادة القسطنطينية . وانبرى وليام الثاني

* القولبية : تكرير متواصل شبه ميكانيكي للوضعة نفسها أو للحركة نفسها .

الى شحن التحدي بروح الاثارة الدرامية بارساله بعثـــة تدريبيـــة متباهيا أملاً أن " تطير الأعلام الألمانية قريبا فوق تحصينات البسفور " .

وثمة أحداث قليلـة يمكـن أن تثير حفيظة روسيا أكثر من مطالبة المانيا المتواصلة بموقعها في المضائق التي رفضت أوروبا اعطائها لروسيا طيلة قرن . فقد وافقت روسيا على مضض على اخضاع المضائق لسيطرة بلـد ضعيف مثل تركيا العثمانية ، غير أنها لن تذعن لسيطرة قوة عظمى أخرى على الدردنيل . لقد كتب وزير الخارجية الروســـي (سيرجي سازونوف) الى القيصر الروسي في كانون الأول ١٩١٣ : " ان التخلي عن المضائق لصالح دولة قوية أخرى انما يضارع التنازل عن تنمية جنوبي روسيا بأسره الى تلك الدولة " . ولذلك أبلغ نيقولا الثاني سفير بريطانيا : " ها هي المانيا تهدف للاستيلاء على هذا الموقع في القسطنطينية كي تتمكن بذلك من خنق روسيا في البحر الأسود . فان أقدمت المانيا على أي محاولة لتحقيق هذا الشيء فلسوف أقاومها بكل ما لي من حول وقوة ، حتى لو كانت الحرب هي الخيار الوحيد " .

وبرغم أن المانيا قد ابتدعت صيغة تحفظ بها ماء وجهها بسحبها القائد الألماني من القسطنطينية (عن طريق ترقيته الى رتبة مشير وهو ما يعني حسب التقليد الألماني انه غير مخول بقيادة القوات في الميدان) فانها قد أحدثت ضررا لا يمكن اصلاحه . فقد فهمت روسيا ان دعم المانيا للنمسا في قضية البوسنة - الهرسنك لم يكن عملاً غير مقصود . أما القيصر الألماني الذي اعتبر هذه التطورات اختبارا لرجولته فقد أبلغ مستشاره في ٢٥ شباط ١٩١٤ : " لقد ماتت

العلاقات الروسية - البروسية مرة والى الأبد ! ها قد أصبحنا أعداء ! " وما هي الا ستة اشهر حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى .

لقد نشأ نظام دولي شابهت صلابته وأسلوبه القائم على المواجهة صلابة وأسلوب الحرب الباردة فيما بعد . لكن النظام الدولي لما قبل الحرب العالمية الأولى كان أكثر تقلباً من عالم الحرب الباردة . ففي العصر النووي امتلكت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي فقط الوسائل الفنية الكافية لاستهلال حرب شاملة أحالت شدة مخاطرها كلتا القوتين العظيمتين دون تسليم هذه القوة المرعبة الى أي حليف مهما كان قريباً . وعلى نقيضها كانت فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى التي غدا فيها كل عضو من الحلفين الرئيسيين في مكانة لا تتيح له بدء حرب وحسب بل وابتزاز حلفائه لدعمه أيضا .

يبدو لوهلة أن نظام التحالفات نفسه قد صنع قيداً ما . اذ أبعدت فرنسا روسيا عن الصراعات التي تستهدف النمسا أصلاً ، ولعبت ألمانيا نفس الدور مع النمسا ضد روسيا . ويوم نشبت أزمة البوسنة أبانت روسيا عدم عزمها على خوض حرب من أجل قضية بلقانية . وحتى أثناء الأزمة المغربية عام ١٩١١ ، تم ابلاغ الرئيس الفرنسي (غاليو) أن أي مسعى فرنسي لحل أزمة المستعمرات عن طريق القوة لن يلقى أي دعم روسي . كما حذرت المانيا النمسا حتى أواخر حرب البلقان عام ١٩١٢ بوجود حدود لاسنادها لها ، وسلطت بريطانيا العظمى على روسيا ضغطاً لتعتدل في أفعالها لمصلحة عصبة البلقان المتقلقلة وغير واضحة المرامي التي تتزعمها صربيا . وأيضاً يوم عقد مؤتمر لندن عام ١٩١٣ عمدت بريطانيا العظمى الى معارضة الضم الصربي لألبانيا وهو أمر لا تطيقه النمسا .

وعلى أية حال كان مؤتمر لندن (١٩١٣) آخر فرصة لتنفيس النزاعات في النظام الدولي لما قبل الحرب الكونية الأولى . فقد استاءت صربيا من الاسناد الروسي الفاتر ، فيما امتعضت روسيا من وضع بريطانيا العظمى معتبرة اياها حكما غير نزيه ، ومن مقت فرنسا الواضح للذهاب الى الحرب . أما النمسا التي كانت على شفير التمزق تحت وطأة الضغوط الروسية والسلافية الجنوبية فقد حنقت من هزالة الدعم الألماني لها . وعليه تأملت صربيا وروسيا والنمسا الحصول على دعم أكبر من حلفائها ، بينما خشيت كل من فرنسا وبريطانيا العظمى والمانيا من فقدانها شركائها اذا ما فشلت في دعمها على نحو أقوى في الأزمة المقبلة .

بعدئذ استولى رعب مفاجيء على القوى الكبرى كل بمفردها ملوحاً أن التصالح سيلبسها بزة الضعف ويحط من شأن الاعتماد عليها وسيهجرها ، شركاءها تاركين اياها بمواجهة حلف عدواني لوحدها . وشرعت البلدان تتنكب أخطاراً على مستوى لا تسوغه مصالحها القومية التاريخية ولا هدفها الاستراتيجي المعقول طويل الأمد . واضحت تخرق يوميا مقولة راشليو المأثورة أن الوسائل يجب أن تتناسب مع الغايات . وهكذا قبلت المانيا لنفسها المخاطرة باشعال حرب كونية ليس سوى أن تظهر بمظهر الداعم للنمسا في سياستها السلافية الجنوبية ، والتي لم يكن لألمانيا فيها ناقة ولا جمل . وتاقت روسيا لتتجشم أخطار القتال ضد المانيا لمجرد أن تبدو بمثابة حليف صربيا الوفي المخلص . واذن نستشف أن لاصراعاً رئيسياً بين المانيا وروسيا ، وانما كانت مواجهتهما بالنيابة عن شريكتيهما .

في عام ١٩١٢ أبلغ الرئيس الفرنسي الجديد (رايمـون بوانكاريـه) السـفير الروسي بشأن البلقان قائلا : " ان ذهبت روسيا الى الحرب فكذلك ستفعل فرنسـا ، لأننا نعلم أن المانيا في هذا الصدد واقفـة وراء النمسـا " فكتـب السـفير الروسـي المسرور : " انها لنظرة فرنسـية جديـدة تماما ، اذ أن المكتسـبات الأقليميـة لصـالح النمسا ستؤثر على التوازن الأوروبي العام وبذلـــك ستضر بالمصـالح الفرنسيـــة أيضا " . وفي نفس العام كتب السكرتير الثاني في الخارجيـة البريطانيـــة السيـــر (آرثر نيكولسون) الى السفير البريطاني في سانت بطرسبورغ : " لست بعـالم الى أي وقت سـنظل سـائرين في سياسـتنا الحاليـــة القائمـة علـى الرقـص علـى حبـل مشدود ، وغير مرغمين على اتخاذ خط محدد أو غيره . كما يعتريني نفس الخـوف مثلك - خشية أن تتعب روسيا منا وتعقد صفقة مع المانيا " .

لقد وعد القيصر الألماني حتى لا يغلبه أحد في شـدة طيشـه ، النمسـا سـنة ١٩١٣ أن المانيا ستدخل معها حومة النزاع في الأزمة المقبلة ان دعت الضـرورة . وفي السابع من تموز ١٩١٤ شرح المستشار الألماني السياسـة الـتي أدت الى حـرب فعلية بعد أقل من أربعة أسـابيع فقـط : " لـــو حثثنـاهم - النمسـاويين - علـى المضي قدما ، لقالوا اننا دفعناهم دفعا ، ولو ثنيناهم لاصبح الأمـر اننـا تركنـاهم في حال لا يحسدون عليه وعند ذاك القوا لنا الظهـور والقـوا الصـدور للقـوى الغربيـة الفاتحة أذرعها ترحيباً بهم ، وبذلك سنفقد حليفنا الأخير " . أما الفـائدة الحقيقيـة التي كان يجب أن تقطفها النمسا لو دخلت الحلف الثلاثي فقد ظلت بلا تعريف . كما لم يكن محتملا أن تنضوي النمسا تحت تجمع يضم روسيا التي سعت الى اذلال وضع النمسا في البلقان . هنا سـتقول صحـائف التـاريخ أن تلـك التحالفـات قـد

أبرمت لزيادة قوة الدولة في حالة الحرب ؛ فيما أبانت الحرب العالمية الأولى أن الدافع الرئيسي للحرب هو تقوية أواصر الأحلاف . لقد تغافل قادة جميع البلدان الرئيسية مضامين التكنولوجيا التي بحوزتهم ، بل حتى مضامين الأحلاف التي كانوا توقى لبنائها. وبدا أنهم في غياهب النسيان لعدد الضحايا المخيف للحرب الأهلية الأمريكية الحديثة نسبيا ، ولاح أنهم قد أملوا نشوب صراع قصير حاسم . ولم يدر بخلدهم قط ان الفشل في ملاءمة تحالفاتهم مع الأهداف السياسية المعقولة سينتهي بهدم الحضارة التي عرفوها . وكان بوسع الأحلاف منفردة ترك المجال لدبلوماسية الأسرة الأوروبية حل ما لديها من مشاكل . غير أن القوى الكبرى سعت بدلا من ذلك الى صنع ماكنة قيامة دبلوماسية غير واعية بما عملت أيديها .

الفصـــل الثامـــن

طــريــق الدوامـــــة :

ماكنـــة القيامـــة العسكريـــــة

لم يكن الجانب المذهل في اندلاع الحرب العالمية الأولى أن أزمة أبسـط مـن كثير غيرها طفقت فأشعلت فتيل كارثة كونيـة ، بـل انهـا استغرقت وقتاً طويـلاً ريثما تفجرت . فبحلول عام ١٩١٤ ،تحرقت لتتقاتل المانيـا والنمسـا - المجـر مـن جانب ، وأعضاء الحلف الثلاثي من الجانب الآخـر ، ريثمـا سـاعد ساسـة البلـدان الكبرى جميعهم على صنع ماكنة قيامة دبلوماسية جعلت من كل أزمة قادمـة أشـد من سابقتها . ثم قدم القادة العسكر فازادوا الطين بلة لما اضافوا خططاً استراتيجية قلصت الوقت المتيسر لعملية صنع القرار . فالخطـة العسـكرية تعتمـد السـرعة في تنفيذهـا، والماكنـة الدبلوماسية تسير بزخمهـا التقليـدي البطـيء ، وهـا هنـا بـات مستحيلاً حل الأزمة تحت ضغط الزمـن . واذ شـيء للأمـور أن تسير أسـواً ، لم يشرح المخططون العسكريون على نحو واف ، مضامين أعمالهم لمن قاسمهم المهمـة من رفاقهم السياسيين .

وبذا أمسى التخطيط العسكري مهمة مستقلة بحد ذاتها . لقد جاءت أول خطوة في هــذا الاتجـاه في غضـون مفاوضـات هدفـت لتحقيـق تحـالف فرنسـي - روسي عام ١٨٩٢ ، واناك لما تزل غاية المفاوضات العسكرية " سبب الحرب " ،

أو ماهية تصرفات الخصم التي ستفضي بالتحالف التقاط القفاز ، والتي تحدد تعريفها دوماً بمن يظن به قد بادر الى العدوان .

في أيار ١٨٩٢ بعث المفاوض الروسي الجنرال المساعد (نيكولاي أوبروشوف) برسالة الى وزير خارجيته (غيرز) يكشف فيها عن تجاوز مسيرة التكنولوجيا الحديثة التعريف التقليدي لـ " سبب الحرب " . وكان جدله أن الذي يعني أكثر هو الطرف الذي عمد الى التعبئة أولاً لا من أطلق الرصاصة الأولى : " لا يمكن الاستمرار في اعتبار التعبئة عملاً سلمياً ، بل هي تمثل أكثر أعمال الحرب قراراً " .

وعليه سيخسر الطرف الذي يتباطأ في التعبئة فائدة تحالفاته ويمنح عدوه فرصة الحاق الهزيمة بحلفائه أيضاً . واذن غدت الحاجة الى تعبئة جميع الحلفاء لمصادرها في وقت واحد ضرورة لازمة في أذهان قادة أوروبا حتى استحالت الى قطب رحى في الارتباطات الدبلوماسية الرصينة . وهكذا لم تعد أيضاً غاية الأحلاف ضمان الدعم ((بعد)) استعار الحرب ، بل ضمان تعبئة كل حليف ما عنده حال أو قبيل أن يفعل الخصم شيئاً . واذا ما تواجهت الأحلاف وقد أحسنت بناء نفسها ، أمسى عصي إبطال التهديدات القائمة على التعبئة لأن ايقاف التعبئة في منتصف الطريق لأشد ضرراً من عدم الشروع بها أصلاً . فان أوقفها طرف واحد وأكملها الثاني ، لتفاقم ضرر الثاني مع كل يوم ينقضي . وان توقف كلاهما معاً ، لبات تحقيق ذلك صعباً من الناحية الفنية طالما أن التعبئة دوماً ما اكتملت قبل أن يستطيع الدبلوماسيون الموافقة على كيفية لجمها .

سيخرج مثل هذا الاجراء المهلك " سبب الحرب " من زمام السيطرة السياسية فعلياً . فكل أزمة تنطوي على تصعيد مبيت نحو الحرب - القرار بالتعبئة - وكل حرب تستفحل لتغدو عامة .

استقبل أوبروشوف التصعيد التلقائي ، بشديد اهتمام وكان آخر ما احتاجه هو الصراع ضيق النطاق فان بقيت المانيا بعيدة عن لهيب حرب بين روسيا والنمسا ، لتبوأت بعد انقضائها مكانة ستملي فيها شروطها للسلام . هذا أمر تصوره خيال أوبروشوف ما قد فعله بسمارك في مؤتمر برلين :

[ان دبلوماسيتنا لأقل من قدرة غيرها في الاتكال على صراع منعزل لروسيا ضد المانيا أو النمسا أو تركيا . علينا ان نستقي العبرة الكافية من مؤتمر برلين في هذا الصدد ، فمنه خبرنا أي الأطراف علينا ادراكه أخطر أعدائنا - أهو الذي يقاتلنا مباشرة ، أم الذي يتربص لضعفنا ليملي علينا شروط السلام ؟ ...] .

يرى أوبروشوف ان مصلحة روسيا تكمن في التأكد من تحول كل الحروب الى حروب عامة ، أما منفعة روسيا من تحالف راسخ الأركان مع فرنسا فهي الحيلولة دون امكانية نشوب حرب محدودة :

[هناك مع بوادر أية حرب أوروبية اغراء دائماً ما ينتاب الدبلوماسيون يحثهم على تحجيم الصراع لتطويق تأثيراته لأدنى حد ممكن . بيد أن روسيا في ظل الحالة المتقلقة المسلحة التي تعيشها أوروبا ، ستضطر بعين الشك والريبة الى

أي تحجيم للحرب ، لما لذلك من دور في تعزيز امكانيات ليس أعدائنا الذين ما برحوا متلبسين عباءة الخفاء ، بل ومن متذبذب من حلفائنا] .

وبعبارة أخرى ، أن الحرب الدفاعية محدودة الأهداف انما تعمل ((ضد)) مصلحة روسيا القومية ، وما يخدمها هي الحرب العامة ، وليس فيها أمام المخططين العسكريين من خيار آخر ليعرضوه على قادتهم السياسيين :

[نحن ان دخلنا حرباً ، فلن نلجها بغير استخدام جميع قوانا وضد جارتينا كلتيهما . وحيال استعداد الشعب المسلح عن بكرة أبيه وعزمه على الذهاب للحرب ، لا يمكن طرح نوع من الحرب غير الحرب المصيرية – الحرب التي من شأنها أن تحدد وعلى مدى بعيد في المستقبل المكانة السياسية للقوى الأوروبية لا سيما روسيا والمانيا] .

الحرب يجب أن تكون شاملة ، هكذا يراها السوفيت ، وان كان سببها تافهاً ، فان دخلها في مستهلها جار واحد ، رأت روسيا في الجار الآخر قادماً اليها . لقد ((فضلت)) الأركان العامة الروسية ، وهو أمر غريب ، أن تقاتل المانيا والنمسا – المجر معاً بدلاً من واحدة منهما . في ٤ كانون الثاني عام ١٨٩٤ تم توقيع اتفاقية عسكرية تحمل أفكار أوبروشوف ، اتفقت بموجبها فرنسا وروسيا على التعبئة معاً لو لجأ ((أي)) عضو في الحلف الثلاثي الى التعبئة ((لأي)) سبب مهما كان نوعه . وهنا اكتملت دورة ماكنة القيامة . فان عبأت حليفة المانيا – ايطاليا – قواها ضد فرنسا بشأن السافوا مثلاً ، عندئذ متعبأ روسيا قواها ضد المانيا . وان اعلنت النمسا أعلنت التعبئة ضد صربيا ، لشرعت فرنسا بالتعبئة

ضد المانيا . ولما كان مؤكداً أن تعلن أمة ما في مرحلة ما التعبئة لسبب ما ، أضحى الأمر بمجرد مسألة وقت حتى تندلع لظى حرب شاملة لم تكن بحاجه لغير تعبئة تعلن في ((دولة واحدة)) كبرى حتى تدور تروس ماكنة القيامة لتشمل الجميع .

أدرك القيصر الروسي الكسندر الثالث في أقل تقدير أن أسباب لعبة الآن هي نيل أدسم الجوائز . فلما سأله غيرز : " مالذي سنجنيه من مساعدة فرنسا في تحطيم المانيا ؟ " أجاب : " سنقطف اختفاء المانيا . فهي ستتشظى الى عدد من الولايات الصغيرة الضعيفة فترجع سيرتها الأولى " . وكذا كانت غايات المانيا ، كثيرة وغير محددة . اذ تحول التوازن الأوروبي الذي جأر كثيراً الى معركة حتى الموت ، برغم أن أحداً من الساسة المعنيين لم يستطع ايضاح السبب الذي يسوغ هذا الفناء أو الأهداف السياسية التي يمكن الحصول عليها عن طريق هذا اشعال هذا الحريق الجائح .

فما كان المخططون الروس يطرحونه بمثابة نظرية ، قد ترجمته الأركان الألمانية الى تخطيط عملياتي وفي اللحظة عينها التي كان أوبروشوف يتفاوض فيها حول الحلف العسكري الفرنسي - الروسي . كما دفع الجنرالات الامبراطوريون بما عرف عن الصرامة والجلد الألماني ، مفهوم التعبئة الى نطاقه الأقصى . فكان رئيس الأركان الألمانية (الفرد فون شليفن) أسير مشاريع التعبئة مثلما هو شأن نظيريه الروسي والفرنسي . بل هو انصب على تنفيذه فعلياً فيما كان القادة الروس والفرنسيون منكبين على تعريف الالتزام بالتعبئة .

لقد سعى شليفن رافضاً ترك أي شيء تحت رحمة تقلبات المناخ السياسي الى وضع خطة مضمونة تنقذ المانيا ، من أي تطويق كريه ، فهجر بذلك المفاهيم الاستراتيجية التي وضعها (هلموت فون مولتكه) المهندس العسكري لانتصارات بسمارك السريعة بين ١٨٦٤-١٨٧٠ ، تماماً مثلما تخلى خلفاء بسمارك عن دبلوماسيته المعقدة .

رسم مولتكه سياسة تركت بازاء كابوس بسمارك من التحالفات العسكرية خياراً مفتوحاً هو الحل السياسي لكابوس بسمارك . انطوت خطة مولتكه بتقسيم الجيش الألماني ، لو نشبت حرب على جبهتين ، بين الشرق والغرب على نحو متساو قليلاً أو كثيراً مع البقاء بموضع الدفاع على كلتا الجبهتين . ففرنسا ستبادر الى الهجوم طالما أن هدفها المبدئي استعادة اللزاس - اللورين ، وأن دحرت المانيا ذلك الهجوم لاضطرت فرنسا الى التفكير بتسوية سلمية . وهنا حذر مولتكه تحديداً من مد العمليات العسكرية الى باريس لأنه تعلم من الحرب الفرنسية - البروسية صعوبة التوصل الى سلام بينما العاصمة ترسف في اغلال الحصار .

وعين الاستراتيجية وضعها مولتكه للجبهة الشرقية - أي رد الهجوم الروسي ثم قهقرة الجيش الروسي الى مسافة كافية استراتيجياً ، ليعرض بعدها تسوية سلمية . فأي الجبهتين أدركت نصرها أولاً ، أمست متأهبة لمد يد عونها الى القوات المرابطة في الجبهة الأخرى . وبهذا الأسلوب سيمكن الحفاظ على نوع من التوازن في كفتي الحرب والضحايا والحل السياسي .

رفـض شليفـــن خطة مولتكه لأنها تركت المبـادرة العسـكرية بيـد أعـداء المانيا ، تماماً كما رفضتها أخلاف بسمارك الذين انتابهم القلق من الغموض الـذي أحاط بمن ضدهم من التحالفات ، كما لم يقبل تفضيـل مولتكـه للتسـوية السياسـية على النصر التام . فشرع يحدوه عزمه على فرض شروط تعني بالنتيجة استلاماً غير مشروط ، يطور مخططاً لنصر سريع حاسم على جبهـة واحـدة لـيرمي بعدئـذ كـل القوات الألمانية ضد العدو الآخر ، وبذلك تتحقق نتيجة حاسمة في كلتا الجبهتين . علم شليفن أن تسديد الضربة القاضيـة السـريعة في الشـرق سـتتعرقل بسـبب بـطء التعبئة الروسية التي فذ تستغرق ستة أسابيع اضافة الى تأثير سعة الاقليـم الروسـي ، فقرر تدمير الجيش الفرنسي أولاً قبل أن يستكمل الجيش الروسي تعبئته . لقد تفتق ذهنه وهو يفكر بطريقة للاطاحة بالتحصينات الفرنسية المنيعة على الحدود الألمانيـة عن خطة تقوم على انتهاك حياد بلجيكا بمرور الجيش الألمـاني عـبر أراضيهـا رانيـاً بعدها الى الاستيلاء على باريس وأسر الجيش الفرنسي من مؤخرتـه عنـد تحصيناتـه على طول الحدود . وانذاك سيلتزم الجيش الألماني الدفاع في الجبهة الشرقية .

هي خطة بارعة مثلما هي طائشة . فالذي يجهل التاريخ ولا يعرف منه الا نزراً سيقول بحتمية امتشاق بريطانيا العظمى حسامها لـو غزيـت بلجيكـا - وهـي حقيقة راوغت القيصر وهيئة أركانه العامة . فطيلـة عشـرين عامـاً بعـد ان وضـع شليفن خطته سنة ١٨٩٢ ، قدم القادة الألمان مقترحات لا حصـر لهـا الى بريطانيـا العظمى لنيل تأييدها - أو التزامها الحياد في الأقل - في حرب أوروبيـة ، وجميعهـا ترجمتها الخطط الألمانية العسكرية أوهاماً . فليس من قضية قاتلت لأجلها بريطانيـا العظمى بدأب لا يكل وعناد لا يـتزحزح كمـا قـاتلت في سبيل استقلال البلـدان

المنخفضة ، ويشهد على جلدها الحروب التي قاتلتها ضد (لويس الرابع عشر) ونابليون . فهي ان دخلت حرباً ، قاتلت حتى الرمق الأخير ، وان اندحرت فرنسا . وغير هذا ، لم تتطرق خطة شليفن لاحتمالية الفشل . فان أخفقت المانيا في تدمير الجيش الفرنسي – وهو أمر محتمل ما دامت لدى فرنسا خطوط مواصلات وسكك حديد داخلية تنطلق من باريس بينما يتوجب على الجيش الألماني السير على الأقدام على شكل قنطرة عبر ريف مخرب – لاضطرت المانيا الى اتباع استراتيجية مولتكه الدفاعية في كلتا الجبهتين بعد أن انهت احتمالية عقد سلام تسوية بسبب احتلالها بلجيكا . واذا كان الهدف المبدئي لسياسة بسمارك الخارجية تلافي حرب على جبهتين ، وهدف استراتيجية مولتكه تقليصهما ، أصر شليفن على اشعال حرب على جبهتين بأسلوب عتيق قلباً وقالباً .

وما بين الانتشار الألماني المنصب ضد فرنسا والاحتمال الأكبر أن ينبع الصراع من أوروبا الشرقية ، تحول كابوس بسمارك من " ماذا يحصل لو نشبت حرب على جبهتين ؟ " الى كابوس شليفن : ماذا يحصل لو لم تنشب حرب على جبهتين ؟ " فلو أعلنت فرنسا حيادها في حرب بلقانية ، لربما واجهت المانيا خطر اعلان فرنسا الحرب ((بعد)) اكتمال التعبئة الروسية كما أوضح أوبروشوف من الجانب الآخر من خط التقسيم الأوروبي . وان تجاهلت المانيا ، من الناحية الأخرى ، عرض فرنسا بالتزام الحياد ، لوضعت خطة شليفن المانيا في وضع غير مريح يفرض عليها الهجوم على بلجيكا غير المحاربة بهدف الوصول الى فرنسا غير المحاربة أيضاً . وبذا تحتم على شليفن اختلاق سبب لمهاجمة فرنسا لو وقفت جانباً ، وعندئذ أنشأ معياراً مستحيلاً لما ستقبله المانيا باعتباره حياداً فرنسياً . أي

أن المانيا ستعد فرنسا محايدة فقط اذا وافقت على التنازل عن أحد حصونها الرئيسة الى المانيا – وبمعنى آخر أن تضع فرنسا نفسها تحت رحمة المانيا وتتخلى عن مكانتها لقوة عظمى ٠

لاح الدمج الآثم بين التحالفات السياسية العامة والاستراتيجيات العسكرية المرعبة ، سفح أنهار من الدماء ٠ اذ فقد ميزان القوى أي أثر للمرونة التي تمتع بها أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وأينما ستشتعل حرب (ومن المؤكد تقريباً أنها ستندلع في البلقان) ، افترضت خطة شليفن نشوب أولى المعارك في الغرب بين البلدان التي ليس لها في الأزمة الحاضرة شروى نقير ٠ وهكذا أسلمت السياسة الخارجية أمرها للاستراتيجية العسكرية التي تمثلت الآن بمقامرة على رمية نرد واحدة ٠ أنه لانجراف أهوج الى مسلخ الحرب عسير التصور ٠

لقد التزم قادة الطرفين العسكريين ، برغم اصرارهم على خوض أشرس حرب تدميرية ، الصمت المشؤوم حيال عواقبها السياسية المترتبة على تأثير التكنولوجيا العسكرية التي كانوا يتعقبون ٠ ترى كيف ستبدو أوروبا بعد حرب من طراز التي يخططون لها ؟ وما هي التغييرات الممكن لها تسويغ المجزرة التي يشحذون سكاكينها الآن ؟ لم يكن ثمة طلب روسي واحد على المانيا أو طلب الماني على روسيا استحق حرباً ضيقة النطاق ٠

وكان الصمت ملاذ دبلوماسيي الطرفين ٠ لسبب يكمن بعضه الأكبر في عدم فهمهم المضامين السياسية لقنبلة بلدانهم الموقوتة ، ومرد بعضه الآخر الخوف الذي استبد بالساسة القوميين في كل بلد من تحدي مؤسساتهم العسكرية ٠

فمؤامرة الصمت هذه حالت دون قيام القادة السياسيين في البلدان الكبرى بالتدقيق في الخطط العسكرية التي أرست نقاط التلاقي بين الأهداف العسكرية والسياسية .

ثمة أمر غريب ساير الكارثة التي أخذ قادة أوروبا ينسجون خيوطها انه ، لانتابنا الذهول صفاء بال أولئك القادة وراحة ضمائرهم ولما يباشرون مشروعهم المأساوي . وأشد غرابة من هذا أن أحداً لم يتشدق بغير تحذيرات قليلة ، اذا ما استثنينا في ذلك الاستثناء المشرف المتجسد في (بيتر دورنوفو) - وزير داخلية روسي سابق أصبح عضواً في مجلس الدولة . فقد كتب في شباط ١٩١٤ أي قبل ستة أشهر من اندلاع الحرب - مذكرة تنبؤية رفعها الى القيصر :

[سنرفع بدون ريب الوزر الأكبر للحرب ، ما دامت انكلترا غير قادرة على اتخاذ دور مهم في حرب أوروبية ، فيما ستلوذ فرنسا قليلة القوة البشرية بالتكتيكات الدفاعية في ضوء الى الخسائر المفجعة التي تتكلفها الحرب في ظل آليات التقنية العسكرية الحديثة . وعليه سنتنكب نحن عبء مهاجمة التحصينات الألمانية وصنع ثغرة في الصفوف الدفاعية الألمانية بالغة الكثافة ......] .

واذن يرى دورنوفو ان التضحيات الروسية ستذهب سدى طالما أن روسيا أعجز عن تحقيق مكتسبات اقليمية دائمية بالقتال الى جانب بريطانيا العظمى التي هي خصمها الجيوسياسي التقليدي . ذلك أن بريطانيا العظمى ستقبل لروسيا حصولها على مكتسبات في اوروبا الوسطى ، لكن قطعة أرض اضافية من بولندا لن تفعل غير تفجير مزيد من الاضطرابات في أطراف الامبراطورية

الروسية . وهي أن أضافت سكان آخرين الى أوكرانيا مطالب باستقلال أوكرانيا . وعليه قد يأتي النصر بعاقبة ساخره تتمثل في تأجيج اضطرابات عرقية تطالب بتصغير امبراطورية القيصر الى " روسيا الصغيرة " .

مضى دورنوفو يقول أن روسيا وان بلغت هدفاً عاش في مخيلتها منذ قرن وتمثل بغزو الدردنيل ، فهي ستعود مع هذا الانجاز خالية الوفاض من الناحية الاستراتيجية :

[لن يمنحنا ذلك منفذاً الى البحر المفتوح ، ما دام في الجانب الآخر منه بحر يتألف من مياه اقليمية ، ومليء بالجزر المتناثرة حيث تبحر البحرية البريطانية غير ملاقية متاعب في اغلاق المداخل علينا والمنافذ ، ناهيك عن المضائق] .

أنى استطاعت هذه الحقيقة الجيوسياسية البسيطة مراوغة ثلاثة أجيال من الروس التائقين الى فتح القسطنطينية - والانكليز عاقدي العزم على احباط ذلك ؟ هو لغز وسيبقى .

ثم غاص دورنوفو في تفاصيل جدال أعمق قائلاً أن روسيا لن تخرج الا بفوائد اقتصادية هزيلة ، متكلفة الحرب لأبهض بكثير مما يمكن تعويضه . والنصر الألماني سيقوض أركان الاقتصاد الروسي تماماً بينما سيمتص النصر الروسي نسغ الاقتصاد الألماني ، واذن سيبقى لاشيء لاعادة البناء بغض النظر عن هوية الطرف المنتصر :

[لقينا أن الحرب ستستنزف طاقات لا تقوى عليها موارد روسيا المالية . وسنكون في عوز الا الاقتراض من البلدان الحليفة والمحايدة التي لن تقدم هذا مجاناً . ولست الآن براغب في الخوض بما سيحصل لو انتهت الحرب بكارثة علينا . فليس ممكناً حساب أو حتى التكهن بالعواقب المالية والاقتصادية للهزيمة ، ولسوف ستنتهي دون ريب الانهيار الكلي لاقتصادنا القومي . وما خالني أن نقطف من النصر أموالاً دريرة ، فألمانيا المحطمة لن تقوى حالاً على تعويضنا ما دفعناه ثمناً لسحقها ، ولن تخلق معاهدة السلام – المعدة لمصلحة انكلترا – أية فرصة للنهوض الاقتصادي الألماني من أجل تغطية نفقاتنا الحربية ، حتى ولو بعد وقت طويل] .

بيد أن السبب الأقوى لمعارضة دورنوفو الحرب هو استشعاره ثورة اجتماعية عاقبة لها تشتعل – أولاً في البلد المهزوم ريثما تبلغ المنتصر :

[انها قناعتنا الراسخة المستقاة من دراسة طويلة لجميع الاتجاهات الهدامة المعاصرة ، التي تؤكد حتميه اندلاع ثورة اجتماعية في البلد الخاسر وتستشري بدافع طبيعة الأشياء ذاتها ، الى البلد المنتصر] .

لم يتيسر أي دليل أن القيصر قد قرأ المذكرة التي كان لها انقاذه وسلالته . وليس من سجل لتحليل مشابه تيسر لدى العواصم الأوروبية الباقية . أما أقرب الآراء لآراء دورنوفو فهو تعليقات ساخرة أطلقها بتمان – هولفج ، المستشار الذي سيجر المانيا الى الحرب . ففي عام ١٩١٣ ، وهنا قد سبق السيف العذل ،

تحدث بدقة بالغة عن أسباب صيرورة سياسة المانيا الخارجية موطن الزعزعة لاستقرار بقية أوروبا :

[ارفع راية التحدي بوجه الجميع ، وقف في طريق الجميع والسبب : انعدام الهدف ، والحاجة لنجاحات هامشية على صعيد الهيبة ، والاهتمام المفرط بجميع تيارات الرأي العام] .

ثم طلع بنفس العام بحكمة أخرى ربما انقذت بلاده لو دخلت حيز التنفيذ قبل عشرين عاماً :

[علينا أن نلجم فرنسا عبر سياسات حذرة تتبناها مع روسيا وانكلترا . هذا الأمر لن يسعد الشوفينيين ولن يحظى بارتياح الشعب . بيد أنني لا أرى لسواه بديلاً أمام المانيا في المستقبل القريب] .

سارت أوروبا وقبل أن تتسطر هذه الكلمات طريقها الفعلي نحو الدوامة . فكان مكان الأزمة التي أشعلت فتيل الحرب العالمية الأولى غير ذي صلة بميزان القوى الأوروبي ، وكان " سبب الحرب " عرضياً مثلما كانت طائشة الدبلوماسية السابقة .

ففي الثامن والعشرين من حزيران عام ١٩١٤ ، (فرانزفرديناند) ، وريث العرش النمساوي ، حياته ثمناً لاندفاع النمسا الطائش بضم البوسنة - الهرسنك سنة ١٩٠٨ . بل لم ينح حتى اسلوب اغتياله المزج بين المأساة والحماقة التي أطلقت العنان لتفكك النمسا . فالارهابي الصربي فشل في

محاولته الأولى اغتيال فرانز فرديناند وأصاب بجروح بدلا منه سائق مركبة الارشيدوق . وبعد أن وصل فرديناند الى مقر اقامة الحاكم معاقباً المسؤولين النمساويين على اهمالهم ، قرر ترافقه زوجته زيارة الضحية في المستشفى . غير أن سائق العربة الجديد سلك طريقاً خاطئاً وعند رجوعه وخروجه من الشارع توقفت العربة أمام المغتال المصعوق الذي كان يغرق الام احباطه باحتساء الخمر في مقهى على جانب الطريق . أما وتجسد ضحاياه أمام عينيه بأنفسهم ، هيأ نفسه فاصاب مرماه في الكرة الثانية .

لقد استشرى الذي بدا أول وهلة حادثاً أو أقرب اليه الى حريق كبير انطوى على كل حتميات التراجيديا الاغريقية . فقد تغيب عن مراسم التشيع جميع ملوك أوروبا لأن زوجة الأرشيدوق ليست من دم اعراق السلالة الحاكمة . فلو اجتمعت الرؤوس المزهوة بتيجانها ونالت لتبادل آرائها ، فرصة ، لربما أمست كارهة للذهاب الى حرب ستندلع بعد أسابيع قليلة من أجل ما كان فوق كل شيء ، مؤامرة ارهابية .

وأنى كان الأمر ، كان بوسع أية قمة ملكية أن تمنع النمسا من الضغط على زر التفجير الذي سلمه اياها القيصر الألماني على عجل . فهو قد دعا وذاكرته حية بما أخذ على نفسه من وعد في سنة خلت بدعم النمسا في الأزمة المقبلة ، السفير النمساوي الى مأدبة غداء في ٥ تموز حاثاً اياه على اتخاذ فعل سريع ضد صربيا . وفي ٦ تموز أكد بتمان - هولفج تعهد القيصر : " على النمسا أن تقرر ما يجب فعله لتصفية علاقاتها مع صربيا ، بيد أن لها أن تطمئن أنىّ كان قرارها الى وقوف المانيا بظهرها حليفة لها " .

هكذا نالت النمسا أخيراً الصك الأبيض الذي طالما تاقت الى نيله ، ومعه الضيم الحقيقي الذي كان يجب سداده . أما وليام الثاني الغافل دوماً عن المضامين الكلية لتبجحه وادعائه الشجاعة ، فقد غاص مسرياً عن نفسه في رحلة الى أزقة النروج البحرية (وهذا في أيام لم يكن فيها ارسال برقي) . وما الذي جال في باله لم يكن معروفاً ، غير أن أكيد الأمر أنه لم يستشعر نشوب حرب أوروبية يحرق لظاها الأخضر واليابس على السواء . اذ حسب القيصر الالماني مع مستشاره أن روسيا غير مستعدة حتى الآن للحرب وستقف جانباً بينما تقاسي صربيا اذلالها ، مثلما فعلت عام ١٩٠٨ ، كما اعتقد كلاهما أنهما في وضع أفضل الان لجالاة روسيا مما سيكون عليه الحال بعد سنين عدداً .

ترسخت قناعة القواد الألمان سيما وقد خلى سجلهم من الخطأ في سبر نفسية خصومهم بعظم فرصتهم الآن مثلما حاولوا ببنائهم بحرية كبيرة ، ارغام بريطانيا العظمى على الانخراط في حلف ما ، أو حين سعوا الى عزل فرنسا بتهديدها بالحرب بشأن الغرب . وهم قد تجاهلوا ، يقودهم افتراضهم أن نجاح النمسا قد يكسر طوقهم الخانق من خلال سرعة اهتمام روسيا بوهم الحلف الثلاثي ، فرنسا التي ظنوها متنافية مع الصلح وتحاشوا توسط بريطانيا العظمى مخافة أن تفسد عليهم نشوة النصر . فاقنعوا انفسهم ، خلافاً لكل التوقعات ، أن حرباً لو نشبت لألتزمت بريطانيا العظمى الحياد أو لتدخلنا بعد فوات الأوان . وبرغم هذا . شرح (سيرجي سازونوف) ، وزير خارجية روسيا عند اندلاع الحرب ، أسباب عدم ابتعاد روسيا عن المسرح في هذا الوقت :

[مذ حرب الكريميا ونحن أبعد عن خداع ذواتنا بماهية شعـور النمسا حيالنا ، لقد اتسمت علاقة كلينا بالعدائية ساعة شرعت بسياسة النهب واللصوصية في البلقان سعياً وراء دعم البنية المتهاوية لهيمنتها ، ومع هذا ، تجرعنا ذلك ، العلقم حتى تجلى أن سياستها في البلقان تلقى تعاطفاً من المانيا وتحظى بتشجيع برلين] .

شعرت روسيا بواجب مقاومتها ما رأته مناورة المانية لتحطيم مكانتها لدى السلافيين باذلالها صربيا ، أشد حلفائها ولاءً لها في المنطقة ، هنا سطر سازونوف : " كان الا نتعامل مع قرار متسرع من وزير قصير النظر تبناه على مسؤوليته الخاصة ، بل نحن نتعامل خطة بطول أناة تم اعدادها وتطويرها وبمعونة الحكومة الألمانية التي لولا موافقتها وتعهدها بتقديم العون لما استطاعت النمسا - المجر أن المغامرة بتنفيذها " .

وجاء دبلوماسي روسي آخر ليصف الفرق بين المانيا بسمارك والمانيا ما بعد بسمارك بطريقة رسم منها حنين الى الماضي :

[لئن الحرب العظمى نتيجة حتمية لتشجيع المانيا للنمسا - المجر في سياستها الاختراقية للبلقان ، التي روجت لها الفكرة القومية الألمانية بـ " أوروبا وسطى " المانية ، وما كان هذا ليحصل في أيام بسمارك ، الذي حصل فكان

نتيجة طمع المانيا الجديد للامساك بمهمة هي أعسر من مهمة بسـمارك – دونما وجود بسمارك *] .

لقـد بـالغ الدبلوماسيون الـروس في العظمـة الألمانيـة ، فـالقيصر الألمـاني ومستشـاروه لم يرسمـوا لعـام ١٩١٤ خطـة أطـول في أمدهـا مـن خططهـم الـتي وضعوها لأية أزمة سابقة . فأزمة اغتيال الارشيدوق قد أفلتت من زمـام السيطرة بعد أن تنحى أي قائد عن التنازل عن مطالبه واكتراث جميـع البلـدان بالارتقـاء الى مستوى الالتزام بالمعاهدات الرسمية أكثر من الاهتمـام بـالمفهوم الشـامل للمصلحـة المشتركة بعيدة المدى . فما افتقرت اليـه أوروبـا هـو منظومـة قيـم شـاملة تجـذب القـوى سـوية تحـت خيمتهـا مثلمـا حصـل في نظـام مـترنيخ ، وكذلـك المرونـة الدبلوماسية الواقعية التي اتسمت بها سياسة بسـمارك الواقعيـة . لقـد استعـرت لظى الحرب العالمية الأولى ليس لأن البلدان طرقت معاهداتها ، بـل لأنهـا التزمت بها قلباً وقالباً .

ان أحد أشد جوانب مرحلة التمهيد للحرب الكونيـة الأولى غرابـة هـو أن شيئاً لم يحصل في مستهلها . فالنمسا ، توافقاً مـع أسلوب عملهـا ، قـد مـاطلت للسبب مرد بعضه الى حاجته فيينا الى الوقت لتتغلب علـى استياء (ستيفن يـتزا) رئيس الوزراء المجري من تعريض الامبراطورية للخطر . فما كاد يرضخ أخيراً حتى أصدرت النمسا انذاراً الى صربيا بتاريخ ٢٣ تموز أمده ٤٨ ساعة ، تضمن شـروطاً

* علينا أن نأخذ الذكريات الروسية على علاتها لأنها حاولت نقل كامل المسؤولية الى كاهل المانيا ، وأشد من ينطبق عليه هذا القول هو سوزونوف ، الذي يتحمل بعضاً من اللوم لسبب بسيط هو انتمائه الى جماعة دعاة الحرب الذين دفعوا الى التعبئة الكلية .

عسيرة كانت تعلم أنها ستلقى الرفض . ومع ذلك جرد هذ التأخير النمسا من الفوائد التي يأتي بها الشعور المستشري بالسخط في طول أوروبا وعرضها من حادث اغتيال الأرشيدوق .

ليس من شك الا نزراً أن روسيا في عهد أوروبا مترنيخ حيث االتزمت بالشرعية كانت ستنال من النمسا في معاقبتها صربيا على اغتيال أمير يتمتع بحق مباشر لوراثة العرش النمساوي . غير أن الشرعية ما عادت عام ١٩١٤ عقداً مشتركاً ، فغلب تعاطف روسيا مع حليفتها صربيا على غيظها من اغتيال فرائز فرديناند .

واتصفت الدبلوماسية النمساوية بتثاقل خطاها طيلة الشهر التالي للاغتيال ، حتى جاء الاندفاع المسعور نحو الطوفان الجائح في غضون أقل من أسبوع . فقد دفع الانذار النمساوي الأحداث بعيداً عن سيطرة القادة السياسيين ، فهو ما ان صدر حتى أمست جميع البلدان الكبرى متهيئة لاستهلال سباق التعبئة الرجعي . وموطن السخرية هنا أن فتيل التعبئة قد أشعله البلد الوحيد الذي لم يفقه عن مخططات التعبئة شيئاً . فخطط النمسا العسكرية كانت عتيقة لم تعتمد السرعة في تنفيذها . والنمسا لم تكترث الا قليلاً لخططها العسكرية ، ما دامت جيوشها أقدر على مقاتلة صربيا آجلا أو عاجلا . وما انذارها الى صربيا الا لتحبط أية وساطة محتملة لا لتسريع تنفيذ العمليات العسكرية ، ناهيك عن أن التعبئة النمساوية لأنها ستسلخ شهراً حتى تكتمل لم تهدد أية قوة كبرى أخرى .

وهكذا تم تطبيق خطط التعبئة التي حتمت نشوب الحرب في البلد الـذي لم يبدأ جيشـه قتـالا فعليـاً الا ((بعـد)) أن وضعـت المعـارك الكـبرى فـي الغـرب أوزراها . ومن الناحية الأخرى ، كان على روسيا ، أنـىّ كـانت درجـة استعداد النمسا ، لو رغبت بتهديد النمسا تعبئة بعضـاً مـن قواتهـا وهـو تصـرف سيثير في المانيا ما لا يمكن الغاؤه (برغـم ان أياً من الزعماء السياسيين لم يبد قـد أدرك هـذا الخطر) . فمفارقة تموز ١٩١٤ هي أن البلدان التي لديها أسباب سياسية للاشتباك في حرب لم تكن مرتبطة بخطط تعبئة ملزمة ، بينما لم يكـن لـدى البلـدان المرتبطـة بخطط ملزمة كروسيا والمانيا أية أسباب سياسية للاصطراع في حرب .

أما بريطانيا العظمى ، البلد ذو الوضع الأفضل للامساك بسلسلة الأحـداث هذه فقد ترددت . فما لهـا والأزمـة البلقانيـة مصلحـة تذكـر برغـم أنهـا ملكـت مصلحة كبرى في الحفـاظ علـى الحلـف الثلاثـي . وهـي بينمـا مقتـت الحـرب ، خشيت من انتصـار المانيـا . وان أعلنـت دون لبـس نواياهـا وأفهمـت المانيـا انهـا ستدخل حرباً عامة ، لربما تحاشى القيصر الألماني المواجهة . هذا الأمـر تحديـداً مـا أدركه سازونوف فيما بعد :

[لا يسعني الا القول برأي أن السير ادوارد غري لو أعلن عام ١٩١٤ جهاراً تضامن بريطانيا العظمى مع فرنسا وروسيا ، فلعله أنقذ الانسانيـــة مـن ذلك الجحيم الرهيـــب الـــذي هـــددت عواقبـــه وجـود الحضـارة الأوروبية نفسها] .

تأبىّ قادة بريطانيا عن التغرير بالحلف الثلاثي لما أشاروا بالتردد في تأييد حلفائهم ، ورغبوا عن تهديد المانيا من أجل احتفاظهم بورقة التوسط في اللحظة المناسبة ٠ وعليه صح في بريطانيا القول لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى فما كان ثمة التزام قانوني أبغى عليها امتشاق الحسام بجانب فرنسا وروسيا وهو ما أكده غري لمجلس العموم في الحادي عشر من حزيران ١٩١٤ ، أي قبيل اغتيال الأرشيدوق بأكثر من أسبوعين :

[... لو اندلعت حرب بين قوى أوروبية فليس هناك من اتفاقيات غير منشورة أو تعيق أو تكبح حرية الحكومة أو البرلمان في تقرير اشتراك بريطانيا العظمى في حرب من عدمه .....] ٠

هذا القول صائب من الناحية القانونية ٠ بيد أن هناك بعداً معنوياً غير ملموس أيضاً ٠ فالبحرية الفرنسية مرابطة في البحر المتوسط بمقتضى اتفاقية بحرية مع بريطانيا العظمى ، وبالتالي سينكشف ساحل فرنسا الشمالي أمام البحرية الألمانية لو بقيت بريطانيا خارج الحرب ٠ ولما تطورت الأزمة تعهد بتمان - هولفج ان البحرية الألمانية لن تعمل ضد فرنسا اذا بقيت بريطانيا على الحياد ٠ الا أن غري رفض هذه الصفقة لنفس السبب الذي رفض به العرض الألماني سنة ١٩١٥ القاضي بابطاء بناء البحرية الألمانية مقابل حياد بريطانيا في حرب أوروبية لقد خشي من وقوع بريطانيا تحت رحمة المانيا اذا ما هزمت فرنسا :

[عليك ابلاغ المستشار الألماني أن مقترحه الذي يفرض علينا الحياد وفق هذه الشروط لا يمكن لنا القبول به ٠

...... فصفقة كهذه مع المانيا على حساب فرنسا هي وصمة عار لا تمحى من جبين هذا البلد ، والمستشار بطلبه هذا انما يعرض علينا المساومة حيال أي التزام أو مصلحة لنا تتعلق بحياد بلجيكا ، وليس أمامنا الا رفض هذا العرض أيضاً] .

تجسدت معضلة غري في وقوع بلاده بين كماشتي ضغط الرأي العام من جهة وتقاليد السياسة الخارجية البريطانية من جهة ثانية ، فانخفاض التأييد الشعبي للذهاب الى حرب حول قضية بلقانية قد أوحى بالتوسط ، وان خسرت فرنسا الحرب أو فقدت ثقتها بالحلف البريطاني لغدت المانيا في وضع المسيطر وذا ما قاومته بريطانيا على الدوام ، وعليه أمسى الأمر جد محتمل أن تذهب بريطانيا العظمى للحرب للحيلولة دون انهيار فرنسا حتى لو لم تحتل المانيا بلجيكا ، برغم أن الأمر سيستغرق وقتاً لبلورة تأييد الشعب البريطاني للحرب ، وفي خضم هذا ، ربما سعت بريطانيا الى الوساطة ، وعلى أية حال ، عمل قرار المانيا بتحدي أحد أرسخ المباديء االبريطانية في السياسة الخارجية - وهو وجوب عدم سقوط البلدان المنخفضة في أيدي قوة كبرى - على تبديد كل شكوك بريطانيا ، وضمن استحالة انتهاء الحرب عن طريق التسوية .

استند منطق غري الى حجة أن الوقوف في جانب الطريق خلال المراحل المبكرة من الأزمة سيبقي في جعبة بريطانيا العظمى ادعاء نزاهتها فتنال بذلك فرصة الحل ، هذه استراتيجية دعمتها التجارب السابقه ، فحصيلة توترات دولية ضاغطة لمدة عشرين عاماً كانت مؤتمراً ، بيد أن الأزمات السابقة جميعها لم تشهد عمليات تعبئة قط ، والتي ما ان بدأت حتى تلاشى هامش الوقت المتبقي أمام

الأساليب الدبلوماسية التقليدية . وهكذا اتخذ مجلس الوزراء البريطاني دور المتفرج في الست وتسعين ساعة الحاسمة التي الغت بها خطط التعبئة فرصة المناورة السياسية .

فت الانذار النمساوي روسيا في عضدها وفي لحظة قد أدركت قبلها أنها قد تجرعت علقماً ، فتلك بلغاريا التي اعتقتها روسيا من الحكم التركي في سلسلة من الحروب . تتكيء على المانيا . بينما وغيرها النمسا التي بدت وقد ضمت البوسنة - الهرسنك أنها تحوم لتحيل صربيا ، آخر أهم حلفاء روسيا في البلقان ، الى محمية نمساوية . وأخيراً ، لم يعد أمام روسيا سيما وقد أرست المانيا دعائم نفسها في القسطنطينية ، غير أن تتساءل في احتمالية عدم انتهاء عهد السلافيين . أثر بالهيمنة التيوتونية على كل ما سال لعابها له طيلة قرن .

ما كان القيصر نيقولا الثاني ، برغم هذا ، متشوقاً الى معالنة المانيا . اذ استعرض خيارات روسيا في اجتماع وزاري في ٢٤ تموز ، وهنا أخبر وزير المالية (بيتر براك) القيصر قائلا : " ستضحى الحرب كارثة على العالم ، وان اندلعت شرارتها بات عسيراً اطفاؤها " . وأضاف " الامبراطور الألماني كثيراً ما أكد له رغبته المخلصة برعاية سلام أوروبا " . بعدها استذكر أمام الوزراء " موقف امبراطور المانيا الموالي لنا أثناء حربنا مع اليابان ، وأثناء المتاعب الداخلية التي عانت منها روسيا بعدها " .

جاء الرد بالرفض لما قاله وزير المالية على لسان وزير الزراعة (الكسندر كريفوشين) الذي جادل أن المانيا بالرغم من رسائل القيصر الألماني الرقيقة لأبن

عمه القيصر نيقولا ، قد تنمرت على روسيا أثناء أزمة البوسنة عام ١٩٠٨ . وعليه " فان الراي العام ورأي البرلمان لا يفهم لماذا تنفر الحكومة الامبراطورية من التصرف الجريء في اللحظة الحرجة المتعلقة بمصلحة روسيا الحيوية .... ان مواقفنا المفرطة في الحكمة والحذر لم تنجح مع الأسف في كبح جماح قوى أوروبا الوسطى " .

لقيت مجادلة كريفوشين تأييداً حملته رسالة من السفير الروسي في صوفيا تقول أن روسيا لو نكصت ، " لتلاشت سمعتنا لدى السلاف وفي البلقان سوف لغير رجعة " . انها خصلة رؤساء الحكومة صيرورتهم شديدي الحساسية تجاه المجادلات التي تشكك بشجاعتهم . فطمس القيصر ارهاصاته الحصول كارثة ومال الى دعم صربيا حتى وان خاض حرباً .

وساعة استجابت صربيا للانذار النمساوي في ٢٥ تموز بأسلوب تصالحي غير متوقع – اذ قبلت جميع مطالب النمسا عدا واحد منها – اعتقد القيصر الألماني الذي عاد لتوه من نزهته الجوالة أن الأزمة انتهت . لكنه لم يركن على تصميم النمسا باستغلال الدعم الذي عرضه هو عليها دونما أي حذر . ان كان قد عرف أصلاً – أن القوى الكبرى لو دنت من شفير الحرب كثيراً ، لرجحت كفة خطط التعبئة على الوسائل الدبلوماسية .

وهكذا أعلنت النمسا يوم ٢٨ تموز الحرب على صربيا برغم أنها لم تكن على استعداد لبدأ العمليات العسكرية حتى ١٢ آب . وفي اليوم عينه ، أمر القيصر الروسي بالتعبئة الجزئية ضد النمسا ليفاجأ أن الخطة الوحيدة التي وضعتها

الأركان العامة انطوت على تعبئة عامة ضد المانيا والنمسا كلتيهما ، بالرغم من وقوف النمسا طيلة الخمسين عاما الماضية في طريق طموحات روسيا في البلقان ، وان موضوع الحرب النمساوية - الروسية محدودة النطاق كان درساً أساسياً في مدارس الأركان العسكرية طوال تلك الحقبة . وسعى وزير خارجية روسيا ، الذي كان يعيش في سعادة وهمية ، الى طمأنة برلين في ٢٨ تموز : " لم تكن أي من الاجراءات العسكرية المتخذة حيال اعلان النمسا الحرب موجهة ضد المانيا " .

هاللت رباطة جأش القيصر جميع القادة الروس . فقد أرادوا تعبئة عامة وحرباً ضد المانيا التي لم تتخذ بعد أية اجراءات عسكرية . وأنبأ أحد الجنرالات البارزين سازونوف أن " الحرب باتت حتمية ويحوم أمامنا خطر خسارتها قبل أن نجرد الغمد من سيفه " .

فان كان القيصر مترددا أمام جنرالاته ، كان أكثر تراخياً تجاه المانيا . اذ اشتملت كل خطط المانيا الحربية على اخراج فرنسا من الحلبة خلال ستة أسابيع ، لتستدير المانيا بعدها الى روسيا التي لم تستكمل تعبئتها بعد . والتي لم تمت - وان كانت جزئية - لأفسدت هذا الترتيب الزمني وقلصت أفضلية المانيا المهددة أساساً في هذه المقامرة . وعلى هذا الأساس وعليه ، طلبت المانيا من روسيا في ٢٩ تموز ايقاف تعبئتها والا ستحذو حذوها . ويعلم الجميع ، قاصيهم ودانيهم ، أن التعبئة الألمانية تعني الحرب .

كان القيصر الروسي أضعف من أن يجدي لشيء . فايقاف التعبئة الجزئية سيطل كل التخطيط العسكري الروسي ، فيما اقنعته معارضة الجنرالات أن السيف قد سبق العذل . فما أقبل ٣٠ تموز حتى أمر نيقولا الثاني بالتعبئة الكاملة ، وتارة أخرى ، وتحديداً في ٣١ تموز ، طلبت المانيا من روسيا ايقاف تعبئتها . ولما كان مصير طلبها الرفض أعلنت المانيا الحرب على روسيا . لقد حدث كل ذلك دونما أي تداول سياسي جدي بين سانت بطرسبرغ وبرلين بشأن أصل الأزمة ، وفي غياب أي خلاف ملموس بين المانيا وروسيا .

واجهت المانيا الان مشكلة أن خططها الحربية تفرض شن هجوم فوري على فرنسا التي التزمت الهدوء والسكينة طوال الأزمة عدا تشجيعها روسيا على عدم القبول بتسوية ، متعهدة بتقديم دعمها غير المشروط . وعند ذاك فهم القيصر الألماني أخيراً أين وضعته عشرين عاماً من التكلف والجعجعة ، فحاول تحويل التعبئة الألمانية من فرنسا وتوجيهها الى روسيا . فكانت محاولته للسيطرة على زمام الجيش هباءً مثلما هو مجهود القيصر الروسي السابق لحصر نطاق التعبئة الروسية . وما كانت الرغبة الشديدة تستبد بالأركان العامة الألمانية كما استبدت بنظيرتها الروسية لانهاء عشرين عاماً من التخطيط ، بل ليس هناك غير الأركان الروسية من امتلك خطة بديلة . لقد أراد القيصر الروسي والامبراطور الألماني لجم عسكرهما عن الدنو من شفير الهاوية ، بيد أن كليهما لم يفقه الوسيلة الى ذلك - فقد حالت التعبئة الجزئية بين قيصر روسيا الذي منع منها وبين هذه الغاية ، بينما وقفت التعبئة ضد روسيا لا سواها التي منع منها قيصر المانيا ضد ذلك . وهكذا

أحبطتهما الماكنة العسكرية التي ساعدا على صناعتها وأثبتت أنها عصية على الايقاف متى ما تم تدويرها .

واذا حل الأول من آب ، استعلمت المانيا من فرنسا عن رغبتها بالتزام الحياد ، ولما أتاها الجواب بالايجاب طلبت أن تكون تحصينات (فردون) و (نولون) علائم حسن النية . بيد أن فرنسا أجابت بطريقة مبهمة انها ستعمل وفق ما تقتضيه مصلحتها القومية ، ولا ريب أن المانيا ليس لديها قضية محددة يمكن بها تسويغ الحرب على فرنسا التي كانت متفرجة على أزمة البلقان . ومرة أخرى برزت خطط التعبئة لتغدو القوة المحركة القائدة . فاختلف الألمان اختراقات حدودية فرنسية وأعلنوا الحرب حين جاء الثالث من آب . وفي اليوم ذاته ، انثالت الحشود الألمانية لتغزو بلجيكا ، حتى حل يوم ٤ آب ووقع ما لم يتوقعه أحد حاشا قادة المانيا - أنه اعلان بريطانيا العظمى الحرب على المانيا .

لقد نجحت القوى العظمى في تحويل أزمة بلقانية ثانوية الى حرب عالمية . فخلاف حول البوسنة وصربيا أفضى الى احتلال بلجيكا في الطرف الآخر من أوروبا ، وهو ما حتم دخول بريطانيا العظمى الى ساحة الوغى . وسخرية الأمر هنا أن القوات النمساوية لما تشن هجومها ضد صربيا بعد ورحى المعارك الضارية الحاسمة يدور في الجبهة الغربية .

أدركت المانيا بعد فوات الأوان أن لاشيء مؤكد في الحرب وأن لهاثها وراء نصر سريع حاسم قد أدى بها الى حرب استنزاف أليمة . فهي قد قضت بتنفيذها خطة شليفن على الآمال بالحياد البريطاني ، دونما فلاحها في سحق الجيش

الفرنسي وهو الغرض من وراء تجشم كل تلك المخاطر . ويا لها من سخرية ان تخسر المانيا في المعركة الهجومية في الغرب وتكسب المعركة الدفاعية في الشرق ، الأمر الذي تنبأ به مولتكه سابقاً . وفي خاتمة المطاف ، انبغى على المانيا تطبيق استراتيجية مولتكه الدفاعية في الغرب أيضاً بعد اتباعها سياسة اشنت تسوية السلام السياسي التي ارتكزت عليها استراتيجية مولتكه .

آل مصير الأسرة الأوروبية الى الفشل بعد ان تخلت القيادة السياسية عن مسؤولياتها . فكانت النتيجة أن أخفقت حتى في محاولة عقد مؤتمر أوروبي هيأ خلال جل القرن التاسع عشر فترات سكينة بلا وضع حل حقيقي . وهم ، بدلاً من ذلك ، تحوطوا لكل طارىء ألا الوقت المطلوب لاجراء المصالحات الدبلوماسية . متناسين مقولة بسمارك : " ويل للقائد الذي لا تكون مجادلاته عقلانية في نهاية الحرب مثلما هي في بدايتها " .

وفيما كانت عجلة الأحداث تدور دورتها ، لقي ٢٠ مليون شخص حتفه ، وذابت امبراطورية النمسا- المجر ، وأطيح بثلاث من الأسر الحاكمة التي دخلت حومة الحرب وهي - الألمانية والنمساوية والروسية . ولم يبق عامراً غير البيت الملكي البريطاني . وبعد هذا وذاك ، ليس باليسير القول بالذي أشعل فتيل هذا الحريق المروع . وكل ما عرفه الجميع وهم يتطلعون الى الرماد الذي خلفته هذه الحماقة المفجعة ، الحاجة الى انشاء نظام أوروبي جديد برغم ان البوح بكنهه في خضم المآسي والانهاك والآلم التي خلفتها هذه المجزرة كان عسيراً .

الفصل التاسع

وجه الدبلوماسية الجديد

ولسون ومعاهدة فرساي

في الحادي عشر من تشرين الثاني عام ١٩١٨ أعلن رئيس الوزراء البريطاني ديفيد لويد جورج توقيع هدنة بين المانيا والقوات الحليفة بالكلمات الآتية : " آمل أن نستطيع القول أننا قد وصلنا في هذا الصباح القدري الى نهاية جميع الحروب " . وواقع الأمر أن عقدين فقط كانا أمام أوروبا لتغرق في حائمة حرب أشد دموية .

كان أمراً مقضياً ، سيما وأن شيئاً لم يتحقق وفق ما أريد له حول الحرب العالمية الأولى ، أن يغدو التطلع للسلام شيئاً ساذجاً سذاجة الآمال التي تشبثت بها الأمم وأوردت نفسها مورد التهلكة . فقد تلمس جميع المشاركين فيها حرباً موجزة ، تاركين تحديد بنود سلامها الى مؤتمر دبلوماسي من طراز المؤتمرات التي أنهت الصراعات الأوروبية في القرن الماضي . بيد أن الخسائر أفجعت لهولها ناجيها ، فحدت بالساسة الى طمر النزاعات السياسية لبدايات الصراع - التنافس على النفوذ في البلقان ، والسيادة على الألزاس - اللورين ، والسباق البحري ، وراحت أمم أوروبا تعلق معاناتها على شماعة الشر المتأصل في نفوس خصومها ، وأقنعت نفسها أن التسوية لن تتأتى من سلام حقيقي ، بل من دحر العدو نهائياً أو مواصلة الحرب حتى الرمق الأخير .

ولو واصل قادة أوروبا العمل بمعايير النظام الدولي لما قبل الحرب ، لكان ممكناً التوصل الى تسوية سلمية في ربيع عام ١٩١٥ ، حين صاغت الهجمات من الطرفين اطارها الدموي وسقط الجميع في فخ الجمود الخانق . غير أن ميزان التضحيات وقف حجر عثرة في سبيل التسوية المعقولة ، مثلما طغت خطط التعبئة على الدبلوماسية في آخر أسبوع قبل استعار الوغى . فقد اندفع قادة أوروبا يتمادون في شروطهم وانتهوا ليس الى مفاقمة الخلاف واللامسؤولية اللذين انزلقا بهما الى هاوية الحرب فحسب ، بل وهشموا النظام الدولي الذي تعايشت في ظله أممهم سوية قرابة قرن من الزمن .

لقد تلاشت في شتاء ١٩١٤-١٩١٥ الصلة بين الاستراتيجية العسكرية والسياسة الخارجية . وتجابن المتحاربون في الخوض في تسوية سلام . فتلك فرنسا لن تقبل التسوية دونما استعادة الألزاس - اللورين ، وغيرها المانيا لن تأبه لسلام يقتضي منها التخلي عن الاقليم الذي فتحته . وها هم قادة أوروبا وقد انغمسوا في الحرب غلبهم هاجس قتل اخوانهم ، واستهواهم جنون سحق جيل كامل من الشباب ، حتى غدا النصر مكافأة لذاته بغض النظر عن الدمار الذي سيقوم عليه ذلك النصر . وعليه جاءت الهجمات الفتاكة لا لتؤكد شيء غير الوقوع بورطة عسكرية وذبح ضحايا والتسبب بخسائر لا يمكن تصورها قبل حلول التكنولوجيا الحديثة . فيما عمقت جهود اكتساب حلفاء جدد معضلة الساسة . فكل حليف جديد - ايطاليا ورومانيا بجانب الحلفاء ، وبلغاريا بجانب قوى الوسط - طالب بحصته من الغنيمة الموعودة ، وبذا اضمحلت المرونة الدبلوماسية أنى كانت درجتها .

هكذا اكتسبت شروط السلام صفة الفناء ، فقد تجلى أن الأسلوب الأرستقراطي والتآمري نوعا ما لدبلوماسية القرن التاسع عشر لا يمت لعصر التعبئة الشاملة بصلة . فقد زين الحلفاء الحرب بشعارات أخلاقية باتوا فيها اختصاصاً مثل " الحرب لانهاء كل الحروب " أو " لنجعل العالم مكاناً آمناً الديمقراطية " (بعد أن ولج الأمريكان الحلبة) كان أول هذه الأهداف مفهوماً ان لم يكن جد واعد ، لأمم كانت تمسك بخناق بعضها البعض في اطار تكتلات مختلفة لألف سنة . أما تفسيره العملي فعنى نزع سلاح المانيا تماماً . فيما يقتضي العرض الثاني - نشر الديمقراطية - الاطاحة بالمؤسسات الداخلية الألمانية والنمساوية . وهكذا انطوى كلا الشعارين على قتال حتى النهاية .

من جانبها ، دعمت بريطانيا العظمى التي جسدت برنامج التوازن الأوروبي في الحروب النابليونية عبر خطة (بت) . الضغوط لكسب نصر شامل . اذ رفضت في كانون الأول ١٩١٤ مقترحاً المانيا بالانسحاب من بلجيكا مقابل الحصول على (الكونغو البلجيكي) ، وصرح وزير الخارجية البريطاني (غري) وجوب اعطاء الحلفاء " ضماناً ضد أي هجوم الماني في المستقبل " .

أبرز تعليق غري تحولاً في الموقف البريطاني . فحتى قبل الحرب بقليل ، ارتبط الأمن البريطاني بتوازن القوى الذي تولت حمايته بأسلوب دعم الضعيف ضد القوي . بيد أنها تململت من هذا الدور بحلول عام ١٩١٤ . فقد أدركت في المانيا قوة غلبت باقي أقطار أوروبا ، وعليه لم يعد ممكنا لها لعب دورها التقليدي في الارتفاع فوق نزاعات أوروبا . وتوجست خيفة أن العودة الى (الوضع القائم) السابق لن يفعل شيئاً لتفادي المشكلة الأصلية ، والمانيا لما تزل تجسد

التهديد المتسلط في أوروبا . وهكذا رفضت بريطانيا العظمى القبول بتسوية وما تزحزحت قيد أنملة عن " ضماناتها " الخاصة بها التي بلغت أضعافاً دائمياً لألمانيا ، لا سيما تقليص كبير في (أسطول أعالي البحار) الألماني - وهو أمر لن تقبل به المانيا قبل أن تسحق عن بكرة أبيها .

اتسمت الشروط الألمانية بالدقة وبالطبيعة الجيوسياسية . لكن قادة المانيا وبسبب عوزهم لفكرة التناسب المعقول طالبوا ما بلغ الاستسلام غير المشروط . فكان الذي طلبوا في الغرب ضم حقول الفحم الواقعة في شمالي فرنسا ، وسيطرة عسكرية على بلجيكا بضمنها ميناء (أنتورب) الذي ضمن عداء بريطانيا . وفي الشرق عرضت شروطاً رسمية تتعلق ببولندا حيث وعدت في ٥ تشرين الثاني ١٩١٦ بانشاء " دولة مستقلة بملكية وراثية ودستورية " - فأنهت وجود أي أفق لعقد تسوية سلمية مع روسيا . (أرادت المانيا من وعدها اقامة دولة بولندية مستقلة الحصول على متطوعين بولنديين يشكلون لها خمس فرق عسكرية ، ثم تبين حضور ثلاثة آلاف مجند فقط) . ثم فرضت بعد هزيمة روسيا ، معاهدة (برست - ليتوفسك) في ٣ آذار ١٩١٨ التي الحقت اليها بموجبها ثلث مساحة روسيا الأوروبية وأسست محمية لها في أوكرانيا . وفي المراحل النهائية ، شاءت المانيا مما عنته بـ " السياسة العالمية " هيمنة على أوروبا في أقل تقدير .

لقد بدأت الحرب الكونية الأولى كحرب بين مجالس الوزراء ، تنتقل فيها الملاحظات من سفارة الى أخرى ، والبرقيات بين الممالك السائدة في جميع المراحل الحاسمة نحو الطريق الى الاصطدام الفعلي . واذ قرعت طبول الحرب واكتضت شوارع العواصم الأوروبية بالحشود المبتهجة المستبشرة ، لم يعد الصراع صراع

مستشاريات ، وقول الى اصطراع حشود بشرية . وقد انسلخت ستتان من عمر طاحونة الحرب ، بقي كلا الطرفان يضع شروطاً لا تتوافق ومبدأ التوازن .

أن ماترسخ عصياً على تصور أي امرء أن كلا الطرفين كان سيكسب النزال ويخسره في نفس الوقت : فقد دحرت المانيا روسيا وانخرت ضعفاً في فرنسا وانكلترا ، غير أن خاتمة الشوط أقرت أنهم الحلفاء الغربيون . بمساعدة أمريكا ، من سجل له النصر . فان شهد ما أعقب الحروب النابليونية قرناً من السلام توكأ على التوازن ونهل من القيم المشتركة ، فان الذي تلى الحرب العالمية الأولى سورات اضطرابات اجتماعية وصراع ايديولوجي وحرب عالمية أخرى .

تلاشى الحماس الذي تحلى به مطلع الحرب بعد أن أدركت شعوب أوروبا أن حكوماتها أمكن على التجهيز للمجزرة من قدرتها على تحقيق النصر أو السلام . فقد تهاوت عروش البلاطات الشرقية التي عززت وحدتها أركان السلام الأوروبي أيام الحلف المقدس ، وذابت امبراطورية النمسا - المجر جملة وتفصيلا . فيما أقصى البلاشفة الامبراطورية الروسية وانكمشت روسيا في زاوية أوروبا لعقدين تاليين . وتمزقت المانيا بفعل الهزيمة والثورة والتضخم والكساد الاقتصادي وكذلك الدكتاتورية . بينما لم تقتنع فرنسا وبريطانيا العظمى من حالة خصومهما الضعيفة . لقد ضحتا بزهرة شبابهما من أجل سلام ترك العدو أقوى جيوسياسياً مما كان عليه قبل الحرب .

ما كاد يتشكل البعد الكامل لتلك الكارثة التي أنزلتها أوروبا بنفسها ، برز لاعب جديد على المسرح أنهى مرة والى الأبد ما كان يطلق عليه حتى عندئذ

" الأسرة الأوروبية " . ففي خضم الخراب وانعدام الرؤية بعد ثلاث سنين من بدء تلك المذبحة ، ولجت أمريكا الحلبة الدولية مليئة بالثقة والقوة وداعية للمبادىء المثالية التي كان عسيرا على خلفائها الأكثر انها كاً تصورها .

لقد جعل دخول أمريكا الحرب من النصر التام أمراً ممكناً فنياً ، لكنه كان دخولاً من أجل أهداف لم تمت بغير ضئيل الصلة الى النظام العالمي الذي عرفته أوروبا قرابة ثلاثة قرون وربما دخلت الحرب من أجله . فهي ازدرت مفهوم توازن القوى ورأت في ، " السياسة الواقعية " مبدأ غير أخلاقي . أما المعيار الأمريكي للنظام الدولي فهو الديمقراطية والأمن الجماعي وتقرير المصير – وهي المفاهيم التي لم تنطو عليها أية تسوية أوروبية سابقة .

وبدا للامريكان أن التباين بين فلسفتهم والفكر الأوروبي هو فحوى فضيلة معتقداتهم . فقد نبعت فكرة ولسون عن النظام العالمي من ايمان أميركا بطبيعة الانسان المسالمة أساساً ، وكذلك الانسجام الداخلي مع العالم ، سيما وانها الفكرة التي ناشدت النبذ الجذري لمباديء وتجارب " العالم القديم " . وهي الفكرة التي تقول أن الأمم الديمقراطية كانت بطبيعتها مسالمة وأن الشعب اذا ما نال حق تقرير المصير لنم يعد يملك دافعاً لخوض حرب أو قمع الآخرين . فالشعوب ان تنعمت ببركات السلام والديمقراطية ، ستنتفض شعباً واحداً يذود عن مكتسباته .

لقد افتقر قادة أوروبا الى نوع من الاطار الفكري الذي يستوعب مثل هذه الآراء . وعليه لم تقم مؤسساتهم المحلية ونظامهم الدولي على نظريات سياسية تسلم بطبيعة الانسان الخيرة ، بل هي آثرت تسخير أنانية الانسان في خدمة خير

أسمى . والدبلوماسية الأوروبية استندت ليس على الطبيعة المحبة للسلام للدول بل على نزعتها للحرب الذي اقتضى الحال تثبيطه أو موازنته . كما تشكلت الأحلاف سعياً وراء أهداف محددة ضيقة لا دفاعاً دون السلام في معناه المجرد .

وعليه طرقت مباديء ولسون في تقرير المصير والأمن الجماعي أسماع دبلوماسيي أوروبا وأجلستهم في موضع لم يألفوه اطلاقاً . فقد كان الافتراض الكامن في جميع التسويات الأوروبية هو امكانية تعديل الحدود الذي من شأنه استتباب توازن القوى الذي فاقت ضروراته مصلحة الشعوب المتضررة . بهذا جسد (بت) مفهوم " الحشود العظيمة " لاحتواء فرنسا عند نهاية الحروب النابليونية .

لقد عارضت بريطانيا العظمى والنمسا ، على سبيل الذكر ، طيلة القرن التاسع عشر تقطيع أوصال الامبراطورية العثمانية لقناعتهما أن ما يلد عنها من دول صغيره ستطال بضررها النظام الدولي . وقد خالهما أيضاً أن عوز الأمم الصغيرة للخبرة الضرورية سيحقن العداءات العرقية المزمنة بجرعات اضافية فيما سيغوي ، ضعفها النسبي القوى الكبرى لالتهامها لقمة سائغة . وعليه ارتأت بريطانيا العظمى والنمسا كبت طموحاتها القومية من أجل مصالح السلام الأكبر . فباسم التوازن ، حيل بين فرنسا وضم الجزء المولوني من بلجيكا الناطق شعبه بالفرنسية ، وباسمه تلاشى المسعى الألماني للاتحاد مع النمسا (برغم أن لبسمارك أسبابه في هذا الشأن) .

رفض ولسون هذا المفهوم قلباً وقالباً مثلما هو دأب الولايات المتحدة منذ القدم . فأمريكا لا ترى تقرير المصير من يضرم الحرب ، بل هو العوز له . وليس غياب توازن القوى من يعكر الاستقرار ، بل هو السعي من أجله . فأنتوى ولسون ارساء سلام يقوم على مبدأ الأمن الجماعي ، لظنه ومن معه أن سلام العالم الذي ننشد ليس الدفاع دون المصالح القومية بل الذود عن السلام باعتباره مبدءاً قانونياً . ولذا أناط أمر تحديد قضية السلام ومن تخطاه بمؤسسة دولية عرفها ولسون بـ " عصبة الأمم " .

ان أشد ما في الأمر غرابة أن تطفو كهذه فكرة عن هكذا منظمة في لندن أولاً ، التي هي معقل دبلوماسية توازن القوى لحد الآن . وما كان دافعها لذلك انشاء نظام دولي جديد بل سعيها لايجاد سبب وجيه لدخول الولايات المتحدة حرباً في ساحة النظام القديم . ففي ١٥ أيلول ١٩١٥ كتب وزير الخارجية غري ، خارجاً بعنف على التقليد البريطاني ، الى العقيد (هاوس) وهو أمين ولسون ، مقترحاً ظن معه أن رئيس أميركا المثالي لن يرفضه . فقد سأله غري الى أي درجة يكترث الرئيس لعصبة أمم أخذت على عاتقها قضية نزع السلاح والتسوية السلمية للنزاعات ؟

[هل يرى الرئيس ضرورة وجود " عصبة أمم " تفرض على نفسها الوقوف ضد أية قوة تخرق معاهدة ما ... أو أية قوة ترفض في حالة حصول خلاف تبني اجراء لحسمه بغير الحرب ؟] .

لم يكن مرجحاً أن تسيل بريطانيا العظمى لعاباً وعلى حين غرة لالتزامات مفتوحة على نطاق عالمي وهي التي عارضت طيلة مائتي عام أي شكل من التحالفات المفتوحة لكن العزم البريطاني على قمع تهديد الماني قائم كان عظيماً الى درجة لجأ فيها وزير خارجيتها الى وضع مبدأ في الامن الجماعي وهو أكبر ما يمكن تصوره من التزامات مفتوحة . فكل عضو في منظمته العالمية المزمعة سيكون ملزماً أن يقاوم العدوان انى كان نوعه ومن أي جهة مصدره ، وسيعاقب الأمم الرافضة للحل السلمي للنزاعات .

لقد أحسن غري اختيار صاحبه . لقد آمن ولسون منذ نعومة أظافره أن المؤسسات الفدرالية الأمريكية ينبغي أن تكون نموذجاً لـ " برلمان الانسان " الدائمي ، فتكشف في مطلع رئاسته ميثاقاً لبلدان أمريكا عن نصف الكرة الغربي . ولم يكن ممكناً أن يفاجأ غري باستلام اجابة حازمة توافقت مع هاجسه الأكثر شفافية . ولربما كان هذا التراسل الايماءة المبكرة لـ " العلاقة الخاصة " بين أمريكا وبريطانيا العظمى التي مكنت بريطانيا العظمى من الاحتفاظ بنفوذ فريد في واشنطن حتى بعد وقت طويل من انحطاط قوتها في أعقاب الحرب العالمية الثانية . وتظافرت اللغة والميراث الحضاري المشتركان مع المهارة الرائعة ليساعدا القادة الانكليز في زرع أفكارهم في مختبر صناعة القرار الأمريكي بطريقة تجلوا فيها غير مدركين جزءاً من قرار واشنطن . وهكذا اقتنع ولسون مقتنعاً في أيار ١٩١٦ حين تقدم بأول مشروع لمنظمة عالمية أن هذا المشروع لمن بنات أفكاره هو . وهو كان كذلك لحد ما نظراً لأن غري عرض اقتراحه وهو عالم بقناعات ولسون المتقاربة مع تلك الفكرة .

كانـت عصبـــة الأمم مفهوماً أمريكياً خالصـاً بغض النظر عن أصلها المباشر . فما صوره ولسون كان " منظمـة عالميـة تجمـع أمـم البسيطة وتقـر أمنـاً عصياً أمن عصي على الانتهاك للطرق البحرية بما تجلبه مـن فـائدة مشتركة لجميع بلدان المعمورة ، وكذلك منع نشوب أي حرب تبـدأ خلافـاً لمعاهدة مـا أو دونما تحذير أو اذعان تام لقضايـا الـرأي العـام العـالمي - وهـي ضمانـة فعليـة للسـلامة الاقليمية والاستقلال السياسي " .

لقد نأى ولسون منذ البداية بأمريكا عن المشاركة في هـذه "المنظمـــة العالمية " ، ريثما حل كانون الثاني ١٩١٧ لما قطع الخطوة وعرض عضوية أمريكـا مستخدماً وتلك غرابة الأمر " مبـدأ مونرو " نموذجاً :

[اقترح أن تتخذ بلدان العالم باجماع واحد ، مبدأ الرئيـس مونـرو مبـدأ للعالم : أي لا يحق لأني بلد سعيه مد سـلطانه فـوق ارادة بلـد أو شـعب آخـر ، ...... تتفادى البلدان قاطبة صيغة الأحـلاف الـتي تقضـي بهـا الى حمى تنـافس القوة....]

لعل أشد الدهشة اعترت المكسيك وهي تسمع رئيس الدولـة الـتي احتلـت ثلـث أراضيهـا في القـرن التاسع عشـر وأرسـلت جنودهـا الى أراضيهـا في السـنة السابقة . يعرض الآن مبدأ مونرو ضمانة للسلامة الاقليمية للبلدان الشقيقة ومثـالاً تقليدياً للتعاون الدولي .

وقفت مثالية ولسون قاصرة عن الاعتقاد أن آرائـه سـتعم أوروبـا علـى مـا ملكت مـن محاسـن فضـائل موروثـة . فجعـل مـن شخصه متأهبـاً لدعـم الجـدل

بالضغط . فكتب الى العقيد (هاوس) بعيد دخول أمريكا الحرب في نيسان ١٩١٧ : " اذا ما وضعت الحرب أوزارها ، لارغمناهم على طريقتنا في التفكير ، لأنهم آنئذ تحت رحمتنا مادياً من بين أشياء أخرى " . وانذاك ، تريثت بضعة قوى حليفة ازاء فكرة ولسون . بيد انها احتاجت أميركا كثيراً في التعبير عن تحفظاتها برغم أنها لم تستطع قبول أفكار بيسير سبيل تتعارض كثيراً وتقاليدهم .

وعليه بعث ولسون في أواخر تشرين الأول ١٩١٧ العقيد هاوس الى الأوروبيين طالباً اليهم صياغة أهداف الحرب التي تعكس هدفه للسلام دونما مسائل ضم أو تعويض ترعاها سلطة عالمية . فهو قد أمسك لشهور عديدة عن طرح آرائه خشية أن ترفض فرنسا وايطاليا ، كما أبلغ هاوس بذلك ، لو أظهرت أميركا شكوكاً بعدالة تطلعاتهما الاقليمية .

أخيراً ، وتحديداً في ٨ كانون الثاني ١٩١٨ ، تقدم ولسون واثق الخطى بما في جعبته عارضاً بما أوتي من بلاغة ساحرة وسمو ساحق أهداف أميركا من الحرب أمام جلسة مشتركة للكونغرس ضمت " أربع عشرة نقطة " وقعت في جزئين ، واصفاً ثماني منها حتمية " يجب " تنفيذها . وكانت : الدبلوماسية المفتوحة ، حرية الملاحة ، نزع السلاح الشامل ، رفع القيود أمام التجارة ، التسوية العادلة للمطالب الاستعمارية ، استعادة بلجيكا ، اخلاء الاقليم الروسي وكذلك درة تاج نقاطه : انشاء عصبة الأمم .

ثم خرج بنقاطه الست الباقية ذات التحديد الأكثر بعبارة " ينبغي " بدلاً من " يجب " أن تنفذ ، لظنه فيها ليست مما لا يجب الاستغناء عنه .لكن غرابة

الأمر هنا أن قبعت قضية استرجاع الألزاس – اللورين في الجزء الثاني غير الالزامي برغم أن العزم على استعادتها قد أرهق السياسة الفرنسية لنصف قرن وبتضحيات لم تشهدها حرب . وتم وصف أهداف أخرى بأنها " مرغوبة " مثل الحكم الذاتي لأقليات امبراطوريتي النمسا – المجر والعثمانية ، تعديل حدود ايطاليا ، اخلاء البلقان ، تدويل الدردنيل ، وانشاء دولة بولندا المستقلة مع تأمين منفذ بحري لها . أفهل انطوت هذه الشروط الستة ، على نحو غير صريح على مبدأ التسوية بشأنها ؟ لقد كان عسيراً التسويه بين منح بولندا منفذاً بحرياً وتعديل حدود ايطاليا من جهة وبين مبدأ تقرير المصير من الجهة الثانية ، فكانا لذلك أولى العيبين في التناسق الأخلاقي لمشروع ولسون .

واخر القول كان نداء ناشد فيه ولسون المانيا باسم روح التراضي التي ستتخذها أمريكا طريقاً لبناء نظام عالمي جديد – وهو موقف يعارض أهداف الحرب التاريخية :

[نحن لا نحسد عليها انجازاً أدركته ولا نبغض فيها تفوقاً بلغته في التعليم أو في سلمية مشاريعها التي جعلت منها أمة يشار لها بالبنان ومحطة غيض الحاسدين . ولسنا من يريد لها ضرراً ولسنا من يغلق على شرعية نفوذها وقوتها منفذاً . وما لنا وقتالها بالسلاح أو اختناقها بالتجارة ناقة ولا جمل اذا ما شاءت التعايش معنا وأمم البسيطة الأخرى المحبة للسلام وفق مباديء العدالة والقانون والتعامل النزيه . ان ما نترجاه منها أن تقبل مكانة المساواة مع سائر شعوب المعمورة ....] .

لم يشهد التاريخ من قبل عرضاً لمثل هذه الأهداف الثورية مشفوعة بحفنة ضئيلة من نقاط الارشاد في كيفية تنفيذها . فعالم ولسون الذي أراد سيقوم على المبدأ الأعلى القوة ، على القانون وليس المصالح - لكلا المنتصر والمندحر . فهو اذن قلب تام للتجارب التاريخية وأسلوب العمل الذي درجت عليه القوى العظمى . وخير من لنا فيه مثالاً لهذا الأمر الطريقة التي وصف بها ولسون دوره ودور أمريكا في الحرب . فقد انخرطت أميركا في ما آثر ولسون تسميته " طرفاً واحداً - لمقته كلمة " حليف " - من طرفي أقسى الحروب شراسة وضراوة في التاريخ ، وتصرف ولسون كما لو أنه الوسيط الأكبر . وبدا كأن الحرب قد اشتعل أوارها ليس لتحقيق أوضاع محددة بل لحمل المانيا على اتخاذ موقف محدد . من هنا كانت غاية الحرب الهداية وليس الاعتبارات الجيوسياسية .

شجب وولسون في خطاب له في ٢٨ كانون الأول ١٩١٨ ، بعد الهدنة بقاعة (جيلد هول) في لندن ميزان القوى جهاراً واصفاً اياه بالمتقلقل والقائم على " المراقبة الغيورة وتضارب المصالح " :

[لقد حملوا السلاح (جنود الحلفاء) لينزعوا عنهم نظاماً قديماً ويأتوا لغيره نظاماً جديداً ، لقد كان جوهر وسمة النظام القديم هو ذلك الشيء المضطرب الذي أسميناه بـ " ميزان القوى " - ذلك التوازن الذي حدده السيف المغمد في رقبة هذا الطرف أو ذاك ، وهو التوازن الذي استتب بالموازنة غير المستقرة للمصالح المتنافسة المتطاحنة ... ان الذي قاتل من الرجال في هذه الحرب هم فلذات الأمم الحرة التي عقدت عزمها لتطمر هذا الشيء مرة والى الأبد] .

كـــان صائباً ولسون في قولة أن أمم أوروبا صانعة تلـــك الفوضـى • ومـع هذا ، لم يكن ميزان القوى وحده الذي تسبب بفاجعة الحرب العالمية الأولى • لقد تجاهل قادة أوروبا لما قبل الحرب التوازن التاريخي للقوى وهجروا صيغة التعديلات الدورية التي تفادت قبل هذا اللجوء لآخر الدواء ((الكي)) ، وادخلوا عالماً ثنـائي القطب كان أقل مرونة من عـالم الحـرب البـاردة بعدئـذ سيما في افتقـاره كوابـح العصر النووي • وهم ، فـوق هـذا ، قـد أطلقـوا ألسنتهم المعسولة تمـدح تـوازن القوى ، فأهاجت أشد العناصر القومية تعصباً في صفوف الـرأي العـام • ووقفـت تدابيرهم السياسية والعسكرية حجر عثرة أمام أي شكل من المرونه أضـاعت معهـا صمام الأمان بين " الوضع القائم " وفوهة الحريق الكبير • فـانتهى الحـال بمهـاوي ازمات كان عصياً حلها وبعلو قناعات شعبية لا حصـر لهـا أغلقـت آخـر المطـاف منافذ الرجعة •

حدود ولســون وعلـى نحـو دقيـق معـالم بعـض التحديـات الكبـيرة للقـرن العشرين – سيما كيفية تسخير القوة لخدمــة السـلام • بيـد أن حلولـه فـاقمت في الكثير الأعم المشاكل التي شخصها • فهو قـد رد التنـافس بـين الـدول الى غيـاب مبدأ تقرير المصير ، والى الدوافع الاقتصادية ، فيما يسرد التاريخ كثيراً مـن أسـباب التنافس الأخرى أبرزها التوسع القومي ، والشعور غير السوي بالقوة وصبغة التأليه التي تنتاب الحـاكم أو الجماعـة الحاكمـة • غـير أن ولسـون ازدرى هـذه الدوافـع لقناعته أن انتشار الديمقراطية هو الكفيل بكبتها ، وأن حق تقرير المصـير سيسـحب البساط من تحتها •

لقد افترض علاج ولسون في الأمن الجماعي اصطفاف دول العالم ضد العدوان والظلم ، وضد الأنانية الشرهة . اذ أكد في مجلسه أمام في بداية عام ١٩١٧ أن ارساء أسس تساوي الحقوق بين الأمم حالة سيهيؤ الظرف المسبق لحفظ السلام تحت مظلة الأمن الجماعي بغض النظر عن قوة أي دولة .

[يجب أن يستند الحق الى القوة المشتركة لا الى القوة الفردية للدول التي يتوقف السلام على وفاقها . ولن تكون هناك مساواة في الأقاليم أو في المصادر ، وفي أي نوع آخر من المساواة لا تتأتى من التنمية السلمية والمشروعة للشعوب نفسها . بيد أن أحداً لا يسأل أو يتأمل بشيء أكثر من المساواة في الحقوق فبنو آدم يتطلعون اليوم الى حرية العيش ، وليس الى موازنة القوة] .

لقد اقترح ولسون نظاماً عالمياً تتوكأ فيه مقاومة العدوان على الأحكام الأخلاقية بدلاً من الاعتبارات الجيوسياسية . فيه ستسأل الأمم أنفسها ان كان هذا الفعل أو ذاك غير عادل لا باعتباره تهديداً . هنا ما كان لحلفاء أمريكا من حول لمقاومة هذه الشريعة الجديدة برغم ضعف ايمانهم بها . فهم قد عرفوا أو ظنوا أنهم يعرفون حساب التوازن على أساس القوة ، وما خالهم وقد نزعوا الثقة من أنفسهم أنهم يعرفون تقييم التوازن على أساس المفاهيم الأخلاقية .

لم تجرؤ الديمقراطيات الأوروبية الغربية قبل دخول أمريكا الصراع ، على المصارحة بشكوكها حيال أفكار ولسون ، بل هي لم تأل جهداً لتجنيده لصفهم بمداراته . أما وقد دخلت أمريكا الحرب بجانب الحلفاء غلب اليأس عليهم . فلم يكن كافيا جمع قوات بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا لالحاق الهزيمة بالمانيا ،

وتوجسوا خيفة في أعقاب الثورة الروسية ، ان دخول أمريكا الحرب لا يعني شيئاً غير التعويض عن انهيار روسيا . وتلك معاهدة برست - ليتوفسك قد أوضحت مصير الخاسرين في أذهان المانيا . فالخوف من النصر الألماني أحال دون مجادلة بريطانيا العظمى وفرنسا مع شريكهم الأمريكي المثالي حيال أهداف الحرب .

تنفس الحلفاء الصعداء بعد الهدنه ووجدوا أنفسهم في وضع أفضل للبوح بتحفظاتهم وليست هذه المرة الأولى التي يتوتر فيها التحالف الأوروبي أو ينفرط عقده بعيد النصر (اذ وصل مؤتمر فيينا ، على سبيل الذكر ، الى حالة تبادل بها المنتصرون التهديد بالحرب) . ومع هذا أثقلت التضحيات كاهل منتصري الحرب الكونية الأولى كانوا وما برحوا اكثر اتكالاً على العملاق الأمريكي من المخاطرة بجداله أو بانسحابه من التسوية السلمية .

وأكثر ما يصح هذا القول في فرنسا التي وجدت نفسها الآن في وضع لا تحسد عليه . فهي قد جاهدت طيلة قرنين لتضر من سيادتها على أوروبا ، فيما لم تعد بعيد هذه الحرب تثق بقدرتها على حماية حتى حدودها ضد عدو مهزوم . وشعر قادتها فطرياً أن احتواء المانيا كان خارج قدرة مجتمعهم الممزق . فقد انهكتها الحرب وبدا أن السلام سيستفز هواجس تدفع الى كارثة أخرى . وأضحت وهي التي قاتلت من أجل وجودها تتصارع اليوم من أجل هويتها . وفرنسا لم تجرأ على الوقوف وحدها ، فيما تقترح حليفتها القوية ارساء سلام وفق مباديء حولت الأمن الى مرافعة قضائية .

لقد أفهم النصر فرنسا بباهضة ثمن الثأر . فهي وحدها التي عرفت مقدار ضعفها مقارنة بالمانيا ، برغم أن أحداً غيرها لن يأخذ بهذه الحقيقة ، سيما أميركا هكذا ، وعشية تحقق النصر بدأ حوار فرنسي - أمريكي افضى الى تسريع انهيار المعنويات الفرنسية . وفرنسا ، كشأن اسرائيل في العصر الحديث ، غطت على انكشاف حدودها بصفاتها الفظة وعلى هلعها الأولي بعنادها . وهي وقفت أمام خطر العزلة المستمر ، مثلما هو حال اسرائيل في العصر الراهن .

كان قادة فرنسا الأدرى بشعابها وأن أصر الحلفاء على قول أنها بالغت في مخاوفها . فهي قد شكلت عام ١٨٨٠ حوالي ١٥ر٧ ٪ من سكان أوروبا ثم انخفضت هذه النسبة الى ٩ر٧ ٪ عام ١٩٠٠ ، وبحلول عام ١٩٢٠ بلغ عدد نفوسها (٤١) مليون نسمة والمانيا (٦٥) مليون نسمة الأمر الذي حدا برجل الدولة (بريان) الى الاجابة على الانتقادات الموجهة لسياسته الموادعة تجاه المانيا ، بالقول أنه كان ينفذ سياسة فرنسا الخارجية المتعلقة بنسبة الانجاب الفرنسي .

لقد كان مثيراً حتى الانحطاط الاقتصادي الفرنسي النسبي .فهي قد كانت بحلول عام ١٨٥٠ أكبر دولة صناعية في أوروبا وفي عام ١٨٨٠ تخطى انتاج المانيا من الفولاذ ، والحديد ، والفحم انتاج فرنسا . ثم بلغ انتاج فرنسا سنة ١٩١٣ من الفحم ٤١ مليون طن بينما كان انتاج المانيا ٢٧٩ مليون طن . وما برحت الهوة تفغر فاها حتى بلغت أواخر الثلاثينات ٤٧ مليون طن مقابل ٣٥١ مليون طن .

أشرت القوة المتبقية لدى العدو المهزوم الفرق الأساسي بين النظامين الدوليين لما بعد فيينا وما بعد فرساي ، لسبب يكمن في تشتت وحدة المنتصرين بعد مؤتمر فرساي . أنهما تحالف قوى هزمت نابليون ، واخر دعت الحاجة اليه لقهر الامبراطورية الألمانية . لقد بقي الخاسران ، فرنسا عام ١٨١٥ والمانيا عام ١٩١٨ ، أقوى من أعضاء هذا الحلف أو ذاك منفردين وربما اثنين من الأعضاء أو ثلاثة مجتمعين - ووالفرق بينهما أن صانعي السلام في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ظلوا متحدين وشكلوا " الحلف الرباعي " الذي كان بوسعه قبر أية أحلام اجتهادية فيما تفرق جمع الحلفاء في حقبة ما بعد فرساي بعد أن انسحب الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة تماماً وأضحت بريطانيا العظمى شديدة التقلب فيما يتعلق بفرنسا .

ريثما قدمت حقبة ما بعد فرساي حتى أدركت الحقيقة المرة أن هزيمتها على يد المانيا عام ١٨٧١ لم تكن شيئاً شاذاً . لقد كان الخيار الأوحد أمام فرنسا لحفظ التوازن مع المانيا ، هو تقسيمها الى ولاياتها الأصلية وربما اعادة بعث الاتحاد الألماني للقرن التاسع عشر . والواقع أن فرنسا اتبعت هذا المسار بتشجيعها الانفصال في الراين واحتلالها مناجم فحم الـ (سار) .

ثمة عائقان يعترضان سبيل تجزئة المانيا . أوولهما أن بسمارك قد أحسن بناءً . فألمانيا التي خلق استعادت شعور الوحدة فيها عبر هزيمتها في حربين عالميتين ، عبر الاحتلال الفرنسي لمنطقة (الروهر) سنة ١٩٢٣ ، ومن خلال فرض الاتحاد السوفيتي لدولة المانية تابعة له (المانيا الشرقية) لمدة جيل بعد الحرب العالمية الثانية . حتى أن الرئيس الفرنسي (ميتران) أشغل نفسه ، ولما سقط

(جدار برلين) عام ١٩٨٩ ولوقت قصير بفكرة التعاون مع (غورباتشوف) للحيلولة دون الوحدة الألمانية . بيد أن غورباتشوف كان غارقاً لأذنيه بمشاكله الداخلية التي أبعدته عن الاضطلاع بهكذا مغامرة ، فيما لم تكم فرنساتملك من القوه ما يكفيها لتنفيذ هذا الهدف وحيدة . ونفس هذا الضعف الفرنسي هو الذي حال دون تقطيع المانيا سنة ١٩١٨ . وهي وان ارتقت الى مستوى هذه المهمة لن تسمح حليفاتها سيما أمريكا بهذا الانتهاك الصارخ لمبدأ تقرير المصير . غير أن ولسون نفسه لم يكن مستعداً للاصرار على سلام توفيقي فاطلق في نهاية المطاف بنوداً عقابيـــة تتضارب مع مبدأ المعاملة المتساوية التي وعد بها في نقاطه الأربع عشرة .

تخطت مساعي التوفيق بين المثالية الأمريكية وكوابيس فرنسا حدود طاقة البشر . فبادل ولسون تعديل النقاط الأربع عشرة بتأسيس عصبة الأمم التي رآها علاجاً لأي غبن ينجم عن معاهدة السلام . بينما اختارت فرنسا اجراءات عقابية أقل جداً مما اعتقدته تعويضاً لها عن تضحياتها ، ومتأملة خلق التزام أمريكي طويل الأمد بأمن فرنسا ، ريثما حلت خاتمة المطاف وما حقق بلد مسعاه : فلم تقرب الصلح المانيا ، وما نعمت بالأمن فرنسا ، فيما انسحبت أميركا من التسوية .

بزغ نجم ولسون في (مؤتمر السلام) الذي عقد في باريس ما بين كانون الثاني الى حزيران ١٩١٩ . لقد حذر كثير من مستشاريه في تلك الأيام التي سنحت فيها الرحلة الى أوروبا بحراً زهاء الأسبوع أن لا رئيس أميركي بمستطيع الغياب عن واشنطن لأشهر متوالية لغاية ما . وحقيقة القول أن نفوذ ولسون في الكونغرس قد تدهور في غيابه وبلغ أشده حين أعدت معاهدة السلام للمصادقة

عليها . ليس غياب ولسون عن واشنطن الا مثالاً ، بيد أنه الصواب الا يتولى رئيس الدوللة تفاصيلل المفاوضات . فانذاك سيتداولون مضطرين بخصوصيات تعالجها دوائر خارجيتهم في العادة ، وسينزلقون الى مواضيع هي أكثر ملاءمة لاتباعهم ، فيما ستحجب عنهم قضايا لا يستطيع حلها غيرهم . لقد أضحت التسوية صعبة وعنق الزجاجة خطراً بعد أن تحدد من يتبوأ أعلى المناصب بمن ملكته أنانية مضخمة . كما انحصرت المفاوضات على مناقشة خلافات مبهمة أكثر من تعاملها مع جوهر القضية بعد ان اعتمدت المكانة المحلية للمحاورين على مظهر النجاح في أقل تقدير .

وبذا تجلى مصير ولسون في باريس . فما انسلخ شهر الا وغار أعمق في دقائق أمور ما كان واياها بمسؤول . وما طالت مدة بقائه ، الا لتزيد فيه شعوراً بغلبة ضرورة حسم المشاكل على الرغبة بانشاء نظام دولي جديد تماماً ، ريثما تأتت حتمية النتيجة النهائية من النهج المستخدم في التفاوض على معاهدة السلام . لما برزت عصبة الأمم وبعد طويل وقت انقضى يناقش المسائل الاقليمية مثل أداة تسوية للفجوة دائمة الاتساع بين مطالب ولسون المثالية والبنود الحقيقية للتسوية .

أما بريطانيا ، فقد أقسم ممثلها الرجل الويلزي المتقلب (ديفيد لويد جورج) ، في حملته الانتخابية قبيل مؤتمر السلام أن المانيا لن تمر دون أن تدفع كامل كلفة الحرب " ونحن سنخرج ما في جيوبها لتدفع فاتورتها " . لكنه وقد وقع بين المانيا هلامية القوام وفرنسا المضطربة ، صب جل الذي بين يديه ليناور بين (كليمنصو) وولسون . وفي النهاية تماشى مع البنود العقابية مؤكداً أن عصبة الأمم هي الأداة التي تقوم أي مسار غير سليم .

وفي المؤتمر تحدث ممثلاً عن فرنسا الرجل العجوز مندب الوجه من أثر شظية ، المسمى (جورج كليمنصو) والملقب بـ " النمر " ، ذلك المحارب القديم الذي خاض عقوداً عدداً من المعارك المحلية منذ سقوط نابليون الثالث حتى عهد الدفاع عن (الكابتن دريفوس) . ومع هذا ، أناط بنفسه في مؤتمر باريس مهمة كانت أبعد من حدود قدراته العظيمة . فقد تجاوز سماحة النظام الدولي وتخطى قدرات حتى مجتمعه ، لما أراد سلاماً قد يفسد عمل بسمارك ويعيد تأكيد سيادة رشليو على ربوع أوروبا . بيد أن الزمن لا يرجع مائة وخمسين سنة خلت . وبذا اختلفت مع الأهداف الفرنسية الأمم الأخرى جميعها و لم تفهم منها غاياتها . اما الاحباط فقد طفق كأنه نصيب كليمنصو ، وأن مستقبل فرنسا هو الفوضى المستفحلة .

وآخر " الأربعة الكبار " كان رئيس الوزراء الايطالي (فيتوريو أورلاندو) ، الذي ضلل شكله الوسيم وجود وزير خارجيته (سيدني سونينو) . لقد تجلى أن مجيء المفاوضين الايطاليين الى باريس كانت غايته الأولى جمع غنائمهم لا التخطيط لنظام عالمي جديد . فقد أغرى الحلفاء ايطاليا بالحرب بوعدها بـ (جنوب تيرول) وساحل (دالاماتيا) في معاهدة لندن عام ١٩١٥ . غير أن مطالب ايطاليا قد تعارضت تماماً مع مبدأ تقرير المصير طالما أن جنوب تيرول خاضع الى السيادة النمساوية - الألمانية ، ودالاماتيا سلافية ، ومع هذا ، وقف أورلاندو وسونينو حجرا عثرة أمام حتى تم تسليمها ، في لحظة سخط ، تسليم جنوب تيرول فقط . فكشفت هذه " التسوية " ان النقاط الأربع عشرة لم تنشأ على أساس صلب وانها فتحت الأبواب لرياح فرضت تعديلات مختلفة أخرى

عملت بمجموعها على نقض مبدأ تقرير المصير السائد ، دونما تحسين مرزان القوى القديم ، ولا صنع ميزان جديد .

لم يدرج مؤتمر سلام باريس ، وبخلاف مؤتمر فيينا ، القوى المهزومة فكانت النتيجة أن استبدت الشكوك بالألمان واوقفتهم أمام جبل من الأوهام طيلة أشهر المفاوضات . فقد قرعوا نقاط ولسون الأربع عشرة كما لو انهم حفظوها عن ظهر قلب ، وهم برغم من قساوة برنامجهم للسلام قد ، خدعوا أنفسهم أن تسوية الحلفاء النهائية ستكون مخففة نسبياً . وعليه ما كاد صناع السلام يكشفون عن أوراقهم في حزيران ١٩١٩ ، حتى عقدة الدهشة السنة الألمان ، فأستهلوا عقدين من الشجب والاحتقار لها .

وماذا عن روسيا لينين ؟ لقد هاجمت روسيا ، وهي ليست ممن دعي للمؤتمر ، المشروع برمته على أساس أنه عربدة رأسمالية نظمتها البلدان الساعية أخيراً الى التدخل في الحرب الأهلية في روسيا ، هكذا حدث أن السلام الذي أراد الحرب أن تضع نهاية جميع الحروب لم يضم أقوى دولتين في أوروبا - المانيا وروسيا - اللتين احتوتا أكثر من نصف سكان أوروبا وأقوى القدرات العسكرية . فكان لهذه الحقيقة وحدها أن تفشل تسوية فرساي .

علاوة على هذا ، لم تشجع اجراءات المشروع على تبني برنامج شامل . أجل كان الأربعة الكبار هم الشخصيات المسيطرة ، لكنهم فشلوا في السيطرة على الاجراءات بنفس الطريقة التي سيطر بها وزراء القوى العظمى في مؤتمر فيينا قبل مئة سنة . اذ صب المفاوضون في فيينا جل اهتمامهم على ارساء

ميزان قوى جديد تبنى خطة (بت) لتكون منهجاً عاماً . بينما انغمس قادة مؤتمر باريس على الدوام بسلسلة لا منتهية من المسائل الجانبية والثانوية .

لقد وجهت دعوة حضور المؤتمر الى سبع وعشرين دولة هو المؤتمر الذي تم تصوره كأنه محكمة تفيء اليها جميع شعوب الأرض ، وتحول في النهاية الى منبر مفتوح للجميع . اذ كان المجلس الأعلى - المؤلف من رؤساء حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا والولايات المتحدة - أعلى سلطة في اللجان والأفرع غير المعدودة التي سيرت المؤتمر . اضافة له ، هناك " مجلس الخمسة " المكون من المجلس الأعلى ورئيس حكومة اليابان ، " ومجلس العشرة " المؤلف من مجلس الخمسة ووزراء خارجيتهم . ونال الحرية موفدو البلدان الصغيرة لقول همومهم أمام خيرة النخبة . وهذا شيء أكد الطبيعة الديمقراطية للمؤتمر ، لكنه استهلك وقتاً طويلاً .

وصل المؤتمرون وهم لا يفقهون شيئاً بأي صيغة سيعرضون قضاياهم لسبب بسيط أن المؤتمر لم يضع جدول أعمال له قبيل انعقاده وهكذا أنهى مؤتمر باريس أعماله وتحت سقفه ثمان وخمسين لجنة مختلفة ، تداول معظمها بالمسائل الاقليمية . وتأسست لجنة مستقلة لكل دولة . بالاضافة الى لجان تخوض في مسائل مسببي الحرب ومجرميها والتعويضات الموانيء والممرات الملاحية والعمل وأخيراً عصبة الأمم . فبلغت اجتماعات أعضاء اللجان جميعها (١٦٤٦) اجتماعاً .

وعليه شوشت المناقشات المطولة والمملة حول المواضيع الثانوية على الحقيقة الجوهرية التي تقول أن السلام اذا ما شيء له الثبات سيتطلب مفهوماً

عليوياً سيما في نظرته البعيـده الى دور المانيـا المسـتقبلي • فمـن الناحيـة النظريـة ، كانت المباديء الأمريكية للأمن الجمـاعي وتقريـر المصـير هـي المؤهلـة لأداء ذلـك الدور • أما من الناحية العملية ، كـانت قضيـة المؤتمـر الحقيقيـة والـتي أثبتـت أنهـا احدى القضايا غـير القابلـة لاتخـاذ قـرار بشـأنها ، هـي الاختـلاف بـين المفهـوم الأمريكي والمفهوم الأوروبي وخاصة الفرنسي للنظام الدولي • فقد أنكـر ولسـون وجود دوافع بنيوية للصراعات الدولية • وجـاهد لظنـه في الانسـجام شـيئاً طبيعيـاً لتكوين مؤسسات تأخذ على عاتقها محو وهـم تصـادم المصـالح ، وتسـمح برعايـة ونمو الشعور الباطني بالأسرة الدولية •

لم يكن ممكنـاً لفرنسـا الـتي بـاتت مسـرحاً لكثـير مـن الحـروب الأوروبيـة وشاركـت في أكثر منهـا الاقتنـاع بوهميـة تصـادم المصـالح القوميـة ، أو أن هنـاك انسجاماً داخلياً غير واضح خفياً عن أبصار الجنس البشري لحد الآن • فقد كانت عاقبة احتلالين المانيين في غضون خمسـين عامـاً ارتعـاد فرنسـا وتخوفهـا مـن جولـة جديدة من الغزو الألماني • فتطلعت الى ضمانـات ملموسـة لأمنهـا وهجـر أفكـار التطور الأخلاقي البشري لغيرها • غير أن الضمانات الملموسة تنطوي على اضعاف المانيا أو الحصـول علـى تـأكيد بوقـوف بلـدان أخـرى لا سـيما بريطانيـا العظمـى والولايات المتحدة بجانب فرنسا في حالة نشوب حرب أخرى •

واذ عارضت أمريكا تقطيع أوصال المانيا ، وأمسى الأمن الجماعي أمراً غير واضح المعالم لفرنسا ، لم يبق من حل للمشكلة الفرنسـية سـوى التعهـد البريطـاني الأمريكي بالدفاع عنها، وذلك تحديداً ما امتعضـه البلـدان الانكلـو - سكسـونيان غاية الامتعاض • فنزلت فرنسا تنشد وسائل أخرى بعـد أن أدركـت عـدم وجـود

هكذا تأكيد في القريب العاجل ، ورأت أن الجغرافية وفرت الحماية لأميركا ، وجاء استسلام الأسطول الألماني ليبدد مخاوف بريطانيا من سيطرته على البحار ، وانها الوحيدة من بين المنتصرين من أريد اليها احالة أمنها الى الرأي العالمي . فجادل (اندريه تارديو) وهو مفاوض فرنسي رئيسي أن :

[من الضروري لفرنسا مثلما هو لبريطانيا العظمى والولايات المتحدة أن تنشيء منطقة أمان .... منطقة تنشئها القوى البحرية بأساطيلها وبالقضاء على الأسطول الألماني هذه المنطقة ولأن فرنسا لا تتمتع بحماية المحيط ، وعاجزة عن تصفية ملايين الألمان المدربين على الحروب ، ينبغي أن تقام بمحاذاة الراين ، بواسطة احتلال حليف لذلك النهر] .

وقف الطلب الفرنسي هذا بفصل أرض الراين عن المانيا مناقضاً للقناعة الأمريكية القائلة أن " مثل هذا السلام سيتناقض مع كل الذي وقفنا من أجله " . اذ قال الوفد الأمريكي مجادلاً أن فصل الراين عن المانيا ومرابطة جند الحلفاء عليه سيخلق حنقاً المانياً دائمياً . بينما قال المبعوث البريطاني (فيليب كير) ان بريطانيا العظمى تعتبر الولاية الراينية المستقلة " مصدراً للتعقيدات وموطن ضعف .... فاذا نشبت صراعات محلية الى أين ستفضي ؟ وان نجمت حرب عن هذه الصراعات فليست انكلترا ولا اماراتها تكن شعوراً عميقاً بالتضامن مع فرنسا التي انعشت تلك الصراعات في الحرب الأخيرة " .

لقد كان القادة الفرنسيون أقل قلقاً حيال الألماني من قلقهم ازاء قوة المانيا النهائية . اذ أوضح تارديو :

[أنتـم تقولون بعدم رغبة انكلترا استخدام جندها بعيداً عـن الوطـن ، انها مسألة حقيقة ، فقد ربضت قوات انكلترا على الـدوام في الهنـد ومصـر ، لمـاذا ؟ لأنهـا تعلـم أن حدودهـا ليست في (دوفـر) .... ((فطلبكـم منـا أن نتخلى عن الاحتـلال لأشـبه بمـن يسـأل بريطانيـا والولايـات المتحـدة أن تغرقـا أسطوليهما القتالين))] .

فان أنكـروا على فرنسـا الحصـول علـى " منطقـة عازلـة " لاحتـاجت الى ضمانة أخرى هي في أرجحها حلف مـع بريطانيـا العظمـى والولايـات المتحـدة ، وان دعت الحاجة لترجمت فرنسا مبدأ الأمن الجماعي بمـا يحقـق لهـا نفـس النتيجـة وهي حلف تقليدي .

غلب التوق ولسون لانشاء عصبة الأمم الى درجة ما برح فيهـا بـين الفينـة والأخـرى يضـع نظريـات تنعـش الآمـال الفرنسـية . اذ وصـف عصبـة الأمـم في مناسبات متعددة بأنها محكمة دولية تفصـل في النزاعـات وترسـم الحـدود وتضفـي على العلاقات الدولية مرونة هي في حاجة ماسة اليها . لقد أوجز أحد مستشـاريه ويدعى الدكتور (ايسيا بومان) أفكار رئيسه في مذكـرة صيغـت مسـودتها علـى ظهر السفينة التي كانت تقلهم الى مؤتمر السـلام في كـانون الأول ١٩١٨ . جـاء فيها

: [سلامة الوحدة الاقليمية ومعهـا التغيـير اللاحـق للشـروط وتعديـل الحدود اذا اتضح وقـوع ظلـم أو تغير في الأوضـاع . هـذا التعديـل سيكـون أسهل على التنفيذ ولما تسكن الآلام ويغدو ممكناً رؤية الأمور من منظور العدالـة

بدلاً من منظور مؤتمر سلام عقد في نهاية حرب طويلة .... أما الضد من هذا السبيل فهو تبني فكرة القوى العظمى وميزان القوى ، الفكرة التي أحدثت دوماً " العدوان والأنانية والحرب "] .

وتحدث ولسون بعد جلسة كاملة الأعضاء في ١٤ شباط ١٩١٩ أفصح فيها عن ميثاق العصبة ، الى زوجته بنفس الكلمات تقريباً : " ها هي أولى خطواتنا الحقيقة ، فقد أدركت الآن أن هذه العصبة حال انشائها ستنجح في فصل الأخطاء وتصحيحها والتي سترد حتماً في المعاهدة التي نحاول صياغتها هذه الأيام " .

كان على عصبة الأمم كما أرادها ولسون أن تتقمص تفويضاً مزدوجاً يقرض السلام ويقوم جوره . وبرغم ذلك وقع ولسون أسيراً لتناقض حاد . فلم يحمل التاريخ مثالاً واحداً تغيرت فيه حدود أوروبية استجابة لمتطلبات العدالة أو للضرورات القانونية البحتة ، بلل هي قد أعيد ترسيمها - أو الدفاع عنها - في كل الحالات تقريباً باسم المصالح القومية . ومع هذا ، كان ولسون واعياً ان الشعب الأمريكي لا يملك نزراً يسراً من الاستعداد لالتزام عسكري دفاعاً عن بنود معاهدة فرساي . وفي روحها ، ترجمت أفكار ولسون بأنها مؤسسات مساوية لحكومة عالمية كان الشعب الأمريكي نفسه أقل ميلاً لقبول فكرة صيرورته قوة شرطة كونية .

من هنا حاول ولسون تحاشي هذه المشكلة بالتضرع الى الرأي العام العالمي بدلاً من الحكومة العالمية أو القوة العسكرية باعتبارها العقوبة النهائية ضد العدوان . وكان ذا وصفه الى مؤتمر السلام في شباط ١٩١٩ :

[اننا لنعتمد أساساً في كل مفاصل هذه الأداة (عصبة الأمم) على قوة عظيمة واحدة ، ألا وهي القوة الأخلاقية للرأي العام العالمي ....] .

والذي يعجز عنه الرأي العام ، تتكفل به الضغوط الاقتصاديـة ، كمـا ورد في مذكرة بومان :

[ثمة بديل للحـرب في الحـالات الـتي تنطـوي علـى كظـم الغيـظ . أنـه المقاطعة التجارية بضمنها التسهيلات البريدية والبرقية] .

ليس من دولة أوروبية قط شاهدت آليـه عمـل كهـذه أو متـى اسـتطاعت الايمان بمعقوليتها . هي المبالغة أن نتأملها من فرنسا التي سفحت انهاراً من دمائهـا وأنفقت كثيراً من خزينتها لا لشيء غير المحافظة على بقائها ، أن تجد نفسها بمجرد مواجهــة فــراغ فـــي أوروبـا الشـرقية والمانيـا الـتي ملكـت قـوة غلبـت القـوة الفرنسية حقاً .

وعليه حددت عصبـة الأمـم هدفـاً واحـداً للشـأن الفرنسـي كـان تنشـيط المساعدة العسكرية ضد المانيا عند الحاجـة . أمـا فرنسـا الشـائخة والمجهـدة فليـس بوسعها التشبث بالمفهوم الأساسي للأمن الجماعي ، القائل أن علــى جميـع البلـدان أن معاينـة التهديـدات بنفـس الطريقـة وعليهـا ، أن فعلــت ذلــك ، التوصــل الى استنتاجات متطابقة حيال صيغة المقاومة . فـان فشـل الأمـن الجمـاعي اسـتطاعت أميركا - وربما بريطانيا العظمى - الدفاع عـــــن نفسـيهما بنفسـيهما ، كمـلاذ أخير . بيد أن ملاذا كهذا لا تملكه فرنسا ، واذن عليها الصواب في حكمهـا منـذ أول مرة . فان تجلى خطـأ افتراضيـة الأمـن الجمـاعي ، لمـا اسـتطاعت فرنسـا -

بخلاف أميركا خوض غمـــار حـرب تقليديـة أخـرى ، فهـي ستغرب انئـذ عـن الوجود - لهذه الأسباب أرادت فرنسا ضماناً قابلاً للتطبيق على ظروفها الخاصة . لا تأكيداً عائماً وهو ما رفض الوفد الأمريكي بعناد النطق به .

لقد تضاعفت نذر الشرالفرنسية برغـم فقـه فرنسـا امتعـاض ولسـون ربـط أمريكا بأبعد من اعلان المباديء نتيجة الضغوط الداخلية الـتي ألمـت بـه فالولايـات المتحدة لم تتردد مطلقـاً عـن استخدام القـوة لدعـم مبـدأ مونـرو الـذي كثـيراً مـا استشهد به ولسون كنموذج لنظامه الدولي الجديد . لكنها أجفلت سـاعة بزغـت التهديدات الألمانية لميزان قوى أوروبا الشرقية . الم يعن هذا أن التـوازن الأوروبـي يمثل مصلحة أمنية للولايات المتحدة أقل شأناً من مصالح أوضاع النصف الغربي من الأرض ؟ وعليه لم يأل ممثل فرنسا في اللجنة ذات العلاقة (ليون بورجـوا)جهـداً لازالة هذا التمييز من خلال تشكيل جيـش دولي أو انشـاء أيـة آليـة تمنـح عصبـة الأمم أداة تصرف ذاتي لو نقضـت المانيـا معـاهدة فرسـاي - وهـو سـبب الحـرب الوحيد الذي عنى فرنسا .

لاح لهنيهة أن ولسون سيدعم على هذا المبدأ بالايماءة أن الميثـــــاق المزمـع يمثل ضمانة لـ " الحق بأرض العالم " ! بيد أن الرعب انتاب اتباعه الذيـن عرفـوا أن مجلس الشيوخ لن يصادق على بناء جيش دولي دائم أو حتى على الـتزام عسـكري دائمي . وذهب أحد مستشاري ولسون للقول أن البنـد الـذي يشـترط استخدام القوة لمقاومة العدوان انما هو مناقض للدستور :

[ينبع الرفض الأساسي لهذا البند من بطلانه لو تم ادراجه في معاهدة للولايات المتحدة طالما أن للكونغرس صلاحية اعلان الحرب بموجب الدستور . والحرب التي تنشب تلقائياً بمقتضى حالة لاحقة وحسب بند معاهدة ما ، ليست بحرب يعلنها الكونغرس] .

فعنى هذا بالحرف الواحد عدم وجود حلف مع الولايات المتحدة له قوة ملزمة .

هنا عاد ولسون حثيث الخفى الى المبدأ الراسخ للأمن الجماعي . فهو قد قال بصدد رفضه للمقترح الفرنسي في آلية القوات الدائمية غير ضرورية طالما أن غاية العصبة نفسها اشاعة روح الثقة في أرجاء الدنيا ، " الأسلوب الوحيد يكمن في التملي بالثقة بازاء النية الطيبة للدول المنتمية للعصبة .. فان زحف الخطر فنحن زاحفون ، وعليكم الثقة بنا " .

بيد أن الثقة ليست سلعة متوفرة جاهزة للعرض بين الدبلوماسيين . فاذا ما تهدد وجود البلدان وبقاؤها ، تطلع الساسة الى ضمانات ملموسة – سيما في بلد قلق الموقع مثل فرنسا . تقبع حجة الجدل الأمريكي في غياب بديل آخر ، فالتزامات العصبة مهما كانت غامضة هي أفضل من لا شيء . لقد وبخ (اللورد سيسيل) مبعوث بريطانيا المبعوث الفرنسي ليون بورجوا على تهديده بعدم انضمام بلاده للعصبة ما لم يتضمن الميثاق آلية ملزمة بقوله : " ليس لأميركا ما تكسبه من عصبة الأمم ...فهي بقادرة أن تترك أوروبا وشأنها وتبذل غاية

اهتمامها بشؤونها ! أما العرض الذي تقدمت به أميركا فهو من الناحية العملية مجرد هدية الى فرنسا " .

وأخيرا رضخت فرنسا برغم كل شكوكها وهواجسها المضطربة الى منطق الجدل البريطاني المؤلم ، ووافقت على الذي تضمنته المادة (١٠) من ميثاق عصبة الأمم : " يقوم المجلس بالتوصية على الوسائل التي يجب تنفيذ هذا الالتزام بها (المحافظة على السلامة الاقليمية عللى سبيل الذكر) . وبعبارة أخرى ، في حالة حصول طارىء ستوافق عصبة الأمم على ما يمكن أن توافق عليه . ولا غبار على أن هذا ما تفعله بلدان العالم تحديداً حتى لو لم يكن ثمة ميثاق ، وهذا هو الظرف الذي سعت الأحلاف التقليدية الى علاجه عن طريق صنع الالتزام الرسمي بالمساعدة المتبادلة حيال حالات محددة ومعروفة .

وازاء ذلك ، جاءت المذكرة الفرنسية لتؤكد عدم كفاية تدابير العصبة الأمنية المزمعة :

[هب أن لا عقد بديلاً عن التفاهم العسكري الدفاعي - المحدود جداً - الذي أتى ثماره بين بريطانيا وفرنسا عام ١٩١٤ بين البلدين سوى الاتفاقيات العامة المدرجة في ميثاق العصبة ، فهنا سيكون التدخل البريطاني أقل حزماً وبذا سيتأكد الانتصار الألماني . وعليه ، نحن نرى ظل الظروف الراهنة أن المساعدة المنصوص عليها في الميثاق ستصل بعد فوات الأوان] .

ما فتأت فرنسا تواصل ضغوطها الرامية لتقطيع أوصال المانيا بعد أم طفق الى السطح رفض أميركا صياغة أي بنود أمنية راسخة في الميثاق . فأقترحت

تأسيس جمهورية راينية مستقلة لتكون منطقة عازلة منزوعة السلاح ، وسعت الى خلق حافز لانشاء هذه الدولة باعفائها من تعويضات الحرب . فلما أهبطت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى هذا المجهود ، اقترحت فرنسا فصل أرض الراين عن المانيا في الأقل الى أن تقف مؤسسات العصبة على أقدامها ويمكن اختبار آلية عملها .

تقدم ولسون وقادة بريطانيا في مسعاهم تهدئه روع فرنسا يعرض بديل عن تقطيع أوصال المانيا هو معاهدة تضمن التسوية الجديدة ، تلتزم بموجبها أميركا وبريطانيا بخوض الحرب اذا انتهكت المانيا هذه التسوية . انها لشديدة الشبه بالاتفاقية التي أقرها الحلفاء في مؤتمر فيينا بهدف ضمان أنفسهم ضد فرنسا . بيد أن هناك فرقاً مهماً : لقد أيقن الحلفاء في أعقاب الحروب النابليونية بوجود تهديد فرنسي حقيقي سعوا لذلك الى ضمان الأمن بوجهه ، فيما لم ترد بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وجود تهديد الماني بعد الحرب العالمية الأولى : فقدمتا بضمانهما غير مقتنعتين بضرورتها ولايعاز متين على تنفيذهما .

انفرجت أسارير كبير المفاوضين الفرنسيين الذي وصف الضمانة البريطانية بأنها " سابقة جديدة " . ورأى أن بريطانيا العظمى قد دخلت أحياناً في اتفاقيات مؤقتة غير أنها لم تتقدم سابقاً قط الى التزامات دائمية : " لقد مدت يد المساعدة أحياناً ، وهي لم تلزم نفسها سلفاً بمدها " . كما أعتبر تارديو التزام أميركا المزمع خروجاً مهماً عن طوق عزلتها التاريخية .

لقد غفل قادة فرنسا في غمـرة لهفتهـم للضمانـات الرسميـة عـن حقيقـة ان القرارات الانكلو - سكسونية " غير المسبوقة " كانت في أساسها تكتيكـاً لاغـواء فرنسا التخلي عن مطالبها بتقسيم المانيا . وفي عالم السياسة الخارجية يثير المصطلح " غير مسبوق " شـكاً على الـدوام ، لأن المـدى الفعلـي للتجديـد خـاضع بشـدة لاعتبارات التاريخ ، والمؤسسات المحلية ، والجغرافيا .

بيد أن تارديو لو أطلع على طبيعة رد فعل الوفد الأمريكـي لعـرف ركاكـة الضمانة الأمريكية حقاً . فقد عارض مستشارو ولسون زعيمهم أجمعين . اليست غاية الدبلوماسية الجديدة التخلص من هذا النوع من الالتزامـات الدوليـة ؟ أو هـل خاضت أميركا غمار الحرب لأجـل أن تدخـل في حلـف تقليـدي ؟ هكـذا كتـب هـاوس فـي دفتر يومياته :

[حسبت أن من واجبي لفت انتباه الرئيس الى مخاطر هكـذا معـاهدة . فهي من بين أشياء أخرى ينظر اليها ضربـة مباشـرة لعصبـة الأمـم . لقـد كـان مفروضاً أن تعمل العصبة تمامـاً مـا انطـوت عليـه هـذه المعـاهدة . فـان كـانت ضرورة أن تعقد الـدول مثـل هذه المعاهدات ، فلم أنشـأت عصبـة الأمـم اذن ؟] .

كان سؤالاً عادلاً . فان عملت عصبة الأمـم كمـا شـيء لهـا لانتفـت ، انتفت ضرورة المعاهدة ، ولو كانت الضمانة ضروريـة ، فالعصبـة لم ترتـق اذن الى مستوى غايتها وسيؤطر الشك جميع مفاهيم ما بعد الحرب . وكان لدعـاة العزلـة في مجلس الشيوخ المريكـي شـكوكهم ليـس في تعـارض المعـاهدة مـع العصبـة مـن

استدراج الأوروبيين أميركا الى شرك مماحكاتهم العتيقة العفنة . وبذا كان عمر المعاهدة قصيراً ، اذ انتفت أهميتها بعد ان رفض مجلس الشيوخ التصديق على " معاهدة فرساي " ، وتلك ذريعة اعتنقتها بريطانيا لتعتق نفسها من التزامها أيضاً . وعندئذ أمسى الهجر الفرنسي لمطالبها أمراً دائماً ومعاهدة الضمان سحابة صيف عابرة .

وأخيراً ، ظهرت معاهدة فرساي من بين كل هذه الأحداث المتقاطعة المتضاربة والتي نالت اسمها من قاعة المرايا بقصر فرساي الذي وقعتها الأطراف فيه . يوحي هذا المكان باذلال لا مبرر له . فقبل خمسين عاماً أعلن بسمارك بلا وجل ميلاد المانيا الموحدة هنا ، أما الآن فقد وجه المنتصرون اهانة لألمانيا في نفس المكان ولم يكن مرجحاً لانجازهم هذا تهدئة المحيط الدولي . لقد كانت معاهدة شديدة العقوبات في التوفيق بين الدول ، ومهلهلة التدابير المتبناة للحيلولة دون عودة النهوض الألماني ، كتبت على الديمقراطيات المنهكة الاحتراس واليقظة المستمرة والحاجة الى الاستعداد الدائم حيال المانيا الانبعاثية .

كانت المعاهدة برغم النقاط الأربع عشرة مجحفة في القضايا الاقليمية والاقتصادية العسكرية . فقد أجبرت المانيا على التنازل عن ١٣٪ من أراضيها لما قبل الحرب وأعطيت ، (سيلزيا العليا) ذات الأهمية الاقتصادية البالغة الى بولندا المنشأة حديثاً ، ومعها منفذاً على بحر البلطيق مع أرض محيطة بـ (بوزن) وبذلك تشكل " الممر البولندي " الذي فصل بروسيا الشرقية عن بقية المانيا . وتم اعادة الألزاس - اللورين الى فرنسا .

خسرت المانيا مستعمراتها التي أثار وضعها القانوني نزاعات بين ولسون من جانب وبين فرنسا وبريطانيا العظمى واليابان من الجانب الآخر ، والتي أرادت ضم حصتها من الأسلاب . فقال ولسون مؤكداً أن هذا النقل المباشر يخرق مبدأ تقرير المصير . ريثما . توصل الحلفاء أخيراً الى ما أطلق عليه " مبدأ الانتداب " الذي كان تصرفاً بارعاً مثلما هو نفاقي . اذا آلت المستعمرات الألمانية اضافة الى الأقاليم العثمانية السابقة في الشرق الأوسط الى يد المنتصرين المتعددين بموجب " انتداب " تحت اشراف عصبة الأمم ، لمساعدتها على نيل استقلالها . أما معنى ذلك فلم يحدد اطلاقاً ، كما لم يؤد الانتداب بخاتمة المطاف الى الاستقلال بأسرع من استقلال لمناطق المستعمرة الأخرى .

قلصت قيود المعاهدة العسكرية الجيش الألماني الى مائة الف متطوع ، وبحريتها الى ستة طرادات وسفن قليلة أصغر . كما حظر على المانيا امتلاك أسلحة هجومية كالغواصات ، أو الطائرات ، أو الدبابات ، أو المدفعية الثقيلة ، فيما تم حل هيئة أركانها العامة . اضافة لذلك تشكلت " لجنة السيطرة العسكرية الحليفة " للاشراف على نزع سلاح المانيا ، وتم تزويدها بصلاحيات جد غامضة وغير فاعلة كما ظهر آخر الأمر .

وبرغم أن لويد جورج وعد أثناء حملته الانتخابية بـ " عصر " المانيا ، بدأ الحلفاء يدركون أن المانيا المنهكة المقهورة قد تثير أزمات اقتصادية تؤثر على مجتمعاتهم . غير أن الشعوب المنتصرة لم تعبأ بتحذيرات الاقتصاديين النظريين . فقد طالب البريطانيون والفرنسيون تعويضات المانية لشعبيهما المدنيين عن جميع الأضرار . ووافق ولسون على صياغة بند تعارض وصواب احكامه أوجب على

المانيا أن تدفع رواتب لضحايا الحرب مع شيء من التعويضات لأسرهم . وهو بند لم يسمع به سابقاً قط : اذ لم تتضمن أية معاهدة سلام أوروبية سالفة مثل هذا الشرط ، و لم يحدد أي رقم لهذه المطالب ، بل أن يتم حسمها في تاريخ لاحق ، فأشعلت لهيب جدال لانهاية له .

وتضمنت العقوبات الاقتصادية الأخرى أن تدفع المانيا فوراً خمسة مليارات دولار نقداً أو عيناً وأن تحصل فرنسا على كميات كبيرة من الفحم تعويضاً عن تدمير المانيا لمناجمها أثناء احتلالها شرقي فرنسا . وحصلت بريطانيا تعويضاً لها عن السفن التي أغرقتها الغواصات الألمانية ، معظم قطع الاسطول التجاري الألماني . كما تم الاستيلاء على ودائع المانيا الخارجية البالغة سبعة مليارات دولار ، اضافة الى الاستيلاء على كثير من براءات الاختراع الألمانية (بفضل معاهدة فرساي أضحى الأسبرين انتاجاً أمريكياً وليس المانياً !) وحتى انهار المانيا الكبرى تم تدوويلها ، وكذا تقلصت قدرتها على رفع التعريفات .

رهنت هذه البنود النظام الدولي الجديد بدلاً من المساعدة على انشائه . لقد زعم المنتصرون ولما اجتمعوا في باريس أنها حقبة جديدة في التاريخ ، وبلغ حماسهم لتلافي ما اعتبروه أخطاء مؤتمر فيينا أن فوضوا الوفد البريطاني المؤرخ الشهير (السير تشارلس وبستر) لاعداد اطروحة عن هذا الموضوع . بيد أن ما تمخض عن المؤتمر أخيراً ليس الا تسوية هشة بين الطوباوية الأمريكية وجنون الارتياب الأوروبي -فهي جد شرطية لا تتحقق عندها أحلام أمريكا ، وجد مترددة وركيكة عاجزة عن قبر مخاوف أوروبا . فالنظام الدولي الذي لا تحفظه الا القوة لهو متقلقل ، وهو كذلك حين تغدو البلدان الواجب عليها تحمل العبء

الرئيسي لاستخدام هذه القوة في حالة خصام - وهي في هذا الصدد بريطانيا العظمى وفرنسا ٠

سرعان ما تجلى عملياً استحالة تطبيق مبدأ تقرير المصير بالطريقة الواضحة التي افترضتها النقاط الأربع عشرة ، لا سيما على الدول الوريثة لامبراطورية النمسا - المجر ٠ فها هي تشيكوسلوفاكيا قد ضمت ثلاثة ملايين الماني ، ومليون مجري ، ونصف مليون بولندي من مجموع ١٥ مليون نسمة ، ولم يكن ما يناهز ثلث مجموع السكان تشيكيين أو سلوفاكيين ٠ وما كانت سلوفاكيا جزءاً متحمساً لدولة يهيمن عليها التشيكيون وتجسد ذلك حين انسحبت عام ١٩٣٩ وثانية عام ١٩٩٢ ٠

ثم جاءت يوغسلافيا الحديثة لتحقق تطلعات مفكري سلافيا الجنوبية ٠ لكن الضرورة دعت لتشكيل هذه الدولة ، الى تجاوز الخط الخاطيء الذي سار عليه تاريخ أوروبا والذي قسم الامبراطوريتين الرومانيتين الغربية والشرقية ، والديانتين الكاثوليكية والأرثوذوكسية والكتابات اللاتينية والكوريلية * - وهو خط خاطيء استمر بالوجود بين كرواتيا وصربيا ، اللتين لم تنتميا قط في تاريخيهما المضطربين الى وحدة سياسية مشتركة ، حتى استحق دفع فاتورة هذا الخطأ بعد عام ١٩٤١ على شكل حرب أهلية دامية استعرت لظاها مرة أخرى عام ١٩٩١ ٠

---

* الكوريلية Cyrillic : متعلقة بالأبجدية الكوريلية في اللغات الصقلبية (كالروسية) ومشتقة من الأبجدية الأغريقية ومنسوبة الى القديس (كوريل ٨٢٧-٨٦٩) ٠

لقد اكتسبت رومانيا ملايين من المجريين ، وبولندا ملايين من الألمان وتولت حماية ممر يفصل بروسيا الشرقية عن باقي ارجاء المانيا . ومع نهاية هذه العملية التي أجريت باسم تقرير المصير ، رزحت شعوب في نير الحكم الأجنبي لا تقل عدداً عن الشعوب التي عاشت في ظل الحكم الأجنبي أيام امبراطورية النمسا-المجر ، عدا كونها اليوم موزعة على دول أمم أكثر عدداً وأشد ضعفاً كانت تتطاحن وتتنازع فيما بينها لتزيد الطين بلة .

واذ سبق السيف العذل أدرك لويدجورج حجم القياس الاقرن الذي أوقع الحلفاء المنتصرون أنفسهم به . فكتب في مذكرة رفعها الى ولسون بتاريخ ٢٥ آذار ١٩١٩ :

[انني لا أرى سبباً لحرب مستقبلية أكبر من تطويق الشعب الألماني الذي أثبت نفسه أحد أقوى وأقدر الأعراق البشرية في العالم بعدد من الدول الصغيرة المؤلف معظمها من شعوب لم تشكل لنفسها سابقاً حكومة مستقرة قط ، غير أنها تضم حشوداً هائلة من الألمان المتطلعين الى الاتحاد مع بلدهم الأم] .

لكن المؤتمر كان عندئذ قد قطع شوطاً بعيداً نحو تاريخ انتهائه في حزيران . دونما ظهور أي بديل لتنظيم النظام الدولي ، فولى عهد ميزان القوى الآن .

مضى ردح من الزمن ، فتوجب على قادة المانيا القوول أن بلادهم قد ووقعت في فخ هدنة اقامتها نقاط ولسون الأربع عشرة التي تم خرقها آنذاك على نحو منتظم . جسدت تلك المقترحات قدراً كبيراً من هراء الاشفاق على

الذات . فتجاهلت المانيا النقاط الأربع عشرة ما دامت تؤمن بامتلاكها فرصة لكسب الحرب ، ولجأت بعيد اعلان النقاط الأربع عشرة الى فرض سلام قرطاجي على روسيا في برست - ليتوفسك منتهكة جميع مباديء ولسون . أما السبب الوحيد وراء انهاء المانيا الحرب أخيراً فمرتبط بحسابات القوة المجردة - بعد ان باتت هزيمتها أثر دخول الجيش الأمريكي الحومة مسألة وقت لا غير . والمانيا يوم طلبت الهدنة كانت منهكة خائرة القوى تداعت دفاعاتها فاسدة ولما كانت جيوش الحلفاء على وشك الانثيال الى الأراضي الألمانية . فجاءت مباديء ولسون في الواقع بمثابة تعويض لألمانيا عن عقاب رهيب شديد الوطأة .

يجادل المؤرخون ، في سبب وجيه لهم ، ان رفض الولايات المتحدة للانضمام الى العصبة هو الذي أفشل معاهدة فرساي . فاذا كانت عدم المصادقة الأميركية على المعاهدة أو حتى ضمانة الحدود الفرنسية المرتبطة بها قد ساهمت ضعضعة الروح المعنوية الفرنسية ، فان عضوية أميركا في العصبة أو مصادقتها على قضية الضمان ما كانت لتحدث فرقاً ذا شأن اذا ما أخذنا بالاعتبار النزعة الانعزالية لذلك البلد . ففي كلتا الحالتين ما كانت الولايات المتحدة لتستخدم القوة لرد العدوان ، ولربما حددت هوية العدوان بعبارات لا تنطبق على أوروبا الشرقية وهو ما ضارع كثيراً ما ستفعله بريطانيا في الثلاثينات .

كانت نكبة معاهدة فرساي بنيتها . فقرن السلام الذي أثمر عن مؤتمر فيينا قد ارتكز على ثلاثة أعمدة لم يكن ممكناً التخلي عن احدها : سلام الصلح مع فرنسا وتوازن القوى والشعور المشترك بالشرعية . أما سلام الصلح النسبي مع فرنسا فلم يكن بحد ذاته ليمنع العديلية الفرنسية ، وما جعل التوسع الفرنسي

مغامرة محفوفة بتشديد المخاطر هو علمها أن الحلفين الرباعي والمقدس دوماً ما شكلا قوة أعظم . وفي الوقت عينه ، أتاحت المؤتمرات الأوروبية الدورية الفرصة أمام فرنسا لتشارك بصفة عضو متساو مع الآخرين . وقبل هذا وذاك ، تقاسمت جميع البلدان الكبرى قيماً مشتركة حالت دون استفحال المظالم القائمة وتحولها الى محاولة للاطاحة بالنظام الدولي .

أما معاهدة فرساي فلم تحقق أياً من هذه الشروط . فكانت بنودها أثقل من أن تحقق الصلح وأقل تشدداً لتحقق اخضاعاً دائمياً . وفي الحقيقة لم يكن الأمر سهلاً تحقيق موازنة بين المانيا الراضية والخاضعة والتي لانها اعتبرت النظام العالمي لما قبل الحرب جد ضيق ، لم يكن مرجحاً لها أن ترضى ((بأي)) بنود ما بعد الهزيمة .

لاحت ثلاثة خيارات استراتيجية أمام فرنسا : أن تحاول تشكيل ائتلاف مناهض لالمانيا أن تسعى لتقسيم المانيا ، أو أن تعمل على استرضاء المانيا . كان الفشل مصير جميع محاولات تشكيل الأحلاف بعد أن رفضت أميركا وبريطانيا وذلك ، و لم تعد روسيا جزءاً من الميزان . وعليه قاومت تجزئة المانيا نفس الأفكار التي رفضت أي حلف والتي تعتمد على دعمهما فرنسا في حالة حدوث أي طارىء . كما كان الوقت متأخراً جداً ومبكراً جداً لاسترضاء المانيا - متاخراً جداً لأن الاسترضاء لا يتماشى مع معاهدة فرساي ، ومبكراً جداً لأن الرأي العام الفرنسي غير مستعد له بعد .

ومما يدعو للتناقض أن انكشاف فرنسا وامتياز المانيا الاستراتيجي قد هولتهما معاهدة فرساي بالرغم من بنودها العقابية . فقد واجهت المانيا قبل الحرب جيراناً أقوياء في الشرق والغرب على السواء . فلم تقدر أن تتوسع في أي من الاتجاهين دونما الاصطدام بدولة كبرى - فرنسا أو امبراطورية النمسا - المجر أو روسيا . فيما لم يعد في أعقاب معاهدة فرساي ثـمة وزن مقابل لألمانيا في الشرق ، وقد ضعفت فرنسا ، وتلاشت امبراطورية النمسا - المجر واختفت روسيا عن المسرح لبعض الوقت ، ليس هناك من طريقة لاعادة بناء ميزان القوى القديم ، لا سيما بعد رفض القوى الانكلو - سكسونية ضمان تسوية فرساي .

في مطلع عام ١٩١٦ استنبأ وزير خارجية بريطانيا (اللورد بلفور) شيئاً من الخطر يقبع أمام أوروبا حين حذر أن بولندا المستقلة ستجرد فرنسا من ميزة الدفاع في حرب مقبلة : لو " جعلت بولندا مملكة مستقلة وغدت دولة عازلة بين روسيا والمانيا لوقعت فرنسا تحت رحمة المانيا في الحرب القادمة ، لسبب واحد هو أن روسيا لن تستطيع أن تهب لنجدتها دونما انتهاك حياد بولندا " - انها تماماً معضلة عام ١٩٣٩ . فقد احتاجت فرنسا من أجل احتواء المانيا الى حليف في الشرق برغم المانيا على خوض حرب على جبهتين . وروسيا هي البلد الوحيد القادر على اشغال هذا الدور ، بيد أنها أعجز عن لعب هذا الدور دونما خرق لبولندا الفاصلة بينها وبين المانيا والضعيفة جداً عن تولي الدور الروسي . فما فعلته معاهدة فرساي هو أنها أعطت حافزاً لألمانيا وروسيا على تقسيم بولندا ، وهو تماماً ما فعلتاه بعد عشرين سنة .

وعليه عملت فرنسا بعد أن افتقدت لقوة عظمى في الشرق تتحالف معها على تقوية عود الدول الجديدة لخلق وهم تحد لألمانيا من جبهتين . فدعمت دول أوروبا الشرقية الجديدة في مسعاها انتزاع مزيد من الأقاليم من المانيا ومما تبقى من المجر . أما حافز الدول الجديدة الرضيعة بانعاش الضلال الفرنسي فكان ظنها بصيرورتها وزناً مقابلاً لألمانيا لكنها كانت أصغر من أداء الدور الذي لعبته النمسا وروسيا حتى اليوم . لقد نخر بها الضعف الشديد وأرهقتها الصراعات الداخلية وغدت العداءات المتبادلة ديدنها . ولاحت الى شرقها روسيا التي أعيد تشييدها وأخذت تغلي حرقة على خسائرها الاقليمية . وان استعادت قوتها لأمست تهديداً لاستقلال الدول الصغيرة عظيماً كتهديد المانيا .

هكذا ارتكز استقرار القارة على فرنسا . لقد اقتضى الأمر وجود قوى أميركا وبريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا لقهر المانيا . ومن بين هذه البلدان قبعت أميركا في عزلتها النائية ثانية ، وانفصلت روسيا عن أوروبا بسبب دراما ثورية ، وبالنطاق الواقي المؤلف دول أوروبا الشرقية الواقفة في طريق المساعدة الروسية المباشرة لفرنسا . فكان على فرنسا أن تتقمص دور الشرطي في كل أرجاء أوروبا اذا ما أريد للسلام الحفاظ . بيد أنها للم تفتقر للقوة انعدام والرغبة اللازمتين لسياسة تدخلية كهذه ، هي ستجد نفسها وحيدة نبذتها أميركا وبريطانيا لو تقمصت هذه السياسة .

ومهما يكن من أمر ، كان الجانب النفسي أخطر مواطن ضعف معاهدة فرساي . لقد ترسخ النظام العالمي الذي أنشأه مؤتمر فيينا بفضل مبدأ وحدة المحافظين التي انسجمت مع متطلبات ميزان القوى ، وبالنتيجة أعتبرت القوى

المطلوبة للمحافظة على السلام تلك التسوية عادلة . وبذا ولدت تسوية فرساي ميتة لأن القيم التي بجدتها تصادمت مع الحوافز المطلوبة لفرضها ورأت غالبية الدول المطلوبة للدفاع عنها أنها غير عادلة بطريقة أو بأخرى .

تلوح مفارقة الحرب العالمية الأولى ان أوارها اشتعل وغايته لجم القوة الألمانية وهيمنتها قبل أوانها ، وأنها هيجت الرأي العام الى حد حال دون تحقيق سلام توفيقي . ومع هذا ، ولما حلت النهاية أعاقت المباديء الولسونية سلاماً كبح جماح القوة الألمانية ، فيما غاب الشعور المشترك بالعدالة . ان ثمن ممارسة السياسة الخارجية على أساس المباديء المجردة يتمثل باستحالة التمييز بين الحالات الفردية . ثم وجد قادة فرساي أنفسهم مضطرين لما فقدوا الرغبة بتقليص القوة الألمانية بمقتضى حقوق النصر الضمنية أو بحسابات ميزان القوى ، الى تبرير نزع السلاح الألماني بأنه أول لبنات نزع سلاح شامل ، وأن التعويضات هي تكفير عن جريمة الحرب نفسها .

لقد تجاهل الحلفاء تبريرهم نزع السلاح الألماني بهذه الطريقة الاستعداد النفسي المطلوب لدعم اتفاقيتهم . فباديء ذي بدء كان بمقدور المانيا أن تزعم بل وزعمت أنهاقد تعرضت للتمييز بينها وبين غيرها ، وطالبت بالسماح لها باعادة التسلح أو نزع سلاح البلدان الأخرى الى مستواها وفي غضون ذلك اربكت بنود فرساي المنتصرين ، ففي كل اجتماع نزع سلاح كان لألمانيا الحق المعنوي القوي الذي تلقت به تأييد بريطانيا العظمى . لكن فرنسا لو منحت المانيا الحق في اعادة التسلح ، لتلاشت امكانية حماية استقلال أمم أوروبا الشرقية . ولذلك باتت بنود نزع السلاح قاب قوسين أوو أدنى من الوصول الى نزع سلاح فرنسا أو اعادة

تسلح المانيا . وفي أي من الحالتين لن تكون فرنسا قوية للدفاع عن أوروبا الشرقية أو على المدى البعيد - للدفاع عن نفسها .

ومرة أخرى ، انتهك خطر اتحاد المانيا مع النمسا مبدأ تقرير المصير ، تماماً كما جسده وجود أقلية المانيا كبيرة في تشيكوسلوفاكيا ، والى درجة أقل الأقلية الالمانية في بولندا . وهكذا نالت الاستردادية الألمانية تأييد المبدأ المحوري لمعاهدة فرساي ، فتفاقم بذلك وخز الضمير الذي انتاب الديمقراطيات .

غير أن أشد بلوى نفسيـــة في المعاهدة كانت المادة (٢٣١) المسماة ببند " مذنب الحرب " . فقد جاء فيها أن المانيا وحدها هي المسؤولة عن اندلاع نيران الحرب الكونية الأولى ، ولذلك صبت عليها تقريعها ولومها اللاذع . واستندت جل الاجراءات العقابية ضد المانيا في المعاهدة - الاقتصادية والعسكرية والسياسية - الى تأكيد أن مسؤولية ذلك الحريق المسيطر تقع على عاتق المانيا .

لان صناع السلام في القرن الثامن عشر ، كانوا سيعتبرون " بنود جريمة الحرب " شيئاً سخيفاً . فهم يرون أن الحروب حتميات لا أخلاقية يسببها تصادم المصالح . وفي المعاهدات التي أنهت حروب القرن الثامن عشر دفع الخاسرون ثمناً دونما تبريره على أسس أخلاقية . بينما نشبت حرب ١٩١٤-١٩١٨ كما رآها ولسون وصانعو سلام فرساي بسبب روح شريرة وجب كيل مديد العقاب لها .

ومع هذا ، لما بردت الاحقاد شرع المراقبون الحصفاء يرون أن مسؤولية استعار الحرب غاية في التعقيد . نعم تتحمل المانيا وزراً ثقيلاً من المسؤولية ، لكن أمن العدل قصر العقوبات على المانيا ؟ العقوبات ؟ أو كانت المادة (٢٣١)

منصفة حقاً ؟ فما أن بدى هذا السؤال يتردد سيما في بريطانيا العظمى في العشرينات ، حتى بدأت النخور تستشري في بنية الاجراءات العقابية ضد المانيا . وشرع صناع السلام لا ترحمهم ضمائرهم يتساءلون عن عدالة ما أقدموا عليه ، وهو ما هان من تصميمهم على تطبيق المعاهدة . فلا تثريب على المانيا في هذا ، حتى عرفت ثنايا الخطاب الشعبي الألماني المادة (٢٣١) بـ " كذبة جريمة الحرب " . واذن تزامنت الصعوبة العملية لارساء ميزان القوى مع الصعوبة النفسية لاقامة توازن أخلاقي .

وهكذا حقق صائغو تسوية فرساي النقيض الصرف لما ارادوا فعله . لقد شاءوا أضعاف المانيا عملياً لكنهم شدوا ازرها جيوسياسياً . واذا ما نظرنا للأمر أبعد مداً ، لرأينا المانيا في وضع أفضل للسيطرة على أوروبا بعد فرساي من حالها قبل الحرب . فهي ما ان نزعت عن معصميها نزع سلاح فرساي التي كانت مجرد مسألة وقت ، حتى أضحى بروزها أقوى من السابق مسألة حتمية . فأوجز الحال (هارولد نيكلسون) بقوله : " قدمنا باريس واثقين أن النظام الجديد كان على وشك التأسيس ، ثم غادرناها موقنين أن النظام الجديد قد أفسد النظام القديم ليس الا " .

الفصـــل العاشـــــر

مــآزق المنتصـــريــــــن

ارتكز أعداد اتفاقيه فرساي على مفهومين عامين الغى أحدهمـا الآخـر . فأمـا الأول ففشـل لأنـه كـان كاسـحاً للغايـة ، والثـاني لأنـه كـان شـديد الحقـد والضغينة . اذ كان مفهوم الأمن الجماعي عاماً فضفاضاً الى حد أنه استعصى على التطبيق على ظروف يتوقع لها ان تعكر صفو السلام ، وكـان التعـاون الفرنسـي - الانكليزي غير الرسمي الذي حل محله بالغ الركاكة واعتـوره التنـاقض بحيث عجـز عن مقاومة التحديات الالمانيه . وقبل ان تنطوي خمـس سنوات جـاءت القوتـان المنتصرتان بالحرب الى (رابالو) سوية فسدد التعـاون الالمـاني - الروسـي المتنـامي ضربة قاصمة لنظام فرساي .

بعد ان وضعـت الحـرب الكونيـة الاولى اوزارهـا ، لاح ان الجـدل القديـم حول الادوار النسبية للمعايـير الاخلاقيـه والمصـالح في الشـؤون الدوليـة قـد حسـم لصالح سيادة القانون والاخلاق . فعلى اثر التعرض لصدمة الكارثة المفجعة ، امـل الكثيرون بعالم افضل حرا من السياسة الواقعية ما استطاع الى ذلـك سبيلا ، تلـك السياسة الواقعية التي رأوا أنها قد أودت بجـل شـباب الجيـل الى مهـاوي الهـلاك . فبرزت أميركا داعية لهذه العملية حتى ان كانت تتقوقع في عزلتها . وكانت تركة ولسون أن انطلقــت أوروبـا في المسـير الولسـوني محاولـة المحافظـة علـى الاسـتقرار بواسطة الأمن الجماعي بـــدلاً من المفهـوم التحـالفي التقليـدي الأوروبـي ومـيزان القوى ، بالرغم من غياب أميركا .

وصف قاموس العمل الأمريكي اللاحق الأحـــلاف التـــي دخلتها اميركا (كالناتو) بأدوات لتحقيق الأمن الجماعي . وليـــس هـذا المصطلح بـالمفهوم الأولى ، لأن الأمن الجماعي والأحلاف متضـادة تماماً في جوهرهـا . فـالأحلاف التقليدية موجهة ضد تهديدات معينة وهي تحدد التزامـات دقيقـة لمجموعـات معينـه من البلدان المرتبطة بمصالح قومية مشتركة أو هموم أمنيـة متبادلـة . بيـد أن الأمـن الجماعي لا يعرف أي تهديد محدد ولا يقدم ضمانه لأي بلـد منفـرد ، كمـا لايميز بمعاملة أي بلد كان . فهو موجه نظرياً لمقاومة ((أي)) تهديد للسـلام كائنـاً مـا كان الذي يسلطه ، ومهما كان الطرف المتعـرض للتهديـد . والأحـلاف تفـترض دائماً بخصم محتمل معين ، فيما يدافع الأمـن الجمـاعي عـن القـانون الـدولي بمعنـاه التجريدي الذي يسعى الى ترسيخه بطريقة تشبه كثيراً طريقة النظام القضائي الـذي يعتمد على فقرات قانون جنائي محلي . فهو لا يفترض وجود مجرم معين أكـثر ممـا يفعل القانون المحلي . إضافة الى هذا ، أن " سبب الحرب " في نظر الأحـلاف هـو الهجوم على مصالح أو أمن أعضائها . بيـد أن الأمـن الجمـاعي يـرى أن " سـبب الحرب " هو أي انتهاك لمبدأ التسوية " السلمية " للنزاعات ذات الأهمية المشـتركة لجميع شعوب العالم . ولذلك ، ينبغي أن تستجمع القوة علـى أسـاس كـل قضيـه لوحدها بعد أخرى ، من مجموعة متغيرة من البلـدان ذات المصلحـة المشـتركة في " حفظ السلام " .

ان غرض الحلف هو الخروج بالتزام أكثر قابلية للتكهن به وأكـثر دقـة مـن تحليل المصالح القومية . أما الأمن الجماعي فيعمل بالطريقة المعاكسـة تمامـاً . فهـو

يترك مبادئه الى تفسير الظروف الخاصة حين تنشأ ، وبذلك يعتمد دونما قصد على مزاج اللحظة ، وبالتالي على الارادة القومية .

ولا يساهم الأمن الجماعي في تحقيق الأمن الا اذا تقاسمت جميع البلدان - أو في الأقل جميع البلدان المعنية بالدفاع الجماعي - نفس الآراء تقريباً بشأن طبيعة التهديد ، واستعدت لاستخدام القوة أو تطبيق عقوبات بناء على " الحالة الموضوعية " ، بغض النظر عن المصالح القومية المحددة التي قد تمتلكها في القضايا المطروحة . فقط اذا تحققت كل هذه الشروط ، بات بوسع المنظمة العالمية سن عقوبات أو العمل حكماً في الشؤون الدولية . فذي هي الطريقة التي أدرك بها ولسون دور الأمن الجماعي حين اقتربت الحرب من نهايتها في أيلول ١٩١٨ :

[لقد انحدرت الأهداف القومية الى السفح أكثر وأكثر ، وحل محلها الهدف المشترك . وأضحت خطط ونوايا الناس الصادقين في كل حدب وصوب أكثر بساطه ومباشرة وأكثر توحداً من خطط ونوايا رجال الشؤون العامة المعقدة الذين لا يزالون منغمسين في لعبة القوة واللعب المحفوف بالمخاطر الرهيبة] .

هاهنا ينعكس الفرق الأساسي بين التفسير الولسوني والأوروبي لأسباب الصراع الدولي . اذ تفترض الدبلوماسية الأوروبية وجود نزعة لتصادم المصالح القومية ، وهي تعتبر الدبلوماسية وسيلة للتوفيق بينها . أما ولسون ، من الناحية الأخرى ، فقد اعتبر أن الخلاف الدولي هو مخاض " التفكير المشوش " وليس تعبيراً عن تصادم أصيل في المصالح . ولذلك يقع على عاتق رجال الدول في تطبيقهم

السياسة الواقعية مهمة ربط المصالح الخاصة مع العامة من خلال ميزان الترغيب والترهيب . بيد أن النظرة الولسونيه تتطلب من رجال الدولة تطبيق المباديء الكونية على حالات محددة ، ناهيك عن اعتبارها لهم أسباب الصراع لأنهم وراء تسويه ميل الانسان الفطري في تبني المفاهيم الانسجامية من خلال حساباتهم الأنانية والعويصة .

وجاء سلوك معظم الساسة في فرساي ليخيب توقعات ولسون . فقد وضعوا مصالحهم القومية نصب أعينهم تاركين مهمة الدفاع عن الأهداف المشتركة على عاتق ولسون الذي لم يكن لبلاده أيه مصلحة قوميه في القضايا الاقليمية للمعاهدة (في اطار أوروبا) . ولكنها من طبيعة القادة الملهمين مضاعفة جهودهم لا الكف عنها في وجه الحقيقة العنيدة . وحتى العقبات التي التقاها ولسون في فرساي لم ير فيها حجر عثرة في طريقه الجديد ، بل هي قد زادته إيماناً بضرورتها ، وأمسى موقناً أن عصبة الأمم وثقل الرأي العام سيصححان كثيراً من بنود المعاهدة التي زاغت عن مبادئه .

تجلت قوة مباديء ولسون في تأثيرها الذي أحدثته في بريطانيا العظمى التي هي مهد سياسة توازن القوى . اذ كان التعليق الرسمي البريطاني على ميثاق العصبة : " لا بد أن يكون صاحب القرار الأخير والأكثر فاعلية هو الراي العام للعالم المتحضر " . أو ما قاله اللورد (سيسل) أمام مجلس العموم : " ان ما نعتمد عليه لهو الرأي العام ... فان أخطأنا بحقه ، فالأمر خاطيء برمته " .

يبدو الأمر غير ممكن أن تخلص سياسة سليلي بت وكاننغ وبالمرستون ودزرائيلي الى مثل هذه النتائج • فهم قد ذهبوا صوب سياسة ولسون كي يضمنوا الدعم الأمريكي في الحرب • ولما دارت عجلة الزمن أفلحت المباديء الولسونيه في الاستحواذ على الرأي العام البريطاني • ثم حلت العشرينيات والثلاثينيات و لم يعد دفاع بريطانيا عن الأمن الجماعي يأتيها بفائدة ترجى ، اذ صنعت المباديء الولسونية انقلاباً حقيقياً •

وفي النهاية سقط الأمن فريسة ضعف ركنه الأساسي - القائل بامتلاك جميع الدول نفس المصلحة في مقاومة تصرف عدواني ما ، مع استعدادها لتحمل مخاطر متماثلة عند مقاومته • اذ أوضحت التجارب خطر هذه الافتراضات • فليس ثمة تصرف عدواني يتعلق بقوة كبرى اندحر بسبب تطبيق مبدأ الأمن الجماعي • فأما أن ترفض الأسرة الدولية تقييم التصرف بأنه جسد عدواناً ، أو أن تختلف بشأن العقوبات المناسبة • واذا ما تم تطبيق العقوبات لعكست أوطأ مستوى مشترك من الاتفاق ، وغالباً ما اثبتت أن ضررها أكثر من نفعها •

ففي عام ١٩٣٢ ، ويوم احتلت اليابان منشوريا لم يكن بجعبة العصبة آلية للعقوبات هي قد عالجت الخلل ، لكنها ، لما واجهت غزواً ايطالياً للحبشة ، صوتت لصالح العقوبات وهي تقف عاجزة عن قطع امداد ايطاليا بالنفط • ولم تحرك العصبة ساكناً حيال توحيد النمسا قسرياً مع المانيا وانطفت حرية تشيكوسلوفاكيا فكان آخر نشاط مارسته يوم خرجت منها المانيا واليابان و ايطاليا هو طرد الاتحاد السوفيتي من عضويتها بعد أن هاجم فنلندا سنة ١٩٣٩ • وما كان ذلك ليؤثر قيد أنملة على التصرفات السوفيتية •

وخلال الحرب الباردة ، تجلى عجز الأمم المتحدة في كل أمر تعلق بعدوان قوة عظمى ما ، ومرد ذلك حق النقض (الفيتو) الشيوعي في مجلس الأمن أو نفور البلدان الصغيرة من تجشم المخاطر حول قضايا شعرت أنها لا تهمها . فكانت بلا حول ولا طول أو قبعت في الخط الجانبي أثناء أزمات برلين وخلال التدخل السوفيتي في هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وأفغانستان . ونأت الأمم المتحدة بنفسها عن أزمة الصواريخ الكوبية حتى اتفقت القوتان العظميان على حسمها . ولم يكن عسيراً على أميركا استخدام سلطة الأمم المتحدة ضد عدوان كوريا الشمالية سنة ١٩٥٠ فقط لما قاطع الممثل السوفيتي مجلس الأمن وانذاك لما تزل الجمعية العمومية خاضعة لسيطرة بلدان تائقة لتجنيد أمريكا ضد تهديد العدوان السوفيتي في أوروبا . فالأمم المتحدة قد هيأت مكان اجتماع لائق للدبلوماسيين مع منتدى نافع لتبادل الآراء ومارست وظائف فنية مهمة ، غير أنها فشلت في تنفيذ المفهوم الباطني للأمن الجماعي - أي منع الحروب والاضطلاع بالمقاومة الجماعية للعدوان .

يصح هذا القول أيضاً على الأمم المتحدة خلال فترة ما بعد الحرب الباردة . فهي قد صادقت في حرب الخليج عام ١٩٩١ على الأفعال الأمريكية ، غير أن مقاومة العدوان العراقي ما كانت تطبيقاً لمبدأ الأمن الجماعي . اذ مضت أميركا دونما تنتظر اجماعاً دولياً ترسل قوة حملات كبيرة . ولم تستطع البلدان الأخرى استخدام نفوذها حيال الأفعال الأمريكية الا بالانضمام لما هو مشروع أمريكي فعلي ، والا غامرت بمخاطر الصراع لو أرادت نقضها . كما عملت الاضطرابات الداخلية في الاتحاد السوفيتي والصين على اعطاء الأعضاء الدائمين في

مجلس الأمن دافعاً للحفاظ على حسن النية الأميركية تجاهها . وعليه تم القول بالأمن الجماعي في حرب الخليج أنه تبرير للزعامة الأمريكية وليس بديلاً عنها .

لا ريب أن الأيام الخوالي لم تستوعب هذه الدروس حين تم طرح مفهوم الأمن الجماعي على طاولة الدبلوماسية أول مرة . اذ أقنع ساسة دول ما بعد فرساي أنفسهم نصف اقتناع أن التسلح هو سبب التوترات وليس نتيجة لها ، وآمنوا نصف ايمان بامكانية التخلص من الصراعات الدولية لو حلت النية الطيبة محل الشك في الدبلوماسية التقليدية . وعلى الرغم من المقت العاطفي الشديد للحرب ، كان على قادة أوروبا أن يدركوا عدم فاعلية المبدأ العام للأمن الجماعي حتى لو تغلب على كل الصعاب التي أمامه ، ما دام لم يشتمل على ثلاثة من أقوى البلدان في العالم وهي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والمانيا ، فأميركا رفضت الانضمام للعصبة ، والمانيا خطر عليها ذلك ، وبقي الاتحاد السوفيتي الذي لقي معاملة المنبوذين فازدراه .

كانت فرنسا ((المنتصرة)) البلد الذي شيء له أن يرزح تحت أشد معاناة من نظام ما بعد الحرب . لقد أدرك قادة فرنسا عجز بنود فرساي عن الابقاء على ضعف المانيا الدائمي . فبعد آخر حرب أوروبية – حرب الكريميا (١٨٥٤- ١٨٥٦) سعى المنتصران (بريطانيا وفرنسا) الى الابقاء على البنود العسكرية لأقل من عشرين عاماً . وفي مستهل الحروب النابليونية غدت فرنسا عضواً كاملاً في الأسرة الأوروبية بعد ثلاثة أعوام فقط . وفي حقبة ما بعد فرساي تفاقم ضعف فرنسا مقارنة بالمانيا حتى بدا أن الأخيرة ستفرض هيمنتها على أوروبا بحد

السيف ، فأصاب القائد الأعلى للجيش الفرنسي المارشال (فرديناند فوش) حين قال في معاهدة فرساي : " هذا ليس سلاماً ، انه هدنة لعشرين سنة " .

بحلول عام ١٩٢٤ توصلت أركان القوات البرية البريطانية الى نفس الاستنتاج حين تنبأت بالتقاط المانيا القفاز مرة أخرى لتشتبك مع بريطانيا العظمى حول مسائل ستكون " ببساطه اعادة للظروف التي أودت الى الحرب الماضية " . ومضت تقول أن القيود التي فرضتها معاهدة فرساي سترجيء اعادة تسلح المانيا لمدة أقصاها تسعة شهور تنتهي بشعور المانيا بقدرتها السياسية على تحطيم أصفاد فرساي . فلما التقت الأركان البريطانية العامة مع فرنسا في تصورها هذا تنبأت أن تغدو فرنسا بلا حول ولا قوة ما لم تحاول في غضون ذلك عقد حلف عسكري مع " احدى القوى من الطراز الأول " .

بيد أن القوة الوحيدة المتاحة من ذلك الطراز كانت بريطانيا التي لم يتقبل قادتها السياسيون اراء مستشاريهم العسكريين والذين استندت سياستهم الى الاعتقاد الخاطيء أن فرنسا ما فتئت قوية جداً وأن آخر ما تحتاجه هو حلف مع بريطانيا . ليس هذا فحسب ، بل هم ظنوا أن فرنسا الضعيفة ستغدو القوة المسيطرة المحتملة التي ينبغي موازنتها ، وان المانيا التعديلية هي الطرف المضام الذي بحاجة الى الارضاء .ساير الصواب كلا للافتراضين على المدى القصير غير أنهما الكارثة للسياسة البريطانية التقليدية على المدى البعيد . ان نجاح أو فشل ساسة الدول انما يتوكأ على مدى ادراكهم للاتجاهات . وفي هذا فشل قادة بريطانيا لما بعد الحرب في استيعاب الأخطار بعيدة الأمد الرابضة أمامهم .

لقد أرادت فرنسا مستميتة عقد حلف مع بريطانيا العظمى لتعويض الضمانة التي فشلت في استحصالها بعد ان رفض مجلس الشيوخ الأمريكي المصادقة على معاهدة فرساي . أما قادة بريطانيا الذين ما عقدوا من قبل حلفاً عسكرياً مع البلد الذي اعتبروه الأقوى في أوروبا ، فقد اعتقدوا الآن أن فرنسا تعيد تهديدها بالسيطرة على أوروبا . ففي عام ١٩٢٤ وصفت الدائرة المركزية في وزارة الخارجية البريطانية احتلال فرنسا لمنطقة الراين بأنه " نقطة وثوب للاغارة على أوروبا الوسطى " ، وهو حكم وقف نقيضاً مطلقاً على النفسية الفرنسية لتلك الفترة . وأشد من هذا أن اعتبرت مذكرة الخارجية احتلال الراين تطويقاً لبلجيكا مشكلاً " خطراً مباشراً على (الشلدت وزويدر زي) وعليه هو خطر غير مباشر على هذا البلد " . ثم خرجت الأدميرالية ، وقد أبلت عذراً في اثارة الشكوك ضد فرنسا ، بحجة اقتبستها مباشرة من ارهاصات حرب وراثة العرش الأسباني أو الحروب النابليونية : " ان الراين قد فرضت سيطرتها على الموانيء الهولندية والبلجيكية التي من شأن التحكم بها افساد خطط البحرية البريطانية الملكية لو حصلت حرب مع فرنسا " .

هكذا تلاشت بذور الأمل بالمحافظة على ميزان القوى في أوروبا ما دامت بريطانيا العظمى قد أعتبرت أن التهديد الرئيسي هو بلد تم تخطيط سياسته الخارجية المذعورة تقريباً لدرء هجوم الماني آخر . بل أن كثيراً من الانكليز شرعوا يتطلعون الى المانيا لموازنة فرنسا . اذ نقل السفير البريطاني لدى برلين (فيسكونت ابرنون) عام ١٩٢٣ أن من مصلحة انكلترا الابقاء على المانيا الوزن المقابل لفرنسا ، وأضاف : " ثمة توازن قوى أوروبي بشكل أو باخر طالما أن المانيا

متماسكة ككتلة واحدة " . فان تفككت المانيا لامسكت فرنسا " بسيطرة عسكرية وسياسية لا جدال فيها قائمة على جيشها وأحلافها العسكرية " . ان هذا القول لجد صائب ، لكنه أبعد عن حقيقة السيناريو الذي سيفغر فاه الدبلوماسية البريطانية في العقود اللاحقة .

لازمت بريطانيا ، مثلما فعلت دوماً ، الصواب في جدالها ان اعادة بناء النظام الدولي تتطلب ، بعد بلوغ النصر ، عودة العدو السابق الى أحضان الأسرة الدولية . غير أن تخفيف مظالم المانيا لن يعيد الاستقرار ما دام ميزان القوى مائلاً لصالح المانيا لدرجة كبيرة . فيما تطلعت بريطانيا العظمى وفرنسا اللتان لن يستغني ميزان القوى الأوروبي ، عن وحدتهما للمحافظة على توازنه احداهما الى الأخرى بشعور بالخيبة وسوء فهم ، بينما قبع المهدد ان الحقيقيان للتوازن - المانيا والاتحاد السوفيتي - على القارعة ممتلئان غيظاً وتجهماً . لقد تمادت بريطانيا في تقدير قوة فرنسا ، وبالغت فرنسا في حساب قدرتها على استخدام معاهدة فرساي للتعويض عن ضعفها مقابل المانيا . بيد أن الخشيه البريطانية من احتمالية تسيد فرنسا القارة الأوروبية كانت ساذجة ، وكان وهما مشوباً باليأس اعتقاد فرنسا بقدرتها على تطبيق سياسة خارجية قائمة على الابقاء على المانيا خائرة القوى .

لعل أهم سبب حدا ببريطانيا الى رفض حلف مع فرنسا هو اعتقاد قادتها ان معاهدة فرساي لم تكن عادلة ، سيما ما يتعلق بتسوية مسائل أوروبا الشرقية ، وكذلك خشيتهم من أن الحلف مع فرنسا المرتبطة بمواثيق مع بلدان أوروبا الشرقية قد يجرهم الى صراع حول القضايا الباطلة دفاعاً عن البلدان الباطلة . فقد عبر لويد جورج عن الحكمه التقليدية لذلك الوقت بقوله :

[ما الشعب البريطاني بمستعد للتورط في نزاعات قد تنشب حول بولندا أو دانزيغ التابعة لسليزيا العليا ... اذ يشعر الشعب البريطاني أن سكان ذلك القسم من أوروبا سريعي الاهتياج وغير مستقرين ، فهم قد يبدأوا بالاقتتال قتالاً أنى شاءوا وسيكون من الصعب للغاية معرفة الحق من الباطل في تلك النزاعات] .

وعليه استوظف القادة الانكليز ، متمسكين بمواقفهم تلك ، المناقشات المتعلقة بامكانية عقد حلف مع فرنسا بصورة أساسية بمثابة وسيلة لتخفيف الضغوط الفرنسية على المانيا ، وليست اسهاماً جاداً في الأمن الدولي .

واذن واصلت فرنسا سعيها اليائس للابقاء على المانيا ضعيفة ، فيما مضت بريطانيا تبتدع ترتيبات أمنية لتهدئة المخاوف الفرنسية دونما اثارة مسألة التزام بريطاني . انها لدائرة لن تكتمل حلقتها طالما ان بريطانيا قد عجزت عن منح فرنسا ضمانة لها ان تخفف حدة السياسة الفرنسية الخارجية تجاه المانيا - وهي الحلف العسكري الشامل .

وبعد أن وقر في في ذهن رئيس الوزراء الفرنسي (بريان) سنة ١٩٢٢ عدم موافقة البرلمان البريطاني على التزام عسكري رسمي ، عاد الى احياء (الحلف الودي) لعام ١٩٠٤ بين بريطانيا وفرنسا المتعلق بالتعاون الدبلوماسي بدون التزامات عسكرية . ولكن بريطانيا قد شعرت عام ١٩٠٤ بتهديد البرنامج البحري الألماني وأوجست خيفة من تصرفات المانيا التنمرية المستمرة . أما في العشرينات فقد خافت من المانيا أكثر من فرنسا التي عزت تصرفها خطأً الى الغرور

وليس الهلع . وانعكس دافع بريطانيا الحقيقي ، التي قبلت بمضض على مقترح بريان ، في خطاب ساخر لمجلس الوزراء دافعت فيه عن الحلف الفرنسي بدعوى أنه وسيلة لتقوية علاقات بريطانيا بالمانيا :

[نرى المانيا أهم بلد في أوروبا ليس بسبب تجارتنا حسب ، بل لانها مفتاح الأوضاع في روسيا . بيد أننا ، بمساعدة المانيا ، قد نعرض أنفسنا في الظروف الراهنة الى تهمة نبذ فرنسا ، لكننا لو حالفناها فسوف تتبرأ هذه التهمة] .

وكان رفض الرئيس الفرنسي الكسندر ميلران لمشروع بريان بباعث من احساسه بالتملص البريطاني أو لأنه القاه غير رصين ، ولذلك قدم استقالته .

وعلى أثر اخفاق فرنسا في محاولتها للحصول على حلف بريطاني تقليدي سعت هذه المرة الى تحقيق النتيجة عينها من خلال عصبة الأمم باجلاء التعريف الدقيق للعدوان ، وبذ سيتحول الى التزام دقيق ضمن اطار عصبة الأمم - فتغدو العصبة حلفاً كونياً . وبعد حث من فرنسا وبريطانيا أعد مجلس العصبة في أيلول ١٩٢٣ معاهدة عالمية للمساعدة المتبادلة . فعند حصول صراع سيكون المجلس مخولاً بتحديد البلد المعتدي والبلد الضحية . وآنذاك يتوجب على جميع أعضاء العصبة أن يهبوا لمساعدة الضحية ، بالقوة ان دعت الضرورة ، ضمن القارة التي يقع فيها هذان الطرفان (أضيف هذا التوضيح لتحاشي الزام العصبة بالمساعدة في الصراعات على المستعمرات) . ولما كان المقصود بالتزامات مبدأ الأمن الجماعي أن تنهل من قضايا عامة وليس من مصالح قومية ، اشترطت المعاهدة ، بغية

المساعدة ، أن تكون الضحية قد وقعت على اتفاقية نزع سلاح ترضاهـا العصبـة ، وان تكون قد قلصت قواتها المسلحة حسب جدول متفق عليه .

ولو انسنا معاهدة المساعدة المتبادلة من زاوية الواقع ، سـنبصر فيهـا الحـافز للعدوان بطلبها من الطرف المتعـري أن يفـاقم مصاعبه ، مـا دامـت الضحيـة هـي الطرف الأضعف عادة . ومـا يثير السخرية أن يتحصـن النظـام الـدولي لمصلحـة نازعـي السلاح الفوقة وليس مـن أجـل المصـالح القوميـة الحيويـة . واذ ستسلخ برامـج نـزع السـلاح العـام سـنوات مـن التفـاوض ، ستصدع المعـاهدة العالميـة للمساعدة المتبادلة هوة عظيمـة ، وسيكون علـى فرنسـا وأي بلـد مهـدد آخـر أن يواجه الأخطار المحدقة به لوحده بسبب الـتزام العصبـة بالمقاومـه اذا مـا انتهـت الى أحضان مستقبل بعيد ومبهم .

فشلت المعاهدة برغم فقراتها التملصية في استدراج التـأييد لهـا ، ورفضـت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي البت فيها ، ولم تسأل المانيا رأيها قط . وحـين اتضح أن مسودة المعاهدة سوف تلزم بريطانيا في كل مستعمراتها في جميع القارات بمساعدة ضحايا العدوان اينما كانوا ، شعر رئيس حزب العمل البريطاني (رافـري ماكدونالد) أنه مضطر للقول أن بريطانيا العظمى لا تقبل المعـاهدة وان سـاعدت في صياغة مسودتها .

ووقتئذ استحال بحث فرنسا عن الأمن كابوساً جاثماً ، وأبت الرضـوخ الى حقيقة سدى جهودها فدأبت في بحثها عـن معيـار يتماشـى والأمـن الجمـاعي ، لا سيما أن الحكومة البريطانية بزعامة رافري ماكدونـالد قـد أيـدت الأمـن الجمـاعي

ونزع السلاح - المدعوة بالقضايا التقدمية لدى العصبة . وخلص ماكدونالد ورئيس الوزراء الفرنسي الجديد (ادوارد هيربو) الى الاختلاف بشأن المقترح السابق . لأن بروتوكول جنيف ، عام ١٩٢٤ ، يشترط تحكيم العصبة في جميع الصراعات الدولية ووضع ثلاثة معايير للالزام العالم بمساعدة ضحايا العدوان : رفض المعتدي السماح للمجلس بحسم النزاع بالترضية ، وامتناع المعتدي عن ايصال القضية الى تسوية قضائية أو رفعها للتحكيم ، وعضوية الضحية في برنامج نزع سلاح عام . وبذا يتوجب على جميع الأعضاء أن ينفروا لنجدة الضحية بكل الوسائل المتاحة ضد المعتدي المعرف آنفاً .

آل مصير بروتوكول جنيف الى الفشل أيضاً عينها عنها التي خيبت معاهدة المساعدة المتبادلة وجميع المشاريع الأخرى للأمن الجماعي في العشرينات . لأن الأمر عنى بريطانيا كثيراً ، بخلاف فرنسا . لقد اقترحته بريطانيا بمرمى حث فرنسا على نزع سلاحها لا لخلق التزام دفاعي آخر على عاتق بريطانيا . ودأبت فرنسا على هذا البروتوكول لأنه الزام بالمساعدة المتبادلة - أي تمتعها بمصلحة ثانوية في نزع السلاح ان وجدت . ومما أكد سدى هذه التجربة اعلان الولايات المتحدة عدم توقيعها بروتوكول جنيف وعدم تدخل الأمر بتجارة أميركا بموجب بنوده . وقام مجلس الوزراء البريطاني بسحب البروتوكول في مطلع عام ١٩٢٥ بعد أن تلقى تحذيراً من رئيس أركان الدفاع الامبراطوري أن البروتوكول سيصيب القوات البريطانية بشديد خطر .

أنه لشأن ينافي العقل ، فقد أوثقوا مقاومة العدوان بشرط نزع سلاح الضحية المسبق ، وعريت صفة الشرعية عن الاعتبارات الجيوسياسية والأهمية

الستراتيجية للمنطقة ، وهي البواعث التي تناحرت من أجلها الدول قروناً عـدداً . وبضوء هذا المفهوم يتعـين علـى بريطانيـا العظمـى أن تدافـع عـن بلجيكـا ، لأنهـا نزعت سلاحها ، لا لأنهـا ذات أهميـة اسـتراتيجية حيويـة . وبتصـرم أشـهر مـن المفاوضات لم تحقق الديمقراطيات تقدماً لا في مضمـار نـزع السـلاح ولا الأمـن ، وبات التأثـير المربـك والمضعـف بـدلاً مـن التأثـير المطمئـن ، مخاض نـزوع الأمـن الجماعي لتحويل العدوان الى مسألة تجريدية وقانونية ، ورفضة الأخذ بالاعتبـار أي تهديد أو التزام محدد .

وأتضح أن بريطانيا العظمى قد نظرت الى التزامات الأمن الجمـاعي كأنهـا ملزمة بنحو اوهن من الأحلاف التقليدية ، بالرغم من كل الولاء والتأييد العـاطفي لهذا المبدأ . وأثبت مجلس الوزراء حذقته في ابتكار صيـغ متعـددة للأمـن الجمـاعي بينما رفض بكل عناد عقد حلف رسمي مع فرنسا حتى عشية اندلاع الحـرب بعـد عقد ونصف عقد .

الموقن أنها لن تقوم بمثل هذا التمييز ما لم تأنس في تطبيـق التزامـات الأمـن الجماعي أوهن احتمالاً أو أن التنصل منها أيسر مما مع التزامات الأحلاف .

كان أعظم اجراءات الحلفاء حكمة يتجسد في السعي طواعية لرفـع أقسـى بنود فرساي عن كاهل المانيا وتشكيل حلـف فرنسـي - بريطـاني متـين . وذا مـا اكتمل في ذهن (ونستون تشرتشل) حين تبنى حلفاً مـع فرنسـا : " لـو - لـو - غيرت (فرنسا) تعاملها مع المانيا تماماً وتلقت بـولاء سياسـة بريطانيـا للمسـاعدة وتشكيل صداقة مع المانيا " . وعلى أيه حال لم تطرق هذه السياسة على الاطلاق

في أي ظرف ، فقد كـان قـادة فرنسا شـديدي الخوف مـن المانيـا والـرأي العـام الفرنسي الذي يكن علقم العداء لألمانيا ، وأن الشك ملأ قلوب قـادة بريطانيـا مـن النوايا الفرنسية ٠

وخوت بنود نزع السلاح لمعـاهدة فرسـاي الهـوة بـين بريطانيـا وفرنسـا ، وعبـدت بتهكـم طريـق المانيـا نحـو التكـافؤ العســكري الــذي سـيأتي بــالتفوق الجيوسياسي في المدى البعيد بباعث من ضعف أوروبا الشرقية ٠ فعلاوة على تمييز الحلفاء بين المانيا وغيرها ، فاقموا هذا الأمر باهمالهم اعداد أية آلية للاشراف علـى مدى تطبيق بنود نزع السلاح ٠ وتكهن أندريه تـارديو كبـير مفـاوضي فرنسـا في فرساي أن عدم وضع آليـة للاشـراف والتدقيـق سـوف تشـل بنـود نـزع السـلاح المنصوص عليها في المعاهدة وكتب رسالة الزعيم هاوس عام ١٩١٩ :

[لقد صيغت أداة ضعيفة وخطرة وسخيفة ... أفستقول العصبة لألمانيا " برهـني خطـأ معلومـاتي " أو حتـى " نريـد أن ندقـق " ٠ وحـين تدعـي بحـق الاشراف ، وستجيبها المانيا : " بأي حق " ؟ ٠

وذي رد المانيا ولهـا عـذر في هـذه الاجابـة ، مـا لم تجبرهـا العصبـة على الاعتراف بحق التدقيق] ٠

وفي الأيام التي سبقت دراسة الحد من الأسلحة الى موضــوع أكـاديمي ، لم يكن من الغريب الطلب من المانيا الاشراف على عمليـة نـزع سـلاحها ٠ والواقـع شكلت لجنة سيطرة عسكرية من الحلفـاء لذلـك الغـرض ، ولكنهـا لم تتمتـع بحـق مستقل للتفتيش ، وكل ما استطاعته هو أن تطلب من الحكومة الألمانيـة معلومـات

على الانتهاكات الألمانية - وهو اجراء غير مضمون أبداً . الى أن حلت اللجنة سنة ١٩٢٦ تاركة مهمة تدقيق الامتثال الألماني بيد دوائر الاستخبارات الحليفة . فلا عجب في انتهاك بنود نزع السلاح كثيراً جداً قبل وقت طويل من رفض (هتلر) الالتزام بها .

وعلى الصعيد السياسي أحد قادة المانيا ببراعة على نزع السلاح الشامل حسب معاهدة فرساي التي تبعثهم أول المتجردين سلاحاً . وأفلحوا مع مرور الزمن في كسب التأييد البريطاني لهذا التصرف وتحججوا به ذريعة للتغطية على عدم الوفاء ببنود المعاهدة الباقية . وسعت أيضاً الى تسليط الضغوط على فرنسا ، بعدما أعلنت أنها أجرت تقليصاً كبيراً في قواتها البرية (التي لا تعتمد عليها لأمنها). بالرغم من أنها لم تقلص بحريتها (التي تعتمد عليها ولا شك) . ومن الناحية الأخرى اتكل أمن فرنسا كلياً كون جيشها الدائمي أكبر بكثير من جيش المانيا لأن عدد نفوس المانيا وامكانياتها الصناعية كبيران جداً فأفضى الضغط المسلط لتعديل هذا الميزان - باعادة تسلح المانيا أو نزع سلاح فرنسا - الى عكس نتائج الحرب . فلما ارتقى هتلر السلطة ، أمسى واضحاً تماماً دنو بنود نزع السلاح من حتفها ، فبرز التفوق الجيوسياسي الألماني جلياً .

ومثلت التعويضات نقطة اختلاف بين فرنسا وبريطانيا . فريثما أبرمت معاهدة فرساي ، كان من البديهي أن الطرف المهزوم هو الذي ينقد التعويضات . وعند انصرام الحرب الفرنسية - البروسية لعام ١٨٧٠ لم تجد المانيا أنها مجبرة على فرض أي مبدأ غير انتصارها حجة للتعويض عن الضرر الذي الحقته بفرنسا ، ولا حتى فعلت ذلك عام ١٩١٨ بخصوص فاتورة التعويضات المرهقة

التي أبرزتها لروسيا في معاهدة برست - ليتوفسك . ولكن في ظل النظام العالمي الجديد لمعاهدة فرساي اقتنع الحلفاء بأن للتعويضات مبرراً أخلاقياً . فعثروا عليها في المادة (٢٣١) أو " بند جريمة الحرب " التي عرجنا عليها في الفصل الماضي . وكان الهجوم الضاري على المانيا سمة هذه الفقرة ، فقتلت الدافع الضعيف أصلاً للتعاون مع تسوية السلام .

أن أحد المظاهر المذهلة لمعاهدة فرساي هي تضمين صائغيها بنداً قاسياً ومحدداً حول جريمة الحرب من دون أن يسموا المبلغ الكلي الواجب دفعه على شكل تعويضات . فقد ترك تحديد مبلغ التعويضات على عاتق لجان خبراء مستقبلية لأن المبلغ الذي قام الحلفاء بحث شعوبهم على توقعه كان باهظاً فادحاً لم يصمد أمام تدقيق ولسون أو تحليل الخبراء الماليين .

وبهذا المنوال باتت التعويضات شأنها شأن نزع السلاح ، سلاحاً بيد الثوريين الألمان ، ولم يشك الخبراء بالنوازع الأخلاقية لها وحسب بل وبمعقوليتها . وكان المثل البارز على ذلك هو كتاب (جون ماينارد كينس) الموسوم " المروحة في النتائج الاقتصادية للسلام ". في نهاية المطاف نرى أن موقع المساومة للمنتصر أخذ ينحسر بمرور الزمن ، فكل ما لا ينتزع في خضم صدمة الهزيمة يتعسر الحصول عليه فيما بعد - وهو درس اضطرت أميركا الى تعلمه فيما يتعلق بالعراق عند نهاية حرب الخليج عام ١٩٩١ .

ولم يوضع رقم محدد لمبلغ التعويضات الا في عام ١٩٢١ - أي بعد انقضاء سنتين على توقيع معاهدة فرساي . فكان فاحشاً في الغلو : أنه ١٣٢ مليار مارك

ذهبي (ما يناهز ٤٠ مليار دولار يعدل ما يقارب ٣٢٣ مليار دولار بالقيمة الحالية) ، وهو مبلغ يستلزم أن تبقى المانيا تسدد أقساطه حتى نهاية القرن فزعمت المانيا بعجز عن تسديد الديون كما هو متوقع منها ، وحتى لو استطاع النظام المالي الدولي تولي هكذا عملية واسعة لتحويل المصادر ، فليس ثمة حكومة المانية ديمقراطية يمكنها أن تقف مكتوفة الأيدي ازاءها .

ففي صيف ١٩٢١ سددت المانيا القسط الأول من فاتورة التعويضات ، فحولت ملياراً من الماركات (٢٥٠ مليون دولار) . ولكنها فعلت هذا عن طريق طبع ماركات ورقية وبيعها عملة صعبة في السوق المفتوحة - أي بتضخيم عملتها الى حد لم يحصل عنده أي نقل ذي شأن للمصادر . ولما حل عام ١٩٢٢ اقترحت تأجيل دفع تعويضاتها لمدة خمسة أعوام .

وبذلك تفاقم الآن مدى الضعف والارتباك الذي أصاب نظام فرساي الدولي وفرنسا التي هي عموده الأوروبي الرائد . فليس هناك آلية ملزمة لدفع التعويضات القائمة ، وكذلك تلاشت أية آلية لتدقيق عملية نزع السلاح ، الى أن باتت معاهدة فرساي من الناحية الفعلية حرب عصابات دولية وليست نظاماً دولياً ، ما دامت فرنسا وبريطانيا العظمى قد اختلفتا بشأن هاتين النقطتين ، وأكل الأشياء قلب المانيا ، فيما نأت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي عن المسرح . أمسى موقع المانيا التساومي بعد أربع سنوات على انتصار الحلفاء أقوى من موقع فرنسا . وازاء هذه الظروف نادى رئيس الوزراء البريطاني لويدجورج الى التئام مؤتمر دولي في (جينوا) في نيسان ١٩٢٢ في محاولة واعية لمناقشة مسائل التعويضات ، وديون الحرب ، ونهوض أوروبا وحدة واحدة - وهو ما ضارع

كثيراً خطة مارشال بعد فترة جيل واحد . وبالنظر الى استحالة تصور نهوض اقتصادي أوروبي من دون آكبر بلدين في القارة (وصادف أنهما أكبر مدينين) وهما المانيا والاتحاد السوفيتي ، فقد استدعى المنبوذان من حظيرة الدبلوماسية الأوروبية الى مؤتمر دولي لأول مرة في حقبة ما بعد الحرب . غير أن النتيجة ما كانت اسهاماً في وضع لبنات النظام الدولي حسب آمال لويد جورج ، بل فرصة للم شمل المنبوذين .

لم يبرز في افق الدبلوماسية الأوروبية ما يشبه الاتحاد السوفيتي منذ الثورة الفرنسية . فلأول مرة أثناء ما يربو على قرن كامل ، كرس هذا البلد نفسه رسمياً للاطاحة بالنظام القائم ، وكان الثوريون الفرنسيون قد أفلحوا في تغيير سمة الدولة ، أما البلاشفة فقد ساروا خطوة أبعد ونزعوا الى الغاء " الدولة " جملة وتفصيلا . وحالما ذوت الدولة حسب عبارة لينين فليس ثمة حاجة للدبلوماسية أو السياسة الخارجية .

فباديء ذي بدء ، أقضى هذا الموقف مضجع كل من البلاشفة و كذلك الذين اضطروا للتعامل معهم . ووضع أوائل البلاشفة نظريات عن أن الصراع الطبقي والامبريالية هي مسببات الحروب . ومهما يكن من أمر فهم لم يتناولوا مسألة كيفية تصريف السياسة الخارجية فيما بين الدول ذات السيادة ، أنهم كانوا متأكدين من أن الثورة العالمية سوف تستتبع انتصارهم في روسيا في غضون أشهر قليلة ، فيما حسب الموغلون في التشاؤم أنها قد تسلخ سنوات قليلة . ورآى أول وزير خارجية سوفيتي (ليون تروتسكي) أن مهمته تفوق قليلاً مهمة الكاتب الذي ينوي تكذيب الرأسماليين فيفضح المعاهدات السرية على رؤوس الأشهاد .

تلك المعاهدات التي اتفقوا بموجبها على اقتسام أسلاب الحرب فيما بينهم . وعرف دوره بأنه يروم " الى ابداء مزاعم ثورية قليلة أمام شعوب العالم ومن ثم اللوذ بالصمت " . ولم يعتقد أي من القادة الشيوعيين بامكانية التعايش مع البلدان الرأسمالية لعدة قرون . وبعد أن جرى الاعتقاد لدى الشيوعيين بزوال الدولة في غضون أشهر أو سنوات قليلة ، أضحت المهمة الرئيسية للسياسة الخارجية السوفيتية التشجيع على الثورة العالمية ، وليس ادارة العلاقات بين الدول .

وبناء على هذه المعطيات كان مفهوماً أن يستثنى الاتحاد السوفيتي من عملية صنع السلام في فرساي . فما كان من وازع يفرض على الحلفاء في مداولاتهم اشراك بلد عقد سلاماً منفرداً مع المانيا سابقاً ، ويعمل وكلاؤه على الاطاحة بحكومتهم . كما لم تساور لينين ورفاقه أية رغبة بالاشتراك في النظام الدولي الذي كانوا يسعون الى تحطيمه .

ومن ناحية أخرى ، لم يكن ثمة شيء أعد البلاشفة في مجادلاتهم العويصة اللامنتهية ، كآلة الحرب التي لم يصنعوها بل ورثوها من أسلافهم في الواقع . وما كان لديهم برنامج سلام محدد لأنهم أساساً لم يعتقدوا أن بلدهم دولة ، بل قضية وحسب ، لذلك تصرفوا كما لو أن إنهاء حرب وتفجير ثورة أوروبية هما المسألة عينها . والواقع أن أول مراسيمهم في السياسة الخارجية الذي صدر بعد يوم على ثورة ١٩١٧ وهو المسمى بـ " مرسوم السلام " - هو مناشدة لحكومات وشعوب العالم لما وصفوه بالسلام الديمقراطي .

وسرعان ما توارت الأوهام البلشفية : اذ وافقت القيادة العليا الألمانية على المفاوضات لمعاهدة سلام في برست ليتوفسك ، وهدنة أثناء المحادثات فتصور تروتسكي في البدء أنه قادر على استخدام التهديد بحرب عالمية بمثابة سلاح تساومي ، وأنه قادر على التصرف باعتباره محامياً للبروليتاريا . وكان من سوء حظه ان مفاوضه الألماني جنرالاً منتصراً وليس فيلسوفاً ، فتفقه رئيس أركان الجبهة الشرقية (ماكس هوفمان) ميزان القوى وفرض أولاً شروطاً قاسية في كانون الثاني ١٩١٨ . وطلب ضم منطقة البلطيق بأسرها ، مع شريط من روسيا البيضاء ، اضافة الى محمية واقعية لأوكرانيا المستقلة ناهيك عن تعويض باهظ . وحين أضنت مماطلة تروتسكي المفاوض الألماني - أخرج هوفمان خريطة عليها خط أزرق عريض يبين مطالب المانيا . وأوضح أن بلاده لن تتراجع وراء ذلك الخط حتى توقف روسيا تعبئتها ، وبعبارة أخرى أن تصبح روسيا من غير دفاع .

وجسد انذار هوفمان مهماز أول جدل شيوعي ساخن حول السياسة الخارجية بادئاً في كانون الثاني ١٩١٨ . وهنا حث لينين وستالين من ورائه على التهدئة ، فتبنى (بوخارين) الحرب الثورية . رأى لينين أن الثوره اذا لم تنشب في المانيا أو فشلت ، فستعاني روسيا من " هزيمة ساحقة " تفضي الى سلام أكثر ضرراً " . وعلاوة على هذا ، لن توقع السلام حكومة اشتراكية بل حكومة أخرى .. وحين تكون الحالة هكذا ستخطر التكتيكات المحرمة أشد التحريم بمصير الثورة الاشتراكية التي بدأت في روسيا رجاءة أن تبدأ الثورة الألمانية في المستقبل العاجل ".

تفاوض تروتسكي باسم سياسة خارجية أيديولوجية أساساً ، وتبنى سياسة " اللاحرب واللاسلم " . ومع هذا كان بيد الطرف الأضعف خيار تضييع الوقت فقط ضد خصم يرى المفاوضات جارية حسب منطقه هو - وهو وهم راود الولايات المتحدة بشكل خاص . غير أن هذا الآراء لم تعن شيئاً للالمان ، فعندما عاد تروتسكي بتعليمات تنم عن سياسة اللاحرب واللاسلم وأعلن من جانب واحد أن الحرب قد وضعت أوزارها ، استأنف الألمان عملياتهم العسكرية . فقبل لينين وأصحابه حين تراءت الهزيمة المطلقة أمامهم ، شروط هوفمان ووقعوا معاهدة برست - ليتوفسك ، راضخين للتعايش مع الامبراطورية الألمانية .

كتب على مبدأ التعايش أن يثار بين وقت آخر طيلة ستين عاماً من جانب السوفيت بكل ردود أفعال المؤيدين له التي ظلت مستمرة : فالديمقراطيات كانت تحيي في كل مرة الاعلان السوفيتي للتعايش السلمي بمثابة اشارة للاهتداء الى سياسة سلم دائمية . ومع ذلك برر السوفيت من ناحيتهم التعايش السلمي على أساس أن علاقة بين القوى لا تودي الى المواجهة . وبالنظر لتغير تلك العلاقة ، فالنتيجة الطبيعية هي تغير انكباب البلاشفة على التعايش السلمي وبروز حقيقة الواقع هو الذي فرض التعايش مع الخصم الرأسمالي حسب قول لينين :

[اننا حين وقعنا سلاماً منفصلاً فانما أطلقنا أيدينا لأقصى مدى ممكن ((في اللحظة الراهنة)) من اغلال كلا المجموعتين المتطاحنتين ، ونحن نستفيد من الحرب باستغلال عداوتهما المتبادلة ، التي تجعل من الصعب عقد صفقة بينهما ضدنا] .

وبلغت هذه السياسة أوجها بلا شك بميثاق هتلر - ستالين لعام ١٩٣٩ . وقد تم تجاوز العقبات الكامنة في ذلك السبيل بسهولة على ضوء بيان شيوعي يقول : " أننا لمقتنعون من امكانية مواءمة أكثر السياسات اشتراكية ترابطاً مع أقسى الوقائع والاعتبارات العملية الأشد حصافة " .

وفي عام ١٩٢٠ اتخذت السياسة السوفيتية الخطوة النهائية في الاعتراف بالحاجة الى سياسة أكثر تقليدية تجاه الغرب يوم صرح وزير الخارجية (جيورجي تشيرشرين) :

[قد تبرز خلافات بشأن استمرار بقاء النظام الرأسمالي ، ولكن النظام الرأسمالي موجود في الوقت الحاضر ، ولا بد من ايجاد تسوية مؤقتة] .

وهكذا برزت المصلحة القومية أخيراً لتغدو الهدف السوفيتي المهيمن بالرغم من كل الخطابات الثورية الصاخبة ، وأضحت حقيقة اشتراكية مثلما كانت لوقت طويل جوهر سياسات الدول الرأسمالية . فالبقاء الآن هو الهدف الآني والتعايش هو التكتيك اللازم له .

ومع ذلك واجهت الدولة الاشتراكية تهديداً عسكرياً آخراً حين داهمتها بولندا في نيسان ١٩٢٠ . ووصلت الطلائع البولندية الى مشارف كييف قبل تقهقرها . وحالما اقترب الجيش الأحمر في هجومه المضاد من وارشو ، تدخل الخلفاء الغربيون مطالبين بانهاء الهجوم واحلال السلام . وأقترح وزير الخارجية البريطاني (كورزون) رسم خط فاصل بين بولندا وروسيا تم اعداد السوفيت

للقبول به فرفضت بولندا على أية حال ولذلـك أجريـت التسـوية النهائيـة حسـب الخطوط العسكرية لما قبل الحرب ، الى الشرق كثيراً مما اقترحه كورزون .

وهكذا آل الأمر ببولندا الى تصعيد حـدة العـداء مع عدويهـا التـاريخيين : المانيا ، التي اقتطعت منها سليزيا العليا والممر البولنـدي ، والاتحـاد السـوفيتي الـذي استولى الواقع شرقي ما سمي بـ " خط كورزون " . وبانجلاء غبار المنازعـات وجـد الاتحاد السوفيتي نفسه أخيراً طليقا من الحروب والثورة ، ولكنـه دفـع لقـاء ذلـك ثمـن هـو فقدانـه لمعظـم فتوحـات القيـاصرة في البلطيـق ، وفنلنـدا ، وبولنـــدا ، وبسارابيا ، وعلى طول الحدود التركية .

وبقدوم عـام ١٩٢٣ طـالبت موسـكو باسـترداد سيطرتها علـى أوكرانيـا وجورجيا اللتين انفصلتا عن الامبراطورية الروسية في خضـم الاضطرابـات - وهـو حادث لم ينسه كثير من القادة الروس المعاصرون .

وتحتم على الاتحـاد السـوفيتي في مسـعاه لاستعادة السيطرة الداخليـة ، أن يوائم عملياً بين الحملات الثورية العنيفة والسياسة الواقعية ، أي بين اعـلان الثـورة العالمية وعملية التعايش السلمي . ولم يكن الاتحاد السـوفيتي مؤيـداً للنظـام القـائم بـالرغم مـن ميلـه لارجـاء الثـورة العالميـة ، فقـد رأى في السـلام فرصـة لتحريـض الرأسماليين بعضهم على البعض الآخر ، وهدفه المحدد هـو المانيـا الـتي لعبـت علـى الـدوام دوراً رئيسياً في الفكـر والعاطفـة الروسـية . وعـرج لينـين علـى وصـف الاستراتيجية السوفيتية في كانون الأول ١٩٢٠ :

[يتوقف وجودنا أولاً على وجود الانشقاق الجذري في معسكر القوى الامبريالية ، وثانيا على حقيقة أن انتصار الحلف وسلام فرساي قد قذفا جل الشعب الألماني الى وضع لا يستطيع العيش فيه . بلا أن الحكومة الألمانية البرجوازية تمقت البلاشفة ، غير أن مصالح الوضع الدولي تدفعها نحو السلام مع الاتحاد السوفيتي برغم عن ارادتها] .

وخلصت المانيا الى الاستنتاج عينه . ففي غضون الحرب الروسية - البولندية ، كتب الجنرال (هانز فون سيخت) مهندس الجيش الألماني لما بعد الحرب :

[ما الدولة البولندية الحالية الا صنيعة الحلف ، فقد أوجدت للتعويض عن الضغط الذي سلطته روسيا سابقاً على الحدود الشرقية لألمانيا . واما اقتتال روسيا السوفيتية مع بولندا فلن يضرب الأخيرة لوحدها بل الحلف فوق كل شيء - فرنسا وبريطانيا . ولو انهارت بولندا فسوف يتهاوى صرح معاهدة فرساي . وهذا ما يستلزم بوضوح عدم وجود مصلحة لألمانيا في نجدة بولندا في صراعها مع روسيا] .

أكد رأي سيخت هذه المخاوف التي أججها اللورد بلفور قبل سنوات قليلة أن بولندا قد لاحت لروسيا والمانيا عدواً مشتركاً وحالت دون توازن أحدهما بنقل الآخر ، مثلما كان عليه الحال طيلة القرن التاسع عشر . واجهت المانيا في ظل نظام فرساي ليس حلفاً ثلاثياً بل عدداً وافراً من الدول على درجات من الخلاف فيما بينها ، يعارض جميعها الاتحاد السوفيتي المتذمر من ضياع أقاليمه على

نحو شديد الشبه بحالة المانيا . فما هي سوى مسألة وقت حتى جام المنبوذان غضبهما .

وحانت المناسبة في عام ١٩٢٢ بمدينة رابالو الساحلية الايطالية قرب جينوا حيث عقد مؤتمر لويد جورج الدولي . ومن مسببات السخرية ان هذه المناسبة حانت من جراء المماحكات المتصلة حول التعويضات التي استمرت منذ عهد معاهدة فرساي واحتدت بعد تقديم الحلفاء فاتورة التعويضات وادعاء المانيا بعجزها عن تسديدها .

وتمثلت العقبة الكأداء أمام نجاح المؤتمر في عدم امتلاك لويد جورج الصلاحية والا الحكمة اللتين سير بهما فيما بعد وزير الخارجية (جورج مارشال) برنامجه المتعلق باعادة الأعمار الى نهايته الظافرة . وعدلت فرنسا في اللحظة الأخيرة عن السماح بأدراج موضوع التعويضات في جدول الأعمال ، لخشيتها – وهذا صحيح تماماً – من الضغط عليها لتقليص المبلغ الكلي . وبدا أنها فوق كل شيء تسوية ممكن تحقيقها ، مع أنها مطلب لا يجوز الحصول عليه – بالرغم من الاعتراف الدولي به . فيما تطلعت المانيا الى الحصول على اذن تأجيل دفع التعويضات . وانتاب الروس الشكوك من احتمالية سعي الحلفاء الى انهاء مأزقها بربط ديون القياصرة بالتعويضات الألمانية . وهو ما سيفرض على الاتحاد السوفيتي أن يعترف بديون القياصرة والتعويض عنها من التعويضات الألمانية . اذ أبقت المادة (١١٦) من معاهدة فرساي هذا الاحتمال وارداً تماماً .

لم تجد الحكومة السوفيتية رغبة بالاعتراف بديون القياصرة أعمق من رغبتها بالاعتراف بمطالب بريطانيا وفرنسا المالية . ولم تنو اضافة المانيا الى قائمتها المليئة أصلاً بالخصوم من خلال التراصف في دوامة التعويضات ، فنزعت موسكو لمنع مؤتمر جينوا من حسم هذه القضية بغير صالح السوفيت ، اذ اقترحت قبيل عقد المؤتمر أن يشكل البلدان المنعزلان علاقات دبلوماسية ويتخلى كل واحد منهما عن مطالبه من الآخر . ألا أن المانيا لم تلتفت لهذا المقترح لأنها لم تشأ أن تكون أول بلد أوروبي يشكل علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي وهو ما قد يضائل فرص تخفيض قيمة فاتورة التعويضات . فبقي المقترح على الطاولة الى أن فرضت أحداث جينوا تغييراً في الموقف .

عمد وزير الخارجية السوفيتي جيورجي تشيرشرين ، وهو أرستقراطي بالولادة وآمن بالقضية البلشفية بكل جوارحه ، الى التقاط الفرصة التي هيأها مؤتمر جينوا ليضع المعتقدات الثورية في خدمة السياسة الواقعية . فأعلن " التعايش السلمي " بألفاظ وضعت التعاون العملي فوق متطلبات الأيديولوجيا :

[... في الوقت الحاضر من التاريخ الذي يسمح بالتعايش المتوازي للنظام الاجتماعي القديم والنظام الجديد المولود الآن ، يعترف الوفد السوفيتي بأن التعاون الاقتصادي بين الدول التي تمثل هذين النظامين للملكية ، هو ضروري ولازم لاعادة الاعمار الاقتصادي الشامل] .

وأشفع تشيرشرين في نفس الوقت مناشدته للتعاون بمقترحات معدة بعناية لمفاقمة الارتباك لدى الدول الديمقراطية . ذلك أنه نطق ببرنامج كاسح شامل

بحيث يستعصي على الحكومات الديمقراطية تطبيقه أو اهماله - وهو تكتيك كتب له أن يبقى لازمة للدبلوماسية السوفيتية . وفحوى البرنامج ابطال أسلحة الدمار الشامل ، وعقد مؤتمر اقتصادي عالمي ، واحكام السيطرة الدولية على جميع الممرات المائية . هدف حشد الرأي العام الغربي ومنح موسكو سمعة طيبة بشأن المبادىء السلمية التي ستجعل مهمة الديمقراطية صعبه عند تنظيم حملة ضد الشيوعية كابوس الكرملين .

وهنا وجد تشيرشرين نفسه معزولاً في جينوا وان لم يكن أكثر عزلة من أعضاء الوفد الألماني . لقد تناسى الحلفاء الغربيون الاغراءات التي كانوا يقدمونها لكل من المانيا والاتحاد السوفيتي ، بتظاهرهم بامكانية تجاهل أقوى بلدين في أوروبا ببساطة . فردت ثلاثة طلبات للمستشار الألماني ووزير خارجيته للاجتماع بلويد جورج . وفي الوقت عينه اقترحت فرنسا مشاورات سرية مع بريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتي وتستثنى منها المانيا . والغرض من هذه الاجتماعات هو نبش المخطط البالي الخاص باستبدال الديون القيصرية بالتعويضات الألمانية - أنه لمقترح يمكن أن يفسره حتى الدبلوماسيين الأقل تشككاً وارتياباً من السوفيت بأنه مصيدة لاسدال الستار على العلاقات الألمانية - السوفيتية المتحسنه .

وبحلول نهاية الأسبوع الأول من المؤتمر ، استشرى القلق لدى المانيا والاتحاد السوفيتي من أن يحرض كل منهما على الآخر . لذلك حين هاتف أحد أعوان تشيرشرين الوفد الألماني في ساعة تآمرية (الواحدة والربع) من صباح يوم ١٦ نيسان ١٩٢٢ عارضاً عقد اجتماع في وقت آخر من ذلك اليوم في رابلو ، طرب الألمان وتبشروا فرحاً بالدعوة ، اذ كانوا شديدي اللهفة والشوق لانهاء

عزلتهم مثلما نوى السوفيت تجنب الامتياز المتضارب المنطوي على صيرورتهم دائنين لألمانيا . ولم يسلخ وزيرا الخارجية طويل وقت في صياغة اتفاقية شكلت بموجبها المانيا والاتحاد السوفيتي علاقات دبلوماسية كاملة ، والغتا مطالب كل منهما من الأخرى ، ومنحت كل منهما الأخرى مكانة الأمة الأكثر تفضيلا . ولكن ما كاد يسمع لويد جورج من مخابراته بوقت متأخر عن الاجتماع ، حتى هرع هائجاً الى الوفد الألماني ليدعوهم الى الاجتماع الذي رفضه مراراً وتكراراً . وعندما وصلت الرسالة المفاوض الألماني (راتينو) وهو في طريقه لتوقيع الاتفاقية السوفيتية – الألمانية ، تردد ، ثم تمم : " لقد فتحت زجاجة النبيذ ، ولا بد من احتسائها " .

وفي غضون سنة انغمس الاتحاد السوفيتي والمانيا في مفاوضات من أجل اتفاقيات سرية للتعاون العسكري والاقتصادي . وبالرغم من أن رابالو أضحت رمزاً لأخطار التقارب السوفيتي – الألماني ، فقد كانت في الواقع أحد الأحداث القدرية التي تبدو محتمة لو استرجعنا شريط الأحداث . فقد حصلت عن طريق الصدفة ، وكلا الطرفين لم يخططا لها ، وهي حتمية لأن المسرح الذي أعد لها قد تهيأ بفعل نبذ الحلفاء الغربيين لأكبر بلدين عسكريين في القارة ، وبصنعهم حزاماً من الدول الضعيفة بينهما والمعادية لكليهما ، اضافة الى تقطيع أوصال كل منهما . فكل هذا هيأ الحافز الأقوى لألمانيا والاتحاد السوفيتي للتسامي فوق عدائهما الأيديولوجي وللتعاون بينهما بخصوص اهمال فرساي .

ان اتفاقية رابالو بحد ذاتها لم تؤت تلك الثمرة ، فهي على أي حال بلورت مصلحة مشتركة طاغية استمرت تهدي في طريقها القادة السوفيت والألمان لما

تبقى من فترة ما بين الحربين . وتصدى جورج كينان يعزو هذه الاتفاقية شطراً الى المثابرة الروسية ، وشطراً الى التفكك والتراخي الغربي . ويقيننا أن الديمقراطيات الغربية كانت قصيرة النظر وبلهاء ولكنها حين ارتكبت خطأ صياغة معاهدة فرساي ، لم يبق لديها غير الخيارات المانعة المتطرفة . اذ لا يجوز احباط التعاون السوفيتي – الألماني على المدى البعيد الا بصفقة بريطانية وفرنسية مع المانيا أو مع الاتحاد السوفيتي . غير أن ابخس ثمن لمثل هذه الصفقة مع المانيا سيكون تعديل الحدود البولندية . ويقيناً أنه الغاء الممر البولندي ، وعلى ضوء مثل هذه الخريطة ، لن تستطيع فرنسا أن تتحاشى سيادة المانيا الا بحلف راسخ مع بريطانيا العظمى ، وهو ما رفض البريطانيون النظر فيه . وبمثلى السبيل سيتبطن المضمون العملي لأيه صفقه مع الاتحاد السوفيتي على استعادة خط كورزون التي سترفضها بولندا وتنأى فرنسا عن الالتفات اليها فلم تكن الديمقراطيات مستعدة لدفع أي من هذين الثمنين ، أو حتى الاعتراف بمعضلة كيفية الدفاع عن تسوية فرساي من غير السماح لألمانيا أو الاتحاد السوفيتي بدور كبير ومهم فيها .

واستناداً الى هذه الاعتبارات ، بقيت دائماً امكانية نزوع العملاقين القاريين الى اقتسام أوروبا الشرقية بينهما بدلاً من الانخراط في تحالف موجه ضد الآخر . وهكذا سنحت الفرصة لهتلر وستالين المتحررين من عقد الماضي والمنقادين لشهوات السلطه واغراءاتها ، ان ينسفا بيت الورق الذي جمعه ساسة حقبة ما بين الحربين ذوي النية الطيبة ، والمحبين للسلام ، والرعاديد قبل كل شيء .

الفصـــل الحــادي عشــــر

سترسمان وظهــور المقهوريـــن كرةً أخرى

كتب على بريطانيا العظمى وفرنسا التحالف بوجـه ألمانيـا لكبـح النزعـات الثورية لجارتهما التي لا تقر ولا تهجع . بذا نصت جميع مباديء دبلوماسية تـوازن القوى وتم تنفيذ ذلك في أوروبا منذ أيام وليام الثالث . وها هي بريطانيـا وفرنسـا أضعف من المانيا وبوسعهما أن تأملا بصنع ميزان مقابل من خلال حلف بينهما . غير أن هذا الحلف لم يتحقق مطلقاً ، بعد أن تخلت بريطانيا العظمـى عـن هدفهـا العزوم باستتباب التوازن – ذلك الهدف الذي وسم سياستها لثلاثة قرون مضت . ولذا تبلبلت بين التطبيق السـطحي لميزان القـوى الـذي غايتـه فرنسـا ، وتكريـس نفسها المتنامي لمبدأ الأمن الجماعي الجديـد الـذي نكصـت عـن فرضـه . اتبعـت فرنسا سياســة خارجيـة يائسـة ، مراوحـة بيـن استخدام معـاهدة فرسـاي لتأخـير النهوض الألمـاني والقيـام بمحـاولات هيابـة لمصالحـة جارتهـا المشـؤومة . وهكـذا حصل أن رجل الدولة الذي كتـب عليـه أن يتـولى جـل نشـاطات تشـكيل المنظـر الدبلوماسي في عقد العشرينات – غوستاف سترسمان – قد بـرز ليـس مـن احـدى الـدول المنصورة ، بل من المانيا المدحورة . ولكن قبل أن يظهـر سـترسمان ، بذلـت فرنسا جهداً آخر لضمان أمنها بمجهودها وحدها ، وآل مصيره الى الفشل ، فمـع نهاية عام ١٩٢٢ وجدت نفسها في الرقعة الأخير من تحملها الغبن اللاحق بها بعد أن لمست برودة اجراءات التعويضـات ، وأيلولـة نـزع السـلام الى موضـوع قـابل للأخذ والرد ، مع عدم توفر أية ضمانة بريطانية ذات معنى ، في حين أن التقـارب

الألماني – السوفييتي في طور التحقق . فبعد أن تسلم (رايمون بوانكاريه) منصب رئيس الوزراء ، قرر تولي فرنسا لوحدها تطبيق بند التعويضات . فعمدت القوات الفرنسية والبلجيكية في كانون الثاني ١٩٢٣ الى احتلال الروهر وهو قلب المانيا الصناعي من دون استشارة الحلفاء الآخرين .

وعلق لويد جورج بعد سنوات :

" لو لم يحصل اجتماع رابالو لما وجدت قضية الروهر " . ولكن من الصواب أيضاً أن بريطانيا العظمى لو استعدت لتبني ضمانة أمنية لما اندفعت فرنسا لتلك الخطوة اليائسة كاحتلال قلب اقليم المانيا الصناعي . ولو كانت فرنسا أكثر استعداداً لحسم مسألة التعويضات (ونزع السلاح) ، لمالت بريطانيا العظمى بنحو أعظم الى تشكيل حلف – مهما كان معنى ذلك الحلف بباعث من استكانة الرأي العام البريطاني لهذا الشاذ الآخر .

وما يثير السخرية أن مبادرة فرنسا العسكرية المنفردة قد أفصحت ، واقعاً ، عن عجزها عن التصرف لوحدها ، اذ استولت على صناعات منطقة الروهر من أجل استغلال فولاذها وفحمها باعتبارهما بديلاً عن التعويضات التي أحجمت المانيا عن تسديدها . وهنا تبنت الحكومة الألمانية المقاومة السلبية ، ونقدت عمال الفحم والفولاذ لقاء بطالتهم . لقد منعت هذه السياسة ، التي أدقعت الحكومة الألمانية – وخلقت تضخماً مفرطاً ، فرنسا أيضاً من تحقيق مسعاها ، فحولت احتلال الروهر الى فشل فرنسي ذريع .

أحاطت العزلة الكاملة بفرنسا الآن ، وعبرت الولايات المتحدة عن استيائها بسحب جيش احتلالها من الراين بينما حملقت بريطانيا بحنق . رنت المانيا في هذه القطيعة بين الحلفاء فرصة للتقارب مع بريطانيا ، وحث زخم المقاومة القومية بوجه الاحتلال الفرنسي قادة المانيا على نبش المشروع القديم للحلف الألماني - البريطاني - وهو مثال آخر على ميل المانيا الى المبالغة في تقدير خياراتها ورفع السفير البريطاني لدى برلين (اللورد دابرنون) تقريراً يفيد باعادة سياسي قيادي الماني سعي الامبراطورية الألمانية بشأن حلف مع بريطانيا - معلناً " لقد انعكس وضع عام ١٩١٤ اليوم . فالواضح تماماً أن بريطانيا قد قاتلت المانيا للحيلولة دون تسيدها على أوروبا . ولذلك ستنطلق انكلترا في غضون سنين قلائل الى مقاتلة فرنسا على نفس الأساس . والقضية هنا هي هل ستقوم انكلترا بالقتال لوحدها أم أنها بحاجة الى حلفاء معها " .

الواقع أنه لم يوجد أي قائد بريطاني مسؤول خامرته فكرة الذهاب مع المانيا الى حد تحالف بلديهما . ولقد طالب وزير الخارجية كورزون ومسؤول الدائرة الخارجية (السير أيري كرو) - في ١١ آب ١٩٢٣ ، باعادة النظر في تصرفها في الروهر بباعث خشية من فقدان دعم بريطانيا العظمى في أية أزمة لالمانيا مستقبلاً . لم يتأثر بوانكاريه قيد شعرة لأنه لم يعتبر الدعم البريطاني شيئاً لصالح فرنسا ، بل هو عنصر لمصلحة بريطانيا القومية : " في حالة حصول حالة شبيهة بعام ١٩١٤ ، سيكون على انكلترا لخاصة مصالحها أن تتخذ نفس الاجراء الذي تبنته آنذاك " .

وتبين صواب رأي بوانكاريه حول خيار بريطانيا الأخير لو واجهت حالة مماثلة لازمة عام ١٩١٤ . بيد أنه أساء حساب مدى الوقت الذي سينسلخ قبل أن تدرك بريطانيا أنها تواجه حقاً أزمة تماثل أختها ، وفهمها أن نظام فرساي المتداعي سوف ينهار عاليه سافله : وكتبت نهاية احتلال الروهر مع رحيل عام ١٩٢٣ . لقد فشلت فرنسا في اثارة حركة انفصالية ذات شأن في الروهر ، أوفي الراين التي حرم على الجيش الألماني ببنود فرساي ، دخولها فعجز ، بذلك ، عن الولوج اليها لقمع الانفصال ، وما كاد ثمن الفحم المستخرج أثناء الاحتلال يكفي لسد نفقات ادارة الاقليم . وانشغلت المانيا ، في الوقت عينه ، بحوادث العصيان المسلحة في (سكسونيا) – من اليسار السياسي – وفي (بافاريا) – من اليمين فالتهب التضخم وهدد قدرة الحكومة الألمانية على الوفاء بأي من التزاماتها . ولذلك بات اصرار فرنسا على كامل التعويضات شيئاً مستحيل التنفيذ .

راحت فرنسا وبريطانيا تنسجان المكائد لتهزم كل واحدة الأخرى . حيث أصرت فرنسا على اضعاف المانيا بتصرفات منفردة فخسرت الدعم البريطاني ، بينما الحت بريطانيا على الصلح من دون اعتبار لتأثير ذلك على ميزان القوى ، وبذلك خسرت الأمن الفرنسي . لقد برهنت المانيا المنزوعة السلاح قوتها الجديدة باحباط التصرفات الفرنسية المنفردة – وهي نبوءة عما يخبئه المستقبل لألمانيا حالما تنعتق من قيود فرساي .

وطوال العشرينات ، بلغت الديمقراطيات نهاية مسدودة وانبرت تستنجد بعصبة الأمم بدلاً من واجهة الحقائق الجيوسياسية . لقد تفخخت حتى هيئة الأركان العامة البريطانية في هذا الشرك . ولم يكن لدى الأركان العامة في النهاية

فكرة أفضل من " تقوية " العصبة مهما عنى ذلك ، وعقد أحلاف " خاصة " في حالات معينة مثل استعار غضب المانيا .

ان تلك التوصية لهي " سمة " أكيدة تقريباً للانحدار في مهاوي الفشل ، لأن الانقسامات حفرت مجراها العميق في العصبة ، وحين يجن جنون المانيا سيسبق السيف العذل على تنظيم الأحلاف . لقد افتقرت المانيا الان كي تتبوأ موقعاً أسمى مما كانت عليه قبل الحرب ، لرجل دولة يعيد النظر ويتحلى بالصبر اللازم لمحو البنود التميزية في معاهدة فرساي . ولاح هذا القائد في عام ١٩٢٣ عندما غدا (غوستاف سترسمان) وزيراً للخارجية ومستشاراً وكان أسلوبه لتجديد قوة المانيا هو ما سمي " التنفيذ " ، التي عنت قلباً تاماً لسياسة المانيا السابقة وكفاً عن حرب العصابات الدبلوماسية التي شنها أسلافه على بنود فرساي . اعتمد " التنفيذ " على الاستفادة من الجفاء الواضح بين بريطانيا وفرنسا وانخراق الصدع بين مبادئها وبنود معاهدة فرساي . لقد أفلح سترسمان في الحصول على تسهيلات بخصوص أقسى البنود السياسية والعسكرية لفرساي من أيدي الحلفاء أنفسهم .

ولاح خياران أمام الأمة المقهورة في الحرب والخاضعة لاحتلال القوات الأجنبية شطراً . فلها أن تتحدى المنتصر على أساس أن فرض السلام مؤلم جداً : أو أن تتعاون مع المنتصر ولما تستعيد قوتها لمواجهة مقبلة . وكلتا الاستراتيجيتين تنطويان على بعض الأخطار ، فالمقاومة في أعقاب هزيمة عسكرية تستدعي اختباراً للقوة في لحظة الضعف الأدنى ، بينما يخاطر التعاون بالارتباك والفوضى لأن السياسات التي تناشد المنتصر سوف تتجه أيضاً الى تهيج الرأي العام لدى الطرف المهزوم .

وقبل أن يأتي سترسمان ، اتبعت المانيا سياسة المقاومة ، فمكنتها تكتيكات التصدي من السيطرة على أزمة الروهر . غير أن مظالم المانيا نادراً ما استكنت غداة انسحاب فرنسا من الروهر . ما يثير العجب أن عودة الالزاس – اللورين الى فرنسا لم تثرر أي تذمر أو جدل . بينما قابلت عمليه اعادة ترسيم الحدود الألمانية ومنح بولندا مساحات كبيرة من الأرض الألمانية معارضة قومية صارخة . لقد نشأت ضغوط ثقيلة تنادي برفع الأصفاد عن قوة المانيا العسكرية ، وكان ثمة اجماع تقريبي في المانيا على فظاعة مطالب الحلفاء التعويضية .

راى سترسمان أنه مهما كانت درجة النفور الشعبي عن معاهدة فرساي – والواقع حتى مقته شخصياً لها – فالحاجة قائمة الى بريطانيا وفرنسا لدرجة ما للمساعدة في الاتيان على أثقل بنودها . وكان تفاهم رابالو تكتيكاً نافعاً لاثارة أعصاب الديمقراطيات الغربية ،لكن هذا التفاهم قد له أن لا يتجلى ريثما تشعر المانيا بقدرة كافية لتحدي تسوية فرنسا علناً ، بباعث من جدب الاتحاد السوفيتي وعجزه عن معونة النهضة الاقتصادية الألمانية وانصرافه في عزلة لا تأذن له بتقديم التأييد لها حتى في معظم المحافل الدبلوماسية . وباديء ذي بدء تتحتم استعادة القوة الاقتصادية من قروض خارجية – الأمر الذي تألف فيه المانيا صعوبة في ظل أجواء المواجهة الحالية . وهكذا عكست سياسة التنفيذ السترسمانية قبل كل شيء تقييمها الحقيقي لمتطلبات النهوض السياسي والاقتصادي الألماني ، وكتب :

" أن ضعف المانيا العسكري الأساسي لنابع من جميع قيود السياسة الخارجية الألمانية وطبيعتها وأساليبها " .

وبالرغم من التصاق سياسة التنفيذ بالواقع ، فان هذه السلعة لم تستملحها المانيا فتره ما بعد الحرب (وخاصة لدى الدوائر المحافظة) أعظم مما كانت في أيام مساهمة سياسات المحافظين في اندلاع الحرب العالمية الأولى . تمكن المسؤولون الألمان ، عندما أسدل ستار الحرب الأولى ولما يتربع الجيش الألماني على ثرى الحلفاء ، على التنصل من عواقب حماقاتهم ، والقاء اللوم على أنصارهم . وتنبأ لويد جورج بهذه النتيجة في ٢٦ تشرين الأول ١٩١٨ حين أفصح أمام مجلس الحرب عن أولى مبادرات المانيا السلميـــــة :

[ذكر رئيس الوزراء أن فرنسا الصناعية قد تحطمت وأفلتت المانيا من عقالها . واستطعنا في أول وهلة أن نسلط سوطنا على ظهر المانيا قالت : " انني انسحب " . فالسؤال هو هل ينبغي علينا أن نكف عن جلدها لانها قد جلدت فرنسا] .

ومهما يكن من أمر اعتقد زملاؤه أن الانهاك أخذ من بريطانيا كل مأخذ وهي عاجزة عن مواصلة هذا السبيل . وأجاب وزير الخارجية (أوستن تشمبرلين) سائماً : " الانتقام باهظ التكاليف هذه الأيام " .

وصدق حدس لويد جورج بشأن (جمهورية فايمار) التي ضجت منذ أول أيامها بالناشطين القوميين ، بالرغم من منحها شروط سلام أسخى مما تناله القيادة العسكرية العليا . و لم يتلق قادة المانيا الديمقراطيون الجدد ضماناً لتأمين ممتلكات بلدهم تحت وطأة أقسى الظروف . وعلى أية حال ، ثمة جزايا نزيرة من الناحية السياسية لقاء التخفيف عن حدة الأضرار .

وتماماً مثلما حصل بعد جيلين حين خطط رئيس أمريكي للانفتاح على الصين ، كان الزعيم سترسمان ، ذو السمات المحافظه ، الوحيد الذي يفكر بارساء سياسة المانيا الخارجية على التعاون مع تسوية فرساي الكريهة ، مهما كان ذلك التعاون مليئاً بالتناقض .

ولد سترسمان في برلين عام ۱۸۷۸ لأب موزع جعة ، واستهل سيرته السياسية باعتناق آراء (الحزب الليبرالي القومي) المحافظ والبرجوازي المناصر لقطاع الأعمال ، ريثما غدا زعيماً له عام ۱۹۱۷ . وهام هذا الرجل الاجتماعي المرح بالأدب والتاريخ ، كما حفلت محاوراته على الدوام باشارات الى الكلاسيكيات الألمانية . ومع ذلك عكست أراؤه الباكرة حول السياسة الخارجية شيئاً من الحكمة المحافظة التقليدية ، مثل اقتناعه بان المانيا قد تفخخت في كمين الحرب الذي أعدته بريطانيا الغيور التائقة للمحافظة على سيادتها في القارة .

ومع نهاية عام ۱۹۱۷ تبنى فكرة التوسع العظيم شرقاً وغرباً ، وضم الممتلكات البريطانية والفرنسية في آسيا وأفريقيا . وأيد حرب الغواصات غير المحدودة ، وهو القرار المأساوي الذي أتى بأمريكا الى حومة الحرب . ولذلك لاحت سياسة التنفيذ الخاصة بالرجل الذي أطلق على معاهدة فرساي " أكبر عملية خداع في التاريخ " ، تحولاً غريباً في مسير الأحداث في عدسة المعتقدين بعجز السياسة الواقعية عن ايضاح فوائد الاعتدال .

لقد كان سترسمان أول زعيم الماني لما بعد الحرب - والقائد الديمقراطي البكر - واستثمر الفوائد الجيوسياسية التي منحت لألمانيا عن طريق تسوية

فرساي . وأدرك الطبيعة الهشة للعلاقة بين فرنسا وبريطانيا فوظبها في تفريج الهوة بين حليفي الحرب . واستثمر بحذق خوف بريطانيا من انهيار المانيا بوجه فرنسا والاتحاد السوفيتي ، حيث وصف محلل رسمي بريطاني المانيا الحاجز الواقي ضد انتشار البلشفية . استعان سترسمان بمناظرات توضح أن سياسة التنفيذ تخطو الى الأمام لأن الحكومة الألمانية لقيت " تأييد غالبية (الجمعية الوطنية) ، وهي ديمقراطية حقاً ، وترغب بتنفيذ معاهدة السلام بكل طاقاتها ، وتستحق الدعم الصريح من الحلفاء " . ولو توارى الدعم البريطاني " فمن المحتم أن تنحدر صوب البلشفية وتعود سيرة الملكيه ، في نهاية المطاف .

وتتبطن آراء بريطانيا العظمى لتقديم العون لألمانيا بعضاً من الشبه بالمقترحات الأمريكية المتعلقة بمساعدة روسيا في عهد يلتسين . ففي الحالتين لم يكن ثمة تنبأ بعواقب " نجاح " السياسة المتبعة ، فلو ظفرت سياسة التنفيذ لقويت المانيا أكثر وتبوأت موقعاً يهدد التوازن الأوروبي . ولو حقق برنامج المساعدة الدولية لروسيا هدفه ، في عهد ما بعد الحرب الباردة ، لاسفرت قوة روسيا المتنامية عن عواقب جيوسياسية تطول جميع الأطراف الواسعة المحيطة بالامبراطورية الروسية الغابرة .

وفي كلتا الحالتين كانت ثمة أهداف ايجابيــة بعيدة المدى لدى مريدي الصلح ، وكان من الحكمة للديمقراطيات الغربية أن تسير قدماً مع سياسة تنفيذ سترسمان . غير أنها لم توفق في " عقد الآصرة " فيما بينها . وتحتم على سياسة التنفيذ أن تقرب أجل اليوم الذي نعته الجنرال (فون سيخت) : " لا بد أن نستعيد قوتنا ، لأننا بها نسترد كل ما فقدنا " . كانت أمريكا بعيدة النظر في

تقديمها المعونة لروسيا بعد الحرب الباردة ، ولكن روسيا اذا ما نهضت اقتصادياً ، لا جرم أن يتعاظم ضغطها على البلدان المجاورة لها . ولعل هذا ثمن يستحق الدفع ، ومن الخطأ عدم الاعتراف بوجود هذا الثمن .

وسمت المراحل الأول من سياسة التنفيذ تشتت مرامي سترسمان الأخيرة ، اذ كان عليه أن يحرر المانيا من معمعة الخلاف حول التعويضات ، سواء بطريق السعي الى صلح دائمي ، أم من خلال الاطاحة بالنظام القائم - أو الابقاء على الخيارين معاً ، الأمر الأكثر رجوحاً . كان الحلفاء ، ما خلا فرنسا ، متلهفين لوضع هذه القضية وراء ظهورهم والبدء باستلام بعض التعويضات في خاتمة الأمر . أما فرنسا فأملت أن تتخلص من المصيدة التي فخخت نفسها فيها باحتلالها الروهر . تصدى سترسمان ببراعة ليقترح تحكيماً دولياً بصدد برنامج جديد للتعويضات ، آملاً في نشوء محكمة دولية تبرهن أنها أقل قساوة مما عليه فرنسا وحدها . وقبلت فرنسا في تشرين الأول ١٩٢٣ تعيين مصرفي أمريكي يدعى (تشارلس جي . داوس) " حكماً نزيهاً " ليقلص مطلب فرنسا التعويضي - أنها لآية مؤلمة للتفتت الذي نخر حلف أيام الحرب . وتم قبول توصيات لجنة داوس في نيسان ١٩٢٤ التي وضعت برنامجاً مقلصاً للمدفوعات على مدى خمس سنوات .

وسددت المانيا بموجبه في السنوات الخمس التالية مليار دولار من التعويضات ، وتلقت قروضاً بمقدار ملياري دولار جله من الولايات المتحدة ، وهكذا كانت أميركا هي التي تدفع تعويضات المانيا ، التي وظبت الفائض من القروض الأمريكية في تحديث صناعتها . بيد أن اصرار فرنسا على التعويضات

كان سعياً للابقاء على ضعف المانيا ، ولما اضطرت الى الاختيار بين المانيا الضعيفـة والمانيا القادرة على تسديد التعويضات ، رجحت الخيار الأخير ، وتحتـم عليهـا أن تقف مصفودة الأيادي حين ساعدت التعويضات على بناء قوة المانيـا الاقتصاديـة ، والعسكرية .

ولما حل عام ١٩٢٣ بات سترسمان في موقف تتيح لـه اعـلان تحقيـق شـيء من النجاح :

[ان جميع اجراءاتنا للذوات طبيعة سياسـية ودبلوماسـية تتمثـل بالتعـاون العميق مع القوتين الانكلو – سكسونيتين ، وابعاد ايطاليا عن فرنسا ، وانكفاء بلجيكا و قد اجتمعت كلها لتخلق وضعاً أمام فرنسا لن يستطيع له البلد صبراً على المدى البعيد] .

لقد حصحص الحق في تقديرات سترسمان ، فشكلت سياسة التنفيـذ مأزقـاً لفرنسا والنظام الأوروبي لا يمكن الوثوب منه ، لان أمـن فرنسـا اقتضـى مسـتوى معيناً من التمييز ضد المانيا في الحقل العسكري ، والا سوف تتسيد المانيا بباعث مما لها من امكانات هائلة بشرياً وموارداً . – ولـن تقبـل المانيـا قـط بنظـام فرسـاي ، وستتوقف سياسة التنفيذ ، اذا لم تناظر ما سواها في الدول في حق التسلح .

ووضعت سياسة التنفيذ دبلوماسيي بريطانيا في موقف حـرج أيضـاً . فـاذا أعدلـت بريطانيـا عـن منـح المانيـا مسـاواة عسـكرية لقـاء ايفاءهـا بمسـتحقات التعويضات ، لن تعود المانيا سيرة عنادهـا الأول ، ومثـل هـذه المسـاواة العسـكرية لألمانيا من شأنها أن تهدد أمن فرنسا . واذا ما اذن لبريطانيا أن تتحالف مع فرنسا

لموازنة المانيا ، فانها لراغبة عن التورط بـأحلاف فرنسـا في أوروبـا الشـرقية أو أن تأنس نفسها في حرب مع المانيا من أجل شريط أرض بولندية أو تشكيلية . وهذا ما يتضح في تصريح أوستن تشميرلين عام ١٩٢٥ معيداً صياغة تعليق بسمارك عن البلقان :

" ترغب حكومة بريطانية تماماً عن المخاطرة بمقاتل بريطاني واحد من أجل الممر البولندي " . ثم جـاءت الأحـداث لتفنـد حسـاباته مثلمـا فنـدت حسـابات بسمارك : فقد انطلقت بريطانيا الى الحرب - تماماً مثلما فعلت المانيا في هذا القرن سالفاً - ومن أجل عين القضية التي أنفت منها على الدوام .

وبرقت في ذهن تشميرلين عام ١٩٢٥ ، ودفعاً عـن العزلـه ، فكـرة حلـف محدود بين بريطانيا العظمى وفرنسا وبلجيكا يقدم ضمانة لحدود هذه الـدول فقـط ضد المانيا - وهو بالأساس حلف عسكري لمقاومة أي اعتداء الماني على الغرب . ان سياسة تنفيذ سترسمان قد قطعت شوطاً بحيث تمتع سترسمان بما يماثل حق النقـض ضد مبادرات الحلفاء . وهنا أعلن أن أي اتفاق لا يضـم المانيـا هـو اتفـــاق ضـد المانيا ، في مسعى منه للحيلولة دون اعتبار المانيا عدواً محتمـلاً . وازاء ذلـك وبعـد اقتناع ضعيف من تشميرلين بأن خـوف المانيـا مـن التطويـق هـو الـذي دفعهـا الى سياسة ميالة للاقتتال قبل الحرب ، عاد الى اتفاقية غريبة مشوشة سعى فيهـــا الى المزاوجة بين حلف تقليدي ومبدأ الأمن الجماعي الجديد . قدم الميثاق الجديد الذي وقع في (لوكارنو) بسويسرا ، ضمانة للحـدود بـين فرنسـا ، وبلجيكـا ، والمانيـا ضد العدوان واحتفظ بنفس مفهوم التحالف الأول . ومن أجل اثبات حسـن نيتـه صوب مبدأ الأمن الجماعي ، لم تفترض الصيغة أي معتد أو ضحية ولكنها وعـدت

بمقاومة أي عدوان من أي طرف في " كلا " الاتجاهين ، ولذا لم يعد " سبب الحرب " تصرفاً عدوانياً من بلد محدد بل هو خرق ((أي)) بلـد لعرف قانوني ما .

وفي نواصف العشرينات تربع سترسمان وزير المانيا المدحورة على العقد الأول في الزعامة سابقاً بريان وتشمبرلين ممثلي المنتصرين . وحظي سترسمان اعترافاً ضمنياً من بريان وتشمبرلين بضرورة تعديل معاهدة فرساي بالنسبة الى ترتيبات الشرق ، لقاء التخلي عن سياسة تعديل الحدود في الغرب . اذ قبلت المانيا حدودها ((الغربية)) مع فرنسا وبلجيكا ، ومنطقة الروهر المنزوعة السلاح الى الأبد ، وضمنت بريطانيا العظمى وايطاليا هذا الترتيب متعهدتين بتقديم المساعدة للتصـدي للهجمات عبر الحدود أو الى منطقة الراين منزوعة السلاح من أي حدب . ورفض سترسمان في الوقت عينه قبول حدود المانيا مع بولندا التي أمسك الموقعون الآخرون عن ضمانها ، فوقعت المانيا اتفاقيات تحكيم مع جيرانها في الشرق ، متعهدة بتسوية سلمية لجميع النزاعات . ومع ذلك رغبت بريطانيا العظمـى عن توسيع ضمانتها حتى الى ذلك التعهد . ووافقت المانيا ، نهاية المطاف ، على دخول عصبة الأمم وبذلك تنكبت الالتزام بحسم جميع النزاعات بالوسائل السلمية وبضمنها نظرياً الحدود غير المعترف بها في الشرق .

قوبل ميثاق لوركانو بارتياح عارم ونشوة طاغية وأعتبر اشراقة نظام عالمي جديد ومنحت جائزة نوبل للسلام لوزراء الخارجية الثلاثة - ارستيد بريان الفرنسي ، وأوستن تشمبرلين البريطاني ، وغوستاف سترسمان الألماني . ولكن

أغفل الجميع ، في خضم ذلك الابتهاج ، أن الساسة قد أزاحوا القضايا الحقيقية جانباً ، و لم تأت لوركانو لأوروبا بالسكينة فقد شخصت ميدان المعركة المقبلة .

وكان للاطمئنان الذي أنعش قلوب الديمقراطيات الغربية من اعتراف المانيا الرسمي بحدودها الغربية ، أن يميط اللثام عن مدى الارتباك والفوضى التي أحدثها خليط الآراء القديمة والجديدة في الشؤون الدولية . فذلك الاعتراف ينطوي على عجز معاهدة فرساي ، التي أنهت حرباً ظافرة ، عن فرض الامتثال لشروط المنتصرين ، واكتساب المانيا خيار التقيد بالبنود التي اختارت هي تأكيدها فقط ، وبهذا المعنى كان تجافي سترسمان عن الاعتراف بحدود المانيا الشرقية نذير سوء ، في حين أن تقاعس بريطانيا العظمى عن ضمانة معاهدات التحكيم قد صنفت العقوبات الدولية الى ضربين من الحدود في أوروبا - الحدود التي قبلتها المانيا وضمنتها القوى الأخرى والحدود التي لن تقبلها المانيا و لم تضمنها القوى الأخرى . وزاد الطين بلة شيوع ثلاثة أنواع من الالتزامات في أوروبا الأول هو الأحلاف التقليدية التي تدعمها الآلية التقليدية لمحادثات هيئات الأركان ومؤتمرات الساسة . وهذه مقصورة على الترتيبات الفرنسية مع دول أوروبا الشرقية الضعيفة - وهي الأحلاف التي رفضت بريطانيا العظمى الانخراط فيها . وسيكون على فرنسا ، اذا ما اعتدت المانيا على أوروبا الشرقية ، ان تصطفي بين خيارين أحلاهما مر : أما أن تتخلى عن بولندا في تشيكوسلوفاكيا ، أو أن تشتبك في القتال وحيدة ، وهو كابوسها المزعج منذ عام ١٨٧٠ ، ولن تقدر له عملاً . واشتمل الالتزام الثاني على الضمانات المحددة مثل ميثاق لوكارنو المعتبر بوضوح أقل الزاماً من الأحلاف الرسمية وهذا ما يفسر عدم مصادقتها على أي اعتراض في

بجلس العموم . وأخيراً هناك التزام عصبة الأمم بالأمن الجماعي الذي أفرغه ميثاق لوكارنو من محتواه . ولو كان الأمن الجماعي أهلاً بالثقة ، لما كانت هناك ضرورة للوكارنو ، واذا ما كان ميثاق لوكارنو ضرورياً ، فان عصبة الأمم بالنظر الى تعريفها - غير قادرة على ضمان أمن حتى أعضائها المؤسسين الكبار .

وعندما عجز ميثاق لوكارنو عن تشخيص أيما ضمانات و لم يشخص المفهوم العام للأمن الجماعي ، العدو المحتمل ، تعذر المسير بخطط عسكرية مسبقة . وحتى لو أمكن اتخاذ تصرف عسكري جماعي - وليس هنا من مثال عليه أثناء فترة وجود العصبة لهيأت الآلية البيروقراطية تأجيلات وارجاءات لا نهاية لها بحجة تحري الحقيقة ، وترتيبات العصبة الصلحية المختلفة .

فاقمت كل هذه القيود الدبلوماسية النادره قلق البلدان الشاعرة بالتعرض الأكثر للتهديد ، فتخلت ايطاليا عن ضمانتها لحدود الراين التي لم تعتبرها ، ما حيت ، شطراً من أمنها القومي . وتكمن مصلحة ايطاليا الرئيسية من ميثاق لوكارنو في الحصول على اعتراف بأنها " قوة عظمى " ، وعزفت بعد تحقيق هذا الهدف ، عن تجشم أية أخطار حقيقية - مثلما جسدت ذلك بجلاء حين تعرضت حدود الراين للتحدي بعد عشر سنوات . وشكل الميثاق لبريطانيا العظمى أول اتفاقية ضمنت فيها في الوقت عينه ، حليفاً سابقاً ((مع)) عدو حديث الهزيمة ولما تتظاهر بالنزاهة بينهما .

وهكذا لم يقدر لميثاق لوكارنو توفيقاً بين فرنسا والمانيا فهو بجرد مصادقة على النتيجة العسكرية الأخيرة . لقد اندحرت المانيا في الغرب ولكنها انتصرت

على روسيا في الشرق ، فجاء ميثاق لوكارنو ليؤكد عملياً النتيجتين كلتيهما ويرسي أساس هجوم المانيا الأخير على التسوية الشرقية .

لقد أضحى ميثاق لوكارنو ، الذي شد الرحال عام ١٩٢٥ ، انه منعطف نحو السلم الآبد ، وايذاناً ببداية النهاية لنظام فرساي الدولي . ومنذ تلك الساعة وما بعدها غشي التمييز بين المنتصر والمندحر أكثر - وهي حالة تنفع المنتصر لو حظي على غنائم الأمن من جرائها وللمندحر للو كيف نفسه للعيش في ظل التسوية المفروضة . ولم تحصل الحالتان فبات احباط فرنسا وشعورها بالعجز يتعاظمان بكر السنين ، واشتد الهياج القومي في المانيا . تخلى جميع حلفاء الحرب عن مسؤولياتهم - اذ قصرت أمريكا دورها على تخطيط السلام ، ونبذت بريطانيا العظمى دورها التاريخي التوازني ، وتنصلت فرنسا من مسؤولية حماية تسوية فرساي . ان سترسمان بشخصه قد أضطلع بسياسة بعيدة الأمد ، وسار ببلده بأباء الى قلب الساحة الدولية .

وتجسد الرجاء الرئيسي ، من أجل نظام عالمي جديد ينعم بالسلم ، في المسحة العاطفية للاتفاقية نفسها والأمال التي اشاعتها كما يراها شعار " روح لوكارنو " للتغلب على مواطن فشلها البنيوية . وليست الحشود الجماهيرية خالق هذا الجو الجديد ، بل هم وزراء الخارجية - تشمبرلين ، وبريان ، وسترسمان - للبلدان التي أسفرت تلك الحرب عن شكوكها وخصاماتها وزعزعت ثبات أوتاد السلام .

وعندما لم يألف ساسة الدول أساساً جيوسياسياً لنظـام فرسـاي ، اندفعـوا الى استنهاض علاقاتهم الشخصية لتكون وسيلة محافظة - وهي خطوة لم يقـم بهـا أي من أسلافهم ، فانتسب الارستقراطيون الذين صرفوا السياسة الخارجية في القرن التاسع عشر ، الى عالم فهمـت فيه الأشياء غير الملموسة بطريقة متماثلة وكان معظمهم مطمئنين فيما بينهم . وبالرغم من ذلـك لم يؤمنـوا بـأن علاقـاتهم الشخصية يمكن أن تؤثر في تقييمهم لمصالح بلدانهم الحيوية . ولم تـبرر الاتفاقيـات على أساس " الجو " الذي خلقوه . ان التنازلات لم يلجأ اليهـا قـط للابقـاء على القادة الأفراد في السلطة ، ولم يخـاطب القـادة أحدهـم الآخـر باسمه الأول لتعزيـز علاقاتهم الطيبة فيما بينهم ، ومراعاة للرأي العام لشعوبهم .

أما بعد الحرب العالميـة الأولى فقـد تغير منحـى الدبلوماسية وتعـزز اتجـاه العلاقات الشخصية وتجلى ذلك حين رحب بريان بقدوم المانيا الى العصبة مشيداً بسجايا سترسمان الشخصية ، ورد عليه الأخير بـالمعنى ذاتـه . وعلـى هـذا المنـوال حدا استمالة تشمبرلين الشخصية لفرنسا ، بسترسمان الى التعجيـل بسياسـة التنفيـذ والاعتراف بحدود المانيا الغربيـة حـين أرجـع تشـمبرلين اللـورد كـورزون (المحـب للألمان) وزيراً للخارجية سنة ١٩٢٤ .

انحـــدر أوستـــن تشمبرليـــن من أسرة شهيرة ، وهو نجل الرجل اللامع (جوزيف تشمبرلين) الذي عقد حلفـــاً مـــع المانيا في مطلع هذا القرن ، وأخ لـ (نفيل تشمبرلين) الذي أنجز فيما بعد تسوية ميونيخ . وقد استخدم صلاحيـــة واسعة في حكومات بريطانيا التحالفية ، مثل والده ، ولم يبلغ أعلى المنـاصب كمـا حصل لوالده ، والواقع أنه الزعيم الوحيد من حـزب المحـافظين في القـرن العشـرين

الذي لم يغد رئيساً للوزراء . لقد " أدى اللعبة دائماً ، وخسرها دائماً " . فيما تحدث (هارولد ماكميلان) قولاً فيه :

" بلغ حديثه البلاغة لا الأسلوب العالي ، ذكي مهيب على غير حزم أو وجل " .

وكان أبرز انجاز دبلوماسي لتشمبرلين دوره في ميثاق لوكارنو وما عرف عنه من حب لفرنسا لأنه قال مرة : " يحب فرنسا مثل امراة " . أوجس سترسمان خيفة من تباشير حلف فرنسي - انكليزي ، فهذا الخوف هو الذي دفع سترسمان الى المباشرة بالخطوات التي انتهت الى لوكارنو .

واذا ما استرجعنا شريط الأحداث ، سنرى بجلاء ضعف سياسة تقسيم الحدود الى شطرين في أوروبا ، فتشمبرلين عدها مداً حاسماً لالتزامات بريطانيا الاستراتيجية ، التي وصلت الى آخر مدى يمكن أن يؤيده الشعب البريطاني ، حدود أمن بريطانيا العظمى ، حتى بداية القرن الثامن عشر تقف عند القنال .

وطيلة القرن التاسع عشر غدت حدود أمنها عند نهايات البلدان المنخفضة ، فحاول تشمبرلين أن يمدها الى الراين ريثما تحداها الألمان عام ١٩٣٦ . وليس في فلك تفكير ساسة بريطانيا عام ١٩٢٥ ، اعطاء ضمانات لبولندا .

ولكن ما قولنا في ارستايد برایاند ؟ انه زعيم سياسي تقليدي من رجال الجمهورية الثالثة ، واستهل حياته ناشطاً في يساريا ، فأصبح عضواً دائمياً في مجلس

الوزراء الفرنسي - ورئيس وزراء أحياناً ووزير خارجية (وبقي في أربع عشرة حكومة) . لقد لاحظ مبكراً انحطاط مكانة فرنسا النسبية بالمقارنة مع مكانة المانيا وخلص أن الصلح مع المانيا يمثل خير رجاء لأمن طويل الأمد ، فتطلع الى التخفيف عن كاهل المانيا برفع أثقل بنود فرساي عنها .

ما كان لسياسة بريان أن تشيع في بلده هشمته الجيوش الألمانية ، وليس من السهل تحديد أن سياسته محاولة لانهاء عداوة عمرها قرن أو أنها كشفت عن سياسة واقعية تنم عن الاستياء . فأبان الأزمات استحب الفرنسيون وجود بوانكاريه القاسي المتشدد الذي أصر على فرض ينود فرساي ، وحين غدت الأزمات لا تطاق - كما حصل بعيد احتلال الروهر - ظهر بريان مرة أخرى . وعلة هذا التبدل المستمر هو فقدان فرنسا القدرة على اتباع سياسات أي من هاتين الشخصيتين المتناقضتين الى نهايتها المنطقية : اذ لم تعد فرنسا قوية بما فيه الكفاية لفرض سياسة بوانكاريه ، وان الرأي العام الفرنسي لم يأذن لبريان باعطاء شيء كثير لألمانيا لتحقيق المصالحة الدائمة .

ومهما كانت دوافع بريان النهائية فقد أدرك أن فرنسا اذا لم تلجأ للصلح ستضطر اليه عنوة بسبب ضغط انكلو - سكسوني وبباعث من تنامي قوة المانيا . لقد آمن سترسمان ، برغم معارضته الصلبة لمعاهدة فرساي ، أن رأب الأصداع مع فرنسا سوف يعجل في اعادة النظر ببنود نزع السلاح ويرسي أساساً لاعادة النظر في حدود المانيا الشرقية .

لذلك التقى بريان وسترسمان في ٢٧ أيلول ١٩٢٦ في قرية (تويري) الخلابة في جبال (جورا) الفرنسية بالقرب من جنيف . لقد قبلت المانيا في عصبة الأمم ولقيت ترحيباً شخصياً بليغاً وحاراً من لدن بريان . وفي هذا الجو الموحي بالاندفاع والسرعة ، أبرم هذان السياسيان اتفاقية شاملة تهدف الى انهاء الحرب مرة والى الأبد . وبموجبها ستستعيد فرنسا السار من دون الالتفات لطلب معاهدة فرساي باجراء استفتاء عام ، وستخلي القوات الفرنسية الراين خلال سنة ، وستسحب (لجنة السيطرة العسكرية الحليفة) من المانيا . وعلى المانيا لقاء ذلك أن تدفع ٣٠٠ مليون مارك عن مناجم السار ، وأن تعجل بدفع التعويضات الى فرنسا ، وتطبق خطة داوس . وهنا يتجلى أن بريان كان يسعى على الصعيد العملي الى مبادلة بنود فرساي المرهقة بالمساعدة على نهوض فرنسا اقتصادياً ، فأفصحت هذه الاتفاقية عن الوضع التساومي غير المتكافيء للطرفين لأن مكاسب المانيا سرمدية غير مسترجعة ، بينما كانت مغانم فرنسا مساهمات مالية لمرة واحدة وانتقالية .

استحالت الاتفاقية الى هشيم يذكي نار المشاكل في كلتا العاصمتين ، فتنكب القوميون الألمان سبيل المعارضة العنيفة لكل أشكال الامتثال لمعاهدة فرساي ، مهما كانت الثمار الطيبة للشروط الخاصة ، في حين اتهم بريان بتجريد البلد من المنطقة العازلة في الراين . ونشأ مزيد من المصاعب بشأن الفقرة الملزمة بتمويل انفاقات المانيا الاضافية ، ولذلك قطع بريان المحادثات فجأة في ١١ تشرين الثاني معلناً : " لقد حالت عوائق فنية دون التطبيق الفوري لفكرة تويري " .

تلك هي آخر محاولة من أجل تسوية شاملة بين فرنسا والمانيا في فترة ما بين الحربين . وما كان واضحاً انها كانت ستثير كل ذلك الخلاف العميق لو أنها قد نفذت . أن المسألة الأساسية التي أثارتها دبلوماسية لوكارنو ما زالت كما هي - هل أن الصلح سوف يحدو بالمانيا الى قبول نظام فرساي الدولي أم سيعزز قدرتها على تهديده ؟

لقد باتت هذه المسألة بعد ميثاق لوكارنو تثير الجدل شيئاً فشيئاً ، واقتنعت بريطانيا العظمى أن الصلح هو المشوار العملي الوحيد . بينما آمنت أمريكا بأنه ضرورة اخلاقية أيضاً . ان التحليلات الاستراتيجية أو الجيوسياسية اذا ما فاتها قطار الزمن ، ستطلق الأمم السنتها الطويلة بالحديث عن العدالة حتى ان تباينت بشده حول تعريفها . ولذلك تراكم فيض من المعاهدات المؤكدة للمباديء العامة والنداءات الموجهة لعصبة الأمم - وهي نابعة شطراً من قناعة راسخة ، شطراً عن الانهاك الذي أضنى تلك الأمم ، وشطراً أيضاً من الرغبة باغماض الطرف عن الحقائق الجيوسياسية الأليمة .

وهكذا شهدت حقبة ما بعد لوكارنو تراجع فرنسا التدريجي عن تسوية فرساي - أي عن أبرز انجازاتها - مبقورة بالضغوط البريطانية (والأمريكية) للمضي أكثر في هذا السبيل . ولذلك تدفقت رؤوس الأموال (ومعظمها من أمريكا) الى المانيا بعد لوكارنو ، فعجلت بتحديث الصناعة الألمانية . وفي عام ١٩٢٧ انحلت لجنة السيطرة العسكرية الحليفة التي أنشئت للاشراف على نزع السلاح الألماني ، وأنيطت واجباتها بعصبة الأمم المجردة من وسائل التحقق لامتثال المانيا بنود نزع السلاح .

وفي ضوء هذه المستجدات عززت المانيا اعادة تسلحها السري . فمنذ عام ١٩٢٠ شدد (والتر راتيناو) وزير الصناعة ، ازر الجيش الألماني بقوله أن بنود فرساي المتعلقة بالكشف عن تسلح المانيا الثقيل تنطبق أساساً على الأسلحة التي ستكون في كل الأحوال باطلة الاستعمال ، وليس ثمة ما يحول دون اجراء البحوث على الأسلحة الحديثة أو تهيئة القاعدة الصناعية لبنائها بسرعة . وانبرى المشير (فون هندنبرغ) - قائد الجيش الألماني لآخر ثلاث سنوات من الحرب ، ورئيساً أخيراً لألمانيا ، قائلاً أثناء حضوره مناورات برية عام ١٩٢٦ ، وعقيب المصادقة على ميثاق لوكارنو :

" أنست اليوم بعيني أن المستوى الحقيقي لمهارة ومعنويات الجيش الألماني لم يتغير قيد أنملة " . وان صح القول فالخطر سيحيق بأمن فرنسا حال رفع القيود على حجم الجيش الألماني .

ولاحت قضية نزع السلاح بكل أبعادها بعد أن تصدرت واجهة الدبلوماسية الدولية . فراحت المانيا ، غداه مطالبتها بالمساواة السياسية ، تعد بدقة الاطار المعنوي للاصرار على المساواة العسكرية المقبلة . رفضت فرنسا نزع سلاحها ما لم تنل ضمانات أمنية اضافية ، بينما أحجمت بريطانيا وهي البلد الوحيد القادر على وهبها هذه الضمانات ، عن ضمان التسوية الشرقية وعزفت عن الذهاب لابعد من ميثاق لوكارنو بخصوص التسوية الشرقية ، وبذلك عززت حقيقة أن ميثاق لوكارنو كان التزاماً يداني الحلف .

وهنا ارتأت فرنسا ، بسعي لتفادي تساويها مع المانيا أو تجنب الأمر ، أن تمارس لعبة خلق توازن لتقليص الأسلحة كما يرتأيه خبراء نوع السلاح في العصبة . وقدمت تقريراً تحليلياً الى (اللجنة التحضيرية للعصبة) يعزو القوة الحقيقية الى القوة الكامنة ، والاحتياطي المدرب الى الاتجاهات الديموغرافية ، والأسلحة الموجودة الى معدل التطور التكنولوجي . ولكن لم تصب أي من هذه النظريات الموضوعية بدقة كبد القضية الرئيسية ان امن فرنسا معرض للخطر بسبب المستويات المتكافئة للتسلح وامكانيات المانيا التعبوية الأعلى . لقد مضت فرنسا كدأبها في قبول معطيات اللجنة التحضيرية ، بتسليط ضغوط أقوى على نفسها . وأقدمت ، نهاية المطاف على عمل كل المناورات المختلفة فرسخت اعتقاد الدولتين الانكلو-سكسونيتين أن فرنسا هي العائق الحقيقي أمام نزع السلاح وبالتالي في طريق السلم .

ويكمن الشطر الأقسى لورطة فرنسا أنها بعد لوكارنو لم تعد بوضع ، غداة لوكارنو يقر لها قريرةً فتحتم عليها أن تلجأ للتسوية كي تهدىء مخاوفها . وهكذا توشحت سياسة فرنسا ثوب رد الفعل والموقف الدفاعي . واكدت هذا الأمر عندما شرعت بتشديد (خط ماجينو) خلال سنتين بعد لوكارنو - في وقت ما برحت به المانيا منزوعة السلاح واعتمد استقلال دول أوروبا الشرقية الجديدة على قدرة فرنسا على الهروع لنجدتها . واذا ما شنت المانيا عدواناً فلن ينقذ أوروبا الشرقية غير احتذاء فرنسا استراتيجية هجومية قائمة على استخدامها منطقة الراين ملاذاً ، بيد أن خط ماجينو المح الى نية فرنسا باتخاذ وضع الدفاع في

حدودها وبذلك ستعتق يد المانيا في تنفيذ ارادتها في الشرق . ولم تعد استراتيجيات فرنسا السياسية والعسكرية تواكب هذه المستجدات .

ودائماً ما تعتري القادة الخائفين نزعة نحو الاستعاضة عن المهارة في العلاقات العامة ، بشيء من لفت النظر . وحين شعر بريان برغبة الخروج بمظهر من اتى أمراً ، استغل مناسبة الذكرى العاشرة لدخول أمريكا الحرب (حزيران ١٩٢٧) ليقدم مسودة معاهدة الى واشنطن تتحاشى بموجبها الدولتان الحرب في علاقاتهما فيما بينهما وتؤيدان حسم جميع النزاعات بوسائل سلمية . فغم على وزير الخارجية الأمريكي (فرانك بي . كيلوغ) أن يعرف كيفية الرد بدقة على وثيقة نبذت ما لم يخشه أحد ، وعرضت ما عده الجميع أمراً مسلماً به . الى أن اقتربت السنة الانتخابية (١٩٢٨) لتساعد على ايضاح المسألة أمامه ، ان " السلام " مطلب شعبي ، وان فائدة مسودة بريان هي عدم اشتمالها على الهواية نتيجة عملية .

ومع استهلاله عام ١٩٢٨ خرج كيلوغ عن صمته وقبل مسودة المعاهدة . لقد بز بريان بخطوة أبعد مقترحاً أن يشتمل نبذ الحرب على أكبر عدد ممكن من الأمم الأخرى ، وتم في ٢٧ آب ١٩٢٨ توقيع ميثاق باريس ، أشتهر بين أوساط الشعب بميثاق كيلوغ - بريان ، الذي تخلى عن اعتبار الحرب أداة للسياسة القومية ، وجرى التوقيع وسط تزمير وتطبيل خمسين دولة . لقد وقعت على هذا الميثاق وبسرعة جميع بلدان العالم بضمنها المانيا ، واليابان ، وايطاليا اللائي ستفجر أعمالها العدائية فاجعة القرن التالي .

وما كاد يجف مداد توقيع الميثاق حتى بدأت أفكار ثانية تجول في أذهان ساسة العالم ، اذ حورت فرنسا مقترحها الأصلي بادخال بند يجيز قانوناً حروب الدفاع عن النفس وحروب الوفاء بالالتزامات الناشئة عن ميثاق العصبة ، وضمانات لوكارنو وجميع أحلاف فرنسا ، فأرجع هذا الأمر جميع الأمور الى نقطة الشروع ، ذلك أن الاستثناءات تضم بين جنبيها أيما حالة عملية معقولة . وأصرت بريطانيا العظمى غداتها على حرية التصرف لحماية امبراطوريتها . بينما كانت النزعة المحافظة الأميركية هي الأقوى ، فأحيت مبدأ مونرو ، واستشهدت بحق الدفاع عن النفس ، واشترطت أن يكون كل بلد هو الحكم على نفسه حول متطلبات الدفاع عن النفس . وهكذا ضربت أميركا صفحاً عن المشاركة في أي نشاط تستخدم فيه القوة لفرض الميثاق عندما تذرعت بأي مهرب يتيح لها التملص من ذلك الميثاق ، وطلع كيلوغ في معرض شهادته أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ ، بنظرية استثنائية لا تلتزم الولايات المتحدة بموجب الميثاق ، بمساعدة ضحايا العدوان ، ما دام هذا العدوان قد شكل أصلاً انتهاكاً للميثاق . ولما طفق السناتور (والسن) من (مونتانا) يسأله : " هب أن بلداً آخراً خرق هذا الميثاق ، فلم علينا أن نبالي بذلك ؟ " أجابه وزير الخارجية : " لا يوجد أتفه سبب لذلك " .

لقد أحال كيلوغ المعاهدة الى كلام مجتر يقول أن ميثاق باريس يحفظ السلم ما دام السلم مستتباً ، والحرب محظورة في جميع الأحوال ، ما خلا المنظورة . فلا جناح أن يضطر (بروغان) الى التفوه بهذا الكلام عن ميثاق كيلوغ – بريان :

" ان الولايات المتحدة التي أتت على شرور الخمور بفضل التعديل الثامن عشر ، قد دعت العالم الى نبذ الحرب بتقديم التعهد بذلك . فانصاع الكون لها ، على التصديق أو التشكيك " .

وكانت فكرة بريان الأصلية قد استحالت بيد حلفائه السابقين وسيلة جديدة لتسليط الضغوط على فرنسا ، فجرى الجدل الصاخب أن تسارع فرنسا وبعد تحريم الحرب ، بنزع سلاحها . ولجأ الحلفاء الى تجسيد عهد حسن النوايا بانسحابهم من الراين عام ١٩٢٨ أي قبل خمسة أعوام مما منصوص عليه في البرنامج المبرم .

وفي الوقت عينه أعلم أوستن تشمبرلين الجميع أن بريطانيا العظمى ترى تعديلاً للحدود البولندية مع المانيا اذا ما كان تهذب الألمان ...... :

[لو قدمت (المانيا) الى رحاب العصبة وادت فيها بروح ودية مسالمة فانني بنفسي أؤمن بأنها في غضون سنوات ستلقى لنفسها وضع يكون دعمها الاقتصادي والتجاري ضرورياً للغاية وكذلك صداقتها السياسية الأثيرة لبولندا بحيث تقدر على تحقيق ترتيبات أخوية مع البولنديين مباشرة ، دون الرجوع الى آلية عصبة الأمم ... ولو كف الشعب والصحافة الألمانية عن الحديث الطويل حول الحدود الشرقية لغدا بوسعهم الوصول الى حل أسرع] .

واستثمر سترسمان دخول المانيا الى العصبة بحذق ليزيد خياراته تجاه الاتحاد السوفيتي وليكشف ضغط المانيا على فرنسا من أجل المساواة في التسلح . وطلب استثناء المانيا من المشاركة فرض بنود ميثاق العصبة (المادة ١٦) على أساس أن

المانيا منزوعة السلاح لم تعد في وضع يأذن لها بتحمل مخاطر فرض العقوبات وأوتي سؤاله . وبعد ذلك حذا سترسمان حذو بسمارك فأبلغ موسكو بأن طلبه ذلك الاستثناء مرده نفور المانيا من الانضمام في أي حلف مناوىء للسوفيت .

التقطت موسكو الاشارة ، وابرمت ، في نيسان عام ١٩٢٦ وفي برلين ، معاهدة حياد بين الاتحاد السوفيتي والمانيا . اتفق كلا الطرفين على التزام الحياد لو تعرض أي منهما الى هجوم ، وعلى عدم الانضمام لأي تكتل سياسي أو مقاطعة اقتصادية موجهة الى أحدهما ، بغض النظر عن طبيعة القضية احتمالاً . معنى هذا عملياً اعفاء البلدين نفسيهما من تطبيق الأمن الجماعي ، وكانت المانيا قد استثنت نفسها أصلاً من معاقبة أي طرف آخر . وتوحدت برلين وموسكو في عدائهما لبولندا كما أنبأ المستشار الألماني (ويرث) سفيره لدى موسكو (أولريخ فون بروكدروف - رانتزاو) :

" شيء وحيد أسرك به : لا بد من محو بولندا ... فلن أوقع على أية معاهدة من شأنها أن تمهد لبولندا أسباب القوة " .

وبالرغم من ذلك خلص قادة فرنسا وبريان خاصة أن سياسة التنفيذ خيار فرنسا الواقعي الوحيد ، فلو تحققت أسوء مخاوف فرنسا وأستأنفت المانيا سياسة نزاعة للحرب ، سيتهدد بالخطر أمل نيل الدعم البريطاني الأخير وحسن نية الولايات المتحدة ، لو اتهمت فرنسا على تحطيم مساعي الصلح .

تحول مركز ثقل أوروبا تدريجياً الى برلين . وما يثير الدهشة أن مكانة سترسمان الداخلية قد أخذت بالتصدع طيلة هذا الوقت ، ويمكننا الجثو على الموقف

القومي السائد من خلال رد الفعل تجاه (خطة يونغ) التي اقترحها الحلفاء حين انتهت سنوات خطة داوس الخمس التي بدأت عام ١٩٢٩ . قلصت خطة يونغ التعويضات الالمانية أكثر وضربت موعداً نهائياً بعيداً . واذا كانت خطة داوس لعام ١٩٢٤ قد تم تبنيها بتأييد المحافظين الألمان ، فان خطة يونغ لعام ١٩٢٩ التي أتت بشروط أفضل بكثير من سابقتها ، قد تعرضت لهجوم عنيف من المحافظين الألمان الذي دعمهم الحزب النازي الصاخب والشيوعيون ، ونالت مصادقة الرايشستاغ بعشرين صوتاً فقط .

وعززت روح لوكارنو المزعومة انعاش تطلعات الخصوم السابقين لالمانيا في الحرب نحو حسن النية لسنوات قلائل . غير أن كلمة " روح " قد استحالت في المانيا مرادفاً لكلمة " شبح " ، وبات من المعتاد مع نهاية العشرينات اطلاق النكات حول " شبح " لوكارنو . لقد نشأ هذا الموقف الساخر تجاه محور نظام فرساي الدولي حتى في أيام ازدهار المانيا الاقتصادي الذهبي ، وقبيل حلول محنة الكساد الذي جعل السياسة الالمانية تطرق منحى استعصى على الاصلاح .

وفي ٣ تشرين الأول ١٩٢٩ توفي سترسمان وبرهن أنه قائد لا يستغنى لفقر المانيا لقائد آخر ذي موهبة أو براعة تشبه ما لدى سترسمان الذي أعاد اعتبار المانيا وتهدئة أوروبا بفضل كبير الى الثقة التي طرحتها القوى الغربية بشخصه . وعلى مدى طويل خيم الاعتقاد أن سترسمان يجسد بجميع خصال " الأوروبي الطيب " . فعومل باعتباره سلفاً لـ (كونراد اديناور) العظيم الذي اعترف بتقاسم فرنسا والمانيا مصير مشترك واحد فوق اخدود الخصومات التاريخية بينهما .

ولكن عندما نقبت أوراق سترسمان ، لاحت شديدة التناقض مع التقييم اللطيف له لانها أفصحت عن شخصية محص للسياسة الواقعية وسار وراء مصلحة المانيا القومية التقليدية بعزم لايلين · وكانت بعض المصالح نصب أعين سترسمان مباشرة ، وهي : عودة المانيا سيرة ما قبل عام ١٩١٤ ، وتحطيم القيود المالية للتعويضات ، والحصول على المساواة العسكرية مع فرنسا وبريطانيا العظمى ، وتعديل حدود المانيا الشرقية ، والاتحاد مع النمسا (الانشلوس) ·

وبرز (ادغار ستزن - روبارت) وهو مساعده ليصف أهداف رئيسه كما يلي :

[ان أمل سترسمان النهائي كما أسرى به هو : تحرير الراين ، واستعادة (ايوبن - ما لمدي) والسار ، واتمام الاتحاد مع النمسا (الانشلوس) ، مع الحيازة عن طريق الانتداب أو بسبيل آخر ، على مستعمرة في افريقيا يمكن أن نؤمن منها مواداً أولية من المنطقة المدارية ، وايجاد منفذ لطاقة الجيل الأصغر] ·

ولذا يتضح أن سترسمان ليس " اوروبيا طيباً " بلغة مصطلحات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وهو معيار لم يكن موجوداً آنذاك على أية حال ، فقد قاسم معظم ساسة أوروبا سترسمان رأيه بحاجة تسوية فرساي الى تعديل ، لا سيما في الشرق ، وان لوركانو ليست سوى مرحلة في هذه العملية · ولا ريب أن الأمر لا يطاق بالنسبة لفرنسا في التعامل مع المانيا المنبعثة من جديد بعد حرب كلفت فرنسا كل ما تذخر ·

ومع ذلك كان هذا انعكاساً دقيقاً للتوزيع الجديد للقـوة . ادرك سـترسمان أن المانيا ، حتى في ظل قيود فرساي هي الأقوى في اوروبا بامكانياتهـا . واستقى من هذا التقييم خلاصة السياسة الواقعية القائلـه بوجـود فرصـة أمامـه لاعـادة بنـاء المانيا ، الى مستوى ما قبل عام ١٩١٤ ، في أقل تقدير أو أدنى منه .

وعلى أية حال تحلى سترسمان ، بخلاف منتقديه الوطنيين - النازيين تمامـاً ، بالصبر ، والحلول الوسطى ، وبركة اجماع اوروبا لتحقيق لمرامـي . وتمتـع بذكـاء أتاح له المبادله بتنازلات علـى الـورق - لا سيما في قضيـة التعويضـات الحساسـة المهمة - لقاء انهاء الاحتلال الاجنبي لبلاده ، وبزوغ أفق تغييرات بعيـدة الأمـن لا تفشل في وضع بلده في مكانة حيوية محورية . وقد شذ عن القوميين الالمـان حين لم ير باعثاً لتعديل فرساي بالعنف .

ان فرصـة سـترسمان في اتبـاع هـذه السياسـة متجـذرة في مصـادر المانيـا وامكانياتها . فلم تشل الحرب قوة المانيا ، وعملت فرساي علـى تحسين وضعهـا الجيو سياسي . وليس بوسع الحرب العالمية الثانية الأكثر تدميراً أن تلغي تأثير المانيا في أوروبا . وعوضاً عن اعتبار سترسمان نذيراً بالهجوم النازي على القيم الغربيـة ، فمن الأكثر دقة اعتبار تمادي النازيين قطعاً لمشوار سترسمان التدريجي السـلمي نحـو بلوغ دور حاسم لبلده في أوروبا .

ومع دوران عجلة الزمن ، استحال تكتيك سترسمان اسـتراتيجية تصلـح أن تكون معتقداً راسخاً . ويقيناً أننـا نـرى في وقتنـا هـذا الدافـــع الأصلي لخطـوة الرئيس (أنور السادات) في التقارب مع اسرائيل هو تحسين صـورة العـرب دعـاة

الحرب في عيون الغرب ولوضع اسرائيل في موقف نفسي دفاعي ، فالسـادات مثـل سترسمان ، حاول أن يدق أسفيناً بين خصمه وأصدقاء خصمه .

لقد ترجى ، بعد أن نفـذ مطـالب اسـرائيل المعقولـة ، أن يضعـف رفضهـا لاعادة الأرض العربية لا سيما المصرية ، ولكن مع سريان عجلة الزمن تحـول فعليـاً الى رسول سلام ومعالجاً لانشقاقات الدوليه ، التي قد تكون في البدء . وفي الموعد المحدد لم يعد السلام والصلح أدوات بيد السادات لتحقيـق المصـالح القوميـة وتحلـى بقيم خاصة . أفكان سترسمان يحث خطاه بطريق مماثل ؟ خلفنا رحيله المبكـر أمـام هذه الاحتمالية لتشكل أحدى أحاجي التاريخ المستعصية .

كانت قضية التعويضات أبان وفـاة سـترسمان في طريقهـا للحـل ، وفضـت مسألة حدود المانيا الغربية . بقيت المانيا منادية بتعديل حدودها الشرقية وبنود نزع سلاح فرساي ، وأخفقت جهود الضغـط علـى المانيـا بـاحتلال أرضهـا ، بينمـا لم يفض مفهوم الأمن الجمـاعي المعـدل في لوكـارنو الى تهدئـة مطالبهـا بالمسـاواة . وهكذا آب سائر ساسة أوروبا اليوم الى الالتزام التام بـنزع السـلاح ليكـون خـيرة آمالهم في السلام .

وعلاوة على ذلك ترسخ في ذهـن بريطانيـا أهليـــة المانيـا للمسـاواة مـع أقرانها . وأعلن (رامزي ماكدونالد) في مستهل حكمه لزعامة حـزب العمـل في ١٩٢٤ ، أن نزع السلاح أول أولوياته ، فأوقف في فترة حكمه الثانية البادئـة عـام ١٩٢٩ بناء قاعدة بحرية في سنغافورة وألغى بناء طرادات وغواصات جديدة حتـى عـام ١٩٣٢ لتعلـن حكومتـه أرجـاء تشـيد الطـائرات . ثـم صـرح مستشــــار

ماكدونالد بهذا الاختصاص (فيليب نويل - باكر) ان نزع السلاح وحده هو الكفيل بتحاشي نشوب حرب جديدة .

أما التضارب الأساسي بين منح المانيا المساواة وحاجة فرنسا للأمن فبقي من دون حل على أية حال ربما لأنه عصي على ذلك . ففي عام ١٩٣٢ أي قبل سنة من وصول هتلر الى السلطة تنبأ رئيس وزراء فرنسا (ادوارد هريو) : " لست بواهم ، انني لمقتنع برغبة المانيا باعادة تسلحها ..... اننا لعلى عتبة نقطة انعطاف في التاريخ . فقد مارست المانيا سياسة الطاعة حتى الآن وهي اليوم تشرع بسياسة عملية . ولكنها غدا سوف تطالب بالتوسع الاقليمي " . ان أبرز ما في هذا التصريح لهو لهجته السلبية التهربية . فهريو لم ينبس ببنت شفة عن الجيش الفرنسي الذي ما برح أكبر جيوش أوروبا ، ولا عن الراين المنزوعة السلاح بموجب اتفاقية لوكارنو ، ولا كذلك عن المانيا التي ما فتئت منزوعة السلاح ، ولا حتى عن مسؤولية أمن أوروبا الشرقية . لقد أخذت فرنسا هذه الأيام تنتظر مصيرها بعد تقاعسها عن امتشاق الحسام دفاعاً عن معتقداتها .

وأنست بريطانيا الأمور من زاوية مختلفة تماماً . ورغبت في مصالحة المانيا ، بالضغط على فرنسا لقبول مساواة المانيا التسلحية . كان خبراء نزع السلاح حذقة لحد بعيد في ايجاد البرنامج الذي يلبي الحاجات الأمنية الاعتيادية من دون الاهتمام بالمعدات . وهكذا أعد الخبراء البريطانيون مقترحاً بمنح المانيا المساواة من دون السماح لها بفرض التجنيد الالزامي ، مما يجعلها من الناحية النظرية تتفوق على موجود فرنسا الأكبر من الاحتياطي المدرب (ان المانيا اذا ما نالت هذا المبتغى ، ليس عسيراً عليها أن تتملص من القيد الأخير الهامشي) .

وفي نفس السنة القدرية التي تربع فيها هتلر على مركز القيادة آنست حكومة المانيا الديمقراطية في نفسها الثقة الكافية للانسحاب من مؤتمر نزع السلاح احتجاجاً على ما دعته بالتمييز الفرنسي . ورد احتجاجها بتقديم الوعود لها بـ " المساواة في الحقوق في ظل نظام يوفر الأمن للجميع " . وهي عبارة مراوغة تنطوي على الحق النظري بالمساواة في بنود " الأمن " التي تعسر تحقيقها لحد بعيد . ومضى الشعور الرسمي أبعد من هذه الأقوال الناعمة ، اذ حيا ": السياسي الجديد " وهو عضو في حزب العمل البريطاني هذه الصيغة بقوله : " انها الاعتراف الذي لا يعرف تمييزاً بمبدأ المساواة بين الدول " . وفي الطرف الآخر من الطيف السياسي البريطاني ، مضت صحيفة " التايمز " تمجد " التخلص في الوقت المناسب من انعدام المساواة " .

لقد كانت صيغة " المساواة في ظل نظام أمن " متناقضة على أية حال . اذ لم تعد فرنسا قوية بما يكفي للذود عن حياضها بوجه المانيا ، وواصلت بريطانيا العظمى صدوفها عن حلف عسكري مع فرنسا يمكن أن يحقق مساواة جيوسياسية تقريبية صريحة (وان كان هذا الأمر فيه نظر استناداً الى تجربة الحرب الأخيرة) . وحين أصرت بريطانيا على تعريف المساواة بمصطلحات شكلية مجردة تدعو لانهاء المعاملة التمييزية لالمانيا . فقد التزمت الصمت بشأن تأثير تلك المساواة على التوازن الأوروبي . وفي عام ١٩٣٢ أبلغ رئيس وزرائها الحانق ماكدونالد ، وزير خارجية فرنسا (بول - بونكور) : " دائماً ما خلقت مطالب فرنسا صعوبة بحيث يتطلب الأمر احتياجها الى بريطانيا العظمى للاضطلاع بالتزامات أخرى ،

وهذا ما لا يجوز التفكير فيه في هذا الوقت " . واستمر هـذا المـأزق المقنـط الى أن انسحب هتلر من مفاوضات نزع السلاح في تشرين الأول ١٩٣٣ .

وفي خضم عقد عج بالمنـاورات الدبلوماسية في طـول أوروبـا وعرضهـا ، برزت اليابان – على حين غرة – لتثبت خواء مفهوم الأمن الجماعي وعصبة الأمم نفسها . لتسمو الصفة الجوفـاء للامـن الجمـاعي منـذرة بقـرب حلـول عقـد مـن سورات العنف الصاخبة في الثلاثينات .

فقد غزت اليابان في سنة ١٩٣١ (منشوريا) الـتي هـي جـزء مـن الصـين قانوناً ، ولو أن سلطة حكومة الصين المركزية لم تمـارس فيهـا سـنين طويلـة . و لم يسبق أن حصل تدخل بهذا الحجم منذ انشـاء العصبـة . غـير أن العصبـة افتقـرت لآلية تنفيذ حتى العقوبـات الاقتصاديـة المنصـوص عليهـا في المـادة ١٦ . وهكـذا جسدت العصبة المترددة الهيابة الورطة الرئيسية للأمـن الجمـاعي . فليـس ثمة بلـد مستعد لخوض غمار حرب ضد اليابان (أو في وضع يمكنه ذلك من دون المشاركة الأمريكية ، ما دامت البحرية اليابانية تسـيطر علـى الميـاه الآسيوية) . وحتـى لـو وجدت آليه فرض العقوبات الاقتصادية ، فما من بلد يرغب بايقـاف التجـارة مـع اليابان في لجة الكساد الاقتصادي ، على أنه من الناحيـة الأخـرى لم يكـن أي بلـد يقبل باحتلال منشوريا . ولذلك لم يعرف أي من أعضاء العصبـة السـبيل للتغلـب على هذه التناقضات التي أتوا بها الى عصبتهـم . وفي آخـر الأمـر ، ابتكـرت آليـة لعدم فعل أي شيء اطلاقاً . وقد خلع عليها طيلسان " لجنـة تقصـي الحقـائق " – وهو لاجراء التقليدي الذي يشير الدبلوماسيون بموجبه الى أن " عـدم الفعـل " هـو النتيجة المرغوبة ، ذلك ان هـذه اللجـان تستغرق زمنـاً لتجمـع أعضائهـا ، وآخـر

لاجراء دراساتها ، وبعد ذلك تخرج برأي جماعي وعند هذه المرحلة لحسن الحظ ربما تكون المشكلة قد انتهت وتلاشت . وكانت اليابان قد شعرت بعظيم الثقة بوجود هــــذا الأسلوب المتراخي ولذلك تبنت الدور الريادي في اجراء هذه الدراسة . اذ أوردت ما سميت بلجنة (لايتون) أن اليابان كانت من المظالم التي تبرر فعلها غير أنها أخطأت في عدم استنفاد جميع الوسائل السلمية أولاً لحل المشكلة . وبمجرد هذا اللوم الرقيق لليابان على احتلالها أرض أكبر من اليابان نفسها عنى لها أمراً جللا ، فردت بالانسحاب من عصبة الأمم . فهذا أول ايذان بانحلال المؤسسه وتفتتها برمتها .

أما في أوروبا فعومل الحدث بأسره على أنه خلاف خاص بقارات نائية . واستمرت محادثات نزع السلاح كالمعتاد كأنه لم تكن ثمة أزمة في منشوريا ، وتحول الجدل من الأمن مقابل المساواة الى تصرف مغرق في المراسمية . فاذا بهتلر يقفز الى المسرح الأوروبي في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ ليبرهن حقيقة كون نظام فرساي بيتاً من الورق حقاً .

الفصـــل الثاني عشــر

تبدد الأوهـــام : هتلـــر وتحطيـــم فرســـاي

جسد ارتقاء هتلر عرش الحكم عنواناً لا هـول كـوارث التـاريخ البشـري وأشدها وطأة . ومثل الأمر ، له ، انهيار بيت الـورق الـذي صـور نظـام فرسـاي الدولي ، الذي كـان سيحصل بطريقـة سـلمية لاكارثيـة في أقـل تقدير . فالمانيـا ستخرج من تلـك العمليـة وهـي أقـوى دول أوروبـا قاطبـة ، وأن هـــوس القتـل والتدمير الذي أفلتته من عقاله هو نتاج شخصية تلبسها الشيطان .

وبزغ نجم هتلر مباعث من بلاغته الخطابية الساحرة وباين غيره من الزعماء الثوريين بمغامرته السياسية وعزلته وعزوفه عـن أيـة مدرسـة في الفكـر السياسـي . وتبطنت فلسفته التي أنم عنها في كتابه (كفاحي) أفكار مبتذلة وواقعـة ، وتجلـت فيها حكمة تقليدية راديكالية يمينية بقالب جديد . بيـد أنهـا عجـزت ، بمفردهـا ، عن خلق تيار فكري يتوج كثورة مثلما ثورة فعل كتاب ماركس " رأس المال " أو المؤلفات الأخرى لفلاسفة القرن الثامن عشر .

انها مهارات الدهماء هي الـتي عرجـت بهتـلر الى زعامـة المانيـا ، وبقيـت خزينه المضمون طيلة حياته . وانطلق بصفته منبوذاً ومؤمناً بشـدة بنقـاط الضعـف النفسية ، يعقب كـل فشـل لخصومـه بـآخر ، حتـى شـلهم مـن معنويـاتهم فبـاتوا

مستعدين للرضوخ لسيادته . واستغل على الصعيد الدولي بكل قسوة شعور الديمقراطيات بتأنيب الضمير الناجم عن معاهدة فرساي .

وحكم هتلر بصفته الأعلى منصباً في الحكومة بالفطرة لا بالتحليل وأنس في أناه صورة الفنان الشيقة للحركة الدؤوب لا الهجوع والسكون واستهوته الحركة الدائمة . ومقت برلين ورأى في عودته الى بفاريا عزاء كان يزدري اجراءات العمل المنتظمة وتعسر على وزرائه محادثته ، فالتبست قراراته السياسية ، ثوب الترقع غير المنتظم وعظم مخاض الأمور التي تبعثها ومضات نشاطهم المسعور وتوارى كل ما اقتضى جهداً جهيداً .

يكمن جوهر المشاعر الدهماوية في اثارة مشاعر البهجة والاحباط كرة واحدة ، فأضحى من مزايا هتلر الفريدة القدرة على اشباع تلك اللحظة واقامة علاقة شعورية حميمة مع حاشيته و عامة الشعب . وفي الخارج كتب له النجاح الأعظم ولما يؤمن العالم أنه يروم أهدافاً اعتياديه محدودة . لذلك حقق جميع انتصاراته الرائعة في السياسة الخارجية في أول خمسة أعوام من حكمه (١٩٣٣-١٩٣٨) ، واستندت الى اعتقاد ضحاياه أن غايته المواءمة بين نظام فرساي والمباديء المستلهمة منه .

لقد شيع هتلر عنه المصداقية ولما يفشل في استطباب الظلم بحججه وفقد تأثيره الجياش في الاخرين بانهماكه بالغزوات . ومع ذلك ثمة قبس من ومضات الحدس أحياناً ، كتخطيطه للحملة على فرنسا عام ١٩٤١ ، ورفضه التقهقر من

مواجهة موسكو عام ١٩٤١ ، الذي كان له يقيناً أن يتسبب بانهيار الجيش الألماني .

وعلى أية حال تلوح هزيمة المانيا في الحرب العالمية الأولى هي التي أرست معالم تجربته هتلر ، الذي لم يكف قط عن سرد معرفته بالهزيمة أول وهله وهو طريح الفراش في مستشفى عسكري اثر عمى مؤقت بغاز الخردل . وعزى هتلر انهيار المانيا الى الخيانة ، وتآمر اليهود ، وغياب الارادة ، فمكث ، ما دام حياً ، يصر على استحالة هزيمة المانيا بطريقة اخرى لقد صير هذا الضرب من التفكير ، اندحار المانيا عام ١٩١٨ خيانة ، وأمست خيبة القادة الألمان في القتال حتى الرمق الأخير اللازمة الملحوظة لخطابات هتلر البليغة ومناجاته الخادرة .

لاح هتلر ، على الدوام ، كأن انتصاراته لم تكتمل ، فبدا آخر المطاف قادراً بفضل قوة ارادته المجردة على تحقيق الصورة التي خطها لأناه على الانهيار الآفق . لذلك عثر علماء النفس على تفسير واحد لقيادته الحرب بطريقة بدت معدمة لمنطق سياسي - أو استراتيجي عقلاني ريثما نضبت مصادر المانيا قدر هتلر أخيراً ، بمضض ، ان يحقق مناه بتحدي العالم في ملجأ حصين في العاصمة المطوقة لبلده المحتل في كل حدب وصوب تقريباً .

ان مهارة الدهمائية والأنانية وجهان لعملة واحدة . فما كان متكلماً في المحاورات الاعتيادية ، ودأب أن ينغمس في مناجاة شخصية مطولة أو يلوذ بصمت ممل حالما يستطيع محاوره أن يمسك بزمام الحديث ، أو يستسلم أحياناً الى سنة من النوم . وكان شديد الولع بعزو بروزه (الشبيه بالمعجزة حقاً) من عالم فيينا

التحتي الى مبوأ القيادي الفردي المانيا ، بباعث من سجاياه الشخصيه التي لم يتمتع بها أي من مجايليه . وهكذا دخل سرد تبوئه الزعامة الميراث المقيت " للمحادثات على المائدة " حسب وصف معاونيه .

تمخضت عن أنانية هتلر عواقب مميتة أيضاً ، فقد أقنع نفسه ، وبعث حاشيته على هذا الأمر أيضاً ، بوجوب بلوغ كل مرميه أثناء حياته ، بباعث من سمو سجاياه وقصر حياته ، كما صور له هذا الأمر تاريخ العائلة ، فانبرى يحول دول نضوج خلفائه ملتزماً بجدول زمني حسب تخمينه لقواه الجسدية . و لم يشهد التاريخ بمثال آخر عن حرب كبرى بدأت على أساس التخمين الطبي .

واستحال ظفر هتلر البكر ، عندما ترجم الأقوال أفعالاً ، الى عمليه اقتناص متسارعة للفرص التي هيأتها سياسات أسلافه الذين احتقرهم وبنحو خاص ستر سمان .

لقد خلفت معاهدة فرساي ، كشأن سلام وستفاليا ، بلداً قوياً قبالة مجموعة من دول صغيرة غير محمية تتربع حدوده الشرقية . لقد كان هذا مقصوداً في سلام وستفاليا ، بينما انقلب في معاهدة فرساي عاليه سافله . مهدت فرساي ولوكارنو طريق المانيا صوب أوروبا الشرقية ، حيث كان بوسع قيادة المانية صبورة أن تخطى في الوقت المناسب موقعاً عظيماً بوسائل سلميه ، أو ربما تتلقفه من أيدي الغرب أنفسهم . الا أن جنون العظمة الطائشة ، الذي استبد بهتلر قد صير التطور السلمي حرباً عالميةً .

ولم تتحـــل طبيعة هتلر الحقيقيـة أول الأمر بباعث من أفعالـه الاعتياديـة ظاهرياً ، فلم تصدق المانيا ولا أوروبا الغربية أنه رنـا فعـلاً الى قلـب النظـام القـائم بالرغم من الجهر بنوايـاه الى ذلـك الحـد بكـل ايضـاح . وعينـت القيـادة الألمانيـة المحافظة ، التي افضى مضجعها تنامي الحزب النازي ، وأفسدها الكساد والفوضـى السياسية ، هتلر في منصب المستشار، وحاولت حماية نفسها منه باحاطته بعدد غير قليل من الشخصيات المحافظة (لم يكن في أول مجلس وزراء غير ثلاثة مـن أعضـاء الـــحزب النـــازي حـين تسـلم هتـلر منصـب المستشـارية في ٣٠ كـانون الثـاني ١٩٣٣) . وما كان لهتلر الذي قطـع كـل ذلـك الطريـق الطويـل ليغـدو فريسـة للمناورات البرلمانية فاقدم على أفعـال شنيعة (ومنهـا حملـة التصفيـة الدمويـة الـتي اغتـال فيهـا عـدداً مـن مناوئيـه وخصومـه في ٣٠ حزيـران ١٩٣٤) ، لقـد غــدا دكتاتوراً لألمانيا ١٨ شهراً من وجوده في السلطة .

كان رد الفعل الغربي الدولي تجاه ارتقاء هتلر هو التعجيل بـنزع السـلاح ، ولكن الحكومة الألمانية يقود دفتها هذا الوقـت مستشـار عـازم علـى الاتيـان علـى معاهده فرساي ، واعــادة التسـلح ، واحتـذاء سياسـة توسـعية . مـع ذلـك لم تـر الديمقراطيات داعيا لاتخاذ تحوطات ما ، وكل ما حصـل أن بريطانيـا العظمـى قـد وطدت عزمها على مواصلة نزع السلاح حال تبوأ هتـلر السـلطة . وخـال بعـض دبلوماسيي بريطانيا في هتلر بارقة أمــل طيبـة للسـلام بخـلاف الحكومـات السـابقة النائسة . وكتب السفير البريطاني (فيبس) بهجة الى وزارة الخارجية :

" ان وجود هتلــر سوف يجمع ارادة المانيـا بشـكل لم تبلغـه أيـة حكومـة سابقة " . وامست الضمانة البريطانية لفرنسا عديمـة الجـدوى كمـا خالهـا رافـري

ماكدونالد لأن المانيا اذا أبت نـزع السـلاح " ستغدو المعارضـة العالميـة صـورة لا يمكن تخيلها ".

ما كـان لفرنسـا أن تستكن لمجـرد هـذه الاعلانـات المهدئـة . فمشـكلتها الرئيسية ما برحت تتعلق بكيفية استتباب الأمن اذا ما تسلحت المانيـا كـرة أخـرى وأشاحت بريطانيا عن تقديم ضمانات لها . واذا ما كان الرأي العام العالمي اجمعـه حازماً في تعامله مـع نـاكثي العهـود ، فلـم تتملـص بريطانيـا العظمـى مـن تقديـم ضمانات ؟ أفصح السـيرجون سيمــــون وزيـر الخارجيه أن " الـرأي العــــام في بريطانيا لن يؤيد ذلك " ، وأجلى الأمر بما لا يقبل اللبس تعذر فرنسا مـن الاتكـاء على بريطانيا العظمى . ولكن لماذا لن يؤيد الرأي العام البريطاني تلـك الضمانـة ؟ أوضح ستانلي بالدوين رئيس حزب المحـافظين أن عامـة البريطـان قـد شـيعوا عـن فكرة الهجوم وان :

[لو أمكن البرهنة على اعـــادة تسلح المانيا ، سينشأ وضع جديـد علـى الفور يتحتم على أوروبا أن تواجهه ... ولو حصل ذلك الوضع فعلـى حكومـة صاحب الجلالة ان تبوأه نصب أعينها بجدية] .

وهـذا الجـدل دائر في حلقـة مفرغـة لا تختتمهـا نهايـة لتناقضـه وســـتغدو الضمانات عديمـة الجـدوى ومحفوفـة بالمخـاطر الشـديدة ، لأن المانيـا لـن تقبـل الا بتكافؤها مع سائرها . ومع ذلك ثمة احتمال أن تنقلب الأمــور جـد خطـرة بـازاء شؤون لم تهـــددها المانيا ، حتى وان أقدم الرأي العام بادانتــه ، علـى وقـف حيـل خارق القانون . وأسـدل هتـلر ، نهايـة المطـاف ، الستار لحالـة الريـاء والتملـص

فانسحب ، في ١٤ تشرين الأول عام ١٩٣٣ ، من مؤتمر نزع السلاح - بباعث من الخشيه اذا ما لبيت مطالب المانيا بالمساواة ، فيجهز هذا الأمر على رغائبه بالتسلح اللامحدود ، وليس مرده الى توبيخ هتلر . وما انصرم الا أسبوع آخر حتى انسحب أيضاً من عصبة الأمم فأعلن في مطلع ١٩٣٤ ، اعادة تسلح المانيا ، وهكذا لم تشهد المانيا أيما ضرر ظاهر جراء عزل نفسها عن الأسرة الدولية بهذه الطريقة .

لقد طرح هتلر تحدياً واضحاً . ومع ذلك بقيت الديمقراطيات في ريبة مما عناه حقاً . ولكن ألم يأت هتلر ، باعادة التسلح ، أمراً يأباه أكثر أعضاء العصبة مبدئياً ؟

ولكن علام تتخذ خطوة مقابله قبل أن يشن هتلر عملاً عدوانياً سافراً ؟ أليس هذا الأمر مناط الى الأمن الجماعي ؟ وهكذا نفذ قادة الديمقراطيات الغربية بجلدهم من عبء الالتزامات بخيارات غامضة . فمن الأسهل جداً انتظار ما ينم مجداً لسوء نية هتلر ، وبخلاف ذلك لن يغدو ممكناً الارتكان الى العون العام لاتخاد اجراءات رادعة - أو هكذا خال القادة الديمقراطيون الأمر . ولا مندوحة أن بين يدي هتلر كل ما ييسره على ستر نواياه الحقيقية ريثما يسبق السيف العذل فتعجز الديمقراالطيات الغربية على تصعيد مقاومة فعالة . وفي كل الأحوال خشي الساسة الديمقراطيون فتره بين الحربين ، من الحرب أكثر من أضعاف توازن القوى وقال رامزي ماكدونالد أنه نسعى الى الأمن " ليس بالوسائل العسكرية ، بل بالوسائل الأخلاقية " .

هكذا استمر هتلر بحذق هذه الآراء ولما يعرض ، بين أوان وآخر مبادرات سلمية تتناغم ، بنحو خاص وذكي ، مع أوهام ضحاياه الأقوياء المحتملين . فحين تقهقر من محادثات نزع السلاح عرض تقليص الجيش الألماني الى ٣٠٠ ألف رجل والقوة الجوية الى نصف حجم قوة فرنسا . فأشاح هذا الأمر الانتباه عن حقيقة تجاوز المانيا حد ١٠٠ ألف رجل حسبما نصت معاهدة فرساي في حين وافق ظاهرياً على السقوف الجديدة التي لن يبلغها قبل سنين عدة – وليس ثمة شك في تخطي هذه الحدود في تلك المرحلة . ورفضت فرنسا هذا العرض معلنة أنها تسعى من أجل أمنها ، ولم تحجب اللهجة المتعالية للاجابة الفرنسية حقيقة أن كابوس فرنسا – المساواة العسكرية مع المانيا – قد أخذ يتشكل أمام ناظريها . وخلصت بريطانيا العظمى أن نزع السلاح قد بات ملماً أكثر من سابق عهد ، فأعلن مجلس الوزراء :

" لم تني سياستنا ماضية بتعاونها الدولي صوب تقليص التسلح العالمي وتخفيضه كما تنص التزاماتنا بميثاق العصبة ، وأن هذا هو سبيلنا الوحيد لمنع سباق التسلح " . والواقع أن مجلس الوزراء توصل الى قرار استثنائي بأن أفضل خيار هو مقايضة (ما اعتبره هو) تحولاً نحو موقع الضعف . واعلم بالدوين مجلس الوزراء في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٣٣ أي بعد ستة أسابيع في أمر هتلر لوفده بالانسحاب من مؤتمر نزع السلاح ، ان

" اذا ما شيعنا عنا الرجاء لايما تحديد للتسلح ، فلنا الحق ، كل الحق ، أن نفصح عن القلق الذي يساورنا للأمر الذي لاذت بازاءه القوه الجوية والبحريه

والجيش هدوءاً وسكينة . لقد سعت بريطانيا ، بكل ما أوتيت من جهد ، لتحقيق برنامج نزع السلاح يستوعب في جدوله المانيا " .

وكان ثمة احتمال ، يلوح في أفق بريطانيا على الاقدام بتنظيم دفاعاتها وتسخير أعظم الجهد لها سيما ان القلق قد اعتراها ، كما أفصح بالدوين بكلماته ، وأن المانيا قد شرعت بالتسلح كرة أخرى . ولكن بالدوين قد طرق المنحى المعاكس تماماً فأبقى على انتاج الطائرات العسكرية ، كبواكر انتاجه عام ١٩٣٢ . وأريد لهذا الأمر أن يتجلى آية " لحسن نية أخرى تفصح عنها حكومة صاحبة الجلالة لتعزيز العمل في مؤتمر نزع السلاح " .

ولم يوضح بالدوين الدافع الذي سيحث هتلر على التفاوض في مؤتمر نزع السلاح ما دامت بريطانيا منغمسة في نزع سلاح من جانب واحد . (وثمة تفسير يعزو أفعال بالدوين الى تطوير بريطانيا نموذجاً جديداً من الطائرات . لقد كان يتفاخر قوة من ضرورة لم يكتب لها بعد أن تبصر النور) .

وأنست فرنسا هذا الأمر بنظره مستبصرة ، ولما تلذ بالعزلة ، وكتب السفير البريطاني في باريس :

"لقد عادت فرنسا سيرة سياسة الحذر الشديد ولم تجابه اية اجراءات القوة التي تنطوي على مغامرة عسكرية " . ويكشف تقرير رفع الى (ادوارد دالادير) وزير الحربية أن فرنسا شرعت ترضخ الى مشيئة العصبة ، واعلن الملحق العسكري الفرنسي في برلين أن نزع السلاح هو أنجع طريقة لاحتواء هتلر ، بباعث من الاعتقاد أن النزعات العصبية لأفتك خطراً مما ينضويه هتلر في جناحيه :

[لا يلوح قبالتنا ثمة طريقة للتوصل الى تفاهم يستوعب ، ولو لردح قصير من الزمن ، التطور العسكري الألماني ... واذا ما كان هتلر مخلصاً في اعلان رغبته بالسلام فلنا أن نبتهج بالتوصل الى ذلك الاتفاق ، واذا ما نفرت به نوايا أخرى أو أنه أطلق العنان يوماً للنزعات التعصبية فأننا نكون في الأقل قد دفعنا أجل الحرب ، وهو مكسب لنا] .

وجنحت بريطانيا وفرنسا الى ترك حبل التسلح الألماني على الغارب لأنهما لم يفقها ما يقبلان عليه تماماً. لم تكن بريطانيا ، وقتئذ مستعدة للتخلي عن الأمن الجماعي وعصبة الأمم ، بينما وهنت عزيمة فرنسا بحيث عجزت عن التصرف حسبما تملي عليها هواجسها السابقة : فهي ما تجرؤ على القيام بأيما عمل لوحدها ، وأبت بريطانيا مشاطرتها الأمر .

واذا ما استعرضنا شريط الأحداث ، سنزدري ، بكل يسر ، من تقييم مجايلي هتلر لنوازعه. وهب أننا نحينا جانباً نزعته الاجرامية ، سنرى أن تطلعاته ما كانت كل من صدر عنه في مستهل حكمه . كان مشغولاً في أول سنتين على تسلم مقاليد السلطة ، بتوطيد أركان حكمه ، وأغشت سياسته الخارجية المشاكسة عيون قادة بريطانيا وفرنسا بعداؤه الرهيب للشيوعية ، وانعاشه المذهل للاقتصاد الألماني .

لم ينج سترسمان من الفخ ذاته : كلما عظم مدى حركته ، نزرت المعلومات المتيسره له ، واذا توفرت المعلومات توارى مدى العمل الحاسم . وفي الثلاثينات غزا الشك رؤوس قادة بريطانيا حول مرامي هتلر ، ولاذ قادة فرنسا

الخائفين ، بالصمت و لم يقدموا على أيما أمر بباعث في تخمينات لا يستطيعون برهنتها . فكان ثمن معرفة طبيعة هتلر الحقيقية عشرات الملايين من الأحداث المنتشرة من اقصى أوروبا الى أقصاها . ومن ناحية اخرى ، لم يني المؤرخون في جدال عن هتلر وما تكنه هذه الشخصية من وطنيه أسيء فهمها أو طمع مسعور بسيادة العالم ، لو افترضنا أن الديمقراطيات قد اقحمته على تصفية الحساب بواكير أيام حكمه .

ولا غبار على سوء حكم لدوافع هتلر منذ البدء ، فيقينا أن أركان توازن القوى قد أفصح عن خطر المانيا الكبيرة المتراسة التي يحدها في الشرق دول صغيره ضعيفة. وتشير السياسة الواقعية - بغض النظر عن دوافع هتلر - لوجوب تحديد علاقات المانيا بجيرانها في الشرق انطلاقاً من معايير القوة النسبية ، فكان على الغرب أن يسلح وقتاً في تقييم نوازع هتلر أقل مما يفعل لموازنة قوة المانيا المتناميه .

و لم يدلي أي ذي رأي رأيه عن تردد الحلفاء في مواجهة لهتلر ، بشكل أفضل من (جوزيف غوبلز) الرئيس الشرير لدعاية هتلر ، فقد أفضى في نيسان ١٩٤٠ ، عشية الغزو النازي للنرويج :

" أفلحنا حتى الآن في اصابة العدو بدهشة من أمره قبل عام ١٩٣٢ حول أهداف المانيا الحقيقية ، و لم ير خصومنا في الداخل ، قبل عام ١٩٣٢ ، الغاية التي كنا نحث خطانا شطرها ، وأن تعهدنا بالشرعية لخديعة بجردة ... كان لهم كبح جماحنا أو اعتقال اثنين منا في عام ١٩٢٥ وبذا ستكتب النهاية . كلا ، لقد تركونا نتخبط في منطقة الخطر . هكذا هي كانت في ميدان السياسة الخارجية

أيضاً .... فكان على رئيس الوزراء الفرنسي سنة ١٩٣٣ أن يقول (ولو كنت أنا رئيس الوزراء الفرنسي لقلت أيضـاً) : " ان مستشـار الرايـخ الجديـد هـو الرجـل الذي كتب " كفاحي " الذي يقول هذا الأمر وذاك . نحـن لا نقـوى حـالاً على بقاء هذا الرجل بقربنا . فأما أن يتـوارى عنـا أو سننطلق في ذلك السبيل ! " . غير أنهم لم يفعلوا ذلك . بل هم هجرونا لنـنزلق بعدهـا بداخـل منطقـة الخطـر ، وكنا قادرين علـى الابحـار حـول جميع الممـرات الخطـرة . ((أمـا وقـد نجحنـا ، وتسلحنا بأفضل منهم ، أشعلوا فتيل الحرب !] .

وانصرف زعماء الديمقراطيات عن حقيقة نوايـا هتـلر ومـا تنتهـي اليـه مـن تفاهة اذا ما حققت المانيا مستوى معيناً من التسلح فيقينا ان هذه القـوة العسـكريه المتسارعة ستقلب التوازن اذا لم تعتورها عقبة أو لم تتوازن .

وبهـذا الأمـر نطقـت رسـالة تشرتشـل اليتيمـة ، وكـان الوقـت المتيسـر ، للتعرف على القـواد، ابـان الثلاثينيـات ، مستغرقاً . لذلـك رفـض قـادة بريطانيـا تحذيرات تشرتشل مجسدين حالة نادرة من الاجماع اتفق عليها جميع ممثلـي النطـاق السياسي . لقد انطلقوا من افتراض نزع السلاح ، وليـس الاسـتعداد العسـكري ، مفتاح السلام فخالوا هتلر معضيلـه نفسيه لا خطـراً اسـتراتيجياً . وعندمـا حـث تشرتشل ، عام ١٩٣٤ ، على رد بريطاني بـازاء تسـلح المانيـا ، مشـيراً الى تعزيـز هيكل القوة الجوية الملكية ، اتحد زعماء الحكومة والمعارضة فـــي ازدرائـــه . وتحدث (هربرت صاموئيل) باسم حزب العمل :

" سيلوح الأمر كانئا منهمكون في لعبة طائشة ، وليس في تشاور سليم عاقل .... فكل هذه الطروحات محفوفة بالمخاطر " .

وبسط (السير ستافورد كريبس) موقف حزب العمل بسخرية مغرورة :

[يمكن للمرء أن يصوره كبارون عجوز في القرون الوسطى يسخر من فكرة نزع السلاح في أطيان بلدته لأنه يرىفي التسلح الأقصى سبيلاً وحيداً لضمان سلامته هو واتباعه الاقطاعيين وابقاره] .

لقد أبقى رئيس الوزراء المحافظين (بالوين) خطة تشرتشل ، وشيعه الجميع بذلك عندما أبلغ مجلس العموم بأنه " لم يتخل عن الأمل بتقليص أو تقييد بعض أنواع الأسلحة وأفصح أن من " الصعوبة البالغة " الحصول على معلومات دقيقة عن قوة المانيا الجوية ، دون أن يذكر علة ذلك . ومع ذلك كان واثقاً أن " القضية هي ليست بدنو المانيا السريع صوبنا فهو يشعر أن الوقت لم يأزف لاصدار تحذير غير مبرر وليس ثمة باعث للهلع " . لقد وصم أرقام تشرتشل بأنها " المبالغة " ، وأكد أن ليس " ثمة أي خطر وشيك قبالتنا أو بازاء أي كان في أوروبا في هذه الأيام - وليس هناك من طاريء حقيقي " .

وهرعت فرنسا تبحث عن ملاذ لها فعقدت أحلاف ركيكة وجلة مشيعة ضماناتها المنفردة مع تشيكوسلوفاكيا ، وبولندا ، ورومانيا في العشرينات الى معاهدات دفاع متبادل . وعنى هذا الأمر اسعاف الدول لفرنسا اذا شاءت المانيا استطباب جراحها مع فرنسا قبل التوجه الى الشرق .

وهذه ايماءة خاوية مثيرة للشفقة ، لان هذه الأحلاف ضمانـات تلـتزم بهـا فرنسا ازاء دول أوروبـا الشـرقية الضعيفـة ، ولا تتماشـى ، في الوقـت عينـه ، مـع العمل على أســاس معـاهدات مسـاعدة متبادلـة تلـوح لالمانيـا بخطـر الحـرب على جبهتين ، لأنها لا تكبل يد المانيـا في الشـرق ، أو أن تخفـف العمليـات الهجوميـة ضدها ، من الضغط على فرنسا . لذلك انبرت بولندا هاجرة كل التزاماتهـا بهـذه المواثيق وأبرمت اتفاقية عدم اعتداء مع المانيا ، تتوازن لالتزاماتها مـع فرنسـا ، الـتي ان رزحت لاعتداء ، سيغدو الخيار مشرعاً على مصراعيـه لبولنـدا في اصطفـاء أيمـا أمر يدر عليها أعظم فائدة لهذه المحنة .

وكشفت اتفاقية فرنسية - روسية جديدة وقعت عام ١٩٣٥ ، النقاب عن مدى ارتباك فرنسا النفسي والسياسي فقد سعت قبل الحزب العالمية الأولى ، وبكل لهفة ، الى حلف سياسي مع روسيا ولم تقر قريرتهـا ريثمـا استحال الحلـف ميثاقـاً عسكرياً وفي عام ١٩٣٥ كان وضعها الاستراتيجي بئيساً جـداً وفي حاجـة يائسـة للدعم العسكري السوفيتي . وبالرغم من ذلك أبرمت على مضض حلفاً سياسـياً مع الاتحاد السوفيتي وأصمت اذانها عن محادثات الهيئـه العسـكرية ، ومنعـت حتـى عام ١٩٣٧ المراقبين السوفيت من حضور مناوراتها السنوية .

وثمة ثلاثة بواعث لسـلوك قـادة فرنسـا المتملقـة ، وعـززت كلهـا شـكوك ستالين المتأصلة ، بالديمقراطيـات الغربيـة . وأولهـا خشيتهم مـن توثيـق العلاقـات الحميمة بالاتحاد السـوفيتي ، فلربمـا يضعـف ارتبـاط فرنسـا ببريطانيـا . وثانيهـا أن حلفاء فرنسا في أوروبا الشرقية الواقعة بين الاتحاد السوفيتي والمانيا لن تأذن للقوات السوفيتية بالدخول الى أراضيها . فعسر ذلك أيما أرضية لاجـراء محادثـات أركـان

فرنسية – سوفيتية . وأخيراً شعور قادة فرنسا منذ عام ١٩٣٨ بالخوف من المانيا بدعوى أن محادثات الأركان الفرنسية مع الاتحاد السوفيتي يمكن أن تفضي الى " اعلان حرب من جانب المانيا " ، كما جاء على لسان رئيس الوزراء شوتم .

وهكذا آلت فرنسا الى تحقيق حلف عسكري مع بلدان لا حول لها على معونتها وأبرمت مع الاتحاد السوفيتي حلفاً سياسياً لا عسكرياً ، وتوكأت استراتيجياً على بريطانيا العظمى التي أبت أن تأخذ باعتبارها أيما التزام عسكري . ان هذه الترتيبات لآيه لانهيار عصبي وليست استراتيجية كبرى .

وتجلت الخطوات الجادة الوحيدة التي اتخذتها فرنسا رداً على تنامي قوة المانيا بتيممها شطر ايطاليا . لم يكن (موسوليني) مخلصاً حقيقياً للأمن الجماعي وثمة شعور لديه بالتزامات ايطاليا مع بالمانيا ، لأنه خشي من أن يفضي ضم المانيا للنمسا الى المطالبة بعودة (تيرول الجنوبية) ذات العرق الألماني . فوقع وزير خارجية فرنسا (بيير لافال) في كانون الثاني ١٩٣٥ ما يشبه الحلف العسكري ، مع النمسا وايطاليا وستتبادل المشورة في حالة نشوب أي تهديد لاستقلال هذه الدول . لقد تجاذبوا محادثات بين أركانهما ذهبت الى حد مناقشة وضع قوات ايطالية على طول الراين وقوات فرنسية على طول الحدود النمساوية .

وغداة ثلاثة أشهر على اعادة فرض هتلر التجنيد الالزامي ، لاح في الأفق احتمال لحلف بين بريطانيا وفرنسا وايطاليا ، اذ التقى رؤساء الحكومات في منتجع (ستيرسا) الايطالي وأجمعوا على صد أي محاولة المانية لتغيير معاهدة

فرساي بالقوة . وبالسخرية القدر أن يستضيف موسوليني مؤتمراً للدفاع عن تسوية فرساي وهو الناقد لهذه المعاهدة لأنها قد عوقت ايطاليا !

بات مؤتمر سترسا خاتمة يدرس فيها منتصرو الحرب العالمية الأولى امكانية عمل مشترك . وغداة شهرين ، أبرمت بريطانيا اتفاقاً بحرياً مع المانيا فأجلى الأمر أن الأولى تستملح الاتفاق الثنائي ، لخاصة امنها ، على الاعتماد على شركائها في مؤتمر سترسا. ووافقت المانيا على تحديد أسطولها الى ٣٥٪ من أسطول بريطانيا في السنوات العشر المقبلة ، بالرغم من منحها حق امتلاك عدد مساو من الغواصات .

ان بنود المعاهدة البحرية لأقل أهمية مما أزاحت عنه النقاب بخصوص الحالة الذهنية للديمقراطيات . فلا شك أن مجلس الوزراء البريطاني قد أدرك أن هذه الاتفاقية البحرية في الواقع قد ذعنت للنقض الالماني لبنود فرساي البحرية وبذلك سارت في الأقل ضد روح منحى سترسا . كانت نتيجتها العملية وضع سقوف جديدة على أساس ثنائي - والأسمى من هذا أنها سقوف تجاوزت قدرة المانيا على بلوغها - وهو أسلوب لتحديد التسلح لقي التأييد الشعبي المتزايد أبان الحرب الباردة . وأبرزت الاتفاقية البحرية كذلك ايثار بريطانيا التصالح مع خصمها بدلاً من الاعتماد على شركائها في جبهة سترسا - وهو الاطار النفسي الذي غدا سياسة الترضية .

وسرعان ما انهارت جبهة سترسا عن بكرة أبيها . فقد أطلق موسوليني العنان لنفسه في التوسع الاستعماري المعتاد قبل الحرب العالمية الأولى ، فرمى تشييد

صرح امبراطورية في أفريقيا عام ١٩٣٥ باحتلاله الحبشة ، بباعث من اذلال القوات الحبشية لايطاليا في مطلع القرن .

واذا لم يكن كان عدوان موسوليني مأذوناً قبل الحرب العالمية الأولى ، فقد أضرم الآن في عالم ميال للأمن الجماعي وعصبة الأمم ، فأنب الرأي العام وخاصة في بريطانيا ، عصبة الأمم على " فشلها " في منع الاحتلال الياباني لمنشوريا ، فما أقدمت الا على فرض عقوبات اقتصادية ، ولم يتيسر في جعبتها استطباب للأمر ريثما أزف الغزو الايطالي سنة ١٩٣٥ . ضمنت ايطاليا ، وفي عام ١٩٢٥ انضمام الحبشة الى عصبة الأمم بهدف وضع حد للمخططات البريطانية المحتملة ، ولاذت بريطانيا بالصمت على مضض ، بعد أن جادلت بأن الحبشة دولة بربرية لا تستحق عضوية كاملة في الأسرة الدولية .

لقد صادف البلدان أمراً أداً : فايطاليا قد أضرمت عدواناً غير مستفز على عضو في العصبة ، بينما لاقت بريطانيا تحدياً للأمن الجماعي وليس بمجرد مشكلة متعلقة بالمستعمرات في أفريقيا . وما زاد الطين بلة مصادقة بريطانيا وفرنسا في مؤتمر سترسا على اعتبار الحبشة ضمن نطاق مصالح ايطاليا ، فكان على لافان الجهر أن دور ايطاليا يماثل ما لفرنسا في المغرب - أي سيطرة غير مباشرة . وليس موسوليني ، بالمتوقع ، أن يفقه أن فرنسا وبريطانيا اللتين سلمتا بهذا الشيء ، سينحرا ما يماثل الحلف ضد المانيا ، مقابل التمييز بين الضم والسيطرة غير المباشرة على الحبشة .

ولم تفقه بريطانيا وفرنسا مطلقاً حقيقة مواجهتهما خيارين متناقضين : فاذا ما انتهيا الى ضرورة ايطاليا كحامية للحبشة ، ومعينة ، بنحو غير مباشر ، على استتباب تجريد الراين ، سيخلصون الى أمر لحفظ ماء وجه ايطاليا في أفريقيا ، والمحافظة على سلامة جهة سترسا . ومن الناحية الأخرى ، اذا ما كانت العصبة أفضل وسيلة لاحتواء المانيا ورصف الرأي العام الغربي ضد العدوان ، كان من الضروري فرض عقوبات اذا لم يظهر المعتدي اذعاناً . ولم يكن ثمة أمر وسط .

ومع ذلك عثرت الديمقراطيات على الطريق الوسط بعد أن افتقدت الثقة بالنفس لتحديد خياراتها ، فشرعت عصبة الأمم بعمليات العقوبات الاقتصادية يرأسها في هذا الامر بريطانيا . وفي الوقت عينه أسرى لافال الى موسوليني أن الأمر لا يمسس امتياز ايطاليا على النفط ، بينما طرقت بريطانيا ، المنحى ذاته ، واستفهمت من روما عن مآل عقوبات النفط الى حرب . ولوما رد موسوليني الايجابي - المتوقع وغير الصادق - لحظيت الوزارة البريطانية بالذريعة التي تفتقرها لتسخر جهودها صوب العصبة منادية بهول الحرب المريع . وانضوت هذه السياسة في شعار " كل العقوبات الا الحرب " .

وتعين على رئيس الوزراء ستانلي بالدوين غداتها الافصاح ، بأسى ، أن أية عقوبات يرجح عملها قد تفضي أيضاً الى الحرب . وعلى أية حال قدر لفكرة ابدال اجراءات القوه بالعقوبات الاقتصادية ، بازاء الاعتداء ، أن يتكرر صداها بعد نحو من خمسين سنة عندما ضم العراق الكويت ، وكيفية التعامل معه بطريقة أكثر سلاماً .

علم وزير الخارجية (صاموئيل هور) أن بريطانيا قد شاحت عن استراتيجيتها . وكان على قادة بريطانيا ، لمجابهة التهديد الألماني الآفق ، أن يضادوا هتلر ويتوددوا لموسوليني ، ولكنهم أقدموا على الأمر بشاكلته المناقضة : استحبوا المانيا وناؤوا ايطاليا . وحين أدرك (هور) و (لافال) خطورة ما آلت اليه الأمور ، أبرما تسوية في كانون الأول ١٩٣٥ مع ايطاليا : ستنعم ايطاليا بسهول الحبشة الخصبة ، ويواصل (هيلا سيلاس) حكمه في المعقل الجبلي ، الموقع التاريخي لمملكته ، وستساهم بريطانيا في هذه التسويات بوهب أرض الحبشة ممراً نحو البحر عبر الصومال البريطاني . وسارت التوقعات على قبول موسوليني التام لهذه الخطة ، وعليه قدمها هور لمصادقة العصبة .

وصلت خطة هور - لافال الى العدم لأنها طرقت مسامع الصحافة قبيل أن تنتهي الى طاولة عصبة الأمم - وهو حادث نادر يثير العجب تلك الأيام. وأضطر هو ، بازاء صرخات الغضب الناجمة عن ذلك ، الى اعلان استقالته - فهو الضحية ، الباحثة عن تسوية عملية ، وقد بقرها الرأي العام المنهاج . وهكذاعاد خليفته (أنتوني ايدن) بسرعة سيرة الأمن الجماعي والعقوبات الاقتصادية - من دون الرغبة باللجوء الى القوة بأية حال .

وبررت الديمقراطيات ، كدأبها في الأزمات المتكررة ، بغضاءها لاستخدام القوه ولما تخطأ في تقديرها ، أعظم الخطأ ، قوة الخصم العسكرية . واقتنعت بريطانيا بعجزها عن استطباب الأسطول الايطالي دون معونة فرنسا ، التي يممت اسطولها شطر البحر المتوسط ، محدقة الخطر بعلاقتها مع ايطاليا كما نصت عليه جبهة ستريسا وميثاق لوكارنو . وهذه القوة ، بجبروتها ، لم تفرض العقوبات

النفطية على ايطاليا ، بينما سارت العقوبات الاعتيادية متثاقلة لم تحل دون استشهاد الحبشة .

وهكذا أكملت ايطاليا غزو الحبشة في مارس ١٩٣٦ وجهر موسوليني بملك ايطاليا (فيكتور عمالنوئيل) امبراطوراً لـ " أثيوبيا " الحديثة، واجتمعت عصبة الأمم ، بعد شهرين ، أي في الثلاثين من حزيران، لدراسة " الأمر الواقع " ، فقرع هيلا سيلاسي ناقوس وفاة الأمن الجماعي في مناشدة شخصية يائسة :

[انها ليست مجرد مسألة تسوية لعدوان ايطالي ، بل قضية أمن جماعي ، وداعية وجود العصبة ذاتها ، وأمر ثقة طرحتها الدول بالمعاهدات الدولية ، وشأن يتعلق بقيمة الوعود المقدمة للدول الصغيرة باحترام استقلالها وضمانة ، فلاختيار بين مبدأ مساواة الدول وفرض قيود العبودية على القوى الصغيرة] .

وفي ١٥ تموز رفعت العصبة جميع العقوبات المفروضة على ايطاليا . فشيعت بريطانيا العظمى وفرنسا اعتراضاتهما عن احتلال ايطاليا للحبشه بباعث من خشيتهما من المانيا . لذلك أرغم الأمن الجماعي هيل سيلاسي على نحر بلده عن بكرة أبيه ، لا نصفه ، كما اقتضت السياسة الواقعية لخطة هور - لافال .

لم تكن ايطاليا في وضع عسكري يؤهلها للمقارنة مع بريطانيا العظمى ، أو فرنسا ، أو المانيا ، ولكن الصدع الذي خلقه عزلة الاتحاد السوفيتي احالها اداة مساعدة في الحفاظ على استقلال النمسا ، وعلى الراين المنزوع السلاح ، الى حد ما . دعم موسوليني تسوية فرساي ما دامت بريطانيا العظمى وفرنسا برزتا أقوى أمم أوروبا ، ولانه لا يثق بالمانيا الى حد بعيد اعرض عن شخصية هتلر في البدء .

واقتنع باحتمالية انتهاء أمر جبهة سترسا الى اجبار ايطاليا لتكون كبش الفدء للعدوان الألماني ، لقد أرخت أثيوبيا استهلالاً لتودد ايطاليا الشديد صوب المانيا بباعث من الخوف والاذعان ، على نحو متناظر .

لقد انطبعت في خيال المانيا صورة اثيوبيا ، وخيبتها ، أعظم الانطباع ، حيث كتب السفير البريطاني ببرلين :

" لقد أذن انتصار ايطاليا فصلاً جديداً ، فلا مناص من غرق نفوذ انكلترا في أرض تسودها القوة " . لقد دلفت ايطاليا من جبهة سترسا ، فلم تبق عثرة في طريق المانيا صوب النمسا سوى الباب المفتوح الذي هيأته منطقة الراين المنزوعة السلاح . وهنا لم يسلخ هتلر وقتاً في وصده بعجل.

لقد أمر هتلر ، في صبيحة الأحد ٧ آذار ١٩٣٦ ، جيشه بالنزول الى منطقة الراين المنزوعة السلاح ، مجهزا على آخر انفاس فرساي. وتحظر معاهدة فرساي نزول الجيش الألماني في منطقة الراين والمنطقة الأخرى في شرقها ، بنحو من (٥٠) كيلو متر لقد أدلت المانيا بضماناتها كما نص أحد بنود لوكارنو وصادقت عليه عصبة الأمم ، بينما قدمت بريطانيا العظمى وفرنسا وبلجيكا وايطاليا ضمانات له .

لو سيطر هتلر على منطقة الراين فستغدو أوروبا الشرقية تحت رحمته . وما كانت أي من الدول الجديدة قادرة على الدفاع عن أناها لحظة مع المانيا النازعة للتعديل سواء أتلقى المواجهة بوحدها أم بالاتحاد مع أخواتها . فكان

رجاءهم الوحيد في قدرة فرنسا على ردع العدوان الألماني ولما تندفع صوب الراين المنزوع السلاح .

ومرة أخرى عصفت الشكوك بوجه الديمقراطيات الغربية بخصوص نوايا هتلر . فهو يسعى ، من ناحية ، الى استرجاع أرض المانية مطمناً فرنسا بعقد معاهدة عدم اعتداء معها ، وأثير الجدل كرة أخرى ، عندما أفصحت البلدان الأوروبية أن المانيا سترضى عندما تنال حدودها القومية . ولكن هل لقادة بريطانيا وفرنسا الحق بالمخاطرة بأرواح بلديهما ليستتبا مسألة شديدة التميز ؟ أو ليس من واجبهما الأخلاقي التصدي لهتلر ، غير المكتمل سلاحاً ، ليسعفا من الأرواح عدداً جماً ؟

أطلعنا التاريخ بالاجابة ، فقد استبد الشك بمجايليه ودأب هتلر ، عام ١٩٣٦ على در المنفعه من مزاوجته الفريده لحدسه الذهني وقوة ارادته الشيطانية . وما برحت الديمقراطيات ترى أنها قبالة زعيم قومي ، يسعى لاعادة بلده الى مصاف دول أوروبا . وسلخت بريطانيا وفرنسا عظيم وقت في سعي لاستقراء فكر هتلر بالتساؤل : هل هو مخلص ؟ أيود السلام حقاً ؟ والواقع أنها لأسئلة مشروعة ، ولكن السياسة الخارجية تبنى على الرمال المتحركة حين تنبذ علاقات القوة الفعلية وتعتمد على التنبوء بشأن نوايا الآخرين .

اصطفى هتلر بدقة الوقت المناسب لاحتلال منطقة الراين ، مستعيناً بقدرته الخارقة على استغلال نقاط ضعف خصومه . وما كان لعصبة الأمم ، التي عجزت عن فرض عقوبات على ايطاليا ، أن تواجه بحزم هذا القوة العظيمة الأخرى .

وعلاوة لذلك دقت الحرب في الحبشة اسفيناً بين القوى الغربية وايطاليا ، أحد ضامني لوكارنو ، بينما تقهقرت بريطانيا العظمى ، من فرض أيما عقوبات نفطية على ايطاليا ، في بحر كانت بريطانيا تسيره ، لأنها قد رغبت عن حرب برية لشأن لا ينطوي على خرق لحدود وطنيه .

ترى ما موقف فرنسا ؟ لا جرم أنها لأكثر بلد أحدقه الخطر في منطقة الراين المنزوعة السلاح ، ومع ذلك كانت عظيمة التردد في مقاومة انتهاك المانيا لها . اذ نطق خط ما جينو بتشبث فرنسا باستراتيجية الدفاع ، ولم يخلف التدريب والمعدات الفرنسية غير شك نزير بأن الحرب العالمية الأولى قد أجهزت على الروح الهجومية الفرنسية . فلاحت فرساي تنتظر مصيرها وراء خط ماجينو ، دون المخاطرة بعبور حدودها - ليس في أوروبا الشرقية ، أو في الراين لذلك الشأن .

وبالرغم من ذلك ، مثل احتلال الراين ، كرة أخرى ، مقامرة هائلة بالنسبة لهتلر . فلم ينسلخ على فرض التجنيد الالزامي نحواً دون السنة ، ولم يكن الجيش الألماني متأهباً لحرب قط . والحق أعطيت الأوامر للقوات التي زحفت الى منطقة محدودة في الراين بقتال تراجعي حال دخول فرنسا المنطقة . ومهما يكن من أمر ، وفق هتلر في التعويض عن نقصه العسكري بجرأة معنوية عظيمة ، وهنا أغرق الديمقراطيات بمقترحات تعبر عن عظيم رغبته بمناقشة تحديد عدد أفراد القوات في منطقة الراين واعادة المانيا الى عصبة الأمم . وبث في الاتحاد السوفيتي أعظم الشك عندما جهر أن هذه الخطوة بباعث انتقام من الميثاق الفرنسي - السوفيتي لعام ١٩٣٥ . وعرض ترك منطقة منزوعة السلاح مساحتها خمسون

كيلومتر من كلا جانبي الحدود الألمانيـــة ، وابرام معـاهدة عـدم اعتـداء لمـدة ٢٥ عاماً . فكان لمقترح نزع السلاح فائدة مزدوجة ، تلمح بـأن السلام الدائمي هـو مجرد جرة قلم ، في حين أنه اجهـز على خـط مـاجينو بلطـف ، الخـط الـذي هيأ الاسناد بوجه الحدود الألمانية .

و لم يفتقر محاورو هتـلر الى الشـجاعة العظيمـة ليتبنـوا موقفـاً سـلبياً ، فقـد قدرتهم الحجة ، في هذا الأمر أو ذاك ، على تصفيد أياديهم . فمنـذ توقيـع ميثـاق لوكارنو أضحى من المباديء الرئيسية للسياسة الفرنسية العزوف عن أيما حرب مـع المانيا الا بموجب حلف مع بريطانيا العظمى ، بالرغم مـن عـدم ضـرورة المسـاعدة البريطانية ما دامت المانيا منزوعة السلاح . وسعياً لهذا المرمى ، وطـد قـادة فرنسـا العزم ، و لم يتأثروا لاحباطات عديده وساندوا كثيراً من مبادرات نزع السلاح التي علموا بأفئدتهم أنها مساءة الفهم .

لعل توكأ فرنسا المعنوي العظيم على بريطانيا العظمى يعيننا بفهـم عزوفهـا عن أيما استعدادات عسكريـــة ، حتـــى حين حذر اندريه فرانسو - بونسـه ، السفير الفرنسي في برلين في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٥ بوشك التحـرك الألمـاني الى الراين - قبل حصول الاحتلال بثلاثة أشـهر ونصـف تمامـاً . ومـع ذلـك لم تجـرؤ فرنسا على التعبئة أو اتخاذ تدابير عسكرية احترازية كي لا تتهم باثـاره أمـور على أساس المخاوف و لم تثر القضية في مفاوضاتها مع المانيا لأنها ستعجز عن أيما عمـل لو تجاهلت المانيا تحذيراتها أو افصحت عن نواياها .

ما يستغرب له وقوف هيئة الأركان الفرنسيه ، عام ١٩٣٥ ، مصفودي الأيادي لأمورهم الداخلية حتى غداة تحذيرات بونسه . هل كذبت الأركان العامة دبلوماسييها ؟ وهل عجزت عن قذف نفسها من التحصينات الدفاعية لحماية المنطقة المعزولة من الرين المجرد من السلاح ؟ أشعرت بالفشل تمامه بحيث أضحى هدفها الرئيسي ارجاء نشوب الحرب على أمل حصول إيما ضرب من المعجزة لصالحها - برغم في أنها لن تحدث هذا التغير بيدها ؟

ويقيناً ان الآية البينة لهذا الاستبصار تتجسد في خط ماجينو ، الذي شيدته فرنسا بكلفة باهظة واستغرقت العمل فيه عشر سنوات . هكذا كتبت فرنسا على نفسها اتخاذ استراتيجية دفاعية في نفس السنة التي ضمنت بها استقلال بولندا وتشيكوسلوفاكيا . وثمة آية أخرى تصور قلق فرنسا وخشيتها عندما قررت ايقاف تشييد خط ماجينو على الحدود البلجيكية ، الأمر الذي غشي بغبار كل تجارب الحرب العالمية الأولى . واذا ما كان ثمة احتمال لحرب بين فرنسا والمانيا ، فلماذا لا يحصل هجوم الماني عبر بلجيكا ؟ فلو خشيت فرنسا من انهيار بلجيكا ولما تعزل من هذا الخط ، يمكنها ، وقتئذ ، أن تخسرها على مد هذا الخط ليشمل الحدود البلجيكيه الألمانية . ويتيسر لفرنسا أيضاً مد هذا الخط الى البحر على طول الحدود بينها وبلجيكا ، لكنها أبت الاحتمالين .

تميل دوائر المخابرات الى تبرير ما يقرره القادة السياسيون فغالباً ما توضح الأدبيات الشعبية والأفلام عكس الحقيقة - أي ايضاح أن صناع السياسة هم الوسائل المسيرة بيد خبراء المخابرات . ولكن في عالم الحقيقة ، غالباً ما تتبع تقديرات المخابرات قرارات السياسة بدلاً من توجيهها . ولعل هذا ما يفسر

المبالغة الهوجاء في تقدير القوة الألمانية التي طغت على حسابات العسكريين الفرنسيين ، فقد أبلغ القائد الفرنسي العام الجنرال (موريس غامليان) القادة المدنيين أثناء الاحتلال الألماني للراين بأن قوة المانيا العسكرية البشرية المدربة قد ساوت قوة فرنسا وان لدى المانيا معدات أكثر من معدات فرنسا - وهو تقدير سخيف في السنة الثانية من اعادة التسلح الألماني . ونهلت اجراءات السياسة من هذه التقديرات الخاطئة عن القوة الألمانية وخلص غامليان الى وجوب اتخاذ فرنسا ((أي)) اجراءات عسكرية مضادة بدون تعبئة عامة ، وهي خطوة لا يخاطر بها قادته السياسيون بدون الدعم البريطاني - حتى ان لم تتجاوز القوة الألمانية الداخلة للراين أكثر من ٢٠ ألف رجل في حين يناهز جيش فرنسا الدائمي نحواً من ٥٠٠ ألف رجل دونما تعبئة عامة .

وعاد كل شيء القهقري الآن الى الورطة التي أربكت الديمقراطيات عشرين سنة . فبريطانيا لا تعترف بأي انتهاك لتوازن القوى الا عند اختراق حدود فرنسا . ولم تر مصلحة حيوية في منطقة الراين المنزوعة السلاح التي تمثل رهينة في الغرب للقتال ولم تمضي للقتال وفاءً بضمانتها في لوكارنو . كما أوضح ايدن ذلك قبل شهر من احتلال الراين . وفي شباط ١٩٣٦ أفاقت الحكومة الفرنسية من غيبوبتها لتستفهم موقف بريطانيا لو نفذ هتلر ما قاله فرانسوا بونست . ولاحت معالجة ايدن للانتهاك المحتمل لاتفاقيتين دوليتين - فرساي ولوكارنو - كانهما افتتاح صفقة تجارية :

[بالنظر الى أن المنطقة قد أنشأت لتوفير الأمن لفرنسا وبلجيكا ، يتيسر للحكومتين ، في المقام الأول ، أن تقررا القيمة التي يلصقانها بهما ، والثمن

الذي ينقدانه للحفاظ عليها ... وخير أن تدخل بريطانيا العظمى وفرنسا ، قبل فوات الأوان ، في مفاوضات مع الحكومة الألمانية للتسليم بموجب حقوقنا في المنطقة] .

لقد تبوأ ايدن حقيقة أفضل ما يؤمل من مواقع في مفاوضات يمكن أن يدخلها الحلفاء ، مقابل التخلي عن الحقوق الثابتة والمعترف بها - فما هي هذه الحقوق ؟ وكم يسلخ الأمر من الوقت ؟ أثمة ضمانات أخرى ؟ لقد خلفت بريطانيا الاجابة عن تعويض فرنسا معلقة بالمقابل بيد فرنسا ، وأوحت أن القتال من أجل التزامات مقدسة في الراين ليس شطراً من الاستراتيجية البريطانية .

وأفصح موقف بريطانيا بنحو أعظم غداة ما وثب هتلر الى الراين ، وأبلغ وزير الخارجية البريطاني السفير الألماني بعد يوم من التحرك الألماني :

[ان الشعب البريطاني المستعد للذود عن فرنسا قبالة التدنيس الألماني لأرضها ، لن يحتكم للسيف بباعث من الاحتلال الأخير للراين ....فلعل معظمه يرى انه لا يهتم شروى نقير باعادة احتلال المانيا لاقليمها] .

وامتدت شكوك بريطانيا صوب اتخاذ اجراءات مضادة عدا الحرب ، حيث أخبر وزير الخارجية القائم بالأعمال الأمريكي :

" ستبذل انكلترا كل محاولة لمنع فرض عقوبات عسكرية أو اقتصادية ضد المانيا " .

ودافــع وزير الخارجية الفرنسي (بيــير فلانــدن) عـن قضيـة فرنسـا دون طائل ، فقد أوضح ببصيرته لنظيره البريطاني أن المانيا حالمـا تحصـن الرايـن سـوف تتورى تشيكوسلوفاكيا وسرعان ما ستشتعل حرب عامة لن يستطيعوا لهـا دفعـاً . وبرغم من الأمر أتى نقيضه ، لم يكن جلياً ، غاية الجلاء ، عن سعي فلانيرن لدعم بريطاني لفعل عسكري فرنسي أو يبغي تنصـل فرنسـا مـن اتخـاذ أي فعـل . ظـن تشرتشل الاحتمال الأخير وقال باقتضاب :

" انها لكلمات شجاعة ، ولكن السيف أصدق أنباءً من الكتب " .

وقرت بريطانيا أذنها لتوسـلات فرنسـا ، فغالبيـة قيادتهـا لم تـني تعتقـد أن السلام يعتمد على نزع السلاح وان النظـام الـدولي الجديـد يتطلـب توطيـده علـى الصلح مع المانيا . وشعر البريطانيون أن تفادي هوات معاهدة فرساي أهــم بكثـير من الوفاء بالتزامات لوكـارنو حيـث أوضـح اجتمـاع لمجلس الـوزراء في ١٧ آذار وبعد عشرة أيام على تحرك هتلر بـ

" أن موقفنا قيد الرغبة بتوظيب عروض هتلر من أجل الوصـول الى تسـوية دائميـــة " .

كان على مجلس الوزراء أن يقول سراً بشـعور المعارضــة بحريتهـا التامـة في الانطلاق بسبيلها دونما قيد . وأعلن عضــو حـزب العمـل (أرثـر عرينـود) ابـان مناظرة حول الشؤون الدفاعيـــة فـــي مجلـس العموم بنفس الشهر :

[أطلق هتلر بياناً أوضح فيه خطأه بيد واحدة ، لكنه ما زال يحمل غصن الزيتون باليد الأخرى وهي ما يجب أن نأخذه بالحسبان أولاً . ولعل هذا أبين آية تجلت حتى الآن ... ومن العبث القول أن هذه البيانات واهية فالقضية هي السلام لا الدفاع] .

أي بكلمات أخرى ، تبنت المعارضة ، تعديلاً لفرساي ، والغاء لمعاهدة لوكارنو وشاءوا لبريطانيا أن تهجع في الخلف لترى أنى يترجم هتلر مراميه ، السياسة الرشيده طالما تفقه متبنوها ان كل سنة تنسلخ لتزيد من بأس المقاومة لو خابت السياسة .

ليس من الضروري احتذاء المنحى الذي طرقته فرنسا وبريطانيا لتحويل النفايات الاستراتيجية ذهباً سياسياً ، أو الاضطراب الشعبي فرصةً لتحقيق سياسة الترضية . فالأهمية تكمُن في تحصين الراين وسقوط أوروبا الشرقية بعيداً عن نجدة فرنسا العسكرية ، دنو ايطاليا الشديد صوب مكافأة هتلر بأول حليف له . وأوضحت بريطانيا ، بارسالها فرقتين لردء الخطر عن حدود فرنسا اذا ما دنست ، التزاماً مشوباً بالغموض الشديد وابطالاً لمعاهدة لوكارنو ، وضماناً مبهماً لفرنسا .

وهنا تملصت بريطانيا بمهارة ، كرة أخرى ، من التزام كامل بالدفاع عن فرنسا . ولكن ما الذي حققته تماماً ؟ ويقيناً أن فرنسا أدركت هذه المراوغة ولكنها قبلتها على أنها خطوة بريطانية حذرة نحو حلف رسمي . ورأت بريطانيا التزامها بارسال فرقتين بأنه وسيلة لتقييد دفاع فرنسا عن أوروبا الشرقية . ولا

يتحقـــق الالتزام البريطاني اذا غزت فرنســا المانيـا دفاعـاً عـن تشيكوسـلوفاكيا أو بولندا ، ومن الناحية الأخرى ، فان فرقتين بريطـانيتين لا تعنيـان شيئاً اداً في ردع هجوم الماني على فرنسا ٠ وذي بريطانيـــا العظمـى ، البلـد الأم لسياسـة تـوازن القوى ، قد طلقت كل علاقة لها بمبادئها القائمة ٠

وشـرعت قبالـة هتـلر ، بفتحـه الرايـن كـرة أخـرى ، أوروبـــا الوســطى بمصراعيها عسكرياً ونفسياً ٠ فقـد تهشـم الأسـاس الاسـتراتيجي لتكبيـل هتـلر في أوروبا الشرقية حالما رضخت الديمقراطيات الغربية لهذه الحقيقة بأنها " أمر واقـع " وساءل وزير الخارجيـة الرومـاني (نيكـولاي تيتولسـكو) لنظـيره الفرنسـي " اذا كنتم قد عجزتم في ٧ آذار عن الدفاع عن أنفسكم فأنى لكم أن تذودوا عنا بوجـه المعتدي ؟ " ٠

وتعاظمت صعوبة الاجابة علـى السؤال علـى أثـر تحصـين الرايـن ٠ ومـن الناحية المعنوية تعقد موقف الديمقراطيات السـلبي كثـيراً وباتـــت الترضيـة سياسـة رسمية ، وتعديل مظالم فرساي رؤيـة باليـة ٠ ففـي الغــــرب لم يـبق أيما أمـر دون تعديل ٠ وتجلى منطقياً أن بريطانيا وفرنسا اذا ما عزفتا عن ضمانـات لوكـارنو ، فليس ثمة ما يحافظ على تسوية فرساي في أوروبـا الشـرقية ، الـتي ارتـابت بشـأنها بريطانيا منذ البداية ورفضـت علـى رؤوس الأشـهاد أن تعطـي ضمانـة بـأكثر مـن مناسبة واحدة – في آخر عهد بارسالها فرقتين الى فرنسا ٠

لقد سلخت فرنسا وقتئذ تقاليد رشليو عنها ٠ وما عادت تتوكأ حتى على نفسها ، بل وتشبثت بتسكين مخاوفها بدعوى طيب نية المانيا ٠ وفي آب ١٩٣٦ ،

بعد مرور خمسة اشهر على اعادة احتلال الراين ، استقبل (ليون بلوم) - وهو يهودي ورئيس وزراء حكومة الجبهة الشعبية التي تضم شيوعيين واحد اليهود ، وزير الاقتصاد الالماني (الدكتور شاخت) في باريس . حيث قال بلوم :

" أنا ماركسي ويهودي ، غير أننا لا نستطيع أن نحقق أي شيء اذا اعتبرنا الحواجز الأيديولوجية شيئاً لا يمكن وثبه " . وهنا تحير (ايفون دلبو) وزير خارجية بلوم في حمل هذا الكلام بمعناه العملي غير :

" تقديم تنازلات بطيئة لألمانيا بهدف درء شبح الحرب " ، ولم يوضح ما اذا كان لهذه العملية مسك ختام . وذي فرنسا البلد الذي خاض غمار حروب لا حصر لها خلال مئتي عام في أوروبا الوسطى بغية الحفاظ على مصيرها ، قد تراجعت الى التشبث باي قشة ترسيها في ميناء الأمن ولو بتقديم التنازلات التدريجية بمرور الزمن ، والتمسك بأمل اشباع شهوات المانيا أو ولاده أمر مجهول يدرء عنها الخطر . انها سياسة الترضية التي نفذتها فرنسا باحتراس ، واتبعتها بريطانيا بحماس ، ففي عام ١٩٣٧ وبعد اعادة تسليح منطقة الراين ، كشف وزير خارجية بريطانيا (اللورد هاليفاكس) تقهقر الديمقراطيات المعنوي حين زار هتلر بمنتجعه في (برختسفادن) . لقد أطرى على المانيا النازية فهي " حصن أوروبا الحصين بوجه البلشفية " وسرد عدداً من القضايا مع الاشارة لـ " تعديلات ممكنة مع مرور الزمن " . وكانت دانزيغ ، وتشيكوسلوفاكيا ، والنمسا من بين ما تطرق له بشكل خاص ، أما تحذيره الوحيد المتعلق بأسلوب هذه التغييرات فهو : " ان انكلترا لتأنس التغييرات من عدسة التطور السلمي وينبغي تحاشي الأساليب التي يمكن أن تسبب اضطرابات واسعة النطاق " .

ويقيناً أن يفقه ، حتى الزعيم الأُبط عزيمة من هتلر ، أن بريطانيا اذا كانت مستعدة لقبول تعديلات في النمسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، والممر البولندي ، فانها ستعترض فقط على الأسلوب الذي تتبعه المانيا في اجراء هذه التعديلات . ولما كانت بريطانيا قد أدركت المرام ، فلم عليها أن ترسي ملامح الاجراء ؟

وأي حجة سليمة ممكنة قد يتوقعها هاليفاكس ليقنع الضحايا بفضائل الانتحار ؟ لقد اعتبرت هرطقت العصبة ومبدأ الأمن الجماعي " أسلوباً " تحويرياً ينبغي مقاومته ، ولكن التاريخ يطالعنا أن البلدان تركب الحرب بهدف مقاومة " حقيقة " التغيير .

وكان موقف فرنسا قد تردى كثيراً في وقت زيارة هاليفاكس لهتلر ، ففي تموز ١٩٣٦ أضرم انقلاب عسكري للجنرال (فرانسسكو فرانكو) فتيل أهلية أسبانية . وكان فرانكو يتلقى دعماً على شكل شحنات كبيرة من المعدات من المانيا وايطاليا ، وسرعان ما أرسل " متطوعون ألمان وطليان " ، ولاح أن الفاشية سوف تبث أفكارها بالقوة . لقد واجهت فرنسا الآن نفس التحدي الذي قاومه رشليو قبل ٣٠٠ سنة - أفق الحكومات المعادية من كل حدب وصوب ولكن زعماء فرنسا ، بخلاف سلفهم ، قد أدركهم العجز والضعف عن تحديد ما يخشوه أكثر - أهي الأخطار التي يواجهونها أم الوسائل المطلوبة لدرئها ؟

لقد شاركت بريطانيا في حرب وراثة العرش الأسباني ، مستهل القرن الثامن عشر ، وحاربت نابليون في أسبانيا بعد قرن واحد . وفي تينك الحالتين جابهت محاولة اعدى القوى الأوروبية لجر أسبانيا نحو فلكها ، أما الآن فهي قبالة

تهديد لتوازن القوى لا تعي فيه انتصاراً فاشياً في اسبانيا ، أو اعتبرت الفاشية تهديد أخف من اسبانيا اليسارية الراديكالية المرتبطة بالاتحاد السوفيتي (وهو ما بدا أكثر التصورات احتمالاً) . لكن بريطانيا تحاشت ، قبل كل أمر ، الحرب ، فحذر مجلس الوزراء البريطاني فرنسا بتبوأ جانب الحياد لو نشبت حرب بسبب شحنات الأسلحة الفرنسية الى أسبانيا الجمهورية - حتى لو كان لفرنسا بموجب القانون الدولي ، كل الحق في بيع أسلحة الى حكومة أسبانيا الشرعية . وترددت فرنسا ثم حظرت شحنات الأسلحة ، منتهكة هذا الخطر في بعض الأحيان ، فقلصت هذه السياسة أصدقاءها وشيعت عنها احترام خصومها .

وفي هذا الجو التقى زعماء فرنسا وبريطانيا في لندن في ٢٩-٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٧ ، لرسم منهج مشترك ، وأثار نيفيل تشمبرلين ، خليفة بالدوين في رئاسة الوزراء ، بيت القصيد فوراً حيث دعا الى مناقشة التزامات فرنسا بمقتضى حلفها مع تشيكوسلوفاكيا . فذي المنحى الذي يطرقه الدبلوماسيون المتشككون حين يتشبثون بايما قشة تقدرهم على التملص من الوفاء بالتزامهم . لقد كان استقلال النمسا غير أهلاً للتداول . وأجاب وزير خارجية فرنسا دلبو بطريقة أوحت أنه فهم مضامين تلك القضية تماماً وبصورة واقعية ، فاستطب قضية تشيكوسلوفاكيا باعتبارات شرعيه لا سياسية أو استراتيجية ، ثم أرسى لنفسه مرمى محدداً وهو التفسير القانوني الدقيق لالتزام فرنسا فقال :

[تمس هذه المعاهدة فرنسا اذا ما رزحت تشيكولوفاكيا ضحية اعتداء . واذا ما نشبت اضطرابات في صفوف السكان الألمان ودعمهم التدخل

المسلح من المانيا ، فالمعاهدة تلزم فرنسا بأسلوب يرسي معالمه جسامة الحقائق آنذاك] .

ابتعد دلبو عن مناقشة الأهمية الجيوسياسية لتشيكوسلوفاكيا أو التأثير الذي سيحدثه تخلي فرنسا عن حليفتها على مصداقية البلد في المحافظة على استقلال بلدان أوروبا الشرقية . عوضاً عن ذلك شدد التزام فرنسا الخياري عند حصول تهديد حقيقي - وهو الاضطرابات التي تثيرها الأقلية الألمانية في تشيكوسلوفاكيا وتدعمها القوة العسكرية الألمانية . فقبض تشمبرلين على كوة التنصل هذه وحولها الى أساس منطقي للترضية :

[تلوح ثمة رغبة لعمل اتفاق ما مع المانيا بما يتعلق بأوروبا الشرقية ، مهما كانت مرامي المانيا ، حتى لو رغبت بابتلاع بعض جاراتها . وبوسع المرء يترجى ارجاء تنفيذ المخططات الألمانية ، لتكبيل الرايخ ريثما تمسي مراميه غير ذات جدوى ، في نهاية المطاف] .

اذا ما انقلب التأجيل عبثاً ، فما الذي ستقدم عليه بريطانيا العظمى ؟ واذا ما ارتضت بتعديل المانيا حدودها الشرقية ، فهل ستهرع بريطانيا للحرب وفق جدول زمني ؟ والاجابة واضحة - أن البلدان لا تخوض حرباً حول نسبة من التغيير قبلت بها أساساً . وعليه نحرت تشيكوسلوفاكيا ليس في ميونيخ بل في لندن في العام المنصرم .

وارتأى هتلر لما طرأ ، أن يميد استراتيجيته بعيداً ، ذلك الوقت عينه ، وبسط آرائه ، في تجمع الكبار ضباط المانيا في ٥ تشرين الثاني ١٩٣٧ مفصحاً عن

الاستراتيجية الصريحة ٠ احتفظ مساعده (هوسباخ) بسجل مفصل لها ، ولم يكن لدى أي من الحاضرين عذراً للتذمر فيما بعد أنه يجهل المنحى الذي كان زعيمه منطلقاً به ٠ وذكر هتلر دون غموض أن أهدافه تذهب لأبعد بكثير من استعادة موقع المانيا لما قبل ، كما أشار هو برنامجه المدرج في " كفاحي " - احتلال أقاليم شاسعة من أوروبا الشرقية ومن الاتحاد السوفيتي ٠ وعلم جيداً أن هذا المشروع سيصادف مقاومة :

" على المانيا أن تحسب حساب الأعداء البغضاء ، انكلترا وفرنسا " ٠ وشدد أن المانيا قد سبقت بريطانيا وفرنسا في اعادة تسلحها غير أن هذا التمايز سيتوارى مع الزمن غداة عام ١٩٤٣ ٠ وتحتم اذن قرع طبول الحرب قبل ذلك التاريخ ٠

أصيب جنرالاته بحيرة لجسامة مخططاته وسعتها ووطأة الشروع بها ، فتداركوا الأمر بصورة عديدة ٠ فكر بعض القادة العسكريين بانقلاب ، ولما يعطي هتلر الضوء الأخضر للحرب ٠ بيد أنه سبقهم التحرك اذ أغفت نجاحاته المبكرة المذهلة ، جنرالاته من ايجاد المسوغ الأخلاقي (في نظرهم) للقيام بهكذا خطوة ٠

ما قولنا في الديمقراطيات الغربية ؟ انها لم تستوعب الفجوة الأيديولوجية التي فصلتها عن الدكتاتور الألماني وآمنت بالسلام نهاية ، وأوسعت صدرها تفادياً للحرب ٠ هاب هتلر السلام وتاقت نفسه للحروب ، فقد كتب في " كفاحي " : " نشأ الجنس البشري قوياً بباعث من الصراعات الخالدة ، وسيفنى بحلول السلام الآبـــد " ٠

أنس هتلر ، بحلول عام ١٩٣٩ ، في أناه القوة الكافية لتخطي الحدود القومية التي رسمتها معاهدة فرساي . فكان أول أهدافه بلده الأم (النمسا) التي كانت بموقع مضطرب بمقتضى تسوية (سانت جرمان) لعام ١٩١٩ وتسوية (تريانون) لعام ١٩٢٠ . وكانت النمسا حتى عام ١٨٠٦ مركز الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وغدت عام ١٨٦٦ ولاية المانية رائدة - أو ((الولاية)) الرائدة حسبما يرى البعض . وبعد أن جردها بسمارك من دورها التاريخي في المانيا ، امست تتكأ على ممتلكاتها في البلقان وأوروبا الوسطى ريثما فقدتها في الحرب العالمية الأولى . وحظرت معاهدة فرساي عليها أن تنضم الى المانيا - وهو بند يتعارض بكل وضوح مع مبدأ تقرير المصير . ومع ذلك بقي الاتحاد مع المانيا (الانشلوس) غاية كثيرين من جانبي الحدود النمساوية - الالمانية (بضمنهم سترسمان) ، فأغلقها الحلفاء مرة أخرى سنة ١٩٣٠ .

وهكذا ، انطوى اتحاد المانيا مع النمسا على معنى الغموض الضروري جداً لنجاح هتلر في أوائل تحدياته ، فنفذ مبدأ تقرير المصير في حين أساء لمبدأ توازن القوى الذي كان ساسة الدول أقل رغبة بالاستشهاد به لتسويغ اللجوء للقوة . ففي أعقاب شهر من اطلاق التهديدات النازية وتقديم النمسا تنازلات ، زحفت القوات الألمانية الى النمسا في ١٢ آذار ١٩٣٨ ، ولم تتلق مقاومة أمامها . استبشر الشعب النمساوي الأمر ببهجة واستحب أن يقطن مستقبلاً في اقليم الماني على أن يكون لاعباً أساسياً في مسرح أوروبا الوسطى ، بعد أن جردت من امبراطوريتها ومكثت لا حول لها ولا قوة في أوروبا الوسطى .

نادراً ما جسدت احتجاجات الديمقراطيات الهيابة ضد ضم المانيا للنمسا همّا أخلاقياً ، وتوارت عن اتخاذ أية اجراءات ملموسة . وبعد أن قرع ناقوس موت الأمن الجماعي ، لزمت عصبة الأمم الصمت حين ابتلع عضو فيها على يد جار قوي . فاغرقت الديمقراطيات لترضية سياستها المرضية رجاءة أن يتوقف هتلر عن مزيد من التحركات حالما يعيد الاعراق الألمانية الى حضن الوطن الأم .

وأختار القدر تشيكوسلوفاكيا لتكون كبشاً فداء هذه التجربة ، لأنها تجتنح ، كدول امبراطورية النمسا - المجر ، جنسيات متعددة ، فكان من بين السكان الخمسة عشر مليونا ، ثلث لا يحملون الجنسيه التشكيليه أو السلوفاكية . وكان فيها ثلاثة ملايين ونصف المليون الماني ، وما يقارب مليون مجري ، ونحو من مليون بولندي في الدولة الجديدة . وما زاد الطين بلة اقامة هذه الأقليات في مدن متاخمة لبلدانها الأم ، فارتفعت الدعوات بوجوب عودتها الى بلدانها الأم ، وبحدة أكبر على ضوء الحكمة السائدة لمعاهدة فرساي الناطقة بتقرير المصير .

وكانت تشيكوسلوفاكيا في عين الوقت خير الدول الجديدة من الناحيتين السياسية والاقتصادية . فهي ديمقراطية أصلاً وتتمتع بمستوى معيشي يضاهي مستوى سويسرا . ولديها جيش لجب معظم معداته الممتازة تشيكيه طرازا وصنعا وترتبط بأحلاف عسكرية مع فرنسا والاتحاد السوفيتي . وترى سياقات الدبلوماسية التقليدية ان من العسير التخلي عن تشيكوسلوفاكيا ، أو الدفاع عنها بنفس المقياس طبقاً لمفاهيم تقرير المصير . وبعد أن أطمأن هتلر الى اعادة تسليح الراين ، شرع بتهديداته لتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٧ باسم الأعراف الألمانية التي

تضمها – وفي البدء تجلى من هذه التهديدات مسعى الضغط على التشيك بمنح حقوق خاصة للأقلية الألمانية في " أرض السوديت " كما نعتت الدعاية الألمانية ذلك الاقليم . ولكن هتلر أزم حدة تهديداته عام ١٩٣٨ ليعلن نيته بضم السوديت الى الرايخ الألماني بالقوة . وكانت فرنسا والاتحاد السوفيتي مرتبطين بالتزام حماية تشيكوسلوفاكيا ، برغم أن المساعدة السوفيتية مشروطة بالفعل الفرنسي المسبق . وعلاوة على هذا ، ثمة شك باذن بولندا أو رومانيا للقوات الروسية بالمرور عبر أراضيها للدفاع عن تشيكوسلوفاكيا .

نزعت بريطانيا العظمى للترضية منذ البدء . واعادها ليفاكس الى أذهان قادة فرنسا ، في ٢٢ آيار وبعد ضم النمسا ، ان ضمانة لوكارنو على الحدود الفرنسية يمكن ان تلغي اذا وفت فرنسا بالتزاماتها في أوروبا الشرقية .

ورأت بريطانيا العظمى أن حدودها الأساسية تقع عند حدود فرنسا ، فاذا ما اتسعت اهتمامات فرنسا الأمنية ، أوحاولت الدفاع عن تشيكوسلوفاكيا ، فستكون تلك مسؤوليتها في عاتقها وحدها . وبعد انطواء أشهر قليلة أرسل مجلس الوزراء البريطاني لجنة تقصي حقائق الى (برغ) بزعامة (اللورد رونسيمان) للبحث في الوسائل الممكنة للمصالحة . وظهر أن النتيجة العملية لارسال تلك اللجنة هو اعلان نفور بريطانيا العظمى من الدفاع عن تشيكوسلوفاكيا . الحقائق الجلية أصلاً فأية مصالحة متوقعة تقتضي رقع من أوصال تشيكوسلوفاكيا . وعليه لم تكن ميونيخ استسلاماً بل ايضاحاً للحالة العقلية والنمو المتخم لجهود الديمقراطيات في استتباب تسوية مشوهة جيوسياسياً بخطب بليغة طنانة عن الأمن الجماعي وتقرير المصير .

وحتى أمريكا المعنية أكثر بانشاء دولة تشيكوسلوفاكيا نفضت يدها من الأزمة في أول مراحلها ، واقترح الرئيس روزفلت في تشرين الأول ، عقد مفاوضات على أساس محايد . ولكن اذا ما كانت تقارير السفارات الأمريكية في الخارج دقيقة ، فليس ثمة وهم يساور روزفلت حول مواقف فرنسا وبريطانيا عند عقد أي مؤتمر بهذا الخصوص . والحق أن روزفلت قد شجع على اتخاذ هذه المواقف بجهره أن " حكومة الولايات المتحدة لن تقوم بأية التزامات في سياق المفاوضات الجارية " .

لقد تهيأ الوضع كانه تدبير خاص للادلاء بموهبة هتلر في شن حرب نفسية ، لأنه دأب طيلة الصيف على ترويع الهلع من حرب وشيكة دونما شروعه بأية تهديدات ملموسة . وانفجرت عواطف تشمبرلين ، نهاية المطاف ، عندما شن هتلر هجوماً وحشياً غادراً على القيادة التشيكية ابان مسيرة للحزب النازي السنوية في نورمبرغ ، وصادف الهجوم مع استهلالة تشرين الأول عام ١٩٣٨ . قرر تشمبرلين أن ينهي التوتر بزيارة الى هتلر بالرغم من عدم تقديمه أية مطالب رسمية ، أو حصول أي تبادل دبلوماسي . أظهر هتلر احتقاره لتشمبرلين عندما اختار (برخستعادن) مكاناً للقاء - وهو أبعد مكان في المانيا عن لندن وأعسر مكان يمكن الانتهاء اليه ، ويسلخ السفر من لندن الى برختسغادن خمس ساعات بالطائرة ، في أول رحلة جوية لتشمبرلين وهو في التاسعة والستين .

وافق تشمبرلين على تشريح أوصال تشيكوسلوفاكيا بعد أن أذعن ساعات الى مزاعم هتلر بسوء معاملة الألمان في السوديت ، فتحتم ان تحظى المانيا جميع مناطق تشيكوسلوفاكيا التي يقطنها أكثر من ٥٠٪ من السكان الألمان . وستصاغ

التفاصيل في اجتماع لاحق في غضون أيام في (باد غودسبرغ) في منطقة الراين . وآيــة أسلوب هتلر التفاوضي أنه نعت مكان الاجتماع اللاحق " تنــازلاً " ، وهـو لا يزال ضمن حدود المانيـا وأقـرب الى لنـدن مـن المكـان الأول . وابـان مـا بـين الاجتماعين " أقنع " تشمبرلين الحكومـة التشيكوسـلوفاكية بقبـول مقترحـه الـذي كان " المحزن " حسب تعبير قادة تشيكوسلوفاكيا .

وأزف الثـاني والعشـرون مـن أيلـول بجهـر هتــلر مبتهجــاً أنــه رام اذلال تشيكوسلوفاكيا واهانتها ، فأبى اجراء الاسـتفتاء العـام المسـتغرق لكـل المنـاطق أو احداث تعديلات حدودية . وطالب بـاخلاء فـوري لأقليـم السـوديت كلـه كلـه ويستهل في ٢٦ أيلول (أي بعد أربعة أيام) وتكتمل بما لا يزيد عن ثمانية وأربعـين ساعة ، ويجب ترك المنشآت العسكرية التشكيلية سليمة بيد القوات الألمانية .

وسعى هتلر ، على الاجهاز على عقابيل الدولة ، فطـالب بتعديـل الحـدود مع هنغاريا وبولندا لصالح الأقليات . وعندما أبى تشـمبرلين أن يقـدم لـه انـذاراً ، أشار هتلر بيده بخبث الى كلمـة " مذكـرة " المطبوعـة في أعلـى الورقـة ، وقـدم " تنازلاً " آخر ، بعد انسلاخ ساعات من الجـدل الحـاد ، سيمهل تشيكوسـلوفاكيا حتى الثانية بعد الظهر من يوم ٢٨ أيلول لتقديم اجابتها ، وحتـى ١ تشـرين الأول لبدء الانسحاب من السوديت .

ما كان بوسع تشمبرلين أن يكره نفسه على التسبب بمثل هذا الاذلال التـام لتشيكوسلوفاكيا ، وسار رئيـس الـوزراء الفرنسـي دالاديـر بهـذا السـبيل وهكـذا لاحت الحرب وشيكة بعد أيام عدد . وحفرت المواضع في المراتب البريطانيـة ، في

حين علق تشمبرلين بكآبة أن بريطانيا العظمى سألت أن تمضي الى حرب من أجل بلد بعيد لا تفقه عنه شيئاً – هذا الكلام أطلقه قائد بلد قاتل قروناً في الطرقات نحو الهند من دون أن يرف له جفن . ولكن ما هو " سبب الحرب " ؟ لقد ارتضت بريطانيا أصلاً مبدأ تشريح أوصال تشيكوسلوفاكيا وتقرير مصير الألمان في اقليم السوديت لقد دنت بريطانيا وفرنسا من قرار الحرب ليس للحفاظ على حليف لهما بل بباعث من تباين يسير خلقته الأسابيع المؤخرة ويمكن تفاديه ، ولتعديلات اقليميه هامشيه ، لو قورنت بازاء ما تم سلخه . الحق أن موسوليني أبعد الجميع عن الحومة قبيل انتهاء المهلة مقترحاً توسيع المؤتمر المخطط له بين وزيري خارجية ايطاليا والمانيا ليشتمل على زعماء الحكومات الأربع : فرنسا (دالاديه) ، وبريطانيا العظمى (تشمبرلين) ، والمانيا (هتلر) ، ايطاليا (موسوليني) .

التقى القادة الأربعة في ٢٩ أيلول في ميونيخ ، مكان ولادة الحزب النازي ، وانسلخ وقت بسيط في المفاوضات : اذ بذل تشمبرلين ودالاديه محاولة حذرة للعودة الى مقترحهما الأصلي ، وقدم موسوليني ورقة تتبطن مقترح هتلر في بادغودسبرغ ، وحدد هتلر نقاطه بشكل انذار تهكمي . لقد رأى هتلر لمسألته تنفيذاً ، لأن موعده النهائي (١ تشرين الأول) قد أجلسه متهماً باثارة جو العنف . أي أن الغرض الأساسي من هذا المؤتمر هي قبول برنامجه في بادغودسبرغ سلمياً قبل أن يفرضه بالحرب .

و لم يترك تصرف تشمبرلين ودالاديه في الأشهر الماضية خياراً لهما غير قبول مسودة موسوليني . بينما خلف الممثلون التشيك ، في الغرف الخلفية بلدهم يتقطع ارباً ارباً . لم يحظ الاتحاد السوفيتي بدعوة الى المؤتمر . وخففت بريطانيا وفرنسا

تأنيب ضميريهما بتقديم ضمانة لما تبقى من تشيكوسلوفاكيا منزوعة السلاح - انها إيماءة مضحكة من الدول التي رفضت الوفاء بالتزاماتها لديمقراطية مناصرة سليمة جيدة التسلح ، وغني عن القول أن هذه الضمانة لم تنفذ بالطبع .

دخلت ميونيخ قاموسنا باعتبارها شيئاً شاذاً ، انها عقوبة الرضوخ للابتزاز . وعلى أية حال لم تكن فعلاً وحيداً بل مخاض سلسلة مواقف أضرمت في العشرينات وتسارعت مع كل تنازل جديد . وأخذت المانيا طيلة ما يربو عقد ترمي عن نفسها قيود فرساي واحداً أثر أخر : فقد خلصت جمهورية فايمار المانيا من التعويضات ، ومن لجنة السيطرة العسكرية الحليفة ، وكذلك من الاحتلال الحليف لأرض الراين . وأجهر هتلر رسمياً على القيود المفروضة على التسلح الالماني ، وخطر التجنيد الالزامي ، والغى بنود نزع السلاح لميثاق لوكارنو و لم تقبل المانيا حتى في العشرينات الحدود الشرقية ، و لم يجبرها الحلفاء قط على قبولها . وأخيراً ، ومثلما يحصل في الغالب ، خلقت الأحداث زخمها الخاص بها نسبياً .

وأنى للحلفاء ، ولما يعترفوا بظلم تسوية فرساي ، على الأساس النفسي للذود عنها ؟ لقد صنع منتصرو الحروب النابليونية سلاماً سخياً ، بيد أنهم رتبوا الحلف الرباعي تفادياً لأي التباس بشأن دفاعهم عنه ، أما منتصرو الحرب العالمية الأولى فخلقوا سلاماً عقابياً وتعاضدوا على تفكيك هذه التسوية في أعقاب تهيئة أقوى حافز للتعديل .

اعتـور الرفـض والاستخفاف مـيزان القـوى ، طيلـة قرنـين ، فأنبـأ قـادة الديمقراطيات شعوبهم وجوب اسناد النظام العالمي على أسس معنويـة أسمـى ٠ واذ تراءى التحدي للنظام الدولي أخيراً ، لم يعد أمام الديمقراطيات ما تفعلـه سـوى أن تتجرع كأس الاذعان لتبين لشعوبها استحالة ترضية هتلر ٠

وهذا ما يوضح علة الحفاوة التي لقيت بها اتفاقية ميونيخ مـن لـدن الغالبية الكبرى مـــن مجايليها ، فكان فرانكلين روزفلت من بين مهنئي تشمبرلين ناعته أنه " رجل طيب " ، بينمـا كـان الاسراف في كيـل المديـــح ديـــدن الكومنولـث البريطاني ٠ وكتب رئيس الوزراء الكندي :

[أنقل اليكم تهاني الشعب الكندي الحارة مشفوعة بتعابير العرفان الـتي انتشـرت مـن دومينـون الى آخـر ٠ ويشـاركني زملائـي في كيـل مشاعـــر الاعجـــاب بجوالة الخدمات التي قدمتموها لمعشر الجنس البشري] ٠

وهرع رئيس الوزراء الاسترالي ليبز :

[يسرنا أن نعرب عن أحر تهانينا لمآل مفاوضات ميونيخ ان الاستراليين ومعهم كل شعوب الامبراطورية البريطانية لمدينون بالعرفان لكم على جهودكـم الرامية لحفظ السلام] ٠

ولمن الغرابة حقاً أن يأنس جميع شهود العيان على مؤتمر ميونيـخ أن الكآبـة انتابت هتلر بدلاً من أن يمتلأ فؤاده بسرور الانتصار ، لقد طلب الحرب التي عدهـا شيئاً لا غنى عنه لتحقيق طموحاته ، أو لعله ابتغاها لدواعي نفسـية أيضـاً ، بـالنظر

الى اشتمال جميع خطبه العامة تقريباً على تجاربه الحربية بطريقة أو بأخرى . وهجر ميونيخ مستبد بشعور الانخداع بالرغم من شدة معارضة جنرالاته للحرب - الى حد التخطيط ايجاد للاطاحة به حال صدور آخر قراراته بالهجوم . وربما كان هتلر على حق بالنظر الى حساباته المعاكسة ، فلو أنه أزمع شن حرب بشأن تشيكوسلوفاكيا ، ربما لن تنحر الديمقراطيات الضحايا لكسبها ، بدعوى أن القضية لا تنسجم مع مبدأ تقرير المصير ، وأن الرأي العام لم يكن مهيئاً بكفاية للتقلبات الابتدائية المؤكدة تقريباً لهذه الحرب .

ومن دواعي المفارقة أن أضحت ميونيخ النهاية النفسية لاستراتيجية هتلر . فقد تمكن ، حتى ذلك الوقت ، من استغلال شعور الديمقراطيات بتبكيت الضمير من مظالم فرساي . وغداة ذلك التاريخ لم يعد بيده سوى سلاح القوة المجردة ، ووقف أكثر الأطراف خشية من الحرب حيارى عما ينقدوه ثمناً للابتزاز ، قبيل أن يتبنوا موقفاً ما .

وينطبق هذا القول على بريطانيا بشكل خاص لأن هتلر قد نضب ، بتصرفه في باد غودسبرغ وفي ميونيخ ، جميع ما بجعبة بريطانيا من نوايا طيبة . بينما وطد تشمبرلين العزم على تفادي الابتزاز كرة أخرى ، واعادة التسلح الواسع ، برغم من أنه أطلق تصريحاً أحمقاً عند عودته الى لندن " أتيت بالسلام لعصرنا " .

كان التعقيد سمة تصرف تشمبرلين في ميونيخ واقعاً ، أكثر مما صورته الأجيال القادمة ، فقد جنح الى الاستسلام بعد أن حظي بتأييد شعبي طاغ في أعقاب لقاء ميونيخ . أن الجمهور الديمقراطي لا يعرف المغفرة عند التعامل مع

المعضلات حتى حين تنجم عن تنفيذ الرغـائب الآنيـة ، فأنهـارت سمعـة تشـمبرلين حالما تجلى عدم تحقيقه " السلام لعصرنـا " ، عندمـا ألفـى هتلر حجـة ذريعـة للحـرب ٠ لم يعـد تشـمبرلين حينئـذ يكسـب حتـى الثقـة لادارة العمليـة وكـانت بريطانيا العظمى قادرة على التصدي للعاصفة شعباً موحداً وبقوة جوية ناهضة مرة أخرى ٠

ويبدو الأمر يسيراً الانتقاص من الادعاءات السـاذجة لبعـض المهدئـين ٠ لكن معظمهم طيبو الطوية تائقون بلهفة الى تصريف الأمور بادارة جديدة تنهل من المثاليـة الولسـونية في خضـم سـحابة خيبـة الأمـل العارمـة بالدبلوماسـية الأوروبيـة التقليدية ، والشعور الطـاغي بالانهـاك الروحـي والجسـدي اذ لم تشـهد أيـة فـترة سابقة فلاح رئيس وزراء بريطاني في تبرير اتفاقية بالطريقة التي اتبعها تشمبرلين في ميونيخ – باعتبارها " تبديداً للشكوك والحزازيات التي سممت الجو ردحاً طويلاً " – كما لو كانت السياسة الخارجية فرعاً من علم النفس ٠ اضف الى ذلك انطلاق جميع هذه الآراء من المفهوم المثالي الذي يسمو على ارث السياسة الواقعية والتاريخ الأوروبي ، باحتكامه الى العقل والعدل ٠

ما لم يسلخ هتلر من الوقت عظيماً لتبديـد أوهـام دعـاة الترضيـة ، فعجـل بسقوطه النهائي ٠ وتمثل هذا الأمر باحتلاله ما تبقى مـن تشيكوسـلوفاكيا في آذار ١٩٣٩ بعد أقل من ستة أشهر على لقاء ميونيخ ٠ وغـدا الـجزء التشـكي محميـة المانية ، واعتبرت سلوفاكيا دولة مستقلة فنيـاً ، تابعـة الى المانيـا ٠ ولم يرتـد تعهـد بريطانيا العظمى وفرنسا بالمحافظة على تشيكوسـلوفاكيا في ميونيـخ بزتـه الرسميـة ، وما كان له أن قط أن يتوشحها ٠

لم يحدث تدمير تشيكوسلوفاكيا أيما تغيير جيوسياسي وأماط اللثام عن حقيقة خروج هتلر عن الحسابات العقلانية وانكبابه على الحرب . تحتم على تشيكوسلوفاكيا أثر حرمانها من دفاعاتها وحليفيها الفرنسي والروسي ، ان تنزلق نحو الفلك الألماني ، ولا مناص من تكييف أوروبا الشرقية نفسها لحقائق القوة الجديدة . لقد طهر الاتحاد السوفيتي قيادته السياسة والعسكرية ولن يغدو عنصراً له وزنه ردحاً من الزمن . لم يكن أمام هتلر الا الانتظار ، اذ ستظهر المانيا في الخاتمة قوة مسيطرة على أوروبا الشرقية أثر تبوأ فرنسا جانب الحياد العملي . ولا جرم ان الانتظار أقل ما استطاع له هتلر فعلاً .

لم يصنع رد الفعل البريطاني والفرنسي المتمثل برسم الحدود تغييراً ضئيلاً تماماً على سياسة القوى التقليدية ، و لم يحور الاستيلاء على براغ ميزان القوى ولا مسار الأحداث المنظور . ولكن احتلال تشيكوسلوفاكيا أرخ انعطافة كبرى خطيره لمباديء فرساي لكشفه سعي هتلر الى الهيمنة على أوروبا وليس تقرير المصير أو المساواة .

و لم يدنس هتلر ، بتخبطه ، المباديء التاريخية للتوازن بزعم أنه اهانة الى الأركان الأخلاقية لسياسة بريطانيا الخارجية لما بعد الحرب . لقد اقدم على ذلك الانتهاك عندما ضم سكان ((غير المان)) الى الرايخ ، وبذا خرق مبدأ تقرير المصير ، الدعوى التي صرفت النظر عن جميع تجاوزات هتلر السابقة . لم يكن صبر بريطانيا ، كفعل الحلماء ، أو مخاض شخصية وطنيه متقلقلة ، فهتلر قد أكمل تعريف الرأي العام البريطاني عن معنى الاعتداء ، أو في أقل احتمال رأي

الحكومة . وما انسلخت الا حفنة أيام حتى ناغم تشمبرلين سياسته مع الرأي العام ، الذي انبرى لمقاومة هتلر بباعث أنه ليس باهل للثقة .

ومما يثير السخرية أن المفهوم الولسوني للعلاقات الدولية الذي مهد السبيل لتوغل هتلر وراء كل ما يقبله أي نظام أوروبي سابق ، قد حدا في مرحلة معينة لبريطانيا العظمى على اتخاذ قرارها بعناد أكبر مما كانت ستفعل في عالم قائم على السياسة الواقعية .

فاذا حالت الولسونية دون مقاومة هتلر في البدء ، فانها أيضاً قد أرست أساس المعارضة الكأداء له حالما خرق معيارها الأخلاقي جلياً .

وحين ادعى هتلر بدانزيغ سنة ١٩٣٩ وتعديل الممر البولندي ، لم يكن ثمة اختلاف بين قضية اليوم وقضايا العالم الماضي من الناحية الأساسية ، فدانزيغ مدنيه المانية جوهراً توارت حرية المدينة بوجه مبدأ تقرير المصير مثلما حصل بضم اقليم السوديت الى تشيكوسلوفاكيا . وكان ميسوراً تماماً ، وفي الأقل نظرياً ، اجراء تعديل ما للحدود بتوافق ومبدأ تقرير المصير ، بالرغم من تعدد أعراق الممر البولندي . ومع ذلك استعصى على فهم هتلر حين تخطى الحد المقبول أخلاقياً ، ان تحول نفس الكمال الأخلاقي الذي أشاع روح الاستكانة سابقاً لدى الديمقراطيات ، الى تصلب وعناد لا سابق له . ففي أعقاب احتلال المانيا لتشيكوسلوفاكيا ، لم يعد يحتمل الرأي العام البريطاني أية تنازلات أخرى ، ومن تينك الساعة غدا اندلاع الحرب العالمية الثانية مسألة وقت لا غير - الا اذا استكن هتلر وقر ، الأمر الذي ثبتت استحالته النفسية وكتب على النظام الدولي قبل

حلول ذلك الحادث القدري على أية حال ، ان يتلقى صدمة أخرى ، وهـذه المـرة من قوة تعديلية عظمى تجاهلها طيلة معظم حقبة الثلاثينات الصاخبة - انـه الاتحـاد السوفيتي بزعامة ستالين .

الفصل الثالث عشر

مزاد ستالين

ما كان لهتلر وستالين أن يلتقيا يداً بيد لو كان للأيديولوجية ضرورة مصيرية على السياسة الخارجية ، مثلما التقى رشليو والسلطان التركي قبل ثلاثة قرون . بيد أن المصلحة الجيوسياسية المشتركة وشاج متين جمع بين هتلر وستالين بوحدة أهداف وثيقة العرى .

واذ حصل هذا التواءم ، شابت الديمقراطيات شائبة الشك فأفصح ذهولها عن ضآلة معرفتهم بخصال ستالين مثلما جهلوا طبيعة هتلر . لقد تشكلت سيرة ستالين مثل صنوه هتلر ، من شعاب المجتمع وأن استغرق وقتاً أطول قبل امساكه بالسلطة المطلقة بينما حدا اتكال هتلر على براعته في اثارة أهواء الدهماء ، به الى المخاطرة بكل شيء بمجرد رمية نرد واحدة ، ودانت السلطة لستالين عبر التعمية على أدوار منافسيه من خلف الكواليس ضمن اطار البيروقراطية الشيوعية ، أيام تغافل المتطاحنون الآخرون عنه لاستصغارهم أن يكون ذلك الجيورجي الفاسد منافساً خطيراً . واذ قطف هتلر ثمار نجاحه طغى على أقرانه بنواياه الجوهرية التي وطد نفسه عليها ونبذ ما سواها ، تربع ستالين على العرش قادماً من صفحات المجهول .

ونقل هتلر معه عاداته البوهيمية وشخصيته المتقلبة الى مختبر صنع القرار ، مضفياً على حكومته ميزة التشنج وأحياناً الهوس بالفنون ، فقد هضمت شخصية

ستالين التعاليم الدينية التي تلقاها في صباه فأستحالت تأويلات متشددة حددت نظرة البلشفية للعالم ، وحولت الأيديولوجيا الى أداة للمراقبة السياسية . واذ كتب النجاح لهتلر بفضل توقير الجماهير وبتبجيلها اياه ، استبد خيون الارتياب بستالين فتلاشى تعويله على هكذا تصرف شخصي . فالنصر النهائي مرامه الأثير لا الاستحسان الآني ، الذي حث مسيره اليه بتحطيم جميع منافسيه واحداً واحداً .

لا مفر من تحقيق جميع طموحات هتلر خلال سني حياته ، فما مثل في خطاباته غير نفسه . وجنون العظمة سمة ستالين بنفس المقدار الا رؤيته نفسه خادماً للحقيقة التاريخية ، متبايناً مع هتلر في تحليه بصبر عجيب ، ومع قادة االديمقراطيات الأخرى في استعداده أنى وقت لاجراء دراسة دقيقة مفصلة لعلاقات القوى . ولما امتلأ اقتناعاً من تجسيد ايديولوجيته الحقيقة التاريخية ، وانطلق بلا هوادة في سبيله مبتغياً المصالح القومية السوفيتية غاضاً طرفه عما عده خزعبلات أخلاقية نفاقية أو معايير عاطفية .

لبشع ستالين حقاً ، لكنه مثل في مضمار السياسات الدولية الواقعي المبجل - فهو داهية لا يشق له غبار ، وعنيد صبار ، ورشليو عصره . لقد تنكب قادة الديمقراطيات الغربية سبل المخاطر لما عولوا على الخلاف الأيديولوجي الحاد بينه وبين هتلر ، عندما ضايقوا ستالين بميثاق مع فرنسا نبذ التعاون عسكري ، ويوم أبعدوا الاتحاد السوفيتي عن مؤتمر ميونيخ ، وساعة دخلوا في محادثات عسكرية معه بعد أن سبق السيف العذل و لم يعد من سبيل لمنع عقد ميثاق مع هتلر . وخلط قادة الديمقراطيات بين خطاباته الثقيلة والمعتدلة والدينية وبين صلابة الفكر

والسياسة . لكن صلابة ستالين لم تمتد لغير نطاق الأيديولوجية الشيوعية لما أتاحت له معتقداته الشيوعية مجالاً للمرونة والمناورة وسيعاً فسيحاً .

انطوت شخصية ستالين وراء هذه الملامح النفسية على طبائع فلسفية كانت عصية على مدى مدارك قادة الغرب . أما وقد كان بلشفياً قديماً ، زج به في غياهب السجون وعاش الفاقة ووحشة النفي دفاعاً عن معتقداته التي تشرب بها لعقود قبل وصوله السلطة . لقد رأى البلاشفة مزدهين بظن امتلاكهم بصيرة أبعد الى دينامية التاريخ أن دورهم المساعدة في تسيير العملية التاريخية الموضوعية . وخالهم أن الفرق بينهم غير الشيوعيين كالفرق بين العلماء والعلمانيين. فالعالم لا يصنع ظاهرة طبيعية في تحليله اياها ! بل هو ادراكه لاسباب وقوعها من يساعده في أحايين على معالجة العملية ليس وفقاً لأي شيء عدا قوانين الظاهرة نفسها والمتأصلة فيها . ومن هذا المنطلق ، رأى البلاشفة أنفسهم علماء في التاريخ يساعدون على اظهار ديناميتيه ، وربما لتسريعها ، دونما احداث تغيير في اتجاهها الثابت .

أظهر القادة الشيوعيون أنفسهم شامسين ، لا تجرهم عاطفة لا يعترفون بالعواطف ، ويأبون الانحراف عن مهمتهم التاريخية بعناد لا يقل عن ثبات مجادلاتهم التقليدية ، سيما لو تأت من غير المؤمنين بمبادئهم . وأدرك الشيوعيون حداً أمامهم في المناورات الدبلوماسية لما تصوروا أن فقههم بمحاوريهم أشد عمقاً من معرفتهم بأنفسهم . وهم يرون أن التنازلات تعطى ، ان تطلب الأمر ، لـ " الحقيقة الموضوعية " لا رضوخاً لمثابرة الدبلوماسيين الذين واياهم يتفاوضون. وعليه تنتمي الدبلوماسية الى طراز العمليات التي سينقلب النظام القائم

بها ، سواء بدبلوماسية التعايش السلمي أم بالصراع العسكري القائم على تقدير علاقات القوى .

ثمة مبدأ لم يتغير في حسابات ستالين العالمية الوحشية المبيتة : لا شيء يبرر خوض معارك خاسرة من أجل قضايا مشكوك فيها . لقد كان الصراع الأيديلوجي مع المانيا النازية ، وفقاً للمنطق الفلسفي ، جزءاً من الصراع الشامل مع الرأسماليين الذي ضم ، قدر تعلق الأمر بستالين فرنسا وبريطانيا . أما البلد الذي يثير حفيظة الاتحاد السوفيتي ويرفع لواء عدائه قبل غيره فهو الذي تراه موسكو الخطر الأكبر في لحظة معينة .

لم يميز ستالين معنوياً بين الدول الرأسمالية . وتجلى رأيه الحقيقي في البلدان التي تمجد فضائل السلام العالمي في رد فعله على توقيع ميثاق كيلوغ - بريان عام ١٩٢٨ :

[عن التهدئة يتحدثون ، وعن سلام دول أوروبا يتكلمون . وهاهما بريان و(أوستن) تشمبرلين يتعانقان ..... هراء كل هذا . لقد استلهمنا من سفر تاريخ أوروبا أن معاهدات السلام لازمة ترافق جميع المعاهدات التي تكشف ترتيباً جديداً للقوى بهدف التوقيع على خوض حروب جديدة ، برغم أن الهدف من توقيعها وصف عناصر جديدة للحرب المقبلة] .

كان الكابوس الذي قضى مضجع ستالين هو تحالف جميع البلدان الرأسمالية للانقضاض على الاتحاد السوفيتي في ضربة واحدة . فقد وصف في سنة ١٩٢٧ الاستراتيجية السوفيتية بعين ما فعل لينين قبل عقد : " ....كبيرة الشأن تعتمد على

نجاحنا في تأجيل الحرب الحتمية مع العالم الرأسمالي ..... حتى تحين ساعة يقاتل فيها الرأسماليون بعضهم البعض الآخر ...." . وما كان توقيع الاتحاد السوفيتي اتفاقية (رابالو) مع المانيا عام ١٩٢٢ ومعاهدة الحياد في برلين عام ١٩٢٦ التي جددت عام ١٩٣١ الا بتأثير هاجس هذا الأفق ، وهو اعلان صريح عن أبعاد الاتحاد السوفيتي نفسه عن لظى حرب بين البلدان الرأسمالية .

لم يشكل عداء هتلر الفادح للشيوعية ، كما رآه ستالين ، عائقاً تؤودا بوجه اقامة علاقات طيبة مع المانيا . فيوم ارتقى هتلر السلطة ، أطلق ستالين ايماءات استرضائية في بدء مؤتمر الحزب السابع عشر في كانون الثاني ١٩٣٤ : " لسنا متحمسين للنظام الفاشي في المانيا ، بيد أن المشكلة ليست الفاشية ، فهي لم تمنع الاتحاد السوفيتي من اقامة أروع العلاقات مع نظام ايطاليا الفاشي مثلاً .. ان هدفنا في السابق وفي الحاضر هو الاتحاد السوفيتي ، والاتحاد السوفيتي فقط . وان دعت مصالح الاتحاد السوفيتي الى تقارب مع بلد أو آخر لا يعكر السلام ، فلن نتردد لحظة في الانطلاق بذاك السبيل " .

وضع ستالين ، الأيديولوجي الكبير ، أيديولوجيته في خدمة السياسة الواقعية ، وما كان رشليو أو بسمارك ليتجشما صعوبة في فهم استراتيجيته . واذن فساسة الديمقراطيات هم الذين غطت على أبصارهم غشاوة الأيديولوجيات ، لا أنهم اذ رفضوا سياسات القوة ، واعتقدوا أن الايمان المطلق بمباديء الأمن الجماعي هو الشرط المسبق للعلاقات الطيبة بين الأمم ، وأن العداء الأيديولوجي هو ما يعوق أية امكانية للتعاون العملي بين الفاشيين والشيوعيين .

ما أخطأ الديمقراطيات في كلا المعيارين . فحين أزف الوقت المناسب انضوى ستالين للمعسكر المناوىء لهتلر ، لكن بمضض وبعد أن صدت المانيا النازية عروضه . أنه شكل أكبر ائتلاف لاحتواء هتلر لمجرد إيمانه باحتمالية صدق خطابات هتلر المعادية للبلشفية ، فأتضحت استراتيجيته الجديدة أثناء المؤتمر السابع (والأخير) للقوميين الشيوعيين في تموز وآب ١٩٣٥ . اذ دعا ذلك المؤتمر الى تشكيل جبهة متحدة تحتضن جميع الشعوب المحبة للسلام ، منوهاً الى نبذ التكتيكات الشيوعية للعشرينات التي اصطفت فيها الأحزاب الشيوعية الى جانب الجماعات غير الشيوعية وبضمنها الفاشية ، بهدف شل المؤسسات البرلمانية الأوروبية .

تجسد المتحدث الرسمي المفوه عن السياسة الخارجية السوفيتية في شخص (مكسيم لتفينوف) الذي بات وزيراً للخارجية فقد لأداء هذا الدور . انه رجل متحضر أيقن الانجليزية ومن أصل يهودي برجوازي اقترن بابنة مؤرخ بريطاني قالت وثائقه الرسمية أنه يصلح لمناوءة النظام الطبقي أكثر من تسلمه دفة الدبلوماسية السوفيتية . فأنضم الاتحاد السوفيتي لعصبة الأمم باشرافه وغدا أحد أقوى المناصرين للأمن الجماعي . وهنا أعد ستالين نفسه تماماً للاستشهاد بالبلاغة الولسونية لينال الضمانات حيال أفق احتمال لجوء هتلر حقاً الى تنفيذ ما دونه في " كفاحي " جاعلاً من الاتحاد السوفيتي دريئته الرئيسية . لقد كان هدف ستالين كما أشار العالم السياسي (روبرت لغفولد) الحصول على أقصى مساعدة من العالم الرأسمالي وليس عقد السلام معه .

خيمت سحب الشك القائمة على العلاقات بين الاتحاد السوفيتي والديمقراطيات . لقد وقع ستالين ميثاقاً مع فرنسا عام ١٩٣٥ ومع تشيكوسلوفاكيا في السنة التالية ، غير أن قادة فرنسا في الثلاثينات سلكوا سبيلاً آخر ورفضوا اجراء محادثات بين هيئتي أركانهما . كما أدرك ستالين في هذا التصرف دعوة لهتلر بالهجوم على الاتحاد السوفيتي أولاً ، فأشترط لضمان نفسه تقديم المساعدة السوفيتية لتشيكوسلفاكيا بعد وفاء فرنسا أولاً بتعهداتها الى تشيكوسلفاكيا وبذا حصل ستالين على خيار ترك الامبرياليين يصطلون بالحرب بينهم .

بانت الأرضية الخيالية التي دفعت الديمقراطيات نفسها اليها في فترة ما بين الحربين يوم حدت فرنسا رغبة باقامة علائق سياسية مع الاتحاد السوفيتي بينما رفضت في نفس الوقت عقد حلف عسكري معه . لقد احترمت الديمقراطيات بلاغات الأمن الجماعي بيد أنها صدرت عن اعطائها محتوى عملي . وكان لزاماً أن تنهل بريطانيا العظمى وفرنسا من دروس الحرب العالمية الأولى حقيقة أن مقارعة المانيا لوحدهما (وان كانتا متحالفتين) مغامرة محفوفة بالمخاطر . فالمانيا كانت هي المتسيدة تقريباً عام ١٩١٨ برغم دخول أمريكا بجانب الحلفاء .

لا شيء سوى التفكير التأملي لقادة الديمقراطيات من سيؤمن أن ستالين ذلك البلشفي الأصيل والمتعصب العنيد للعوامل المسماة ((الموضوعية)) - سيهتدي الى مبدأ الأمن الجماعي القانوني والأخلاقي . ففي جعبة ستالين وأعوانه أسباب غير أيديولوجية تقتل في حماسهم للنظام الدولي القائم ، أهمها الحدود

السوفيتية مع بولندا التي فرضت بالقوة بينما استولت رومانيا على بسارابيا التي اعتبرها السوفيت من حصتهم .

لقد رفض حتى ضحايا المانيا المحتملين في أوروبا الشرقية المساعدة السوفيتية . فقد انجبت تسوية فرساي والثورة الروسية قياساً أقرناً أمام نظام الأمن الجماعي بأزاء دول أوروبا الشرقية : فهي لن تنجح عسكرياً دونما مساعدة الاتحاد السوفيتي ، وبمساعدته ستنهار سياسياً .

يتضح من تصرفات الدبلوماسية الغربية تقاعسها عن تهدئة جنون ارتياب ستالين من مؤامرة مناوئة للسوفيت فهو قد أبعد عن المداولات الدبلوماسية التي أحاطت بابطال ميثاق (لوكارنو) ، وتم استثناءه تماماً من مؤتمر ميونيخ ، وجيء به الى مناقشات نظام أمن أوروبا الشرقية دونما رغبة وتحديد بعد احتلال تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٣٩ .

ومع ذلك أنه الخطأ في قراءة نفسية ستالين نضع اللوم على الدبلوماسية الغربية في توقيع ميثاق ستالين – هتلر ، لقد تجلى جنون ارتيابه ساعة عزل منافسيه المحتملين وقتل أو سفر ملايين آخرين لمجرد معارضتهم أوهامه . وبرغم ذلك أثبت ستالين حين بلغ الأمر السياسة الخارجية أنه محاسب رابط الجأش لن يسمح لذاته الاستجابة لاستفزاز يدفع بها الى اتخاذ خطوات عجولة ، سيما استفزاز القادة الرأسماليين الذين وجد في فهمهم لعلاقات القوى أقل من فهمه اليها بكثير .

ليس بوسع المرء غير تخمين نية ستالين في وقت مؤتمر ميونيخ . ومع ذلك ، فان اخر الاحتمالات المرجحة له لحظة أقام بلده واقعده بحملة تطهير عقب

أخرى ستكون الوفاء التلقائي والانتحاري بمعاهدة المساعدة المتبادلة . لقد تركت مع تشيكوسلفاكيا المعاهدة التي الزمت الاتحاد السوفيتي فقط ((بعد)) ان دخلت فرنسا الحرب ستالين أمام أكثر من خيار واحد . فكان بوسعه ، على سبيل الذكر المطالبة بالمرور عبر رومانيا وبولندا وتوظيف رفضهما المؤكد تقريباً ذريعة للتقاعس حتى ينجلي غبار المعارك في أوروبا الوسطى والشرقية ، أو ، اعتماداً على تقييمه للنتائج المتأتية ، اعادة الاستيلاء على الأقاليم الروسية التي فقدتها لصالح بولندا ورومانيا في أعقاب الثورة الروسية ، وهو مافعله تماماً بعد سنة . أما أبعد النتائج احتمالاً فهي التي تفرض على الاتحاد السوفيتي أن تخطي الحواجز ليكون آخر مدافع عن تسوية فرساي الاقليمية باسم الأمن الجماعي .

ليس من قلامة ظفر من الشك أن ميونيخ عزز شكوك ستالين حيال الديمقراطيات ، ومع ذلك لم ير ما يمنعه من اداء ما اعتبره واجبه البلشفي بأي ثمن كان تقريباً - تحريض الرأسماليات واحدة ضد على الأخرى والنأي بالاتحاد السوفيتي عن أن يكون طعمة لنيران حروبها . وبذا كان تأثير تسوية ميونيخ أولاً هو تغيير تكتيكات ستالين . فهو الآن قد فتح مزاداً للدفع على الميثاق السوفيتي - المزاد الذي لم تجد الديمقراطيات املاً بكسبه لو استعد هتلر لتقديم عرض جدي . ففي ٤ تشرين الأول ١٩٣٨ ، تم استدعاء السفير الفرنسي الى وزارة الخارجية السوفيتية لايضاح اتفاقية ميونيخ ، وهناك استقبله نائب رئيس دائرة الشؤون الخارجية (فلاديمير بوتمكين) بالعبارة الوعيدية : " ياصديقي المسكين ! مالذي فعلتموه ؟ نحن لا نرى نتيجة غير تقسيم رابع لبولندا " .

انه لتلميح بارع عن أسلوب ستالين البطيء في السياسة الخارجية . فلا ريب أن بولندا باتت بعد تسوية ميونيخ هدف هتلر المقبل ، ولم يبق من بديل أمام ستالين سوى تقسيم رابع لبولندا طالما هو قد نفر عن التصدي للجيش الألماني على الحدود السوفيتية القائمة أو حتى مقاتلة هتلر . (لقد حدت نفس الحسابات بـ (كاترين العظمى) الى ترويج اجراء أول تقسيم لبولندا بين بروسيا والنمسا سنة ١٧٧٢) . وليس من دليل أسطع على فولاذية أعصاب ستالين في السياسة الخارجية غير حقيقة انتظاره هتلر عاماً كاملاً ليقوم بأول تحرك فعلي .

أما وقد ثبت هدفه ، تجلت خطوته التاليه بالانسحاب سراعاً من خط الجبهة . فقد نشرت صحيفة (نيوز كرونيكل) اللندنية في ٢٧ كانون الثاني ١٩٣٩ مقالاً بقلم مراسلها الدبلوماسي (المعروف بتقربه للسفير السوفيتي في لندن - ايفان مايسكي) يشير الى الصفقة المحتملة بين الاتحاد السوفيتي والمانيا . وكرر الكاتب أطروحة ستالين التقليدية بعدم وجود فرق بين الديمقراطيات الغربية والدكتاتوريات الفاشية ، واستخدمها لاطلاق يد الاتحاد السوفيتي من أي التزام تلقائي بالأمن الجماعي :

[لا غبار على حقيقة انعدام نية لدى الاتحاد السوفيتي في الوقت الحاضر بتقديم أية مساعدة لبريطانيا أو فرنسا ان اشتبكتا في حرب مع المانيا وايطاليا . فالحكومة السوفيتية لا ترى فرقاً كبيراً بين مكانة حكومتي بريطانيا وفرنسا من جهة ومكانة حكومتي المانيا وايطاليا من الجهة الأخرى ، وهو يبرر سفك الدماء مدراراً دفاعاً عن الديمقراطيات الغربية] .

من هنا سيغدو ممكناً حل الخلافات بين موسكو وبرلين على أساس عملي طالما أن الاتحاد السوفيتي لا يجد حاجة للاختيار بين الرأسماليات المختلفة وفق أسس ايديولوجية . وهكذا هرع ستالين في سابقة جديدة تفادياً لمروق الفرصة من بين يديه ، الى اعادة طبع نص (نيوزكرونيكل) حرفياً في صحيفة الحزب الشيوعي الرسمية " البرافدا " .

في ١٠ آذار ١٩٣٩ - أي قبل خمسة أيام من استيلاء هتلر على براغ - طلع ستالين باستراتيجية موسكو الجديدة . كانت المناسبة مؤتمر الحزب الثامن عشر وهو الأول منذ تأكيد ستالين على الأمن الجماعي و " الجبهات المتحدة " قبل خمسة أعوام . كان لا بد للبشرى أن ترتسم على محيا الحاضرين لبقائهم احياء . بعد أن أهلكت حملات التطهير معظمهم حتى لم يحضر الا (٣٥) فرداً من أصل حضروا قبل خمسة أعوام ، وأعتقل (١٠٠ر١) من المتبقين لقيامهم بنشاطات معادية للثورة ، وتمت تصفية ٩٨ من أعضاء اللجنة المركزية البالغين ١٣١ عضواً ، وما يماثل ثلاثة من كل خمسة مارشالات في الجيش الأحمر ، مع (١١) نائب لرؤساء دوائر شؤون الدفاع ، وجميع قادة القواطع العسكرية ، اضافة الى (٧٥) عضواً من المجلس العسكري الأعلى البالغ عددهم (٨٠) عضواً . وعليه كان المؤتمر الثامن عشر للحزب احتفالاً بمواصلة النشاط الحزبي تقريباً ، فالذي استحوذ على اهتمام الحاضرين كان تلبية متطلبات بقائهم على قيد الحياة أكثر من الوقوف على دقائق السياسة الخارجية .

عاد ستالين كرته لعام ١٩٣٤ ، اذ طرحت أفكاره التي عرضها على مستمعيه المذعورين نوايا الاتحاد السوفيتي السلمية في محيط دولي ضاج بالعدائية .

ثم أبانت خلاصاته اختراقاً عميقاً عن مفهوم الأمن الجماعي الذي تواجد في مؤتمر الحزب السابق . فقد أعلن ستالين عملياً حياد الاتحاد السوفيتي في الصراع الدائر بين الرأسماليات :

[الوضوح والصراحة سمة السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي . نحن ندعو للسلام وتقوية العلاقات التجارية بين جميع الأمم . فذا موقفنا ، ونحن به ملتزمون طالما حافظت تلك الأمم على العلاقات الطيبة مع الاتحاد السوفيتي وما دامت لا تتعدى على مصالح بلدنا] .

أعاد ستالين في محاولته منع قادة الرأسماليات اساءة فهم مقصده الجدل الجوهري لمقال (نيوز كرونيكل) بحرفه تقريباً : طالما أن الديمقراطيات والمانيا تمتلك بنى اجتماعية متماثلة ، فليس اذلال الخلافات بين المانيا والاتحاد السوفيتي بأعسر من اذلالها بين البلدان الرأسمالية والاتحاد السوفيتي وخلاصة القول ان ستالين أدلى بتصميمه على نيل حرية التصرف وبيع نية موسكو الطيبة في أية حرب وشيكة لمن يدفع أكثر . وأقسم بعبارة مشؤومة : " سنخلع على أنفسنا ثوب الحذر ، ولن نسمح لبلدنا الانجرار الى صراعات يولعها دعاة الحروب واعتادوا استخدام آخرين ليلتقطوا لهم الكستناء من النار " . فكان ستالين عملياً يدعو المانيا الى تقديم عطائها .

تباينت سياسة ستالين الجديدة عن القديمة في اطار تأكيدها . اذ لجأ ستالين حتى في أوج تأييده للأمن الجماعي و " الجبهات المتحدة " الى تقييد التعهدات السوفيتية دوماً بطريقة تتيح له الاحتفاظ بخيار عقد صفقة منفردة بعد استعار لظى

الحرب . غير أنه الآن – في ربيع ١٩٣٩ – قطع خطوة أخرى ولما لم تحتل المانيا بعد الأجزاء المتبقية من تشيكوسلوفاكيا وراح فيها يناور لعقد صفقة منفردة ((قبل)) بدء الحرب . فليس لأحد أن يشتكي من سرية نوايا ستالين ، أما صدمة الديمقراطيات فمردها فشلها في استيعاب أن ستالين ، ذلك الثوري المتحمس ، استراتيجي وحشي قبل كل شيء .

أما وسقطت براغ ، نبذت بريطانيا سياسة الترضية تجاه المانيا وغالى مجلس الوزراء البريطاني قرب التهديد الألماني بنفس الدرجة التي قلل بها سابقاً من شأنه . اذ سرت القناعة لديه أن هتلر سيعقب تدميره تشيكوسلفاكيا بهجوم آخر – ظن بعضهم أنه سيكون على بلجيكا ، وبعض آخر على بولندا . وفي نهاية آذار ١٩٣٩ عمت اشاعة أن الهدف المقبل هو رومانيا التي لم تقاسم المانيا أية حدود . لكنها ليست من خصال هتلر أن يسدد ضربة لهدف ثان لا يجمعه واياه شيء بهذه السرعة . لقد انطوى تكتيكه هذه المرة على اتاحة المجال لانقلاب واحد أن يثير الفوضى في صفوف ضحيته الجديدة قبل الانقضاض عليها . ومهما يكن من أمر ، علمنا من مراجعة الماضي أن وقتاً أمام بريطانيا العظمى لتخطيط استراتيجيتها كان أطول بكثير مما ظن قادتها . وأكثر من هذا ، لو حلل مجلس الوزراء البريطاني بعناية تصريحات ستالين في مؤتمر الحزب الثامن عشر ، لأدركوا أنهم ان بريطانيا كلما الخناق على هتلر ، انزوى ستالين أكثر مبتعداً كي يزيد أهميته لدى كلا الطرفين .

هنا واجهه مجلس الوزراء البريطاني خياراً استراتيجياً اساسياً ، وان غاب الدليل أنه كان واعياً به . اذ تحتم عليه في مقاومته هتلر أن يقرر لادراك هذه الغاية

بناء نظام أمن جماعي أم عقد حلف تقليدي . فان اختار الأول فلا مندوحة من دعوة أكبر مجموعة من الأمم للانخراط في مقاومة النازية ، وأن اختار الثاني فعلى بريطانيا عقد تسويات بغية التنسيق مع الحلفاء المحتملين كالاتحاد السوفيتي .

ارتأى المجلس خيار الأمن الجماعي ، وعليه أرسل في ١٧ آذار اشعاراً الى اليونان ويوغسلافيا وفرنسا وتركيا وبولندا والاتحاد السوفيتي مستعلماً منها طريقة استجابتها للتهديد المزعوم لرومانيا - قامت فرضية الاشعار على وجوب تقاسم جميع الأمم نفس المصالح وان تمثل موقفاً موحداً . هنا وعلى حين غرة بدت بريطانيا تعرض ما أعرضت عنه منذ عام ١٩١٨ - ضمانة اقليمية لجميع أرجاء أوروبا الوسطى .

لقد كشفت استجابات الأمم المختلفة تارة أخرى عن الضعف الأساسي لمبدأ الأمن الجماعي - الافتراض بامتلاك جميع الأمم ، وفي أقل تقدير الضحايا المحتملين ، نفس الاهتمام بصد العدوان . فقد عرضت كل دولة مشاكلها الخاصة باعتبارها حالة خاصة وأكدت على مخاوفها الوطنية لا الجماعية . ذي هي اليونان ربطت رد فعلها برد فعل يوغسلافيا ، فيما استفسرت يوغسلافيا بدورها عن نوايا بريطانيا العظمى - فأرجعت الأمور الى نقطة الشروع . وتلك بولندا أشارت الى عدم استعدادها لاتخاذ موقف بين بريطانيا والمانيا ، أو حتى توريط نفسها بالدفاع عن رومانيا . بينما أبت بولندا ورومانيا اشراك الاتحاد السوفيتي في الدفاع عنهما . أما الاتحاد السوفيتي فأقترح عقد مؤتمر في بوخارست تحضره جميع البلدان المعنية بدعوة بريطانيا .

هي مناورة بارعة . فاذا ما تم عقد المؤتمر ، ترسخ مبدأ مشاركة السوفيت في الدفاع عن البلدان الخاشية موسكو خوفها من برلين ، وان تم رفض مبادرة الكرملين ، فتمسك بحجة الابتعاد عن الساحة متعقباً خياره المفضل باستكشاف اجراء ترتيب مع المانيا . وبذا كان فعل موسكو في جوهره مناشدة دول أوروبا الشرقية الاعتراف أن الخطر الالماني لوجودها هو الرئيسي وأن ترفع راية التحدي لألمانيا ((قبل)) ايضاح موسكو نواياها . وأخيراً لم يـر العالم مؤتمر بوخارست بعد أن رفضت جميع بلدان أوروبا الشرقية ذلك .

دفعت هذه الاستجابات الفاترة تشمبرلين لاجراء ترتيبات أخرى . فأقترح في العشرين من آذار اعلان نية بريطانيا وفرنسا وبولندا والاتحاد السوفيتي بالتشاور فيما بينها في حالة حصول أي تهديد لاستقلال أي دولة أوروبية ، " القيام بتصرف مشترك " . لقد أغفل هذا المقترح الذي هو احياء للحلف الثلاثي لما قبل الحرب العالمية الأولى ذكر أي شيء عن الاستراتيجية العسكرية المفترض اتباعها لو فشل الردع ، او افاق التعاون بين بولندا والاتحاد السوفيتي الذي سلم به ببساطة .

رفضت بولندا من جانبها ، وهي التي قاسمتها بريطانيا العظمى مبالغتها الرومانسية بقوتها العسكرية ، العمل المشترك مع الاتحاد السوفيتي عارضة على بريطانيا الاختيار بين بولندا والاتحاد السوفيتي ، فان ضمنت بريطانيا بولندا ، تلاشى حافز ستالين للمشاركة في الدفاع المشترك . فاذ وقعت بولندا بين المانيا والاتحاد السوفيتي ، سيتحتم على بريطانيا امتشاق الحسام قبل أن تدعوا الحاجة ستالين لاتخاذ أي قرار . من ناحية أخرى ، اذا ما ركزت بريطانيا على الحلف

السوفيتي من ، كان يقيناً أن يطالب ستالين بحصته لقاء عونه للبولنديين فيدفع الحدود السوفيتية غرباً نحو خط (كورزون) .

هنا رفض مجلس الوزراء البريطاني راضخاً لسورات الغضب الجماهيري ، ومؤمناً أن الارتداد سيضعف مكانة بريطانيا العظمى ، التضحية بأنيّ بلد مهما كانت الاعتبارات الجيوسياسية . وفي الوقت ذاته ، قاسى قادة بريطانيا المغالطة أن بولندا أقوى عسكرياً من الاتحاد السوفيتي ، وان الجيش الأحمر لا يملك أي قدرات هجومية - وهو تقييم وجيه حقاً على ضوء حملات التطهير الواسعة للقادة العسكريين السوفيت التي تمت لتوها . وفوق هذا كانت عميق الشكوك التي كنها قادة بريطانيا للاتحاد السوفيتي ، فكتب تشمبرلين يوماً : " اني أقر اني قد نزعت من نفسي بذور اليقين في روسيا . فلست بمؤمن بقدرتها على شن هجوم فعال حتى لو عقدت عزمها عليه . كما ارتاب من دوافعها التي لا أرى لها غير رباط واه بأفكارنا عن الحرية " .

حسمت بريطانيا أمرها اعتقاداً منها بضغط الوقت عليها ، فأعلنت ضمانة قارية سلمية سبق ان رفضتها مراراً منذ تسوية فرساي . اذ هرع تشمبرلين والقلق يأكل قلبه من تقارير هجوم الماني وشيك على بولندا ، دونما ينبس ببنت شفة للتفاوض حول حلف منفرد مع بولندا ، فأعد بيده مسودة ضمانة منفردة لبولندا في الثلاثين من آذار وقدمها في اليوم التالي الى البرلمان . انطوت الضمانة على بديل مؤقت غرضه تأجيل عدوان نازي ، وهو تهديد اتضح استناده الى معلومات مضللة . وكان مخططاً اشفاع الضمانة بمسعى رصين لتشكيل منظومة أوسع

للأمن الجماعي ٠ وسرعان ما تم توسيع ضمانات منفردة مستندة الى نفس المعيار لتضم اليونان ورومانيا ٠

وهكذا ، وفي خضم جائحة الغضب العاطفي والفوضى الاستراتيجية ، انزلقت بريطانيا العظمى الى تقديم ضمانات لبلدان أصر جميع رؤوساء وزراء بريطانيا على عجزهم وعدم رغبتهم بالدفاع عنها ٠ ثم تجاوز تضخم حقائق أوضاع أوروبا الشرقية لما بعد فرساي حجم الخبرة البريطانية الى درجة لم يدرك فيها مجلس الوزراء حقيقة أنه اختار ما سينعش خيارات ستالين تجاه المانيا ويسهل انسحابه من الجبهة المشتركة المزمعة ٠

ظن قادة بريطانيا الأمر مقضياً في اشراك ستالين في استراتيجيتهم الى ايمانهم بقدرتهم على التحكم بوقت وحجم مشاركته ٠ فقد حث وزير الخارجية اللورد (هاليفاكس) على الاحتفاظ بالورقة السوفيتية و " دعوة الاتحاد السوفيتي لتقديم عونه في ظروف محددة بأفضل سبيل " ٠ والذي جال في ذهن هاليفاكس هو الحصول على الذخيرة وليس تحريك القوات السوفيتية خارج حدودها ٠ بيد أنه لم يوضح مكافأة الاتحاد السوفيتي لقاء تقمصه هذا الدور المساعد ٠

جردت هذه الضمانة البريطانية لبولندا ورومانيا السوفيت من أي حافز للدخول في مفاوضات جادة بشأن حلف مع الديمقراطيات الغربية ٠ فهي من جانب ، قد ضمنت جميع حدود جيران الاتحاد السوفيتي في أوروبا الشرقية عدا دول البلقان ، وأطاحت أيضاً بالطموحات السوفيتية مثلما أطاحت بالألمانية في هذه البلدان على الورق في الأقل ٠ بيد أن الأهم من هذا أن الضمانات البريطانية

كانت هدية لستالين لأنها قدمت له أقصى ما كان سيطلب به في أي مفاوضات بدأت بسجل فارغ مثلما هو حال معظم المفاوضات . فان تحرك هتلر شرقاً ، نام ستالين قرير العين طالما أن بريطانيا العظمى ملتزمة بخوض الحرب قبل أن يمس الحدود السوفيتية مكروه . وبذلك كسب فائدة حلف واقعي مع بريطانيا العظمى دون أن يقدم مقابل .

انها اربعة افتراضات ارتكزت عليها ضمانة بريطانيا لبولندا ، وكان الخطأ سمتها جميعاً : أن بولندا قوة عسكرية هامة ، وربما أقوى من نظيرتها السوفيتيه ، أن فرنسا وبريطانيا العظمى معاً قادرتان على دحر المانيا دونما مساعدة حلفاء آخرين ، أن للاتحاد السوفيتي مصلحة في الحفاظ على الوضع القائم في أوروبا الشرقية ، وأخيراً أن الهوة الأيديولوجية بين المانيا والاتحاد السوفيتي واسعة جداً الى درجة تجعل الاتحاد السوفيتي يفيء الى ائتلاف معاد للهتلرية عاجلاً ام آجلاً .

لم تكن بولندا بالقوة العسكرية الهامة وان تحلت بالبطولية في الفعل . فقد قاربت مهمتها المستحيل لأن الأركان العامة الفرنسية أخطأت بولندا في نوايا الحقيقية بما في ذلك احتمال شن هجوم فرنسي على المانيا . فالاستراتيجية الدفاعية الفرنسية ستجبر بولندا على تحمل كامل الثقل والاندفاع الألماني وحدها - وهي مهمة كان على قادة الغرب أن يدركوا أنها خارج قدرات بولندا لحد بعيد . وفي نفس الوقت استحال حث بولندا على قبول المساعدة الروسية لاقتناع قادتها أن الجيش السوفيتي " المحرر " سينقلب الى جيش احتلال (وهو أمر اتضح صوابه فيما بعد) . اما الديمقراطيات فقد ظنت قدرتها على كسب الحرب ضد المانيا بأنفسها حتى وان سقطت بولندا .

انتهت مصلحة روسيا في الحفاظ على الوضع القائم في أوروبا الشرقية ، مع انعقاد مؤتمر الحزب الثامن عشر ، هذا ان وجدت مثل هذه الرغبة حقاً فقد قطف ستالين خيار التحول لجانب هتلر ، وبات بوسعه بعد صدور الضمانة البريطانية لبولندا أن يلعب ببطاقته النازية بأمان تام . وقد تيسرت مهمته أكثر أثر فشل الديمقراطيات الغربية في استيعاب استراتيجيته - التي كان لها أن تكون ساطعة الوضوح في أنظار رشليو أو مترنيخ أو بالمرستون أو بسمارك . فما كان عسيراً ادراك أن الاتحاد السوفيتي سيجسد آخر قوة كبرى تأخذ على نفسها التزاما ، وبهذا ستتمتع بحرية التصرف واقامة مزاد في به التعاون أو الحياد السوفيتي يناله من سيدفع أعلى .

تحتم على ستالين قبل تقديم الضمانة البريطانية لبولندا التحلي بالحذر الشديد خشية أن يدفع تقربه لألمانيا الديمقراطيات الغربية الى رفع أيديها عن أوروبا الشرقية تاركة اياه وحيداً بمواجهة هتلر . أما وصدرت الضمانة ، عاش ستالين الاطمئنان ان بريطانيا العظمى لن تذهب الى حرب لحماية حدوده الغربية فحسب ، بل ان تلك الحرب ستنطلق أولى شراراتها على بعد ٦٠٠ ميل غرب بلاده ، على الحدود الألمانية - البولندية .

شيئان ما برحا عالقين في مخيلة ستالين مقلقين مضجعه . الأول حاجته للاطمئنان على صلابة وجدية الضمانة البريطانية لبولندا ، والثاني ضرورة اكتشاف حقيقة وجود الخيار الألماني . وما يدعو للتناقض هنا أن بريطانيا كلما اظهرت حسن نيتها تجاه بولندا ، وهو ما اضطرت له لردع هتلر ، اتسعت امام ستالين فسحة المناورة مع المانيا . فقد سعت بريطانيا العظمى الى المحافظة على الوضع

القائم في أوروبا الشرقية ، فيما رنا ستالين للحصول على أكبر مدى من الخيـارات وقلب تسوية فرسـاي . وأن ابتغى تشـمبرلين تفـادي نشـوب حـرب ، اشتهى ستالين ، الذي رأى الحرب أمراً محتماً ، أن يقطف ثمارها دون اصطلائه بنيرانها .

هنا لعب ستالين على الحبلـين بحذق . بيـد أن منزعـاً لم يعـد في القـوس ، فهتلر وحده بات قادراً علـى منحـه مكتسبات اقليميـة في أوروبـا الشـرقية تلهث وراءها ستالين ولأجلها وكان راغباً بتقديم ثمن اشعال حرب أوروبية شرقية تصون الاتحاد السوفيتي من سعيرها . وفي ١٤ نيسان اقترحت بريطانيا العظمـى أن يعلـن الاتحاد السوفيتي وحده : " اذا ما حصل أي عمل عدوانـي ضـد أي جـار أوروبـي للاتحاد السوفيتي وابدى ذلك البلد المعني مقاومته له ، فـان الحكومـة السـوفيتية لـن تألو جهداً لنجدته " . رفض ستالين هذه الأحابيل واشمأز هـذا المقـترح السـخيف وحيد الجانب . وعليه قدم في ١٧ نيسان عرضاً مقابلاً مـن ثلاثـة أركـان : اقامـة حلف بين الاتحاد السوفيتي وفرنسا وبريطانيا العظمى ، توقيع اتفاقية عسكرية تنفخ روح الفعالية وتقديـم ضمانـة لجميع البلـدان الواقعـة بيـن بحـر البلطيـق والبحر الأسود .

كان على ستالين أن يعلم استحالة قبول هذا المقـترح . اذ لم ترغبـه بلـدان أوروبـا الشـرقية بـاديء ذي بـدء ، وثانيـاً أن مفاوضـات عقـد اتفاقيـة عسـكرية تستغرق وقتاً أطول مما متاح ، وأخيراً ، لما تزل بريطانيا وقد مر عقد ونصف العقد تشيح بوجهها عن حلف مع فرنسا ، فكيف لها أن تتحالف مع بلد لم تره أكثر من مزود بالذخائر . فقال تشـمبرلين : " لا يمكـن التظـاهر أن هـذا الحلـف ضـروري لمجرد تزويد البلدان الصغيرة بالذخيرة " .

واذ تغلب قادة بريطانيا على تحفظاتهم ، ساروا ببطء شديد طاوين أسبوعاً لايفاء ما طلب ستالين بينما أخذ يزيد في قيمة الرهان شيئاً فشيئاً . وفي أيار أضحى (فاشيسلاف مولوتوف) وهو مؤتمن ستالين وحافظ سره وزيراً للخارجية خلفاً لـ (لتفينوف) وهي ايماءة أن ستالين شخصياً قد تولى مسؤولية المفاوضات ، وأن العلاقات الشخصية بين المتفاوضين لم تعد من أولويات السياسة الروسية . طالب مولوتوف بأسلوبه الفظ أن يقدم كلا الطرفين الضمانات لجميع البلدان المحيطة بالحدود السوفيتية الغربية وأن تسمى تلك البلدان بأسمائها (مؤكداً على الرفض الرسمي لبعضها في الأقل) . وأصر أيضاً على توسيع مصطلح " العدوان " ليضم " العدوان غير المباشر " ، المعرف بأنه أية تنازلات بوجه التهديدات الألمانية حتى ان لم تستخدم القوة ، وهكذا ، وقد احتفظ الاتحاد السوفيتي لنفسه بتعريف معنى " الرضوخ " ، كان ستالين يطالب من الناحية الفعلية بحق مطلق في التدخل بالشؤون الداخلية لجميع جيران الاتحاد السوفيتي في أوروبا .

بحلول تموز ، خير ستالين ما أراد أن يعرف : سيتوصل قادة بريطانيا الى اتفاق - ولو على مضض - على حلف يلبي كثيراً من مطالبه . وفي الثالث والعشرين من تموز وافق المفاوضون السوفيت والغربيون على مسودة معاهدة كانت مقنعة لكلا الطرفين ظاهرياً ، وعليه نال ستالين شبكة أمان ستحدد له ما في جعبة هتلر من عرض .

أصدر ستالين طيلة الربيع والصيف اشارات بارعة عن استعداده لتلقي مقترح من هتلر . ومع ذلك كان هتلر شديد الاحتراس من خطو الخطوة الأولى

لئلا يستخدمها ستالين وينال من بريطانيا العظمى وفرنسا شروطاً افضل . ونفس الخوف انتاب ستالين . فقد كان وجلاً من التحرك أولاً مخافة أن ينفضح أمره وتتخلى بريطانيا العظمى وفرنسا عن تعهداتهما لبولندا فيتركانه أمام هتلر وحيداً . وما الذي يدعوه للعجلة ؟ ليس هناك سقف زمني أمامه بخلاف هتلر ، وهو غير هذا رابط الجأش قوي الجنان ، ولذلك آثر الانتظار فألهب حرقة هتلر وتلهفه .

حتى اذا حل ٢٦ تموز اعترى الذعر هتلر ، فهو أن هاجم بولندا قبل سقوط أمطار الخريف فعليه أن يعلم قبل الأول من أيلول ما الذي يجول في رأس ستالين . ولذا صدرت التعليمات الى رئيس الفريق الألماني المفاوض بشأن اتفاقية تجارية جديدة مع الاتحاد السوفيتي (كارل شنوري) ببدء حديث في قضايا سياسية ، فأكد لنظيره السوفيتي مستشهداً بالعداء المشترك تجاه الغرب الرأسمالي ." ليس من مشكلة بين هذين البلدين من البلطيق حتى البحر الأسود أو حتى في الشرق الأقصى لا يمكن حلها بعدها " . عرض شنوري مواصلة هذه المناقشات في لقاء سياسي رفيع المستوى مع السوفيت .

بيد أن التحرق للمفاوضات لا يزيدها سراعاً . فليس من رجل دولة محنك يحسم أمره لمجرد أن مجادلة على عجلة من أمره ، بل قد يتصيد نفاد صبر نظيره لينال منه شروطاً أفضل وأفضل . ومهما يكن من أمر ، لم يكن ستالين لينجفل وتريث حتى منتصف آب وأصدر تعليماته لمولوتوف باستقبال السفير الألماني (فون دير شولنبرغ) بقائمة من الأسئلة بغية الوقوف الدقيق على ما عرضه

شنوري . أضغط على اليابانيين لصدهم عن تهديد سيبيريا ؟ أم معاهدة عدم اعتداء ؟ أم ميثاق مع دول البلطيق ؟ أم صفقة على حساب بولندا ؟

آنذاك ، كان الوقت هاجس هتلر المقلق جعل منه مستعداً للتراخي في أي نقطة وان كان كارها لذلك . فأبلغ القائد الأعلى لـ (دانزيغ) في ١١ آب :

[صوب روسيا موجه كل ما أقوم به ، فأن غلب العزب على الغبار وعمي بصره عن استيعاب هذا الشيء ، فسأتوصل مضطراً الى تفاهم مع الروس بغية تحطيم الغرب وبعده سأستدير الى الاتحاد السوفيتي بكل ما ملكت من قوى] .

كان في هذا القول تحديد دقيق لاولويات هتلر : ألا تتدخل بريطانيا العظمى في شؤون القارة ، بينما سال لعابه على المجال الحيوي في الاتحاد السوفيتي . وكان ذلك مقياساً لانجاز ستالين الذي أوشك على قلب أولويات هتلر مهما كان ذلك القلب مؤقتاً .

أعلم شولنبرغ في رده على أسئلة مولوتوف أن هتلر بصدد ارسال وزير خارجيته (يواكيم فون رينتروب) الى موسكو ومعه صلاحية حسم جميع القضايا المعلقة . وهنا لم يتمالك ستالين نفسه عن الاشارة الى استعداد هتلر للتفاوض بمستوى تهربت منه بريطانيا العظمى على الدوام ، اذ لم يبد أي وزير بريطاني استعداداً لزيارة موسكو خلال كل شهور المفاوضات بالرغم من مغامرة بعضهم بالذهاب شرقاً حتى وصلوا الى وارشو .

عزز ستالين وقد رغب عن كشف أوراقه حتى يخبر تحديداً ما هية العرض الألماني ضغطه على هتلر تارة أخرى . فأبلغ مولوتوف بالتعبير عن تثمينه لحماس ريبنتروب وان يقول بالحاجة الى اتفاق مبدئي قبل تقرير فائدة الزيارة . كما تمت دعوة هتلر الى صياغة مقترح مفصل يتضمن ملحقاً سرياً بشأن التعامل مع المسائل الاقليمية وهنا توجب على ريبنتروب البليد أن يفهم الغاية وراء طلب مولوتوف ، وان أي تسرب لهذا المقترح مسؤولية المانية ، وبذا ستبقى يدي ستالين نظيفتين وأن أي فشل في هذه المفاوضات مرده رفض السوفيت السير وراء التوسعية الألمانية .

هنا أمسى هتلر على أحر من الجمر . فقرار مهاجمة بولندا ينبغي أن يصدر في غضون أيام لا غير . وعليه بعث برسالة الى ستالين في العشرين من آب . أرهقت حتى مسؤولي التشريفات الألمان . ذلك أن لقب ستالين الوحيد هو " السكرتير العام للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي " وهو لايتبوء منصباً حكومياً ، فلم يتفقوا على رأي بشأن مخاطبته . حتى صدرت الرسالة أخيراً بعبارة " الى السيد ستالين ، موسكو " وتضمنت : " انني لمقتنع ان محتوى الملحق الاضافي الذي رغب به الاتحاد السوفيتي ممكن حسمه في أقصر وقت لو وصل موسكو رجل دولة الماني مسؤول بصفته مفاوضاً " .

ربح ستالين مقامرته في الاحتفاظ بخيارات الاتحاد السوفيتي مفتوحة حتى اللحظة الأخيرة . لقد كان واضحاً أن هتلر سيخرج الى ستالين بعرض مجاني لا يستطيع الحصول عليه بموجب حلف مع بريطانيا وفرنسا الا بعد حرب دامية مع المانيا . فأجاب ستالين في ٢١ آب معبراً عن أمله أن يجسد " ميثاق عدم الاعتداء

الألماني - السوفيتي انعطافاً حاسماً نحو تحسين العلاقات السياسية بين بلدينا " فوجهت الدعوة لريبنتروب لزيارة موسكو في ٤٨ ساعة .

" وصل ريبنتروب موسكو وما كادت تمضي ساعة حتى وصل لمكتب ستالين . أبدى الزعيم السوفيتي اهتماماً هامشياً بميثاق عدم الاعتداء ، واهتماما أقل بالصداقة التي أشار اليها رينتروب في ملاحظاته فيما انصبت بؤرة اهتماماته على الملحق السري لاقتسام أوروبا الشرقية . فأقترح ريبنتروب تقسيم بولندا الى مناطق نفوذ على طول خط عام ١٩١٤ ، والفرق الرئيسي هو ابقاء وارشو ضمن الجانب الألماني بينما بقي مفتوحاً البحث في مسائل الابقاء على شكل من أشكال استقلال بولندا وكذلك ضم المانيا والاتحاد السوفيتي اليهما جميع المنافق التي احتلتاهما . وارتأى ريبنتروب بخصوص البلطيق وقوع فنلندا وأستونيا ضمن النطاق الروسي (مانحاً ستالين منطقة العزل التي طالما تشوق اليها حول لينينغراد) ، وانضمام لتوانيا الى المانيا ، واخضاع لاتفيا للتقسيم . هنا طالب ستالين بلاتفيا بأسرها ، فأبرق ريبنتروب بذلك لهتلر الذي أبدى موافقته - وكان سيوافق حتى لو طالب ستالين ببسارابيا من رومانيا . وآب ريبنتروب المزهو بنفسه الى برلين ليجد هتلر هاشاً باشاً مطلقاً عليه لقب " بسمارك الثاني " . فما هي غير ثلاثة أيام بين ارسال أول رسالة من هتلر لستالين ، ووضع اللمسات الأخيرة على ثورة دبلوماسية عظيمة .

طفقت المجادلات بعدئذ حول المسؤول عن هذا التحول المذهل في الأحداث . فأنبرى نفر يلوم أسلوب بريطانيا اللئيم في التفاوض . اذ أوضح المؤرخ (أ . ج . ب تايلور) أن السوفيت كانوا أثناء تبادل المراسلات بين بريطانيا

العظمى والاتحاد السوفيتي أسرع في الاجابة على المقترحات البريطانية عن الانجليز الابطأ في هذا الأمر وخلص الى نتيجة أن لهفة الكرملين كانت أكبر من لهفة لندن لعقد حلف بينهما . هذا استنتاج أراه صائباً لظني أن سبب ذلك رغبة ستالين بالابقاء على بريطانيا في ساحة خياراته وعدم اثارة حفيظتها مبكراً - حتى يقف على طبيعة نوايا هتلر .

اقترف مجلس الوزراء البريطاني عدداً من الأخطاء النفسية الجسام . فلم تكن حدود الأمر تحاشي أي وزير بريطاني زيارة موسكو ، بل تلكؤ لندن في الموافقة على وضع خطط عسكرية مشتركة حتى مطلع آب . وحتى انئذ أناطوا رئاسة الوفد البريطاني بادميرال بحري برغم أن الحرب البرية هي الموضوع الرئيس ان لم يكن الوحيد الذي أشغل أذهان الروس . وأنكى من هذا أن الوفد استقل زورقاً في رحلته للاتحاد السوفيتي فأستغرقت خمسة أيام ، وهو ما لا يوحي مطلقاً بالاستعجال ، وأخيراً وبرغم قيمة الاعتبارات الأخلاقية كان لا بد لزعيم موسكو المصاب بجنون الارتياب أن يفسر اعراض بريطانيا عن ضمان دول البلطيق دعوة لهتلر للهجوم على الاتحاد السوفيتي متجاهلة بولندا .

ومع ذلك ، ما كان تصرف بريطانيا الدبلوماسي الأخرق الذي أفضى الى الميثاق النازي - السوفيتي . فالمشكلة الحقيقية كانت عجز بريطانيا عن تلبية مطالب ستالين دونما تغاض لكل المباديء التي ناضلت من أجلها منذ نهاية الحرب العالمية الأولى . فليس من منطق في رسم خط ضد اغتصاب المانيا للبلدان الصغيرة أن انطوى ذلك على منح الاتحاد السوفيتي نفس الامتياز . وربما كان بوسع قيادة بريطانية شكوكة أن ترسم الخط على الحدود السوفيتية بدلاً من

الحدود البولندية ، فتعــزز بذلــك مــن موقــع بريطانيــا التفــاوضي بقــوة مــع الاتحــاد السوفيتي وتمنــح ســتالين حــافزاً جديــاً للتفــاوض بشــأن حمايــة بولنــدا . لقــد رأت الديمقراطيات استحالة قدرتها على رسم سلسلة أخرى مــن الاعتــداءات حتــى وان كانت من أجل أمنهــا . وربمــا كــانت السياســة الواقعيــة ســتملي تحليــلاً لمضــامين ضمانة بريطانيا العظمى لبولندا ، فيما اقتضى نظام فرساي الدولي ان تدعم ســلوك بريطانيا العظمى اعتبارات أخلاقية وقانونية . واذن ملك ستالين استراتيجية وافتقــر الى المبدأ فيما ذادت الديمقراطيات دون المبدأ دونما نمو منها لأية استراتيجية .

كــان مســتحيلاً الدفــاع عــن بولنــدا والجيشــان الفرنســي قــابع وراء خــط ماجينو ، والسوفيتي ينتظر داخل حدوده . لقد انطلقت عــام ١٩١٤ أمــم أوروبــا الى ســوح الوغــى بعــد أن تفككــت أواصــر الربــط بينهــا بــين الخطــط العســكرية والسياسية . فاذ نفض قادة الأركان العامة الغبار عــن خططهــم لم يفهمهــا القــادة السياسيون و لم يمتلكوا أي هدف سياسي يوازي حجم الجهد العسكري المبذول .

تكرر عين المشهد عام ١٩٣٩ . اذ غاب الارتباط بين التخطيط السياســي والعسكري ، وهذه المرة لعكس ذلــك السبب تمامــاً . فــاذا كــان للقــوى الغربيــة هدف سياسي أخلاقي وجيه - وهو الوقوف بوجه هتلر - فقد عجزت بتاتــاً عــن تطوير استراتيجية عسكرية لبلوغ ذلك الهدف . فان كان التهــور سمة اســتراتيجي عام ١٩١٤ ، أمسى محو الذات سمتهم عام ١٩٣٩ . وكانت جيوش جميع البلدان عام ١٩١٤ تائقة للحرب بينهم ، بينمــــا ساورتهــا في عام ١٩٣٩ ظنون كثيرة (حتى في المانيا) بأنهــا قــد تخلــت عــن احتكامهــا للقــادة السياســيين . وفي عــام

١٩١٤ ، حضرت الاستراتيجية وغـابت السياسـة ، بيـد أن السياسـة تـألقت عـام ١٩٣٩ وأفلت الاستراتيجية .

لعبت روسيا دوراً حاسماً في اندلاع الحربين كلتيهما . فهـي قـد سـاهمت عام ١٩١٤ في اشعال فتيلها لما تمسكت بعرف حلفها مع صربيا وببرنـامج تعبئتهـا الصارم ، وفي عام ١٩٣٩ ، يوم أنقذ ستالين هتلر من شبح الحرب على جبهتـين ، كان عليه أن يفهم أنه انما جعل مـن الحـرب الشـاملة أمـراً محتمـاً . ويـوم تقـاتلت روسيا عام ١٩١٤ فقد فعلت ذلك حفاظاً على شرفها ، بينما شجعت على حرب عام ١٩٣٩ لتقتسم غنائم غزوات هتلر .

لقد سارت المانيا بنفس السبيل قبل اندلاع الحربين - بانعدام صـبر وافتقـار للبصيرة . فقد مضت لحرب عام ١٩١٤ لتكسر حلفاً ما كان له أن يتشـكل لـولا تصرفاتها التنمرية ، وفي حرب ١٩٣٩ عيل صبرها ولما تنتظر نموها الحتمـي لتغـدو الأمة المهيمنة في أوروبا . وهذا مسعى تطلب عكس استراتيجية هتلر - حقاً فـترة مـن السـكون لاتاحـة المجـال لاسـتيعاب وذوبـان وقـائع مـا بعـد ميونيـخ في منـع الامبراطور الألماني عام ١٩١٤ من الانتظار عـدم اتزانـه العـاطفي وافتقـاره لمفهـوم واضح للمصالح القومية ، وفي عام ١٩٣٩ ، استبد الهواس المريع بزعيم المانيا لشـن حرب وهو ما برح في قمـة قـواه الجسـدية ، فطغـى هواسـه علـى جميـع حسـاباته العقلانية . وتتجلى حقيقة عدم حاجة المانيا لقـرار الدخـول لكلتـا الحربـين ، هـو بقاؤها برغم هزيمتها في كلتيهمـا ، وتجريدهـا ممـا ينـاهز ثلـث أراضيهـــا لمـا قبـل الحرب العالمية الأولى ، أقوى أمم أوروبا وربما أشدها نفوذاً .

أما وقد بلـغ الحديث الاتحـاد السـوفيتي ، فلـم يكـن حسـن التجهيز عـام ١٩٣٩ لخوض صراع على وشك النشـوب • ومـع ذلـك ، تـراه صعـد في نهايـة الحرب العالمية الثانية قوة كونية عظمى • اذ استفاد ستالين في القرن العشـرين مثـل رشليو في القرن السابع عشر ، من تشرذم أوروبا الوسطى وفيما ارتقـت الولايـات المتحدة منزلة قوة عظمى بفضل قوتها الصناعية كان سبب صعود الاتحاد السـوفيتي هذه المنزلة مناورة ستالين القاسية في سوق مزاده •

الفصـــل الرابـع عشــر

الميثـاق النــازي – السوفيتـــي

دأب هتـلر وستالين ، حتـى عـام ١٩٤١ ، علـى تعقـب مراميهـم الغربيـة محتذين سبل مألوفة . وتريث ستالين حتى اليوم الذي ينطلق فيه الكون الشيوعي ، ربما ، من الكرملن بينما أفصح هتلر عن رؤياه لامبراطورية نقي جنسـها ، يحكمهـا الجنس الألماني السيد ، كما صورها في كتابه كفاحي – وما كان ثمـة رؤى ثوريـة أخرى غير تينك . ونهل هذان الرجلان سبلهما ، البالغة أوجها في ميثاقيهمـا عـام ١٩٣٩ ، من استقصاء عن سياسة القـرن الثـامن عشـر . كـان الميثـاق النـازي – السوفيتي تكراراً لتبعيض بولندا المبقورة بضغوط فردريك الكبـير وكـاثرين العظيمـة والأميره ماريا تريزا عام ١٧٧٢ . ويخالف هتلر وستالين ، هؤلاء الملـوك الثلاثـة ، انهما نذان أيديلوجيان طغت منفعتهمـا الوطنيـة المشـتركة ، في استيراث بولنـدا ، ردحاً من الزمن ، على اختلافاتهما الأيديولوجية . قـدر لهـذا الميثـاق أن ينحـل في عام ١٩٤١ فأضرمت أوسع حرب برية في سـفر البشـرية ، ببـاعث مـن مشـتهاة رجل واحد . ولا مندوحة أن نسخر ، أعظـم السـخرية ، لأن القـرن العشـرين – عصر الرغبة العامة والقوى المجهولة – قد صاغه حفنة قليلة من الأفراد وان بميسـور طامته الكبرى الاجتناب لو أجهز على امرء واحد .

وعندما لكمت المانيا بولندا بالضربة القاضيـة في أقـل مـن شـهر ، شـرعت القـوات الفرنسـية ، الأضعـف قـوة مـن الفـرق الألمانيـة ، بـالتطلع الى هـذا الأمـر مصفودة الأيادي من وراء خط مـاجينو . وأرخ عهـد " الحـرب الزائفـة " شـيوع

الفوضى ، ابانها ، في كامل فرنسا . لقد كانت فرنسا تخوض الحروب ، قرون عديدة ، لبلوغ مرامي سياسية معينة - الابقاء على تشاطر أوروبا أو التسيد على منطقة الألساس - لورين ، كما حصل في الحرب العالمية الأولى ، فأمست الآن تذود عن وطن رزح تحت الأضلال الذي ما قدرت أن توجه له أيما ضربة . وفي الحقيقة صادف أناس فرنسا المثبطون أمراً واقعاً وحرباً لم تتبطن استراتيجيه .

ولكن أنى وطدت بريطانيا العظمى وفرنسا العزم على تحقيق الظفر حيال بلد خيم عليهما ، الى درجة عظيمة ، ولما شايع الاتحاد السوفيتي وأميركا دول الحلفاء ؟ كانا يعملان كما لو أن بميسورها المكوث وراء خط ماجينو ريثما يقسر الحصار البريطاني هتلر على الاذعان . ولكن علام ترتغم المانيا على ابقاء تضييق الخناق المتباطيء ؟ وعلام ترتغم على مهاجمة خط ماجينو ولما ينفتح الطريق عبر بلجيكا بمصراعيه ، وهذه المره للجيش الألماني برمته طالما خلت الجبهة الشرقية من أيما ذائد ؟ واذا ما كان الدفاع لذي شأن عظيم من الحرب ، كما يفقه قادة الأركان الفرنسيون ، فما المصير الثاني الذي يخبأه القدر لفرنسا غير حرب استنزاف أخرى في جيل لم يتماثل بالشفاء من حربه الأولى ؟

اغتنم ستالين الفرصة الاستراتيجية لفرنسا المنتظره وتفحص الاتفاقية المتعلقة بتقسيم أوروبا الشرقية قبيل ابرامها . وماثل في هذا الأمر أي أمير في القرن الثامن عشر يقدر مآل مقاطعة لا تمتع البتة بتقرير المصير فأقترح صفقة جديدة مع المانيا ، بعيد الاتفاقية بأقل من شهر ، مقايضة المقاطعة البولندية بين وارشو وخط كروزن والتي كانت ستنحدر ، حسب الاتفاقية السرية ، الى الاتحاد السوفيتي لقاء ليثوانيا ، الماضيه الى المانيا . وهدف ستالين لتعظيم العزلة عن لينغراد فأنبرى يتذرع لهتلر ،

مبرراً مناوراته الجيوسياسية . بمقتضيات الأمن الروسي ، فوافق هتلر على هذا الاقتراح .

لم يسلخ ستالين أيما وقت في استجماع نهاية لاتفاقيته السرية فاقترح ، ولما تدور رحى المعارك في بولندا ، تعاوناً عسكرياً مع دول البلطيق الثلاث وحقاً في انشاء قواعد عسكرية على أراضيها . لم تجد الجمهوريات الصغيرة ، الذاهبة عنها معونة الغرب ، أيما خيار آخر خلا هذه الخطوة التي تنحر استقلالها - فاحتل الجيش الأحمر ، في السابع عشر من أيلول عام ١٩٣٩ وبعد أقل من ثلاث أسابيع على بداية الحرب ، شطراً من بولندا كان مرسوماً ضمن منطقة النفوذ السوفيتي .

وأزفت ساعة فنلندا ، بحلول تشرين الثاني ، حيث طالب ستالين باقامة قواعد عسكرية على ثرى فنلندا واستسلام كارليان أزتمس ، المجاورة لينغراد . ولكن أي صلابة قد جبلت منها فنلندا التي أبت مطالب الروس وذادت من حماها عندما قرع ستالين طبول الحرب !

وبعد بضعة أشهر من المقاومة البطولية ، رضخت لسيطرة الاتحاد السوفيتي الساحقة . واذا ما تفوهنا بلغة الاستراتيجية العظيمة للحرب العالمية الثانية ، نرى أن المعركة بين روسيا وفنلندا من الطراز الثاني ، لكنها أفصحت عن درجة تغافل بريطانيا العظمى وفرنسا للحقائق الاستراتيجية ، فغشيت أبصارهم بباعث حرج طرحته الأعداد العديدة للفلبين فأنغوا بفكرة انتحارية ترى في الاتحاد السوفيتي أحشاءً رقيقه للمحور وأعدت العدة لارسال ٣٠٠٠٠ جندي الى فنلندا عبر السويد وشمالي النوريج حيث سيطرقون في مسيرهم .

وربما عاضد تهديد تدخل الحلفاء فنلندا لتخطى بتسوية أفضل من مطالب روسيا المقترحة ، ولكن لم يثبط أيما أمر ، نهاية المطاف ، من عزم ستالين على اشاحة خط الدفاع الروسي من المؤديات الى لينغراد . و لم يني المؤرخون في حيره عما بعث بريطانيا العظمى وفرنسا أن يهبطوا ، باغماضة عين وانتباهتها ، في مقاتلة الاتحاد السوفيتي والمانيا النازية ، على التعاقب ، قبيل ثلاثة أشهر من انهيار فرنسا التي برهنت ، بذلك ، الأمر واهياً .

أرخ أيار عام ١٩٤٠ نهاية " الحرب الزائفة " وعاود الجيش الألماني مناورة عام ١٩١٤ بطرقه بلجيكا ولكن الزخم الأكبر ، هذه المرة ، تمركز في الجبهة وليس على الميمنة . لقد نقدت فرنسا ، بانهيارها ، ثمن عقد ونصف العقد من الشكوك والمراوغات وأصيب المراقبون بدهشه من أمرهم لمآل فرنسا ، برغم كفاءة الماكنة العسكرية الألمانية . وسلخت الجيوش الألمانية ، في الحرب الأولى ، أربع سنوات لشق طريقها صوب باريس دون طائل فكانت كل ميل تنتزعه لقاء تضحيات بشرية جسام . لقد قدرت الحرب الخاطفه الألمانية ، عام ١٩٤٠ ، على شق فرنسا وزحفت جيوشها ، في نهاية حزيران ، على امتداد شامزالسيس ، وهكذا لاح هتلر سيد القارة .

لم يتفقه هتلر ، كأسلافه الفاتحين ، أني يختتم حرب أضرمها بتهور فكانت قبالته ثلاث خيارات : أن يسعى لدحر بريطانيا العظمى ، أو أن يضع يده بيدها ، أو يسعى لاحتلال الاتحاد السوفيتي ويوظب موارده ليتحول غرباً بكل قطعاته ويعيث دماراً في بريطانيا العظمى .

وحاول هتلر صيف عام ١٩٤١ ، خياريه الأولين وأفصح في خطاب متبجح له ، في السابع عشر من تموز ، أنه على أهبة لمعاهدة سلام مع بريطانيا العظمى . وفي الحقيقة سألها اخلاء المستعمرات الألمانية قبل الحرب وأن تشجب التدخل في شؤون أوروبا لقاء استبقاء هتلر على الامبراطورية البريطانية . يناظر مقترح هتلر ما كانت تعرضه الامبراطورية الألمانية على بريطانيا العظمى في العقدين الذين سبقا الحرب العالمية الأولى . وربما لو أفصح هتلر عن هيئة أوروبا التي تحكمها المانيا ، قد يفتتن بعض القادة الانكليز - مثل اللورد هالفكس ، وليس تشرتشل ، بفكره التفاوض مع المانيا . لقد نفخ هتلر الروح ، بمساءلته بريطانيا العظمى على منح المانيا حرية كاملة للتصرف في أوروبا ، للرد البريطاني المألوف - الذي ذكره السير ادوارد كري عام ١٩٠٩ حيال مقترح مماثل أبدله قادة المان أرشد كثيراً من هتلر (ولما كانت فرنسا قوه عظمى) فذكر أن بريطانيا العظى اذا ما نحرت دول أوروبا قرباناً لألمانيا ، ستتلقى هي الهجمات ، عاجلاً أو آجلاً ، من جهة الجزر البريطانية . ولم تحمل بريطانيا محمل الجد أيما " استبقاء " على امبراطوريتها . أن القاده الألمان ما قدروا قط على دحض الرأي البريطاني القائل أن كل أمة قادرة على حماية الامبراطورية ، يتيسر لها احتلالها .

لقد صقل تشرتشل ، أيما صقل وسبر أغوار التاريخ ، عميقاً ، نائياً عن كل الأوهام بحيث أبقى على بريطانيا العظمى ، عندما وضعت الحرب أوزراها ، قوة عالمية رئيسة وفي المصاف الأول . ويؤول تصلب تشرتشل حيال المانيا في صيف عام ١٩٤٠ بأنة قرار يرجح كفه أميركا على هيمنه المانيا . وربما يلوح التفوق الأميركي على بريطانيا ، أواناً ، مؤرقاً ولكنها تماثل بريطانيا حضارة وتشاطرها

لغة ولا تضاربهـا مصالحاً . وثمة أفق آبد أن العلاقة " الخاصة " بين بريطانيا العظمى أميركا لا تبلغها مع المانيا النازيه . لقد بوأ هتلر نفسه ، بالحيلة ، موقعاً في صيف عام ١٩٤٠ فغدا هو علة الحرب .

انقلب هتلر الآن الى خياره الآخر لسحق القوه الجويه البريطانيه واحتلال جزر الهند البريطانية ، لو استطاع سبيلاً . وما أقدم قط الا بالتسليه بهذه الفكره ، فعمليات الانزال كانت شطراً من تخطيط المانيا قبل الحرب وهجرت هذه الخط لضعف في حذقة الانزال وعجز اللفتواف على تدمير القوه الجوية الملكية . ولما شد الصيف الرحال ، ألفت المانيا نفسها ، كرة أخرى ، في موضع يماثل تماماً ما تبوأته أبان الحرب العالمية الأولى : لقد حققت انتصارات ساحقة ، وعجرت عن ترجمتها الى نصر نهائي .

ويقيناً أن هتلر تبوأ موقعاً رائعاً يقدره على مواكبة استراتيجية الدفاع – لم تكن بريطانيا العظمى بقادره لوحدها على تحدي الجيش الألماني ، وألفت أميركا الأمر أشبه بالمستحيل لولوج الحرب في حين لقي ستالين ، في كل مرة ، عذراً لارجاء الأمر بالرغم من رغبته بالتوسع . ولكن ليس من شيمة هتلر أن ينتظر الآخرين ليبدأوه مبادرتهم فتحتم عليه ، وقتئذ ، أن ينتقل لمهاجمة الاتحاد السوفيتي .

ومع استهلاله تموز عام ١٩٤٠ ، أمر هتلر بوضع خطط أولية لحملة روسيا وأخبر جنرالاته أن روسيا اذا ما خرت صريعة ، ستلقي اليابان كامل قوتها العسكرية بمواجهة مع أميركا ، مشيحة اهتمام واشنطن صوب الباسفيك .

وستركع بريطانيا العظمى المعزولة الراية البيضاء اذا ما نضبت عنها المساعدة الأميركية . وأشار هتلر بدقة . " رجاء بريطانيا في روسيا والولايات المتحدة واذا ما خابت الآمال في روسيا ، ستسقط أميركا جانباً ، لأن اليابان سيتسهائل جبروتاً في الشرق الأقصى اذا ما انسلخت روسيا " . ولم يكن هتلر على أتم الأهبة ليعطي أوامر الهجوم فهو سيستقصي ، أول الأمر ، امكانية اغواء الروس على شن هجوم مشترك ضد الامبراطورية البريطانية والاجهاز عليها قبل أن تيمم غرباً .

أيقن ستالين تماماً حرج موقفه وأجهز انهيار فرنسا على ما كان يتوقعه هو وكل خبراء الغرب العسكريين ان الحرب ستماثل تماماً سابقتها ، أي صراع استنزاف حامي الوطيس ، فذهب ادراج الرياح أعظم رجاءه في تفاني المانيا وديمقراطيات الغرب . ولو قدر لبريطانيا أن تترنح ، سيشرع الشرق مصراعيه لهجوم الجيش الألماني ، ويتيسر له تسخير كل موارد أوروبا ، كما جاء على لسان هتلر في كتابه " كفاحي " .

اصدى ستالين لهذا الأمر بطريقته العنيفة فما من دابه قط أن يرى في الخطر خوفاً حتى لو استشعره . وسعى الى ابهام حرجاته الاستراتيجية بتصلب ليقينه أن مآخذ الضعف عليه ليفتن خصمه على المطالبة بما يروم . فهتلر ، لو شاء تحقيق الظفر بالضغط على الاتحاد السوفيتي ، سيناصل ستالين لسلخ الامتيازات منه بمنحى متعنت وعنيف ما استطاع اليه سبيلاً . لقد خابت حسابات ستالين الحذقة ، عندما وضع نصب أعينه شخص هتلر العصابي ومضت ، أدراج الرياح أيما احتماليه بفتح هتلر جبهة أخرى .

آثر ستالين استراتيجية ذات حدين ، فعجل من نهش بقايا الغنيمة كما وعدته الاتفاقية السرية . وأصدر انذاراً في حزيران عام ١٩٤٠ ، ولما ينهمك هتلر في أحد أموره ، مطالباً رومانيا بالتخلي عن بيسارابيا وشمالي بوكافينيا ، الشمال الذي ما كان شطراً من الاتفاقية السرية ، ولكن حظوة روسيا عليه سيبوأ كامل القوات السوفيتيه على امتداد الجزء الروماني من نهر الدانوب . وفي الشهر عينه أتبع ستالين دول البلطيق بالاتحاد السوفيتي حيث أقسرهم على الموافقه بانتخابات صورية لم يصوت فيها نحو من عشرين بالمائة من السكان . وعندما أكمل ستالين العملية تجيّب ، كرة أخرى ، كل المقاطعات التي خسرتها روسيا عند اختتام الحرب العالمية الأولى ، فنقد الحلفاء آخر قسط لهم لقاء عزل المانيا والاتحاد السوفيتي من مؤتمر السلام عام ١٩١٩ .

شدد ستالين أزر موقعه الاستراتيجي ودأب على استرضاء جاره المشؤوم ، هتلر ، بامداد ماكنه الحرب الألمانية بالمواد الخام . وأبرمت في بداية شباط عام ١٩٤٠ - قبل ظفر المانيا على النمسا - اتفاقيه تجاريه بحضور ستالين والزمت الاتحاد السوفيتي بشحن كميات كبيرة من المواد الخام الى المانيا لقاء تزويد الاتحاد السوفيتي بالفحم والبضائع المصنعة . آنس الاتحاد السوفيتي بنود الاتفاقية بدقة ووافق عليها . وفي الحقيقه دأبت القاطرات الروسية على عبور مراكز التفتيش الحدودية محملة بالبضائع حتى في اللحظة ذاتها عندما شرعت القوات الألمانية بمهاجمة روسيا .

و لم تحدث أيما مناورة لستالين تغييراً في الواقع الجيوسياسي لتسيد المانيا على مركز أوروبا . وأفصح هتلر ، أجلى الافصاح ، أنه لن يجيز أي توسع روسي غير

مستبطن في بنود الاتفاق السري فأرغمت المانيا وايطاليا في آب عام ١٩٤٠ ، رومانيا ، التي يعدها ستالين شطراً من منطقة النفوذ الروسي ، على اعادة ثلثي تراتسلفانيا الى هنغاريا ، الحليف لوشيك لقوى المحور . لقد وطد هتلر العزم على حماية موارد النفط الرومانية فشدد النقاط على الحروف ، في أيلول ، عندما انبرى وصياً على رومانيا وأمر فرقة سيارات وقوات جويه للهرع الى حمايتها .

وفي الشهر عينه ازداد التوتر على الشفا الأخرى من أوروبا حيث أذنت فنلندا للقطعات الألمانية بعبور أراضيها صوب شمالي النرويج ، مما يعد خرقاً للاتفاق السري ، الذي أقعد فنلندا ضمن منطة التأثير السوفيتي . زد على ذلك ان المانيا زودت فنلندا بشحنات أسلحة لا قصد لها الا اقدارها على تحمل الضغط السوفيتي . وعندما استجوب مولوتوف برلين عن معلومات واقعية ، تلقى أجوبه متملصة فشرعت القوات الروسية والألمانية في منافسة لتخطي كامل خط أوروبا .

صادف ستالين أحدث التطورات شؤماً وانذرها خطراً في السابع والعشرين في أيلول عام ١٩٤٠ ، عندما أبرمت المانيا واليابان وايطاليا ميثاقاً ثلاثياً يكتب عليهم محاربة أيما بلد ينخرط في مصاف بريطانيا . لقد عرت الاتفاقية ، عن قصد ، علاقات كل الموقعين مع الاتحاد السوفيتي ، الأمر الذي يعني أن لا تلتزم اليابان في الحرب الألمانية - الروسية ، أياً كان طالق الشرارة الأولى ، ولكن عليها مجابهة أميركا اذا ما ولجت الحرب بوجه المانيا . ما كان لستالين أن تقر قريرته ، بالرغم من هدف الاتفاقية ضد واشنطن ، وتنبأ أن الموقعين الثلاثة سيممون شطره في وقت ما بصرف النظر عن البنود القانونية التي تنطوي عليها الاتفاقية ، فآية سلخه عن الاتفاق يتجلى بجهله عن المفاوضات ريثما أبرمت المعاهدة .

وعندما شد عام ١٩٤٠ الرحال ، بلغ التوتر أوجه بحيث أقدم الدكتاتوران على فعل كل ما يترآى لهما آخر جهد دبلوماسي لبز الآخر . رمى هتلر الى اغواء ستالين على هجوم مشترك صوب بريطانيا العظمى كي يجهز عليه تماماً اذا ما تخلفت المانيا في خط الدفاع . جاهد ستالين ليتمتع بالوقت الكافي رجاءه أن ينتكس هتلر في موقع ما ، ولكي يرسم لما سيغتنمه في هذه الخطوه . ولم تذخر الجهود للقاء هتلر بستالين وجهاً لوجه وبذل كل منها ما أوتي من سعة لتحاشي ذلك بدعوى قعودهم في أوطانهم وأن منطقه اللقاء المناسبة - بريست لتفوك في الجبهة - لتعج بكثير من عدد الجيش التاريخية .

وكتب رينتروب ، في الثالث عشر من تشرين الأول عام ١٩٤٠ ، رسالة مطولة الى ستالين موضحاً استقراءه لمنحى الأحداث من زيارته الى موسكو قبل عام . كان هذا الأمر اخلالاً صارخاً للقانون فأني ينبري وزير خارجية مخاطبة أعلى من نظيره ، بل قائداً من غير منصب حكومي رسمي (ظل منصب ستالين الوحيد الأمين العام للحزب الشيوعي) .

أفصحت رسالة روبنتروب ، برغم أبهتها ، عن انعدام الدهاء الدبلوماسي فقد وجه اللوم الى الاتفاقيات بين المانيا وروسيا بما يخص فنلندا ورومانيا على أساس المكائد البريطانيه دونما تجلية عن كيفية اتمام بريطانيا هذا العمل . وأصر أن الاتفاقية الثلاثية غير مصوبة بوجه الاتحاد السوفيتي - فالبينة أن الاتحاد السوفيتي سيشاطرهم الغنائم التي يصيبها دكتاتورات أوروبا واليابان غداة الحرب . وأختتم رينتروب الرسالة بدعوة مولوتوف الى زيارة برلين ، وأكد ، في هذه المناسبة ، على امكانية مناقشة انخراط الاتحاد السوفيتي الى الحلف الثلاثي .

كان ستالين حذراً ، أعظم الحذر ، من تقسيم الغنائم التي لم تصب بعـد أو من الانخراط في خط المواجهة الأول الذي رسمه الآخرون . وستبقى قبالته حرية الاختيار في التهام الغنيمه مع هتلر اذا ما انهارت بريطانيا العظمى سريعاً – تماماً مثلما أقدم عليه في عام ١٩٤٥ عندما أشعل فتيل حرب ضد اليابان في آخر هزيع لها لقاء مكسب عظيم . وفي الثاني والعشرين من تشرين الأول رد ستالين على رينتروب برساله لطيفه تشوبها السخريه . شكر روبنتروب على " تحليله لمستجدات الأحداث " دونما ايضاح رأيه الخاص بها . ووافق ستالين على زيارة مولوتوف الى برلين وضرب من جانبه موعداً باكراً – العاشر من تشرين الثاني – أي أقل من ثلاثة أسابيع مقبلة .

وافق هتلر على الاقتراح في أوانه ، ولكن هذا الاجتماع قد أفضى الى اختلاف آخر . تفهم ستالين أن موافقة هتلر العاجله ابقاءً على العلاقات الروسية عصبية بالنسبة لألمانيا كمنصرم عام فغدا ذلك آية لستالين أن أساليبه العنيفة قد أزفت بالنهاية . كان تلهف هتلر نابعاً من مقتضى حاجته لمعرفة نوايا ستالين اذا ما قدر له مهاجمة الاتحاد السوفيتي الصيف المقبل .

كان الصدع الذي خواه الشك بين هذين النذين جلياً جداً حتى قبل أن يأزف الاجتماع المضروب وأبى مولوتوف استقالة قاطرة أرسلت الى الحدود لمرافقته الى برلين فثمة قلق ساور الوفد السوفيتي من زرع السيارات الألمانية الفخمة بأجهزة تنصت . وفي نهاية المطاف عرجت السيارات الألمانية على مؤخرة القاطرة السوفيتية ، التي صممت مؤخراتها على نمط خاص بحيث يتيسر لها السير في أصغر عرض أوروبي للسكك الحديديه على الحدود .

بـدأت المفاوضـــات أخـيراً في الثـاني عشر مـن تشـــرين الثـاني وعــرض مولوتوف ، الممتع بحذقه تثير الشخصيات الأكثر رباطة جأش من هتـلر ، أسـاليب كاسحة الى حد بعيد في حضرة القيادة النازية . لقد جبل مولوتوف هذه الضـراوة الطبيعيه من خشيته لستالين ، أكثر مما يهاب هتلر فكان قلقه الفارط حـول موقفـه الداخلـي نموذجاً للدبلوماسيين على مدار السـفر السـوفيتي ، بـالرغم مـن أن هـذا الخوف بلغ أوجه ، بشكل خاص ، عندما استوى ستالين على العـرش . لقـد لاح المفاوضون الروس جد شاعرين بالقيود الداخليه أكثر من تلك الـتي توسـم السـاحة الدولية .

ومن العسير تخيل رجلـين لهمـا أضعـف ترجيـح علـى الاتصـال مثـل هتـلر ومولوتوف . فهتلر لم يرق قط لمفاوضيه في أيما حدث لأنه يؤثـر قصفهـم بمشـاهد مسرحية مطولة دونمـا اصغـاء لردهـم ، اذا تـرك لهـم الوقـت علـى الـرد . وكـان يستطب القادة الأجـانب ببيانـات متقـدة عـن المبـدأ العـام ، وشـارك في مناسـبات بمفاوضات فعلية - كما حصل مع المستشار النمساوي كرت فون شسشـنغ ومـع نيفيل تشاميرلين - فتبنى أسلوباً متنمراً وقـدم مطـالب متعجرفـة لم يحورهـا قـط . كـان مولوتوف ، من صوبه ، مهتماً للتطبيـق لا للمبـادىء ولا يلـوح أمامـه أفـق التسوية .

ألقى مولوتـوف نفسـه ، في تشـرين الثـاني عـام ١٩٤٠ في موقـف جـد حرج ، فهـو يشـق عليـه ارضـاء ستالين وثمـة خـرق أصابـه بـين عـدم الاكـتراث للمساهمة في نصر المانيا وقلقه من تفويت الفرصة لمشاطره الغنائم اذا ما أتت المانيـا على بريطانيا العظمى دون مؤازرة روسيا .

ومهما استجد من أمر ، لن يعود ستالين سيرة معاهدة فرساي فوطد العزم على حماية منصبه بتحويط كل خطواته . ورمى بالاتفاقية السرية والأحداث التي ردفتها ليفصح للألمان عن مفهومه للترتيبات المناسبة فكانت زياره مولوتوف الى برلين ، في هذا المضمار ، فرصة للآطناب في الحوارات . ورفض أية امكانية للانقلاب الى نظام فرساي عندما زاره السفير البريطاني الجديد ، السيرستافوردكربس ، في تموز عام ١٩٤٠ ، وعندما برهن كربس أن سقوط فرنسا قد صيّر ضرورة تشاضر الاتحاد السوفيتي اعادة توازن القوى ، أجاب ستالين :

" ان ما يقال له توازن القوى الأوروبي قد أكل على المانيا ، وحتى الاتحاد السوفيتي ، حقهما . لذلك سيسعى الاتحاد السوفيتي بكل ما يتيسر له ليحول دون اقامة توازن القوى البالي كرة أخرى " .

وفي لغة الدبلوماسية تتبطى " كل ما يتيسر " خطر الحرب . ما كان لهذه الاحراجات أن تقع موقعاً شديداً في مولوتوف .

استهل رينتروب احاديثه بالافصاح عن علة تعذر النصر الألماني وحث مولوتوف على اشراك الاتحاد السوفيتي في الاتفاق الثلاثي بباعث أن هذه المعاهدة توسيع لما كان أصلاً الميثاق المناويء للكومنترن . ومن هذا المنطلق برهن رينتروب أن من الممكن " اقامة مناطق نفوذ بين روسيا والمانيا وايطاليا واليابان على طول الخطوط العريضة " . ويرى رينتروب أن الأمر سيفضي الى تناحر لأن كل نظير آفق سيهتم ، جل الاهتمام بالتوسع جنوباً . سيمم اليابان صوب جنوبي

شرق آسيا وايطاليا شطر أفريقيا الشمالية ، وستطالب المانيا باسترداد المقاطعات السابقة في أفريقيا . وغداه سلسلة من المواربات ، شخص ريبنتروب ، نهاية المطاف ، الجائزة التي يستحقها الاتحاد السوفيتي " : ..... وعلى أية حال لن يمم الاتحاد السوفيتي ، نهاية المطاف ، جنوباً لمتنفسه الطبيعي على البحار المفتوحة والمهمة كثيراً له " .

وكل من له بصيص من الاطلاع على بيانات هتلر العامة ليجد ذلك واهياً اذ لم يكن ثمة أطماع عظيمة للنازية في أفريقيا . وهذا الأمر لا غبار عليه من عزوف هتلر عن الجهر به ومن اطلاع مولوتوف ، المحتمل ، على كتاب " كفاحي " كي يتفقه أن هتلر كان يسعى وراء " المجال الحيوي " في روسيا . واستفهم مولوتوف ، القابع صمتاً في مواجهة ريبنتروب ، بأمر واقعي ، بما فيه من بعض الغطرسة ، عن البحر الذي يتخذه الاتحاد السوفيتي متنفساً له ، فرد ريبنتروب ، بحيله خرقاء ، أنه الخليج الفارسي ، لكأنها تخص المانيا فتقطعها الى روسيا .

لم تكن ثمة مصلحة لمولوتوف في اقتراح جد طنان وليس في متناول المانيا ما زعمت وهبه الى الاتحاد السوفيتي ، القادر على احتلال هذه المناطق دون معونتها . وعبر مولوتوف عن رغبته المبدأية بالانخراط في الاتفاق الثلاثي ولكنه أحاط هذا التنازل بحجه أن " الدقة ضرورية في ارساء معالم مناطق النفوذ ردحاً طويلاً من الزمن " . ويقيناً أن هذا الأمر ليقتضي الانتهاء اليه أكثر من زيارة ويتطلب استشارات موسعة وقيام ريبنتروب بزيارة عودة الى موسكو .

التقى مولوتوف ، ذلك المساء ، بهتلر في مستشارية مشيدة حديثاً من المرمر ، وكأن كل أمر مدبر لدب الخوف في الوزير البرولتياري القادم من موسكو . وطرق مولوتوف ممراً واسعاً انتصب في جانبيه ، لكل بضعة ياردات ، رجال صاعقة طوال القامة متوشحين بذل سود رافعين أذرعهم بتحية النازية . وتفضي الأبواب الفضيه معاً صوب مكتب هتلر ويحرس الطريق عملاقان من الصاعقة تألف أذرعتهم المرفوعة قوساً دلف مولوتوف من تحته الى حضرة هتلر . تطلع هتلر بصمت الى زواره الجالسين على امتداد حائط شاسع لغرفة هائلة ، وأنطلق يصافح كل أعضاء الوفد الروسي دون قول أيما كلمه . وعندما دعا ضيوفه الى الجلوس ، نحيت بعض الستائر فأنضم ريبنتروب وبعض المستشارين الى هذا التجمع وأوضح هتلر لضيوفه عظمة المانيا النازية وهدف هذا اللقاء . اقترح الاتفاق على استراتيجية مشتركة طويلة الأمد لأن المانيا والاتحاد السوفيتي " يحظيان رجلين يتمتعان بسلطة تفي بنقل بلديهما شطر التطور في اتجاه محدد ، " واعتملت في ذاكره هتلر رغبة في صيرورة ضرب مشترك من عقيدة مونرو مع الاتحاد السوفيتي للتسيد على كامل أوروبا وأفريقيا وتقاسم الأقاليم المستعمرة بينهما .

تجاهل مولوتوف خشيته من الاستقبال الذي حف به ، وأنبرى موجهاً سلسلة من الاستفسارات الدقيقة : ما هو المرمى الأخير من الاتفاق الثلاثي ؟ ما تعريف هتلر للنظام الجديد الذي ينادي له ؟ ما قوله في المناطق الآسيوية العظيمة ؟ وما نوايا المانيا في دول البلطيق ؟ أما زالت فكرة وضع فنلندا ضمن النفوذ السوفيتي غير مشروعة ؟

لم يجرؤ أيما امرء قط مساءلة هتلر بهذا السبيل أو أجلسه الى امتحان عابر . وعلى أية حال ما كان هتلر مهتماً لتقييد حرية الفعل الألمانية في كل منطقة ما استطاعت اليها جيوشه سبيلاً - ما حاشا أوروبا .

ولم يحقق اللقاء التالي في اليوم الثاني أي تقدم حيث استفتحه هتلر بمشهده المسرحي وشرح لمولوتوف الكيفية التي سيتشاطر بها هو وستالين العالم :

" ستدفع بريطانيا العظمى بالافلاس حال غزوها ... وستأذن هذه الامبراطوريه المفلسة للاتحاد السوفيتي بتوظيب المحيطات المنجدة الحرة . ستولد آفاق عالمية تحت وطأة هذه الظروف وسيغدو دور الاتحاد السوفيتي جلياً في حل هذه المعضلات . وستنعزل كل الدول التي لها مصالح في هذه الامبراطورية المفلسة ، بجدالاتها ، دون أن تتدخل تشطير هذه الامبراطورية " .

وعد مولوتوف ، بعد أن أظهر موافقته الساخرة لما تفهم ، أن يبعث بالموضوع الى موسكو وارتضى مبدئياً ببيان هتلر عن عزلة المصالح الألمانية والروسية . وعرج على توجيه اختبار عملي لهذا الأمر عندما تحقق ، باقتراح له ، عن رد الفعل الألماني اذا وسع الاتحاد السوفيتي حماية بلغاريا بمثلى ما أقدمت عليها المانيا في رومانيا (الأمر الذي يعرقل ، عملياً ، التوسع الآخر لنفوذ المانيا في البقان) . ولكن ما القول في ضم الاتحاد السوفيتي فنلندا ؟ يقيناً أن تقرير المصير ليس بمبدأ سياسة الاتحاد السوفيتي ولن يتردد ستالين في ضم المناطق غير الروسية اذا اليها استطاع سبيلاً دون تدخل المانيا . لقد فارقت الحياة لا التسويه الاقليمية حسب ، بل حتى المباديء الأخلاقية لمعاهدة فرساي .

لم ينقشع جو التوتر هذا قط فقد أعلن هتلر أن بلغاريا ما سألت مثل هـذا التحالف الروسي وأبى ضم فنلندا فالأمر غير مستبطن في الميثاق السري ، متحاشياً حقيقة تخطي الميثـاق لهـي الهـدف الأسـاس لقـدوم مولوتـوف الى برلـين . وحالما انتصب هتلر ، مغمغماً عن امكانية الرزوح لغارة بريطانيا ، وجه مولوتـوف زبـدة قوله : " لن يشيح الاتحاد السـوفيتي ، القـوه العظمـى ، عـن القضايـا الرئيسـة مـن أوروبا وآسيا " . وقطع مولوتوف عهداً ، دونما ايضاح لـرد الاتحـاد السـوفيتي لـو حقق هتلر مآربه ، على نقل رد رئيسه ، الذي قد أطلعه بالأمر ، عن مناطق النفوذ الملائمة لهتلر .

لقد اغتاض هتلر للأمر كثيراً بحيث تغيب عن العشاء الذي أقيم على شرف مولوتوف في السفارة الروسية وبحضور أكثر القادة النازيين . وقطع العشـاء بفعـل غارة بريطانية حيث تفرق الضيوف في كل حدب وصوب لعدم تمتع السفارة بأيما ملجأ ضد الغارات . استقل ريبنـتروب مولوتـوف الى ملجـأه الخـاص القريـب ، وسعى مولوتوف الى اثارة القضايا عينها التي غض هتـلر الطرف عنهـا مؤكـداً أن الاتحاد السوفيتي لن يشيح عن أيما قضيـةة أوروبيـــة . أدرج بعدهـا ، علـى نحـو خاص ، يوغسلافيا وبولندا واليونان والسويد وتركيا متغافلاً ، بشكل جلي ، عـن بعض بعـض المناطـق فـي المحيـط الأطلسي التي عرضها عليه هتـلر وريبنـتروب في سابق وقت .

الفصل الخامس عشـــر

أميركا تلج الساحة كرة أخرى : فرانكلين ديلانو روزفلت

يسـمو دور روزفلـت في نقـل شـعبه المنعـزل صـوب المسـاهمة بـالحرب ، بالنسبه لمجايليه من القادة السياسيين الذين يتقلدون زمـام الحكـم بالاقـتراع العـام ، درساً عيانياً لبعد القيادة في الديمقراطية . وسيرغم تهديد توازن القوى ، عاجلاً أو آجلاً ، الولايات المتحدة على التدخل لوقف المسـيرة الألمانيـة الراميـة للتسـيد علـى العالم . فهذه القوة المتعاظمة والشديدة في صرح أميركـا سيقذف بهـا ، في نهايـة المطاف ، الى وسط الساحة الدولية ، وهو الأمر الذي أقدم عليـه فرانكلـين ديلانـو روزفلت ، بنحو من العجلة والحزم الشديد .

وكل القـادة العظـام مضـوا في حـال سـبيلهم وأسـبغوا فرديتهـم هـذه مـن ادراكهم التحديات التي ما تجلت بعد الى سائر مجايليهم . لقد سار روزفلت بشعبه الى حرب تطاحنت عليها أمم أوروبا وعدت مثل هـذه التنـاحرات ، قبـل سـنوات قلائل ، متنافرة مع قيم أميركا ولا يمت لأمنها بأيما صلـة . وغـداة عـام ١٩٤٠ ، اقنع روزفلـت الكونغـرس ، المصـدر لسلسـلة مـن أعمـال حياديه قبـل سـنوات ، بتخويله مساعدات أميركيه لا تنضب لبريطانيـا العظمـى ، فدنـا بذلـك مـن حالـة الحرب بل وتخطى هذه العتبة أيضاً ، وأزال الهجوم الياباني على بيرل هاربر ، آخـر الترددات الأميركية . قدر روزفلت على اقناع مجتمع متحصن الأركـان بالأخطـار

الرهيبة لنصر المحور وأنس أن المساهمة الأميركية ، في وقتها ، ستؤرخ الخطوة البكر صوب ميثاق عالمي آبد . وأبان الحرب تآخت هذه القيادة وهيكلت القوانين المتعددة التي ما برحت تنبض في حياة المجتمع الدولي حتى يومنا هذا .

واذا ما استثنينا ابراهام لنكولن ، لا نألف ثمة رئيس آخر أصاب مثل هذا التباين الحاسم في تاريخ أميركا . لقد أدى روزفلت اليمين على منصبه أبان عهد أثر في أمته الكساد العظيم ، أبلغ الأثر ، وساورها الشك ، وخاصة في يقين الأميركان في قدرة العالم الجديدة اللامحدودة للتقدم . ولاحت الديمقراطيات التي تحيط به ، متملقة بينما سعت الحكومات المناوئة للديمقراطية ، بجناحيها اليمين واليسار ، أن تحظو لها موطيء قدم . وغداه ما نفخ روزفلت الرجاء كرة أخرى في بلده ، كتب القدر عليه أن يجاهد دون ديمقراطيه العالم ووصف ازياه برلن ، أبلغ الوصف وأعظمه ، مساهمة روزفلت في هذا المضمار :

" تطلع روزفلت الى المستقبل بقرة قريرة كما لو أنه يناجي (ليحل بيننا ، ما شاء ذلك ، فهو علف لطاحونتنا العظيمه ، ولسوف نحيلها لنا نفعاً) ... لقد أطل على كون قانط منشطر بين جبابرة أشرار سفاحين يسعون للدمار ، وأناس حيارى فررة يرزحون شهداء لقضيه لا يتحمسون لها . فآمن بخاصة قدرته ، لأنه في مبوأ القوه ، ليشق على هذا التيار طريقه ، أنه له من خصال المستبدين براعتهم وقدرتهم وشخصهم ، لكنه على الشفا الأخرى " .

كان روزفلت ، في حينها ، معاون وزير الحرب في ادارة ولسون ومرشحاً لنائب رئيس الحزب الديمقراطي في انتخابات عام ١٩٢٠ . لقد كتب على كثير

من القادة ، بما فيهم ديغول وتشرتشل وأديناور ، أن يتفقهوا العزلة المتأصلة لرحلة العظمة في فترة انصراف عن الحياة العامة ، فأرغم روزفلت على هذا الأمر في عام ١٩٢١ عندما أدركه الشلل . كانت له ارادة رابطة الجأش عظيمه وتغلب على عوقه وتعلم الوقوف على مسندين ، والمسير خطوات عدة فقدره الأمر على الظهور أمام العامة كأنه معافى تماماً . وكان ينتصب كلما وجه خطاباً مهماً ، ودأب على ذلك حتى مؤتمر يالطا عام ١٩٤٥ . لقد ترفعت الأوساط الاعلامية في تعاونها مع سعي روزفلت لتبوأ دوره فلم تدرك قط الكثره الكثيره من الأميركيين درجة عوقه أو أصطبغت مفاهيمها بشيء من الشفقه .

كان روزفلت القائد المتحمس والمديم عزلته بتعويذه ، وتزاوجاً مبهماً للبراعة السياسية والرؤيا - فحكم بالفطره لا بالتحليل وأثار مشاعراً متناقضة جياشة . لقد أوجز أسياه برلن عيوباً جديه في شخص روزفلت كتهوره وسخريته وانعدام ضميره ، ولكنه خلص الى أن روزفلت بميسوره التغلب ، نهاية المطاف ، على هذه العيوب بمزاياه الايجابية :

" ما أعجب اتباعه هي تلك الخصال المتلازمة ذوات النظام النادر والملهم ..... كان رحب الصدر ، عظيم الآفاق السياسية ، خصب الخيال ، فقيها بعصره ، عارفاً بمآل القوى الحديثة العظيمة في القرن العشرين " .

هذا هو الرئيس الذي قلد أميركا زمام قيادة العالم ، فغدت مسائل الحرب والسلام والتقدم والركود الخاصة بكل أرجاء المعمورة رهن رؤيته والتزامه . كانت المسيره الأميركية منذ مشاركتها في العالمية الأولى حتى دورها الفعال في

الثانية ، رحلة طويلة – وقطعها انصراف الأمة الكامل للعزلة ، ويوضح غور الاشمئزاز الأميركي حيال شؤون العالم عظمة انجاز روزفلت . ومن الضروري أن نلقي صورة موجزه عن الخلفيات التاريخية التي قاد روزفلت سياسته بازائها .

خيم على أميركا ، عشرينيات هذا القرن ، حال من الازدواجية ، ينوس بين الرغبة على توكيد مباديء التطبيق العالمي والفاقه لتعليلها لخدمة السياسة الخارجية الانعزالية . وسعى الأميركان الى رواية المفاهيم التقليدية لسياستهم الخارجية ، بتوكيد أعظم : انفرادية الرسالة الأميركية كانموذج للحرية ، والتفوق المعنوي للسياسة الخارجية الديمقراطية ، والصلة الوثيقة بين أخلاقية الفرد والعالم ، وأهمية الدبلوماسية المفتوحة واستبدال توازن القوى بالاجماع العالمي المجلى بعصبة الأمم .

أدرجت كل هذه المباديء العالمية لخدمة الانعزالية الأميركية وعجز الأميركان عن الايمان ان أيما خطر ، ناء عن النصف الغربي ، سيحيق بأمنهم . لقد أبت أميركا ، في العشرينيات أو الثلاثينيات من هذا القرن ، مبدأ الأمن الجماعي كي لا يفضي الى اهماكها في نزاعات المجتمعات القاصيه الميالة للقتال . لقد فسرت بنود معاهدة فرساي انتقامية وكانت تعويضاتها دحراً ذاتياً ، وعندما احتلت فرنسا الروهر ، اقتنصت أميركا الفرصة لتسحب من الراين ما تبقى لها من قوة . لذلك ارست انعزالية ولسون المعايير التي عجز عن بلوغها أيما نظام عالمي ، وصير الخيبه شطراً من ضرورته ذاتها .

لقد بددت مخاضات الحـرب ،الى درجـة عظيمـة ، الفـوارق بـين الوطنيـين والانعزاليين فحتى أكثر الوطنيين تحرراً قد شيعوا عنهم فكره المنفعه الوطنيه في رأب صدع ما بعد الحرب و لم يرث أيما حزب منهـم ، بعبـارة طيبـه ، تـوازن القـوى . وخال الناس الانعزاليه كعضو في عصبة الأمم وليس مساهمة يومية في الدبلوماسـية العالمية في حين يصر حتى أكثر الانعزاليين تفانياً أن عقيـدة مونـرو قـد استنسـخت عصبة الأمم وتغيرت قبل أن تفكر أميركا بتزويد العصبة بـاجراءات رادعـة ، حتـى الاقتصادية منها .

حمل الانعزاليون أفكارهم هذه صوب منتهاهم الأخير وهـاجموا ، مبدئيـاً ، عصبة الأمم بدعوى أنها أخطرت الصنوين المتلازمين للسياسة الخارجيـة الأميركيـة التاريخية - مبدأ مونرو والانعزالية . وكان ثمة اعتقاد أن العصبة لا تتنـاغم وعقيـدة مونرو لأن الأمن الجماعي يخول ، وفي الحقيقة يقتضـي ، انخراط العصبـة ذاتهـا في الصراعات الدائرة ضمن النصف الغربي . وكانت العصبة أيضاً نافرة من الانعزالية لأنها أرغمت أميركا على الالقاء بنفسها في صراعات خارج النصف الغربي .

وللانعزاليـيــن حق في هذا الأمر ، فما الذي يحـول دون تنظيـم سـائر أمـم العالم ، اذا ما انعزل النصف الغربي عن عملية الأمن الجمـاعي ، ائتلافـات اقليميـة خاصة بها وتعزل أمم أميركا من عمليات العصبه ؟ ستفضي عصبة الأمم ، وقتئذ ، الى احياء نظام توازن القوى ، على أساس اقليمي . وفي الحقيقة تقـارب الوطنيـون والانعزاليـون في السياسـة الخارجيـة المؤيـده للحزبـين ورفضـا التدخـل الأجنـبي في النصف الغربي وأيّ مساهمة ضمن مكننة قوة العصبة تتعلق بأمر خارجها . وأيـدا مؤتمرات نزع السلاح فثمة اجمـاع جلي أن السـلاح يفضـي الى الحـرب وخفضـه

يشدد أزر السلام . واستملح الفريقان المباديء العامة المصادقة دولياً والتي تتبطن تسوية سليمة ، كميثاق كيلوغ-برياند ، لأن هذه الاتفاقيات لا تقتضي عنفاً . لقد كانت الولايات المتحدة ، على الدوام ، معنيه في القضايا التقنية ، وأحياناً المادية ، التي لا تتمتع باجماع سياسي مباشر كالاتفاق على مواعيد التعويضات .

وتجلى الصدع ظاهراً في التفكير الأميركي النائس بين الموافقة على مبدأ ما والمساهمة في تعضيده ، بنحو خاص غداة مؤتمر البحرية في واشنطن لعامي ١٩٢١-١٩٢٢ ، الذي كان مهماً على نطاقين . لقد وضع أسقف التسلح البحري للولايات المتحدة وبريطانيا العظمى واليابان فوهب الولايات المتحدة قوة مكافئة لما لبريطانيا العظمى في حين كانت قوة اليابان تعدل ثلاثة أخماس ما لأميركا . وأكد هذا التدبير دوراً أميركياً حديثاً في الهيمنه على الباسفيك الجانب لليابان ، فأمسى دور بريطانيا في هذا المسرح ثانوياً . والأمر الهام الآخر ابرام معاهدة القوى الأربعة ، بين اليابان والولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا ، بهدف تسوية النزاعات سلمياً ، فشيعت بذلك التحالف البريطاني - الياباني لعام ١٩٠٢ ، وبشرت بعهد من التعاون في الباسفيك . ولكن اذا ما أنكر أحد الموقعين على هذه المعاهدة بنودها ، أيرد عليه الآخرون ؟ أفصح الرئيس هاردنغ الى عضو في مجلس الشيوخ ، أن المعاهدة لا تتبطن التزاماً حربياً ... وليس ثمة بند ينص على القوه المسلحة ، أو التحالفات ، أو الزاماً خطياً أو معنوياً لصياغه الدفاع ... .

وأعاد وزير الخارجية ، تشارلز ايفاننز ، الى أذهان موقعي الاتفاقية ما ذكره الرئيس [هاردنغ] من عزوف الولايات عن المشاركة في اجراءات مسلحة تحت

طائلة أيما ظروف . ولكن ظل هذا السناتور متشككاً ليقينه أن التحوطات لم تلزم الولايات المتحدة على استخدام القوة المسلحة في ردع أي اعتداء . وبعبارة أخرى مكثت الاتفاقية فضيله متطلعة ، بخيبه ، الى ما يكنه الدهر من مخاضات ، مصفدة الأيادي لأن أميركا ستقرر الأمر لكل طارىء لكأنما الاتفاقية لم تكن .

واذا ما تحدثنا بلغه الدبلوماسيه ، ومنحاها الدائب قرون عدة ، نرى المعاهدة غريبة ، أشد الغرابة ، اذ لا تخول حق القوه وأن تنفصل قضيه القوه عند التفاوض ، مع الكونغرس ، على أساس الأخذ بجميع القضايا . وما كان هذا الأمر الا تنبأ المناظرات بين ادارة نيكسون والكونغرس ، غداة اتفاقية سلام فيتنام عام ١٩٧٣ ، حيث جادل الكونغرس أن اتفاقية ، جاهدت دونها أميركا باداتها الثلاث وحزبيها الاثنين ، لم تمنح حق القوة . وستعكس الاتفاقيات مع أميركا ، طبقاً لهذه النظرية ، نوبة واشنطن اللحظيه وأن كل المخاضات المترتبة عن ذلك ستقررها ، بالطريقة عنها ، نوبة واشنطن في تلك اللحظة - الرأي الذي لا يحدث الثقة في مواثيق أميركا .

وما كان لتحفظ السناتور هذا أن يثبط حماس الرئيس هاردنغ في معاهدة القوى الأربعة فأطرى عليها ، في المراسيم الغنائية ، لأنها ذادت عن الفلبين وأرخت " أولى بشائر عهد حديث من التقدم الرائع " . ولكن أنى لمعاهدة ، عريت عنها بنود القوة ، أن تذود عن حمى درة نفيسة كالفلبين ؟ لقد نفخ هاردنغ الروح في طقوس ولسون الشامخة ، بالرغم من تبوأه الشفا الأخرى المناقضة للمسرح السياسي ، وقال ان العالم سيقرع الجائرين لأنهم " قباحة من الخيانة

والخزي " . ومع ذلك خاب مسعاه في الافصاح انى ستكون هيئة الرأي العام العالمي ، ولأيما قضية ، طالما أن أميركا أبت الانخراط في عصبة الأمم .

وضرب ميثاق كيلوك - برياند مثالا آخرا للجنوح الأميركية في استطباب المباديء كأنها تلقائية العمل . فبالرغم من تبجح القادة الأميركان بالطبيعة التاريخية لهذه المعاهدة ، وما شجبته الدول الاثنين والستين من استخدام الحرب كسياسة وطنية ، فقد أبوا بحزم المصادقة على سبيل يضعها موضع التنفيذ ، وأكد الرئيس كالفن كولدج في حديثه ، أمام الكونغرس في كانون الأول عام ١٩٢٨ : " شعار هذه المعاهدة ...... أن وعود سلام العالم لأوفر من سائر الاتفاقيات التي أبرمتها الأمم ، على الاطلاق " .

ولكن أنى لهذا السراب أن يتجلى حقيقه ؟ لقد بعث ذود كولدج المتقد عن ميثاق كيلوج - بريانD الوطنيين ومناصري العصبة أن يبرهنوا ، بكل ما للصواب من تمام ، أن الحرب اذا ما أبطلت ، سيغدو مفهوم الحيادية واهياً عاري المعنى . ويرى هؤلاء في العصبة مرمى لأجلاء المعتدين كي يعاقبهم المجتمع الدولي بعدالة ، وتساءل أحد مؤيدي هذا الرأي : " أيصدق كائن من يكن أن النوايا العدوانية لموسوليني ، بميسور النية الحسنة للشعب الايطالي وقوة الرأي العام أن تكبحها ؟ "

ولا تشدد بصيرة هذا السؤال ، أزر مقبوليته فقد أعلن وزير الخارجية كيلوج ، ولما تحتدم نقاشات المعاهدة المسماة باسمه ، أن القوه لن تستنبط قط اذعاناً . وأكد في خطابه أمام مجلس العلاقات الخارجية أن القوة ستحيل كل ما

تحقق من خطوات السلام الكبيره الى ضرب من ائتلافات عسكرية تقتضي الحاجة الماسة الاجهاز عليه . وأوضح أن الميثاق لا يتبطن تعريفاً للاعتداء ، لا سيما وأن كل التعاريف ستبتر شطراً منه فتستخف بصياغة الميثاق . كانت العبارة ، بالنسبة لكيلوج مقدمة مثلما هي خاتمة : " على الأمة المنادية بميثاق الدفاع عن النفس أن تبرأ نفسها أمام محكمة الرأي العام والأمم المبرمة للمعاهدة ولهذا السبب أحجم عن الباس الاعتداء ، أو الدفاع عن النفس ، ثوب التعريف ليقيني أن ما تصرم من عهد لم يؤطر أيما تعريف قانوني شامل .... وسيعسر هذا الأمر كثيراً ، ولا ييسر ، لأية أمة غاشمة في اثبات براءتها .

لم يتأثر السناتور بتجليات كيلوغ كما حصل قبل ستة أشهر عندما أوضح هاردنغ أحجام الموقعين الأربعة في اعناء ما يقولونه . وأضفى هذا الأمر ثلاثة " مفاهيم " عن خاصة المعاهدة : رؤية السناتور أن المعاهدة لم تكبح حق الدفاع الذاتي أو تحدد عقيدة مونرو ، ولم تفرض الزاماً لاعانة ضحايا الاعتداء – الأمر الذي يعني استثناء كل طاريء متوقع من بنود المعاهدة . لقد أيد السناتور ميثاق كيلوغ – برياند كبيان مبدأ ولما يصر على خلو المعاهدة من مضامين عمليه ، ويثير سؤالاً عن مساهمة أميركا في اعلان المبدأ ومدى الاحتياطات التي ستثيرها .

واذا ما أبت الولايات المتحدة الأحلاف وسلخت الشكوك عن كفاءة العصبة ، فأنى السبيل للذود عن نظام معاهدة فرساي ؟ برهنت اجابة كيلوغ ضحالة أصلها ، بخلاف نقده ، فهي مناصرة لقوة الرأي العام :

" اذا ما أقرت هذه المعاهدة أن تصوت جميع الأمم ، بتفان ، ضد الحرب كقانون لفض النزاعات الدوليه ، سيشب العالم خطوه الى الأمام ، ويعم الرأي العام ، وتسخر كل قوى العالم الأخلاقية العظيم لترصده ، ونضع التزاماً مقدساً يعسر على العالم ، أشد العسر ، خوض صراع آخر حامي الوطيس " .

ثمة تباين جوهري بين " العزلة المدهشة " لبريطانيا العظمى أبان القرن التاسع عشر وعزلة أميركا في القرن العشرين . لقد سعت بريطانيا ، أيضاً ، الى تفادي نزاعات أوروبا اليوميه وتيقنت أن سلامتها ترتهن بتوازن القوى فتأهبت ، أتم الأهبة ، للذود عنه باحتذاء السبل المعروفة لدبلوماسية أوروبا . وناقضتها أميركا في ذلك ، اذ ما اذنت قط لأهمية توازن القوى أو نمط الدبلوماسية الأوروبية و لم تلق بنفسها ، وهي المسبوغة بحكم عظيم فريد ، في أيما قضية ، الا لقضايا تتناغم وخاصة طريقتها الدبلوماسية - التي كانت أكثر صراحة وعدلاً وفكراً من ما لأوروبا .

لقد جنح التفاعل بين طريقتي أميركا وأوروبا الدبلوماسيتين ، ابان ما بعد الحرب ، الى تأليف صورة مشوهة لكلا الطرفين ، فاذا ما شعرت الدول الأوروبية بالخطر ، خاصة فرنسا ودول أوروبا الشرقية ، ستأبى المشورة الأميركية بالأمن الجماعي أو الوساطة الدولية أو التعاريف القانونية للحرب والسلام . لقد أمست الدول المعتنقة للبرنامج الأميركي ، خاصة بريطانيا العظمى ، غير ذي خبرة في قيادة سياستها على هذا الأساس . ومع ذلك تعي كل هذه الدول جيداً أن المانيا لم تكتب عليها الهزيمة لوما المساعدة الأميركية ، فتوازن القوى قد غدا ، منذ نهاية الحرب ، صورة لا تروق كثيراً لحلفاء الحرب . ان أيما حرب جديده مع المانيا

لتقتضي مساعدة أميركية أشد ، وربما أعجل من منصرم عهد خصوصاً بعد اعتزال الاتحاد السوفيتي عن هذا الملعب .

كان المخاض العملي لهذا التزاوج بين الرهبة والرجاء أن يشيح دبلوماسية أوروبا عن وسائل أمانها التقليدية بنحو عظيم ، وييمم شطر الاتكاء الكبير على الولايات المتحدة ، فأفضى هذا الأمر الى ولادة حق النقيض (الفيتو) المزدوج : لن تعمل فرنسا بهذا الحق من دون بريطانيا العظمى التي لن تناقض أراء واشنطن القوية ، وعبر القادة الأميركان أنهم لن يركبوا الصعاب ، تحت أية طائلة ، اذا ما تعرضت القضايا الأوروبية للخطر .

وبرهن الرفض الأميركي المستديم لالزام أميركا على حماية نظام معاهدة فرساي ، عشرينيات هذا القرن ، انه التمهيد النفسي العسير لأحداث العقد التالي ، عندما شرع التوتر الدولي بالانفجار . وتحقق الحدس الذي كان يخبيه القدر عام ١٩٣١ عندما احتلت اليابان منشوريا ، وفصلتها عن الصين لتحيلها دولة تابعة لها . أدانت الولايات المتحدة الأعمال اليابانية دون المساهمة في قوة جماعية . لقد سعت أميركا بتقريع اليابان بفرض عقوبة عليها ، الأمر الذي لاح كأنه تملص وقدر له ، بعد عقد من الزمان ، أن يستحيل بارادة روزفلت الى سلاح يقسر اليابان على حسم المسألة . وكانت هذه العقوبة تقر بعدم الاعتراف بأية تغييرات اقليمية تحدث بالقوة . وبحلول عام ١٩٤١ طالب روزفلت اليابان بالانسحاب من منشوريا وكل المستعمرات الأخرى .

بانت تباشير الأزمة العالميـة مع تبوأ هتـلر منصـب المستشـارية الألمانيـة في الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩٣٣ . وحكم القدر أن يـؤدي فرانكلـين ديلانـو روزفلت ، الذي دلى دلواً كثيراً للاجهاز على هتلر ، قسـم اليمـين الوظيفـي بعيـد تولي هتلر بنحو من أربعة أسـابيع . ولم يفصح أيمـا أمـر في عهـد روزفلـت الأول ينذر بهذا المآل ، فنادراً ما زاغ عن البلاغة الفصحى لفترة الحـرب وكـرر المفـاهيم الانعزالية التي خلفها اسلافه . وأوضح روزفلت في خطابه في الثالث والعشرين من كانون الأول عام ١٩٣٣ ، ان العهد الوشيك قد أزف للاجهـاز علـى المعـاهدات البحرية الخاصة بالعقد المنصرم . وأقترح توسيع هـذه الاتفاقـات بـالدعوة لتدمـير الأسلحة الهجومية وبالالتزام بمنع أيما قوى مسلحة في الدخول الى أراضي الغير .

كان الأمر مألوفاً كحل روزفلت اليسـير للاعتـداءات الممكنـه ولكنـه أثـار استهجان الرأي العام ، كرة أخرى ، لأنها الوسيله الوحيدة المتيسرة :

" ستكون أية اتفاقيـة لمنـع الاعتـداء أو تدمـير أسـلحة الحـرب الهجوميـة واهية المدلول في هذا الكون اذا لم تبرم كل الأمم ، دون استثناء ، هذه المعـاهدة وتقطع على نفسها عهداً مقدساً .... من اليسـير لنـا أن ننحـدر بـالخروف عـن قطيع الماعز ... ان هذا امتداد لتحدي ودور ولســون لنا علـى الاقـتراح علـى هـذا الجيـل الحديـث ، مـن الآن فقادمـــاً ، تصيير حـروب الحكومـة ســلاماً للشعوب " . وليس ثمة تدبير لما يطرأ للماعز اذا ما انحدرت عن الخروف .

كان اقتراح روزفلت خاوياً عندما تقدم به لا سيما أن المانيا برحـت مؤتمـر نزع السلاح قبل شهرين وما آبت اليه ، وخلى برنامج هتلر من أي خطر للأسلحة

الهجومية . واتضح أيضاً ، ان هتلر لم يتفادى الازدراء العالمي عندما اختار عملية اعادة التسلح .

وتزامن العهد الرئاسي الأول لروزفلت مع أوج الفترة التعديلية لعقابيل الحرب العالمية الأولى . فنشرت لجنة خاصة تابعه لمجلس الشيوخ ، باشراف السناتور جيرالدني ، تقريراً في ١٤٠٠ صفحة يقرع أميركا لانخراطها في حرب تصنيع الأسلحة . وعقيب هذا الأمر بسّط كتاب ولتر ولز الأكثر رواجاً ، **الطريق الى الحرب** ، فرضية الكتل المناصرة فغدت مساهمة أميركا في الحرب ، بالنسبة لمدرسة الفكر هذه ، تعد خيانة وتآمراً والماً وليس بباعث المصالح الدائمة والجوهرية . قدم الكونغرس ثلاثة مواثيق حيادية بين ١٩٣٥ و ١٩٣٧ كي يحول دون انخراط أميركا كرة أخرى في الحرب وحظرت هذه المواثيق ، المستنبطة من تقرير ناي ، أية قروض ومعونات مالية الى المتحاربين (مهما كان باعث الحرب) وفرضت على كل الأطراف خطر التسلح (بصرف النظر عن هوية الضحية) . وأذن لمبيعات البضائع غير العسكرية شريطة أن تشحن بسفن لا ترفع العلم الأميركي . لم يشجب الكونغرس الأرباح لأنها غير عرضة للخطر ، وعندما أبحر المعتدون عن أوروبا الغت أميركا الفاصل بين المعتدي والضحية عندما شرعت حلقة مفردة من التقييدات على الحزبين .

والتبست المصلحة الوطنيه ثوب التعاريف القانونية لا الجيوسياسية فأبدى وزير الخارجية هل ، في آذار عام ١٩٣٦ ، مشورته ، ذات الصيغ القانونية الى روزفلت تتعلق بأهمية اعادة تسلح الراين ، الذي أطاح بتوازن أوروبا العسكري وعرى دول أوروبا الشرقية من دفاعاتها :

" سيطلع من هذا التحليل المقتضب أن فعل الحكومة الألمانية ألف خرقاً لمعاهدة فرساي ومواثيق لوكارنو ، ومع ذلك يلوح هذا الأمر ، بالنسبة لأميركا ، انتهاكاً لمعاهدتنا مع المانيا في الخامس والعشرين من آب عام ١٩٢١ " .

تخطى روزفلت اطار العمل ، غداة انتصاره الساحق في انتخابات عام ١٩٣٦ ، وأفصح أن بيده ما هية تحدي الدكتاتوريين ، بنحو أجود من سائر القادة الأوروبيين ما خلا تشرتشل . وباديء ذي بدء سعى الى الاعلان بالتزام أميركا الاخلاقي بقضيه الديمقراطيات فشرع بحملته التعليمية ، موجهاً ما أسماه خطاب العزلة ، في شيكاغو في الخامس من تشرين الأول عام ١٩٣٧ . كان هذا انذاره البكر لأميركا في ركوب الخطر ، وأول بيان عام يجشم على كاهلها بعض المسؤوليات المتعلقة بهذا الأمر . لقد ساور روزفلت القلق من البعد العالمي لاعتداء اليابان الجديد على الصين وانخراطها ، سابق سنة ، في حلف برلين - روما ، فقال :

" يرزح السلام والحرية وأمن تسعين بالمائة من سكان العالم تحت طائلة الخطر الذي يحدقه العشرة بالمائه البقيه مجهزين بذلك على النظام والقانون الدوليين وما يؤسف له أن وباء اللاقانون العالمي يلوح متفشياً كثيراً ، والمجتمع اذا ما دب فيه وباء جسدي وشرع يستفحل ، يعزل المصابين في محاجر صحيه كي لا يدرك المرض سائر المجتمع " .

كان روزفلت حذقاً في ابهام معنى " المحجر الصحي " وما هية الاجـراءات الخاصة التي تعتمل في ذهنه . فلو تبطن الخطاب أيما ضرب مـن الأعمـال ، سيغدو اهانة لميثاق الحياد ، الذي أيده الكونغرس بشكل ساحق وأبرمه الرئيس مؤخراً .

وليس من المدهش أن يتلقى خطاب العزله هجومـاً مبرحـاً مـن الانعزاليـين الذي طالبوا باجلاء لنوايا الرئيس . وبرهنوا على نحو عميق ، ان الفصل بين الأمم " المحبة للسلام " و " المولعة بالحرب " ينطـوي علـى حكـم أمـيركي لهـذا المبـدأ ، الأمر الذي يفضي الى ترك سياسة عـدم التدخـل الـتي تعهـد مـن أجلهـا روزفلـت والكونغرس . وبعد عامين ، وصف روزفلت الجيشان المتمحـض عـن الخطـاب ، كما يلي :

" وأسفاه ! ان كلماتي هذه تتنـاهى الى مـن علـى أذانهـم وقـر – ممتلئـة أجوافهم قسوة وعداءً .... فحملوه لكانه تجـارة حـرب ، ولعنـه الشـاتمون بانـه تدخل مقصود في شؤون العالم ، حتى استخف به المسـتخفون وقـالوا أنـه سـعي عصيب لأخطار حرب مالها من الحياة رمق " .

كان بميسور روزفلت أن يفض النزاع أنى أنكر المزاعم الملصقة به وتغـاضى عن الهجوم الناقد حين تحدث بشكل مبهم تماماً في مؤتمر صحفي كي يـدع البـاب مشرعاً أمام خيار الدفاع المشترك بايما شاكلة . وأوردت المصـادر الصحفيه ذلـك اليوم أن الرئيس قد التقى بالصحفيين سراً ، الأمر الذي يعـني لقـاءً دون افصـاح أو اقتباس ، فتيسر للرئيس ما أراد .

ونشر المؤرخ تشارلز بيرد ، بعد سنوات ، وثيقة تظهر روزفلت مراوغاً وحابكاً لخطاب العزلة دونما نفي لما مثله الحديث من مدخل جديد ، وأبى القول عن كنهه . وأصر روزفلت أن الخطاب يتبطن أفعالاً تخطت كثيراً الادانة المعنوية للاعتداء : " ثمة سبل عدة في هذا الكون لم توضع بعد حيز التجربة " . وأفصح روزفلت عن سؤال للحظه التي عناها في هذا القول فأجاب : " ليس بميسوري أن أقدم لك الدليل ، وعليك أن تخترعه بنفسك لأنه قد اختمر في ذهني " . ولم يفسر قط ما عناه بالخطة .

وربما يحذر روزفلت ، السياسي ، من شر الخطر الموشك ، وعلى روزفلت ، القائد السياسي ، أن يمخر عباب تيارات الرأي الأميركي الثلاث : حزب أقليه يتبنى مساعدة لا محدودة لكافة الأمم " المحبة للسلام " وحزب أقلية أهمية يعاضد مثل هذه المعونة لأنها تحول دون الحرب ، وتؤيد الأغلبية الساحقة تشريع الحيادية حرفاً وروحاً . سيسعى القائد السياسي الحذق ليشرع أوفر الخيارات على مصراعيها أمامه ويحذو حذوه بعدئذ بباعث من فضلى خياراته المخضة لا أن تملي الأقدار عليه ذلك . واذا ما تصفحنا التاريخ ، لا نطالع رئيساً في العصر الحديث كان أفضل من روزفلت في هذا الضرب من التدبير التكتيكي .

ويقينا أن روزفلت لم يدحض الأمر لو حمل جمهوره بيانه المبهم بمعنى ما تفقهه عن أهمية الانعزال من تجاربه الحربيه . وعلى صعيد آخر ، سيحظى روزفلت ، لو حصحص الحق في ما عناه ، بشعبيه عظيمه بمجرد الافصاح عن هذا الأمر . ومن المرجح الراجح ، في ضوء ما تأخر من أحداث ، أن روزفلت عنى مواصلة الدأب الولسني بسبل أكثر واقعية .

لم يأبه روزفلت لردود الأفعـال المعاديـه لتصريحاتـه وأسـرى الى الكولونيـل ادوارد هاوس ، خصم ولسون اللدود ، في تشـرين الأول عـام ١٩٣٧ ، أن الأمـر سيسلخ وقتاً كي " يتفقه الناس أن الحرب لاشد خطراً علينـا لـو أوصدنـا الأبـواب والمنافذ مما لو دلفنا الى الشارع لنمنع الشغب بقوتنا " . وهذا أسلوب آخر للقول أن الولايات المتحدة لفي حاجة للمسـاهمة في شؤون العالم على شـاكلة مبهمـة المعالم لكي تردع مخطط العدوان .

كانت معضلة روزفلت المباشرة انفجار المشاعر المناوئة للانعزالية . لقد أقر مجلس الممثلين تقريباً ، في كانون الثاني عام ١٩٣٨ ، على تعديل دستوري يقتضي استفتاءً وطنياً لاعلان الحـرب الا في حالة رزوح الولايـات المتحـدة تحت طائلـة الغزو . كان على روزفلت أن يقدم مناشده شخصيه لمنع هذا الأمر ، فقد ألفى أن التكلم ، في ظل هذه الظروف ، ليغدو أفضل ضرب في البسالة . و لم ترد حكومـة الولايات المتحدة ازاء أمور النمسا مع المانيا ، فحـذت بذلـك حـذو الديمقراطيـات الأوروبية المكتفيه باحتجاجاتها الشبمة . لقد شعر روزفلت ، أبان الأزمة التي أفضت الى مؤتمر ميونخ ، أن في عهدته التوكيد ، مـراراً وتكـراراً ، بعـزوف أميركـا عـن الانخراط في جبهة موحدة حيال هتلر فتنصل من مساعديه وأقـرب أصدقائـه الذيـن الحوا بامكانية ذلك .

وفي العشاء الذي أقيم احتفالاً بالعلاقات الأميركية الفرنسية ، مطلع ايلـول عام ١٩٣٨ ، كرر وليـم س . بلـت ، السـفير الأمـيركي في فرنسـا أن الولايـات المتحدة وفرنسا " متوحدتان في الحرب والسلم " . كان هـذا الأمـر وافيـاً ليذكـي ثورة الانعزاليين ، فأضطر روزفلـت ، الجـاهل سلفاً بـأقوال سـاخنة علـى السـفير

كتمانهـا ، الى الدحـض علنـاً أن ترصـف الولايـات المتحـدة نفسـها بجـانب الديمقراطيات الخاطئة " مائة بالمائة " لقد لاحـت الحـرب في الأفـق ، أواخـر ذلـك الشهر ، غداة مـا اجتمـع تشـامبرلين بهتـلر مرتـين فأرسـل روزفلـت رسـالتين الى تشامبرلين في السادس والعشرين من أيلول والثامن والعشرين منه حيث دعـا الى مؤتمر للقوى المعنيه تبذل في الجهود لتحقيق امتيازات التشيك الرئيسه .

وتلوح أزمة ميونخ ذروة التحول التي قذفت بروزفلـت لـيرصف أميركـا في مصاف الديمقراطيات الأوروبيـة سياسيـاً ، أول الأمـر ، وماديـاً ، رويـداً رويـداً . وتصلـب في روزفلـت ، منذئـذ ، تصميمـه علـى الاطاحـة بالدكتـاتوريين وتـأوج بدخول أميركا حرباً عالمية أخرى بعد ثلاث سنوات . ويتجلى التفاعل معقداً بـين القادة وشعبهم الديمقراطي فالقائد الذي ينـذر نفسـه لخـبرة شـعبه أوقـات جيشـان يتاع شعبية مؤقتة لقاء لعنة الجيل الذي يتجـاهل مناجاتـه . والقـائد الـذي يسبق شعبه بخطوات واثبه بعيده ستنزاح عنـه أهليتـه . أن القـائد العظيـم معلـم ، رائـب للصدع بين الرؤى والواقع ، راغب بالسير لوحده كي يقدر المجتمع علـى مشـايعته في الدرب الذي اصطفاه لهم .

وفي كل قائد ثمة قبس من الرياء يبسط له الأمور أواناً ويعظـم مهمتـه أوانـاً آخراً ويكمن اختباره الأخير في مدى تجسيده لصدق قيم مجتمعه وماهية تحدياتـه . لقد توسم روزفلت المؤمن بأميركا بكل هذه المزايـا لدرجـة فـذة وتيقـن أن النازيـه لشر وخطر يحيقان بأمن أميركا ، فمكر في ذلك خـير مكـر . كـان متأهبـاً ليلقـي على كاهله مشقة القرارات الفردية كأنه البهلوان السـائر علـى الحبـل ، عليـه شـق

طريقه حذر الخطو مكروب الجسد والسير ، متخطي الصدع بين مرماه وواقع مجتمعه آمناً أن الشاطيء القاصي لآمن في حقيقته من قنة الجبل الدانيه ٠

وفي السادس والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٣٨ ، وبعد أقل من أربعة أسابيع على ميثاق ميونخ ، حذر روزفلت ، في الخطاب الذي بث في الراديو ، أعداءً واضحين ، دون تسميتهم ، لأن " سياستهم الوطنية تلوح بخطر الحرب كأداة مقصودة بيدها " ٠ ونادى أيضاً الى تحصين الدفاعات الأميركية ٠ أيد نزع السلاح مبدئياً :

" ..... لقد قلنا مراراً وتكراراً أننا نحن ، وسائر الأمم ، لنأبى نزعاً للسلاح ولما يتدجج جيراننا بسلاحهم من أخمص القدم حتى فروة الرأس ٠ ولسنا بعازفين عن شهر سلاحنا ان لم يكن ثمة نزع عام له ، وذلك ما لا يطيب لنا ولا نرجو له فعلاً ريثما تنقلب أسلحة العدوان جميعاً الى أغمادها ليطمئن بذلك ما يجول في أذهاننا من حذر واحتراس " ٠

لقد مضى روزفلت ، خفيةً ، الى أبعد من ذلك وعقدت في نهاية تشرين الثاني من العام نفسه محادثات منفصلة مع وزير الطيران البريطاني ومع الصديق الشخصي للرئيس نيفيل تشامبرلين وعرض عليهما مشروعاً يرمي الى مراوغة مواثيق الحياد ٠ واقترح روزفلت ، ليتملص من التشريع الذي دفعه مؤخراً ، انشاء مصنع للطائرات في كندا ، على مقربة من أميركا ٠ وستجهز أميركا كل قطع الغيار وارثة فرنسا وبريطانيا العظمى نهاية المطاف ، تركيب هذه الأجزاء ٠ وسيأذن هذا الاجراء ، عملياً ، على ابقاء المشروع ضمن نصوص ميثاق أعمال

الحياد بدعوى أن هذه الأجزاء بضائع مدنية . وأسر روزفلت مبعوث تشامبرلين أن " الحرب اذا ما أضرمت مع المستبدين ، ستكون لأميركا موارد صناعية في عجيزتها " .

وشخص روزفلت ، في رسالة كتبها عام ١٩٣٩ ، ايطاليا والمانيا واليابان كدول معتدية واشار الى الكثير من السبل الدانيه في الحرب ، الأشد قوة وعنفاً من مجرد الكلمات التي من شأنها اطلاع الحكومات الغاشمة بمشاعر شعبنا كله .

نعت روزفلت لأول وهلة ، في نيسان عام ١٩٣٩ وبعد أقل من شهر على احتلال النازية لبراغ ، مهاجمة الدول الصغيرة بتهديد عام لأمن أميركا ، وأخبر روزفلت الصحفيين ، في المؤتمر الصحفي الذي عقد في الثامن من نيسان عام ١٩٣٩ ، أن " الاستقلال السياسي والاقتصادي والاجتماعي الدؤوب الخاص بكافة الأمم الصغيرة في هذه المعمورة لذا صلة مؤثرة في أمن وطننا ورخائه ، فكل أمة تنقرض تفقر رفاهيه أمتنا وسلامتها " . ووثب روزفلت خطوة تالية ، في حديثه أمام الاتحاد الأميركي الشامل ، وأوضح أن سلامة المصالح الأميركية ما عادت ملزمة بعقيده مونرو :

" ثمة حقيقة يفقهها القاصي والداني ، أن الأساطيل الجوية ، في خضم سنوات قلائل ، ستشق طريقها في المحيط بسهولة ويسر تماماً كما مخرت اليوم عباب البحار الأوروبية المغلقة . فعلى عمل التجارة العالمية أن يتوحد ، كضرورة ، وأن لا يصيب أيما اخفاق عوقاً للحياة الاقتصادية في كل بقاع المعمورة مستقبلاً . لقد اهتمت الشؤون الأميركية الشاملة ، سابق جيل ،

بتأطرة المباديء والوسائل التي تعتصم بها أمم هذا النصف الأرضي في العمل . بيد أن الجيل الآتي سيعتريه الاهتمام بالسبل التي يحياها العالم الحديث سوية بسلام مع العالم القديم " .

ووجه روزفلت ، في نيسان عام ١٩٣٩ ، رسالة مباشره الى هتلر وموسوليني أوضحت لشعب أميركا بذكاء ، رغم استخفاف الدكتاتورين بها ، أن لدول المحور نوايا عدائية حقيقية ، وسأل روزفلت ، الرئيس الأميركي الأمكر والأدهى ، أن يقدم له الدكتاتوران ضمانات بعدم مهاجمة احدى وثلاثين دولة أوروبية دهراً من عشر سنين . وحظي روزفلت بعدها ضمانات مماثلة من هذه الدول الثلاث والثلاثين تتعلق بالمانيا وايطاليا وعرض المساهمة الأميركية في أيما مؤتمر نزع سلاح يتمحض عن استرخاء هذا التوتر لم تلق اشارة روزفلت قبولاً في السفر الدبلوماسي الخاص بالعمل الدقيق فهو أدرج ، مثلاً ، سوريا وفلسطين ، الواقعتين تحت الانتداب الفرنسي والبريطاني ، كدول متمتعة بالاستقلال . وسلخ هتلر عظيم وقت مستعيناً برسالة روزفلت كعماد له في أحد خطبه في الريشستاغ فتلى على الجمهور الحاشد ، بترو ، الأسماء الكاملة للدول التي سأله روزفلت أن يدعها وشأنها . وعندما نطق الفوهرر ، بصوت جهوري ، أسماء الدول ، واحدة فواحدة ، صدحت في أرجاء الرايشستاغ موجات من القهقهة . وشرع هتلر يتحقق في كل دولة مدروجة في رسالة روزفلت ، كانت أغلبها في خشيه من الفوهر . ولكنها نفت ، أشد النفي ، مثل هذا القلق .

لقد حقق روزفلت ، برغم مآخذ هتلر عليه في خطابه ، مصباه السياسي ووصم الدكتاتوريين ، ولما يسألهم الضمانات ، بوشم المعتدين أمام جمهور يهم

روزفلت ، لحظتئذ أمرهم – الشعب الأميركي . وكان روزفلت في فاقة ، اذا ما بعث الشعب لتأييد الديمقراطيات ، الى الباس الأمور مصطلحات تخطت توازن القوى ويصورها صراعاً للجهاد دون الضحايا البريئة من شرور أنياب المفترسين . لقد تحقق مصباه بباعث من رسالته ورد فعل هتلر بازاءها .

قدر روزفلت ، بوجه من السرعة ، على ترجمة البداية الأميركية الجديده الى صياغة استراتيجية فيمم الولايات المتحدة ، في شهر نيسان ذاته عام ١٩٣٩ ، صوب التعاون العسكري الواقعي مع بريطانيا العظمى ، فأطلقت اتفاقية بين الطرفين العنان للبحرية الأميركية على تحشيد كل قواتها في الأطلسي بينما يممت الولايات المتحدة بقية أسطولها شطر الباسفيك . وأنطوى تقسيم العمل هذا اضطلاع الولايات المتحدة بمسؤولية الذود عن ممتلكات بريطانيا العظمى الآسيوية من شر اليابان . لقد أبرمت اتفاقية مماثلة ، قبل الحرب العالمية الأولى ، بين فرنسا وبريطانيا العظمى (التي حشدت الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط) وأستعانت بها بريطانيا كتعهد أخلاقي لدخول الحرب العالمية الأولى ذوداً عن حمى الساحل الأطلسي الفرنسي .

اعترى القلق الشديد الانعزاليين جراء أفعال روزفلت وأفصح السناتور آرثر فاندنبرغ ، بلغة بليغة عن القضية الانعزالية ، في شباط عام ١٩٣٩ :

" ليس ثمة أدنى شك أن نحيا في كنف عالم ، لو أبصرناه بعدسة أيام واشنطن ، نرى الزمان والمكان قد تواريا ، الى حد ما . وأحمد الله على ما أسبغه علينا من نعمة محيطين معزولين : فهن أعظم البركات اذا ما غورنا

سبريهما ، أوسع الغور وأحكمه ...... لنا كلنا تعاطف ومـودة صوب ضحايـا الاعتداء الوطني أو الدولي في كل أرجاء المعمورة ، ولكننا لسنا ، ولـن نكـون ، الذائد عن هذا العالم ، أو شرطي هذا العالم " .

وعندما أعلنـت بريطانيـا الحـرب على المانيـا ، في الثـالث في أيلـول عـام ١٩٣٩ ، بعدما غزت المانيا بولندا ، لم يكن بازاء روزفلت أيما خيار خـلا التذكـير بمواثيق الحياد ، وانبرى ، بنحو عاجل ، على تعديل التشريع ليأذن لفرنسا وبريطانيا العظمى بابتياع الأسلحة الأميركية .

اجتنب روزفلت الجهر بمواثيق الحيـاد أبـان الحـرب بـين الصـين واليابـان ، بزعمه أن الحـرب غـير معلنـه ، ولكـن مبعـث هـذا الأمـر في الحقيقـه ، مـن ايمـان روزفلت أن حظراً على السلاح سـيصيب الصـين بـأذى أكـثر مـن اليابـان . فلـو كانت شرارة الحرب هـذه في أوروبـا ، سـتكون معلقـة ويتعـذر علـى روزفلـت ، حينئذ ، الباس مواثيق الحيـادة بأيمـا حيلـة لـذا دعـا ، مـع استـهلال عـام ١٩٣٩ ، لتعديل مواثيق الحياد بذريعة أنها " لا تحق الحق ولا تزهـق البـاطل " - وبميسـورها فعلاً أن تعين المعتدي على الضحية . و لم يحـرك الكونغـرس سـاكناً ريثمـا قرعـت طبول الحروب الأوروبيـة فعـلاً . لقـد دحـض اقـتراح روزفلـت ثـلاث مـرات في الكونغرس مبكراً من تلك السنة .

دعا روزفلت ، يوم اعلان بريطانيا الحرب ، لجلسة خاصة للكونغرس ، في الحادي والعشرين مـن أيلـول ، وأوتـي ، في هـذه المـرة سؤاله . لقـد اذن الميثـاق الحيادي الرابع ، في الرابع من تشرين الثاني عام ١٩٣٩ ، للأمم المتحاربة أن تبتـاع

الأسلحة بسفن تخصهم أو محايدة لهم . وبباعث من الحصار البريطاني ، استطاعت فرنسا وبريطانيا العظمى تحقيق ذلك ، فغدت " الحيادية ": مصطلحاً فنياً متعاظماً ودامت مواثيقه لطالما انعدمت الأمور المتطلبة حياداً .

ودأب القادة الأميركان ، أبان الحرب " الزائفة " ، على الاعتقاد انهم في فاقة للمعونة المادية حسب . وأفصحت المعرفة المألوفة ان الجيش الفرنسي وراء خط ماجنيو ، تساعده البحرية الملكية ، سيخنق المانيا من خلال تشكيل حرب دفاع أرضيه وحصار بحري .

بعث روزفلت ، في شباط عام ١٩٤٠ ، سومر ولز ، وكيل وزير الخارجية ، في مهمة الى أوروبا لبحث امكانيات السلام أبان " الحرب الزائفة " . خلص دالاديه ، رئيس الوزراء الفرنسي ، أن ولز كان يدعو لتسويه سلام تترث المانيا هيمنه على مركز أوروبا ، بالرغم من أكثر محاوري ولز لم يتفقهوها على هذه الشاكلة .

صبا روزفلت ، ببعثه ولز الى أوروبا ، أن يوضح لشعبه المنعزل التزامه بالسلام أكثر من رغبته في التوسط ورام مطالبة أميركية بالمساهمة اذا ما بلغت " الحرب الزائفة " أوجها في تسوية السلام ، لكن كل المسعى الأميركي الخاص قد أزهقته المانيا ، بمهاجمتها النرويج .

كانت فرنسا ، في العاشر من حزيران عام ١٩٤٠ ، تسلم روحها الى الغزاة النازيين فأنبرى روزفلت هاجراً حياديته الرسمية وأنب ، بفصاحة قول ، الجانب البريطاني على ذلك . لقد شجب روزفلت ، في خطابه الجياش في جامعة

كارلوتسفيل في فرجينيا ، العمل الغادر لموسوليني عندما هاجمت جيوشه فرنسا ذلك اليوم ، وأعاد الى الأذهان الالتزام الأميركي بتوسع المساعدة المالية اللامحدودة لجميع الدول المقاومة للهجوم الألماني . وفي الوقت ذاته أعلن تشديد أميركا على خاصة دفاعاتها :

" ليسجل التاريخ أننا هنا في العاشر من حزيران عام ١٩٤٠ نتفيأ بظل جامعة أرسى صرحها أعظم معلم أميركي للديمقراطية ، فلنبتهل بالصلوات ، ونتضرع بالأدعية الى أولئك الدابرين وراء البحار ، المجاهدين في معركة الحرية ، ابسل الجهاد " .

سنحذو . في اتحادنا الأميركي ، حذوين جليين متوافقين : سنستقطع من هذه الأمة موارد نهبها لمجابهي القوة وسنسعى ، في الوقت عينه ، الى عد العدة لنعجل من توظيب هذه الموارد كي نقدر نحن الأميركين على حظوة معدات واعداد تفي لأي أمر طاريء ولكل دفاع " .

أرخ خطاب روزفلت في كارلوتسفيل حسماً فاصلاً وكان بميسور أي رئيس أميركي ، ولما دنا أجل بريطانيا العظمى ، أن يكتشف في البحرية الملكية عنصراً ضرورياً لأمن النصف الغربي . ولكن من العسير التصور أيما مخايل لروزفلت – حتى من ضرب سياسي ما – يتحلى بشجاعة وتبصر لادراك الخطر ويقود شعبه الانعزالي ، بقوه ارادته الحرة ، خطوة فخطوة الى الالتزام بأيما فعل يدلو دلوه في الاطاحة بالمانيا النازية .

وهكذا بات متوقعاً أن أميركا ، عاجلاً أو آجلاً ، ستوالي بريطانيا العظمى وهذا الأمر ، يقينا ، أحد الأمور الحاسمة التي جشمت تشرتشل قرار مداومة الحرب لوحده :

" سنثابر في معركتنا الى أن نزهق الرمق الأخير .... فحتى اذا ما استعبدت هذه الجزيرة ، أو شطر عظيم منها ، وتضورت جوعاً ، ستحمل راية القتال هذه امبراطوريتنا البحرية ، التي يحرسها الأسطول البريطاني المدجج بالسلاح ، ويظل يجاهد ، ريثما يأذن الله ، فينبعث عالم حديث آخر ، بكل ما يسبغ من قوة وقدرة ، ليخلص الكون العاهد ويحرره " .

كانت أساليب روزفلت معقدة - مهذبة المرامي ، ماكرة في التكتيك ، صلبة في تعريف الأمور ، واهنة الصراحة في تفسير غموض أحداث خاصة . ودنت كثير من أفعاله شفا القانونية وليس ثمة رئيس بحايل له يحذو حذو أفعاله ويمكث في منصبه . لقد آنس روزفلت أن أمن أميركا شرع يتردى وأوشك ظفر المحور على الاجهاز عليه فهتلر لا يتمتع بأيما حرمة للمباديء التي أنذرت أميركا نفسها من أجلها .

وشدد روزفلت التوكيد ، بعد سقوط فرنسا ، على التهديد الوشيك لأمن أميركا فكان للأطلسي ، في نظره ، المعنى ذاته الذي يراه الساسة البريطانيون في القنال الانكليزي ، وأيقن أنه مصلحة وطنية حيوية على هتلر الا يقربه . وهكذا زاوج روزفلت ، في خطابه للدولة في السادس من كانون الثاني عام ١٩٤١ ، بين الأمن الأميركي وبقاء البحرية الملكية : لقد أفصحت لكم مؤخراً عن هول الحرب

الحديثة ومباغتتها لأيما دفاعات لنا بالذات ، فينبغي لنا أن نتوقعه من الدكتاتورين في أية لحظة . وثمة أقوال كثيرة عن تحصننا بازاء أيما غزو مباشر ومباغت من ما وراء البحار . ويقينا أن هذا الخطر لن يبصر الضياء ما دامت البحرية البريطانيه في كل قوتها .

سلخ روزفلت عدة شهور في العمل مفترضاً أن أميركا ستلج الحرب . وتدبر ، في أيلول عام ١٩٤٠ ، أمراً بارعاً يهب بريطانيا العظمى خمسين مدمرة ، بزعم أنها عتيقة ، لقاء حق انشاء قواعد أميركية على ثماني ممتلكات بريطانية ، تقع بين النيوفونلاند حتى جنوبي أميركا في المنيلاند ، وأسمى ونستون تشرتشل هذا الأمر ، بعدئذ ، " عمل لا حيادي مبيت " فحاجه بريطانيا العظمى للمدمرات لأشد ملحة مما لأميركا مع القواعد كان أغلبها قاصياً جداً عن أيما مسرح متراثي للعمليات ، بينما تطابق البعض مع قواعد أميركية حالية . لقد هيأت صفقة المدمرات ذريعة مستندة الى رأي قانوني لمعين لفرانسس بيدل النائب العام لروزفلت .

لم يسع روزفلت لمصادقة الكونغرس أو لتعديل قانون الحياد بالنسبة لصفقة المدمرات مقابل القواعد و لم يلح أيما تهديد له في ضوء الأحداث التالية . كان هذا باعث من خشية روزفلت من النصر النازي اليسير واسناد لمعنويات بريطانيا . فأتخذ الأمر هذا كخطوة لحملة الدعاية الرئاسية . (ومن حسن حظ بريطانيا العظمى وقضية الوحدة الأميركية أن الآراء السياسية الخارجية المتمثلة بخصم روزفلت ، وندل ولكي ، لم تتباين بشكل كبير مع آراءه) .

وفي عام ١٩٤٠ تزامنت الزيادة المطردة التي حققها روزفلت لجيب ميزان الدفاع الأميركية مع سعيه في حمل الكونغرس على اصدار التجنيد الالزامي لوقت السلم . لقد انبرى رأي الانعزاليين شديداً جداً بحيث حظي مطلب روزفلت ، على اصدار التجنيد الالزامي ، صوتاً واحداً في مجلس الممثلين ، صيف عام ١٩٤١ ، وهو دون ما حققه قبل أربعة أشهر من اندلاع الحرب .

مضى روزفلت ، غداة الانتخابات مباشرة ، الى شطب مقتضى قانون الحياد الرابع - الذي يطالب أميركا باستقطاع مبالغ نقدية لقاء مواد الحرب وتحدى الولايات المتحدة من أن تغدو " ترسانة الديمقراطية " . كانت الوسيلة القانونية ، للاتيان بذلك في قانون الاعارة والتأجير التي خول الرئيس سلطة استنسابية كي يعير ويستأجر ويبيع ويقايض تحت طائلة أيما ظروف يراها ملائمة لبنود الدفاع الخاصة بـ " حكومة سائر الدول التي يقدر الرئيس حيويتها بالنسبة لدفاع الولايات المتحدة " . وعلى بواعث استراتيجية برر ميثاق الاعارة - التأجير وزير الخارجية ، هل ، الولسني ، المتحمس والمؤيد لسياسة الأمن الجماعي فأفصح أن بريطانيا العظمى دونما مساعدة أميركية شاملة ، ستتداعى فتتلقف أيادي العدى زمام السيطره على الأطلسي وتحدق الأخطار بأمن النصف الغربي .

واذا ما تجلى هذا الأمر ضرباً من الحقيقة ، سيكون بميسور أميركا تحاشي الانخراط في الحرب لو قدرت بريطانيا ، وحدها ، على دحر هتلر ، الأمر الذي استبعد حتى تشرتشل احتماله . وأكد على هذا الأمر السناتور تافت في معرض شجبه لقانون الاعارة - التأجير . وشكل الانعزاليون أنفسهم في تنظيم يقال له اللجنة الأميركية الأولى يرئسها الجنرال روبرت وود وتعاضدها شخصيات كبار في

عدة حقول مثل كاثلين نورس وايرفن س . كوب وتشارلز أ. لندبيرغ وهنري فورد والجنرال هوغ س. جونسون وجستزباولز وابنة ثيودور روزفلت ، السيده نيقولاس لونغوورث .

كانت العاطفة المتقدة في مجابهة الانعزاليين لقانون الاعارة والتأجيرصورها ، في أحسن تقويم ، السناتور آرثر فاندنبرغ ، أكثر المتحدثين " ثقافة " ، عندما علق على الأمر في الحادي عشر من آذار عام ١٩٤١ :

" لقد اتخذنا خطاب واشنطن ظهرانياً لأننا قد ألقينا بأنفسنا ، مراراً ، الى دوامة سياسة القوه وحروب أوروبا وآسيا وأفريقيا . لقد وثبنا أولى خطوات سبيل لن تقهقر منه قط " .

كان فانبدبرغ مصيباً في تحليله ولكن مشيئة العالم هي التي فرضت الضرورة ، ومعروف صنعه روزفلت بتحديدها .

وطد روزفلت العزم ، بعيد اقتراح قانون الاعارة والتأجير ، على الاجهاز على النازية بشكل أعظم تجلياً . لقد تحادث رؤساء الأركان الأمريكان والبريطانيون ، حتى قبل المصادقة على القانون ، عن امكانية توظيب الموارد الجاهزه للأعداد وشرعوا يتدبرون الوقت الذي تلج فيه أميركا فعلياً الى ساحة القتال ، فكان أمر أميركا مجرد صيرورة . لم يوقع روزفلت على الاتفاقيه ، التي تهب قمة الأولوية ، في حالة الحرب ، للصراع ضد المانيا ، وتجلى هذا الأمر بباعث من الأوامر الداخلية والتقييدات القانونية ، وليس مرده لأيما ابهام في مراميه .

وقضمت النازيه ، بفعل أعمالها الوحشية ، الفارق بين الجهاد سعياً لتعزيز القيم الأميركية والجهاد من أجل تحصين أمن أميركا . لقد تخطى هتلر شاسعاً المعيار المأذون للأخلاق بحيث أمست المعركة ضده لا تعني ظفراً للخير على الشر بل صراعاً من أجل البقاء العاري . وهكذا خلص روزفلت في كانون الثاني عام ١٩٤١ ، الى أهداف أميركا في ما أسماء الحريات الأربعة : حرية الحديث ، وحرية العبادة ، وحرية الارادة وحرية الخوف ، وهذه الأهداف قد تخطت كثيراً كل ما حصل في حروب أوروبا السابقة ، بحيث أن ولسون نفسه لم يناد لشأن اجتماعي ، مثل حرية الارادة ، كمرمى للحرب .

وخطا روزفلت ، في نيسان عام ١٩٤١ ، وثبته التاليه شطر الحرب عندما ، أبرم اتفاقية مع الممثل الدانماركي في واشنطن (برتبة وزير) تأذن للقوات الأميركية باحتلال الكرتيلاند . تصرف الدبلوماسي ، بدون بلد ، من تلقاء نفسه و " خول " القواعد الأميركية على الثرى الدانماركي ، فالدانمارك ترزح تحت طائلة الاحتلال الالماني و لم يكن ثمة حكومة دانماركية في المنفى . وأسرى روزفلت الى تشرتشل ، في الوقت عينه ، أن السفن الأميركية ، منذئذ ، ستبحثو في شمال الأطلسي غرب الايسلند - مغطية ثلثي المحيط - " فتترصد من موضعها الطائرات والسفن المعادية عندما تدخل منطقة الجثو الأميركية " . وبعد ثلاثة أشهر ، تلقت أميركا دعوة من الحكومة المحلية فأرسلت قطاعاتها الى ايسلنده ، الملكية الدانماركية ، لتناوب القوات البريطانية فأعلن روزفلت بعدها ، دونما مصادقة من الكونغرس ، أن الأراضي الكائنة بين الملكيات الدانماركية هذه وشمالي أميركا لشطر من منظومة الدفاع الخاصة بالنصف الغربي .

وأعلن الرئيس روزفلت ، في خطاب له في ٢٧ آيار عام ١٩٤١ وبث بالراديو ، حالة الطواريء وأعاد الى الاذهان التزام أميركا بالرخاء الاقتصادي والاجتماعي :

" لن نأذن بعالم جباره هتلر ولا بكون ، يماثل ما تلى الحرب في عشرينيات هذا القرن ، اذ يتيسر لبذور هتلر أن تزرع كرة أخرى لتأتي ثماراً " .

اننا لن نرتضي الا بكون موقوف لحرية الكلام والتعبير - حرية كل البشر على تعبد الله أنى شاءت سبيلاً - حرية الارادة - حرية الخوف .

وعنت عبارة " لن نأذن " الزام روزفلت لأميركا على ركوب الحرب اذا لم تحقق الحريات الأربع بطريقة أخرى . وقلة قليلة من رؤساء أميركا تمتعوا بمثل ما لروزفلت من بيان وحس فسيّر في يده نفسيه الشعب . لقد تيقن أن التهديد الوحيد لأمنهم هو ما يبعثهم على مناصرة التأهب العسكري وأن يكون موضع اعجاب لمثاليتهم ، تماماً كما راق ولسون لهم ، لو شاء قيادتهم للحرب . كان يتطلع الى الهيمنة على الأطلسي كضمان لأمن أميركا ، بيد أن مرامي الحرب اقتضت شطراً من الرؤية لنظام عالمي محدث فما كان " توازن القوى " قط عبارة نطق روزفلت بها ، الا باستخفاف . لقد سعى الى مجتمع عالمي يوافق المباديء الديمقراطية والاجتماعية الأميركية كأفضل توكيد للسلام .

وفي هذا الجو ، التقى رئيس الولايات المتحدة ، المحايدة فنياً ، ونستون تشرتشل ، القائد الحربي العنوان لبريطانيا العظمى ، على ظهر طوافة في شاطيء

النيوفوندلاند . لقد تحسن وضع بريطانيا الى درجة ما ، عندما غزا هتلر روسيا ، ولكنها قاصية عن النصر . ومع ذلك عكس البيان المشترك لهذا اللقاء صورة لعالم محدث تماماً يقبع للموافقة الأميركية ، فأعلن ميثاق الأطلسي مجموعة من " مباديء مشتركة " جذّر عليها الرئيس ورئيس الوزراء " رجائهم في عالم أفضل " ، وأضفت هذه المباديء ، لحريات روزفلت الأربع ، اذناً متكافئاً للمواد الخام والجهود المتعاونة لتحسين الظروف الاجتماعية للعالم .

وكسا ميثاق الأطلسي مشكله أمن ما بعد الحرب كاملها ، بثياب المفاهيم الولسنيه ولم يتبطن أجزاءً جيوسياسية قط . فبعد أن يزهق الطغيان النازي آخر أنفاسه ، ستشجب الأمم الحرة استخدام القوة وتفرض نزعاً دائماً للسلاح على الأمم " التي تلوح .... بالغزو " . وصور ضربان من الأمم : أمم معتديه (خاصة المانيا وايطاليا واليابان) التي ينزع تسلحها بنحو دائم ، وأمم محبة للسلام يأذن لها بابقاء قواتها العسكرية ، بالرغم من الرغبة من خفظها كثيراً . وسيكون تقرير المصير الوطني اللبنة الأساس لهذا النظام المحدث .

ويفصح التباين بين ميثاق الأطلسي وحطة بت ، التي اقترحتها بريطانيا لانهاء الحروب النابليونية ، البعد الذي أمست فيه بريطانيا العظمى نظيراً أدنى في العلاقة بينها وأميركا . وما أشار ميثاق الأطلسي قط الى توازن القوى بينما كان هذا التوازن الزبده الكاملة لخطة بت . ولم تغفل بريطانيا العظمى عن توازن القوى بعد أن خاضت أشد المعارك ضراسة في تاريخها الا عندما تيقن تشرتشل أن ولوج الولايات المتحدة الحرب سيرفع توازن القوى لصالح الكفة الانكليزية

وعليه ، في الوقت عينه ، أن يخضع المرامي البريطانية البعيده للضروريات الآنية – الأمر الذي ما شعرت بريطانيا قط بوجوب الأقدام عليه أبان الحرب النابليونية .

وأرخ ذيوع ميثاق الأطلسي زحفاً المانيا شطر موسكو وتأهباً يابانياً للانقضاض على جنوبي شرق آسيا . كان جل اهتمام تشرتشل في رفع العقبات التي تعتور سبيل أميركا الى الحرب فهو ذو ثقة لا يدبرها شك أن بريطانيا العظمى لن تحقق نصراً حاسماً البتة لوحدها حتى لو انضم الاتحاد السوفيتي الى صفه في الحرب وتواصلت المعونة المادية الأميركية . وعلاوة لذلك ربما يخر الاتحاد السوفيتي صريعاً فتلوح ، ممتذ ، امكانية تسوية بين هتلر وستالين لتهدد بريطانيا العظمى بعزلة جديدة . ولم يستطب لتشرتشل مناقشة هيكل ما بعد الحرب قبل أن يتوكد من صيرورة مثل هذا العالم .

وفي أيلول عام ١٩٤٠ عتبت الولايات المتحدة باب الحرب فأوامر روزفلت على ترصد مكامن الغواصات الألمانية ونقلها للبحرية البريطانية قد حتمت من حدوث الاصطدام ، عاجلاً أو آجلاً . وتعرضت المدمرة الأميركية كرير ، في الرابع من أيلول عام ١٩٤١ ، لطوربيد المائي ولما تبعث بموقع غواصة المانية الى الطائرات البريطانية فشجب روزفلت ،في ١١ أيلول دون وصف الظروف ، " القرصنة " الألمانية ، وأمر بحرية الولايات المتحدة " حال الرؤية " باغراق أية غواصات ايطالية أو المانية ترصد في منطقة الدفاع الأميركية السابقة والممتدة على امتداد الطريق المؤدي الى ايسلندا . كانت أميركا في حرب بحرية مع دول المحور .

ثأر روزفلت ، في ذلك الوقت ، من اليابان لاحتلالها أندونيسيا ، في حزيران عام ١٩٤١ ، فأبطل الاتفاقية التجارية معها وحظر بيع المعادن الخام لها وشدد من أزر الحكومة الهولندية في المنفى على وقف تصدير النفط لليابان من جزر الهند الشرقية الهولندية (أندونيسيا حاضراً) وأفضت هذه الضغوط الى مفاوضات مع اليابان استهلت في تشرين الأول عام ١٩٤١ . أملى روزفلت على مفاوضية أن يطالبوا اليابان أن يهجر كل مستعمراتها ، بما فيها منشوريا ، بتذكيرهم بالرفض الأميركي السابق على " الاعتراف " بهذه المواثيق .

كان على روزفلت أن يتفقه تعذر مثل هذا القبول الياباني فشنت اليابان ، في السابع من كانون الأول وبعد حربها مع روسيا ، هجوماً خاطفاً على بيرل هاربر وأتت على شطر مهم من الأسطول الأميركي في الأطلسي . واحتفل هتلر ، في الحادي عشر من الشهر ذاته ، بابرام معاهدة مع طوكيو فأعلن الحرب على الولايات المتحدة ، ولكن لم أطلق هتلر العنان لروزفلت ليكثف جهد أميركا الحربي بوجه عدو كان روزفلت نفسه يعده خصمه اللدود ، دونما تفسير مرض ؟

أرخ دخول أميركا الحرب أوجاً لمغامرة دبلوماسية استثنائية ركب مشتقها رئيس عظيم حسور وخطى بشعبه المنعزل الصمود الى حرب كونيه . اعتبر ٦٤٪ من الأميركان ، في أواخر أيارعام ١٩٤٠ ، حفظ السلام أهم من دحر المانيا . وبعد ثمانية عشر شهراً ، وقبيل هجوم بيرل هاربر ، استحالت هذه النسبة عاليها سافلها - فأستحب اثنان وثلاثون السلام على وقف الانتصار .

لقد أصاب روزفلت هدفه بجلد وعناد ففقه أمة ، ذات زمان ، عبرة عن الضروريات المقابلة لهم • وانبرى جمهوره يصطفي كلماته بأهواءه دون أن يتفقه هذا الجمهور أن مرمى روزفلت الأخير لهو الحرب ، بالرغم من أنهم تيقنوا أنها ضرب من المواجهة • وفي الحقيقة لم يستأثر روزفلت الحرب على نحر النازية فقد طالعنا التاريخ ، ببساطة ، ان النازية لن تندحر الا بدخول أميركا الحرب •

ولاح الدخول الى الحرب ، بالنسبة لشعب أميركا ، أمراً جد عاجل ، ومرد ذلك الأمر الى ثلاثة بواعث : لم يخير الأميركان مسألة ولوج الحرب لأهداف أمنيه خارج النصف الغربي ، وآمن الكثير أن الديمقراطيات الأوروبية ستسود من تلقاء ذواتها ، بينما تفقه نيف طبيعة الدبلوماسية التي سلفت الهجوم الياباني على بيرل هاربر أو اعلان هتلر المتهور الحرب على الولايات المتحدة • وكان هذا تدبير الانعزالية الغائرة الجذور لأميركا بحيث وجب قصفها في بيرل هاربر قد ولوج حرب الأطلسي وأن ينبري هتلر ، في أوروبا ، ليعلن هو الحرب أخيراً على الولايات المتحدة وليس الشاكلة الأخرى •

لقد هيأت دول المحور ، بإضرامها العداوات ، حلاً لمعضلة روزفلت في زج شعبه الى الحرب • كيان من اليسير جداً لرؤى روزفلت أن تستعصي لو انحدرت اليابان بهجومها صوب جنوبي شرق آسيا أو عزف هتلر عن اعلان الحرب ضد أميركا • ففي ضوء المفاهيم الاخلاقية والستراتيجية التي نادى بها روزفلت ، لن يكون ثمة شك ، الاّ النزير ، بادراجه الولايات المتحدة ، نهاية المطاف ، في صراع خاله حاسماً كثيراً للمستقبل الحرية وأمن أميركا •

وبوأت الأجيال التالية الأميركية أعظم التقديس للمنفذ الأول ذي الاخلاص الرائع . لقد رأى روزفلت ، كما فعل لنكولن ، أن بقاء بلاده ومبادئها على كف عفريت وسيحمله التاريخ مسؤولية المبادرات الفردية . أنه لصنيع تقر الشعوب الحره كلها بدينه لفرانكلين ديلانو روزفلت الذي أثبتت حكمته الفردية أنها سليمه تماماً ، وبكل يسر .

الفصل السادس عشر

ثلاثة مداخل الى السلام :

روزفلت ، ستالين ، وتشرشل في الحرب العالمية الثانية

شن هتلر ، بمهاجمته الاتحاد السوفيتي ، أوسع حرب برية على وجه الأرض وكان هول الحرب هذه لا سابق له ، حتى في الأفعال البربرية التي صاحبت الصراعات الأوروبية السابقه ، فهي ابادة حتى الرمق الأخير . وعندما شقت الجيوش الألمانية دربها عميقاً في روسيا ، أعلن هتلر الحرب على الولايات المتحدة ليصير بذلك النزاع كونياً وليس في نطاق أوروبا حصراً . لقد عاث الجيش الألماني في روسيا نهباً ودماراً دون أن يلكمها بالضربة القاضية وطلعت فصائله ، في خريف عام ١٩٤١ ، على مشارف موسكو . وشنت هذه القطعات الألمانيه ، في خريفي ١٩٤٢ - ١٩٤٣ ، هجوماً واسعاً بهدف احتلال الجنوب الروسي لكنه رد على أعقابه . ففي المعركة الطاحنة لستالينغراد الجامدة ، فنى جيش هتلر السادس عن بكرة أبيه وبدأ القادة الثلاث - تشرتشل ورزفلت وستالين - غداة الاندحار الألماني ، بالتفكير بالنصر وهيكلة مستقبل العالم .

كان كل ظافر منهم يتحدث بلغة تجارب وطنه التاريخية . رام تشرتشل أحياء هيكل توازن أوروبا القديم ، كرة أخرى ، الأمر الذي عنى اعادة بناء بريطانيا العظمى وفرنسا ، وحتى المانيا مع الولايات المتحدة لتكون في كفة ، بينما يقوم العملاق السوفيتي في الكفة المقابلة الى الشرق . ورأى روزفلت نظاماً لما بعد

الحرب يتصرف فيه المنتصرون الثلاثة ، مع الصين ، كهيئة ادارية ، يعضدون السلام ضد أية قوة غاشمة ، التي رجح احتمالها المانيا ، ورؤية روزفلت هذه غدت تعرف بـ " الشرطة الأربعة " . وصور ستالين ، في مدخله ، الأيديولوجية الشيوعية والسياسة الروسية الخارجية التقليدية . لقد جاهد في جني منفعة نصر لبلده بتوسيع النفوذ الروسي في أوروبا المركزية ، ورام تحويل الدول التي فتحتها روسيا مناطق محايدة كي تقي روسيا شر أي هجوم الماني مستقبلاً .

استبق روزفلت شعبه كثيراً عندما تبين أن ظفر هتلر يحدق الخطر بأمن أميركا ، لكنه شاطر شعبه الرأي في اباءه العالم التقليدي لدبلوماسية أوروبا . وعندما أصر بخطر الانتصار النازي على المانيا ، ما عنى أدراج أميركا ضمن مستتبي توازن القوى الأوروبي ، فمرمى الحرب ، لروزفلت ، اقتلاع هتلر ، العقبة التي تعثور النظام العالمي المستند الى الاتفاق وليس التوازن .

عيل صبر روزفلت ازاء البديهيات الطالبة بتجسيد عبرات الحرب . ورفض فكرة الاندحار الألماني الشامل ، لأن هذا الأمر سيخوي صدعاً ربما يحاول الاتحاد السوفيتي الظافر رأبه . وأبى فكرة الحماية ضد أية خصومات ممكنة لما بعد الحرب تحصل بين المنتصرين ، لأن الأمر ينطوي اقامة توازن القوى كرة أخرى ، التي شاء الاجهاز عليها . وما يقيم السلام الاّ نظام أمن جماعي يدافع دونه حلفاء الحرب ويعمل بهيئة اتفاق مستند للنية الحسنة واليقظة .

وبعيد اندحار المانيا ، دعا روزفلت القوات الأميركية الى العودة لوطنها فالسلام غدا حالة عالمية وليس ثمة توازن ينبغي اقامته . لم تكن لروزفلت أية نية

على ابقاء الجيوش الأميركية ، متعسكـرة ، أبد الدهر ولا قصد بذلك موازنة كفة الروس ، كما رأى أن عامة الأميركـان لا يؤيدونهـا قـط ٠ وكتـب في ٢٩ شباط عام ١٩٤٤ ، قبل أن تطأ القوات الأمريكية أرض فرنسا ، رسالة الى تشرشل :

" لـك أن لا تسـألني ، صـاحب السـياده ، في الابقـاء علـى الجنـود الأميركان في فرنسا ٠ انني ، ببساطة ، لا أستطيع الاقدام على ذلك ! في عنقـي أن أبعثهم الى أهلهم ٠ انني ، كما أسلفت سـابقاً ، أشـجب واحتـج علـى أبـوة بلجيكا وفرنسا وايطاليا ٠ عليك أن تنشأ صغـارك وتهذبهـم ، لأنـك ، في أقـل تقدير ، تعول مقتضيات دراسـتهم وهـم ، سـيغدون السـتار الـذي يدرعـك في المستقبل " ٠

وبعبارة أخرى ، كان على بريطانيا العظمى حمايـة أوروبـا دونمـا مسـاعدة أميركيـة ٠ وفي هـذا المضمـار أبـى روزفلـت أيـة مسؤولية لاعـادة بنـاء أوروبـا الاقتصادي :

" لا أود أن تضطلع الولايات المتحدة ، لما بعد الحرب ، بعبأ اعـادة بنـاء فرنسا وايطاليا والبلقان ٠ فهذا ليس مـن شـأننا ، لأنهـا علـى مبعـدة ٣٫٥٠٠ ميل أو أكثر ٠ وهذا الأمر ، يقيناً مناط لبريطانيا ، التي لها في ذلك مصـالح جـد حيوية ، أكثر منا " ٠

بالغ روزفلت كثيراً عن تقديراته لما تنعم به بريطانيا العظمى وطلب منها أن تتجشم ، في وقت واحد ، مهمة الدفاع عن أوروبا واعـادة بنائهـا ٠ كـان موقـع بريطانيا العظمى ، في هذه الخطة ، الأبدن بسـبب ازدراء روزفلـت لفرنسـا ٠ وفي

أهم المؤتمرات ، الذي عقد من بالطا عام ١٩٤٥ ، وبخ روزفلت تشرتشل بحضور ستالين ، لمحاولته بناء فرنسا كقوة عظمى " اصطناعياً " . لقد سخر من تشرتشل ، لأن سخف هذا العمل لا يتطلب تجلية ، وذكر أن الأمر سينشأ دفاعاً على طول امتداد الطرف الشرقي لفرنسا ، ويتيسر على بريطانيا تحشيد الحشود ورائه . كان هذا الأمر ، في وقتها ، الوسيلة الوحيدة المفهومة لمجابهة التوسع الروسي .

رام روزفلت ، دون اضطلاع أميركا بدور ثابت ، وأن يشرف الحلفاء المنتصرون على نزع سلاح المانيا وتجزئتها واخضاع الدول الأخرى شتى للسيطرة (ما يثير الدهشة أن روزفلت أدرج فرنسا ضمن الدول الواجب اخضاعها للسيطرة) . ومع استهلاله ربيع عام ١٩٤٢ ، أطلق روزفلت العنان لفكرة " الشرطه الأربعة " ، لاستتباب السلام في عالم ما بعد الحرب ، وتجلى هذا الأمر ضمن زيارة وزير الخارجية الروسي مولوتوف الى واشنطن ودون هاري هوبكن فكرة الرئيس وبعثها برسالة الى تشرتشل :

" لقد أسرى روزفلت الى موتولوف بنظام لا يأذن الا لأربع قوى عظمى – بريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وربما الصين – على شهر السلاح – سيعمل هؤلاء الشرطة على استتباب الأمن " .

كانت سياسة روزفلت مزاوجة " ذكية " للانعزالية الأميركية التقليدية ، " المثالية الولسنيه " ، وتبصره الثاقب الى النفسية الأميركية ، التي تستميل دائماً القضايا العالمية أكثر من حسابات الربح والخسارة . ظفر تشرتشل ، بنحو عظيم ،

في نفخ الروح لوهم أن بريطانيا ما برحت شديدة القوة وبمقدورها ، وحدها ، أن تقاوم التوسع السوفيتي . وهذا الأمر ، بحد ذاته ، يكفي بالاقرار بدعوة روزفلت الى تبني نظام عالمي أساسه انسحاب القوات الأميركية من ما وراء البحار ، ونزع السلاح الألماني ، ونقل فرنسا الى مصاف الدول الثانية وترك الاتحاد السوفيتي أمام هوة كبيرة تعتوره . لقد استحالت فترة ما بعد الحرب درساً ليتفقه الأميركان عن مدى دور بلدهم الملح جداً في توازن القوى الجديد .

صبت خطه روزفلت " الشرطة الأربعة " الى أحداث سلام عالمي وضمانه ، وهذا الأمر تسويه بين مدخل تشرتشل التقليدي لتوازن القوى والولسنية غير المقيده لمستشاري روزفلت ، كما لخصها وزير الخارجية ، كوردل هل :

" وطد روزفلت العزم على تفادي اخفاقات عصبة الأمم والنظام الذي أبصر النور في أعقاب الحرب العالمية الأولى . لقد رام نظام أمني جماعي ، وتطلب مثل هذا النظام ، كما خبرته عشرينات هذا القرن ، باعث قوة ، الدور المرجو للشرطه الأربعة " .

كان تفقه روزفلت عن مفهوم " الشرطة الأربعة " يماثل ، في حقيقة هيكله ، حلف ميترنيخ المقدس بالرغم من أن الأميركان التحرريين يهرعون خوفاً من مجرد هذه الفكرة . ومثل كل نظام محاولة لاستتباب السلام بائتلاف الظافرين المتشاطرين لقيم متبادلة . لقد سار نظام ميترنيخ لأنه أقام توازناً أصيلاً للقوى ، وتشاطرت كبرى دوله قيم مشتركة وتعاونت فيه روسيا ، برغم من تقلقلها بعض الأوانات . لم تألف فكرة روزفلت تطبيقاً لها لأن التوازن الحقيقي ما كتب له

الظهور وثمة هـوة سحيقة بين الظافرين سينيري ستالين ، اذا ما عتق مـن التهديـد الألماني ، طالق العنان لتحقيق المكاسـب السوفيتية ، سياسيـاً وأيديولوجيـاً ، حتـى على حساب المواجهة مع حلفائه السابقين .

لم يتحوط روزفلت لما تخبأه الأمور اذا مـا أبى أحـد الشـرطة المعنيـين تبـوأ الدور المناط به - خاصة اذا كان الاتحاد السوفيتي . وفي هذه الحالة ، علـى تـوازن القوى المزدرى أن يتهيكل كرةً أخرى . وكلما القى التوازن التقليدي أمـوراً جـد شاقه ، أمست مهمة خلق توازن محدث جد هرقلية تماما .

ولو تطلع روزفلت الى هذا العالم ، لن يلقى متحدثاً يتباين مـع آراءه أكـثر من ستالين . شاء روزفلت أن يضع موضع التنفيذ المفهوم الولسني عـن الانسـجام الدولي ، بينمـا تصرمت أفكار ستالين ، عـن قيـادة السياسـة الواعيـة ، للعـالم البالي . وعندما سعى جنرال أميركي في مؤتمـر بوتسـدام الى التزلف الى سـتالين بتعظيمه رؤية الجيوش الروسية في برلين ، أجاب ستالين بوقاحة : " **القيصر الأول بلغ باريس** " .

شخص ستالين مقتضيات السلام بمثلى ما كان لساسة روسيا عـبر القـرون - أوسع حزام أمني ممكن حول حدود روسيا الشاسعة . وطرب لتأكيد روزفلـت على الاستسلام غير المشروط لأن هذا الأمـر يجهـز علـى دول المحور كـأطراف في تسوية السلام ويحول دون ولادة مناظر الماني لتاليران في مؤتمر السلام .

ان العادة تعضدها الفكرة ، فقد أبى سـتالين الشـيوعي الفصـل بـين الأمـم الديمقراطية والفاشـية بـالرغم مـن أنـه ، دون أدنـى شـك ، حسـب الديمقراطيـات

أضعف حماساً ورعباً . وما ملك أية مفاهيم تمسك عليه اغتصاب مقاطعة من أجل الخير أو الواقعية " الموضوعية " هنيهة من الزمن . كان ملزماً على الاقتراح لحلفاءه الديمقراطيين الترتيبات ذاتها التي وضعها مع هتلر قبل عام وبعثه هذا التعاون حاقداً على النازيه ، وبالقدر ذاته لحقده على الديمقراطيات التي دفعته على تقييم مغانم القوانين المتحررة . ويود أن ينتهش من كل شريك حديث ما أستطاع اليه سبيلا ، بالدبلوماسية ، ويغتصب عنوة ما لم يهبه ذلك الخصم دون مقابل - طالما أن بميسوره القيام بذلك دون اضرام حرب . كانت المنفعة الروسية الوطنية هدايته لكأنها شعاع ضوء مكسور خلال موشور الأيدلوجية الشيوعية . وبعبارة بالمرستون ، فانه خلا من الأصدقاء ، سوى المصالح .

أفصح ستالين عن استعداد عظيم للتفاوض على أهداف ما بعد الحرب عندما كان موقفه العسكري محظوراً . وكرر هذه الأمر ، في كانون الأول عام ١٩٤١ ، عندما بلغ السيف نحره تماماً ، أثناء زيارة وزير الخارجية ايدن ، الى موسكو . وأرسل في أيار عام ١٩٤٢ ، مولوتوف الى لندن وواشنطن ولكن كل هذه المحاولات على أعقابها لأن روزفلت قد عارض ، بشكل عنيف ، أيّما مناقشة مفصلة لمرامي السلام . وغداه معركه ستالينغراد ، تعاظمت ثقة ستالين بأن الحرب ستضع أوزارها بحظوة روسيا على كثير من مناطق القتال . لقد هيكل عالم ما بعد الحرب بحسب ما تنتهي اليه جيوشه لا سيما أن المفاوضات لا تدر عليه الا بالنزر اليسير .

كان تشرتشل على اتم الاستعداد للتفاوض مع ستالين على النظام الأوروبي لما بعد الحرب ، حتى قبل أن يصيب ستالين مغانمه . لقد صادف التاريخ

البريطاني ، غير مرة ، حلفاء متوسعين كستالين وأحبطت أعمالهم ، ولو كانت بريطانيا العظمى قوية ، لسعى تشرتشل ، يقينا ، الى سلخ المستوطنات العملية من ستالين ، المحتاج الى يد المساعدة – تماماً كما أقدم كاسيليراي على الزام حلفاءه في تحقيق حرية الدول الضعيفة قبيل أن تضع الحروب النابليونية أوزارها .

خبر تشرتشل الحرب ردحاً أطول من نظيريه ووقفت بريطانيا ، قرابة العام على سقوط فرنسا في حزيران عام ١٩٤٠ ، بوجه هتلر لوحدها . كانت في مبوأ لا يقدرها على تصور مرامي ما بعد الحرب وثمة بقاء كامل ينضب كل طاقاتها ، في حين تبهّم مآل الحرب تماماً . أن بريطانيا لن تأمل بالنصر حتى لو امتدت لها يد المساعدة الأميركية الهائلة ، فلو لم تدخل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي الحرب في حينهما لسيقت بريطانيا ، تماماً ، الى التسوية أو تذوقت طعم الهزيمة .

كان لهجوم المانيا على الاتحاد السوفيتي في ٢٢ حزيران ١٩٤١ ، ومهاجمة اليابان لبيرل هاربر في ٧ كانون الأول ١٩٤١ ، واعلان المانيا الغريب الحرب على اميركا ، ضماناً أن بريطانيا في الكفة الراجحة مهما طالت الحرب أمداً وألماً ، وشرع تشرتشل لحظتئذ ، واقعياً ، بدراسة أهداف الحرب . وعندما مضت الحرب في دائرتها تجلى واضحاً أن هدف بريطانيا التقليدي في استتباب توازن قوى أوروبا قد غدا قصي المنال لأن الاتحاد السوفيتي سيمسي ، غداة فرض الاستسلام اللامشروط على المانيا ، أعظم قوة أوروبية ، خاصة اذا عادت الولايات المتحدة أعقابها بقواتها .

وانطوت دبلوماسية تشرتشل أبان الحرب على المناورة بين العملاقين - المهددين موقع بريطانيا العظمى من الاتجاهين المتضادين . كان تبني روزفلت لتقرير المصير العالمي تحدياً للامبراطورية البريطانية وبينما قلقل ستالين الأمن البريطاني بسعيه توجيه الاتحاد السوفيتي صوب قلب اوروبا .

تفخخ تشرتشل بين المثالية الولسنية والتوسعية الروسية وبذل أقصى ما في وسعه ، من موضع الضعف المقارن ، ليشرع سياسة بلده القديمة - اذ أبيت ان تترك العالم للأقوى والأبأس ، على السلام أن يتمركز توازناً ما . وتفقه تماماً أن بريطانيا ، باختتام الحرب ، لن تقدر على حماية مصالحها الحيوية بنفسها ، الا بمؤازرة حماة توازن القوى . وبرغم ثقته الظاهرية ، تيقن تشرتشل أن دور دولته أبان الحرب كان مسك الختام لقوة عالمية مستقلة - كان أصدقائه الأميركان يعتقدون أن بريطانيا العظمى ما برحت قادرة على استتباب التوازن الأوروبي بنفسها .

كان أفق دبلوماسية الحلفاء ، بالنسبة لتشرتشل ، ليس بذي أهمية أعظم من خلق حلقات من الصداقة مع أميركا ، جد متآصرة ، بحيث لن تسعى بريطانيا لوحدها في مواجهة عالم ما بعد الحرب . وهذا علة موافقته على الخيارات الأميركية - بالرغم من نجاحه المعتاد في حمل النظير الأميركي على الموافقة في تشاطر واشنطن ولندن ، تقريباً ، المصالح الاستراتيجية ذاتها .

تجلت هـذه المهمـة مرعبـة لأن روزفلـت ومسـاعديه كـانوا في شـك غـائر لبواعث بريطانيا ، خاصـة أن تشرتشـل سيؤثر مصـالح بريطانيـا الوطنيـة والملكيـة واقامة توازن القوى على دخولهم في النظام العالمي .

أنيرت كثير من المجتمعات الى عد متابعة بريطانيا لمصلحتها الوطنية كشـطر من عملهم . مثل هذا الأمر ، لكثير مـن القـادة الأميركـان ، صدعـاً مستورثاً في الشخصية البريطانية . وبعيد الهجوم علـى بـيرل هـاربرل ، أوضـح روزفلـت هـذا الأمر ، في حفلة عشاء خاص :

" لا تتصف فكرة العامة عند ذلـك الـدور بأيـة موضوعيـة – لأن نسـبة الواحد الى المئة لا يقيم الحق على رأي العامـة البريطـان . لقـد أخـبرت [تشرتشـل] أن عليـه وضـع الأمـر في اعتبـاره . فقـد تـأصلت في الطبـع الأميركي ، هذه اللائقة ، وهذا البغض ، وحتى هذا الكره للانكليز " .

نهل تشرتشل أكثر أفكار نظام عالم ما بعـد الحـرب لأن روزفلـت لم يشأ مناقشته هكذا أمور قبل هجوم ستالينغراد بينما اسـتحب سـتالين أن ينـذر خطـوط القتال رسم النتيجة السياسية لما بعدها .

وصور وزيـر الخارجيـه هـل ، في تشـرين الثـاني عـام ١٩٤٣ ، رد الفعـل الأميركي المخالف تماماً للحقائق البريطانية المعهودة :

"... لن يكون ثمة ضرورة لمناطق التأثير أو للأحلاف أو لتوازن القوى أو لأية اجراءات خاصة لتناضل لسعيها الأمم كي تدرع أمنها أو تعزز مصالحها ، كما كان الأمر عليه في الماضي التعس " .

كان روزفلت ، أبان الحرب ، أقرب الى تشرتشل ، في الجانب الانساني ، من قاطبة الأميركان تقريباً ، في حين كان في بعض الأمور فظاً مع رئيس الوزراء ، بنحو أعظم مما لو كان مع ستالين . لقد أبصر في تشرتشل رفيق سلاح الحرب وفي ستالين منظراً لسلام ما بعد الحرب .

وتبأرت الازدواجية الأميركية مع بريطانيا العظمى في ثلاثة محاور : الطبع الأميركي المناويء للاستعمار ، وطبيعة استراتيجية الحرب ، وصيرورة أوروبا لما بعد الحرب . وفي الحقيقة ، كانت روسيا امبراطورية جبارة أيضاً ، ولكن مستعمراتها تلاصقت مع خاصة أراضيها و لم يتعارض الاستعمار الروسي قط مع الوعي الأميركي ، بمثلى ما فعل الاستعمار البريطاني . تذمر تشرتشل في مقارنة روزفلت للمستعمرات الثلاث عشرة مع ممتلكات بريطانيا في القرن العشرين ، لأن هذا الأمر أفصح عن " معضلات مقارنة المواقف في القرون والوقائع المختلفة حيث تغدو كل حقيقة مادية معضلة تماما " . كان روزفلت ، من جانب ، لا يأبه كثيراً في صقل المماثلات التاريخية اذ أن جل اهتمامه في تأطرة المباديء الأميركية الجوهرية . وفي أول لقاء لروزوفلت بتشرتشل ، عندما اجتمعا الى ميثاق الأطلنطي ، أكد الأول أن هذا الميثاق ينبغي أن يستوعب أمور العالم قاطبة ، لا أوروبا وحدها ، بما في ذلك المناطق المستعمرة :

" انـي لـذي ثقـة بيقيـني أن السـلام ، لـو أريـد لـه اسـتتبابا ، عليــه أن يستوعب تطور الـدول المتخلفــة ... لا أصـدق بأننـا نشـن حربـاً ضـد الـرق الفاشي ، دون أن نعمل علـى عتـق النـاس في قاطبـة العـالم مـن عبـود السياسـة الاستعمارية وتخلفها " .

دحضت وزارة الحرب البريطانية مثل هذا التفسير تماماً :

" ان ميثاق الأطلسي .... مكرس لدول أوروبا التي تأمل بالخلاص مـن الطغيان النازي ، وليس بذي شأن لاسـتطباب الشـؤون الداخليـة للامبراطوريـة البريطانية ، أو لعلاقات الولايات المتحدة ، مع الفلبين ، على سبيل المثال " .

وقصدت لندن من الاشـارة الى الفلبـين لتقييـد مـا خالـه البريطـان التخمـة الأميركية بتذكيرهم بما وقفوا ليخسروه اذا نأوا بعيداً بجدالهم .

لم ينته هذا الجدال بين بريطانيا وأميركا عن الاستعمار ، واستذكر سـوهنر ويلز ، وكيـل وزيـر الخارجيـه وصديـق روزفلـت ، البغـض الأمـيركي التـاريخي للاستعمار ، في خطاب يوم الذكرى* عام ١٩٤٢ :

" على هذه الحـرب ، اذا كـانت مـن أجـل تحـرر الشـعوب ، ان توكـد السيادة المتكافئة لسائر شعوب العالم ، كما هو شأن عـالم الأميركـان . في ذمـة

* يوم الذكرى (Memorial Day) : يوم ٣٠ (مايو) االذي يحتفل فيه أكثر الأميركان لذكرى الجنود الذين سقطوا صرعى في ساحة القتال .

نصرنا أن ينقل بقاطرته حرية الشعوب جمعاء .... فقد قضى عهد الاستعمار نحبه " .

أرسل روزفلت مذكرة الى هل ، وزير الخارجية ، يعلمه أن بيان ولز كان رسمياً - وهذا طراز من المبادرات لا يعضد ، في جوهره ، وشانج الألفة بين وزير الخارجية ونائبه لأنه يتبطن علاقة قوية بين النائب ورئيس الجمهورية . وأفلح هل ، في نهاية المطاف ، في طرد ويلز . كانت آراء روزفلت من الاستعمار ذوات سابقة فقد استحب لأميركا أن تقود دفة تحرر المناطق المستعمرة كي لا تستفحل المطالبة بتقرير المصير الى صراع عنصري - كما أسرى بها روزفلت الى مستشاره ـ نشارلز توسنغ :

" يساور الرئيس القلق حول الناس السمر في الشرق ، الذين يألفون نحواً من ١٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ وهؤلاء السمر ، في أغلب مناطق الشرق ، يحكمهم البيض ، وهذا أمر يعارضونه . علينا أن نهدف لمآزرتهم بتحقيق الاستقلال - فقوة مليار ومائة مليون ذات خطر جسيم " .

وما كان للنقاش حول الاستعمار مخاضات عملية ريثما تضع الحرب أوزارها ، بيد أن روزفلت ودع هذا العالم حينها . وحظي الجدل حول الاستراتيجية بتضمينات فورية ، الأمر الذي عكس الهوة السحيقة لمفاهيم الدول عن الحرب والسلام . فلما جنح الأميركان الى الاعتقاد بأن النصر العسكري خاتمة بحد ذاتها ، سعى نظرائهم البريطان لمزاوجة العمليات العسكرية ، بالمخطط الدبلوماسي الدقيق لعالم ما بعد الحرب .

لقد نهلت أميركا أعظم خبرتها العسكرية من حربها الأهلية ، حرب حتى الرمق الأخير ، وفي الحرب العالمية الأولى - واختتمنا بظفر كامل . ويرى الأميركان أن تتبعض السياسة الخارجية والاستراتيجية في حقب متعاقبة للسياسة الوطنية ، ففي الكون الأميركي المثالي ، يبرح الدبلوماسيون الى خارج الستراتيجية ويكمل الكادر العسكري مهامه ولما تأزف الدبلوماسية - الرأي الذي دفعت أميركا ثمنه باهظاً في حربي كوريا وفيتنام . رآى تشرتشل ، بخلاف ذلك ، في الاستراتيجية والسياسة الخارجية تجاذباً لأطراف الصله وسعت بريطانيا في استراتيجيتها الى وجوب التركيز على الوسائل كغايات ، لا سيما انها تنعم بموارد حد محددة ، على عكس أميركا . عقد قادة بريطانيا العزم على تحاشي أية مجزرة ، كتلك التي اصطبغوا فيها أبان الحرب العالمية الأولى فاستطاب لساستها أية استراتيجية تقلل حجم الخسائر .

اقترح تشرتشل ، حال ولوج أميركا الحرب ، مهاجمه ما أسماء مؤخرة بطن المحور الضامرة في جنوبي أوروبا ، وحث ايزنهاور ، دون طائل على الاستيلاء على برلين وبراغ وفيينا قبل أن تبلغها الجيوش الروسية .

كانت المرامي التي استقطبت تشرتشل هذه المواقع الرائعة في تحديد التأثير الروسي لما بعد الحرب وليست القوة العسكرية لعواصم أوروبا المركزية أو اشرافها على البلقان (وهي في الحقيقة تضاريس صعبه) .

عيل صبر القادة الأميركان ، وكادت أن تثور ثائرتهم ازاء توصيات تشرتشل ، اذ القوا في استراتيجية مؤخرة البطن الضامرة نموذجاً للنزعة البريطانية في

أدراج أميركا كسبيل لمصالحها الوطنية - وأبوا ذلك لأنه يقامر بحياة الأميركان سعياً لمرامي ثانوية . كان هؤلاء القادة متلهفين لفتح جبهه ثانية ، مع استهلال الاتفاق المشترك وأفصحوا بأنه السبيل الوحيد لاستقطاب القوة الرئيسة الألمانية للقتال ، دون أن يأبهوا لموقع هذه الخطوط لأن الحرب ستضع أوزارها بظفر كامل . وفي آذار عام ١٩٤٢ هدد الجنرال جورج مارشال ، رئيس أركان القوات الأميركيه ، بقلب القرار . الذي منح الأولوية لمسرح الأحداث البريطاني وبتوجيه الجهد الأميركي أعظمه الى الباسفيك ، فهذا القائد قد أغاظته المحاججة البريطانية لمراميه في فتح جبهة ثانية . أفصح روزفلت عن قيادته القوية أبان الحرب وأبان قيادة اليها . وذكر الجنرالات المتخاصمين بأن القرار البكر في اعطاء الأولوية لدحر المانيا قد اتخذ على أساس المصلحة المشتركة وليس لصالح بريطانيا العظمى :

" من الأهمية العظمى لاعتباراتنا أن نتطلع لاندحار اليابان لا على حساب المانيا وأن تضييق الخناق الأميركي على اليابان هذا العام ، أو من اللاحق ، قد يزيد الفرصة لألمانيا في اكمال تسيدها على أوروبا أو أفريقيا ...... أن هزيمة المانيا هي هزيمة " لليابان ، ربما من دون اطلاق رصاصة أو ازهاق حياة " .

تماشى روزفلت مع كثير من ستراتيجية تشرتشل ولكنه رسم خط الانزال في البلقان . وأيد الانزال في شمالي أفريقيا في تشرين الثاني عام ١٩٤٢ ، وبعد احتلال الشاطيء الشمالي للبحر المتوسط ، تمت عملية انزال في ايطاليا ، خريف عام ١٩٤٣ ، والتي لكمت ايطاليا بالضربة القاضية للحرب .

ولم يأذن للجبهة الثانية في النورمندي حتى حزيران عام ١٩٤٤ ، عندما هزلت المانيا تماماً وغدت خسائر الحلفاء جد نزيرة بحيث لاح النصر الحاسم في متناول أياديهم .

كان ستالين مؤيداً مطرباً لفتح الجبهة الثانية ، كما هو حال القادة الأميركان ، ولكن لبواعث سياسية وليست عسكريه . ويقيناً كان في شوق ، في عام ١٩٤١ ، الى قذف القوات الألمانية خارج حدوده ، فقد يئس من المساعدة العسكرية بحيث نادى بريطانيا العظمى الى ارسال قوات محمولة الى القوقاز . وأبان تقدم الألمان صوب روسيا الجنوبية في عام ١٩٤٢ ، واصل ستالين الاصرار على الجبهة الثانية ، بالرغم من أنه أغفل القوة الحليفة المحمولة .

تواصلت استغاثات ستالين لفتح جبهة ثانية حتى عقب معركة ستالينغراد ، أواخر عام ١٩٤٢ ، والتي أرخت انقلاب التيار على المانيا . وأعظم ما أستقطب ستالين في الجبهة الثانية هي بعدها عن شرقي أوروبا ومركزها والبلقان حيث تتصادم المصالح السوفيتية والغربية . وأكد الأمر أيضاً أن العواصم لن تنجو بجلدها من الحرب دونما اضرار . لقد الغى ستالين ، المنادي بمنحه صوت في تخطيط الحلفاء لأوروبا ، التمتع بأية ضروب من الديمقراطية ، حتى الأذن النزير في التخطيط الروسي أو الاطلاع البسيط عن الترتيبات العسكرية الروسية .

اتضحت النتيجة أن الحلفاء قد أرسلوا صوب ايطاليا بقدر الفرق الألمانية - نحواً من ثلاث وثلاثين - كما سألهم ستالين في طلبه لفتح جبهة ثانية (ظل يطالب بما بين الثلاثين والأربعين) ومكث يحاجج ضد الستراتيجية الجنوبية لأنه الفى

صدعهـا الأول أسبقيتها الجغرافيـة بالنسبة للأقطـار الكوائـن في مرمـى المطـامح الروسية . لقد أصر ستالين ، في عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٣ ، على فتـح جبهـة ثانيـة وللسبب ذاته الذي سعى تشرتشل لتأخيره : أن هذا الأمر يجرجر الحلفاء بعيداً عـن المناطق المتنازعة سياسياً .

يقول بعـض النقـاد المشـهورين ، في معـرض حديثهـم عـن موطـن الحـرب الباردة ، أن فشل فتح جبهة ثانية في وقت مبكر قـد بعـث تعنـد سـتالين في شـرقي أوروبا ، وأثار خطر روسـيا وسـخريتها أكـثر مـن أي بـاعث آخـر . ومـع ذلـك يتحدى هذا الأمر السذاجة ، فهذا البلشفي العتيق ، الحديث على اتفـاق مـع هتـلر ومع مفاوضات لتقسيم العالم بجانب هذا القائد النازي ، يمكن أن يصاب بخيبه أمل من السياسة الواقعية - وهي سياسة الحلفاء . لقد قام بمناورة الجبهة الثانية ، كـأي فعل أقدم عليه ، ببرود وواقعية ومكر .

صورت هيئة الاركان المشـتركة ، لكـل حـدث ، قناعـة القيـادة السياسـية الاميركية التي ترجأ اية محادثات لعالم ما بعد الحرب ريثما يتحقق النصر الكـامل . فكان ذلك هو القرار المشؤوم الـذي هيكـل عـالم مـا بعـد الحـرب وحتـم الحـرب الباردة .

ومن البديهيات العامة أن الدول المقاتلة الساعية للاستقرار والتوازن سـتقدم على أي وسيلة ، بقدرتها ، لبلوغ صيغ السلام الأساس ولما تدور رحـى الحـرب ، فطالما العدو يتربـع حلبة القتـال سيتعزز بأسـه ، بنحـو غـير مباشـر ، في الجـانب

المسالم . واذا ما أغفل هذا الأمر ، وأودعت القضايا الرئيسة المعلقة رهن مؤتمر السلام ، سيكتنز الأقوى كل الغنائم ولا يزاح الا بالمواجهة الكبيره .

كان اتفاق الحلفاء على مرامي ما بعد الحرب ، أو مناقشتها في أقل تقدير ، هام أبان الحرب العالمية الثانية ، بباعث لسياسة الاستسلام غير المشروط الذي صاغه روزفلت وتشرتشل في مؤتمر كازبلانكا ، كانون الثاني عام ١٩٤٣ . اقترح روزفلت هذه السياسة لدواعي جمة فقد ساورته الخشية من أن مناقشة بنود السلام مع المانيا قد تبعث بالفرقة ، فأراد تكثيف كل طاقة الحلفاء لكسب الحرب . وشاء أيضاً أن يطمئن ستالين ، الرازح تحت بويلات معركة ستالينغراد ، أن السلام لن يتشطر ، ففوق كل اعتبار ، كان هدفه الحيلولة دون حلقة أخرى من المطالب الألمانية التوسعية ، اذا ما ادعت أنها خدعت على انهاء الحرب بمواعيد عرقوب .

وقذف أباء روزفلت لهيكلة عالم ما بعد الحرب الدائرة ، بالقوة الأميركية الضخمة الى دبر النتيجة ما فتقدت لأمور هامة كتوازن القوى أو أية معايير للحلول السياسية . وفي كل المناسبات التي توافقت معها بديهيات ولسون . كان دور روزفلت في هيكلة عالم ما بعد الحرب عظيماً وعقدت برعايته سلسلة من المؤتمرات الدولية انطوت على كثير من آفاق التعاون ، فالأمم المتحدة قد أقرت في مؤتمر (دمبارتون أوكس) والنقد العالمي في (بريتون وودز) والزراعة والأغذيه في (هوت سبرنج) و الطيران المدني في (شيكاغو) .

عامل ستالين ، أول الأمر ، تملص روزفلت من مناقشة تسويه ما بعد الحرب على المستوى الجيوسياسي بانها مناورة تكتيكية تهدف الى استغلال معضلاته العسكرية ٠ وأوشكت الحرب ، بالنسبة له ، من خلق توازن قوى حديث ومحبذ نتيجة للصدع الذي خلفه الانشقاق الاثح لدول المحور ٠ وسعى ستالين ، في كانون الأول عام ١٩٤١ ، الى اشراك ايدن في تسويه ما بعد الحرب ، ولما تزحف القوات الألمانية صوب ضواحي موسكو ، لأن أفكار هذا الرجل العتيق جد بالية بحيث لم يتوقع أن ينذر الغرب صيغ السلام لمخاض العمليات العسكرية ٠ وأوضحت اشاراته الأول ، في هذا اللقاء ، أنه لم يتحدث عن ميثاق الأطلسي ٠ فقال أن الاعلان عن المباديء يماثل الجبر ، بينما هو يستملح الحساب ٠ لم يشأ اهدار الوقت بأمور مجردة ، لأنه آثر المتاجرة بالامتيازات التبادلية ، رجاءً أن تكون بهيئة أراض ٠

وما يجول في خاطر ستالين كان جلياً ، سياسة واقعية عتيقة ، على المالنيا أن تنشطر وتتقهقر بولندا غرباً ٠ سيعود الاتحاد السوفيتي سيرة حدود عام ١٩٤١ الأمر الذي يعني خط كرزن مع بولندا والاستبقاء على دول البلطيق - الخرق الواضح لمبدأ تقرير المصير الذي دعا اليه ميثاق الأطلسي وسيقوم الاتحاد السوفيتي ، بالمقابل ، بمساعدة اي طلب تصطفيه بريطانيا العظمى لارساء قواعد في فرنسا وبلجيكا وهولندا والنرويج والدانمارك - جميعها حلفاء لبريطانيا ٠ لقد أبصر ستاليـــن الموقف كما آلفاه أي أمير في القرن الثامن عشر : الى الظافر تمضي الغنائم ٠

وفي الوقت ذاته لم يتقدم ستالين بأية مطـالب لمستقبل دول شـرقي أوروبـا السياسي ، وأبهم قضيه الحدود مع بولندا . ومع ذلك لم تنتهك بريطانيـا العظمـى ميثاق الأطلسي ، بعد اصداره بثلاثة أشهر ، ولم يأبه القادة الأميركان كثيراً لما لاح لهم رجعة الى الترتيبات السـرية ، آفـة دبلوماسـية الحـرب العالميـة الأولى . كـانت الصيغ التي عرضها ستالين ، برغم وحشيتها ، أفضل مما تمخضته الحرب مـن نهايـة المطاف . تفادى أيدن هذا المأزق عندمـا وعـد أن ينقـل محاوراتـه مـع ستالين الى تشرتشل وروزفلت ، ويستأنف بعدها الحوار .

عاد ستالين سيرة ربيع عام ١٩٤٢ بالرغم من تطـرف موقعـه العسـكري ، تأهب تشرتشل تماماً لاستكشاف التعويـض الروسـي لحـدود عـام ١٩٤١ . لكـن روزفلت ومستشاريه ، الملزمين بتفادي ترتيبات كيفما اتفق لتـوازن القـوى ، أبـوا مناقشة قضايا ما بعد الحرب . كتب هل بالنيابة عن روزفلت الى تشرتشل :

" سيكون أمرنا مشكوكاً لو سـلخنا عنـا بياناتنـا الجهـور عـن السياسـية والمبـادي والتطبيـق . واذا مـــا انـتزع أمـر أو أمـران ممـا أسـلفت تمشـياً مــع اقتراحك ، لن يكون لحزبي البلدين سابقة يهتدون بها أو قوانين راسخة يحكمون بها أو يصرون أن سائر الحكومات انتهجت هذه القوانين " .

حاول ستالين أن يضع النقاط على الحروف فارسل مولوتوف الى لنـدن في أيار عام ١٩٤٢ . أثار السفير الروسي ايفان ميسكي ، في محادثاته التمهيدية لهـذه الزيارة في نيسان عام ١٩٤٢ ، صيـغ سـتالين للأشـهر السـابقه . وطـالب الاتحـاد السوفيتي بمواثيق التعاون المتبادل مع رومانيا وفنلندا لفتره ما بعد الحـرب . واذا مـا

اذا أخذنا بالاعتبار تغور القوات الألمانية في بطن روسيا ، نرى أن الأمر تعبير شاذ ثان لأهداف ستالين بعيدة المدى - بالرغم من أنها قصيرة جداً ، بلوغاً وجوهراً ، لمدار القمر الصناعي الذي ظهر مع تصرم الحرب وغياب الاتفاق .

وعصفت في وجه تشرتشل معارضة عنيفة في واشنطن ، لمواصلة الحوارات ووصف هل هذه المحادثات انها اعتداء على ميثاق الأطلسي وتحد لمعارضة أميركا التاريخية لأية تغييرات اقليمية بالقوة ، ورجعة لسياسة القوة التي تتوسم الماضي الغاشم وقد وضع روزفلت مع ستالين هذه النقاط من تمام حروفها الصحيحة . رد ستالين باشارة مقتضبه يعلمه بتسلم الرسالة دونما تعليق عليها ، الآية الحق أنه قد امتعض منها . وفي الرسالة التي بعثها ستالين ، في الوقت ذاته ، الى تشرتشل طلب منه تجاهل " التدخل الأميركي " .

كان ستالين ، مع تباشير الحرب الأول ، تواقاً لترتيب حدود عام ١٩٤١ وساوره شك عظيم أنه لن يوهب أي تعويض . وليس ثمة اجدى من الضرورات التاريخية فالثمن الذي يطلبه ستالين ما كان مبهماً بالمره لأن روزفلت قد قطع ، على حين غرة ، المحادات الروسية - الانكليزيه عندما دعا مولوتوف لزيارة واشنطن .

اشار ستالين الى ايدن ، عندما زار الأخير موسكو في كانون الأول عام ١٩٤١ ـ أنه مصمم على قضية بولندا وأسماها " المسألة المفتوحة " . كان راغباً بالمقايضة باعتراف حدود عام ١٩٤١ لقاء أذنه لحكومات أوروبا الشرقية في المنفى (التي لم تلق تحديا بعد) بانذار دول البلطيق على العودة سيرة استقلال عام

١٩٤٠ والسماح للقواعد السوفيتية في هذه المناطق . وربما هذا الأمر قد أفضى الى نتيجة لأوروبا الشرقية على الطراز الفنلندي - منطقة أمن روسية متسمة بالاحترام ومتمتعة بالديمقراطية وحرة في توجيه سياستها الخارجية غير المنحازة . ويقينا أن هذا الأمر أخير لشعوب أوروبا الشرقية .

وكل هذه الأمور انزاحت زبداً حالما وصل مولوتوف واشنطن ، في أواخر أيار عام ١٩٤٢ ، وأدرك أن أميركا كانت تستفهمه عن الترتيبات السياسية وتدبيرات نظام العالم الحديث . وقدم روزفلت الى مولوتوف الخيار الأميركي لانكار ستالين (وتشرشل) حول مناطق النفوذ . كانت الصيغة تماثل ، ببساطتها ، المفهوم الولسني للأمن الجماعي وقد طورتها فكرة الشرطة الأربعة ، أصر روزفلت أن مثل هذه الصيغه ستهيء للاتحاد السوفيتي أمناً أعظم مما يفعله توازن القوى التقليدي .

ولكن لم آمن روزفلت أن ستالين ، الذي قدم مثل هذه الاقتراحات الميكافيلية الى تشرشل ، سيستبهم حكومة العالم الرائعة ؟ وربما كان يظن أن من الميسور له الرضوخ للأمر الواقع لا الموافقة على مطالب ستالين ، لو أصر على الاحتفاظ بالمقاطعات التي احتلها جيشه ، في وقت غشي فيه مآل الحرب .

حدد روزفلت كثيراً لما يخص شؤون المستعمرات واقترح وصاية دولية على كل المستعمرات السابقة التي " ينبغي لخاصة أمنها أن يستقطعها في الدول الضعيفة (وأدرج فرنسا في قائمته) . ودعا أيضاً الاتحاد السوفيتي ليكون عضواً مؤسساً لمجلس الوصاية .

ولو تمتع مولوتوف بأعظم مما للفيلسوف من حكمة ، لعكس دورة التاريخ ، ففي خضم ثمانية عشر شهراً عرضت عليه العضوية في حلفين متباينتين متضادين : ميثاق الحلف الثلاثي الخاص بهتلر وريبنتروب ويؤلف المانيا وايطاليا واليابان ، وائتلاف روزفلت الذي يؤلف الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى والصين . وتزلف كل متقدم الى مولوتوف بأفق الأراضي الدخيلة جنوباً : عرضت برلين الشرق الأوسط ، بينما قدمت واشنطن الوصايات الاقليمية ، و لم يصطف مولوتوف أيا من الخيارين كي لا يجهز على سعيه العزوم لأهداف روسيا الآزفة ، حسبما تنتهي اليه الجيوش الروسية .

لم ير مولوتوف أيما ضرورة لتعديل خططه لمحدثه فوافق في واشنطن ، كسابق عهده في برلين ، على الانضمام الى الاتفاقية المقترحة . و لم يأبه للوفاق في " الشرطه الأربعة " الذي يضعه بازاء أعداء الداء لم يكن لينزعج لعرض قدموه اياه قبل ثمانية عشر شهراً ، كشأنها في برلين ، أي باعث يحدده على هجر تطلعات ستالين الاقليمية في أوروبا فلقد أصر في كلا العاصمتين على حدود روسيا عام ١٩٤١ ، والمطالبة بنفوذ روسي دائم في بلغاريا ورومانيا وفنلندا وحقوقاً خاصة في الستريت . وفي القضيتين كليهما أرجأ مسألة الأقاليم الى وقت ثان .

و لم يضع ستالين نصب أعينه قط ، فرصة فضلى ، أعظم مما حصل له عندما أعلمه مولوتوف برفض الولايات المتحدة مناقشة التسوية السياسية والحرب دائرة الرحى ، عنى هذا الأمر أن لا يقدم أي امتيازات طالما يتربع الجيش الألماني ساحة القتال . وحالما تيقن بارجاء الولايات المتحدة التسوية السياسية لفترة ما بعد الحرب ، هجر اصراره المعتاد وعزف عن أسلوبه المتغطرس و لم يثر

القضية كرة أخرى ، كان مبوأه المفاوض يتعاظم في كل خطوة يدنو فيها الحلفاء من شفا النصر وقد انتصب ليغتنم الكثير جراء ارجاء المحادثات السياسية ، بأعظم ما يستطيع اليه سبيلا ، فتكون له أوراق مراهنة لمؤتمر السلام . وما في أحد أوعى من ستالين في القول المألوف " امتلاك تسعة أعشار القانون " .

وثمة نفح من المباديء الولسنية والستراتيجية لاكثرات روزفلت على اخطار تعاون ما بعد الحرب مع روسيا بالمناقشة المسبقة لأهداف ما بعد الحرب . وربما كان روزفلت شاعراً بامكانية التوسع الروسي غداة الحرب لكنه تفخخ بين مفاهيم شعبه والخطر الستراتيجي الآفق . وجل اهتمامه أن يروق لمثاليات الشعب ، الذي يستهجن مناطق النفوذ وتوازن القوى ، كي يسخر المجهود الحربي .

لقد سلخ الأمر خمس سنوات ، لا أكثر ، منذ أن تخطى الكونغرس قوانين الحياد ، في حين لم تتلاش الأفكار المصاحبة لها . خلص روزفلت الى وهب ستالين ، مهما كانت نواياه ، سمعة يرفعها ، وسيكون له ثمة فرصه ، بازاء هذه السفارة ، على تعبئة الأميركان لمجابهة التوسع الروسي اذا ما حدث حقاً .

وهذا رأي آرثر شليزنجر ، الذي قال أن روزفلت قد هيأ خط الرجعة لو ساءت علاقته مع الاتحاد السوفيتي :

" جيش جرار ، شبكه من قواعد البحار ، تخطيطات للأعداد العسكري العالمي وقت السلم ، والاحتكار الأميركي – البريطاني للقنبلة اللذرية " .

وحقاً أن روزفلت تتسخر في متناوله كل هذه الأمور ، ولكن ما يبعثه على تحشيدها هو تعضيد الجهـد الحربي وليس كبح التوسع الروسي ٠ قدرته هـذه القواعد على نقل المدمرات الى بريطانيا العظمة ، وهدفت القنبلة الذرية ضد النازية أو اليابان ، وكل الذي أقدم عليه روزفلت أنه سرح الجيش بسرعة وعاد به الى وطنه - وفي الحقيقة كرر هذا القول في عدة مناسبات ٠ ويقينا أن روزفلت اذا ما أيقن بايمان ستالين الفاسد سيغدو أكثر مكراً ومقتاً للتوسع الروسي ويلجأ الى الوسائل المذكورة المتيسرة تحت تصرفه ٠ ومع ذلك ثمة قبس من الحقيقة بأنه ما بلغ قط هذا المآل أو تطلع الى قدراته العسكرية بنظرة المواجهة المحتملة مع الاتحاد السوفيتي ٠

وعندما شارفت الحرب على وضع اوزارها ، أفصح روزفلت عن امتعاضه لأساليب ستالين ٠ لقد مكث روزفلت ، طوال الحرب ، مصمما ، بشكل عظيم وجلياً في التزامه بالتعاون الأميركي - الروسي و لم يضع نصب اعتباره أي مرمى هام خلا تجاوز ارتياب ستالين ٠ ولوولتر لبمان الحق ، كل الحق ، في وصفه لروزفلت :

" انه لا يثق باحد وكل ما تصور فعله أن يأخذ ستالين حيلة ، الأمر المتباين تماماً " ٠ واذا ما كان هذا الأمر نيته ، فانه قد خاب ٠

كان روزفلت يصب ثقته في العلائق الشخصية مع ستالين بطريقه لا تروق لتشرتشل ٠ لقد عبر تشرتشل ، ولما غزا هتلر روسيا ، عن قرار بريطانيا العظمى

على مؤازرة ستاليـــن ، وذكـر ذلـك بصيغـة عبـارة لا تتبطـى تـأييداً شـخصياً أو أخلاقياً :

" اذا ما غزا هتـلر الجحيـم ، سيذكر [تشرتشـل] ، في أسـوء احتمـال ، عبارة لطيفه بحق الشيطان " . لم يبد روزفلت مثل هذا التحفظ ، فقد سعى ، بعيد ولوج أميركا الحـرب ، الى اعـداد لقـاء مـع سـتالين في بيرنغسـتريت دون حضـور تشرتشل . وسيكون هذا الاجتماع " غير رسمي ، وزيارة اعتيادية لبضعه أيام كـي نحقق " أنا وأنت " ما يجول في أعماقنـا " . وسـيأتي روزفلـت بهـاري هوبكـن ، المترجم ، ومختزلاً وستكون كلاب البحر والنوارس شواهداً عليهم .

لم يحصل هذا اللقاء وعقدت قمتـان – في طهـران للفـترة مـن ٢٨ تشـرين الثـاني حتـى الأول مـن كـانون الأول عـام ١٩٤٣ وفي يالطـا مـن ٤ شـباط عـام ١٩٤٥ حتى التاسـع مـن الشـهر ذاتـه . وفي كـلا القمتـين ، سـبر سـتالين أعمـق الأغوار عندما وضح لروزفلت وتشرتشل أنهما في فاقـة للقـاء أكـثر منـه وأن مثـل هذا اللقاءات تهدف الى خفض الثقة الأميركية – البريطانية في قدرتهم على انـتزاع امتيازات منه . كانـت طهران على مبعدة بضعة مئات الأميال الحدود الروسية ، في حين تـتربع يالطـا في أراضيهـا . لقـد اضطـر الرئيسـان الى قطـع آلاف الأميـال . وخاصة بالنسبه لروزفلت المعوق الذي عانى كثيراً في قمـة طهـران وكـان يصـارع الموت أبان قمة يالطا .

أطر مؤتمر يالطا ضحالة عالم ما بعد الحرب . وكانت الجيـوش الروسية ، وقتئذ تزحف مارقة كامل حدود عام ١٩٤١ وتبوأت موقعاً يقدرهـا علـى أحكـام

هيمنة الاتحاد السوفيتي ، لوحده ، على سائر أوروبا الشرقية • واذا ما قدر لتسوية ما بعد الحرب أن تعقد مفاوضتها في أية قمة ، لكانت قمة طهران ، قبل خمسة عشر شهراً ، أصلحها • كان الاتحاد السوفيتي يقاتل دفعاً للهزيمة ، بينما ظفر في معركة ستالينغراد ، غداة مؤتمر طهران فكان النصر قاب قوسين أو أدنى •

وفي مؤتمر طهران وطد روزفلت العزم ، باديء ذي بدء ، على المكوث في دار المفوضية الأميركية ، على مبعدة قريبة من السفارتين الأميركية والروسيه ، المتقابلتين دبراً • كان ثمة خشية دائمة أن يرزح روزفلت ضحية لرشق بالقنابل يقدم عليه مناصرو المحور ، ولما يمم طريقه صوب اجتماعه في المقر الروسي أو البريطاني • لذلك وافق روزفلت ، في اجتماعه الأول داخل المفوضية الأميركية ، على دعوة ستالين للانتقال الى فيلا داخل المجمع الروسي • كانت هذه البناية مصممة بالطراز الروسي وتعج بهاءً ورونقاً تليق بعظام الرجال ، ومزودة بأجهزة تنصت ، لهذه المناسبة دون شك •

كان قبول روزفلت لدعوة ستالين في اللقاء في المسكن الروسي أبين آية " لثقته وطيب نيته • ومع ذلك لم يخلف هذا الأمر أثراً في ستراتيجية ستالين الهادفة الى تأنيب تشرتشل وروزفلت لأرجاء فتح جبهة أخرى • كان يحلو لستالين أن يبوأ نظيريه موقع الدفاع فثمة فائدة أخرى تتجلى عندما يصب جل اهتمامه في منطقه تنأى كثيراً عن ما سيؤول ، قريباً ، حلبة الصراع • لقد أخذ عليهم موثقاً رسمياً لفتح جبهة أخرى في فرنسا ربيع عام ١٩٤٤ • ووقف الحلفاء الثلاثة على نزع الماني شامل للسلاح وعلى بعض المناطق الخاصة بالاحتلال • وعندما اقترح

ستالين ، ذات مره ، اعدام ٥٠٫٠٠٠ ضابط الماني ، دلف تشرتشل الى الخارج وما آب الا بعد أن تبعه ستالين كي يطمئنه أن الأمر ضرب من المزاح – وفي ظل ما نفقهه اليوم عن مذبحة كاتين الخاصة بالضباط البولنديين ، فانها غير حقيقية ، على وجه الاحتمال . وأوضح روزفلت ، في اجتماع خاص ، خطة الشرطة الأربعة الى ستالين المتشكك .

أرجأت كل هذه الأمور مناقشة ترتيبات ما بعد الحرب ، الى آخر يوم في المؤتمر . أيد روزفلت خطة ستالين على نقل حدود بولندا غرباً و لم يشدد عليه في مسألة البلطيق . وأفصح أن أميركا أو بريطانيا العظمى لن تطرد الاتحاد السوفيتي لو احتل دول البلطيق – بالرغم من أنه أوصى باجراء الاستفتاء العام . لقد تجلت الحقيقة أن روزفلت كان راغباً عن اجراء محادثات شاملة لعالم ما بعد الحرب ، كما يمثلى ما أقدم عليه مع مولوتوف في زيارته لواشنطن قبل عام ونصف عام . لذلك أبدى تعليقاته على خطط ما بعد الحرب التي قدمها ستالين بخصوص أوروبا الشرقيه ، وكان ثمة تردد يلوح كانه ضرب من الاعتذار . استقطب روزفلت اهتمام ستالين الى قضية المقترعين الأميركان ذوي الأصل البولندي ، فهم نحو من ستة ملايين ، الأمر الذي يؤثر في مقعده الانتخابي للعام المقبل . وبالرغم من تأييده الشخصي لآراء المارشال ستالين على ضرورة اعادة دولة بولندا فقد راق له أن يرى الحدود الشرقية وقد تغربت كثيراً والحدود الغربية وقد يممت صوب نهر الأودر . ومع ذلك فقد أمل أن يفقه المارشال ، للبواعث السالفة الذكر ، بعدم المساهمة بأي قرار هنا في طهران أو في الخريف المقبل بهذا الشأن وأن لا يفصح ، علناً ، بمشاطرته مثل هذه الترتيبات في الوقت الحاضر . ما كان لهذا الأمر ، البتة ،

أن ينال رضا ستالين ، الماضي بقطار المغامرة الخطـرة لوحـده ، وفي الحقيقـة تبطـن هذا الأمر مواقفة شكلية أميركية ، على نطاق واسع ، عقب الانتخابات .

وكان الباعث الذي حدا بروزفلت علـى عـرض المرامـي الأميركيـة ، علـى هذا النحو الشبم ، اعتباره قمة طهران أساساً لاقامة خطة الشرطة الأربعة . وكان احدى أساليبه أن يتفاخر ، بانحداره من تشرتشل ، هدفاً لكسب ثقة ستالين ، كما صور هذا الأمر الى فرانس بيركين ، صديقه القديم ووزير العمل :

" تقطـب وجـه ونسـتون عبوســاً واحمـراراً . وكلمـا عظــم ذلــك ، ضحكت أسارير ستالين الـذي انفجـر ، نهايـة المطـاف ، بقهقهـة عظيمـه ، مـن خلجاته ، فأبصرت في حينها الضياء لأول وهلة منـذ ثلاثـة أيـام . أبقيـت هـذا الأمر ريثما شاطرني ستالين الضحك فكانت هذه البادرة لأنعته " العم جـو " . ربما ساوره الاعتقاد انني حديث عهد على هـذه الأمـور ، لكنـه في ذلـك اليـوم قهقه عالياً ويمم شطري وصافحني .....

ومنذ ذلك الحين أمست وشـائجنا شـخصية ... فقـد دلفنـا مـن الحـاجز الثلجي وتجاذبنا أطراف الحديث كرجال وأخوة " .

لم يألف الأميركان ، باختتام قمة طهران ، أي أمر حديث في معـرض رأي الرئيس عن خلاصاته ، لشخص الدكتاتور السوفيتي :

" بوسـعي الافصـاح عـن طيـب خـاطري مـن المارشـال سـتالين . فهـذا الرجل جلد العزم ، رابط الجأش ، رائق المزاج ، وأنـا أراه حقـاً ، صـورة تتبـؤر

فيها فؤاد روسيا ومهجتها – لذا سنساير معه بشكل رائع ومع الشعب الروسي – أروع المسيرة حقاً " .

وعندما وطأ الحلفاء النورمندي ، في حزيران عام ١٩٤٤ ، وتقدموا غرباً ، حضرت المنية المانيا . وتعاظم لستالين ، المبصر بتأرجح كفة الموقف العسكري لصالحه ، الرغبة بالمناداة بشروطه . ففي عام ١٩٤١ ، عبر عن موافقته بحدود عام ١٩٤١ (بامكانية توسيعها) واعترافه بحرية البولنديين المتمركزين في لندن . وشرع في عام ١٩٤٢ بالتذمر من اتفاق الحكومة البولندية في المنفى وعرض عليها خياراً ، في عام ١٩٤٣ ، بما أسماه لجنة لوبلن . واعترف أواخر عام ١٩٤٤ ، بفريق لوبلن – تحت سيطرة الشيوعين – كحكومة اقليمية بولندية وألغى اعترافه بالبولنديين في لندن . كانت قضية ستالين البكر في عام ١٩٤١ هي الحدود وأمست بعد أربع سنوات ، سيطرة سياسية على أقاليم ما وراء الحدود .

تفقه تشرتشل هذه الوقائع ولكن بريطانيا العظمى قد أمست جد متكئة على الولايات المتحدة بحيث لن تقدر ، بأناها ، على أية مبادرة أو أن تجابه الصرح الذي يعليه ستالين لأعظام النفوذ السوفيتي في شرقي أوروبا . وتولى تشرتشل ، في تشرين الأول عام ١٩٤٢ ، مبادرة عديمة الجدوى ، ربما ، لحسم مستقبل أوروبا الشرقية ، وكانت مع ستالين مباشرة . فعندما زار موسكو ، ومكث نحواً من ثمانية أيام ، قدم لستالين ترتيبات مناطق النفوذ التي دونها ، على نحو عجل . صور تشرتشل ، في خطته ، خرائط لمناطق النفوذ ، على أساس النسبه المئوية حيث تحظى بريطانيا بـ ٩٠٪ من اليونان بينما ينعم الاتحاد السوفيتي بـ ٩٠٪ من رومانيا و ٧٥٪ في بلغاريا ويتناصفان هنغاريا ويوغسلافيا . وافق ستالين فوراً – لكنه

مولوتوف ، الطراز السوفيتي الأسمى لبراعة المفاوضين ، قد سعى الى حوار مع ايدن كي يطرح من حصص بريطانيا العظمى ، ويهب الاتحاد السوفيتي مغنماً أعظم في كل بلد في أوروبا الشرقية ما خلا هنغاريا .

وثمة الكثير الذي يرثي هذا الجهد البريطاني . ما رسمت مناطق النفوذ ، قط ، على أساس مئوي ، في أي عهد تصرم ، ولم تحظ بأي معيار لمعرفة رغبتها ، وليس ثمة ما يرسخ كيانها ، فالنفوذ يتجلى بحضور الأطراف المتنازعة . وبهذه الشاكلة ارتمت اليونان الى أحضان النفوذ ، شاءت أم أبت ، بينما أمست سائر الدول جمعاء - ما خلا يوغسلافيا - توابع لروسيا بصرف النظر عن النسب المئوية . وحتى حرية العمل اليوغسلافي لم تأت ثمرة للاتفاق الروسي - البريطاني ولكن من حقيقة خضوعها للاحتلال الروسي ردحاً قصيراً من الزمن وعتقها خاصة مناضليها الغزو الألماني العسكري أثر جهد جبار .

وعندما أزف مؤتمر يالطا ، في شباط عام ١٩٤٥ ، لم يتبق أمر معلقاً في الاتفاق بين تشرتشل وستالين . كان الجيش الروسي ، لحظتئذ ، يحوز المناطق المتنازعة ، برمتها ، ويجرد الحدود على نحو واسع ويتدخل ، أعظم التدخل ، في التدبيرات الداخلية لكافة الدول المحتلة .

كان على روزفلت ، الذي ساءت صحته وتدهورت كثيراً ، أن يحلق من مالطا الى المطار الثلجي في ساكي ، داخل الكريميا ، وأن يقطع التسعين ميلاً الى يالطا ، في نحو من خمس ساعات في الطرق الوعرة المكسوة بالثلوج . كان منزله مؤلف من ثلاثة غرف في قصر ليفاديا . (كانت ليفاديا ، في سابق الأوقات)

مصيف خريفي مفضل للقياصرة : خطط الكسندر الثاني ، عام ١٨٧٧ ، الانطلاق بغزو منه وفي عام ١٩١١ شيد نيقولا الثاني قصراً أبيض من الجرنيت فوق الجراف المطلة على البحر الأسود ، التي غدت موقع مؤتمر الثلاثة السود ٠

لم تتغير أساليب المؤتمرين مع مستجدات الأمور ٠ اعترى القلق تشرتشل في مناقشة التدبيرات السياسية لما بعد الحرب ، ولكنه غلب على أمره حيث جاهد زميلاه ليحقق كل منهما برنامجه المنفصل ٠ سعى روزفلت للموافقة على اجراء انتخابات الأمم المتحدة اشراك الاتحاد السوفيتي في حرب ضد اليابان ٠ اغتبط ستالين كثيراً لمناقشة الموضوعين كليهما فرفيقاه قد سلخا من الوقت ما يحول دون التطرق لأمر أوروبا الشرقية وكان أيضا ، متلهفاً (وليس غير مكترث ، كما يخال بعض الأميركان) للانخراط في حرب ضد اليابان ، الأمر الذي يقدره على مشاطرة غنائم هذا النصر ٠

كان جل اهتمام تشرتشل في توازن القوى الأوروبي وأراد أن تؤوب فرنسا الى مصاف القوى العظمى ، وناضل دون انقسام المانيا ، وسعى الى خفض التعويضات التي طالبت بها روسيا ٠ وبالرغم من ظفر تشرتشل في هذه الأصعدة الثلاثة ، كان ثمة انتهاكات لنظام شرقي أوروبا - فالجيش الأحمر قد أقدم ، بتصرفاته ، على عرقلة النظام يومياً ٠

وقتئذ نصل ستالين السكين التي سيبقر بها حيلة روزفلت في تخلي الاتحاد السوفيتي عن بعض الامتيازات ، كي لا يحل على روزفلت غضب معارضةشعبه :

" اذا ما سأل روزفلت ستالين على تمليك البولنديين مدنية لفوف ، كي تقر أعين الناقدين البولنديين داخل أميركا ، سيرد ستالين بالسمع والطاعة ولكن أوكرانيي بلده سيخلقون له معضلة لن يلقى لها جواباً " .

وافق تشرتشل وروزفلت ، في نهاية المطاف ، على حدود روسيا لعام ١٩٤١ ، وقد آلمت هذه الخطوة تشرتشل لأن بلده قد تجند الحرب ليصون وحدة بولندا الاقليمية . وتمت الموافقة أيضاً على نقل حدود بولندا الغربية لتيمم شطري نهري الأودر والنيس وأن يترك الطرف الأخير في نهر النيس عالقاً ، فثمة نهران يحملان الأمم ذاته . أيد تشرتشل وروزفلت حكومة لوبلن الموجودة في موسكو شريطة أن تتوسع وتستوعب بعض الشخصيات الديمقراطية من الحكومة البولندية المنفية التي قاعدتها في لندن .

كان تنازل ستالين لحلفاءه اعلاناً مشتركاً لأوروبا المتحررة ، الامر االذي تعهد باقامة انتخابات حرة حكومات ديمقراطيه شرقي أوروبا . ومن الجلي أن ستالين خال وعده بالانتخابات الحره أن تكون بالطراز الروسي ، خاصة أن الجيش الأحمر ما برح يغزو الدول المعنية . وهذا ما حصل تماماً بالرغم من تقديرات ستالين الخائبة في معرفة صدق الأميركان لما يضاهونه لوثائقهم القانونية . وعندما قررت أميركا تجنيد مقاومة للتوسع السوفيتي ، كان مرد الأمر لتملص ستالين من الايفاء بوعده - كما وعد في يالطا وتفهمها القادة الأميركان وعامة الشعب .

وأجلى رد فعل ستالين لمنشادة روزفلت في ولوج الحرب ضد اليابان المدى الذي تباينت فيه أحكام روزفلت وستالين عن لعبة الائتلاف . وفي النقاش الذي

برحه تشرتشل - بالرغم من أن بريطانيا العظمى قد رزحت من الضحايا الأول للاعتداء الياباني - لم يصد أيما أمر عن خلاصة وحدة الحلفاء أو تفادي القضايا السياسية كي يبسط الأمر لاستبصارات الشرطة الأربعة . ولم يحسس ستالين بذرة من المنعة عن المجاهرة بخاصة مكاسبه ولما تدور رحى الحرب ، وشاء أن ينقذ ستراتيجيا ، لا عاطفيا . ومبعث التعويض الذي طالب به ستالين ، دونما خجل ، الى أيام القياصرة الروس .

كان لمطالبة ستالين بالشطر الجنوبي من جزيرة ساخالين وجزر كوريل صلة أكيدة ، وأن غامضة ، مع الأمن السوفيتي وتاريخ البلاد ، أما سعيه للحصول على موانيء حرة في الداريـن وفي ميناء آرثر وحق في ادارة الخطوط الجوية المنشورية لذي نزعة صريحة لامبرياليي قياصرة هذا القرن الاوائل . والأمر الأبهم في قرار روزفلت ما وهبه من هذه الأمور باتفاق سري يسمو الى اعادة الدور المهيمن السابق لروسيا على منشوريا ، الذي فقدته في الحرب الروسية - اليابانية - ولم تكن لتخسره ريثما احتل الشيوعيون الصينيون بكين عام ١٩٤٩ .

لقد تهلل الجميع بالنصر غداة مؤتمر يالطا وأكد روزفلت ، عندما أطلع الكونغرس ، على الاتفاق الذي انتهوا اليه بما يخص الأمم المتحدة من دون اقرار للمستقبل السياسي لأوروبا أو آسيا . وها هي كرة أخرى في هذا الجيل ، يؤوب رئيس أميركي من أوروبا مبشراً بخاتمة التاريخ . وأكد :

" كان على مؤتمر يالطا أن يلفظ أنفاس نظام العمل الفردي ، والأحلاف العازلة ، ومناطق النفوذ ، وتوازنات القوى ، وكل الحيل الدائرة نحواً من

قرون – التي خابت بالفشل دائماً . لقد آثرنا أن نبوأ محلها ، كما اقترحنا ، منظمة عالمية تنضوي تحت لواءها ، نهاية المطاف ، كل دولة تؤثر السلام . وكلي ثقة أن شعب أميركا وكونغرسه سيؤيدان مخاضات هذا المؤتمر كانطلاقة لهيكل سلام آبد " وبعبارة أخرى وهب روزفلت ستالين منطقه نفوذ في شمالي الصين كي يشدد أزره في المشاركة في النظام العالمي الذي يعد مناطق النفوذ عديمة الجدوى .

وعندما أسدل الستار عن مؤتمريالطا ، كان الاحتفال معقوداً لوحدة حلف الحرب ، حسب ، اذ لم يكن ثمة استبصار غائر للأصداع التي تتقرح بفعل الزمن القادم . وخيم الهدوء مستتباً وكان " العم جو " نظيراً مرحاً . وعبر هاري هوبكن ، في معرض تعليقه عم مؤتمر يالطا ، عن قلقه أن ستالين ، المتزن ، ربما يرزح متبعجاً جراء ضغوط المتطرفين في الكرملن :

" لقد برهن الروس سعة عقولهم وعظيم تبصرهم وليس ثمة أدنى شك يعتمل في خاطر الرئيس أو خاطري بأن نحيا معاً ونمضي معاً بسلام شطر مستقبل أقصى مما يتصوره الجميع . ولي أن أدلي بتفسيري لهذا الأمر – أعتقد أن الكل متحفظ من استبصار المآلات لو طرأ طاريء لستالين – فكلنا على ثقة بفقهه ورشده وحساسيته – ولكن لن تقر أعيننا قط لما يحاك له من وراء كواليس الكرملن " .

أكدت أميركا ، عندما دنت الحرب من نهايتها ، على أهمية العلاقات الخاصة بين الرؤساء ووجود التوافق الأساسي بين الأمم . ووصف روزفلت مبدأه ، في خطابه الافتتاحي الرابع في ٢٠ كانون الثاني عام ١٩٤٥ :-

" السبيل الواحد لتخطي بصدين ، أن تغدو وحيداً " ووصف روزفلت ستالين ، بعد مؤتمر يالطا ، الى الوزارة بأن " ثمة أمر آخر الى جانب ثوريته البلشفية ، يدب فيه " . وأعزى هذه السمة لتعليم ستالين المبكر سعياً للكهانة " أحسب أن ثمة أمر ولج طبيعته بمثلى ما ينبغي لمهذب مسيحي أن يتصرف " .

ومع ذلك كان ستالين سيد صنعة السياسية الواقعية ، لا مسيحياً مهذباً . وبتقدم زحف جيشه ، كان يفعل ما أخبر به ملوفان ديلاس ، القائد الشيوعي ليوغسلافيا :

" ليست الحرب الآن ، كسابقاتها ؛ فمن يظفر بأرض ، يفرض عليها خاصة قانونه الاجتماعي ، وكل امرء بميسوره أن يشدد النظام حيثما تنتهي اليه جيوشه . اذ ليس ثمة خيار آخر " .

كانت قواعد لعبة ستالين جليه ، دراماتيكياً ، في المراحل الأواخر للحرب . حث تشرتشل ايزنهاور ، في نيسان عام ١٩٤٥ ، على احتلال برلين وبراغ وفيينا قبل دبيب الجيوش الروسية لها . لم تأخذ رئاسة الأركان الأميركية هذا الطلب نصب أعينها ، فهو الفرصة الخاتمة لتفقيه حليفتهم بريطانيا أن الحاجة للتخطيط العسكري لا تبقرها الحسابات السياسية :

" على المغانم السياسية والنفسية ، المتمحضة من احتلال برلين قبل الروس ، أن لا تمتطي تبصرنا العسكري الآمر الذي نراه في سحق القوات المسلحة الألمانية وتدميرها شذر مذر " .

كان دحض هيئة الأركان الأميركية لمناشدة تشرتشل أمراً من مبادئهم اذ ليس ثمة عقابيل لجيوش المانية كبيرة كي يسحقوها أو يدمروها . لقد استشعر رؤساء الأميركان برباطة جأش عظيم لموقفهم بحيث تجشم ايزنهاور عناء الأبراق مباشرة الى ستالين ، في ٢٨ آذار عام ١٩٤٥ ، يعلمه بوقف الزحف الروسي على برلين وأقترح أن يتلاقى الجيشان على مقربة من درسدن .

وهب أننا أشحنا جانباً طبيعة الأهمية السياسية لأمر كهذا ، نرى من المدهش ، يقيناً ، أن ينبري جنرال ليخاطب زعيم دولة في أيما موضوع فأنى يكون الأمر اذا كان ستالين ، الذي ما دأب على تفويت غنائم سياسية مجانية ؟ رد ستالين ببرقية الى ايزنهاور ، في الأول في نيسان ، أعلمه بالموافقة على طلبه لأنه ، أيضاً ، عد برلين ذات أهمية استراتيجية ثانوية ولن يرسل لاحتلالها الا بضعة من القوات وأيد الاتصال على طول الألب ، المنطقة العامة لدرسدن . واذ درت ناقة النصر حليبها استبقهم ستالين كي يفصح أن له ، في أدنى احتمال ، أسبقياته السياسية . لقد وعد ستالين ايزنهاور فأخلف وعوده لأنه قد أمر القوه الرئيسية الروسية بشن هجوم بري صوب برلين ، ووهب المارشالين ، زوكوف وكدنيف ، أسبوعين لاضرام الهجوم . لقد تعهد لايزنهاور أنه لن يطلق هذا الهجوم حتى الشطر الثاني من آيار .

وفي نيسان من عام ١٩٤٥ ، أي بعد غداة ثلاثة أشهر من مؤتمر يالطا ، أصبحت انتهاكات ستالين لاعلان أوروبا الحرة مفضوحة ، خاصة مسألة بولندا فبعث اليه تشرتشل ببرقية حزينة يناشده فيها باسم " صديقي العزيز ستالين " . وأيد تشرتشل اقتراح ستالين على تسريح الأعضاء المناوئين للاتحاد السوفيتي من الحكومة البولندية الجديدة وناشده على ادراج بعض أعضاء الحكومة البولندية في المنفى ، داخل لندن ، ولما يخضعوا لاختبار ستالين . ووقتئذ ، غدا التبرأ من العواطف المناوئة ليس بكاف لستالين لأنه قد أبى الا حكومةً ودية برمتها . ورد ستالين في الخامس من آيار عام ١٩٤٥ :

" لن تقر لنا عين وثمة من سيطرز مستقبل الحكومة البولندية أسمائهم . وهؤلاء ، كما نعتهم أنت ، " لا يناؤون الروس جوهراً " أو أولئك الذين يجب عزلهم من تشاطر هذا العمل كما تراهم أنت " متطرفين في عدائهم لروسيا " ، وهذه الخصال لن تطيب خاطري . أننا نصر ، ونظل نصر ، على استقبال أولئك الذين طابت أساريرهم وآرائهم من الاتحاد السوفيتي ، ليتشاوروا في صياغة مستقبل الحكومة الروسية أولئك الذين على أهبة صادقة ، أمينة ليتعاونوا مع هذا البلد ".

والصفات " فعال " و " صديق " تنعت أعضاء الحزب الشيوعي البولندي ، وتنحدر من بينهم لتخص حصراً أعضاء الحزب الخانعين تماماً لمشيئة موسكو - وبعد أربع سنوات تمت تصفية حتى المستمرين بالحزب الشيوعي ، طيلة حياتهم ، باتهامهم بميول وطنية .

ولكن أثمة خيار استراتيجي عملي ؟ أو فعلت الديمقراطيات ، كل ما تدخر من وسع ، لتهب الواقعيات العسكرية والجغرافية النابضة بالحيـاة ، ذلـك الوقـت ؟ وهذه استفهامات مؤلمه لأننا ، لو استرجعنا شريط الأحداث ، نرى أنها مسـيرة . فكلما تصدعت الفرجة ، يصعب تصور أية نتيجة خيارية أو برهنتها .

كان أمر استعادة الاتحاد لحدود عام ١٩٤١ محتوماً فالسياسة الغربية الأكثر ديناميكية قد أصـابت تحويـرات مؤكـدة بحيـث أن عـودة الاستقـلال ، في بعـض صيغه ، لدول البلطيق ربما ارتبط مع الاتحاد السوفيتي بمعـاهدات المسـاعدة المتبادلـة وتواجد القواعد العسكرية السوفيتية . واذا ما كتـب لهـذا الأمـر وقعـاً ، سيكون حتماً في الفترة الثانية بين عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢ ولما الاتحاد السوفيتي نيوس علـى شفا الكارثة . كان بديهياً أن يقحم روزفلت صاغة السياسة الروسية علـى عـبء خيارات مشؤومة عندما لم تلج أميركا الحرب بعد وكانت روسيا قد قاب قوسـين أو أدنى من شفا السقوط .

وغداة معركة ستالينغراد ، أمست مسألة مستقبل أوروبا الشرقية لا تبعـث بالخطر على انهيار روسيا أو انحدار سلامها مع هتلر فكان ثمة مبغى لتوطيد الهيكـل السياسي للدول القابعة خلف الحدود الروسية واستتباب حالة لهذه الدول تماثل مـا لفنلندا .

فهل يقدم ستالين على عقد معـاهدة منفصلـة مـع هتـلر اذا كـانت مسـألة الديمقراطيات جد ملحة ؟ ان ستالين لن يحدق البتـه مثـل هـذا الخطـر بـالرغم مـن محاولة تصويره امكانية ذلك . وثمة حادثان جليـان يرجحـان حسـابات سـتالين في

اتفاق منفصل . يعود أولهما الى الأيام البواكر للحرب حيث بلغ الرعب الزبى ، ويقال أن ستالين ومولوتوف وكاكانوفيش قد سألوا السفير البلغاري للتداول مع هتلر بامكانية تسويه مسألة دول البلطيق ، وبيسارابيا وأجزاء من بيلوروسيا والأوكرين - التي هي في حقيقتها حدود روسيا لعام ١٩٣٨ - ولكن السفير المزعوم ، أبى بث الرسالة الى هتلر . ويقيناً أن هتلر سيدحض مثل هذا الغزو ولما تشق جيوشه طريقها نحو موسكو وكييف ولينينغراد ، فهي قد تخطت ما اقترحه " عرض السلام " - لو كان الأمر حقيقة . صبا النازيون الى اخلاء سكان الاتحاد السوفيتي حتى الخط الكائن بين أرشانجيل وآستراخان ، القاصية كثيراً عن موسكو .

ويكتنف الابهام الكبير الحدث الثاني الذي حصل أيلول عام ١٩٤٣ ، غداة هجوم ستالينغراد بثمانية أشهر ، وبعد معركة الكرسك بشهرين ، التي أتت على أعظم القدرة الهجومية الألمانية . قص ريبنتروب حكاية غريبة على هتلر ، وقال له أن نائب وزير الخارجية الروسي ، السفير في برلين سابقاً ، في زيارة الى ستوكهولم . رأى رينتروف في ذلك فرصة لعقد محادثات استطلاعية عن معاهدة السلام المنفصلة الخاصة بحدود عام ١٩٤١ . ويقيناً أن في هذا الأمر ، تقريباً ، تفكير متبصر ، لا سيما أن الجيوش الروسيه ما برحت تدنو من حدود على ١٩٤١ ، وفي جهتها . دحض هتلر هذه الفرصة وأجز وزير خارجيته :

" أنت تعرف ، ياريبنتروب ، انني لو عقدت اتفاقاً مع روسيا اليوم ، سأهاجمها غداً - انني حقيقة ، مغلوب على أمري " . وأسرى هتلر الى غوبلز ، في الأمر ذاته بأن الوقت ليس " أهلاً تماماً " . لأن نصراً عسكرياً حاسماً

سيستبق المفاوضات . لم يني هتلر ، حتى عندما بلغ عام ١٩٤٤ عتيه ، مؤمناً بغزو روسيا ، غداة ما يرد الجبهة الثانية على أعقابها " .

والأسمى من كل ذلك أن السلام المنفصل ، حتى على امتداد حدود عام ١٩٤١ ، لن يدر نفعاً الى ستالين أو هتلر . سينقل هذا الأمر ستالين بازاء المانيا المتراس وثمة احتمال أن الديمقراطيات ، في صراع آخر ، ستطلق شريكها الغادر . وسيحسب هتلر ذلك زحفاً لجيوش الروس شطر المانيا دونما ضمان أنهم لن يضرموا فتيل حرب في أول فرصة .

أعتور مفهوم روزفلت عن الشرطه الأربعة بالعقبة ذاتها التي أدركت تفقه ولسون الأشمل عن الأمن الجماعي : لن يتفقه الشرطة الأربعة مراميهم العالمية بالسبيل ذاته . وترجم ستالين ، التبلور المشوه للجنون والفكر الشيوعي والامبريالية الروسية ، فكرة الشرطة الأربعة المعززة شطراً من سلام العالم على أساس القيم المشتركة بأنه فرصه روسية أو شرك رأسمالي . وأدرك أن بريطانيا العظمى ، بكيانها وحدها ، لن تسمو الى الكفه المقابلة للاتحاد السوفيتي وهذا الأمر من شأنه أن يخوي هوة شاسعة قبالة الاتحاد السوفيتي أو يأزف بمواجهة ثانية مع الولايات المتحدة (وهذا ما أرتأى ستالين أن يبغيه في اعتباراته المرحجة ، سيما أنه بلشفي من الجيل الأول) . وبازاء كل احتمال ، تصرف ستالين بأسلوب جلي : سيقذف بالقوة الروسية غرباً ، ما وسعته قدرته سبيلاً ، لكي يصيب غنائمه ويتبوأ أجود مواقع الاتفاق على الحسم الدبلوماسي القادم .

لم تكن أميركا ، لهذه العله ، على أهبة الاستعداد لاستقبال مخاضات فكـرة الشرطه ، التي ألهما رئيسها . واذا ما قدر لها أن تعمل ، كتب عليها التدخل اينمـا تهـدد الأمـن . ومـع ذلـك لم يسـر روزفلـت الى حلفـاءه أن القـوات الأميركيـة ومواردها لن تتوظب لاستتباب أمن أوروبا ، أو أن تتجشم بريطانيا روسـيا مهمـة اقامة السلام . أخبر رفاقه في مؤتمر يالطا أن الجيوش الأميركية لن تمكث أكثر من سنتين في عملية الاحتلال .

واذا كان هذا ضرباً مـن الحقيقـة ، سيمسـك الاتحـاد السوفيتـي بهيمنـة أوروبا ، مخلفاً بريطانيا العظمى في فخ لاحـول لـها عليـه ولا قـوة . فهـي ، مـن جهة ، ما أمست قادرة بالدرجة التي تكفي لتحافظ ، بذاتها ، على تـوازن القـوى قبالة الاتحاد السوفيتي . ومن ناحية أخرى ستواجه ، بشـكل مرجـح ، معارضـات أميركية تقليدية مهما كانت مبادرتها . فمثلاً ذكرت صحيفة النيويورك تايمز ، في كانون الثاني عام ١٩٤٥ ، اتصالاً سـرياً بـين روزفلـت وتشرتشـل حـول مسـعى بريطانيا لاقامة حكومة غير شيوعية في اليونان . وطبقاً للتقرير ، أوضـح روزفلـت المسألة تماماً بأن الشعب الأميركي لا يطيب له كثيراً التعاون بين أميركـا وبريطانيـا في فترة ما بعد الحرب ، وقال : " **تفقه الانكليز ، بـالقوة والسـلطة ، أن الطبـاع ستتغير كحال طقس بريطانيـا ، لـو أطلـع الأميركـان علـى فكـرة هـذه الحـرب ....كصراع آخر بين الامبرياليات المتناحرة** " .

ولكن اذا أمسكت أميركا عن مدافعة أوروبا ، ونعتـت محـاولات بريطانيـا الفردية بالامبريالية ، ستفضي فكرة الشـرطة الأربعـة الى الصـدع ذاتـه الـذي حـل بمفهوم الأمن الجماعي في ثلاثينيات هذا القرن . وريثمـا يتغـير الفكـر الأمـيركي ،

ستتعذر مقاومة التوسع الروسي . ففي الوقت الذي أمسكت أميركا بخناق هذا الخطر ودخلت الشجار كرة أخرى ، كان المآل ذاته : مناطق النفوذ التي جاهدت أميركا ، أشد الجهاد ، لتحول دونها أبان الحرب ، بالرغم من أنها على خط أقل تمايزاً . وعادت أميركا الى أوروبا وآبت اليابان والمانيا لكي يساهما في بناء التوازن كرة أخرى بينما سلخ الاتحاد السوفيتي خمساً وأربعين سنة من التوتر والاشباع الاستراتيجي فأفضى ذلك الى انهياره الأخير .

شكلت آسيا معضلة عويصة أخرى . لقد أدرج روزفلت الصين ضمن الشرطة الأربعة لأنها ، شطراً ، تتسم باللطف وستنتصب ثقلاً آسيوياً لطرازه العالمي ، في الشطر الآخر . ومع ذلك كانت أضعف قدرة من بريطانيا العظمى في تجشم المهمة التي أناطها روزفلت . كانت الصين بانتهاء الحرب ، بلداً متخلفاً نتيجة لرزايا الحرب الأهلية فأنّى لها ، اذن ، أن تمتهن شرطية عالمية ؟ عندما طرح روزفلت فكرة الشرطة الأربعة في قمة طهران ، أثار ستالين سؤالاً معقولاً عن الصدى الأوروبي اذا ما حاولت الصين حسم نزاعاتها . وأضاف أنه يراها غير أهلاً الى الدرجة التي تتبوأ فيها دوراً عالمياً وأقترح أن يحل محلها تكوين للجان اقليمية كي تقيم السلام . دحض روزفلت هذا الاقتراح لأنه يجنح صوب مناطق النفوذ ، وعلى السلام أن يصان بأساس عالمي والا لن يكون بتاتاً .

واذ بانت الغموضات الحائطة بروزفلت ، يبقى التساؤل عن أية طريقة من شأنها قيادة تأييد الشعب الأميركي ، فالأميركان ما فتئوا ، على الدوام ، يؤمنون أن نظاماً يستند للرفض الواضح للمباديء الديمقراطية قد يقلب المسعى عاليه سافله

أكثر من تفقههم لحلول السلام السابقة - لم تفلح أي منها ، واقعاً ، أما دون توازن أو دامت أيما ردح من الزمان بلا تصويت أخلاقي .

برهن تحليل تشرتشل الجيوسياسي دقة أعظم من خاصة روزفلت . فأكتراث روزفلت على ابصار هذا العالم بصيغ جيوسياسية كان الطرف النقيض للمثالية ذاتها التي قذفت بأميركا الى الحرب وقدرتها على حماية قضية الحرية . فلو طرق روزفلت ما رآه تشرتشل ، لأحسن من حال أميركا المفاوض ولكن ذلك قد ينحر قدرتها على مواجهات الحرب الباردة التي تلوح قادمة .

كان تخطي روزفلت للحد المعهود له شرطاً لمبادرات جليلة تعيد بها أميركا التوازن العالمي - بالرغم من أن الولايات المتحدة قد نفت في الوقت حقيقة هذا الأمر . كان تفقه روزفلت عن عالم ما بعد الحرب فارط التفاؤل ، ولكننا اذا تصفحنا السفر الأميركي نرى هذا الموقف صورة لمرحلة هامة تعوزها أميركا للتحول اذا ما شاءت الاطاحة بالأزمة القادمة . لقد جرجر روزفلت مجتمعه ، في نهاية المطاف ، الى أهول أزمتين من تاريخه ويقيناً أنه ما فلح لهاتين الرزيتين لوما تشبعه المتضخم بفكرة المماشاة التاريخية .

وأسدل ستار الحرب بصدع سياسي ، لأنه أمر محتوم . لقد استحال توازن القوى اشلاءً وبقيت معاهدة السلام الشاملة حائرة فتشطر العالم الى معسكرات ايديولوجية ستستحيل في فترة ما بعد الحرب الى صراع مرير واسع لتحقيق التسوية التي تردد القادة لأمرها قبيل اختتام الحرب .

المحتويات الكتـــاب

هنري كيسنجر

الدبلوماسيّة

من القرن السابع عشر حتّى بداية الحرب الباردة

هذا الكتاب الذي وضعه شخص له في السياسة طويل باع ومبدأ لا يخفى على القاص والداني يتصفح الدبلوماسية من افقها الواسع بدءاً من الشمولية فالتوازن. . . مصلحة الدولة. . . فالنظام العالمي الجديد. لقد صور كاتبه، اروع الصورة، تاريخ اوروبا السياسي والدبلوماسي، وتاريخ العالم بمثل ما يرى في الموشور من تعداد الالوان فكان ناقداً طوراً، ومحللاً طوراً، ومستعرضاً الاحداث بكل دواخلها وبواعثها وما يحكى وراء كواليس في الطور الثالث.

يصدر الجزء الثاني من هذا الكتاب وعنوانه:

الدبلوماسية من الحرب الباردة حتى يومنا هذا

ونشير ان الجزء الثاني من هذا الكتاب وعنوانه الدبلوماسية من الحرب الباردة حتى يومنا هذا سيصدر عن الاهلية للنشر والتوزيع قريباً.

الأهلية للنشر والتوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص. ب ٧٧٧٢ - هاتف ٦٣٨٦٨٨
فاكس ٦٥٧٤٤٥ ◆ منشوراتنا في العام ١٩٩٥ م
◆ الغلاف: زهير أبو شايب.